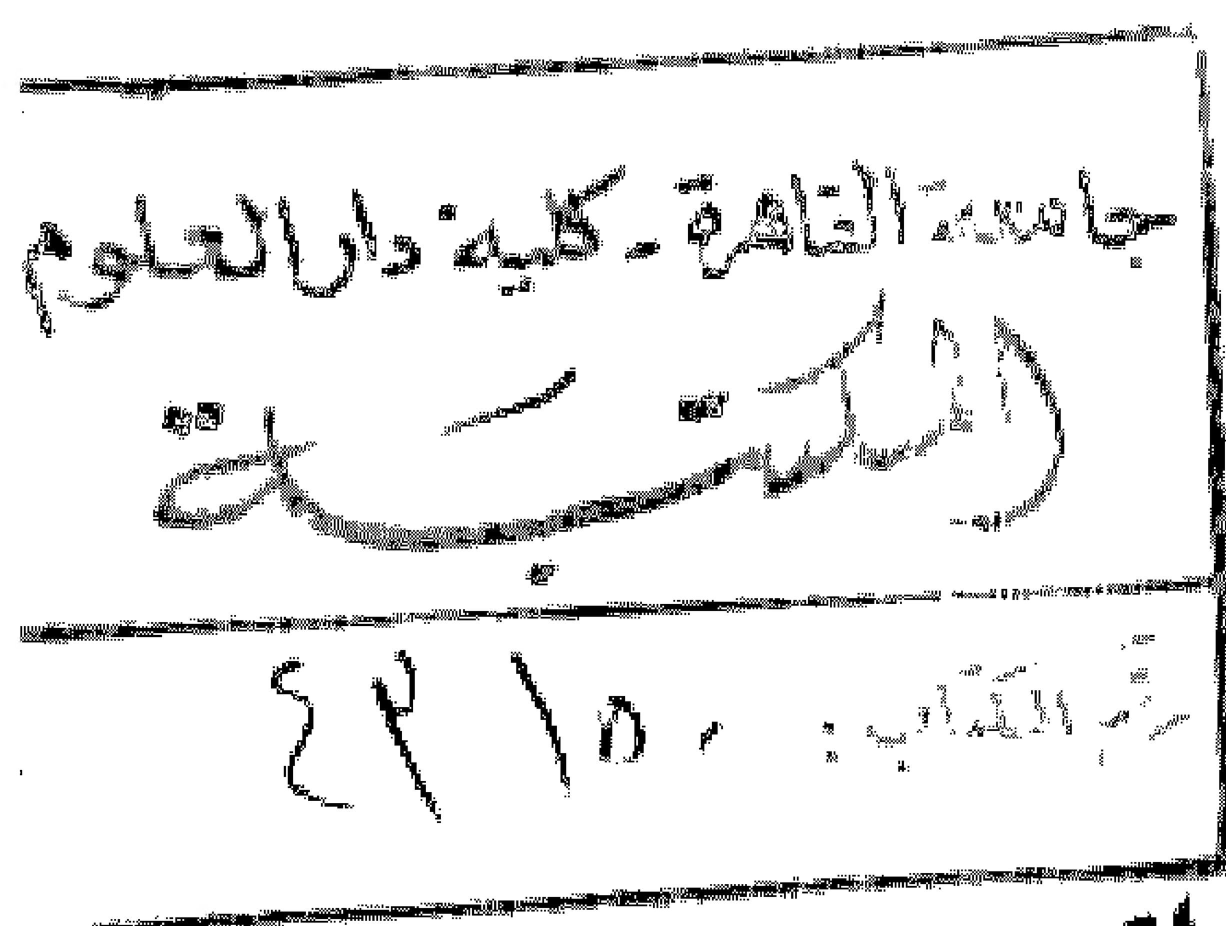
النحو العربى

نشأته . تطوره . مدارسه . رجاله



تأليـف

د. صلاح رواى

أستاذ النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : النحو العربي نشأته تطوره مدارسه رجاله
المؤلف : د. صلاح رواي
رقم الإيداع : ٢٢٠٣
تاريخ النشر : ٢٠٠٣
الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977 - 215 -700 - 4

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، فاتحة كل خير ، وتمام كل نعمة ؛ والصلاة والسلام على أشرف النبيين وخاتم المرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله ، الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، والتابعين وتابع التابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ...

فإن اللغة العربية هى معجزة الله اختص بها العرب دون سائر شعوب الأرض ، لتكون وعاء لكتابه الكريم الذى أنزله على رسوله الأمين ، قانونًا سماويًا لينظم للناس أمور حياتهم ومعيشتهم فى عالم الشهادة ، ليفوزوا بالنعيم والثواب فى عالم الغيب ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1] .

والدليل على أن اللغة العربية معجزة إلهية ، وليست من وضع البشر كغيرها من سائر لغات العالم ، أن لغات الشعوب جميعها قد توصل علماء اللغات إلى معرفة كيفية نشوئها ، وتطورها – ارتفاعًا وانحطاطًا – ومن أسهم فى تطورها ، حتى انتهت إلى ما هى عليه الآن .

أما اللغة العربية فلم يقف أحد حتى اليوم على طريقة نشأتها ، وماذا كانت بدايتها ، وكيف تطورت حتى أصبحت لغة للتخاطب والتفاهم بين العرب ، وكل ما قيل فى هذا الصدد إن هو إلا تخرصات وافتراضات ليس لها ما يدعمها من أدلة أو أسانيد ، فمن قائل إنها توقيف من الله – تعالى – مستدلا بقوله –

(١) سورة إبراهيم : آية ٤ .

عز شأنه – : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1]. ويمثل هذا الفريق أحمد بن فارس القزوينى.

ومن قائل إنها اصطلاح وتواضع، أخذها الناس من أصوات الطبيعة، والطيور، والحيوانات، ويمثل هذا الفريق الثانى أبو الفتح عثمان بن جنى[2].

ومن المفسرين من ذهب إلى أن لغة أهل الجنة هى اللغة العربية، ومنهم من قال بأن آدم – عليه السلام – وبنيه كانوا يتخاطبون باللغة العربية، وأن نسلهم ظل يتكلمها حتى زمن طوفان نوح – عليه السلام – حيث انساح بنوه فى الأرض بعد أن استوت السفينة على الجودى بأرض بابل، فنزل سام بآسيا، ونزل حام بأفريقيا، وتبع كلا منهم من تبعه من ركاب السفينة، ثم بعدت الشقة بينهم، فاختلطت ألسنتهم، وتعددت اللغات فيما بينهم بعد ذلك.

وحينما أراد المؤرخون وعلماء اللغة أن يؤرخوا لبداية اللغة العربية لم يجدوا من النقوش والآثار ما يفيدهم فى ذلك، فأرادوا أن يؤرخوا لها بأول قصيدة وصلتهم من العصر الجاهلى، فكانت قصيدة امرئ القيس بن حجر الكندى التى قالها قبل الرسالة المحمدية بمائة عام، فأرخوا لها بما قبل الإسلام بمائة عام، ثم عثروا على قصيدة لمهلهل بن ربيعة – خال امرئ القيس – قالها قبل الإسلام بمائة وخمسين عامًا، فأرخوا لها بقرن ونصف قبل الإسلام؛ وانتهوا إلى أن بداية اللغة العربية ترجع إلى قرن ونصف أو قرنين قبل الإسلام.

ولكن بإمعان النظر، وإعمال الفكر، يتضح على وجه من السهولة واليسر أن ما ذهب إليه هذا الفريق لا يمثل الحقيقة فى شىء، وإنما يعد من قبيل الحديث المرسل الذى لا يعوَّل عليه، ولا تبنى عليه حقيقة مقنعة، إذ إن ما وصلنا من إنتاج أدبى من العصر الجاهلى سواء كان منذ قرن أو قرنين قبل الإسلام إنما

---

(١) سورة البقرة: آية ٣١ وجزء من الآية ٣٢.

(٢) راجع كتابنا (فقه اللغة): ٤٥ وما بعدها.

يمثل اللغة العربية فى عنفوان شبابها ، وفى حكمة كهولتها ، وفى رصانة اكتمالها ، بحيث نعدها الآن نموذجًا يحتذى للغة الفصحى العالية ، وما زلنا حتى يومنا هذا نتخذ هذا الإنتاج الأدبى – شعرًا ونثرًا – معينًا لا ينضب لبحثنا ودراستنا – نحوًا وصرفًا وبلاغة وفصاحة – نستخرج منه نكتًا فوائد ، ودررًا فرائد نترسمها ونحتذيها فيما نقوم به من بحوث ودراسات .

هذا فضلاً على أننا لو تتبعنا حركة تطور جميع لغات البشر ، لوجدنا أنها تتطور من الأدنى إلى الأعلى ، حيث تبدأ بالحرف ثم الكلمة ثم الجملة ، ثم العبارة ، ثم الأسلوب إلى أن تنتهى إلى ما هى عليه الآن . أما اللغة العربية فإنها تتطور من الأعلى إلى الأدنى ، أى من الذروة فى الفصاحة ، والمثل الأعلى للفصحى العالية الذى وصلنا من العصر الجاهلى ، ثم تنحدر شيئًا فشيئًا كلما بعد الأمد بيننا وبين هذا المثل الأعلى إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من عدم استطاعة دارسينا إقامة جملة عربية صحيحة ، وهذا على نقيض أسلوب التطور الذى ينطبق على سائر لغات البشر.

كانت هذه مقدمة أردت أن أبين فيها أن اللغة العربية – لغة القرآن الكريم – لها سمة متفردة ، تختلف فيها عن غيرها من لغات البشر ، وهى أنها معجزة من الله – تعالى – اختص بها العرب دون غيرهم من شعوب الأرض . ومن ثم فهى تستمد جوهرها وقداستها ، وعوامل بقائها ، من القرآن الكريم الذى لا يخلق على كثرة الرد ، والذى تعهد الله – جل ثناؤه – بحفظه وبقائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] .

ونظرا لما للغة العربية من هذه المكانة السامية دون سائر اللغات ، فإن البحث فيها ، والتصنيف فى فروعها ، وإعمال الفكر فى حكمتها وإبراز أسرارها ، يعد نوعا من العبادة ؛ وقد رأيت – بحكم تخصصى – أن هناك من صنف فى نشأة النحو ، ومن صنف فى أصوله ، وعلله ، ومن صنف فى مدارسه ، ومن ترجم

---

(١) سورة الحجر : آية ٩.

لعلمائه ، ومن صنف فى اختلافات النحاة ، كل ذلك فى مصنفات مستقلة ، منفصل بعضها عن بعض ، مما يضطر الباحث والدارس إلى أن يستقرئ كل مصنف على حدة ، وأن ينتقل من كتاب إلى آخر ، مما يؤدى إلى تشعيب المعلومات ، وتشقيق الأفكار ، وتشتيت الذهن ، ثم محاولة الربط بين هذه المعلومات المتناثرة ، فى عهد أصبح فيه الجميع يبحث عن المعرفة فى أوجز صورة ، وتحصيلها من أقرب طريق .

ومن ثم فقد رأيت أن ألم شعث بعض هذه المصنفات ، وأجمع شتات بعض هذه المؤلفات بين ضفتى مصنف واحد ، قد يجد الباحث أو الدارس فيه الغناء عن العديد من المصنفات التى قد تثقل كاهله – ماديًا وتحصيلاً – وسميته (النحو العربى – نشأته ، وتطوره ، ومدارسه ، ورجاله) ؛ ومن أراد الاستزادة ، وكثرة الإفادة ، فعليه بالمطولات فى كل فرع من هذه الفروع ، إن ساعده الوقت والجهد والمادة .

والأمل معقود على توفيق الله – تعالى – فيما أقدمت عليه ، وأن يتحقق به النفع للباحثين والدارسين للنحو العربى ، بما يحفظ للغة العربية مكانتها وقدسيتها ، إذ هى الطريق إلى فهم كتاب الله الكريم وسنة نبيه الصادق الأمين .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل ،،،

حدائق القبة فى ١٥ يوليه سنة ٢٠٠٠

دكتور

صلاح رواى

تمهيد

[١]

الحاجة إلى علم النحو

نشأت اللغة العربية فى أحضان جزيرة العرب خالصة لأبنائها ، نقية سليمة مما يشينها من أدران اللغات الأخرى ؛ ولبثت كذلك أحقابًا مديدة ، كان العرب فيها يغدون ويروحون داخل بلادهم – على ما هم عليه من شظف العيش – غير متطلعين إلى نعيم الحياة وزخارفها فيما حولهم من بلاد فارس والروم وغيرها ، وإن دفعتهم الحاجة إليها أحيانًا ، وتبادل المنافع أحيانًا أخرى[١] .

وكان العربى فى هذه البيئة النقية ينطق اللغة العربية الفصحى بسليقته ، ويتعامل بها مع بنى جلدته بفطرته التى جبل عليها دون تكلف أو تعمُّل ، حيث كان الطفل يشب فى هذه البيئة العربية الخالصة ، فيسمع لغة سليمة ، خالية من الأخطاء ، فلا يكون من العسير عليه أن ينطقها كما سمعها ، وأن يعبر بها عن خواطره ومشاعره وشئون حياته فى سهولة ويسر ، لا يجد فى ذلك عناء ، ولا يعانى منها نصبًا[٢] ، إذ السمع سبيل الملكات اللسانية ؛ وليس أدل على هذه السليقة التى لا تعرف الخطأ من رد الأعرابى على من سأله : كيف أهلِك – بكسر اللام – ؟ فقال : صَلْبًا ، حيث أخطأ السائل فكسر (اللام) وكان الصحيح أن يضمها فيقول : كيف أهلُك ؟ حيث أراد الاستفسار عن أهله وعياله .

ولكن الأعرابى أجابه إجابة صحيحة بناء على فهمه .

وحكى الكسائى أنه سأل غلامًا بالبادية : مَن خلقْك ؟ – بجزم القاف – فلم

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٣ .

(٢) مدرسة البصرة النحوية : ٢ .

يدر الغلام ما قال ولم يجبه ، فأعاد عليه السؤال ، فقال الغلام : لعلك تريد : مَن خلقك ؟

وشبيه بذلك ما روى عن الوليد بن عبد الملك حين سأل رجلاً من البادية : مَن ختنك ؟ فقال : فلان اليهودى ، فقال الوليد : ما هذا أردت ، فقال الرجل : لعل أمير المؤمنين يريد : مَن ختنك ؟ وهنا عرف الوليد خطأه ، والختن هو زوج الأخت ، ويطلق على العِدْل[1] .

وقيل لعمر بن لجأ – من شعراء بنى أمية – : قل : إنا من المجرمون منتقمين ، فقال : إنا من المجرمين منتقمون[2] .

ظلت اللغة العربية نقية متماسكة البنيان غير مشوبة بلوثة الإعجام ، إلى أن سطع نور الإسلام على ما حول الجزيرة العربية بالفتوحات الإسلامية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا من فرس وروم ، ثم تتابعت الفتوحات فى عهد الخلفاء الراشدين ، فوصلت فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – شرقًا إلى نهرى السند وجيحون ، وغربًا إلى الشام ومصر : فكان من الطبيعى أن يهبط العرب ، ومعهم عشائرهم وعمائرهم إلى هذه الأمصار التى فتحوها ، ودخلت تحت حوزتهم ، وبحكم الفتح قد كثر تملكهم للموالى فى البلاد المفتوحة عنوة : كما كان من الطبيعى أن يتقاطر الوافدون من هذه الأمصار المفتوحة إلى الجزيرة العربية ، إذ فيها المدينة المنورة حاضرة الإسلام ، ومقر الخلفاء الراشدين وعلية القوم ، وفيها مكة المكرمة وبها الكعبة المشرفة التى يؤمها كل من قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وهكذا ازداد هذا النزوح من الجانبين : كما توالت الفتوح تترى فى عهد بنى أمية ، فلقد بلغت الفتوحات فى عهدهم شرقًا الهند والصين ، وشمالا سيبريا ، وغربا ما وراء جبال البرانس فى الأندلس ، وجنوبا السودان ، كما امتدت إلى جزر البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) العقد الفريد : ٢/ ٤٨٠ .

(٢) البيان والتبيين : ١/ ١٤٦ .

هذه الدولة المترامية الأطراف كانت تخفق عليها الراية الإسلامية التى تآخى تحت ظلها الجميع – الأحمر والأسود – وامحت بينهم فوارق الجنس والوطن ، دينهم الإسلام ، وكتابهم القرآن ، ولغتهم العربية .

وكان من أثر هذه الفتوحات أن اختلط العرب بغيرهم من أهالى هذه البلاد اختلاطا مستمرًا فى البيوت والأسواق والمناسك والمساجد ، وتصاهروا واندمج بعضهم فى بعض حتى تكوّن منهم شعب واحد ، اجتمع فيه الصريح والهجين ، والمقرف والعبد ، واقتضى كل ذلك أن يستمع بعضهم من بعض ، وأن يتفاهموا فى كل ما يتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم فى كل ما يحيط بهم هى العربية ، فكان لزامًا على غير العربى أن تكون لغته العربية ، مهما عالج فى ذلك وعانى ، كما كان لزامًا على العربى أن يترفق بغير العربى ، ويتريث معه فى التخاطب لضرورة التعاون بين الطرفين ، فكل منهما يسمع من الآخر ، والسمع سبيل الملكات اللسانية ، فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع .

وبطول هذا الامتزاج بين العرب وأهالى البلاد المفتوحة تسرب الضعف إلى نحيزة العربى وسليقته ، على أن غير العربى كان ينزع قسرا عنه إلى بنى جلدته وإن طال لبثه بين ظهرانى العرب ، فقد كان فى عهد الرسول ﷺ صهيب يرتضخ الرومية ، وسلمان ينزع إلى الفارسية ، وبلال بن رباح وسحيم عبد بنى الحسحاس يرتطنان الحبشية ؛ تولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب إليها اللحن[1] .

وعن ذلك يقول أبو بكر الزبيدى : «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجًا ، وأقبلوا إليه أرسالاً ، واجتمعت الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية»[2] .

---

(١) راجع فى ذلك : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٤ – ١٥ .

(٢) طبقات الزبيدى : ١ .

ويقول يوهان فك : «والسبب فى ذلك راجع إلى أن العرب لم يلتفتوا إلى الخطأ فى اللغة إلا حين اختلطوا بغيرهم من أهالى البلاد المفتوحة ، وما تبع ذلك من اتخاذ العبيد والجوارى لإدارة المنازل فى العصر الإسلامى المبكر»[1] .

[٢]

اللحن ومظاهره

ترد لفظة (اللحن) فى اللغة للدلالة على معانٍ عدة ، نذكر منها :

(أ) الغناء وترجيع الصوت . وشاهد ذلك قول ابن مخرمة السعدى :

وَهَاتِفَيْنِ بِشَجْوٍ بَعْدَ مَا سَجَعَتْ   وُرْقُ الحَمَامِ بِتَرْجِيعٍ وَإِرْنَانِ
بَاتَا عَلَى غُصْنِ بَانٍ فِى ذُرَا فَنَنٍ   يُرَدِّدَانِ لُحُونًا ذَاتَ أَلْوَانِ

(ب) التورية والرمز . وهو أن تريد الشىء فتورِّى عنه ، أو ترمز إليه بقول آخر ، وشاهد ذلك قول القَتَّال الكلابى :

وَلَقَدْ لَحَنْتَ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا   وَوَحَيْتُ وَحْيًا لَيْسَ بِالمُرْتَابِ

قال الشريف المرتضى : «إنما أراد الكناية عن الشىء ، والتعريض بذكره ، والعدول عن الإيضاح عنه»[2] .

(جـ) اللهجة الخاصة . وشاهد ذلك قول الأعرابية الكلبية :

وَقَوْمٍ لَهُمْ لَحْنٌ سِوَى لَحْنِ قَوْمِنَا   وَشَكْلٌ - وَبَيْتُ اللهِ - لَسْنَا نُشَاكِلُهْ

وقول أبى مهدية ردا على اليزيدى حين قال : «ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله» - برفع (طاعة) - على لغة تميم ، وكان أبو مهدية حجازيًا ينصب خبر (ليس) بعد إلاّ ، فرد على اليزيدى قائلاً : «ليس هذا من لحنى ولا من لحن قومى»[3] . أى : ليس هذا من لغتى ولا من لغة قومى .

---

(١) العربية : ١٠ .

(٢) أمالى المرتضى : ١ .

(٣) مجالس العلماء للزجاجى : ٢ .

(د) الفطنة والذكاء . وشاهد ذلك قول الرسول الكريم ﷺ : «إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ....»[1] . ويؤيد ذلك ما جاء فى الرواية الأخرى : «فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ....»[2] : وقول لبيد يصف غلامًا كاتبًا :

مُتَعَوِّذٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بِكَفِّهِ   قَلَمًا عَلَى عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَانِ

(هـ) معنى القول وفحواه . وشاهد ذلك قوله الله تعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[3] ، أى : فى معناه وفحواه ومذهبه .

(ز) الخطأ فى اللغة . وشاهد ذلك قول الحكم بن عبدل الأسدى فى هجاء حاجب عبد الملك بن بشر بن مروان والى البصرة ، ليحمل الأمير على إقالته :

لَيْتَ الأَمِيرَ أَطَاعَنِى فَشَفَيْتُهُ   مِنْ كُلِّ مَنْ يُكْفِى القَصِيدَ ويَلْحَنُ[4]

وقول يحيى بن نوفل الحميرى فى هجاء خالد بن عبد الله القسرى والى العراق :

وأَلْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قَاطِبَةً   وَكَانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ وَالْخُطَبِ

وقول رؤبة بن العجاج فى مدح بلال بن أبى بردة :

فُزْتَ بِقِدْحَىْ مُعْرِبٍ لَمْ يَلْحَنِ

وقول السيد الحميرى يفخر بشاعريته :

وَإِنِّى لِسَانِى مِقْوَلٌ لَا يَخُونُنِى   وَإِنِّى لِمَا آتِى مِنَ الأَمْرِ مُتْقِنُ
أَخُوكُ وَلَا أُقْوِى وَلَسْتُ بِلَاحِنٍ   وَكَمْ قَائِلٍ لِلشِّعْرِ يُقْوِى وَيَلْحَنُ[5]

---

(١) صحيح مسلم : ١٣٣٧ .
(٢) المصدر السابق : ١٣٣٨ .
(٣) سورة محمد : من الآية ٣٠ .
(٤) الإكفاء فى الشعر : أن يخالف بين قوافيه ، بعضها ميم وبعضها نون ، وبعضها دال وبعضها طاء .
(٥) الإقواء فى الشعر : أن يخالف بين حركات الروى ، فيكون بعضها مضمومًا وبعضها مجرورًا .

ولعل هذا المعنى الأخير للحن ، وهو الخطأ فى اللغة قد ظهر متأخرًا عن غيره من المعانى الأخرى ، حيث لم تظهر الحاجة إليه إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، وتنبه العرب إلى شيوع الخطأ فى لغتهم العربية ، حيث يقول يوهان فك :

«وأغلب الظن أنه – أى اللحن – استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب – بعد اختلاطهم بالأعاجم – إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون»[1] .

ومن ثم جاء تعريف أحمد بن فارس القزوينى للحن بقوله :

«فأما اللحن – بسكون الحاء – فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية ، يقال : لحن لحنًا ، وهذا عندنا من الكلام المولد ، لأن اللحن محدث ، لم يكن فى العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة»[2] . ويقول الزبيدى :

«ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجًا ، وأقبلوا إليه أرسالاً ، واجتمعت الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية»[3] .

كما عرَّف الزمخشرى أيضًا اللحن بمعنى الخطأ فى اللغة ، حيث قال : «لحن فى كلامه ، إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ»[4] .

---

(١) العربية : ٢٤٥ .
(٢) معجم مقاييس اللغة : ٥/٢٣٩ .
(٣) طبقات الزبيدى : ١ .
(٤) أساس البلاغة : مادة (لحن) .

مظاهر اللحن :

اتخذ اللحن فى اللغة مظهرين متمايزين هما :

(أ) الخطأ فى الأصوات والصيغ والبنية ، ويمكن أن نطلق عليه : الخطأ فى الصرف .

(ب) الخطأ فى الإعراب ، ويمكن أن نطلق عليه : الخطأ فى النحو .

أما النوع الأول فقد جرى على ألسنة الموالى والعبيد والجوارى ، تبعًا لما ألفته ألسنتهم فى البيئات التى نشأوا فيها ، مما يخالف ما هو موجود فى اللغة العربية من أصوات وصيغ وبنية الكلمة ، فضلاً على الأصوات التى توجد فى العربية ولا توجد فى لغاتهم ، فمثال الخطأ فى الأصوات :

١ – النطق بالعين همزة . كما فى قول زياد النبطى لغلامه : «من لدن دأوتك إلى أن قلت : لَبَّىَّ ما كنت تصنأ ؟» أى : من لدن دعوتك إلى أن قلت لبى ما كنت تصنع[1] ؟

٢ – النطق بالحاء هاء . كما فى قول فيل مولى زياد بن أبيه : «أهدوا لنا همار وهش» ، أى حمار وحش ؛ وقول عبيد الله بن زياد والى العراق لهانئ ابن قبيصة : «أهرورى سائر اليوم!» يريد : أحرورى !! ؛ وقول صهيب بن سنان النمرى : «إنك لهائن» يريد : إنك لحائن .

٣ – نطق الشين سينا . كما فى قول سحيم عبد بنى الحسحاس حين أنشد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قصيدته التى مطلعها :

عُـمَـيْـرَةَ وَدِّعْ إنْ تَـجَـهَّـزْتَ غَـازِيًـا ... كَفَى الشَّيْبُ والإسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

فقال له عمر : لو كان شعرك كله هكذا لأجزتك ، فقال سحيم : ما سعرت ، أى : ما شعرت ، فقد نطق الشين المعجمة سينا مهملة .

(١) البيان والتبيين : ٢/٢١٣ .

٤ – نطق القاف كافًا . كما فى نطق أبى مسلم الخراسانى ، وكان جيد الألفاظ ، مليح المعانى ، ولكنه إذا أراد أن يقول : قلت له ، قال : كلت له[١] .

٥ – نطق السين شينا ، والطاء تاء . وذلك كما فى قول زياد بن سليمان أبى أمامة المعروف بزياد الأعجم :

فَتَى زَادَهُ الشُّلْتَانُ فِي الْوُدِّ رِفْعَةً   إِذَا غَيَّرَ الشُّلْتَانُ كُلَّ خَلِيلِ

وهو يريد بالشُّلتان : السلطان[٢] .

ومثال الخطأ فى صيغ الكلمات قول أم نوح زوجة جرير ، وكانت أعجمية : «يا نوح ، جردان دخل فى عجان أمك» وكان الجرد أكل من عجينها .

وقول نخاس أعجمى للحجاج حين سأله : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟! : «شريكاننا من هوازها ، وشريكاننا من مداينها ، وكما تجىء تكون» يريد : شريكاتنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب ، فنحن نبيعها على وجوهها»[٣] .

ومثال الخطأ فى بنية الكلمة قول زياد النبطى حين سئل : لم ابتعت هذه الأتان ؟ : «أركبها وتلَد لى» – بفتح اللام – وهو يريد : وتلِد لى – بكسرها فى العربية – .

وقال يوسف بن خالد السمتى لعمرو بن عبيد : ما تقول فى دجاجة ذبحت من قفائها ؟ فقال له عمرو : أحسن ، قال : من قفاؤها ، قال : أحسن ، قال : من قفاءها ، قال عمرو : ما عنَّاك بهذا ؟ قل : من قفاها واسترح[٤] .

---

(١) المصدر السابق : ١/ ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) البيان والتبيين : ١/ ٧٤ .
(٣) عيون الأخبار : ٢/ ١٦٠ .
(٤) البيان والتبيين : ٢/ ١٦٨ .

وكان لرجل بالبصرة جارية تسمى (ظمياء) ، فكان إذا دعاها قال : يا ضمياء – بالضاد – فقال له ابن المقفع : قل يا ظمياء ، فناداها : يا ضمياء ؛ فلما غيَّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثًا ، قال له : أهى جاريتى أم جاريتك[1] ؟

ولكن ذلك النوع من اللحن ، وهو الخطأ فى الأصوات أو الصيغ أو البنية ، والذى كان يجرى على ألسنة الموالى والعبيد والجوارى ، لم يكن بالأمر الذى يقلق علماء العربية ، ويقض مضجعهم ، ويجعلهم ينهضون للتصدى له ومقاومته ، إذ لم يكن له كبير خطر على اللغة العربية ، ولا التأثير فيها ، والخروج بها عن جادة الصواب التى ألفها العربى بسليقته وفطرته ، فلم تكن هذه اللكنات التى كانت تعترى نطق الموالى والعبيد والجوارى لتعدو نطق قائلها ، رغم وجودهم بين ظهرانى أهالى البيئات العربية الخالصة المعترف بسلامة لغتها ، فبلال بن رباح الذى كان يرتطن الحبشية ، وصهيب الرومى الذى كان يرتضخ الرومية ، وسلمان الفارسى الذى كان ينزع إلى الفارسية وغيرهم ، كانوا يعيشون فى مكة ، وكانت لكل منهم لكنته الخاصة ، ولم يقل أحد إن هذه اللكنة كانت موضع اعتبار بين العرب ، وكان لها أثرها فى أبنائهم ، فليس يعنينا أن يبدل أحدهم الحاء هاء فيقول : هانن بدل حانن ، أو الشين سينا فيقول : سعرت بدل شعرت[2] .

إذن فليس ذلك النوع من اللحن المفسد للغة ، أو الدال على ضعفها وفسادها ، وليست تلك اللكنة بالتى تجعل العربى يفزع خوفًا على لغته ، ويحاول أن يلتمس لها الضوابط والمعايير ليحفظ عليها صحتها ونقاءها ، اللهم إلا أن يفعل ذلك المتشددون منهم[3] . وفى هذا يقول ابن جنى : «إلا أنهم أشد استنكارًا لزيغ الإعراب ، منهم لخلاف اللغة ، لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا ينكرها ، إلا أن أهل الجفاء وقوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم زيغ الإعراب»[4] . وعن هذا يقول يوهان فك :

(١) المصدر السابق : ٢/١٦٧ .
(٢) مدرسة البصرة النحوية : ٤ .
(٣) المصدر السابق : ٥ .
(٤) الخصائص : ٢/٢٦ .

«ومن أول حواريى الرسول يعد بلال الحبشى أول مؤذن فى الإسلام ، وهناك صحابى قديم آخر من صحابة الرسول – صهيب بن سنان – وهو وإن كان عربى الأصل ، إلا أنه اختطفه البيزنطيون فى طفولته فربوه ، ولذلك كان ينطق العربية بلكنة بيزنطية ، كما يروى عن معاصر ثالث للرسول – سحيم المشهور بعبد بنى الحسحاس الشاعر المشهور – كان يرتطن لكنة أجنبية .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان عدد أمثال هؤلاء الأجانب من القلة بحيث لم يكن لهم تأثير فى طابع العربية ؛ ولكن الأمر بالنسبة إلى أسرى الحروب فى العهد الأول للفتوحات الإسلامية كان على صورة أخرى ،فقد كان عدد هؤلاء وفيرًا ، وأخذ فى الازدياد ، إذ كانوا يتمتعون بحقوق النسب والمصاهرة»[1] .

أما النوع الثانى من اللحن ، وهو الخطأ فى إعراب الكلمات ، فقد عرف بأَخَرَةٍ ، حيث لم يتنبه له العرب إلا بعد أن فتحوا الأمصار ، ودانت لهم الأقطار ، واختلطوا بأهالى هذه البلاد المفتوحة اختلاطًا مستمرًا فى البيوت والأسواق والمناسك والمساجد ، وتصاهروا ، واندمجوا ، حتى تكوّن منهم شعب واحد ، واقتضى كل ذلك أن يستمع بعضهم من بعض ، وأن يتفاهموا فى كل ما يتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم فى كل ما يحيط بهم هى العربية ؛ فكان لزامًا على غير العربى أن تكون لغته العربية ، مهما عالج فى ذلك وعانى ، كما كان لزامًا على العربى أن يترفق بغير العربى ، ويتريث معه فى التخاطب لضرورة التعاون بين الطرفين ، فكل منهم يسمع من الآخر ، والسمع سبيل الملكات اللسانية ، فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع .

ويطول هذا الامتزاج تسرب الضعف إلى نحيزة العربى وسليقته ، على أن غير العربى كان ينزع قسرًا عنه إلى بنى جلدته ، وإن طال لبثه بين ظهرانى العرب . تولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب إليها اللحن ، ووهنت الملاحظة الدقيقة التى تمتاز بها ، وهى اختلاف المعانى طوعًا لاختلاف شكل آخر الكلمة ،

---

(١) العربية : ١٢.

فإن هذه الميزة كانت موفورة لديهم وهم بعيدون عن مخالطة سواهم من ذوى اللغات الأخرى التى هى خِلْو منها ، ولقد كان هذا النوع أول اختلال طرأ على اللغة العربية منذ كان الإسلام ، وكان الموالى والمتعربون[1] . وفى هذا يقول الزبيدى :

«ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجًا ، وأقبلوا إليه أرسالاً ، واجتمعت الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حليها والموضح لمعانيها»[2] . وقال أبو الطيب اللغوى : «واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب ، فأحوج إلى التعلم : الإعراب»[3] . ويقول يوهان فك :

«ولا يزال ينقصنا بعد كلٍّ دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ فى الكلام ، وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب – بعد اختلاطهم بالأعاجم – إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون»[4] .

وأما مظاهر الخطأ فى الإعراب ، ففضلاً على ما سبق ذكره فى معرض حديثنا عن السليقة العربية[5] ، وما سوف يأتى الحديث عنه من أسباب وضع علم النحو[6] ، فنذكر شيئًا مما أثر عن العرب الخُلَّص منه ، حيث إن ذلك هو ما كان يخشى منه على اللغة العربية ، فمن ذلك :

قول الوليد بن عبد الملك لغلامه – وكان بحضرته عمر بن عبد العزيز – : يا

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٥ (بتصرف) .
(٢) طبقات الزبيدى : ١ .
(٣) مراتب النحويين : ٥ .
(٤) العربية : ٢٤٥ .
(٥) راجع ص : ٧ .
(٦) انظر ص :

غلام ، ادع لى صالح . فقال الغلام : يا صالحا ، فقال الوليد : ويحك يا غلام ، أنقص من صالحك ألفا ! فقال عمر : وأنت يا أمير المؤمنين ، فزد فى صالحك ألفا[1] .

ودخل رجل على الحسن يسأله بعض المال فقال له : يا أبو سعيد ، فقال الحسن : أحسب أن الدوانيق[2] شغلتك عن أن تقول : يا أبا سعيد[3] .

وسئل أبو حنيفة – وكان لحانا ، على أنه كان فى الفتيا ولطف النظر واحد زمانه – : ما تقول فى رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده به ؟ فقال : لا ، ولو ضربه بأبا قبيس[4] .

وكان بشر المريسى – وهو رأس فى الرأى – يقول لجلسائه : قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجود وأهنؤها[5] .

[٣]

نفور العرب من اللحن

ونظرًا لخطورة هذا النوع من اللحن على اللغة العربية ، وكبير أثره فى النيل منها ، وشدة مجافاته للسليقة العربية ، ومخالفته للفطرة السليمة التى جبل عليها العربى ، كان العرب يأنفون منه ، ولا يستسيغونه ، بل ينفرون منه ، ويأخذونه على من يقترفه ، حتى كانوا يحصون اللحانين عدًا ، ويعرفونهم بأسمائهم ، وينبهون عليهم ، ليتحرزوا منهم ، وينظروا فيما يسمعونه منهم بعين التمحيص والتدقيق : فممن نصوا عليهم وحددوا أسماءهم : الحجاج بن يوسف الثقفى ، والوليد بن عبد الملك ، وبشر بن مروان ، وخالد بن عبد الله القسرى ،

---

(١) العقد الفريد : ٢/٣٠٩ ، والبيان والتبيين : ٢/١٦٧ مع اختلاف يسير .
(٢) الدوانق : يقصد بها الدراهم . والدانق . سدس الدرهم .
(٣) العقد الفريد : ٢/٣٠٩ .
(٤) المصدر السابق : ٢/٣١٠ ، وأبو قبيس : جبل قريب من مكة .
(٥) المصدر السابق : ٢/٢٣١١ ، والبيان والتبيين : ٢/١٦٨ .

وعبد العزيز بن مروان ، وعيسى بن المدور ، والحصين بن أبى الحر العنبرى ، وخالد بن صفوان الأهتمى ، ومهدى بن مليل[1] .

ومن مظاهر إنكار العرب للحن ، ونفورهم منه :

قول الرسول الكريم ﷺ عندما لحن رجل بحضرته : «أرشدوا أخاكم فقد ضل»[2] .

وقوله – عليه الصلاة والسلام – : «أنا أفصح العرب ، ولدت فى قريش ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فأنّى يأتينى اللحن ؟!»[3] .

وقول أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – : «لأن أقرأ فأسقط أحب إلىّ من أقرأ فألحن»[4] .

ومر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – على قوم يسيئون الرمى ، فقرّعهم ، فقالوا : إننا قوم متعلمين ، فأعرض مغضبًا وقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد علىّ من خطئكم فى رميكم[5] .

ولقد روى أن أبا موسى الأشعرى – وهو واليه على البصرة – أرسل إلى عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه كتابًا ، وقد بدأه كاتبه أبو الحصين بن أبى الحر العنبرى بقوله : من أبو موسى الأشعرى ... فكتب إليه عمر : أن قنّع كاتبك سوطا[6] .

وسمع أعرابى مؤذنًا يقول : أشهد أن محمدًا رسولَ الله – بنصب (رسول) ، فقال له : ويحك ! يفعل ماذا ؟![7] .

---

(١) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٣٠ .
(٢) كنز العمال : ١/١٥١ .
(٣) المزهر : ٢/٢٤٦ .
(٤) الخصائص : ١/١٠٨ .
(٥) معجم الأدباء : ١/٨٢ .
(٦) الخصائص : ٢/٨ .
(٧) عيون الأخبار : ٢/١٥٨ .

ودخل أعرابى السوق ، فسمعهم يلحنون ، فقال : «سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح»[1] .

وروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : إن كتاب عمر بن الخطاب أتاهم وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء وذكر منها : «تعلموا العربية ، فإنها تشيب العقل ، وتزيد فى المروءة» ومنها : «تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تعلمون القرآن»[2] .

وروى عن مالك بن أنس بن مالك أنه قال : «الإعراب حَلْىُ اللسان ، فلا تمنعوا ألسنتكم حليها»[3] .

وقال أبان بن عثمان بن عفان : «اللحن فى الرجل السَّرِى كالتغيير فى الثوب الجديد»[4] .

وقال مسلمة بن عبد الملك : «إنى لأحب أن أسأل هذا الشيخ – يعنى عمرو ابن مسلم – فما يمنعنى منه إلا لحنه»[5] .

وقال عبد الملك بن مروان : «اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب ، والجدرى فى الوجه» ، وقيل له : لقد عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، فقال : «شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن» .

وقال عبد الملك أيضًا : «الإعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة على الشريف» .

وقال رجل للحسن : إن لنا إمامًا يلحن ، فقال : أميطوه[6] .

كما كان العرب يعيبون على اللحانين أنهم يلحنون ، ويعيرونهم بلحنهم ،

(١) معجم الأدباء : ١/٨٠ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٣ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر نفسه : ٤ .
(٥) البيان والتبيين : ٢/١٧١ .
(٦) العقد الفريد : ٢/٣٠٨ .

ومن ذلك قول الحكم بن عبدل الأسدى فى هجاء حاجب عبد الملك بن بشر بن مروان والى البصرة ، ليحمل الأمير على إقالته :

لَيْتَ الأمِيرَ أطَاعَنِى فَشَفَيْتُهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُكْفِى القَصِيدَ وَيَلْحَنُ [1]

وقول يحيى بن نوفل الحميرى فى هجاء خالد بن عبد الله القسرى والى العراق :

وَألْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قَاطِبَةً وَكَانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ وَالخُطَبِ [2]

وكانوا – أيضًا – يفخرون بأن اللحن لم يتسرب إلى كلامهم ، وأنهم مبرأون من هذه الهجنة الذميمة ، فمن ذلك قول رؤبة بن العجاج مفاخرًا بفصاحته ، وذلك فى أرجوزته التى قالها فى مدح بلال بن أبى بردة :

فُزْتُ بِقِدْحَىْ مُعْرِبٍ لَمْ يَلْحَنِ [3]

وقول إسماعيل بن محمد الشهير بالسيد الحميرى مفاخرًا بمقدرته على قرض الشعر ونظم القصيد :

وإنِّى لِسَانِى مِقْوَلٌ لاَ يَخُونُنِى وَإنِّى لِمَا آتِى مِنَ الأَمْرِ مُتْقِنُ
أَحُوكُ وَلاَ أُقْوِى وَلَسْتُ بِلاَحِنٍ وَكَمْ قَائِلٍ لِلشِّعْرِ يُقْوِى وَيَلْحَنُ [4]

واضح مما سبق أن جرثومة اللحن قد انتشرت فى الحاضرة ، حتى أصبح الناس يعدون اللاحنين وينبهون إليهم [5] ، كما صاروا يتهاجون باللحن ، ويتفاخرون ببراءتهم منه ، وكذلك أخذوا يعدون الفصحاء ممن لم يتسرب اللحن إليهم ، ولم يظهر فى كلامهم ، حيث يقول الأصمعى :«أربعة لم يلحنوا فى جد

---

(١) الحيوان : ١/١٤٩ .
(٢) البيان والتبيين : ٢/١٧٠ .
(٣) لسان العرب : مادة (لحن) .
(٤) الموشح للمرزبانى : ١٤ .
(٥) راجع ص .

ولا هزل : الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ، والحجاج أفصحهم»[1] .

ومعلوم أن الحجاج كان فى الذروة من الخطابة والبيان والفصاحة والبلاغة إلا أنه كان يلحن فى حرف واحد من القرآن الكريم ، حيث كان يقرأ قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم وَإِخْوَانُكُم وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ...﴾[2] برفع (أحب) ، والوجه أن تقرأ بالنصب لأنها خبر (كان) ؛ وهو ما نبهه إليه يحيى بن يعمر حين سأله الحجاج : أتسمعنى ألحن ؟ قال يحيى : ألا ربما سبقك لسانك ببعضه فى آن وآن ، قال : فإذا كان ذلك فعرفنى[3] .

ثم ما لبثت جرثومة اللحن حتى انتقلت من الحاضرة إلى البادية ، حيث روى الجاحظ أن أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى ، وأول لحن سمع بالعراق : حىٌ على الفلاح[4] .

وقال ابن السكيت : «زعم الفراء أن أول لحن سمع بالعراق : هذه عصاتى»[5] .

لكل هذا الذى تقدم من شيوع اللحن وانتشاره فى الحواضر ، ثم انتقاله إلى البوادى ، لم يعد ثمة بد من أن يهتم الخلفاء والولاة لهذا الأمر ، وأن يلجئوا إلى العلماء ليضعوا الضوابط والقوانين التى تعصم الألسنة من الخطأ ، وتقى اللغة من الفساد ؛ وبهذا يحفظون لغتهم سليمة نقية ، وهم بهذا لا يحرصون على سلامة اللغة فحسب ، وإنما يحاولون كذلك أن يحققوا هدفًا أسمى ، وغاية أعظم ؛ إنهم يخشون أن ينتقل هذا الفساد إلى القرآن الكريم ، فيناله التحريف والتغيير ، وبذلك يضيع ذلك الدستور الإسلامى العظيم ، ثم لا يؤمن أن تضيع معالم الدين بعده .

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٧ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٢٣ .

(٣) العقد الفريد : ٢/٣٠٨ .

(٤) البيان والتبيين : ٢/١٧٢ . والصواب : عصاى – بفتح الياء – ، وحىَّ – بفتح الياء مع التشديد .

(٥) إصلاح المنطق : ٢٩٧ .

هم حراص إذن على ألا يدخل اللحن والتحريف إلى القرآن الكريم، كما أنهم حراص على ألا يدخل اللحن والتحريف إلى السنة النبوية: فقد يظل القرآن سليمًا نقيا لأنهم حريصون على سلامته، وقد تظل السنة النبوية كذلك سليمة نقية، ولكن اللغة إذا فسدت أو حرِّفت أو بعدت عن أصلها الذى نبعت منه، وإذا تحولت - بمرور الزمن، واختلاف اللهجات والبلاد - شيئًا جديدًا، فإنها - دون شك - لن تعين على فهم القرآن والسنة، لأن لغتهما ستصبح شيئًا مستغلقًا مبهما، وستكون - على فرض حفظها واستيعابها - ألفاظًا تلقى، وعبارات تقال، دون أن يكون لها أثرها المرجو منها، ودون أن تعقب الفائدة المترتبة عليها[1].

فما بالك إذن وقد انتقل اللحن فعلاً إلى القرآن الكريم، كما فى قراءة الحجاج لآية التوبة[2]، كذلك ما رواه أبو الحسن من أن الحجاج كان يقرأ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمُونَ مُنتَقِمُونَ﴾[3]، وما رواه أبو الحسن أيضًا بقوله: كان سابق الأعمى يقرأ: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوَّرُ﴾[4]، فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق، ما فعل الحرف الذى تشرك بالله فيه؟

قال أبو الحسن: وقرأ: ﴿وَلَا تَنكِحوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾[5]، قال ابن جابان: وإن آمنوا أيضًا لم ننكحهم.

وروى الجاحظ أن الحسن غلط فى حرفين من القرآن مثل قول: ﴿ص وَالقرآنِ﴾[6]، والحرف الآخر: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونَ﴾[7].

---

(١) مدرسة البصرة النحوية: ٧ (بتصرف).

(٢) راجع ص ٢١.

(٣) سورة السجدة: من الآية ٢٢. والصحيح: «إنا من المجرمين منتقمون».

(٤) سورة الحشر: من الآية ٢٤. والصحيح: «المصوِّر» بكسر (الواو) مع التشديد.

(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٢١. والصحيح: «ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا».

(٦) سورة ص: من الآية الأولى. حيث قرأها الحسن (صادِ) وهى قراءة شاذة.

(٧) سورة الشعراء: من الآية ٢١. وهى قراءة شاذة، قال ابن جنى: وعلى كل حال فالشياطون غلط (المحتسب: ٢/١٣٣).

فكان لا مفر من وضع علم النحو.

وفى هذا يقول ابن خلدون : «اعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ، فلابد أن تصير ملكة متقررة فى العضو الفاعل لها ، وهو اللسان ، فى كل أمة بحسب اصطلاحاتها ، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد ، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعيُن الفاعل من المفعول والمجرور ... فصار للحروف فى لغاتهم والحركات والهيئات – أى الأوضاع – اعتبار فى الدلالة على المقصود ، غير متكلفين فيه بضاعة يستفيدون ذلك منها ، إنما هى ملكة فى ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول ، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا .

فلما جاء الإسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان بأيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع ، وخشى أهل العلم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا ، ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها أنواع الكلام ، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعرابًا ، وتسمية الموجب لذلك التغيير عاملاً ، وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم ، فقيدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة ، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»[1] .

★ ★ ★

(١) مقدمة ابن خلدون : ٤٠٣ (الباب السادس : فى العلوم ... علم النحو) .

الباب الأول
وضع علم النحو

اختلف العلماء – حيال وضع علم النحو – فى أمور ثلاثة ، كلها جديرة بالاعتبار والنظر وهى :

(أ) متى وضع علم النحو ؟

(ب) هل كان وضعه عربيًا محضًا ، أو متأثرًا بغيره من ثقافات أمم أخرى غير العرب ؟

(جـ) من واضعه الأول ؟

الفصل الأول

متى وضع علم النحو ؟

بالنسبة للأمر الأول ، فقد اختلف العلماء حياله فريقين :

فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن وضع النحو كان في الصدر الأول للإسلام ، إذ إن علم النحو ككل قانون تتطلبه الحوادث ، وتقتضيه الحاجات ، ولم يكن قبل الإسلام ما يحمل العرب على النظر إليه ، فإنهم في جاهليتهم غنيون عن تعرفه ، لأنهم كانوا ينطقون عن سليقة جبلوا عليها ، فيتكلمون في شئونهم بدون إعمال فكر ، أو رعاية قانون كلامي يخضعون له ، قانونهم ملكتهم التي خلقت فيهم ، ومعلمهم بيئتهم المحيطة بهم ، بخلافهم بعد الإسلام ، إذ تأشبوا بالفرس والروم والنبط وغيرهم ، فحل بلغتهم ما هال الغُيُرَ عليها وعلى الدين ، حتى هرعوا إلى وضع النحو على النحو الذي تقدم ... وكان وضعه ونشوؤه بالعراق ، لأنه على حدود البادية ، وملتقى العرب وغيرهم ، توطنه الجميع لرخاء الحياة فيه ، فكان أظهر بلد انتشر فيه وباء اللحن الداعي إلى وضع النحو ؛ وما حاجة العرب في بوادي الحجاز إذن ، وما برحت لغتهم فصيحة ؟!(1) .

وذهب فريق آخر إلى أن العرب كانوا يتأملون مواقع الكلام ، وأن كلامهم ليس استرسالاً ولا ترجيحًا ، بل كان عن خبرة بقانون العربية ، فالنحو قديم فيهم ، أبلته الأيام ثم جدده الإسلام على يد أبي الأسود الدؤلي بإرشاد الإمام عليّ – كرم الله وجهه – ويمثل هؤلاء العلماء أحمد بن فارس القزويني(2) الذي

---

(1) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٩ .

(2) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، ولد بهمذان ثم رحل إلى قزوين ، ثم حمل إلى الري ليقرأ عليه مجد الدولة بن بويه الديلمي ، رحل إلى بغداد لطلب الحديث ، ثم أقام بالري بقية حياته حيث توطدت علاقته بالصاحب بن عباد ، فألف كتابه (الصاحبي) ووسمه باسمه ، توفي بالري في سنة خمسة وتسعين وثلاثمائة للهجرة ، ودفن قبالة مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (إنباه الرواة : ١/ ٩٥) .

ذهب إلى أن علوم العربية من النحو ومصطلحاته ، والخط ، والعروض كانت معروفة لدى العرب من قديم الزمن، ثم درست وامحت ، ثم جاء الإسلام فجددها وبعثها من جديد ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث نسب ذلك إلى الموقِّف الأول ، وهو الله – تبارك وتعالى – حيث يقول :

«إن لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله – جل ثناؤه – : «وعلم آدم الأسماء كلها»[1] ... وقف الله – جل وعز – آدم – عليه السلام – على ما شاء أن يعلمه إياه ، مما احتاج إلى علمه فى زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم – عليه السلام – من عرب الأنبياء – صلوات الله عليهم – نبيًا نبيًا ما شاء أن يعلمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – فآتاه الله – جل وعز – من ذلك ما لم يؤته أحدًا قبله ، تمامًا على الذى أحسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قر الأمر قراره ، فلا نعلم لغة بعده حدثت»[2] .

ثم يقول عن الخط : «إن الخط توقيف ، وذلك لظاهر قوله – عز وجل – : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[3] . وقوله – جلَّ ثناؤه – : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[4] ، وإذا كان كذلك ، فليس ببعيد أن يوقف آدم – عليه السلام – أو غيره من الأنبياء على الكتاب ... وقال – جل وعز – : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[5] ، فهل يكون أول البيان إلا علم الحروف التى يقع بها البيان ؟ ولِمَ لا يكون الذى علم آدم – عليه السلام – الأسماء كلها هو الذى علمه الألف والباء والجيم والدال؟»[6] .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٣١ .

(٢) الصاحبى : ٨ .

(٣) سورة العلق : الآيتان ٣ ، ٤ .

(٤) سورة القلم : الآية الأولى .

(٥) سورة الرحمن : ٢ ، ٣ .

(٦) الصاحبى : ١٢ .

ثم يقول عن النحو : «والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض ، والدليل على صحة هذا ، وأن العرب قد تداولوا الإعراب ، أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شَاقَتْكَ أَظْعَانُ لِلَيْلَى دُونَ نَاظِرَةٍ بَوَاكِرْ [1]

فنجد قوافيها كلها - عند الترنم والإعراب - تجىء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقًا من غير قصد لا يكاد يكون»[2] .

ثم يقول عن العروض : «وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفًا معلومًا ، اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا - أو من قال منهم - : إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة - منكرًا عليهم - : «لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر ، هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئًا من ذلك»[3] .

ثم يختم كلامه بقوله : «فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض .

قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديمًا ، وأتت عليهما الأيام ،وقلا فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان»[4] .

إلا أن هذا الرأى الأخير يدعو إلى إمعان النظر ، وإلى مزيد من التمحيص والتدقيق ، لاشتماله على كثير من الخيال والوهم اللذين قد يخرجانه عن دائرة العقل ، بما لا يتفق ومناهج علم اللغة الحديث .

★ ★ ★

(١) ديوان الحطيئة : ١٦٥ .

(٢) الصاحبى : ١٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الصاحبى : ١٣ .

الفصل الثانى

هل وضع النحو عربى محض ؟

وأما الأمر الثانى فقد اختلف العلماء فيه أيضًا فرقًا :

فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن وضع علم النحو عربى محض ، حيث نشأ بالعراق فى صدر الإسلام نشأة عربية على مقتضى الفطرة للأسباب التى دعت إلى وضعه ، والتى تندرج – فى مجملها – تحت ظهور اللحن وشيوعه فى لغة العرب[1] ، ثم تدرج به التطور تمشيًا مع سنة الترقى ، حتى كملت أبوابه ، غير مقيس على لغة أخرى ، لا فى نشأته ولا فى تدرجه[2] : وفى هذا يقول الفيلسوف الفرنسى دى بور :

«إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة فى الملاحظة ، ونشاط فى جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به»[3] .

وذهب فريق من المستشرقين يمثلهم بروكلمان ، ودى بور ، وليتمان ، إلى أن علم النحو منقول من لغة اليونان ، لأن وضعه فى العراق إنما كان بعد اختلاط العرب بالسريان ، وتعلمهم ثقافتهم ، وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان[4] ، حيث يقول الدكتور إبراهيم مدكور :

---

(١) راجع ص ١٠ وما بعدها .
(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢١ .
(٣) فى اللغة والأدب للدكتور إبراهيم مدكور : ٤١ .
(٤) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢١ .

«وضع النحو السريانى بمدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى ، ولا شك فى أن هذا النحو تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم ، فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى ، وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل صديق للخليل ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية ، خصوصًا وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية»[1] .

ثم يقول الدكتور مدكور : «وجدنا أنه عرفت مؤلفات فى النحو العربى قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا ، وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة ، التى اضطلع بها أمثال عيسى بن عمر الثقفى ، وأبو عمرو بن العلاء ، ولسنا فى حاجة إلى أن نلاحظ أنه مزاج من الأدب والنحو واللغة ، هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض التعبيرات والاستعمالات منه بتقنين القوانين ووضع المبادئ ، فهو لم يقعِّد قطعًا قواعد النحو على الصورة التى قعُدت بها فيما بعد ، وقد مهد له أخيرًا تلك البحوث النحوية التى نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق أرسطو»[2] .

ثم يسوق الدكتور مدكور بعض أوجه الشبه بين مجموعة من قواعد النحو اليونانى كما فى كتاب (الأرجانون) لأرسطو ، ونظيرتها من النحو العربى كما فى كتاب سيبويه : فأرسطو يقسم الكلام إلى : اسم ، وفعل ، وأداة ، وسيبويه يقسمه إلى : اسم ، وفعل ، وحرف ، بينما الكوفيون يسمون الأخير أداة أيضًا ، ثم يعرض لتعريف كل جزء فى الكتابين بما يشير إلى تمام الاتفاق بينهما : ثم يشير إلى أن أرسطو قد تكلم عن التذكير والتأنيث ، والإفراد والجمع ، وتناول بالحديث الإثبات والنفى، والطلب ، والاستفهام ، وتركيب الجملة ، وغيرها[3] .

---

(١) فى اللغة والأدب : ٤٥ .

(٢) المصدر السابق : ٤٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٤ .

ثم يعود الدكتور مدكور فيقول : «ولا يضير النحو العربى شىء أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه ، أو أن يساهم منطق أرسطو فى التوجيه إليه»[1] .

أما الفريق الثالث فيمثله المستشرق ليتمان ، الذى يذهب مذهبًا وسطًا بين الرأيين السابقين ، حيث يرى أن النحو وضع ابتداء عربيًا محضًا ، ثم تأثر بعد ذلك بالفلسفة اليونانية بما أخذه منها من تنظيم فى التقسيم والتعريف والتعليل ، حيث يقول :

«اختلف الأورباويون فى أصل هذا العلم - يعنى النحو العربى - ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك ، وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب ، وهذا هو الذى روى فى كتب العرب من زمن ؛ ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبًا وسطا ... وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء ، وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق ، تعلموا أيضًا شيئًا من النحو ... وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف ، قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا تقسيم أصلى ، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط ، وهذه الكلمات ترجمت من اليونانى إلى السريانى ، ومن السريانى إلى العربى ، فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو ؛ أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت»[2] .

تلك هى الأقوال الثلاثة ، والمعول عليه منها الأول ، إذ الثانى مجرد اختراص وادعاء ، لا هدف له إلا الولوع بالانتقاص من العرب ، والثالث لا يناهض الأول فيما خالفه فيه ؛ فإنه غير مسلم أن يكون علماء العرب عيالاً على غيرهم فيما يتصل بتنظيمه بعد اهتدائهم إلى اختراعه وابتكاره[3] .

---

(١) المصدر نفسه : ٤٧ .

(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٢ (عن محاضرات ليتمان) .

(٣) المصدر السابق .

ثم يبرز على السطح تساؤل آخر حول أول ما وضع من أبواب النحو ، وهذا أيضًا قد اختلف العلماء حياله فريقين :

فقد ذهب الجمهور إلى أن أول ما وضع من أبواب النحو هو ما وقع اللحن فيه ، ثم استمر الوضع فيما بعده على هذا النمط ، وذلك اعتدادًا بالروايات المستفيضة التى اقترن فيها الوضع باللحن ، حيث قيل إنه حينما أخطأت ابنة أبى الأسود فى التعبير عن تعجبها من جمال السماء ، أو من شدة الحر ، وضع باب التعجب ؛ وحينما لحن القارئ فقال : ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئِينَ﴾[1] ، وضع باب الفاعل وحينما لحن القارئ فقال : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾[2] ، وضع باب العطف وهكذا ؛ وكان تعيين الباب الموضوع أولاً منوطًا بالرواية التى قوى سندها من بين سائر الروايات .

وذهب فريق آخر إلى أن أول ما وضع من الأبواب ما كان أقرب إلى متناول الفكر فى الاستنباط ، لأن وضعه مبنى على أساس من التفكير فى استخراج القواعد من الكلام لداعى انتشار اللحن ، فالموضوع أولاً ما كثر دورانه على اللسان ، ثم ما يليه وهكذا ؛ ولذا قيل إلى الموضوع أولاً هو باب الفاعل ، ثم ردفه باب المفعول ، ثم باب المبتدأ والخبر وهكذا[3] .



(١) سورة الحاقة : الآية ٣٧ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٣ .

(٣) راجع فى ذلك : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢١ .

الفصل الثالث

واضع علم النحو

علمنا مما تقدم أن وضع النحو كان فى عصر صدر الإسلام ، ولا ريب أن أول من وضعه كان من رجالات هذا العصر ؛ إلا أن العلماء اختلفوا فيمن هو الواضع الأول له ، يقول السيرافى :

«اختلف الناس فى أول من رسم النحو ، فقال قائلون : أبو الأسود الدؤلى ، وقال آخرون : نصر بن عاصم الليثى ، وقال آخرون : عبد الرحمن بن هرمز ، وأكثر الناس على أبى الأسود الدؤلى»[1] .

ومنهم من نسب إلى ثلاثتهم جميعًا وضع النحو ، يقول أبو بكر الزبيدى : «أول من أصل النحو وأعمل فكره فيه ، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابًا ، وأصلوا أصولاً له»[2] .

ثم إن الزبيدى ينسب وضع النحو إلى كل واحد من الثلاثة منفردًا ، فيقول فى ترجمته لأبى الأسود : «وهو أول من أسس العربية ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها ، وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون»[3] ؛ ويقول فى ترجمته لعبد الرحمن بن هرمز : «كان عبد الرحمن بن هرمز من أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش»[4] ؛ ويقول فى ترجمته لنصر بن

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٣٣ . ويقول ابن الأنبارى «وزعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج ، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم» . (نزهة الألباء : ١٠) .

(٢) طبقات الزبيدى : ١١ .

(٣) المصدر السابق : ٢١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦ .

عاصم :«حدثنا محبوب البصرى عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم ، وهو أول من وضع العربية ...»[1] .

ولكن جمهور العلماء – كابن سلام الجمحى ، وابن قتيبة ، والزجاجى ، وأبى الطيب اللغوى ، والسيرافى ، والزبيدى ، وابن النديم ، وابن الأنبارى ، والقفطى – يجمعون على أن أول من وضع النحو هو أبو الأسود الدؤلى[2] .

وقد انفرد ابن الأنبارى ، والقفطى بنسبة وضع النحو ابتداء إلى الإمام على ابن أبى طالب – كرم الله وجهه – حيث يقول ابن الأنبارى : «اعلم – أيدك الله تعالى بالتوفيق ، وأرشدك إلى سواء الطريق – أن أول من وضع علم العربية ، وأسس قواعده ، وحد حدوده أمير المؤمنين على بن أبى طالب – عليه السلام – وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلى»[3] .

ويقول القفطى : «الجمهور من أهل الرواية على أن أول مَن وضع النحو أمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – ... وأهل مصر قاطبة يرون – بعد النقل والتصحيح – أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلى»[4] .

ويقول فخر الدين الرازى : «رسم على بن أبى طالب – رضى الله عنه – لأبى الأسود باب (إن) ، وباب الإضافة ، وباب الإمالة ، ثم صنف أبو الأسود باب العطف ، وباب النعت ، ثم صنف باب التعجب ، وباب الاستفهام»[5] .

وقال السيوطى : «اشتهر أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب – رضى الله عنه – لأبى الأسود»[6] .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٧ .

(٢) انظر فى ذلك – على الترتيب – : طبقات الشعراء ، المعارف ، الأمالى ، مراتب النحويين ، أخبار النحويين البصريين ، الطبقات ، الفهرست ، نزهة الألباء ، إنباه الرواة .

(٣) نزهة الألباء : ٣ .

(٤) إنباه الرواة : ١ / ٤ ، ٦ .

(٥) المحرر فى النحو : ١٠٠ .

(٦) الاقتراح : ١٠٠ .

وسئل أبو الأسود الدؤلى : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لقفت حدوده من على بن أبى طالب»[1] .

علمنا – مما تقدم – على وجه اليقين ، ومما لا يدع مجالاً للشك أن وضع النحو ابتداء ينحصر فى شخصين لا ثالث لهما ، هما الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وأبو الأسود الدؤلى ظالم بن عمرو بن سليمان .

إلا أننا لا نعدم أن نجد من بين الباحثين العرب المحدثين من يشكك فى هذا الأمر الجلِىّ ، رغم توافر الروايات ، وتطابق أقوال السلف ، وتضافر المؤرخين ، جريا وراء ترهات يتشدق بها المستشرقون دون سند أو برهان .

فهذا هو الأستاذ إبراهيم مصطفى يقول : «ولكنا لا نستطيع أن نتقبل ذلك – يعنى وضع أبى الأسود للنحو – بيسر ، ولا أن نستسيغ أن هذا الزمن المبكر قد تمكن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ووضع القواعد على هذا الوجه الذى نراه فى كتب العربية ، وقد أنكر ذلك المستشرقون وعدوه خرافة ... ويلاحظ أول ما يلاحظ أننا لم نجد فى كتاب سيبويه ، ولا فيما بعده من الكتب رأيًا نحويًّا نسب إلى أبى الأسود ، ولا إلى طبقتين بعده» .

ثم يقول أيضًا : «ويتجلى لنا سبب اختلاط الأمر على الرواة ، وتقدمهم بنسبة النحو إلى أبى الأسود ، أنهم كانوا يريدون بالنحو ضبط الكلام على سبيل العرب وسمتها فى القول ، ولكنهم لما تقدموا فى البحث جعلوا لهذا النحو سببًا ، فقالوا فى الكلمة : ترفع لأنها فاعل ...

ثم دخل عامل آخر وهو هوى بعض المؤلفين ، إذ كانوا يكرهون أن ينسب شئ إلى زياد ، ويحبون أن ينسب كل شىء إلى علىّ وشيعته ...»[2] .

وها هو ذا الدكتور شوقى ضيف – بعد أن يسوق رواية أبى الأسود الدؤلى بأن الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ألقى إليه صحيفة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم وفعل وحرف ...» يقول معلقًا على ذلك :

---

(١) نزهة الألباء : ١٤ .

(٢) مجلة كلية الآداب – المجلد العاشر – : ٢/١ – ٦ .

«فالمسألة لم تقف عند سطور أو بعض أبواب نحوية تذكر مجملة . بل ألفت لتصبح مقدمة أو رسالة صنفها على بن أبى طالب ، وكأنه لم يكن مشغولاً حين ذهب إلى العراق والكوفة بإعداد الجيوش لحرب معاوية ، ولا كان مشغولاً بحرب الخوارج ، إنما كان مشغولاً بالنحو ، ووضع رسومه وأصوله وفصوله ؛ وطبائع الأشياء تنفى أن يكون قد وضع ذلك ، ونفس الرواية السالفة وما أشبهها من الروايات تحمل فى تضاعيفها ما يقطع بانتحالها ، لما يجرى فيها من تعريفات وتقسيمات منطقية لا يعقل أن تصدر عن على بن أبى طالب ، أو عن أحد من معاصريه ، ولعل الشيعة هم الذين نحلوه هذا الوضع القديم للنحو الذى لا يتفق فى شىء وأولية هذا العلم ونشأته الأولى»[1] .

ثم يعود فيقول : «وقد يكون ذلك من فعل الشيعة ، وكأنهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعى قديم ، فارتفع به بعضهم إلى على بن أبى طالب ، ووقف به آخرون عند أبى الأسود ، صاحبه الذى يتشيع له»[2] .

ولكن ما رأى هذين الباحثين فيما يرويه كل من الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ، ومحمد بن إسحق بن أبى يعقوب أبى الفرج المعروف بابن النديم ، من أنهما رأيا بأمّى رأسيهما آثارا مما وضعه فى النحو كل من الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وأبى الأسود الدؤلى ، وهى شهادة سوف يسألان عنها أمام الله – تبارك وتعالى – فى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، وليس ثمة ما يدعوهما إلى الكذب وهما فى سعة من أمرهما ، وفى منأى عن أى تهديد أو اضطرار ، حيث يقول القفطى :

«ورأيت بمصر فى زمن الطلب بأيدى الوراقين جزءًا فيه أبواب من النحو ، يجمعون على أنها مقدمة على بن أبى طالب التى أخذها عنه أبو الأسود الدؤلى»[3] .

---

(١) المدارس النحوية : ١٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٥ .

(٣) إنباه الرواة : ١ / ٥ .

ويقول ابن النديم :

«كان بمدينة (الحديثة)[1] رجل يقال له محمد بن الحسين ، ويعرف بابن أبى بعرة ، جمّاعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات ، فأنس بى - وكان نفورًا ضنينًا بما عنده ، خائفًا عليها من بنى حمدان - فأخرج لى قمطرًا كبيرًا فيه نحو ثلاثمائة رطل جلودًا وصكاك ، وقرطاس مصرى ، وورق صينى ، وورق تهامى ، وجلود أدم ، وورق خراسانى ، فيها تعليقات لغة عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشىء من النحو ، والحكايات ، والأخبار ، والأنساب ، والأمهات ، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم ؛ وذكر أن رجلا من أهل الكوفة - ذهب عنى اسمه - كان مستهترًا[2] بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما ، وإفضال من محمد بن الحسين عليه ، ومجانسته بالمذهب ، فإنه كان شيعيًا .

ثم يقول ابن النديم : «فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبًا ! إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها وأحرفها ، وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة توقيع بخطوط العلماء ، واحدًا بعد واحد ، يذكر فيه خط مَن هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة أو ستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض ، ورأيت فى جملتها مصحفًا بخط خالد بن أبى الهياج صاحب علىّ - عليه السلام - ، ورأيت فيها بخطوط الأئمة من آل الحسن وآل الحسين - عليهم السلام -[3] ؛ ورأيت عنده أمانات وعهودًا بخط أمير المؤمنين علىّ - عليه السلام - ، وبخط غيره من كُتاب النبى ﷺ ؛ ورأيت من خطوط العلماء فى النحو واللغة ، مثل : أبى

---

(١) تطلق (الحديثة) على : حديثة الموصل ، وحديثة الفرات ، وغوطة دمشق ، ونرجح أن المقصودة هى الأولى أو الثانية ، حيث إن ابن النديم كانت إقامته ببغداد ، كما أن صاحب خزانة الكتب أخبره بأنها أهديت إليه من قبل رجل من أهل الكوفة .

(٢) المستهتر بالشىء : المولع به .

(٣) وجد بنسخة أخرى من الفهرست : «ورأيت فيها بخطوط الإمامين : الحسن والحسين» .

عمرو بن العلاء ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وسيبويه ، والفراء ، والكسائى : ومن خطوط أصحاب الحديث مثل : سفيان بن عيينة ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته ، وهى أربع أوراق - أحسبها من ورق الصين - ترجمتها : «هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود - رحمة الله عليه - بخط يحيى بن يعمر» ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : «هذا خط علان النحوى» ، وتحت : «هذا خط النضر بن شميل» .

قال ابن النديم : «ثم لما مات هذا الرجل ، فقدنا القمطر وما كان فيه ، فما سمعنا له خبرًا ، ولا رأيت منه غير المصحف ، هذا على كثرة بحثى عنه»[1] .

ولقد رأيت أن أسوق نص ابن النديم كاملاً تتميما للفائدة ، وتأكيدًا للدليل ، حيث يدل على أن خط أبى الأسود لم يكن هو وحده الذى عثر عليه ابن النديم ورآه بعينيه ، وإنما كان ضمن المئات بل الألوف من الخطوط التى خلفها العديد من علماء اللغة والنحو والحديث والشعر والأخبار والأنساب وغيرها ممن عاصروا أبا الأسود وعاشوا فى زمنه .

فهل يجوز - بعد ذلك - أن يتطرق الشك لذى عقل راجح ، مبرأ من الهوى والزيغ ، أن يكون وضع النحو ابتداء منوطًا بهذين الرجلين دون غيرهما ؟!

صحيح أنه لا يجوز لأحد أن يدعى أن أيا من الرجلين - سواء الإمام علىّ ابن أبى طالب ، أو أبو الأسود الدؤلى - قد قام بوضع أبواب النحو جميعًا بحالتها التى هى عليها الآن ، أو كما وصلتنا فى كتاب سيبويه بما تحويه من تفصيلات وفروع وعلل ، وإنما كانت بدايات لهذه الأبواب ، ورسومًا وتخطيطات لها ، ثم تلقفها العلماء بعدهما ليُضيف إليها كل بما اتفق له ، وتفتقت عنه قريحته ، حتى استوى على سوقه ، وبرز للناس علمًا كاملاً ذا أصول وفروع وتأويلات وتعليلات على النحو الذى وجده الناس عليه فى كتاب سيبويه .

---

(١) انظر : إنباه الرواة : ١/ ٧ - ٩ .

ولا يسعنا – فى هذا المقام – إلا أن ندعم هذا الذى ذهبنا إليه ونؤكده بشهادة أبى الأسود نفسه التى يؤكد فيها أنه ليس هو صاحب الفكرة فى وضع النحو ابتداء، وإنما يعزو ذلك إلى أستاذه ومعلمه الإمام على بن أبى طالب، مقرا له بالفضل فى أنه هو الذى أشار عليه بوضع النحو، بل ورسم له المنهج الذى يسير عليه فى هذا العمل، حيث يقول:

«دخلت على أمير المؤمنين على – عليه السلام – فرأيته مطرقًا مفكرًا، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلدكم لحنًا، فأردت أن أصنع كتابًا فى أصول العربية.

وفى رواية: إنى تأملت كلام الناس، فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – يعنى الأعاجم – فأردت أن أضع لهم شيئًا يرجعون إليه، ويعتمدون عليه.

يقول أبو الأسود: فقلت له: إن فعلت هذا يا أمير المؤمنين أحييتنا، وأبقيت فينا هذه اللغة؛ ثم أتيته بعد أيام، فألقى إلى صحيفة فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل».

ثم قال: «انح هذا النحو، وزد فيه ما وقع لك، واعلم أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر: وإنما يتفاضل العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر»، وأراد بذلك الاسم المبهم.

يقول أبو الأسود: فكان أول ما وقع لى حروف النصب، فذكرت منها: إن، وأن، وكأن، وليت، ولعل، ولم أذكر (لكن)، فلما عرضتها عليه – رضى الله عنه – قال لى: وأين لكن؟ لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هى منها، فزدها فيها، فزدتها؛ ثم قال: ما أحسن هذا النحو الذى نحوت»[1].

(١) انظر فى ذلك: إنباه الرواة: ١/٢٤، ونزهة الألباء: ٥، ومعجم الأدباء: ١٤ / ٤٩.

يقول القفطى : وقد تعرض الزجاجى أبو القاسم إلى شرح هذا الفصل من كلام على – كرم الله وجهه – فهل – بعد شهادة أبى الأسود نفسه وهو الثقة المقرئ المحدث الفقيه[1] ، بأنه إنما وضع النحو بتكليف من الإمام على بن أبى طالب – عليه السلام – نحتاج إلى دليل على أن الواضع الأول للنحو هو أبو الأسود الدؤلى بإرشاد وتوجيه من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، بعد أن رسم له النهج الذى يسير عليه ، ثم قال له : «انح هذا النحو ، وزد فيه ما وقع لك» ؟!!!.

وإذا كان المتشككون فى هذا الأمر الجلى الواضح وضوح الشمس بما لا يدع مجالاً لشك أوربية يذهبون إلى أن الروايات التى تنسب وضع النحو ابتداء إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأبى الأسود الدؤلى إنما هى من عبث الوضاعين[2] ، بدعوى أن أبواب النحو التى قالوا إن أبا الأسود وضعها كأبواب التعجب ، والفاعل والمفعول ، و(إن) وأخواتها ، والعطف ، والنعت ، وغيرها ، لم تكن معروفة فى عهده ، ولا جارية على لسان معاصريه إلى طبقتين بعده[3] .

فإننا نقول لهم : نعم . قد يكون تحديد هذه الأبواب بهذه الأسماء جاء من قبل الرواة ، وإنما مرد ذلك أن ما كان يوضع فى ذلك العهد كان مرتبطًا بحوادث معينة ومواقف بعينها – على النحو الذى سوف نسوقه تفصيلاً عند الحديث عن أسباب وضع النحو – فحينما كانت تقع الحادثة كان أبو الأسود يضع لها القواعد والضوابط التى تعالجها ، وتعيد الناس إلى جادة الصواب فى استخدامها بما عنده من ملكة لغوية ، وما لديه من سليقة جبل عليها ، دون أن يدرى أن هذا الموضوع يسمى (باب التعجب) مثلاً ، أو باب النعت ، أو باب الفاعل والمفعول ؛ وإنما هى أمور كلية ، وأحكام عامة تضبط الكلام العربى ، وتحفظ عليه صحته

---

(1) يقول الجاحظ : «أبو الأسود الدؤلى معدود فى طبقات من الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل فى جميعها ، كان معدودًا فى التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين والحاضرى الجواب والشيعة والصلع الأشراف ، والبخلاء الأشراف» . (بغية الوعاة : ٢٧٤) .

(2) المدارس النحوية : ١٦ .

(3) مجلة كلية الآداب (المجلد العاشر) : ٢ / ١ .

وسلامته ، وما أشبه ذلك بما ساقه إليه الإمام على – كرم الله وجهه – فى الصحيفة التى دفع بها إليه ، من تعريفات أولية للاسم والفعل والحرف : ثم جاء الرواة بعد ذلك فوجدوا أن ما قاله أبو الأسود فى حادثة كذا يدخل فى باب التعجب مثلاً، وفى حادثة كذا يدخل فى باب النعت ، وما قاله فى حادثة كذا يدخل فى باب الإضافة ... وهكذا ، فذكروا الأبواب بأسمائها المعروفة فى العهد الذى تروى فيه الرواية ، على أن أبا الأسود كان على علم جم بالنحو كله ، ولكن بطريقة عامة وشاملة دون تحديد أو تسمية لأبوابه : أوليس نقط المصحف هذا أكبر دليل على مدى إلمام أبى الأسود ودرايته بعلوم النحو واللغة ؟!! ثم أليس هو القائل : «من العرب من يقول : لولاى لكان كذا وكذا»[1] ؟!! ثم أليس أبو الأسود هو الذى رد على بنى قشير حين قالوا له بعد أن سمعوا أبياته التى يقول فيها :

يَقُولُ الأَرْذَلُونَ بَنُو قُشَيْرٍ ... طُوَالَ الدَّهْرِ لاَ تَنْسَى عَلِيًا
فَقُلْتُ لَهُمْ : وَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكِى ... مِنَ الأَعْمَالِ مَا يُجْدِى عَلَيًّا
أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالوَصِيًّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

شككت يا أبا الأسود حين قلت : فإن يك حبهم رشدا أصبه ، فقال : أما سمعتم قول الله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2] ؟!! مما يدل على تبحره فى علوم التفسير والنحو واللغة وتوجيه الكلام .

وفى هذا الصدد يقول ابن النديم : «أخبرنى عيسى بن الحسين ، حدثنا حماد بن إسحق عن أبيه عن المدائنى قال : أمر زياد أبا الأسود الدؤلى أن ينقط المصحف ، فنقطه ورسم من النحو رسومًا ، ثم جاء بعده ميمون الأقرن فزاد عليه من حدود العربية ، ثم زاد فيها بعده عنبسة بن معدان المهرى ، ثم جاء عبد الله ابن أبى إسحق الحضرمى وأبو عمرو بن العلاء فزادا فيه ، ثم جاء الخليل بن أحمد

---

(١) العقد الفريد : ٢ / ٤٨٥ .
(٢) سورة سبأ : آية ٢٤ .

فلحنه ، ومحمد بن على بن حمزة الكسائى فرسم للكوفيين رسومًا ، والآن يعملون بها»[1] .

وعن مكانة أبى الأسود العلمية ، وثقله فى مجال النحو واللغة يقول القفطى :

«حدث أبو الحسن المدائنى عن عباد بن مسلم عن الشعبى قال : كتب عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – إلى أبى موسى : «أما بعد : فتفقهوا فى الدين ، وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدِّرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ؛ وليُعَلِّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب»[2] .

هذا هو أبو الأسود الدؤلى الذى يتشككون فى أن يكون قد وضع النحو أو شيئًا منه ، على رسوخ قدمه فى شتى العلوم والمعارف الدينية منها والدنيوية ، ولاسيما النحو واللغة ، فضلاً على أستاذه ومعلمه الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – الذى قال فيه الرسول الكريم ﷺ : «أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها» .

وبعد ، فلا مناص إذن من أن نقر ونعترف بأن الواضع الأول لعلم النحو هو الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وقد نقله عنه وزاد فيه ما وقع له أبو الأسود الدؤلى ، وإن شئت فقل : إن الواضع الأول هو أبو الأسود الدؤلى بإرشاد وتوجيه من الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وإن حقد الحاقدون ، وشكك المشككون .

★ ★ ★

(١) الفهرست : ٥١ .
(٢) إنباه الرواة : ١ / ١٦ .

الباب الثانى

ظهور مصطلح (النحــو)

تضافرت كتب الأدب والتراجم والطبقات على أن علم النحو كان يسمى فى عصر أبى الأسود الدؤلى باسم (العربية) ، فقد قال ابن سلام الجمحى فى طبقاته: «وكان أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلى» [1].

وقال ابن قتيبة فى (المعارف) : «أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى» [2].

وقال ابن حجر العسقلانى فى (الإصابة) : «أول من ضبط المصحف ، ووضع العربية أبو الأسود الدؤلى» [3].

وقال الإمام على بن أبى طالب لأبى الأسود حينما سأله : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ «سمعت ببلدكم لحنا ، فأردت أن أضع كتابا فى أصول العربية» [4].

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «أخذ أبو الأسود عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – العربية» [5].

وروى محمد بن عمران بن زياد الضبى قال : «حدثنى أبو خالد قال : حدثنا أبو بكر بن عباس ، عن عاصم قال : جاء أبو الأسود الدؤلى إلى عبيد الله بن زياد يستأذنه فى أن يضع العربية» [6].

وروى يحيى بن آدم ، عن أبى بكر بن عباس ، عن عاصم قال : «أول من وضع العربية أبو الأسود الديلى» [7].

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٠ .
(٢) المعارف : ٤٠٣.
(٣) الإصابة : ٢٠٣/٤.
(٤) إنباه الرواة : ٤ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٣٤ .
(٦) المصدر السابق : ٣٥ .
(٧) المصدر نفسه : ٣٥ .

ويقول السيرافى فى ترجمة نصر بن عاصم : «روى محبوب البصرى ، عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم – وهو أول من وضع العربية – : كيف تقرؤها» [1].

وقال الزهرى عن نصر بن عاصم : «إنه ليفلق بالعربية تفليقا» [2].

وفى ترجمة عبد الرحمن بن هرمز يقول السيرافى : «روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية» [3].

وظلت هذه التسمية – العربية – طيلة الطبقات الأربعة الأوليات – بحسب تقسيم أبى بكر الزبيدى [4] – أو الطبقتين الأوليين – بحسب تقسيم الشيخ محمد الطنطاوى [5] – حيث لم يكن ثمة ذكر لكلمة (النحو) حينئذ ؛ وإنما كان أول عهد الناس بإطلاق المصطلح (نحو) على هذا العلم هو ما جاء على لسان الخليل بن أحمد الفراهيدى – وهو يمثل الطبقة الخامسة عند الزبيدى ، والثالثة عند الطنطاوى – حينما قال :

بَطَلَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ ... غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرْ
ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ ... فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرْ [6]

وبعده ما جاء على لسان يونس بن حبيب الضبى – وهو من نفس طبقة الخليل – حين سئل عن عبد الله بن أبى إسحق فقال : «هو والنحو سواء» [7] – أى هو الغاية فيه –.

(١) نفس المصدر : ٣٨.
(٢) المصدر نفسه : ٣٩.
(٣) المصدر نفسه : ٤٠.
(٤) فى كتابه (طبقات النحويين واللغويين).
(٥) فى كتابه (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة).
(٦) أخبار النحويين البصريين : ٤٩.
(٧) المصدر السابق : ٤٣ .

وما جاء على لسان يحيى بن المبارك اليزيدى – وهو من الطبقة السادسة عند الزبيدى ، والرابعة عند الطنطاوى – فى قصيدة يمدح بها نحويى البصرة ، ويهجو الكسائى نذكر منها :

يَـا طَـالِـبَ الـنَّـحْـوِ أَلَا فَابْكِهِ ... بَـعْـدَ أَبِـى عَـمْـرٍو وَحَـمَّـادِ [1]

وَابْـنِ أَبِـى إِسْـحَـقَ فِـى عِـلْـمِـهِ ... وَالـزَّيْـنِ فِـى الـمَـشْـهَـدِ وَالـنَّـادِ

عِـيـسَـى وَأَشْـبَـاهُ لِـعِـيـسَـى وَهَـلْ ... يَـأْتِـى لَـهُـمْ دَهْـرٌ بِـأَنْـدَادِ ؟

وَيُـونُـسُ الـنَّـحْـوِىَّ لَا تَـنْـسَـهُ ... وَلَا خَـلِـيـلاً حَـيَّـةَ الـوَادِى

أَمَّـا الـكِـسَـائِـىُّ فَـذَاكَ امْـرُؤٌ ... فِـى الـنَّـحْـوِ جَـارٍ غَـيْـرُ مُـزْدَادِ

وَهْـوَ لِـمَـنْ يَـأْتِـيـهِ جَـهْـلاً بِـهِ ... مِـثْـلُ سَـرَابِ الْـبِـيـدِ لِـلصَّـادِى [2]

يتضح مما سبق أن مصطلح (النحو) لم يكن معروفا ، ولا متداولا بين العلماء فى زمن أبى الأسود الدؤلى ، ولا فى عصر من جاء بعده من نحاة الطبقات الأربعة الأوليات ، وإنما ما كان معروفا ومتداولا هو مصطلح (العربية) ؛ ثم ظهر مصطلح (النحو) لأول مرة على لسان الخليل بن أحمد – على ما تقدم بيانه ، ثم أخذ فى الذيوع والانتشار على ألسنة العلماء ، حتى استقر وثبت ، وأصبح علَما على هذا العلم المنوط به ضبط اللغة ، وصيانتها من اللحن والفساد .

سبب إطلاق المصطلح (نحو) :

اسم العلم من وضع أهله ومصطلحهم ، لمقتضى الملابسات المناسبة فى نظرهم ، وقد سلف أن أبا الأسود لما عرض على الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – ما وضعه من النحو ، أقره بقوله : «ما أحسن هذا النحو الذى نحوت» . فآثر العلماء تسمية هذا العلم باسم (النحو) استبقاء لكلمة الإمام – رضى الله عنه

---

(١) يعنى : حماد بن سلمة .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٥٧ .

- التى كان يراد بها أحد معانى النحو اللغوية [١] ، والمناسبة بين المعنيين : اللغوى والاصطلاحى جلية واضحة [٢] .

ويقول ابن الأنبارى - بعد أن ذكر رواية أخذ أبى الأسود هذا العلم من الإمام على - عليه السلام - : «فلذلك سمى النحو نحوا» [٣].

ويقول أيضًا : «أما تسمية هذا العلم بهذا الاسم ، فلعلها مأخوذة من معنى الكلمة ، وهو : الاتجاه والقصد ، وإذا كان القصد هنا قصدا خاصا إلى لغة العرب، واستعمالها ، ووظيفة الكلمات فيها ، فتخصيص العام فى اللغة أمر شائع مألوف ، فالكتاب : إذا أطلق ، ينصرف إلى كتاب سيبويه ، والصلاة عند إطلاقها تشير إلى العبادة المعروفة ، وغير ذلك كثير، وقد كان كل ذلك فى أول أمره عاما شائعًا : ولعل مما يؤيد ذلك ما روى من أن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - عندما عرض على أبى الأسود ما استنبطه من أسس هذا العلم قال له : انح هذا النحو ، ولما عرض عليه أبو الأسود ما اهتدى إليه قال : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت: قالوا : فلذلك سمى النحو نحوا» [٤].



(١) للنحو معان عدة، نذكر منها :

(أ) القصد ، كقولك : نحوت نحو البئر ، أى قصدت قصدها .

(ب) الجهة . كقولك : اتجهت نحو المسجد ، أى جهة المسجد .

(جـ) المثل . كقولك : قابلت جنديا نحو الأسد ، أى مثل الأسد .

(د) المقدار . كقولك : عندى من القطن نحو قنطار ، أى قدر قنطار .

(هـ) القسم . كقولك : هذا الموضوع موزع على خمسة أنحاء ، أى خمسة أقسام .

وأشهرها جميعًا هو المعنى الأول ، وهو (القصد).

(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٣ .

(٣) نزهة الألباء : ٥ .

(٤) المصدر السابق : ٦ .

الفصل الأول

الحوادث التى اقترن بها وضع النحو

انتهينا – فيما سبق – إلى أن أول من خط شيئا فى النحو هو الإمام على ابن أبى طالب – كرم الله وجهه – على اعتبار أن ما خطه فى الصحيفة التى دفع بها إلى أبى الأسود الدؤلى من أقسام الكلام وتعريف كل قسم ، هو البداية الأولى لعلم النحو ؛ أو أن أبا الأسود الدؤلى هو أول من بدأ وضع النحو ، على اعتبار أن ما دونه الإمام على – كرم الله وجهه – فى الصحيفة كان مجرد توجيه وإرشاد لأبى الأسود ، لكى يكون منهجا له يحتذيه فى وضع النحو ، ومن ثم قال له : «انح هذا النحو يا أبا الأسود» ، ولما وضع شيئا منه وعرضه على الإمام قال له : «ما أحسن هذا النحو الذى نحوت» .

وقد علمنا – فيما سلف – أن وضع النحو قد ارتبط بحوادث معينة أو مواقف بعينها ، كانت تتطلب وضع قواعد لمعالجتها ، وأحكام وضوابط لتصحيحها فى حينها ، مما أطلق عليه النحاة بأخرة أسماء أبواب ، كالتعجب ، والنعت ، والفاعل والمفعول ... إلخ.

وما علينا الآن إلا أن نسوق الروايات التى تحدد هذه الحوادث والمواقف بسندها من أقوال العلماء والمؤرخين والمترجمين تتميما للفائدة ، ونتعرف على القوى منها والضعيف ، وما يساير علم اللغة الحديث وما يناهضه .

وبديهى أن الروايات جميعها تنسب وضع النحو لأبى الأسود الدؤلى – سواء بإرشاد وتوجيه من أحد ، أو من تلقاء نفسه – مع استبعاد رواية من قال

بأن واضعه هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، أو نصر بن عاصم الليثى ، حيث تحمل فى طياتها دليل ضعفها ، وعدم مسايرتها للواقع .

وعليه يمكن تقسيم هذه الروايات إلى :

(أ) ما يسند الوضع للإمام على – كرم الله وجهه – أو لأبى الأسود بإرشاد وتوجيه من الإمام على .

(ب) ما يسند الوضع لأبى الأسود بتوجيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه .

(جـ) ما يسند الوضع لأبى الأسود بتوجيه من زياد ابن أبيه – والى البصرة – أو ابنه عبيد الله .

(د) ما يسند الوضع لأبى الأسود من تلقاء نفسه ، ودون إشارة من أحد .

فالبنسبة للرواية الأولى التى تسند الوضع للإمام على أو إلى أبى الأسود بإرشاد الإمام ، فهى أقوى الروايات وأوثقها ، ولا سيما أن راويها هو أبو الأسود بنفسه [١] ، ويؤيدها ما رآه القفطى بأم عينيه بمصر مما يجمعون على أنه مقدمة الإمام على فى النحو التى أخذها عنه أبو الأسود الدؤلى [٢] .

ويقول ابن الأنبارى : «وروى أن سبب وضع على – رضى الله عنه – لهذا العلم ، أنه سمع أعرابيًا يقول : ﴿لَا يَأْكُلُه إِلَّا الخَاطِئِينَ﴾ [٣] ، فوضع النحو [٤].

أما بالنسبة للرواية التى تنسب وضع النحو إلى أبى الأسود الدؤلى بإرشاد وتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فيقول ابن الأنبارى ، والسيوطى :

---

(١) راجع ص ٤١ .

(٢) إنباه الرواة : ٥.

(٣) سورة الحاقة : آية ٣٧ .

(٤) نزهة الألباء : ٥ .

«يروى أنه قدم أعرابى المدينة فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقال : من يقرئنى شيئا مما أنزل الله على محمد - ﷺ - ؟ فأقرأه رجل سورة (براءة) ، فقال : «أن الله برىء من المشركين ورسوله» - بكسر اللام من رسوله ، فقال الأعرابى : أو قد برئ الله من رسوله ؟! إن يكن الله برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه .

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فدعاه وقال له : يا أعرابى ، أتبرأ من رسول الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إنى قدمت المدينة - ولا علم لى بالقرآن - فسألت : من يقرئنى ؟ فأقرأنى هذا سورة (براءة) ، فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فقلت أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه : فقال له عمر : ليس هكذا يا أعرابى ، فقال : كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أن الله برىء من المشركين ورسولُه ، فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم : فأمر عمر - رضى الله عنه - ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو» [1] .

ويقول القفطى :

«حدث أبو الحسن المدائنى عن عباد بن مسلم عن الشعبى قال : كتب عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - إلى أبى موسى الأشعرى - وهو والى البصرة - : «أما بعد ، فتفقهوا فى الدين ، وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدُّريَّة، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليُعلِّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب» [2] .

أما بالنسبة للنوع الثالث من الروايات ، وهو ما يسند الوضع إلى أبى الأسود بإيعاز من زياد ابن أبيه - والى البصرة - أو ابنه عبيد الله ، فقد روى الأصمعى قال :

(١) المصدر السابق : ٩ ، والتحفة البهية : ٤٩ .
(٢) إنباه الرواة : ١٦ .

«كان غلام يطيف بأبى الأسود يتعلم منه النحو ، فقال له يوما : ما فعل أبوك يا بنى ؟ فقال : «أخذته الحمى ، ففضخته فضخًا [1] ، وطبخته طبخًا ، وفنخته فنخًا [2] ، فتركته فرخا : قال : فما فعلت امرأة أبيك التى كانت تشاره [3] ، وتجاره [4] ، وتزاره [5] ، وتهاره [6] ، وتماره [7] ؟ قال : خيرا ، طلقها فتزوجت غيره فحظيت ، ورضيت ، وبظيت [8] : قال : ما (بظيت) يا ابن أخى ؟ فقال : حرف من العربية لم يبلغك ، ولم تدر من أى بيض خرج ، ولا فى أى عش درج ، قال : يا ابن أخى ، ما لم يبلغ عمك فاستره كما تستر الهرة خُرأها [9] .

قالوا : فجاء أبو الأسود زيادًا – وقيل : ابنه عبيد الله – فقال : إنى رأيت العرب قد خالطت الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لى أن أضع للعرب كلاما يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا [10] .

وروى أن زيادًا – أو ابنه عبيد الله – بعد أن رفض أن يضع أبو الأسود النحو ، جاءه قوم فقال أحدهم : توفى أبانا وترك بنونا ، فقال : توفى أبانا وترك بنونا ؟! ادع لى أبا الأسود ، فقال له : ضع للناس ما كنت نهيتك أن تضع لهم [11] .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «أخذ أبو الأسود عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – العربية ، فكان لا يخرج شيئا مما أخذه عن على بن أبى طالب –

(1) فضخته : شدخته ، والفضيخ من النبيذ ما يتخذ من البسر والرطب إذا فضخا ، أى شدخا .
(2) فنخته : فتتت عظمه من غير شق ولا إدماء .
(3) تشاره : تفاعله ، من الشر .
(4) تجاره : تفاعله ، من الجر ، أى : يجرها وتجره .
(5) تزاره : تفاعله ، من الزر ، وهو العض ، أى : يعضها وتعضه .
(6) تهاره : تفاعله : من الهر ، وهو النباح للكلب ، أى : تهر فى وجهه ، ويهر فى وجهها .
(7) تماره : تلتوى عليه ، وتخالفه : وهو من (أمرَّ الحبل) إذا شد فتله .
(8) بظيت : إتباع لكلمة (حظيت) التى بمعنى نعمت وحسن حالها ، وقد تكون بمعنى : سمنت واكتنزت.
(9) طبقات الزبيدى : ٢٣ ، ومراتب النحويين : ٢٧ ، وأخبار النحويين البصريين : ٣٧.
(10) طبقات الزبيدى : ٢٢ .
(11) المصدر السابق .

رضى الله عنه – إلى أحد ، حتى بعث إليه زياد – وكان بنو زياد يلحنون فى كلامهم [1] – فقال له : اعمل شيئًا تكون فيه إماما ، ينتفع الناس به ، وتعرب به كلام الله ، فاستعفاه من ذلك : حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ فقال : ما كنت أظن أمر الناس صار إلى هذا !! فرجع إلى زياد فقال : أنا أفعل ما أمر به الأمير ، ونقط المصحف» [2] .

وروى المبرد عن الحربى عن الخليل بن أحمد قال : «لم يزل أبو الأسود ضنينا بما أخذه عن على – عليه السلام – ، حتى قال له زياد : قد فسدت ألسنة الناس ، وذلك أنهما سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى [3] ، فدافعه أبو الأسود» [4] .

وروى أن زياد ابن أبيه قال لأبى الأسود الدؤلى : إن بنى يلحنون فى القرآن، فلو رسمت لهم رسما : فنقط المصحف .

فقال له زياد : إن الظئر [5] والحشم [6] قد أفسدوا ألسنتهم ، فلو وضعت لهم كلاما : فوضع العربية [7] .

أما بالنسبة للنوع الرابع والأخير من الروايات التى تحكى الأحداث والوقائع التى ارتبط بها وضع النحو ، وهى تلك التى تنسب إلى أبى الأسود وضع النحو من تلقاء نفسه ، دون إرشاد أو توجيه من أحد : فقد روى على بن محمد الهاشمى قال :

«سمعت أبى يذكر ، قال : كان بدء ما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو ، أنه مر

---

(١) مراتب النحويين : ٢٧ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٣٤ .

(٣) الصحيح : سقطت عصاى – من غير (تاء) ، وقال الجاحظ إنه أول لحن سمع بالبادية .

(٤) مراتب النحويين : ٢٦ .

(٥) الظئر : المرضع ، يريد أن المراضع من الموالى قد أفسدن ألسنة الذين أرضعتهم من العرب .

(٦) الحشم : الخدم ، والحاشية من غير العرب .

(٧) إنباه الرواة : ١٦/١ .

به سعد – وكان رجلا فارسيا من أهل نوبندجان [١] ، قدم البصرة مع جماعة من أهله ، فادّعوا لقدامة بن مظعون أنهم أسلموا على يديه ، فإنهم بذلك من مواليه – وهو يقود فرسا له – فقال له أبو الأسود : ما لك يا سعد ؟ ألا تركب ؟ فقال : إن فرسي ظالعًا [٢] – يريد أن يقول : ظالعٌ – فضحك منه من حضر ؛ فقال أبو الأسود: هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الإسلام ، فدخلوا فيه ، وصاروا لنا إخوة ، فلولا علمناهم الكلام ! فوضع باب الفاعل والمفعول» [٣] .

وقيل : إن ابنة لأبى الأسود قالت له : يا أبت ما أشدُّ الحرُ ! – فى يوم شديد الحر – فقال لها : إذا كانت الصقعاء [٤] من فوقك ، والرمضاء [٥] من تحتك ، فقالت: إنما أردت أن الحر شديد ؛ فقال لها : فقولى إذن ما أشدَّ الحرَّ ! [٦] .

وقيل : إنه دخل منزله يوما ، فقالت له إحدى بناته : ما أحسنُ السماءِ ! قال: أى بنية ، نجومها ، فقالت : إنى لم أرد أى شىء منها أحسن ؟ إنما تعجبت من حسنها ، فقال : إذن فقولى : ما أحسَن السماءَ : فحينئذ وضع باب التعجب [٧] .

وقيل : أتى أبو الأسود عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – فقال : إنى أرى ألسنة الناس قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئا لهم يقوِّمون به ألسنتهم ، قال: لعلك تريد النحو ، أما إنه حق ، واستعن بسورة يوسف [٨] .

وبعد ، فهذه هى الروايات التى حكت الأحداث والوقائع التى أنيط بها التفكير فى وضع علم النحو ، والملاحظ فيها أنها ليست جميعا على درجة واحدة

---

(١) نوبندجان : مدينة من أرض فارس ، قريبة من شعب بوان .

(٢) الظالع الذى يغمز فى مشيته ، وفى طبقات الزبيدى : ٢٢ ، والسيرافى :٦٣ : إن فرسى ضالع.

(٣) إنباه الرواة : ٦/١ ، والزبيدى : ٢٢ ، والسيرافى : ٣٦ .

(٤) الصقعاء : الشمس .

(٥) الرمضاء : الرمل الشديد السخونة .

(٦) إنباه الرواة : ١٦/١ ، والسيرافى : ٣٧ ، وطبقات الزبيدى : ٢١ .

(٧) إنباه الرواة : ١٦/١، والسيرافى :٦٣، ونزهة الألباء : ١١.

(٨) إنباه الرواة :١ /١٦.

من القوة من حيث تصديقها ، الاطمئنان إلى صحتها حين عرضها على مرآة العقل ؛ ولعل أقواها ، وأقربها إلى التصديق بها ، والاطمئنان إلى صحتها ، ما ينسب الوضع ابتداء إلى الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – أو إلى أبى الأسود الدؤلى بإرشاد أو توجيه من الإمام على – كرم الله وجهه – لما عرف عن الإمام من العلم والضبط والتثبت ، ومن غيرته على لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ؛ ولاسيما أن من روى هذه الرواية هو أبو الأسود نفسه ، وأنه لما سئل عن المصدر الذى استقى منه هذا العلم ، قال : «لقفت حدوده عن على بن أبى طالب»[1].

هذا فضلا على ما رآه القفطى بنفسه فى مصر مما يجمعون على أنها مقدمة على بن أبى طالب التى أخذها عنه أبو الأسود الدؤلى [2].

وما رآه ابن النديم فى (الحديثة) بالعراق من أربعة أوراق فيها كلام فى الفاعل والمفعول من وضع أبى الأسود الدؤلى [3].

ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى التشكيك فى صحة هذه الروايات نظرا لتعددها واختلافها ، وقد تابعهم فى هذا التشكيك بعض الباحثين العرب؛ ولكننا نرى أن تعدد هذه الروايات واختلافها إنما هو نفسه دليل صدقها . ومبعث صحتها ، إذ إن وضع علم خطير – مثل علم النحو – لا يجوز أن يتم لمجرد أن يلحن رجل فى نطق لفظة مرة واحدة ، وإلا لكان كافيا فيها أن يوجه إلى نطقها الصحيح ، ولكن لابد أن يتكرر اللحن بشكل ملحوظ ، يخشى منه على سلامة اللغة العربية ، وألا يتسرب إلى القرآن الكريم والسنة النبوية . فتثار همم العلماء ، وتشحذ عزائمهم ، للنهوض لمواجهة هذا الخطر الداهم الذى يهدد اللغة العربية ، ويصيب الدين الإسلامى فى مقتل ، فكان لابد إذن من تكرار الحوادث والمواقف التى يظهر فيها اللحن على النحو الذى حكته وتحدثت عنه الروايات المتعددة والمختلفة لكى يفكر العلماء فى أن يضعوا للناس القوانين والأحكام التى تحفظ عليهم ألسنتهم وتصون لغتهم : فكان وضع علم النحو.

(١) التحفة البهية : ٥٢ .

(٢) إنباه الرواة : ١/٥.

(٣) الفهرست : ٤٠.

الفصل الثانى

ماذا وُضِع من النحو ابتداء ؟

ثمة روايات تسند إلى أبى الأسود الدؤلى وضع أبواب من النحو، ومنها ما يسند إليه نقط المصحف فقط، ومنها ما يسند إليه الأمرين كليهما، نقط المصحف ووضع شىء من النحو.

ففى الرواية التى تنسب الوضع لأبى الأسود بإرشاد من زياد ابن أبيه جاء: «فقال أبو الأسود لزياد : ابغنى كاتبًا يفهم عنى ما أقول . فجىء برجل من عبد القيس، فلم يرض أبو الأسود فهمه، فأتى برجل من قريش [1]، فقال له : إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ؛ وإذا ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف : وإذا كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ؛ فإذا اتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين، ففعل» [2].

وفى رواية المدائنى : «أمر زياد أبا الأسود الدؤلى أن ينقط المصاحف، فنقطها ورسم من النحو رسوما» [3].

وفى الرواية التى تسند الوضع لأبى الأسود بإرشاد وتوجيه من الإمام على ابن أبى طالب –كرم الله وجهه– يقول أبو الأسود: «وقال لى –يعنى الإمام عليًا– انح هذا النحو، وزد فيه ما وقع لك ... فكان أول ما وقع لى (إن) وأخواتها، ما خلا

(1) جاء فى إنباه الرواة : ١/٥ ، وفى السيرافى : ٣٥ : «فأتى بكاتب آخر، قال المبرد : أحسبه منهم...»، وجاء فى نزهة الألباء : ١١ «فطلب ثلاثين رجلا، ثم اختار منهم عشرة، ثم اختار منهم واحدا من عبد القيس»

(2) مراتب النحويين : ٢٩.

(3) الفهرست : ٥١ .

(لكن) ، فلما عرضتها عليه قال لى : وأين (لكن) ، فقلت : ما حسبتها منها ، فقال : هى منها ، فألحقتها»[1] .

وفى رواية على بن محمد الهاشمى الذى يحكى قصة سعد الفارسى الذى مر بأبى الأسود وهو يقود فرسه ، ينهيها بقوله : «فوضع باب الفاعل والمفعول، ولم يزد عليه»[2] .

وفى رواية الزبيدى التى تحكى قصة ابنة أبى الأسود التى سألته : ما أشدُّ الحرِّ ! ، يقول: «فعمل باب التعجب، وباب الفاعل، والمفعول به، وغيرها من الأبواب»[3] .

وفى رواية ابن الأنبارى التى تحكى قصة ابنة أبى الأسود التى تعجبت من جمال السماء ، يقول : «فحينئذ وضع النحو ، وأول ما رسم منه باب التعجب»[4] .

ويروى ابن النديم أنه رأى بالعراق أربع ورقات ترجمتها : «هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود – رحمة الله عليه – بخط يحيى بن يعمر»[5] .

وقال محمد بن يزيد المبرد : «أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود ظالم بن عمرو»[6] .

وقال أبو بكر الزبيدى : «وهو – أى أبو الأسود – أول من أسس العربية ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها ، وذلك حين اضطرب كلام العرب ، وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون ، فوضع باب الفاعل ، والمفعول به ، والمضاف ، وحروف النصب والرفع ، والجر والجزم»[7] .

---

(١) نزهة الألباء : ٥.

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٣٦ ، والزبيدى : ٢٢ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢٢، والأغانى : ٢٩٨/١٢ .

(٤) التحفة البهية : ٤٩ ، ونزهة الألباء : ١٠ .

(٥) الفهرست : ٤٠.

(٦) طبقات الزبيدى : ٢١ .

(٧) المصدر السابق .

وقال فخر الدين الرازى : «رسم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لأبى الأسود باب (إن) ، وباب الإضافة ، وباب الإمالة ، ثم صنف أبو الأسود باب العطف ، وباب النعت ، ثم صنف باب التعجب ، وباب الاستفهام» [1] .

ولعل فى تعدد هذه الروايات واختلافها حول ما وضع من النحو ابتداء ، ما يدعو إلى الاضطراب بل يبعث الشك والريبة حيال تصديقها والأخذ بها ، وهذا ما حدث لبعض المستشرقين ، وتابعهم عليه نفر من الباحثين المحدثين العرب .

فالأستاذ إبراهيم مصطفى ، والدكتور شوقى ضيف ينفيان أن يكون الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أو أبو الأسود الدولى قد وضعا شيئا من النحو ، ولا أحد من معاصريهما ، ويسحبان هذا الحكم على رجال طبقتين بعدهما ، بل يقصران عمل أبى الأسود ، ومن جاء بعده من رجال الطبقتين على نقط المصحف فقط، بينما يقصران عمل الإمام على - كرم الله وجهه - على مجرد التوجيه والإرشاد لأبى الأسود ، وينسبان أولية التفكير فى علم النحو إلى عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، حيث يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى :

«ولكنا لا نستطيع أن نتقبل وضع أبى الأسود للنحو بيسر ، ولا أن نستسيغ أن هذا الزمن المبكر قد تمكن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ، ووضع القواعد على هذا الوجه الذى نراه فى كتب العربية ، وقد أنكر ذلك المستشرقون ، وعدوه حديث خرافة ... ويلاحظ أول ما يلاحظ أننا لم نجد فى كتاب سيبويه ، ولا فيما بعده من الكتب رأيا نحويا نسب إلى أبى الأسود ولا إلى طبقتين بعده ... وإنما أقدم من نسب إليه رأى نحوى هو عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى .

فعمل أبى الأسود هو نقط المصاحف كما أشارت الروايات ... ويتجلى لنا سبب اختلاط الأمر على الرواة ، وتقدمهم بنسبة النحو إلى أبى الأسود ، أنهم كانوا يريدون بالنحو ضبط الكلام على سبيل العرب وسمتها فى القول ، ولكنهم لما

(١) المحرر فى النحو : ١٠٠.

تقدموا فى البحث ، جعلوا لهذا النحو سببا ، فقالوا فى الكلمة : ترفع لأنها فاعل ... ثم دخل عامل آخر ، وهو هوى بعض المؤلفين ، إذ كانوا يكرهون أن ينسب شىء إلى زياد ، ويحبون أن ينسب كل شىء إلى علىٍّ وشيعته ، فخفيت الحقيقة حتى آن أن يجليها البحث فى كتب النحو ذاتها لا فى أخبار الطبقات» [1] .

ويقول الدكتور شوقى ضيف – نافيا أن يكون الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – قد وضع شيئًا من النحو :

«...وكأنه لم يكن مشغولا حين ذهب إلى العراق والكوفة بإعداد الجيوش لحرب معاوية ، ولا كان مشغولا بحروب الخوارج ، إنما كان مشغولا بالنحو ، ووضع رسومه وأصوله وفصوله . وطبائع الأشياء تنفى أن يكون قد وضع ذلك ... ولعل الشيعة هم الذين نحلوه هذا الوضع القديم للنحو الذى لا يتفق فى شىء وأولية هذا العلم ونشأته الأولى» [2] . ثم يقول أيضًا :

«وقد يكون ذلك من صنع الشيعة ، وكأنهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعى قديم ، فارتفع به بعضهم إلى على بن أبى طالب ، ووقف به بعضهم عند أبى الأسود ، صاحبه الذى يتشيع له ... وكل ذلك من عبث الرواة الوضاعين المتزيدين، وهو عبث جاء من أن أبا الأسود نسب إليه حقا أنه وضع العربية ، فظن بعض الرواة أنه وضع النحو ، وهو إنما وضع أول نقط يحرر حركات أواخر الكلمات فى القرآن الكريم بأمر من زياد بن أبيه أو ابنه عبيد الله ... وحمل هذا الصنيع عن أبى الأسود تلاميذه من قراء الذكر الحكيم ، وفى مقدمتهم نصر بن عاصم . وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، فكل هؤلاء نقطوا المصحف ، وأخذ عنهم النقط ، وحفظ ، وضبط وقيد وعمل به ، واتبع فيه سنتهم ، واقتدى فيه بمذاهبهم» [3] ثم يقول :

---

(١) مجلة كلية الآداب (المجلد العاشر) : ٢/١ .

(٢) المدارس النحوية : ١٤ .

(٣) المصدر السابق : ١٥-١٦ .

«ومعروف أنه لكى يصاغ علم صياغة دقيقة ، لابد له من اطراد قواعده ، وأن تقوم على الاستقراء الدقيق ، وأن يكفل لها التعليل ، وأن تصبح كل قاعدة أصلا مضبوطا، تقاس عليه الجزئيات قياسا دقيقا ، وكل ذلك نهض به ابن أبى إسحق وتلاميذه البصريون»[1].

ولكن من ينظر إلى هذه الروايات التى تحكى بداية وضع النحو ، نظرة مجردة من الهوى والزيغ ، غير متأثرة بادعاءات المستشرقين الذين لا يضمرون للعرب خيرا أبدا ، لا يرى فى تعددها أو تباينها ما يدعو إلى الشك ، أو يبعث الريبة فيما قام به الإمام على - رضى الله عنه - وأبو الأسود الدؤلى بما نسب إلى كليهما من وضع النحو ؛ إذ لم يقل أحد بأن أحدهما أو كليهما قد وضع النحو بالشكل الذى هو عليه فى كتب العربية - سواء كتاب سيبويه ، أو الكتب التى ظهرت بعده ، وإنما كان ما وضعاه مجرد أوليات أو بدايات ترتبط بالأحداث والوقائع التى ظهر فيها اللحن ، دون تحديد أو تسمية لأبواب بعينها ، إذ لم تكن أبواب النحو بأسمائها الحالية معروفة ومعهودة آنذاك ؛ وإنما تم ذلك بعد أن اكتمل وضع النحو كعلم له أصول وقواعد وأحكام ، وبرزت أبوابه بأسمائها الحالية ، فوجد المؤرخون ومؤلفو الطبقات أن ما قيل فى حادثة كذا يندرج تحت باب كذا ، وما قيل فى واقعة كذا يندرج تحت باب كذا ، ومن ثم قالوا - بعد رواية الحادثة : فوضع باب كذا ... إلى آخره .

ثم كيف ننكر على علىّ بن أبى طالب وضع شىء من النحو ليسترشد به أبو الأسود ، ويسير على منواله فى وضع ما يحفظ على الناس ألسنتهم ، ويدرأ عنهم مغبة اللحن التى بدأت تستشرى فى لغتهم حتى وصلت إلى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، والإمام علىّ على ما هو عليه من العلم والمعرفة حتى قيل فيه : «ما كان يسأل عن شىء إلا أجاب» ، وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حينما عرضت عليه قضية وافتقد عليا : «أقضية ولا أبا حسن لها!!» .

(١) المصدر نفسه : ١٨ .

وكيف ننكر على أبى الأسود أن يضع بدايات للنحو تكون نبراسا وهاديا لمن بعده ليحتذوها ويبنوا عليها ما وسعهم البناء ، وهو الذى قال فيه عمر بن الخطاب أيضا – حين أرسل لأبى موسي الأشعرى: «... وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب» [1] وقال عنه أبو الطيب اللغوى : كان أعلم الناس بكلام العرب ، وزعموا أنه كان يجيب فى كل لغة» [2] .

ثم ألا يعد نقطه للمصحف من أبلغ الأدلة على إلمامه التام بقواعد النحو ، وإحاطته بقوانينه وأحكامه ، وإن لم تكن بالصورة التى ظهرت فى كتب النحاة من التنظيم والتقييم والتعليل والقياس ؟!!

وأليس هو الذى يروى عنه قتادة بن دعامة السدوسى بقوله : «قال أبو الأسود الديلى : إنى لأجد للحن غمرا [3] كغمر اللحم [4]» ؟!.



(١) إنباه الرواة : ١٦ .

(٢) مراتب النحويين : ٢٧.

(٣) الغمر – بالتحريك – : السهك ، وريح اللحم ، وما يعلق باليد من دسمه ، والسهك : قبح رائحة اللحم إذا فسد وأنتن .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٣٦.

الفصل الثالث

النحو بعد أبى الأسود

أخذ تلامذة أبى الأسود ما وضعه من النحو ، وعملوا على تنميته وتطوره، وزادوا فيه ما شاء لهم أن يزيدوا ، وهم : عبد الرحمن بن هرمز ، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم الذى أخذ عن يحيى بن يعمر.

وكان عملهم فى تنمية وتطوير ما خلفه أبو الأسود يسير فى خطين متوازيين هما :

(أ) نقط المصاحف .

(ب) إضافة أبواب نحوية جديدة امتدادا لصنيع أبى الأسود .

فبالنسبة لنقط المصاحف يقول أبو عمرو الدانى : «وحمل هذا الصنيع عن أبى الأسود تلاميذه من قراء الذكر الحكيم . وفى مقدمتهم نصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، فكل هؤلاء نقطوا المصاحف ، وأخذ عنهم النقط وحفظ وضبط وقيد ، وعمل به واتبع فيه سنتهم ، واقتدى فيه بمذاهبهم» [1] .

ثم ظهر نوع آخر من النقط للمصاحف غير نقط أبى الأسود ، أريد به تمييز حروف الهجاء المتشابهة بعضها من بعض ، وكان ذلك فى خلافة عبد الملك ابن مروان . وكان الدافع لهذا النوع من النقط هو ما شاع وانتشر بالعراق من التصحيف [2] فى القرآن الكريم الذى كان من مظاهره :

---

(١) المدارس النحوية : ١٦ ، والمحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى : ٩ .

(٢) أصل التصحيف : أن قوما كانوا يأخذون العلم عن المصحف دون أن يلقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عنهم : قد صحّفوا ، أى : رددوه عن المصحف ، وهم مصحفون .

ما رواه ابن عمار عن عبد الله بن عمر المعروف بمشكدانة أنه كان يقرأ : ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَبِشْرًا﴾ (١) .

وما رواه إسماعيل بن محمد البشرى عن عثمان بن أبى شيبة أنه كان يقرأ : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّفِينَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ﴾ (٢) ، كما كان يقرأ : ﴿مِنَ الخَوَارِجِ مُكَلِّبِينَ﴾ (٣) .

وما روى عن حمزة الزيات أنه قرأ : ﴿الم . ذَلِكَ الكِتَابُ لَا زَيْتَ فِيهِ﴾ (٤) .

وما روى عن غيره أنه قرأ : ﴿ص وَالقُرآنِ ذِى الذِّكْرِ﴾ (٥) .

فلما كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، ووصل إلى كتاب الله الكريم على هذا النحو ، فزع الحجاج بن يوسف الثقفى – وكان واليا على العراق لعبد الملك بن مروان – واستقدم نصر بن عاصم الليثى – وقيل يحيى بن يعمر العدوانى – وطلب منه أن يضع للحروف المتشابهة علامات ليميز بعضها من بعض ، درءا لهذا الوباء الجديد عن كتاب الله – عز وجل – فقام بنقط المصحف بهذا النقط الجديد ، وسمى هذا النقط نقط الإعجام ، للتفريق بينه وبين نقط أبى الأسود الذى أطلق عليه (نقط الإعراب) (٦) .

ولما كثرت النقط على الحرف ، أدى ذلك أيضًا إلى التصحيف من جديد ، كما أدى إلى اللحن فى إعراب الكلمات نتيجة اختلاط نقط الإعراب بنقط الإعجام ، مما جعلهم يفكرون فى تمييز أحد النقطين من الآخر ، بأن جعلوا نقط الإعراب بمداد من لون مخالف لنقط الإعجام ، فكان نقط الإعجام بمداد من نفس لون

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١١ ، والآية رقم ٢٣ من سورة نوح وصحتها : «ولا يغوث ويعوق ونسرا» .

(٢) المصدر السابق : ١٢ ، والآية رقم ٧٠ من سورة يوسف ، وصحتها : «جعل السقاية فى رحل أخيه» .

(٣) المصدر نفسه : ١٢ ، والآية رقم ٤ من سورة المائدة ، وصحتها : «من الجوارح مكلبين» .

(٤) نفس المصدر : ١٢، والآية رقم ١ ، ٢ من سورة البقرة ، وصحتها : «الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه» .

(٥) المصدر نفسه : ١٣ ، والآية رقم ١ من سورة ص ، وصحتها : «ص . والقرآن ذى الذكر» .

(٦) راجع فى ذلك : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١ : ٣ ، والمدارس النحوية : ١٧ .

الحرف ، وكان نقط الإعراب بلون آخر مخالف له : ولعل نصر بن عاصم هو الذى وضع نقط الإعجام ، ويحيى بن يعمر هو الذى جعل نقط الإعراب باللون المخالف : ومن ثم فقد اختلف الرواة فيمن وضع نقط الإعجام ، فمنهم من نسبه إلى نصر بن عاصم، ومنهم من نسبه إلى يحيى بن يعمر .

واستمر الأمر على هذا النحو ، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدى ، فابتكر للإعراب علامات بدلا من النقط ، وقد استوحى هذه العلامات من حروف المد ، واستوحى أسماءها من قول أبى الأسود للكاتب عند ضبط المصحف : «فإن رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فضع نقطة فوقه إلى أعلى ، وإن رأيتنى كسرت شفتى فضع نقطة تحته ، وإن رأيتنى ضممت فضع نقطة بين يدى الحرف ، فإن اتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين : فسمى النقطة التى فوق الحرف (فتحة) ، وسمى التى تحته (كسرة) ، وسمى التى بين يدى الحرف (ضمة)، وسمى النقطتين (تنوينا) .

فجل الفتحة ألفا مبطوحة فوق الحرف هكذا (ـَـ) ، والكسرة ياءً متصلة تحت الحرف هكذا (ـِـ) ، والضمة واوًا صغيرة فوق الحرف هكذا (ـُـ) : وبذا قلّت النقط فوق الحرف وتحته ، وأُمِن اللبس ، وتحرر الناس من التصحيف والتحريف فيما يقرأون ويكتبون ، ومازلنا نستخدم هذه العلامات التى ابتكرها الخليل حتى يومنا هذا [1] .

أما عن الخط الثانى الذى صار فيه تلاميذ أبى الأسود ، أو الشق الثانى مما حملوه عنه ، فهو تنمية ما وضعه أبو الأسود من قواعد وأحكام نحوية ، تحفظ على الناس ألسنتهم ، وتدرأ عن اللغة العربية مغبة اللحن ، حرصا على سلامة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وعن ذلك يقول أبو بكر الزبيدى :

«فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى،

(١) راجع فى ذلك : المحكم فى نقط المصاحف : ٧ ، والمدارس النحوية : ٣٣ .

ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ، وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل السبق ، وشرف التقدم : ثم واصل ما أصلوه من ذلك التالون لهم ، والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومدّ من القياس ، وفتق من المعانى ، وأوضح من الدلائل ، وبين من العلل» [1] .

وروى التوزى قال : «سمعت أبا عبيدة يقول : «أول من وضع النحو أبو الأسود الديلى، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله بن أبى إسحق ، قال: ووضع عيسى بن عمر فى النحو كتابين ، سمى أحدهما الجامع ، والآخر المكمل» [2] .

وروى ابن النديم عن المدائنى قال :

«أمر زياد أبا الأسود الدؤلى أن ينقط المصاحف ، فنقطها ورسم من النحو رسوما، ثم جاء بعده ميمون الأقرن ، فزاد عليه من حدود العربية ؛ ثم زاد فيها بعده عنبسة بن معدان المهرى ؛ ثم جاء عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، وأبو عمر بن العلاء فزاد فيه ، ثم جاء الخليل بن أحمد فلحنه ، ومحمد بن على بن حمزة الكسائى ، فرسم للكوفيين رسوما ، والآن يعملون بها» [3] .

ويقول الشيخ محمد الطنطاوى :

«فإن الطبقة الأولى التى أخذت عن أبى الأسود ، استمرت فى تثمير ما تلقته عنه ، ووفقت إلى استنباط كثير من أحكامه ، وقامت بقسط فى نشره وإذاعته بين الناس ، وكان أفذاذ هذه الطبقة عنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر العدوانى ، وعبد الرحمن بن هرمز ... ويغلب على الظن أن ما تكوّن من نحو هذه الطبقة – فضلا على قلته – كان أشبه بالرواية للمسموع ، فلم تنبت بينهم فكرة

(١) طبقات النحويين واللغويين : ١١ .

(٢) أخبار النحويين ٢ : ٠ .

(٣) الفهرست : ٥١ .

القياس... كذلك لم تقو حركة التصنيف بينهم ، فلم يؤثر عنهم إلا بعض نتف من مواطن متفرقة من الفن ، لم تبلغ حد الكتب المنظمة ، إذ كان جل اعتمادهم على حفظهم فى صدورهم ورواياتهم بلسانهم» [1] .

ويقول الأستاذ على النجدى ناصف :

«وتقضى طبيعة الأشياء أن يكون ما وضعه أبو الأسود من النحو مجرد ملاحظات يسيرة ، هدى إليها بالنظر فى الأساليب ، واستقرائها على قدر الطاقة فى المقامات المتنوعة ، وتيسر له بفضلها أن يستنبط منها ضوابط لا تبلغ مبلغ القواعد التى تقرر الأحكام فى اطراد وشمول» [2] . ثم يقول :

«لم يكد أبو الأسود يضع النحو ، ويعلم الناس نبأه عنه ، حتى أقبل تلاميذه عليه ، يأخذون عنه ، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده ، وهكذا بدأ النحاة يتتابعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وجعل النحو ينمو غرسه ، ويشتد عوده دراكا عصرا بعد عصر» [3] .

وظل الأمر على هذا النحو ، إلى أن هيأ له الله من يجمع شتاته ، ويلم شعثه، ويقيد شوارده وهو عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى، حيث يقول الدكتور شوقى ضيف:

«فالأصل فى كل علم ، أن تبدأ فيه نظرات متناثرة هنا وهناك ، ثم يتاح له من يصوغ هذه النظرات صياغة علمية ، تقوم على اتخاذ القواعد ، وما يطوى فيها من علل وأقيسة ، وأول نحوى حقيقى نجد عنده طلائع ذلك هو ابن أبى إسحق الحضرمى» [4] . ثم يقول :

«ومعروف أنه لكى يصاغ علم صياغة دقيقة ، لابد له من اطراد قواعده ، وأن تقوم على الاستقراء الدقيق ، وأن يكفل لها التعليل ، وأن تصبح كل قاعدة

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٧.

(٢) تاريخ النحو : ١١ .

(٣) المصدر السابق : ١٣ .

(٤) المدارس النحوية : ١٨ .

أصلا مضبوطا تقاس عليه الجزئيات قياسا دقيقا ، وكل ذلك نهض به ابن أبى إسحق وتلاميذه»[1] .

وعن ابن أبى إسحق الحضرمى هذا يقول أبو بكر الزبيدى : «هو أول من بعج النحو ، ومد القياس ، وشرح العلل ،وكان مائلا إلى القياس فى النحو»[2] .

وقال ابن سلام : «سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى إسحق وعلمه ، فقال : هو والبحر سواء – أى : هو الغاية – قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ؟! قال: لو لم يكن فى الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علمه يومئذ لضُحِك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان أعلم الناس»[3] .

وقال عنه أبو الطيب اللغوى : «وكان يقال : عبد الله أعلم أهل البصرة ، وأعقلهم، ففرع النحو وقاسه ، وتكلم فى الهمز حتى عُمِل فيه كتاب مما أملاه ، وكان رئيس الناس وواحدهم»[4] .

هذا ما كان من أمر وضع علم النحو ، ونشأته ، وتطوره ، حتى غدا علما له أصول ، وقواعد ، وأحكام تراعى ويعمل بها ، حفظا للسان العربى ، وصونا له من غائلة اللحن والتصحيف والتحريف التى بدأت تنتشر وتشيع فيه على أيدى الموالى والجوارى والمتعربين .

وجَلِىّ أن كل الجهود التى بذلت فى سبيل وضعه وتطوره إلى أن صار علما على النحو الذى انتهى إليه على يد عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى وتلميذيه عيسى بن عمر ، وأبى عمرو بن العلاء – كما سنعرف بعد قليل – قد تمت جميعها فى البصرة على أيدى رجال من أهلها ، مما يجعلنا نقول إن البصرة هى التى احتضنت وضع النحو ونشأته وتطوره .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) طبقات الزبيدى : ٣١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) مراتب النحويين : ٣١ .

الباب الثالث
مدرسة البصرة

مدرسة البصرة

فى البصرة وضع علم النحو على يد أبى الأسود الدؤلى . بإرشاد وتوجيه من الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – ، ثم حمل لواءه بعده تلاميذه عبد الرحمن بن هرمز ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ثم تابعهم عليه تلاميذهم يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وعبدالله بن أبى إسحق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وجميعهم من قراء البصرة .

والآن نسوق حديثا مفصلا عن البصرة باعتبارها مهد الدراسات النحوية ، ولما لها من سبق فى هذا المجال ، لنتبين منه الأسباب التى جعلت علماءها يفكرون فى هذا العلم الخطير قبل غيرهم من علماء البلدان الأخرى .

الفصل الأول

البصرة

مدينة تجارية على شط العرب ، حيث يصب نهرا دجلة والفرات مياههما فى البحر ، وهى تقع على مسافة ثلاثمائة ميل إلى الجنوب الشرقى من بغداد[1]. وقد اكتسبت اسمها من طبيعة أرضها ، حيث يقول ابن فارس القزوينى : «أما البصرة فالحجارة الرخوة ، فإذا سقطت (الهاء) قلت : بِصْر – بكسر الباء» [2].

ويقول الجوهرى : «والبصرة : حجارة رخوة إلى البياض ، وبها سميت البصرة» [3].

ويقول الفيروزا بادى : « البصرة بلد معروف ، ويكسر ويحرك ، وبكسر الصاد : الأرض الغليظة ، وحجارة رخوة فيها بياض ، وبالضم : الأرض الحمراء الطيبة : أو هو معرب (بس راه) أى : كثيرة الطرق [4].

وقال الفيومى : «البصرة – وزان تمرة – : الحجارة الرخوة ، وقد تحذف (الهاء) مع فتح الباء وكسرها ، وبها سميت البلدة المعروفة ؛ وأنكر الزجاج فتح الباء مع الحذف ، ويقال فى النسب إليها : بصرى بالوجهين ، وهى محدثة إسلامية» [5].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٣ / ٦٦٩ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٢٥٤.

(٣) الصحاح : باب الراء فصل الباء .

(٤) القاموس المحيط : باب الراء فصل الباء . والتعريب من اللغة الفارسية ، حيث (بس) معناه : كثير ، و(راه) معناه : طريق ، وممر ، ومجرى ، وشارع . (انظر : معجم اللغة الفارسية للأستاذ هنداوى : ٤٦ ، ومعجم اللغة الفارسية أيضا للأستاذ حسن عميد : ١٣٦) .

(٥) المصباح المنير : باب الباء والصاد وما يثلثهما .

وروى أن عتبة غزوان لما أرسل إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يصف له المكان الذى اختاره منزلا لجنوده بقوله : «وجدت أرضا كثيرة القِضَّة فى طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء «قال عمر : هذه أرض بصرة ، قريبة من المشارب والمراعى والمحتطب»[1].

مما تقدم يتضح لنا أن البصرة مكان تربته لينة رخوة ، كثير الماء ، صالح للزراعة ، بدليل وجود القصب فيه[2]، أى : أنه صالح للسكنى ، وقابل للتعامل مع تربته ، ويمكن تطويره والاستفادة من مكوناته الطبيعية .



(١) مدرسة البصرة النحوية : ٢٢ . والقضة : الأرض المنخفضة التى ترابها رمل .
(٢) القصب : – محركة – كل نبات ذى أنابيب ، والواحدة قصبة ، وجمعها قصباء ، ولعله ما يعرف اليوم بالبوص .

المبحث الأول

تمصيرها[1]

العرب أمة بدوية ، ولدوا ونشأوا وترعرعوا فى البادية ، مراتعهم الصحراء ، وغذاؤهم مواردها الطبيعية ، وشرابهم ماء المطر الطبيعى ، يتنسمون هواءها النقى ، ومن ثم لا يستطيعون فراقها ، ولا يطيقون الابتعاد عنها ، فهى مرباهم ، ومراتع صباهم ، وقوام حياتهم ومعاشهم ، حتى إنهم عندما كانوا يخرجون لفتح البلاد المجاورة كانوا يهيمون إلى البادية ، ويحنون شوقا إلى الصحراء ، ليرتووا من لبن نوقها الذى لا يصبر عنه إنسان اعتاده وتربى عليه ، حتى قيل إن من حرمه بعد أن ألفه يصاب بالعَيْمَة ، وهى شهو اللبن التى تصيب الإنسان كالحمى ؛ وسوف نرى أثر ذلك أيضا عند الكلام عن تمصير الكوفة .

فعندما قرر الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فتح فارس ، أرسل المثنى بن حارثة الشيبانى للإغارة على الحيرة ، تمهيدا للفتح الأكبر ؛ ثم أوفد سعد بن أبى وقاص لفتح المدائن ، كما أرسل جيشا بقيادة عتبة بن غزوان ، لكى يشغل أهل الأهواز وفارس وميسان عن أن يمدوا إخوانهم الذين كان يحاربهم سعد بن أبى وقاص .

فلما ذهب عتبة إلى جنوب العراق ، وجد سويد بن قطبة الذُّهْلِى ومعه قوة من بنى بكر بن وائل وبنى تميم يغيرون على من يجاورهم من الفرس ، فضم عتبة جيش سويد إلى جيشه ، ونزلوا فى خيام ؛ ولكن عتبة رأى أن الجنود فى

(١) التمصير : بناء المكان ، وإعداده للسكنى ، يقول الفيروزابادى : «المصر : الوعاء ، والكورة ، والطين الأحمر» انظر : القاموس المحيط : مادة (مصر) .

حاجة إلى منزل يأوون إليه إذا رجعوا من غزوهم ، ويقيهم برد الشتاء القارس ، فكتب إلى الخليفة يستأذنه فى ذلك ، فكتب إليه عمر : «أن اجمع أصحابك فى موضع واحد ، وليكن قريبا من الماء والمرعى ، وألا يفصل بينى وبينهم جبل ولا نهر ، واكتب إلىّ بصفته» . فكتب إليه عتبة : «إنى قد وجدت أرضا كثيرة القضة ، فى طرف البر إلى الريف ، ودونها مناقع فيها ماء ، وفيها قصباء» . فقال عمر : «هذه أرض بصرة ، قريبة من المشارب والمراعى والمحتطب» [1] . وكتب إليه بالموافقة على نزول الجنود بها .

بنى المسلمون فى هذه البقعة مساكن لهم ، كما بنى عتبة المسجد ، وبنى دار الإمارة فى منطقة تسمى «الدهناء» ، وبنى بها الديوان والسجن وحمام الأمراء ، وذلك لقربها من الماء ، كل ذلك بنوه من القصب ، وكانوا كلما خرجوا للغزو نزعوا القصب وحزموه حتى يعودوا إليه فيبنوه من جديد . وكان ذلك فى السنة الرابعة عشرة من الهجرة ، سنة خمس وثلاثين وستمائة من الميلاد .

وفى السنة السابعة عشرة من الهجرة عين عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعرى واليا على البصرة ، فبنى المسجد ودار الإمارة من اللبن .

ولما عين زياد ابن أبيه واليا على البصرة من قبل معاوية بن أبى سفيان ، حول دار الإمارة إلى صدر المسجد . وبناها باللبن ، وبنى المسجد بالحصى ، وجعل سقفه من الساج ، وجلب سواريه من الأهواز .

وفى عهد سليمان بن عبد الملك أمر ببناء دار الإمارة بالحصى والآجر ، ورفع سمكها ، ثم هدمها هارون الرشيد ، وأدخلها فى المسجد ، فلم يبق للأمراء بالبصرة دار إمارة [2] .



---

(١) فتوح البلدان : ٣٤٦ .

(٢) معجم البلدان : ٢ / ١٩٢ .

المبحث الثانى

عمـارتـهـا

لعل موقع البصرة كان له أكبر الأثر فى سرعة نموها وازدهارها ، فالعرب الوافدون عليها مازالت تغلب عليهم نزعة البداوة ، وما زالوا يميلون بطبعهم إلى الحياة الفطرية الخالية من القيود والتكاليف ، ولكنهم مع هذا يفتحون مدنا أخذت نصيبها من الحضارة ، ويتصلون بشعوب رسخت أقدامها فى المدنية ، والنفس تميل دائما إلى كل جديد وطريف ، فليس ثمة بأس من أن يأخذوا شيئا من هذه الأمم ، وأن يحتفظوا فى الوقت نفسه بمقومات حياتهم ، وليس أدعى إلى ذلك ولا أكثر عونا ، عليه من هذه المدينة التى تقع بين البادية والحضر ، فتتيح للعرب مايطمئنهم على عروبتهم ، ولا يخرجهم من إلفهم ، كما تتيح لهم أيضا حياة لينة رغبوا فيها وألفوها ، وحضارة رخية سعوا إليها وطلبوها [1] .

فكان من الطبيعى – بعد أن مصرها عتبة بن غزوان – أن يتقاطر عليها العَرب الفاتحون ، ثم تأخذ فى الاتساع والعمران بمن يتناسل فيها من أبنائهم ، ومن يفد عليها مما يحيط بها من البلدان . وأن يوجد بها من وسائل الحضارة ما لم يكن منه بد فى ذلك الوقت ، فتقام الأسواق ، وتكثر المتاجر ، وتنشأ الحمامات ، وتقام حلقات الأدب التى لم يبتعد عهد العرب بها .

فبعد أن اتخذت البيوت من القصب فى عهد عتبة بن غزوان ، ما لبثت أن تحولت إلى اللبن على يد أبى موسى الأشعرى ، ثم ما لبث أن عرف الآجر والحصى طريقهما إليها فى عهد زياد بن أبيه ، فأصبح فى البصرة المنازل الكبيرة ، والقصور الجميلة ، وأصبحت مدينة كثيرة الأشجار والأنهار ، عامرة الأسواق

(١) مدرسة البصرة النحوية : ٢٦ .

والحوانيت ، يقصدها الناس للتجارة ، والأدباء للمناشدة والمفاخرة والمناقضة ، وامتلأت مساجدها بالطلاب والعلماء ، وعلى الجملة أصبحت نجمة القاصدين ، ومحط رحال المسافرين [1].

وليس أدل على ما آلت إليه البصرة من الاتساع من أنها كانت وقت تمصيرها فرسخين فى فرسخ [2] . ثم أصبحت فى زمن ولاية خالد بن عبدالله القسرى – أى : سنة ١٠٥ هجرية – فرسخين فى فرسخين ، أى أنها أصبحت ضعف المساحة التى كانت عليها عند بدء تخطيطها [3].

كما بلغ عدد سكانها من العرب ومن اختلط بهم من الموالى سنة خمسين هجرية ثلاثمائة ألف نسمة بعد أن كان العرب ثمانين ألفا ، وعدد عيالاتهم مائة وعشرين ألفا فى عهد زياد المتوفى سنة خمسين هجرية : وهذا دليل على كثرة عدد الموالى فى البصرة آنذاك [4].

وقد تقاسمتها قبائل العرب ، فأقامت كل قبيلة فى جانب منها بحسب بطونها وأفخاذها ، وأقاموا فيها أسواقا أدبية – مثل أسواقهم فى الجاهلية – للمفاخرة والمناضلة والمناشدة ، وكان أشهرها «المربد» ، وكانت بها سوق تعرف باسم (سوق الإبل) ، ثم صارت محلة عظيمة سكنها الناس وأقاموا بها مفاخرات للشعراء ، ومجالس للخطباء [5].

أما العصر الذهبى للبصرة فكان إبان حكم العباسيين ، إذ بلغت فى عهدهم قمة مجدها فى الاقتصاد والعمارة والعلم ، حتى أصبحت ثانية بغداد فى الأهمية والذكر، فراجت تجارتها ، إذ أصبحت – بحكم موقعها – مركزا للتجارة بين أوربا والعراق والعجم والهند : وكانت مساجدها ومكتباتها غاصة بطلاب العلم ، ورواد الأدب ، يقصدها الناس من عرب وفرس وهنود وغيرهم لتلقى العلم ، ودراسة

---

(١) مدرسة البصرة النحوية : ٢٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ٣٢٣ . والفرسخ : ثلاثة أميال ، أو اثنا عشر ألف ذراع . (القاموس المحيط) .

(٣) العقد الفريد : ٢ / ٢٦٦ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : ٧٦٠ ، فتوح البلدان : ٣٥٠ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٢٠٠ .

الأدب ، والتفقه فى الدين على أيدى علماء أعلام مثل الحسن البصرى ، والأشعرى ، وإخوان الصفا [1] .

ثم وفد على البصرة عدد غير قليل من العرب والموالى ، فامتزجوا بأهلها ، وتفاعلوا معهم ، ونشأ منهم جميعا هذا الرعيل الأول من العلماء الذين استطاعوا أن يضربوا بسهم نافذ فيما درسوا من علوم ، وكان لهم من مواهبهم وعبقرياتهم ما مكنهم من أن يضعوا أسس علوم ما لبثت – بعد فترة من الزمن – أن أصبحت علوما مستقلة ، لها كل مقومات العلم ، بل لها تفريعات العلم الدقيقة ، وافتراضاته البعيدة التى يمكن أن توصف بأنها تعسفية ، والتى دفعهم إليها اطلاعهم على ما ترجم من المنطق والفلسفة ، مما أثر فى تفكيرهم ، ونحوا به منحى فيه شىء من التعقيد ، ولعل علم العروض ، وعلم النحو ، والطريقة الدقيقة التى اتبعها الخليل بن أحمد فى حصر كلمات اللغة العربية واستقصائها ، ووضع معجم يضمها وفقا لمخارج الحروف – وهو معجم العين – خير شاهد على ذلك [2] .

وقد ذكر أبو عبيدة أن النضر بن شميل لما ضاقت به المعيشة بالبصرة ، وأراد الخروج إلى خراسان ، خرج يشيعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ، ما فيهم إلا محدث أو لغوى أو نحوى أو عروضى أو إخبارى [3] .

وكان عدد كبير من هؤلاء العلماء من الموالى ، بل لعل جلهم كانوا منهم ، فهؤلاء الموالى كانوا أصحاب حضارات قديمة ، وعلوم مدروسة ، ومدنيات موروثة : وقد اقتضت ظروفهم أن يختلطوا بالعرب ، وأن يعيشوا معهم ، بعد أن تغلب العرب عليهم وأخضعوهم لهم ، فلم يكن ثمة بد إذا أرادوا أن يكون لهم مكانة عند هؤلاء المتغلبين من أن يدرسوا لغتهم ، وأن ينبغوا فيما يمكن أن يجدَّ فى هذه الدولة من علوم ، وأن ينقلوا فى أثناء ذلك شيئا مما كان لهم من ثقافة ، وبهذا يظهر فضلهم ، وتظهر حاجة الدولة إليهم ، وقد تم لهم ذلك ، ومن ثم عظم شأنهم ،

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية : ٦٧٠ .
(2) مدرسة البصرة النحوية : ٣٣ .
(3) طبقات الزبيدى : ٥٣ .

وبعد صيتهم ، وأصبحوا رءوس مذاهب ، وأصحاب مدارس ، ومبتكرى علوم ، ومبدعى فنون ، وأصبح لهم فى الدولة الإسلامية شأن خطير ، وبخاصة إبان العصر العباسى الذى فتح لهم السبيل ، ومهد أمامهم الطريق ، وأخذ بيد المبرزين منهم فجعلهم فى أماكن الشرف والرياسة .

وكانت فارس أقرب البلاد إلى البصرة ، فكان طبيعيا أن يرحل بعض الفرس إلى البصرة ، وأن يجد النابهون فيها ميدانا فسيحا ، ومرتعا خصيبا ، فتجلت ثم عبقريات عظيمة ، وعقول زاخرة ، وخلدت أسماء معروفة .

ويبدو أن وجود هذا الخليط الكبير من العرب المنتمين إلى قبائل مختلفة والموالى فى مدينة واحدة كان من مقتضياته وجود فتن وخلافات كثيرة ، ولا سيما فى عهد بنى أمية الذى كان يرى فى اشتعال نار القبلية ، وتحريك الثارات القديمة ، وتحريض الشعراء على التهاجى والمفاخرة والمنافرة خير عون له على تثبيت قدمه ، ورسوخ ملكه ، وصرف الناس عن البحث فى عيوبه ، وتتبع أخطائه ، كما كان يرى الاعتزاز بالعرب ، وأنهم أحق بالتقديم على الموالى ، وأولى منهم بالرئاسة ؛ فضلا على ما كان من دسائس الخوارج ومكائدهم آنذاك [1].

وكانت النزعة السياسية الغالبة على أهل البصرة عثمانية ، وإنما صارت عثمانية منذ وقعة الجمل سنة ست وثلاثين للهجرة ، وكانت عند الخريبة إحدى ضواحى البصرة ، حيث ناصر أهل البصرة عائشة وطلحة والزبير على علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه – فقاتلوهم [2]. ويظهر ذلك بجلاء فى موقف بنى قشير من أبى الأسود الدؤلى ، رغم مصاهرته لهم ، لمشايعته عليا ، وانحيازه إلى جانبه، على ما سيأتى عند ترجمة أبى الأسود إن شاء الله .

ويروى أنه سئل رجل من أهل البصرة : أتحب عليا ؟ فقال : كيف أحب رجلا قتل من قومى من لدن كانت الشمس هكذا ، إلى أن صارت هكذا ثلاثين ألفا ؟! [3].

---

(١) مدرسة البصرة النحوية : ٣٤ .

(٢) العقد الفريد : ٢ / ٢٦٤ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : ٦٦٩ .

المبحث الثالث

البصرة فى أعين الناس

اختلفت نظرة الناس إلى البصرة ، فمن مادح لها ، معجب بها ، ذاكر لفضلها وميزاتها : ومن ذام لها ، قادح فيها ، مبرز لعيوبها ومساويها : وهذا من أجل طبائع الأشياء ، إذ لم يعهد أن اتفق الناس على أمر واحد ، وإنما تتعدد النظرات بتعدد أهواء أصحابها : فهذا ابن أبى عيينة المهلبى يمتدح البصرة :

يَا جَنَّةً فَاقَتِ الجِنَانَ فَمَا ... يَبْلُغُهَا قِيمَةٌ وَلَا ثَمَنْ
أَلِفْتُهَا فَاتَّخَذْتُهَا وَطَنًا ... إِنَّ فُؤَادِى لِمِثْلِهَا وَطَنْ
مِنْ سُفُنٍ كَالنَّعَامِ مُقْبِلَةٍ ... وَمِنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا السُّفُنْ(١)

وهذا أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى ، ينعى بغداد ويذم البصرة:

لَهْفَ نَفْسِى عَلَى المقَامِ بِبَغْدَا ... دَ وشُرْبِى مِنْ مَاءِ كُوزٍ وَثَلْجِ
نَحْنُ فِى البَصْرَةِ الذَّمِيمَةِ نُسْقَى ... شَرَّ سُقْيَا مِنْ مَائِهَا الأُتْرُنْجِى(٢)
أَصْفَرٌ مُنْكَرٌ ثَقِيلٌ غَلِيظٌ ... خَاثِرٌ مِثْلُ حُقْنَةِ القُولَنْجِ(٣)
كَيْفَ نَرْضَى بِمَائِهَا وَبِخَيْرٍ ... مِنْهُ فِى كَنَفِ أَرْضِنَا نَسْتَنْجِى ؟!(٤)

---

(١) معجم البلدان : ٢ / ٢٠٣.
(٢) الأترنجى : الذى تغير لونه حتى صار كلون البرتقال .
(٣) القولنج : اعتقال الطبيعة لانسداد المعى ، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم (القولون) .
(٤) معجم البلدان : ٢ / ٢٠٣ .

وتشتهر البصرة بتقلب مناخها ، وتغير هوائها من الضد إلى الضد فى اليوم الواحد حتى أطلق عليها (الرعناء) ، يقول الفرزدق :

لَوْلَا أَبُو مَالِكِ الْمَرْجُوُّ نَائِلُهُ   مَا كَانَتِ الْبَصْرَةُ الرَّعْنَاءُ لِى وَطَنَا

كما اشتهر التجار من أهلها بالدقة فى الحساب ، والحرص على الربح ، حتى اشتهروا من بين أهل البلاد الأخرى بالبخل [1].

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق .

الفصل الثانى

البصرة

هى الرائدة فى وضع النحو

علمنا – من كل ما تقدم – أن النحو قد وضع ونما واكتمل على أرض البصرة، وعلى أيدى علمائها، وإن كانت الكوفة قد شاركتها هذا العمل فى بعض مراحله، إلا أن البصرة كانت لها الريادة والسبق، حيث بدأ علماء الكوفة الاشتغال بالنحو متأخرين عن أقرانهم البصريين بنحو قرن كامل على أقل تقدير، وهذا السبق لم ينعقد للبصرة من فراغ، وإنما لابد أن تكون لها من الميزات والخصائص التى تؤهلها لكى تحتل هذه المكانة، وتعقد لها هذه الريادة، ولعلها تكمن فيما يلى:

(أ) موقعها الجغرافى:

تقع البصرة على مسيرة ثلاثمائة ميل إلى الجنوب الشرقى من بغداد، فى تلك البقعة التى يصب فيها نهرا دجلة والفرات مياههما فى البحر[1]. وكان لهذا الموقع أكبر الأثر فى تكوين شخصيات سكانها العلمية، وصقل معارفهم، ونضج أفكارهم، ويتمثل ذلك فى:

١– وقوعها على مشارف البادية، موطن الأساليب الفصيحة، واللغة السليمة، المبرأة من شوائب اللحن والدخيل: حيث كان العلماء يرحلون إلى البادية تارة، ويستقبلون الأعراب القادمين من البادية إلى مدينتهم تارة أخرى، ففى رحلتهم إلى البادية يلتقون بالعرب الخلص، ويشافهونهم، ويأخذون

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٣ / ٦٦٩.

اللغة عنهم ، فيستقونها من منابعها الأصيلة ، ومن أشهر من رحل إلى البادية منهم ، لجمع اللغة ومشافهة الأعراب : الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والنضر بن شميل ، وأبو زيد الأنصارى ؛ وأبرز دليل على ذلك قول الخليل – حينما سأله الكسائى عن مصدر علمه – : «من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة» ، فخرج الكسائى إلى البادية ، وأنفد خمس عشرة قنينة من المداد فى الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظه [1].

أما قدوم الأعراب من البادية إلى البصرة ، فقد أخذ صورا متعددة ، فمنهم من كان مكثه بها لفترة وجيزة ، ثم يعود أدراجه إلى باديته ؛ ومنهم من كان يطول مكثه بالبصرة ثم يعود إلى قبيلته ؛ ومنهم من كان يطيب له المقام بالبصرة فلا يغادرها ، وكان طلاب العلم واللغة يقبلون على هؤلاء الأعراب للاستماع إليهم ، ومشافهتهم ، والأخذ عنهم ؛ وكان هؤلاء الأعراب ينتمون إلى قبائل مختلفة ، وقد اشتهر منهم عدد كبير ، منهم أبو مهدية الذى كان يتكلم فى اللغة بلهجة أهل الحجاز ، والمنتجع بن نبهان الذى كان يلتزم لهجة تميم اللذان ورد ذكرهما فى مناظرة عيسى بن عمر وأبى عمرو بن العلاء [2] ؛ كما اشتهر منهم أبو البيداء الرياحى ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، وأبو طفيلة الحرمازى ، ورؤبة ابن العجاج الذى أعجب به يونس بن حبيب ولزمه ، ونسب إليه غالب مروياته فى اللغة والنحو والأدب ، حتى أطلقوا عليه اسم (غلام رؤبة) [3] .

٢ – ولما كانت البصرة مرفأ تجاريا للعراق على خليج العرب ، فقد وفدت إليها عناصر أجنبية كثيرة ، حيث تزدهر التجارة ، وتنشط الأيدى العاملة لاستغلال الأراضى ، والقيام ببعض الصناعات ؛ ومن ثم فقد التقى فى البصرة العرب والفرس والهنود واليونان ، كما التقت بها النصرانية واليهودية والمجوسية والإسلام .

---

(١) إنباه الرواة : ٢ / ٢٥٧ ، ومعجم الأدباء : ١٣ / ١٦٩ .

(٢) راجع ص ٨٨ .

(٣) المذاهب النحوية : ١٩ – ٢٠ .

كما أن قرب البصرة من مدرسة (جنديسابور) فى فارس التى كانت تدرس فيها الثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، قد جعل جداول من هذه الثقافات جميعا تصب فيها : ولا غرو فإن أقدم المترجمين قد وجد بها ، وهو (ماسرجويه) الذى عهد إليه عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – بترجمة كتاب فى الطب ، كما وجد بها عبدالله بن المقفع الذى كان يتقن الفارسية ، ويحذق العربية ، فترجم إلى العربية أروع ما فى الفارسية من كنوز تاريخية وأدبية ، وعلى يديه – أو يدى ابنه محمد – ظهرت أول ترجمة عربية لمنطق أرسطو ، وترجم أيضا كتاب (كليلة ودمنة) الهندى : كما وجد بها كذلك حنين بن إسحق اليهودى الذى كان يترجم الكتاب ، فيعطيه المأمون بوزنه ذهبا .

كما كانت البصرة موطن الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا السبيل أمام الحكمة اليونانية لكى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية ، وكان غالبية نحاة البصرة من الشيعة والمعتزلة ، مما جعل لعلم الكلام تأثيرا واضحا فى علم النحو ، من حيث التقسيم ، والتعليل ، والتأويل والقياس .

(ب) الاستقرار الاجتماعى :

نعمت البصرة بنعمة الاستقرار ، وعمها الأمن والأمان ، ونأت عن التقلبات السياسية ، والخلافات المذهبية ، والصراع بين الطبقات ، فقد عم الأمن ، وساد الاستقرار ، وذابت الفوارق بين طبقات المجتمع ، وبرز ما يشبه الاندماج بين العناصر المختلفة عربية وغير عربية ، كما ظهر من الطبقات المختلفة مشاركة فى الأعمال العمرانية ، واشتغالا بالأعمال التجارية عن الخصومات التى تغذيها العصبيات ، مع أن فيها من قبائل العرب من يتمتعون بقسط وافر من الوجاهة والمكانة ، ففيها تميم وعلى رأسها الأحنف بن قيس ، وفيها الأزد وعلى رأسها صبرة بن شيمان ، وفيها غيرهما من بطون القبائل الأخرى .

لذلك نجد أكثر الأجانب يتجهون إلى البصرة ، لأنهم كانوا يجدون فيها حياة مستقرة آمنة ، فكثرة الأجانب فى البصرة ، واشتراك البصريين فى الأعمال

التجارية التى هيأها لهم مركزها المتوسط ، ووقوعها فى مفترق الطرق التجارية ، تتلاقى عندها من الشمال والجنوب والشرق والغرب ... كل ذلك جعل من سكان البصرة – سواء أكانوا عربا أم موالى – شعبا واحدا . أو شبه موحد : فإذا انتقل الزائر بين مساجدها ومعاهد العلم فيها ، وجد القاصّين والواعظين ، والفقهاء والمحدثين ، وأكثرهم من الموالى ، قد جلس إلى حلقاتهم المستمعون إلى القصص الدينى ، والأحاديث النبوية ، وأحكام الدين ، وتفسير القرآن الكريم ، وفيهم العربى والفارسى والهندى وغيرهم .

وإذا استمعت إلى مفاخرهم ، وجدتهم يفخرون بمثل أنس بن مالك ، والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم ، وجلهم من الموالى ، حتى قيل : «من نزل البصرة فلم يقرلهم بثلاث فليست له بدار : بفضل عثمان ، وفضل الحسن البصرى ، ورطب الأزاذ» [1].

وبفضل حياة الاستقرار السياسى ، والأمن الاجتماعى فى البصرة ، فقد سبقت إلى التحضر ، والاشتغال بالعلوم ، والاستفادة من الثقافات المختلفة ، وتلاقت فيها العقليات المختلفة ، وظهرت المذاهب الدينية والفلسفية : وفى مثل هذه البيئة المستقرة ، تلتمس الحياة العقلية المنظمة ، وتبدو بواكير العلوم المختلفة التى تحتاجها هذه الحياة المتحضرة .

(جـ) سوق المربد :

وهى سوق مشهورة ، تقع عند الباب الغربى لمدينة البصرة ، وكانت تسمى قديما (سوق الإبل) ، لأنها كانت مقصورة على تجارة الإبل دون غيرها من الدواب ، ثم سميت (المربد) لأن الإبل كانت تنيخ فيه ، إذ كل مكان حبست فيه الإبل يسمى (مربدًا) [2] ؛ ثم صارت محلة عظيمة سكنها الناس ، وأقاموا بها مفاخرات

---

(١) مدرسة الكوفة : ١٤ – ١٥ ، والبلدان لابن الفقيه : ١٦٦ ، والأزاذ : نوع من التمر عرفته البصرة قديما . (القاموس المحيط : مادة : أزاذ) .

(٢) وقيل : سميت (المربد) لأنها الموضع الذى يباع فيه التمر ، أو يجفف فيه التمر ، والمربد للتمر كالبيدر للحنطة . (انظر : لسان العرب : مادة : ربد) .

الشعراء ، ومجالس الخطباء ، وقد بلغت سعتها وسعة البصرة مساحة عظيمة ، إذ كانت المسافة بينها وبين البصرة فى القرن السادس الهجرى ثلاثة أميال ، حتى كانت تبدو كالبلد المنفرد ، وكان ما بينهما عامرا [١].

وكان سبب إنشاء المربد ، أن العرب الوافدين على البصرة من وسط الجزيرة العربية كانوا يجدون فى مشارفها مكانا صالحا لوضع الرحال ، وعرف سكان البصرة ذلك ، فكانوا ينتظرونهم فيه للتجارة ، وتبادل المنافع معهم : وسرعان ما تحول الموضع إلى سوق كبيرة نشطت فيها التجارة ، وأمها الشعراء والأدباء ، فازدهرت فيهما الحياة الأدبية ، ونافست عكاظ فى مجدها ومكانتها ، فأصبحت فى المواسم التى يفد فيها الأعراب أشبه بالنوادى الأدبية والثقافية ، يؤمها الفصحاء من الأعراب ، ويتناشد فيها الشعراء ، ويفيد من ذلك طلاب اللغة والأدب الذين كانوا يحرصون على الخروج إليها لمشافهة الأعراب ، والأخذ عنهم ، وملاحظتهم فى استعمال مخارج الحروف ، وسلامة الإعراب ، وفصاحة الأسلوب ؛ ومن ثم ذاع صيت المربد ، وأصبحت لها اليد الطولى على كثير من الشعراء والكتاب وأئمة اللغة مثل : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والراعى النميرى ، وابن المقفع ، والجاحظ والأصمعى وغيرهم ، وفى هذا يقول الأصمعى :

«جئت إلى أبى عمرو بن العلاء ، فقال : من أين جئت يا أصمعى ؟ قلت : من المربد ، قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فأخذ يعدو فى الدرجة قائلا : شمرت فى الغريب يا أصمعى» [٢].

وتحدث ياقوت الحموى عن أثر المربد فى تكوين شخصية الجاحظ الأدبية فقال عنه : «سمع من أبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأخذ النحو عن الأخفش أبى الحسن ، وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة عن العرب شفاها بالمربد» [٣].

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٢٠٠ .
(٢) معجم البلدان : ٢ / ٢٠٢ .
(٣) معجم الأدباء : ١٦ / ٧٥ .

وهكذا كان لسوق المربد أثرها الكبير فى تكوين ثقافة البصريين ، ومذهبهم فى النحو [1].

(د) مسجد البصرة :

ولا يخفى كذلك أثر مسجد البصرة فى تنمية الوعى الثقافى المستنير فى البصرة ، فقد كانت تعقد فيه حلقات الدراسة ، ومجالس القراءة ، والوعظ ، واللغة ، وعلم الكلام ، والتفسير ، والحديث ؛ وكان يؤم هذه المجالس أهل البصرة من العرب والفرس والهنود ، كما كان يؤمها بعض الأعراب الوافدين من البادية ، وبقدر مكانة المتصدر للتدريس فى المجلس ، يزدحم الطلاب ، وتعظم الحلقة ، ومن أشهر هذه المجالس مجلس الحسن البصرى ، وقصته مع واصل بن عطاء معروفة ، حيث اعتزل مجلسه ، وقال بالمنزلة بين المنزلتين ، وتبعه جماعة عرفوا فيما بعد بالمعتزلة .

ومنها أيضا مجلس حماد بن سلمة ، الذى كان سيبويه يحرص على الجلوس فى حلقته ، ويكتب ما يمليه عليه حماد من الأحاديث ، وقد لحن فى أحدها ، فطلب النحو ، ولزم الخليل بن أحمد ، على نحو ما نفصله فى ترجمة سيبويه إن شاء الله .

ومنها كذلك مجلس موسى بن سيار الأسوارى الذى قال عنه الجاحظ : «كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، كان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين» [2] .

ومنها أيضا مجلس أبى عمرو بن العلاء الذى كان يعلم فيه القراءات ، واللغة ، والنحو ، ويزدحم الطلاب فيه ؛ وقد مر به الحسن البصرى ذات مرة ،

(١) راجع فيما تقدم : المذاهب النحوية : ٢٠ – ٢١ .
(٢) البيان والتبيين : ١ / ٣٤٦ .

وشاهد ازدحام الطلاب فيه ، فقال : «لا إله إلا الله ، لقد كاد العلماء أن يكونوا أربابا ، كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يئول» [1].

ولعل من أعظم مجالس مسجد البصرة ، كان مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدى ، حيث كان يضم مجموعة من الدارسين صاروا فيما بعد من أئمة اللغة والنحو ، أمثال : سيبويه ، والنضر بن شميل ، وعلى بن حمزة الكسائى ، وأبى محمد اليزيدى ، والأصمعى ، وغيرهم .

كذلك كان مجلس يونس بن حبيب ، الذى ازدحم بالدارسين ، وقصده فصحاء العرب ، وقد ساعد على ذلك ما كان يتمتع به يونس من نفس زكية ، وخلق رضى ، وبذل للعلم ، وكان من أشهر رواده : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو محمد اليزيدى ، وقطرب ، وسيبويه ، وأبو عمر الجرمى ، والكسائى ، والفراء ، وخلف الأحمر ، وابن سلام الجمحى .

ويبدو من ارتياد سيبويه ، والكسائى ، واليزيدى ، والأصمعى ، وغيرهم مجلس الخليل بن أحمد ثم مجلس يونس بن حبيب ، أن حلقة يونس قد بدأت فى عهد الخليل ، ولكنها لم تكتمل إلا بعد وفاة الخليل ، حيث تحول إليها كثير من رواد مجلس الخليل ، وانخرطوا فيها : وعن مجلس يونس يقول مروان بن أبى حفصة : «لم أر حلقة أعظم من حلقة يونس» [2].

مما تقدم يتضح ما كان لمسجد البصرة من أثر واضح فى صقل ثقافة ومعارف أهل البصرة والوافدين عليها من اللغة ، والنحو ، والأدب ، وعلم الكلام ، والتفسير ، والحديث ، مما هيأ الحياة العقلية فى البصرة للتفكير فى وضع علم خطير كعلم النحو .

---

(١) طبقات القراء : ١ / ٢٩١ .

(٢) يونس بن حبيب : ٣٣ .

الفصل الثالث

البصرة تطور النحو

نشأ النحو أول أمره صغيرا ، شأن كل كائن ، فوضع أبو الأسود منه ما أدركه عقله ، ثم أقره الإمام على – كرم الله وجهه – على ما وضعه ، وأشار عليه أن يقتفيه ، فقام بما عهد إليه خير قيام ؛ وكانت هذه النهضة الميمونة بالبصرة ، التى كان أهلها يميلون بطبيعتهم إلى الاستفادة من هذا الفن اتقاء لوباء اللحن الرازى بصاحبه ، وبخاصة الموالى الذين كانوا أحوج الناس حينذاك إلى تلقى هذا العلم ، رغبة منهم فى تقويم لسانهم ، وتخليصه من رطانة العجمة ، وحبا فى معرفة لغة الدين الذى اعتنقوه ، وطمعا فى رفع قدرهم بين العرب ، فصدقت عزيمتهم فى دراسته ، والتزود منه ، وما انفكوا جادين فيه بعدئذ حتى نبغ منهم كثير ، قاموا بأوفى قسط فى هذا العلم ، وقادوا حركته العلمية [1] .

فبعد أن وضع أبو الأسود بذرة هذا العلم الخطير ، ما لبثت هذه الفكرة أن اتضحت بعض الوضوح فى الأذهان ، وإن دفع إلى التفكير فيها ، والعناية بها ما ظهر من كثرة الخطأ ، وتفشى اللحن ، وما بدا من عدم تمرس تام باللغة ، وعدم الوقوف على أسرارها واستعمالاتها ، فكان يكتفى بأن يظهر خطأ يقع فيه قائله فيرده سامعوه إلى الصواب ، أو مأخذ يخيل للبعض أن عربيا فصيحا اقترفه فيأخذونه به ، فيبين لهم وجه خطئهم ، ويرشدهم إلى وجه الصواب فيما يقول .

استمر الأمر على هذا النحو فترة من الوقت ، اختلاف فى الرأى أو الفهم . يؤدى إلى اختلاف فى استعمال اللغة ، أو اختلاف فى ضبط المنقول ، يؤدى إلى اختلاف فى نطقه ، وقد اضطلع بهذا الأمر – بعد أبى الأسود – تلاميذه

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٤ .

عبد الرحمن بن هرمز ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وتلاميذهم عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب .. إلخ .

وإذا أردنا أن نتتبع المراحل التى مر بها علم النحو فى تطوره ، نجده قد مر بمراحل خمسة :

(أ) ضرب المثل ، وسوق الدليل :

إذ اضطر العلماء فى هذه المرحلة الأولى إلى ضرب المثل ، وسوق الدليل على صحة ما يقولون ، وسلامة ما ذهبوا إليه ، وتأصله فى اللغة ، وجريانه على نمط كلام العرب وأسلوبهم : فهذا أبو الأسود الدؤلى حينما أخذ عليه بنو قشير تردده فى تشيعه ، وتأرجحه بين أن يكون ما يدين به رشدا أو ضلالا فى قوله :

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

يبين لهم أن قوله ذلك ليس شكا منه ، وأنه ليس بدعا فى قوله ، وإنما ذلك من باب التبزل فى جدال الخصم ، وسوق الأسلوب مساق ما يألفه ، ويضرب لهم مثلا بقول الله - تعالى - على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

ثم يقول فى مقام آخر : «من العرب من يقول : لولاى لكان كذا وكذا» (٢)، وهو فى معرض جواز المجىء بالضمير بعد لولا : ثم يسوق دليلا على صحة ذلك بقول الشاعر :

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَاىَ طِحت كَمَا هَوَى ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُنَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى

(ب) اتباع السابقين والأخذ عنهم :

فهذا عبد الله بن أبى إسحق الذى كان يقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ - بتنوين (أحد) ، ثم ينقل إليه أن نصر بن عاصم الليثى قرأها من غير تنوين

---

(١) سورة سبأ : آيه ٢٤ .

(٢) العقد الفريد : ٢ / ٤٨٥ .

لتفادى التقاء الساكنين ، فإذا أخبر أن عروة يُنَوِّن ، يقول : «بئسما قال ، وهو للبئس أهل» ، ثم يعود فيقرأ بغير تنوين كما كان يقرأ نصر بن عاصم [1].

وهذا عيسى بن عمر عندما يقرأ بإمالة (الألف) ، ويحتج لذلك بأنه سمع كثير عزة يقول : صار بمكان كذا وكذا ، أى بالإمالة [2].

وهذا النابغة الذبيانى حين يقول :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ فِى أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

فيخطئه عيسى بن عمر بقوله : وجهه أن يكون : السم ناقعا ؛ كما يخطئه فى قوله:

زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا ... وَبِذَاكَ خَبَّرَنَا الْغُرَابُ الأَسْوَدُ

حيث أتى بحرف الروى مرفوعا ، وهو فى القصيدة كلها مجرور ، حيث تبدأ بقوله :

مِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ ... عَجْلَانَ ذَا زَادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

فلما لم يفهم النابغة وجه تخطئة عيسى له [3]، أتى له عيسى بمغنية غنته الأبيات ، ومدت حرف (الدال) وأشبعته قائلة :

وَبِذَاكَ خَبَّرَنَا الغُرَابُ الأَسْوَدُ

ومطلت ضمة (الدال) ، فلما أحسه النابغة عرفه واعتذر عنه ، وغيره إلى :

وَبِذَاكَ تَنْعَابُ الغُرَابِ الأَسْوَدِ

وقال : «دخلت يثرب وفى شعرى صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب» [4].

كما يستدل عيسى بن عمر أيضا لصحة ما ذهب إليه من نصب الاسم على التعظيم والمدح ، بنصب لفظة (أخاها) فى قول ذى الرمة :

---

(1) أخبار النحويين البصريين : ٢٠ .
(2) الكتاب : ٢ / ٢٦١ .
(3) حينما قال له : أقويت . والإقواء : هو اختلاف حركة الروى .
(4) الخصائص : ١ / ٢٤٠ .

لَقَدْ حَمَلَتْ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ حَرْبَهَا عَلَى مُسْتَقِلٍّ لِلنَّوَائِبِ وَالْحَرْبِ
أَخَاهَا إِذَا كَانَتْ غِضَابًا سَمَا لَهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ ذَلُولٍ وَمِنْ صَعْبِ [1] .

ويجمع الحسن بن قحطبة – عند مقدمه مدينة السلام – الكسائى والأصمعى وعيسى بن عمر ، فيسأل عيسى الكسائى رأيه فى قولهم (همّك ما أهمك) ، فيقول الكسائى : يجوز كذا ، ويجوز كذا ، فيقول عيسى : «عافاك الله ، إنما أريد كلام العرب ، وهذا الذى تأتى به ليس كلام العرب» [2] .

وهذا أبو عمرو بن العلاء يسمع رجلا ينشد : ومن يَغْوَ لا يعْدَمْ على الغىِّ لائما .

فيقول له : أقوِّمك أم أتركك تتسكع فى طمتك ؟ فقال الرجل : بل قومنى ، فقال أبو عمرو : قل : ومن يغوِ – بكسر الواو – ، ألا ترى إلى قول الله – عز وجل – : «فَغَوَى» ؟! [3].

وهذا الأصمعى يسأل الخليل بن أحمد عن قول الراجز :

حَتَّى تَحَاجَزْنَ عَنِ الذُّوَّادِ
تَحَاجُزَ الرِّىِّ وَلَمْ تَكَادِى

لم قال : تكادى ، ولم يقل : تكد ؟ قال : فطحن يوما أجمع ، قال : وسألت أبا عمرو بن العلاء ، فقال – وكأنما كان على طرف لسانه – : ولم تكادى أيتها الإبل [4].

وهذا عيسى بن عمر يأتى أبا عمرو بن العلاء – وعنده اليزيدى وخلف الأحمر – فيسأله : يا أبا عمرو ، ما شىء بلغنى أنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال عيسى : بلغنى أنك تجيز : ليس الطيبُ إلا المسكُ ، فقال له أبو عمرو : نمت يا أبا عمرو ، وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، ولا فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع .

(١) ديوان ذى الرمة : ٦١٢ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٣٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٠ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٢ .

ثم يأمر أبو عمرو اليزيدى وخلف أن يذهبا إلى أبى مهدية ليلقناه الرفع فإنه لا يرفع ، وأن يذهبا إلى المنتجع التميمى ليلقناه النصب فإنه لا ينصب ، قال اليزيدى : فذهبت أنا وخلف ، وأتينا أبا مهدية ، فإذا هو يصلى ... ثم قضى صلاته وانفتل إلينا فقال : ما خطبكما ؟ قلنا : جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب ، فقال : هاتيا ، فقلت له : كيف تقول : ليس الطيبُ إلا المسكُ ؟ فقال : أتأمرانى بالكذب على كبر سنى ؟! فأين الجاوى ؟ – وحكى ابن الأعرابى أنه قال : فأين بنّةُ الإبل الصادرة [1]؟ وأين كذا ؟ وأين كذا ؟ – فقال له خلف : ليس الشرابُ إلا العسلُ . قال : فما يصنع سودان هجر ؟! ما لهم شراب إلا هذا التمر ، قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه ، قلت له : ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعمل بها ، فقال : هذا كلام لا دخل لى فيه ، ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةَ الله والعملَ بها ، فنصب ؛ قال اليزيدى : فقلت له : ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها ، ورفعته ، فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى ؛ قال : فكتبنا ما سمعنا منه .

ثم أتينا المنتجع ، فأتينا رجلا يعقل ، فقال له خلف : ليس الطيبُ إلا المسكَ ، قال : فرفع ، فلقناه وجهدنا به فى ذلك ، فلم ينصب ، وأبى إلا الرفع : قال : فأتينا أبا عمرو ، فأعلمناه – وعنده عيسى بن عمر لم يبرح – قال : فأخرج عيسى خاتمه من يده ، ثم قال : لك الخاتم ، بهذا والله فقت الناس [2].

وحين يذهبون إلى رفع لفظة (سواء) فى قولهم : مررت برجل سواء درهمه ، كما يقال : مررت برجل تمامٌ درهمه ، يحكى يونس بن حبيب أن أناسا من العرب يجرّونه كما يجرون : مررت برجل خَزٍّ صُفَّتُه [3].

وحين يقول يونس : إن (لبيك) اسم واحد ، ولكنه جاء على هذا اللفظ فى الإضافة ، كقولك : عليك ، يذهب الخليل إلى أنه تثنية بمنزلة (حواليك) ، ويقول : لأنا سمعناهم يقولون : حنان ، وبعض العرب يقول : لبٍّ ، فيجريه مجرى (أمس) و(غاق) ، ولكن موضعه نصب ، وحواليك بمنزلة حنانيك [4].

(١) الجاوى : الزعفران ، وما يتبخر به ؛ والبنة : الريح الطيبة ، وهى من الأضداد ، حيث تطلق على المنتنة أيضا .
(٢) مجالس العلماء : ٢.
(٣) الكتاب : ٢ / ٢٣٠ .
(٤) المصدر السابق : ١ / ١٧٦ .

كما يقول يونس إن قوما من العرب يقولون : أما العبيدَ فذو عبيد ، وأما العبد فذو عبد ، يجرونه مجرى المصادر سواء [1].

مما تقدم نرى أن النحاة فى هذه المرحلة كانوا يقتفون آثار سابقيهم ، ينقلون عنهم ، ويستدلون بما قالوا فى إثبات صحة ما يذهبون إليه ، دون تدخل منهم ، أو محاولة تعليل ما يقولون ، وإنما كان جل جهدهم منصرفا إلى رواية ما سمعوا من أسلافهم .

(جـ) اختلاف الآراء وتعددها :

ثم خطا النحو خطوة أخرى على طريق تطوره ، وتكمن فى اختلاف آراء النحاة حول القضية الواحدة ، وتعددها ، وأصبح كل منهم يعتد برأيه ، ويتمسك به ، بحيث نستطيع أن نلمس أن مسائل النحو لم يعد متفقا عليها ، وأن وجه الصواب فيها لم يعد مجمعا عليه ، وإنما بدأت الآراء تظهر ، وبدأت المسائل تتفرع ، وبدأت الأساليب يُتجه فيها اتجاهات مختلفة .

فهذا عبدالله بن أبى إسحق يخطئ الفرزدق عندما سمعه ينشد :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ ... مِنَ الْمَالِ إِلاَّ مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ

فقال له : على أى شىء ترفع (مجلف) ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك ، علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا .

فكان عبدالله يرى أنه معطوف على منصوب ، فيجب نصبه ، ولكن أبا عمرو بن العلاء يخالفه فى رأيه ، ويرى أن قول الفرزدق صواب ، ويخرجه على تقدير فعل ، أى : لم يَبْقَ سواه [2].

كما يأخذ عبدالله على الفرزدق أيضا قوله فى مدح يزيد بن عبدالملك :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) نزهة الألباء : ٢٤ .

عَلَى عَمَائِمِنَا تُلْقَى وَأرْحُلِنَا   عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجَى مُخّهَا رِيرِ

فيقول له : أسأت ، إنما هى (مخها ريرُ) ، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع : فوجد عليه الفرزدق وقال : أما وجد هذا الذى يجر خصييه فى المسجد لبيتى مخرجا ؟! أما إنى لو شئت لقلت :

عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

ولكنى والله لا أقوله . ولكن يونس رأى أن ما قاله الفرزدق جائز حسن [1].

وهذا عبدالرحمن بن هرمز يقرأ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [2] – بضم القاف والباء ، بينما يخالفه عيسى بن عمر بكسر القاف وفتح الباء [3].

وعبدالله بن أبى إسحق يقرأ ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [4] – بالنصب – ، ويقرأ أيضا ﴿وَالزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَ﴾ [5] ، ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ﴾ [6] – بالنصب أيضا – مخالفا بذلك ما عليه جمهور القراء [7].

وعندما يرى ابن أبى إسحق أن الاسم يجوز رفعه فى الترحم ، والتقدير : المسكين هو ، يزعم يونس أنه ليس يرفع شىء فى الترحم على إضمار شىء يرفع ، ولكنه إن قال : ضربته ، لم يقل أبدا إلا المسكينَ ، يحمله على الفعل ، وإن قال : ضربانى ، قال : المسكينان ، يحمله على الفعل أيضا ، وكذلك مررت به المسكين ، يحمل الرفع على الرفع ، والجر على الجر ، والنصب على النصب [8].

---

(١) طبقات الزبيدى : ٣٦ .
(٢) سورة الكهف : من الآية ٥٥ .
(٣) القراءات واللهجات : ١٢٥ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٢٧ .
(٥) سورة النور : من الآية ٢.
(٦) سورة المائدة : من الآية ٣٨ .
(٧) طبقات الزبيدى : ٢٧ .
(٨) الكتاب : ١ / ٢٥٦ .

وأبو عمرو بن العلاء ينكر على عيسى بن عمر قراءته : ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ﴾ [1].

وهكذ رأينا فى هذه المرحلة أن بدأت الآراء تظهر ، وتختلف ، كما بدأت المسائل تتفرع ، وبدأت الاتجاهات المختلفة تبرز فى الأساليب والتراكيب ؛ وكان لابد أن يستتبع ذلك حِجاجا واستدلالا ، مما ينم عن أن النحو سائر فى الطريق التى رسمت له ، حتى يصل إلى الغاية التى قدِّر له أن يبلغها [2].

(د) التعليل والتأويل :

فقد بدأ النحاة فى هذه المرحلة يعللون لما يذهبون إليه ، ويحتجون لما يرونه صحيحا ، ويستدلون لما يأتون مخالفا لرأى غيرهم ، كما بدأوا يتأولون النصوص تبعا لما استقر فى أذهانهم ، وما وصلت إليه أفهامهم .

فهذا عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء يقرآن : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [3] – بالنصب – ثم يذهبان إلى تأويل ذلك ، ولكنهما يختلفان فى التأويل .

فعيسى يقول : هو على النداء ، كما تقول : يا زيد والحارثَ ، لما لم يمكنه : ويا الحارثُ .

ويقول أبو عمرو : لو كان على النداء ، لكان رفعا ، ولكنه على إضمار : وسخرنا الطير ، لقوله على إثر ذلك ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ [4].

وعن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : «سمعت أعرابيا يقول : فلان لغوب ، جاءته كتابى فاحتقرها . فقلت له : جاءته كتابى ؟! فقال : أليس بصحيفة ؟! فحمله على المعنى ، وقد جاء ذلك كثيرا فى كلامهم» [5].

---

(١) سورة هود : من الآية ٧٨ .
(٢) مدرسة البصرة النحوية : ٧٠ .
(٣) سورة سبأ : من الآية ١٠ .
(٤) سورة سبأ : من الآية ١٢ .
(٥) نزهة الألباء : ٣٧ .

ويحكى سيبويه عن أبى عمرو بن العلاء قوله : ألا رجلَ إما زيدًا وإما عمراً ، ثم يعلل له بقوله : لأنه حين قال : ألا رجل ، فهو متمنٍّ شيئا يسأله ويريده ، فكأنه قال : اللهم اجعله زيدا أو عمرا ، أو وفّق لى زيدا أو عمرا : وإن شاء أظهره فيه[1].

وحكى الأصمعى أن الفرزدق حضر مجلس ابن أبى إسحق ، فقال : كيف تنشد هذا البيت :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللّهُ كُونَا فَكَانَتَا فَعُولانِ بِالأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ[2]

فقال الفرزدق : كذا أنشده ، فقال ابن أبى إسحق : ما كان عليك لو قلت : فعولين ؟ فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبِّح لسبحت ، ونهض ، فلم يعرف أحد فى المجلس قوله (لو شئت أن أسبح لسبحت) ، فقال ابن أبى إسحق : لو قال (فعولين) لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ، ولكنه أراد : هما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر[3].

وهكذا نرى عيسى بن عمر ، وأبا عمرو بن العلاء يعللان لنصب لفظة (الطير) ، وإن كانا يختلفان فى التأويل ، فكل يذكر ما تراءى له ؛ ونجد الأعرابى يعلل لقوله (جاءته كتابى) بأن الكتاب فى أصله صحيفة ، فيجوز حمله على المعنى ؛ وكذا نرى سيبويه يعلل لقول أبى عمرو إما زيدا وإما عمرا ، بأن يحمله على التمنى ؛ ونرى ابن أبى إسحق يعلل لقول ذى الرمة (فعولان) بأن مراده : هما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر ؛ وهكذا بدأت مرحلة التعليل والتأويل فى النحو ، مما يوحى بدخوله مرحلة الاكتمال .

وينقل سيبويه عن عبدالله بن أبى إسحق أنه أجاز نصب لفظة (المراء) فى قول الشاعر :

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

ثم يعلل سيبويه لصحة ماذهب إليه بقوله : «كأنه قال : إياك ، ثم أضمر بعد (إياك) فعلا آخر فقال : اتق المراء[4].

---

(١) الكتاب : ١ / ١٤٤ .

(٢) البيت : لذى الرمة فى ديوانه : ٢١٣ ، والأغانى : ١١٧/١٦ .

(٣) مجالس العلماء : ٦٦ .

(٤) الكتاب : ١٤١/١ .

كما ينقل سيبويه عن يونس بن حبيب أنه قال : «المؤنث المسمى باسم مذكر كزيد وعمرو لا يجوز صرفه» ، ويرى سيبويه أن ذلك هو القياس ، ثم يعلل لذلك بقوله : «لأن المؤنث أشد ملاءمة للمؤنث ، والأصل عندهم أن يسمى المؤنث بالمؤنث ، كما أن الأصل تسمية المذكر بالمذكر»[1].

كما ينقل عن عيسى بن عمر أنه كان يصرف امرأة اسمها عمرو ؛ ثم يعلل لذلك بقوله : لأنه على أخف الأبنية[2].

ويسأل سيبويه الخليل بن أحمد عن ضبط لفظة (أنفسهما) فى قولهم : مررت بزيد وأتانى عمرو أنفسهما . فيجيبه الخليل بأنه يجوز فيها الرفع والنصب ، ثم يعلل لذلك بقوله : «الرفع على هما صاحباى أنفسهما ، والنصب على أعنيهما ، ولا مدح فيه ، لأنه ليس مما يمدح به»[3].

ويروى سيبويه عن يونس وأبى عمرو أن مما يختار فيه الرفع قولهم : أما العبيد فذو عبيد ، وأما العبدُ فذوعبد ، وأما العَبدان فذوعبدين ؛ ثم يعلل للرفع بقوله : «وإنما اختير الرفع لأن ما ذكرت فى هذا الباب أسماء ، والأسماء لا تجرى مجرى المصادر»[4].

ويتحدث سيبويه عن حذف الفعل لكثرته فى الكلام فيقول : مثل ذلك فيما زعم الخليل :

إِذَا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِى ... وَلَوْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمَّ عَمَّارِ

ثم يشرح الخليل وجهة نظره ، ويعلل لنصب (أم عمار) بقوله : «لما قال (هيجنى) عرف أنه قد كان ، ثم تذكر لتذكره الحمام وتهييجه ، فألقى ذلك الذى عرف منه على (أم عمار) ، كأنه قال : هيجنى فذكرنى أم عمار»[5].

(١) المصدر السابق : ٢/٢٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) نفس المصدر : ١/٢٤٧ .
(٤) الكتاب : ١/١٩٤ .
(٥) المصدر السابق : ١/١٤٤ .

وينقل محمد بن سلام عن يونس أن العرب تقول : طَس وطِست ، فمن قال : طَس ، قال : طِسّاس : ومن قال : طِست ، قال : طِسّات : ويعلل تسمية (اللُّمة) بهذا الاسم بأنها ألمت بالأذنين [(1)].

وهكذا نرى أن النحو قد خرج من دائرة الرواية ، ولم يعد النحاة يكتفون بنقل ما يسمعون ، ولكنهم يحاولون أن يلتمسوا علة أو سببا لما سمعوا ، فلابد إذن أن يبلغ الأمر مداه ، وأن تكون الخطوة التالية أن يظهر العلم تاما أو أقرب ما يكون إلى التمام ، فقد وضعت قواعده ، وفرعت مسائله ، والتمست لها العلل .

ولعل أوضح مثال على استخدام النحاة للقياس ، ولجوئهم إلى التعليل لأحكامه ، والتأويل لقضاياه ، ما ذكره سيبويه من قوله :

«وزعم الخليل أنهم نصبوا المنادى المضاف نحو يا عبدَالله ، ويا أخانا ، والنكرة حين قالوا : يا رجلا صالحا ، حين طال الكلام ، كما نصبوا (هو قبلَك) و(هو بعدك) ، ورفعوا المفرد كما رفعوا (قبلُ) و (بعدُ) وموضعهما واحد ، وذلك قولك : يا زيدُ ، ويا عمروُ ، وتركوا التنوين فى المفرد كما تركوه من (قبلُ) ، قلت : أرأيت قولهم : يا زيدُ الطويلَ ، علام نصبوا (الطويل) ؟ قال : نصب لأنه صفة لمنصوب ، وقال : وإن شئت كان نصبا على (أعنى) . فقلت : أرأيت الرفع على أى شىء هو إذا قالوا : يا زيدُ الطويلُ ؟ قال : هو صفة لمرفوع . قلت : ألست قد زعمت أن هذا المرفوع فى موضع نصب ، فلم لا يكون كقوله : لقيت الأحدثَ ؟ قال : من قِبَل أن كل اسم مفرد فى النداء مرفوع أبدا ، وليس كل اسم فى موضع (أمس) يكون مجرورا ، فلما اطرد الرفع فى كل مفرد فى النداء ، صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل ، فجعلوا وصفه إذا كان مفردا بمنزلته ، قلت : أفرأيت قول العرب كلهم :

أزيدُ أخا وَرْقَاءَ إنْ كُنتَ ثَائِرًا ... فَقَدْ عَرَضَتْ أَحْقَادُ حَقٌّ فَخَاصِمِ

---

(1) طبقات الزبيدى : ٥٠ .

لأى شيء لم يجز فيه الرفع كما جاز فى (الطويل) ؟ قال : لأن المنادى إذا وصف بالمضاف ، فهو بمنزلته إذا كان فى موضعه ، ولو جاز لقلت : يا أخونا ، تريد أن تجعله فى موضع المفرد ، وهذا لحن [1].

وهكذا نرى من خلال هذه المناقشة الدائرة بين سيبويه وأستاذه الخليل صورة واضحة عن الحالة التى وصل إليها هذا العلم ، وعن مقدار مابلغه من نضج ، وعن النظرة الشاملة التى تحيط به ، وتقف على كل صغيرة وكبيرة فيه ، والتى ينتقل فيها الأستاذ من علة يسوقها ، إلى مثل يضربه ، إلى قياس يستند إليه ، إلى عقد مقارنة تبين أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين ما تنطقه العرب ، وما يتمثل به الأستاذ ، وما يلتبس على التلميذ ، بحيث نلمس علما ناضجا ، وفهما تاما واعيا ، وقدرة على الموازنة والاستنباط [2].

(هـ) افتراض الفروض :

لا ريب أنه بعد أن نضج علم النحو واكتمل على الوجه الذى رأينا ، قد استبد بالنحاة التفكير ، واستحر فيهم قدح الذهن ، وساد عندهم استخدام العقل ، وذلك نتيجة اتصالهم بعلوم الأمم الأخرى ، وتأثرهم بعلوم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام : فأخذوا يفترضون الفروض ، ويأتون بأساليب لم تتكلم بها العرب ، ولكن جاءوا بها قياسا ، حتى تكمل لهم الأوجه التى تصوروها ، وعن ذلك يقول سيبويه فى باب (إضمار المفعولين اللذين تعدى إليهما فعل الفاعل) : «... فأما علامة الثانى التى لا تقع (إيا) موقعها فقولك : أعطانيه وأعطانيك ، فهذا هكذا إذا بدأ المتكلم بنفسه ، فإن بدأ بالمخاطب قبل نفسه فقال : أعطاكنى ، أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال : قد أعطاهونى : فهو قبيح لا تتكلم به العرب ، ولكن النحويين قاسوه ، وإنما قبح عند العرب كراهية أن يبدأ المتكلم فى هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب ، ولكن تقول : أعطاك إياى ، وأعطاه إياى ، فهذا كلام العرب» [3].

---

(١) الكتاب : ٣٠٤/١ .

(٢) مدرسة البصرة النحوية : ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) الكتاب : ٣٨٣/١ .

وسيبويه نفسه يفترض الأساليب ، ويأتى منها بما فيه بعض التعقيد ، ويبين صحته وتقديره ، صارفا النظر عن أنهما مما نطقت به العرب فعلا أولا ، فيقول :

«وتقول : أيُّ مَنْ إن يأته مَنْ إن يأتنا نعطه يعطه تأت يكرمك . وذاك أن (مَنْ) الثانية صلتها (إن يأتنا نعطه) ، فيصير بمنزلة (زيد) ، فكأنك قلت : أى من إن يأته زيد يعطه تأت يكرمك ، فصار (إن يأته زيد يعطه) صلة لـ (مَنْ) الأولى ، فكأنك قلت : أيهم تأت يكرمك» [1].

وهذا محمد بن يزيد المبرد ، يُغْرِق فى افتراض الفروض ، ويعقِّد ما وسعه التعقيد ، فيقول : «فإن قلت : الذى التى اللذان الذين التى فى الدار جاريتهم منطلقون إليها صاحباها أخته زيد ، كان جيدا بالغا ، تجعل (الذى) مبتدأ ، و(التى) ابتداء فى صلة (الذى) ، و (اللذان) ابتداء فى صلة (التى) ، و (الذين) ابتداء فى صلة (اللذين) ، و (التى) ابتداء فى صلة (الذين) ، وقولك (فى الدار) صلة (التى) ، و (جاريتهم) خبر ذلك الابتداء ، فقد تمت صلة (الذين) ، وقولك (منطلقون إليها) خبر (الذين) ، فقد تمت صلة (الذين) ، وقولك (صاحباها) خبر (اللذين) ، فقد تمت صلة الأولى ، و (أخته) خبر (التى) الأولى ، و (الهاء) ترجع إلى (الذى) ، فقد تمت صلة (الذى) ، و (زيد) خبر (الذى) ، فقد صح الكلام» [2].

وهذا أبو مسلم – مؤدب عبد الملك بن مروان – يجلس إلى معاذ الهراء ، فيسمعه يقول لرجل : «كيف تقول من (تؤزهم أزًّا) [3] يا فاعل افعل ؟ وصلهما بيا فاعل افعل من (إذا الموءودة سئلت)» [4]. فأجاب الرجل : «أقول : يا آزِ أُزْ ، ويا وائد إدْ» . فسمع أبو مسلم كلاما لم يعرفه ، فقام عنهما وأنشد :

قَدْ كَانَ أَخْذُهُمُ فِي النَّحْوِ يُعْجِبُنِي حَتَّى تَعَاطَوْا كَلَامَ الزَّنْجِ وَالرُّومِ

(١) المصدر نفسه : ١/٤٠٠ .
(٢) المقتضب : ٣/١٢٢ .
(٣) سورة مريم : من الآية ٨٣ .
(٤) سورة التكوير : الآية ٨ .

لَمَّا سَمِعْتُ كَلامًا لَسْتُ أفْهَمُهُ كَأنَّهُ زَجَلُ الغِرْبَانِ وَالْبُومِ
تَرَكْتُ نَحْوَهُمُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُنِى مِنَ التَّعَجُّمِ فِى تِلْكَ الْجَرَائِيمِ[1]

ولا ريب أن هذه الأساليب فرضية محضة ، دعا إليها الاندفاع فى التقدير ، وذكر الصور العقلية التى يمكن أن ترد على الذهن ، وأنها ليست من الأساليب التى استعملتها العرب فى حياتها ، وتناولت بها شئونها.

وطبيعى أن تؤدى هذه الافتراضات والتقديرات البعيدة ، والفلسفات المعقدة ، الخارجة عما استعمله العرب بالسليقة ، وما ألفوه بالطبع ، إلى إصابة النحو بالتعقيد والغرابة ، كما تصيب العربى بالملل والضجر منه ، والتبرم به ، وهو الذى كان ينطق لغته بما جبل عليه من السهولة واليسر ، دونما تعقيد أو فلسفات موغلة فى الغرابة والجنوح عن جادة السليقة والإلف ، حتى أصبح الأدباء والشعراء يضيقون بعلم النحو ، ويصرحون برفضهم لمسلك النحاة فى التقعيد لهذا العلم : ولعل أصدق دليل على ماوقع بين الشعراء والنحاة من خلاف وصل إلى حد الهجاء ، هو موقف عبدالله بن أبى إسحق من الفرزدق ، وتتبعه لأخطائه فى شعره ، مما دفع الفرزدق لهجائه ، ونعته بأقذع النعوت [2].

وهذا أعرابى يقف على حلقة أبى زيد الأنصارى ، فيظنه أبو زيد قد جاء يسأل عن مسألة فى النحو ، فيقول له : سل يا أعرابى ، فيرد الأعرابى مرتجلا على البديهة :

لَسْتُ لِلنَّحْوِ جِئْتُكُمْ لاَ ، وَلاَ فِيهِ أرْغَبُ
أنَا مَا لِى وَلاِمْرِئٍ أبَدَ الدَّهْرِ يُضْرَبُ
خَلِّ زَيْدًا لِشَأْنِهِ أيْنَمَا شَاءَ يَذْهَبُ
وَاسْتَمِعْ قَوْلَ عَاشِقٍ قَدْ شَجَاهُ التَّطَرُّبُ
هَمُّهُ الدَّهْرَ طَفْلَةٌ فَهْوَ فِيهَا يُشَبِّبُ[3]

(١) إنباه الرواة : ٣/ ٢٩٣ .
(٢) راجع ص ٩٠ .
(٣) نزهة الألباء : ١٧٨ .

وهذا أعرابى آخر يقف على مجلس للأخفش ، فيسمع كلامهم فى النحو ، فيحار ويعجب ، ويستطرق ويوسوس ، فيقول له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ فيرد الأعرابى : «أراكم تتكلمون فى كلامنا بما ليس فيه» ، فيتمثل الأخفش بقول عمار الكلبى حين عيب عليه بيت من الشعر :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ ... تَأْسِيسِ نَحْوِهِمُ هَذَا الذى ابْتَدَعُوا

إنْ قُلْتُ قَافِيَةً فِيمَا يَكُونُ لَهَا ... مَعْنًى يُخَالِفُ مَا قَاسُوا وَمَا صَنَعُوا

قَالُوا : لَحَنْتَ وَهَذَا الْحَرْفُ مُنْخَفِضٌ ... وَذَاكَ نَصْبٌ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ

وَحَرَّشُوا بَيْنَ عَبْدِاللّٰهِ وَاجْتَهَدُوا ... وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ والْوَجَعُ

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا لِمَنْطِقِهِمْ ... وَآخَرِينَ عَلَى إعْرَابِهِمْ طُبِعُوا[1]

غير أن هذه الفروض التى كان يفترضها النحاة ، وهذه الفلسفات المنطقية ، والتفريعات الكثيرة التى كانوا يتبارون فى سوقها وحوكها ، لا تغض من شأنهم ، ولا تنقص من قدرهم ، لأنا إذا ضقنا بها الآن ، وإذا كان قد ضاق بها أو بمثلها بعض المتقدمين ، فإنها تدل على قدم راسخة فى العلم ، وعلى فهم تام لقضاياه ، وتمرس طويل بأحكامه ، وقدرة فائقة على الإحاطة به وبمسائله وتفريعاته .

وبعد ، فإننا لا نستطيع – بعد كل ما تقدم – أن ننكر أن هذه العبقريات الممتازة ، وهذه العقول الناضجة ، وكل هذا التفرغ للدرس والبحث والتعمق ، كان له الفضل الأول فى أن غادر هؤلاء الأعلام هذا العلم تامًا كاملا ، ناضجا مكتملا ، لم يحوج من بعدهم إلى أكثر من محاولة تبسيطه وتوضيحه ، وتيسيره وتقريبه للأفهام ، لا لتقصير من السابقين الأولين ، وإنما لبعدنا نحن عن مواطن اللغة ، وعن عصر ازدهارها ، وازدحام حياتنا بما لا يدع مجالا لمثل هذا البحث العميق ، وذلك التفرغ المطلق ، وتلك الرياضة الذهنية العسيرة ؛ وقد قام جلة من

(١) الخصائص : ١/٢٣٩ ، ومعجم الأدباء : ١٢/١٠٣ .

العلماء التابعين بمجهود ضخم نحو تحقيق الهدف الذى يرجى من هذا العلم ، متمثلا فى جمع الأبواب المتشابهة ، وضم الموضوعات المتقاربة ، وتنظيم عرضها ، وتيسير تناولها للدارسين ، فجازاهم الله عنا وعن علم النحو خير ما يُجَازى به الصالحون المخلصون ، إنه سميع قريب مجيب (١).



(١) راجع فى ذلك : مدرسة البصرة النحوية : ٩٢ – ٩٣ .

الفصل الرابع

طبقات البصريين

بعد أن تتبعنا مدرسة البصرة النحوية فى مدرج طفولتها ، وفى مرتع صباها ، وفى منتدى كهولتها ، وبعد أن رأيناها فكرة تداعب الخيال ، وأملاً تهفو إليه النفوس ، ومحاولة ساذجة ترجو أن تأخذ مكانها ، وخطوطًا عامة تحاول أن تحدد سبيلها ، وبعد أن أفادت من التجارب التى مرت بها ، فزكا عودها بالجهود المخلصة التى بذلت فيها ، وآتت ثمارها بمضى الزمن ، وتتابع العصور .

آن لنا أن نتعرف على هؤلاء المخلصين الذين حملوا على كواهلهم عبء تربيتها وتنشئتها ، فرعوها فى مهدها ، وغذوها فى شبابها ، وآزروها فى نضجها ، وبذلوا لها من الجهد والوقت ، ووقفوا عليها من الذكاء والعلم ، ما أخذ بيدها فى مدارج الرقى ، وما تخطى بها مراحل التطور ، فى سرعة متزنة ، وفى عجلة واعية : فأفادت من الزمن ، وتطورت على الأيام ، وأصبحت فى غضون قرن أو يزيد مدرسة تامة البنيان ، مكتملة الأركان ، ثابتة الدعائم ، قد بعد أصلها ، وامتد فى السماء فرعها ، فتميزت معالمها ، ووضحت سماتها ، وتمت أو قاربت التمام عللها وأقيستها ، واستقرت أو شارفت الاستقرار خصائصها ومصطلحاتها ، وأصبحت بحق مدرسة تامة النضج ، كاملة التكوين ، لها نهجها الواضح ، وقواعدها المتميزة ، وطريقها القويم .

وكان لابد لهؤلاء المخلصين الذين توفروا على إقامة صرح هذه المدرسة أن ينخرطوا فى طبقات ، تتتابع ، وتتوالى ، وتتعاقب ، كل طبقة تتسلم العبء من سابقتها لكى تلقيه على لاحقتها ، بعد أن تضيف إليه ، وتهذب منه ، وتوسع فيه ،

فتكمل منه ما نقص ، وتقيم منه ما اعوج ، وتفصّل منه ما أجمل ، وتوضح فيه ما انبهم : فما لبث علم النحو فى البصرة - وقد توافرت الجهود على إرساء قواعده ، وإقامة عمده ، وإعلاء بنائه - أن أصبح علمًا مكتملاً ناضجًا ، يخرج إلى الناس بعد بضع طبقات فى كتاب شامل ، يجمع أصوله ، ويفرع فروعه ، ويحيط بمسائله ، لا يترك صغيرًا ولا جليلاً من النحو إلا عرض له ، وأبان وجه الصواب فيه ، فيبهر الناس بما حوى ، ويدهشهم بما ضم ، ويرضيهم بما أفادهم من علم ، فإذا هم يتوفرون عليه ، ويتفرغون له ، ولا يكون عملهم بعد هذا فى الأغلب الأعم إلا شرحًا وتفسيرًا ، أو توضيحًا وتبيينًا ، إعجابًا به ، وحرصًا عليه ، وأحيانًا رهبة منه ، وتوقيرًا له ، ذلك هو «كتاب سيبويه» الذى خلد اسمه ، وأعلى فى العالمين ذكره[1] .

على أن الفصل التام والدقيق بين رجال هذه الطبقات ، ووضع حدود فاصلة قاطعة تمنع تداخلها ، أمر غير ممكن ولا ميسور ، إذ لم يكن طلب العلم آنذاك مقصورًا على سن بعينها ، فقد يأخذ طالب عن أساتذة هم رفقاء له ، ثم يأخذ عن بعض النابهين من تلاميذهم ؛ فهذا أبو الحسن الأخفش ، وكان أسن من سيبويه ، وتلقى عن بعض أساتذته ، ولكن ذلك لم يمنعه من الجلوس إلى سيبويه والأخذ منه[2] .

ونحن - فى ترتيبنا لعلماء مدرسة البصرة - سوف لا نجعل السن حكمًا فى ذلك ، وإنما نجعل استحكام العلم ، والقدرة على التصور ، أساس التقدم والتفضيل ، كما سنجعل الأخذ والتتلمذ أساس الترتيب فيما بينهم ، فنقول وبالله التوفيق .

★ ★ ★

---

(١) مدرسة البصرة النحوية : ٤١٨ .

(٢) المصدر السابق : ٤٢٢ .

الطبقة الأولى

١ - أبو الأسود الدؤلى :

ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حليس بن نفاثة بن عدى ابن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وقيل : اسمه عثمان ؛ وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوىَّ الرأى[١] .

ويقال فى النسب إليه : دُؤلِىّ ، كما ينسب إلى نَمِر : نَمَرِىّ ، فيفتح استثقالاً للكسرة[٢] .

روى الأصمعى أنه سمع عيسى بن عمر يقول : «هو أبو الأسود الدؤلى – بفتح الهمزة – منسوب إلى الدُّؤِل – بكسرة الهمزة – وإنما فتحوها للنسبة ، كما نسبوا إلى تغلِب : تغلبى ، وإلى يثرِب : يثرَبى ، قال : والدؤل : أبو قبيلة من كنانة ، سمى باسم دابة يقال لها : الدؤل بين ابن عِرس والثعلب»[٣] .

يقول سيبويه : «وليس فى لغة العرب اسم على وزن (فُعِل) غيره» وأنشد لكعب بن مالك :

جَاءُوا بِجَيْشٍ لَوْ قِيسَ مُعْرَسُه ... مَا كَانَ إلاَّ كَمُعْرَسِ الدُّؤِلِ [٤]

ويقول أبو الطيب اللغوى : «والعامة تقول : أبو الأسود الديلى ، وذلك خطأ ، لأنهم ينسبونه إلى غير قبيلته ؛ حدث الزبير بن بكار قال : الدؤل فى كنانة ، وهم رهط أبى الأسود ، والدُّول فى حنيفة ؛ والدِّيل فى عبد القيس»[٥] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٢١ ، وإنباه الرواة : ١٤ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٣٣ .

(٣) مراتب النحويين : ٢٥ .

(٤) ديوان كعب بن مالك : ٢٥١ . والمعرس : مكان النزول آخر الليل .

(٥) مراتب النحويين : ٢٥ ، وإنباه الرواة : ١٤ .

وكان أبو الأسود من سادات التابعين وأعيانهم ، صحب على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وكان من أكمل الرجال رأيًا ، وأسدهم عقلاً [1] ، وكان أعلم الناس بكلام العرب ، وزعموا أنه كان يجيب فى كل لغة [2] ، كما كان من أفصح الناس ، فقد روى عنه قتادة بن دعامة السدوسى أنه قال : «إنى لأجد للحن غمرا كغمر اللحم» [3].

وكان أبو الأسود من القراء ، فقد أخذ القراءة عن عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وروى القراءة عنه ابنه أبو حرب ويحيى بن يعمر [4] .

كما كان من المتحققين بولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ومحبته ، وصحبته ، ومحبة ولده ، وشهد معه موقعتى الجمل وصفين ، وأكثر مشاهده ، وكان يجاهر بتشيعه ورأيه ، ويمدح عليا وبنيه بالقصائد الحسان ، وعمال البصرة من قبل معاوية ، وسواد العراق يشقون عليه ويعنتونه ، حتى بنو قشير - الذين كانوا أخواله وأصهاره ، حيث تزوج منهم امرأته (أم عوف) - أجرموا معه ، وسبوه ، ونالوا من على - كرم الله وجهه - إيلاما له ، ويرمونه بالحجارة ليلاً ، يقول ، المبرد : «وكان بنو قشير عثمانية ، وكان أبو الأسود نازلاً فيهم ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكا مرة فقالوا : ما نحن نرميك ولكن الله يرميك ، فقال : كذبتم والله ، لو كان الله يرمينى لما أخطأنى ، ولكنكم ترمون فلا تصيبون» [5] . ثم ينشد قائلاً لهم :

يَقُولُ الأَرْذَلُونَ بَنُو قُشَيْرٍ ... طُوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيَّا
فَقُلْتُ لَهُمْ : وَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكِى ... مِنَ الأَعْمَالِ مَا يُجْدِى عَلَيَّا
أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالْوَصِيَّا

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٥٣٥ .
(٢) مراتب النحويين : ٢٧ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ٣٦ .
(٤) طبقات القراء : ١/٣٤٦ .
(٥) الكامل - مع رغبة الآمل - : ٧/١٣٣ .

وَجَعْفَرَ إِنَّ جَعْفَرَ خَيْرُ سِبْطٍ	شَهِيدًا فِي الْجِنَانِ مُهَاجِرِيَا
بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ	أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمُ إِلَيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ	وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيَّا [1]

وحين استعمل على بن أبى طالب – عليه السلام – عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – واليًا على البصرة ، ولى أبا الأسود مجلس القضاء بها ؛ فلما شخص ابن عباس إلى الحجاز وقت التحكيم ، استخلف أبا الأسود على البصرة ، واستعمل زيادًا على الديوان والخراج ، وظل أبو الأسود واليًا على البصرة حتى قتل على – رضى الله عنه –[2] .

وقد أجمع الرواة والمؤرخون على أن أبا الأسود أول من وضع النحو ، وأنه أخذه وتلقفه من على بن أبى طالب – كرم الله وجهه –[3] .

وكان أبو الأسود معروفًا بالبخل ، وكان يقول : «لو أطعنا المساكين فى أموالنا ، لكنا أسوأ حالاً منهم» ، وقال لبنيه : «لا تجاودوا الله – عز وجل – فإنه أجود وأمجد ، ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم لفعل ، فلا تجهدوا أنفسكم فى التوسع فتهلكوا هزلاً»[4] .

وفيه يقول الجاحظ : «أبو الأسود معدود فى طبقات من الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل فى جميعها ، كان معدودًا فى التابعين والفقهاء ، والمحدثين والشعراء ، والأشراف والفرسان ، والأمراء والدهاة والنحويين ، والحاضرى الجواب والشيعة والبخلاء ، والصلع الأشراف ، والبخلاء الأشراف»[5] .

روى الأصمعى عن أبى الأسود أنه قال : «ليس للسائل الملحف خير من المنع الجامس»[6] .

---

(١) إنباه الرواة : ١/١٧ ، وفيه ما قاله فى ذلك من شعر كاملاً .

(٢) إنباه الرواة : ١/١٨ ، ١٩ ، ووفيات الأعيان : ٢/٥٣٨ ، وطبقات الزبيدى : ٢٤ .

(٣) راجع ص ٣٥ (أول من وضع النحو) . (٤) وفيات الأعيان : ٢/٥٣٨ .

(٥) خزانة الأدب : ١/١٣٦ .

(٦) طبقات الزبيدى : ٢٤ . والجامس : الجامد ، يقال : أصبح الماء جامسًا ، وكذلك السمن .

وروى عنه أنه خرج مع أصحابه إلى الصيد ، فلما جلسوا للطعام ، جاء أعرابى فقال : السلام عليكم . فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ! قال الأعرابى : أدخل ؟ فقال أبو الأسود : وراءك أوسع لك ! فقال الأعرابى : إن الرمضاء قد أحرقت رجلىّ ، فقال أبو الأسود : بُل عليهما فقال : هل عندك شىء تطعمنيه ؟ فقال أبو الأسود : نأكل ونطعم العيال ، فإن فضل شىء فأنت أحق به من الكلب ! قال : ما رأيت ألأم منك . قال أبو الأسود : بلى ، ولكنك نسيت[1] .

وروى أنه انتبه ليلة ودابته تقضم شعيرها ، فقال : لا أراك تسرين وأنا نائم ، فلما أصبح باعها[2] .

وقال أبو الأسود : «ما غلبنى قط إلا رجل أخذت منه ثوبًا بعشرين ، ومررت بجماعة سألونى عنه ، فقلت : أخذته بأربعين ، فلما وفيّت الرجل العشرين قال : ما آخذ إلا أربعين ، وهؤلاء الشهود عليك»[3] .

وروى عنه أنه سمع رجلاً يقول : من يُعَشِّى الجائع ؟ فقال : علىّ به ، فعشاه ، ثم ذهب ليخرج ، فقال : أين تريد ؟ قال : أهلى ، قال : هيهات ، ما عشيتك إلا على أن لا تؤذى المسلمين الليلة ، ثم وضع فى رجله القيد حتى أصبح[4] .

وروى أن أبا الأسود دخل على عبيد الله بن أبى بكرة القاضى[5] ، فرأى عليه جبة رثة ، فقال له : يا أبا الأسود ، ما تمل هذه الجبة ؟! فقال : رب مملوك لا يستطاع فراقه ، فوجه إليه بمائة ثوب ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

كَسَانِى وَلَمْ أَسْتَكْسِهِ فَشَكَرْتُهُ ... أَخٌ لَكَ يُعْطِيكَ الجَزِيلَ وَنَاصِرُ
وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ إِنْ كُنْتَ شَاكِرًا ... بِشُكْرِكَ مَا أَعْطَاكَ وَالعِرْضُ وَافِرُ[6]

(١) الأغانى : ٣٠٤/١١ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٢٥ .
(٣) إنباه الرواة : ٢٣/١ .
(٤) وفيات الأعيان : ٥٣٩/٢ .
(٥) فى طبقات الزبيدى : ٢٥ أنه الجارود ، وكان سيد عبد القيس : وفى خزانة الأدب : ١٣٧/١ أنه المنذر ابن الجارود ، وكان صديقًا لأبى الأسود .
(٦) إنباه الرواة : ٢٣/١ .

وكان أبو الأسود مشهودًا له عند الخلفاء والولاة ، وكان معروفًا بالتقوى ، والعلم ، والجرأة فى الحق ، وعدم الإقرار على الضيم ، والصدق فى النصيحة : فقد روى عنه أنه عندما كان واليًا علىٰ قضاء البصرة فى ولاية عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – ، رأى من تصرفه فى أموال المسلمين أشياء نكرها ، فكتب إلى الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – :

«أما بعد ، فإن الله جعلك مؤتمنا ، وراعيًا مسئولاً ، وقد بلوتك – رحمك الله – فوجدتك عظيم الأمانة ، ناصحًا للرعية ، توفر فيئهم ، وتنزه نفسك عن دنياهم ، فلا تأكل أموالهم ، ولا ترتشى فى أحكامهم ؛ وإن ابن عمك عبد الله بن عباس قد أكل ما تحت يديه بغير علمك ، فلا يسعنى كتمانك ذلك ، فانظر – رحمك الله – فيما هناك ، وتقدم إلىَّ فيما أحببت أتبعه إن شاء الله» .

فكتب إليه على – رحمه الله – : «أما بعد ، فإنك ناصح للإمام والأمة ، وأنت ممن والى أهل الحق ، وبارز أهل الباطل والجور ؛ وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت فيه إلىّ من أمره ، ولم أعلمه كتابك إلىّ : فلا تدع إعلامى بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح ، فإنك بذلك جدير ، وهو حق واجب عليك إن شاء الله»[1] .

وروى ابن دأب قال : «بلغنى أن معاوية بن أبى سفيان قال لأبى الأسود الدؤلى : إن عليا – كرم الله وجهه – أراد أن يدخلك فى الحكومة ؛ فعزمت عليك إلا أخبرتنى أى شىء كنت تصنع فى ذلك ؟ قال : كنت آتى المدينة ، فأجمع ألفا من المهاجرين وألفًا من الأنصار ، فإن لم أجدهم أتممتهم من أبنائهم ، وأستحلفهم بالله الذى لا إله إلا هو : المهاجرون أحق بها أم الطلقاء ؟ فقال معاوية : إذن والله لا يختلف عليك اثنان ، وأنشد :

وَفِى الصِّدْقِ نَجَاةٌ حِيـ ... ـنَ لاَ يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ[2]

---

(١) طبقات الزبيدى : ٢٣ .

(٢) إنباه الرواة : ٢٣ .

وكان لأبى الأسود جار سوء من بنى جندل بن يعمر، جد أبى الأسود، وكان قد أولع برمى أبى الأسود بالحجارة، كلما أمسى وكلما أصبح، فشكا أبو الأسود ذلك إلى قومه وغيرهم، فكلموا جاره، فكان فيما اعتذر به إليهم أن قال: إن الله يرميه لقطيعته الرحم، وسرعته إلى الظلم؛ فقال أبو الأسود: والله لا أجاور رجلا يقطع رحمى، ويكذب على ربى، ولو رمانى الله لأصابنى.

فباع أبو الأسود داره، واشترى دارًا فى هذيل، فقال له قومه: يا أبا الأسود، بعت دارك؟! فقال: لم أبع دارى، وإنما بعت جارى؛ فأرسلها مثلاً، ولذلك قيل: «الجار قبل الدار»؛ ومنه أخذ مالك – رضى الله عنه – قوله: «تركت الدار من سوء الجوار»[1].

وروى أن أبا الأسود خاصمته امرأته إلى زياد فى ولدهما – وكان أبو الأسود طلقها – فقالت امرأته: أنا أحق بولدى، فقال أبو الأسود: أنا أحق بولدى، حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه. فقالت: صدق – أصلحك الله – حمله خفا وحملته ثقلا، ووضعه شهوة، ووضعته كرها؛ فقال زياد: خصمتك يا أبا الأسود، هى أحق بولدها ما لم تتزوج[2].

وكان أبو الأسود ذكيًا فطنًا، حاضر البديهة، لا يجير جوابًا، وقد قيل عنه إنه كان يجيب فى كل لغة؛ فقد حكى أبو غفر الدولى – وكان شاعرًا – قال:

«كنت عند عبد الملك بن مروان، إذ دخل عليه أبو الأسود الديلى – وكان أحول دميمًا قبيح النظر – فقال له عبد الملك: يا أبا الأسود: لو علقت عليك عوذة من العين؟! فقال: إن لك جوابًا يا أمير المؤمنين، وأنشد:

أَفْنَى الشَّبَابَ الذى أَفْنَيْتُ جِدَّتَهُ ... كَرُّ الجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ
لَمْ يَتْرُكَا لِىَ فِى طُولِ اخْتِلَافِهِمَا ... شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْهِ لَذْعَةَ الحَدَقِ

(١) المصدر السابق: ٢١.
(٢) إنباه الرواة: ٢٢.

أما والله لئن كانت أبلتني السنون ، وأسرعت إليّ المنون ، لما أثبتّ ذاك إلا في موضعه ، ولرب يوم كنت فيه إلى الآنسات البيض أشهى منك إليهن ، وإني اليوم لكما قال امرؤ القيس :

أراهُنّ لاَ يُحببنَ مَنْ قَلّ مالُهُ ... وَلاَ مَنْ رَأَيْنَ الشّيبَ فِيهِ وقُوسَا

ولقد كنت كما قال أيضًا :

وَرُغْنَ إلَى صَوْتِي إذَا مَا سَمِعْنَهُ ... كَمَا يَرْعَوِي عِيطٌ إلَى صَوْتِ أَعْيَسَا

فقال عبد الملك : قاتلك الله من شيخ ، ما أعظم همتك»[1] .

وقال الزبير بن بكار : «بلغني أن أبا الأسود الدؤلي قال لرجل يهنئه بتزويج : باليمن والبركة ، وشدة الحركة ، والظفر عند المعركة»[2] .

وكان من مواهب أبي الأسود قرض الشعر ، فقد حفظت لنا كتب التراجم كثيرًا من شعره ، وقد سبقنا آنفا قصيدته في بني قشير أو بعضًا منها ، وكمالها في (إنباه الرواة)[3] ؛ ومنها قوله في زياد ، حين كان أبو الأسود والياً على البصرة ، وكان زياد على الديوان والخراج ، وكان يدس لأبي الأسود عند علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – :

رَأَيْتُ زِيَادًا يَنْتَحِينِي بِشَرِّهِ ... وَأُعْرِضُ عَنْهُ وَهْوَ بَادٍ مَقَاتِلُهْ
وَيُعْجِبُهُ صَفْحِي لَهُ وَتَحَمُّلِي ... وَذُو الفُحْشِ يَحْذُو الجَهْلَ من لاَ يُمَاثِلُهْ

وكمالها في (إنباه الرواة) أيضًا[4] . ومنه قوله حين قتل الإمام علي – كرم الله وجهه – نجتزئ منه بهذين البيتين :

ألاَ أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَلاَ قَرَّتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَا

(١) وفيات الأعيان : ٢/٥٣٦ .
(٢) إنباه الرواة : ٢٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٧ .
(٤) نفس المصدر : ١٨ .

أفِي الشَّهْرِ الحَرَامِ فجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا أجْمَعِينَا (١)

وقوله فى رثاء الحسين بن على – رضى الله عنهما – ومن أصيب من بنى هاشم ، ونجتزئ منها بما يلى :

أَقُولُ لِعَاذِلَتِى مَرَّةً وَكَانَتْ عَلَى وُدِّنَا قَائِمَه
إذَا أنْتِ لَمْ تُبْصِرِى مَا أرى فَبِينِى وَأنْتِ لَنَا صَارِمَه
ألَسْتِ تَرَيْنَ بَنِى هَاشِمٍ قَدْ أفْنَتْهُمُ الفِئَةُ الظَّالِمَه (٢)

وقوله فى جاره الذى كان يرميه بالحجارة ، فباع داره واشترى غيرها فى هذيل من أجله :

رَمَانِى جَارِى ظَالِمًا بِرَمِيَّةٍ فَقُلْتُ لَهُ : مَهْلاً ، فَأنْكَرَ مَا رَمَى
وَقَالَ : الَّذِى يَرْمِيكَ رَبُّكَ جَازِيًا بِذَنْبِكَ وَالأذْنَابُ تُعقِبُ مَا تَرَى
فَقُلْتُ لَهُ : لَو أنَّ رَبِّى بِرَمْيَةٍ رَمَانِى مَا أخْطَا إلَهِى ما رَمَى
جَزَى اللَّهُ شَرًّا كُلَّ مَنْ نَالَ سَوْءَةً وَيَنْحَلُ فِيهَا رَبَّهُ الشَّرَّ وَالأذَى (٣)

ولأبى الأسود ديوان شعر مطبوع ومحقق ، ومما ورد فيه من الحكمة قوله :

وَمَا طَلَبُ المَعِيشَةِ بِالتَّمَنِّى وَلَكِنْ ألْقِ دَلْوَكَ فِى الدِّلاَءِ
تَجِىء بِمِلْئِهَا طَوْرًا وَطَوْرًا تَجِىء بِحَمْأةٍ وَقَلِيلِ مَاءِ

ومنه أيضًا :

صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بِالدِّمَاءِ أكُفَّنَا وَطَوَتْ أُمَيَّةُ دُونَنَا دُنْيَاهَا (٤)

وقد أصاب الفالج أبا الأسود بالبصرة ، فكان يخرج إلى السوق يجر رجله ، وكان موسرا ، ذا عبيد وإماء ، فقيل له : قد أغناك الله – عز وجل – عن السعى فى

(١) إنباه الرواة : ١٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) نفس المصدر : ٢٢ .
(٤) ديوان أبى الأسود : ٣٦ .

حاجتك ، فلو جلت فى بيتك ! فقال : لا ، ولكنى أخرج وأدخل فيقول الخادم : قد جاء ، ويقول الصبى : قد جاء ؛ ولو جلست فى البيت ، فبالت علىَّ الشاة ، ما منعها أحد عنى[1] .

وقال له عبيد الله بن زياد – وكان واليًا على البصرة – بعد ما فلج : لو وجدتك صحيحًا لاستعملتك ، قال : إن كنت تريد الأمانة والغناء فعندى ، وإن أردت المراهنة فليس عندى[2] !.

وتوفى أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين للهجرة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة – رضى الله عنه – فى طاعون (الجارف)[3] ، وقيل : مات قبل الطاعون بعلة الفالج ؛ وقد قيل له – رحمه الله – عند الموت : أبشر يا أبا الأسود بالمغفرة ، فقال : وأين الحياء مما كانت له المغفرة[4] ؟!.

٢ - عبد الرحمن بن هرمز :

أبو داود عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد المدينى الأعرج . مولى محمد ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[5] .

روى عبد الله بن لهيعة عن أبى النضر قال : «كان عبد الرحمن بن هرمز من أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش»[6] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٥٣٨ .

(٢) إنباه الرواة : ٢٠ .

(٣) حدث طاعون (الجارف) بالبصرة ، ومكث بها ثلاثة أيام ، مات فيها فى كل يوم سبعون ألفًا ، وهو سابع طاعون فى الإسلام : الأول كان على عهد النبى ﷺ ، والثانى طاعون عمواس فى عهد عمر – رضى الله عنه – ، والثالث بالكوفة زمن أبى موسى الأشعرى ، والرابع بالكوفة أيضًا زمن المغيرة بن شعبة ، والخامس الذى مات فيه زياد ، والسادس بمصر سنة ست وستين للهجرة . (النجوم الزاهرة : ١/١٨٢).

(٤) وفيات الأعيان : ٢/٥٣٩ . وانظر فى ترجمة أبى الأسود : الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٧٠٧ ، ومراتب النحويين : ٦ ، وأخبار النحويين البصريين : ١٣ ، وطبقات الزبيدى : ١٣ ، وأسد الغابة : ٣/٦٩ ، والإصابة : ٢/٢٣٢، والأغانى : ١٢/٢٩٧ ، ونزهة الألباء : ٦، ومعجم الأدباء : ١٢/٣٤ ، وإنباه الرواة : ١/١٣ .

(٥) الطبقات الكبرى : ٥/٢٠٩ .

(٦) طبقات الزبيدى : ٢٦ .

وكان عبد الرحمن بن هرمز من القراء ، كما كان من رجال الحديث أيضًا ، فقد روى عن عبد الله بن بحينة ، وأبى هريرة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى .

وروى عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع قال : «رأيت من يقرأ على الأعرج حديثه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثنى عبد الرحمن ، وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثنى عبد الرحمن بن هرمز»[1] .

وكان عبد الرحمن من الفقهاء كذلك ، فقد روى أن مالك بن أنس اختلف إليه عدة سنين فى علم لم يبثه للناس ، يَرَوْن أن ذلك من علم أصول الدين ، وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة[2] .

وخرج عبد الرحمن بن هرمز إلى الإسكندرية ، فأقام بها حتى توفى بها سنة سبع عشرة ومائة[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى : ٥/٢٠٩ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٢٦ .

(٣) الطبقات الكبرى : ٥/٢٠٩ . وانظر فى ترجمة ابن هرمز خلاف ما ذكر : طبقات النحويين البصريين : ٢١، ونزهة الألباء : ١٥ ، وإنباه الرواة : ٢/١٧٢ ، وبغية الوعاة : ٢/٩١ .

سمات هذه الطبقة :

اتسمت الطبقة الأولى من نحاة البصرة بعدة سمات منها :

١ - الانخراط فى سلك القراء . فقد كان علماء البصرة جميعًا من قراء القرآن الكريم ، الدارسين لأحكامه ، المجودين لقراءاته ، الراوين للحديث النبوى الشريف .

٢ - التنبيه على اللحن فى كلام العرب ، وفى القرآن الكريم ، والتصدى لهذه الظاهرة النكراء .

٣ - نقط المصاحف نقط الإعراب ، الذى بدأه أبو الأسود الدؤلى ، بإيعاز من زياد ابن أبيه ، ثم أخذه عنه تلاميذه من بعده ، تصديًا لوقوع اللحن فى القرآن الكريم .

٤ - وضع بدايات لعلم النحو بإرشاد وتوجيه من الإمام على - كرم الله وجهه - حيث بدأه أيضًا أبو الأسود الدؤلى ، وزاد عليه تلاميذه من بعده .

٥ - لم يترك لنا علماء هذه الطبقة أثرًا مكتوبًا ، سوى ما تفرد بروايته ابن النديم والقفطى .

★ ★ ★

الطبقة الثانية

١ - يحيى بن يعمر العدوانى الليثى :

أبو سليمان يحيى بن يعمر بن وشقة بن عوف بن بكر بن يشكر بن عدوان[١] ابن قيس بن عيلان بن مضر، وكان عداده فى بنى ليث من كنانة حيث كان حليفًا لهم.

كان يحيى تابعيًا، لقى عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس – رضى الله عنهم – وغيرهما، وروى عنه الحديث قتادة بن دعامة السدوسى، وإسحق بن سويد العدوى؛ وهو أحد قراء البصرة، وأخذ عنه القراءة عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى.

ولد ابن يعمر بالبصرة، ثم انتقل إلى خراسان، وتولى القضاء بمرو، وكان مأمونًا، عالمًا بالقرآن الكريم، والنحو، ولغات العرب[٢].

وهو من أول من أخذوا النحو عن أبى الأسود الدؤلى، حيث يقول أبو حاتم: «فتعلم منه – أى من أبى الأسود – ابنه عطاء، ثم يحيى بن يعمر العدوانى، ثم ميمون الأقرن، ثم عنبسة بن معدان المهرى»[٣].

وقيل: إن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول، زاد فى ذلك الكتاب رجل من بنى ليث أبوابًا، ثم نظر فإذا فى كلام العرب ما لا يدخل فيه، فأقصر عنه؛ فيمكن أن يكون الرجل الذى من بنى ليث يحيى بن يعمر، إذ كان عداده فى بنى ليث[٤].

(١) اسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان، وإنما قيل له (عدوان) لأنه عدا على أخيه فَهْم فقتله. (وفيات الأعيان: ٦/١٧٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مراتب النحويين: ٣٠.

(٤) أخبار النحويين البصريين: ٤١.

وقال ابن النديم : «ورأيت ما يدل على أن النحو من أبى الأسود ، ما هذه حكايته ، وهى أربع أوراق ، أحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود – رحمة الله عليه – بخط يحيى بن يعمر»[1] .

وكان ابن يعمر ممن أخذوا عن أبى الأسود نقط المصحف نقط الإعراب ، وأخذ عنهم النقط ، وحفظ وضبط وقيد وعمل به ، واتبع فيه سنتهم ، واحتذى فيه بمذاهبهم[2] ، كما اشترك مع نصر بن عاصم الليثى فى نقط المصحف نقط الإعجام ، ومنهم من ينسبه إلى يحيى بن يعمر منفردًا[3] . قال خالد الحذاء :

«كان لابن سيرين مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر ، وكان ينطق بالعربية المحضة ، واللغة الفصحى طبيعة فيه ، غير متكلف»[4] .

نفيه إلى خراسان :

أجمعت المصادر وكتب التراجم على أن الحجاج بن يوسف الثقفى نفى يحيى بن يعمر إلى خراسان ، ولكنها تختلف فيما بينها فى السبب الذى نفاه إليها من أجله ، ويبدو أن الحجاج نفاه إليها مرتين ، إحداهما إبان ولاية يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، والأخرى فى ولاية قتيبة بن مسلم .

فقد ذكر يونس بن حبيب قال : «قال الحجاج لابن يعمر : أتسمعنى ألحن على المنبر ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك . فألح عليه فقال : حرفا ، قال : أيًا ؟ قال : فى القرآن ؛ قال الحجاج : ذلك أشنع له ، فما هو ؟ قال : تقول : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[5] ، فيقرؤها (أحبُّ) بالرفع ،

(١) الفهرست : ٤٠ .
(٢) المحكم فى نقط المصاحف : ٦ .
(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : ١٣ .
(٤) وفيات الأعيان : ٦/ ١٧٥ .
(٥) سورة التوبة : من الآية ٩ .

والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر (كان) . قال : لا جرم ! لا تسمع لى لحنًا أبدًا ، فألحقه بخراسان ، وعليها يزيد بن المهلب»[1] .

وقال ابن الجوزى فى كتاب (شذور العقود) : «فى سنة أربع وثمانين للهجرة ، نفى الحجاج يحيى بن يعمر إلى خراسان ، لأنه قال له : هل ألحن ؟ فقال : تلحن لحنًا خفيا ، فقال : أجلتك ثلاثًا ، فإن وجدتك بعد بأرض العراق قتلتك ، فخرج»[2] .

ونقل جلال الدين السيوطى عن الحاكم قوله : «ولما بنى الحجاج (واسطا) سأل الناس : ما عيبها ؟ قالوا : لا نعرف لها عيبًا ، وسندلك على من يعرف عيبها ، يحيى بن يعمر ؛ فبعث إليه وسأله ، فقال : بنيتها من غير مالك ، ويسكنها غير ولدك . فغضب الحجاج وقال : ما حملك على ذلك ؟! قال : ما أخذ الله تعالى على العلماء فى علمهم ألا يكتموا الناس حديثًا ؛ فنفاه إلى خراسان»[3] .

وكان ليحيى بن يعمر استنباطات دقيقة ، واستدلالات عجيبة ، واستخراجات غريبة ، فقد حكى عاصم بن أبى النجود – أحد القراء السبعة – أن الحجاج بن يوسف الثقفى بلغه أن يحيى بن يعمر يقول : «إن الحسن والحسين – رضى الله عنهما – من ذرية رسول الله ﷺ ، وكان يحيى يومئذ بخراسان – فكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم – والى خراسان – أن أبعث إليّ بيحيى بن يعمر ، فبعث به إليه ، فقام بين يديه ، فسأله : أنت الذى تزعم أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ ؟! والله لألقين الأكثر منك شعرًا أو لتخرجن من ذلك . قال : فهو أمانى إن خرجت ؟ قال : نعم . قال : فإن الله – جل ثناؤه – يقول :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ومُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[4] ، قال : وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن

(١) طبقات الزبيدى : ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان : ٦/١٧٥ .
(٣) بغية الوعاة : ٢/٣٤٥ .
(٤) سورة الأنعام : من الآية ٨٥ وجزء من الآية ٨٦ .

والحسين ومحمد – صلوات الله عليه وسلامه – فقال له الحجاج : ما أراك إلا قد خرجت ، والله لقد قرأتها ، وما علمت بها قط .

قال عاصم : ثم إن الحجاج قال له : أين ولدت ؟ قال : بالبصرة ، قال : أين نشأت ؟ قال : بخراسان ، فقال : فهذه العربية أنى هى لك ؟ قال : رزق ، قال : خبرنى عنى هل ألحن ؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك ، فقال : أما إذ سألتنى أيها الأمير ، فإنك ترفع ما يوضع ، وتضع ما يرفع ، فقال : ذلك والله اللحن السيئ ! قال : ثم كتب إلى قتيبة : إذا جاءك كتابى هذا ، فاجعل يحيى بن يعمر على قضائك والسلام[1] .

قال الحاكم : «فولاه قتيبة بن مسلم قضاء خراسان ، فقضى فى أكثر بلادها : نيسابور ، ومرو ، وهراء ، وآثاره ظاهرة»[2] .

وكان يحيى بن يعمر فصيحًا ، لسنا ، عالمًا بالغريب ، له ولع به ، فقد حكى الأصمعى قال : «كتب يزيد بن المهلب بن أبى صفرة – وهو والى خراسان – إلى الحجاج بن يوسف الثقفى كتابًا يقول فيه : «إنا لقينا العدو ، فمنحنا الله أكتافهم ، فأسرنا طائفة وقتلنا طائفة ، واضطررناهم إلى عرعرة الجبل ، ونحن بحضيضه وأثناء الأنهار» . فلما قرأ الحجاج الكتاب قال : ما لابن المهلب ولهذا الكلام ؟! – حسدا له – ؛ فقيل له : إن ابن يعمر هناك ، قال : فذاك إذن»[3].

وروى الجاحظ قال : «وقال يحيى بن يعمر لرجل خاصمته امرأته : أآن سألتك ثمن شَكْرها وشَبْرك ، أنشأت تطُلُّها وتَضْهَلُها !»[4] .

وحكى ابن دريد قال : «إن يحيى بن يعمر اشترى جارية خراسانية ضخمة ، فدخل عليه أصحابه ، فسألوه عنها فقال : نعم المِطخة[5] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/١٧٤ .

(٢) بغية الوعاة : ٢/٣٤٥ .

(٣) طبقات الزبيدى : ٢٨ ، ووفيات الأعيان : ٦/١٧٥ .

(٤) البيان والتبيين : ١/٣٣٧ . الشكر : الفرج ، الشبر : النكاح ، تطلها : تذهب بحقها ، تضهلها : تنقصها .

(٥) طبقات الزبيدى : ٢٩ ، والطخ : كناية عن النكاح .

وحكى الأصمعى قال : «حدثنا عيسى بن عمر قال : خاصم رجل رجلاً إلى ابن يعمر فقال : «أصلحك الله ، إنه باعنى غلامًا بيُّاقًا ، فقال يحيى : لو قلت : أبوقًا ! قال أبو حاتم : كذا الصواب ، رجل أبوق وأباق وآبق ، يقال : أبَق يأبِق : والعامة تقول : يأبق ، وهو خطأ»[1] .

وروى عن عثمان بن محصن أنه قال : «خطب أمير بالبصرة فقال : اتقوا الله ، فإنه من يتق الله فلا هورات عليه : فلم يدروا ما قال الأمير . فسألوا يحيى ابن يعمر فقال : الهورات الضياع ، يقول : من اتقى الله فليس عليه ضياع ؛ قال القزاز فى كتاب (الجامع) : الهورات المهالك ، واحدها هورة ؛ قال الراوى : فحدثت بهذا الحديث الأصمعى فقال : هذا شيء لم أسمع به قط حتى كان الساعة منك ، ثم قال : إن كلام العرب لواسع ، لم أسمع بذا قط»[2] .

وكان يحيى يقرض الشعر ، وهو القائل :

أَبَى الأَقْوَامُ إلاَّ بُغْضَ قَوْمِى ... قَدِيمًا أَبْغَضَ النَّاسُ السَّمِينَا[3]

وقد توفى بالبصرة سنة تسع وعشرين ومائة ، عليه رحمة الله تعالى[4] .

٢ - ميمون الأقرن :

أبو عبد الله ميمون الأقرن ، ويقال : ميمون بن الأقرن[5] .

أخذ النحو عن أبى الأسود الدؤلى ، فقد روى أبو عبيدة قال : «أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلى ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله بن أبى إسحق»[6] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٢٩ . (٢) وفيات الأعيان : ٦/١٧٥ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر فى ترجمة ابن يعمر : طبقات الزبيدى : ٢٧ ، مراتب النحويين : ٣٠ ، نزهة الألباء : ١٦ ، أخبار النحويين البصريين : ٤٠ ، وفيات الأعيان : ٦/١٧٣ ، معجم الأدباء : ٢٠/٤٢ ، بغية الوعاة : ٢/٣٤٥ ، البيان والتبيين : ١/٣٧٧ ، طبقات ابن خياط : ٢٠٣ ، وإنباه الرواة : ٤/١٨ ، الفهرست : ٦٢ ، طبقات فحول القراء : ١٣ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٤٠ ، ومراتب النحويين : ٣١ .
(٦) إنباه الرواة : ٣/٣٣٧.

وقال أبو حاتم : «فتعلم منه – يعنى أبا الأسود – ابنه عطاء بن أبى الأسود ، ثم يحيى بن يعمر العدوانى ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة بن معدان المهرى[1] .

وقيل : أخذ النحو عن عنبسة الفيل[2] . حيث يقول أبو الطيب اللغوى : «وأما فيما روينا عن الخليل ، فإنه ذكر أن أبرع أصحاب أبى الأسود ، عنبسة الفيل ، وأن ميمونًا الأقرن أخذ عنه بعد أبى الأسود»[3] .

وقال أبو حاتم : «وكان ميمون يكنى أبا عبد الله ، فرأس الناس بعد عنبسة ، وزاد فى الشرح ، ثم توفى وليس فى أصحابه أحد مثل عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى»[4] .

وقيل : أخذ عنبسة النحو عن ميمون الأقرن .

٢ - عنبسة الفيل :

عنبسة بن معدان الميسانى المهرى . كان والده (معدان) من أهل ميسان[5] ، ثم رحل إلى البصرة ، فأقام بها .

أخذ عنبسة النحو عن أبى الأسود الدؤلى ، وكان أبرع أصحابه ، وقيل : إن ميمون الأقرن أخذ عنه النحو بعد أبى الأسود[6] .

وقد روى ياقوت الحموى سبب تسميته – يعنى معدان – بالفيل فقال :

«كان لزياد بن أبيه فيلة ينفق عليها فى كل يوم عشرة دراهم ، فأقبل رجل من أهل ميسان يقال له معدان ، فقال : ادفعوها إلىّ وأكفيكم المئونة ، وأعطيكم

(١) مراتب النحويين : ٣٠ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٣٠ .
(٣) مراتب النحويين : ٣٠ .
(٤) أخبار النحويين البصريين : ٤٣ ، بغية الوعاة : ٢/٢٠٩ .
(٥) ميسان : اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان . (معجم البلدان) .
(٦) مراتب النحويين : ٣٠ .

عشرة دراهم كل يوم ، فدفعوها إليه ، فأثرى وابتنى قصرًا ؛ ونشأ له ابن يقال له عنبسة ، فروى الأشعار ، وظرف ، وفصح ، وروى شعر جرير والفرزدق ، وانتمى إلى بنى أبى بكر بن كلاب ، فقيل للفرزدق : ها هنا رجل من بنى أبى بكر بن كلاب ، يروى شعر جرير ، ويفضله عليك ، ووصفوه له ، فقال : هذا ابن معدان الميسانى ، ثم قص قصته وقال :

لَقَدْ كَانَ فِى مَعْدَانَ وَالفِيلِ زَاجِرٌ　　لِعَنْبَسَةَ الرَّاوِى عَلَىَّ القَصَائِدَا

فروى البيت فى البصرة ، ولقى عنبسة أبا عيينة بن المهلب ، قال له أبو عيينة : ما أراد الفوزدق بقوله :

لَقَدْ كَانَ فِى مَعْدَانَ وَالْفِيلِ زَاجِرٌ

فقال : إنما قال :

لَقَدْ كَانَ فِى مَعْدَانَ وَاللّؤْمِ زَاجِرٌ

فقال أبو عيينة : وأبيك إن شيئًا فررت منه إلى اللؤم لعظيم[1] !

وقد ذكر الخبر نفسه السيرافى ، وابن الأنبارى ، إلا أنهما ذكرا بدلاً من زياد ابن أبيه ، عبد الله بن عامر[2] ، وأنه كان له فيل وليس فيلة ؛ كما ذكرًا أن عنبسة انتسب إلى مهرة بن حيدان[3] وليس بنى أبى بكر بن كلاب[4] . ولعل انتسابه إلى (مهرة) هو الصحيح ، حيث جاء لقبه فى كتب التراجم والطبقات (المهرى) نسبة إليها ، كما لقب والده معدان (الميسانى) نسبة إلى بلدة (ميسان) .

ولم نقف على تاريخ مولد عنبسة ، ولا تاريخ وفاته ، فكتب التراجم والطبقات لم تذكر أيا منهما ؛ ولكن يمكن أن نحدد تاريخ وفاته – على وجه

---

(١) معجم الأدباء : ١٦/١٣٣ ، وبغية الوعاة : ٢/٢٣٣ .

(٢) صحابى قرشي ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، ولى البصرة وفارس لعثمان، وافتتح خراسان كلها ، وأطراف فارس . توفى – رحمه الله – سنة ٥٨هـ ، وقيل : ٥٩هـ . (أسد الغابة : ٣/٢٨٨) .

(٣) مهرة : قبيلة من قضاعة . (جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٤٨٥) .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٤١ ، ونزهة الألباء : ١٥ .

التقريب – ، فلعلها كانت حول المائة الأولى للهجرة ، اعتمادًا على كونه كان معاصرًا للفرزدق وجرير[1] .

٤ - نصر بن عاصم الليثى :

نصر بن عاصم بن عمرو بن خالد بن حزم بن أسعد بن وديعة بن مالك بن قيس بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن على بن كنانة[2] .

وعلى هذا فهو يجتمع مع أبى الأسود الدؤلى فى بكر بن عبد مناة .

وكان نصر فقيها ، عالمًا بالعربية ، من قدماء التابعين ؛ كما كان أحد القراء والفصحاء ، وكان يسند إلى أبى الأسود فى القرآن والنحو ، حيث عرض القراءة على أبى الأسود ، وروى عنه القراءة عرضًا أبو عمر بن العلاء ، وعبد الله ابن أبى إسحق الحضرمى ، وهو أول من نقط المصاحف وخمسها وعشرها[3] .

أخذ النحو عن يحيى بن يعمر ، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء ، وقيل : له كتاب فى العربية[4] .

روى محبوب البصرى عن خالد الحذاء قال : «سألت نصر بن عاصم – وهو أول من وضع العربية – : كيف تقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ؟ فلم ينوِّن ، فأخبرته أن عروة ينون ، فقال : بئسما قال ، وهو للبئس أهل . فأخبرت عبد الله ابن أبى إسحق بقول نصر بن عاصم ، فما زال يقرأ بها حتى مات»[5] .

وقال عمرو بن دينار : «اجتمعت أنا والزهرى ونصر بن عاصم ، فتكلم نصر ، فقال الزهرى : إنه ليفلق بالعربية تفليقًا»[6] .

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٧١ .
(٢) طبقات خليفة بن خياط : ٢٠٦ .
(٣) بغية الوعاة : ٢/٣١٣ ، وغاية النهاية للجزرى : ٢/٣٣٦ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٢٧ ، وبغية الوعاة : ٢/٣١٤ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٣٨ . وعروة : هو عروة بن الزبير بن العوام .
(٦) طبقات الزبيدى : ٢٧ .

وكان نصر يرى رأى الخوارج ، ثم ترك ذلك ، قال :

فَـارَقْـتُ نَـجْـدَةَ وَالَّـذِيـنَ تَـزَرَّقُـوا ... وَابْـنَ الـزُّبَـيْـرِ وَشِـيـعَـةَ الْـكُـرَّابِ
وَهَـوَى الـنَّـجَـارِيِّـيـنَ قَـدْ فَـارَقْـتُـهُ ... وَعَـطِـيَّـةَ الـمُـتَـحَـيِّـرِ الـمُـرْتَـابِ [1]

وتوفى نصر بن عاصم سنة تسع وثمانين للهجرة[2] .

سمات هذه الطبقة :

اتسمت الطبقة الثانية من نحاة البصرة بسمات أهمها :

١ - الانخراط فى سلك القراء والمحدثين . حيث تصدر معظمهم لإقراء القرآن الكريم ، ورواية الحديث النبوى الشريف ، حتى نسبت إليهم بعض القراءات القرآنية :

٢ - التنبيه على وقوع اللحن فى كلام العرب ، وفى القرآن الكريم ، حتى فى قراءة الأمراء كالحجاج بن يوسف الثقفى وغيره .

٣ - الاشتراك فى نقط المصاحف نقط الإعراب .

٤ - نقط المصاحف نقط الإعجام بإيعاز من الحجاج بن يوسف الثقفى .

٥ - وضع زيادات على ما وضعه سابقوهم من بدايات لعلم النحو .

٦ - لم يتركوا لنا أثرًا مكتوبًا ، وإنما كان ما خلفوه عبارة عن بعض الآراء والنظرات النحوية نقلتها إلينا كتب المتأخرين .

★ ★ ★

(١) معجم الأدباء : ١٩/٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق .

الطبقة الثالثة

١ - عبد الله بن أبى إسحق :

أبو بحر عبد الله بن أبى إسحق زيد بن الحارث الحضرمى ، اشتهر بكنية والده (أبى إسحق) . أعلم أهل البصرة ، وأعقلهم ؛ أحد الأئمة فى القراءات والعربية . أخذ القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، وروى عن أبيه وجده ، عن علىّ ابن أبى طالب – كرم الله وجهه [١] .

أخذ النحو عن ميمون الأقرن ، فقد روى عن الخليل بن أحمد أنه قال : «كان ميمون يكنى أبا عبد الله ، فرأس الناس بعد عنبسة ، وزاد فى الشرح ، ثم توفى وليس فى أصحابه أحد مثل عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى» [٢] .

وروى المبرد عن أبى عبيدة قال : «اختلف الناس إلى أبى الأسود يتعلمون منه العربية ، فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهرى ، واختلف الناس إلى عنبسة ، فكان البارع من أصحابه ميمون الأقرن ، فكان صاحب الناس ، فخرج عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى» [٣] .

وقيل إنه أخذ النحو عن يحيى بن يعمر ، فقد روى أبو حاتم عن داود بن الزبرقان عن قتادة بن دعامة الدوسى أنه قال : «أول من وضع النحو بعد أبى الأسود يحيى بن يعمر ، وقد أخذ عنه عبد الله بن أبى إسحق» [٤] .

قال الزبيدى : «وهو أو من بعج النحو ، ومد القياس ، وشرح العلل ، وكان مائلا إلى القياس فى النحو» [٥] .

---

(١) بغية الوعاة : ٢/٤٢ .

(٢) مراتب النحويين : ٣١.

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٤٢ .

(٤) مراتب النحويين : ٣٢ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين : ٣١ .

وقال محمد بن سلام : «سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى إسحق وعلمه، فقال : هو والبحر سواء – أى هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم؟ قال : لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه يومئذ لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان أعلم الناس . قال ابن سلام : فقلت أنا ليونس : هل سمعت من ابن أبى إسحق شيئا ؟ قال : نعم ، قلت له : هل يقول أحد (الصَّوِيق) ؟ يعنى السُّوِيق ، قال : نعم ، عمرو بن تميم تقولها ، وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس» [1] .

وقد جمع بلال بن أبى بردة – وهو يومئذ وال على البصرة من قبل خالد ابن عبد الله القسرى فى خلافة هشام بن عبد الملك – بين عبد الله بن أبى إسحق وأبى عمرو بن العلاء فى مناظرة بين يديه ، قال أبو عمرو : «فغلبنى ابن أبى إسحق بالهمز يومئذ ، فنظرت فيه بعد ذلك ، وبالغت فيه» [2] .

وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال : «كان يقال : عبد الله أعلم أهل البصرة، وأعقلهم ، ففرع النحو وقاسه ، وتكلم فى الهمز ، حتى عُمِل فيه كتاب مما أملاه، وكان رئيس الناس وواحدهم» [3] .

وروى ابن هشام قال : «حضر الفرزدق يوما مجلس عبد الله بن أبى إسحق، فقال له عبد الله : كيف تنشد هذا البيت :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتَا   فَعُولاَنِ بالأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الخَمْرُ [4]

فأنشده الفرزدق : فعولان ، فقال عبد الله : ما كان عليك لو قلت : فعولين ؟ فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبِّح لسبَّحت ، ونهض وانصرف ، ولم يعرفوا مراده ،

(١) المصدر السابق . وأخبار النحويين البصريين : ٤٣ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٣١ .
(٣) مراتب النحويين : ٣١ .
(٤) البيت من قصيدة طويلة لذى الرمة .

فسألوا عبد الله فقال : لو قال (فعولين) لأخبر أن الله خلقها وأمرهما ، ولكنه أراد أنهما تفعلان ما تفعل الخمر»[1] .

وكان ابن أبى إسحق يطعُن على العرب ، فلم يكن لديه ما يمنعه من أن يخطئ العرب الذين عرفوا بفصاحتهم ، ونصاعة أسلوبهم ، إذ لم يكن يرى عصمتهم من الخطأ ، بل يجوز عليهم أن يخطئوا ، ومن ثم لم يكن يسلم بكل ما يسمعه منهم كما يسلم غيره .

فها هو يتتبع الفرزدق ، وهو من طبقة الشعراء التى اتجه أكثر الباحثين فى اللغة والنحو إلى الأخذ عنها ، الاستشهاد بأشعارها : فقد سمعه ينشد :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ ... مِنَ المَالِ إلاَّ مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ[2]

فقال له عبد الله : بم رفعت (مجلف) ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك : علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا[3] وقيل : إنه لما سئل فيه قال : قلت ذلك ليشقى به النحويون[4] .

كما سمعه يقول من قصيدة له فى مدح يزيد بن عبد الملك :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا ... عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجَى مُخُّهَا رِيرِ[5]

فقال : إنما هو (رير) بالرفع ، وإن رفع أقوى . فوجد عليه الفرزدق وقال : أما وجد هذا المنتفخ الخصيتين لبيتى مخرجا فى العربية ؟! أما والله إنى لو شئت لقلت :

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا ... عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

---

(١) مجالس العلماء : ٦٦ .

(٢) البيت من قصيدة طويلة من شعر النقائض ، يمدح فيها عبدالملك بن مروان .

(٣) نزهة الألباء : ٢٤ ، ومقدمة الشعر والشعراء .

(٤) شرح شواهد الكشاف – الملحق به – : ٥٨ ، وسيبويه إمام النحاة : ١٧ .

(٥) ديوان الفرزدق : ٢١٣/١ .

ولكنى والله لا أقول [1] ، ثم قال لعبد الله : «والله لأهجونك ببيت يكون شاهدا على ألسنة النحويين» [2] ثم قال :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلًى هَجَوْتُهُ ... وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

فقال عبد الله : «عذره شر من ذنبه ، فقد أخطأ أيضًا ، والصواب : مولى موالٍ» [3].

فقال الفرزدق لما بلغه تخطئة ابن أبى إسحق له : «أين هذا الذى يجر خصييه فى المسجد ؟ ألا يصلحه ! – يعنى ابن أبى إسحق – [4].

وكان لابن أبى إسحق مذهب فى القراءة ، يخالف ما عليه جمهور القراء ، حيث كان يطبق القياس على قراءته للقرآن ، مع أن القرآن سنة متبعة ؛ فقد كان يقرأ : ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [5] . كما كان يقرأ أيضًا : ﴿الزَّانِيَةَ والزَّانِيَ﴾ [6] و﴿السَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ فَاقْطَعُوا أيديهما﴾ [7] بالنصب ، وهو خلاف ما قرأ به القراء ، حيث كانوا يقرأون بالرفع فى الجميع [8].

وتوفى عبد الله بن أبى إسحق سنة سبع عشرة ومائة هجرية [9] ؛ وقال السيوطى : مات سنة سبع وعشرين ومائة عن ثمان وثمانين سنة [10].

---

(١) الشعر والشعراء : نقد الشعر .

(٢) مراتب النحويين : ٣١ .

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٧٤ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٣٣ .

وذلك أن الرجل إذا كان ذليلا ، فإنه يوالى قبيلة قوية ، وينضم إليهم ليعز بهم ، وإذا والى مولى كان أذل ذليل ؛ وكان ابن أبى إسحق مولى بنى الحضرمى ، الذين كانوا موالى بنى عبد شمس بن عبد مناف .

(انظر : أخبار النحويين البصريين : ٤٥) .

(٥) سورة الأنعام : من الآية ٢٧ .

(٦) سورة النور : من الآية ٢ .

(٧) سورة المائدة : من الآية ٥ .

(٨) انظر : شواذ القراءات لابن خالويه : ٣٢ .

(٩) طبقات الزبيدى : ٣٣ .

(١٠) بغية الوعاة : ٢/٤٢ .

٢ - أبو عمرو بن العلاء :

زبّان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن حجر بن خزاعة بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم [١] وكنيته : أبو عمرو.

حكى الرياشى عن الأصمعى قال : «قلت لأبى عمرو : ما اسمك ؟ فقال لى : أبو عمرو» [٢] .

ولد بمكة المكرمة سنة سبعين للهجرة ، وقيل : سنة ثمان وستين ، وقيل : سنة خمس وستين [٣] ، ثم نزح إلى البصرة ، وزاد بعضهم فى نسبه : بن مر بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان» .

أحد القراء السبعة المشهورين ، أخذ عن جماعة من التابعين ، وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ، ومجاهد ؛ وروى عن أنس بن مالك ، وأبى صالح السمان، وعطاء ، وطائفة من المحدثين ، ووثقه يحيى بن معين وغيره ، قال الذهبى : «قليل الرواية للحديث ، وهو صدوق ، حجة فى القراءات» [٤] .

قرأ عليه اليزيدى ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهما كثير [٥] .

قال سفيان بن عيينة : «رأيت النبى ﷺ فى النوم ، فقلت : يا رسول الله ، قد اختلفت على القراءات ، فبقراءة من تأمرنى ؟ فقال : بقراءة أبى عمرو بن العلاء» [٦] .

وروى أبو حاتم عن الأصمعى قال : «قال شعبة بن الحجاج لعلى بن نصر الجهضمى : خذ قراءة أبى عمرو ، فيوشك أن تكون إسنادًا» [٧] كما قال : «وكان أبو

---

(١) انظر : طبقات الزبيدى : ، ووفيات الأعيان : ٣/٤٦٦، وبغية الوعاة : ٢/٢٣١ .
(٢) مراتب النحويين : ٣٢ . وقيل : اختلف فى اسمه على واحد وعشرين قولا ، والأصح : زبان . (البغية : ٢/٢٣١) .
(٣) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٩ . ، طبقات القراء : ١/٢٨٨ ، معجم الأدباء : ١١/١٥٦ .
(٤) بغية الوعاة : ٢/٢٣١ .
(٥) المصدر السابق : ٢/٢٣٣ .
(٦) المصدر نفسه .
(٧) مراتب النحويين : ٣٥ .

عمرو يكتب إلى عكرمة بن خالد فى مكة ، فيسأله عن الحروف»[1] .

وروى أبو عمرو بن العلاء عن قتادة السدوسى قوله : «لما كتب المصحف، عُرِض على عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقال : إن فيه لحنا ، ولتقيمنه العرب بألسنتها»[2] .

أخذ أبو عمرو النحو عن يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وعبد الله بن أبى إسحق ؛ وكان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر ، وهو فى النحو فى الطبقة الرابعة من على بن أبى طالب - رضى الله عنه -[3] .

قال أبو عبيدة : «كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر»[4] .

وقال الأصمعى : «سألت أبا عمرو عن ألف مسألة ، فأجابنى فيها بألف حجة»[5] .

وكانت كتبه التى كتب كلها عن العرب الفصحاء ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية ، قال الأصمعى : «جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامى»[6] .

وقال يونس بن حبيب : «لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد ، لكان ينبغى لقول أبى عمرو أن يؤخذ كله ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك»[7] .

---

(١) المصدر السابق .

وعكرمة : هو عكرمة بن خالد بن العاص بن خالد أبو خالد المخزومى ، تابعى ثقة جليل ، روى القراءة عن أصحاب ابن عباس ، توفى سنة خمس عشرة ومائة من الهجرة . (طبقات القراء لابن الجزرى : ١/٥١٥) .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٨ .

(٣) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) نفس المصدر .

(٧) طبقات الزبيدى : ٣٥ .

وقال أبو بكر الزبيدي : «كان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبد الله بن أبي إسحق» [١] .

وقال الخليل : «كان عبد الله يقدم على أبي عمرو في النحو ، وأبو عمرو يقدم عليه في اللغة» [٢] .

ولعل قصته مع عيسى بن عمر الثقفي حول قولهم (ليس الطيب إلا المسك) حينما قال له أبو عمرو : «قد نمت يا أبا عمر وأدلج الناس ، ليس في العرب حجازي إلا وهو ينصب ، ولا تميمي إلا وهو يرفع» خير شاهد على ذلك [٣] .

وروى الأصمعي عن أبي علي القالي أنه قال : سمع أبو عمرو رجلا ينشد :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمًا [٤]

فقال : أقومك أم أتركك تتسكع في طمتك ؟ [٥] قال : بل قومني . فقال : قل: ومن يَغْوِ بكسر الواو ، ألا ترى إلى قول الله – عز وجل – «فغوى» [٦] !!

وروى أبو علي القالي أيضا قال : «سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف ، فمر أعرابي محرم ، فأراد السائل سؤال الأعرابي ، فقال له أبو عمرو : دعني ، فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله فقال الأعرابي : اشتقاق الاسم من فعل المسمى . فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك، فقال : ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعجب ، ألا تراها تمشي العرضنة خيلاء وتكبرا [٧] ؟!

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مراتب النحويين : ٣٢ .
(٣) انظر ص ،
(٤) طبقات الزبيدي : ٣٦ ، والبيت للمرقش الأصغر (انظر : المفضليات : ٢٤٧) .
(٥) الطمة : الخرأة ، والعذرة . تتسكع : تتلوث ، وتتمرغ .
(٦) سورة طه : من الآية ٢٠ ، انظر : طبقات الزبيدي : ٣٦ .
(٧) طبقات الزبيدي : ٣٦ .

وقال الأصمعى : سألت الخليل بن أحمد عن قول الراجز :

حَتّى تَحَاجَزْنَ عَنِ الذُّوَّادِ

تَحَاجُزَ الرِّىَّ وَلم تَكَادِى

لِمَ قال : (تكادى) ولم يقل : (ولم تكد) ؟ قال : فطحن يوما أجمع . قال الأصمعى : وسألت أبا عمرو بن العلاء – وكأنما كان على طرف لسانه – فقال : ولم تكادى أيتها الإبل»[1] .

وهكذا نرى أن أبا عمرو بن العلاء كانت له استنباطات دقيقة من لغة العرب ، وتفحص عميق فى كل ما يسمع ، رغم ما عرف عنه من أنه كان يفترض فى العرب الصدق ، ويستشهد بكلامهم ، ويوثقهم على نقيض ابن أبى إسحق ، وعيسى بن عمر ، حيث يقول يونس بن حبيب : «وكان أبو عمرو يسلِّم للعرب ، ولا يطعُن عليها...»[2] .

ومن استنباطات أبى عمرو الدقيقة ما رواه عنه الأصمعى من أنه قال فى قول النبى ﷺ «فى الجنين غرة عبد أو أمة»[3] : «لولا أن رسول الله ﷺ أراد بالغرة معنى لقال : فى الجنين عبد أو أمة ، ولكنه عنى البياض ، لا يقبل فى الدية إلا غلام أبيض أو جارية بيضاء»[4] .

وقال الأصمعى أيضًا : «سألت أبا عمرو بن العلاء عن قولهم (أرهبته) و(رهَّبته) فقال : ليسا بسواء ، فقلت : رهَّبته فرَّقته ، وأرهبته أدخلت الفَرَق فى قلبه ، قال أبو عمرو ، ذهب من يعرف هذا منذ ثلاثين سنة»[5] .

---

(١) المصدر السابق : ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٥ .

(٣) انظر فى الحديث : النهاية فى غريب الحديث : ٣٥٣/٢ ، واللفظ فيه : «وجعل فى الجنين غرة عبد أوأمة» .

(٤) وفيات الأعيان : ٤٦٧/٣ .

(٥) المصدر السابق : ٤٦٧/٣ .

وروى الأصمعي عن سفيان الثورى أنه قال : «كنا عند الأعمش وعنده أبو عمر بن العلاء فحدث عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «كان النبى - ﷺ - يتخولنا بالموعظة» [1] .

ثم قال الأعمش : (يتعاهدنا) . فقال له أبو عمرو : إن كان يتعاهدنا (فيتخوننا) ، فأما (يتخولنا) فيستصلحنا . فقال الأعمش : وما يدريك ؟ فقال : لئن شئت يا أبا محمد أن أعلمك الساعة أن الله ما علّمك من جميع ما تدعيه شيئا ، فعلت» [2] .

وحكى أبو الحسن الباهلى قال : «مر أبو عمرو بن العلاء بعمرو بن عبيد [3]، وهو يتكلم فى الوعد والوعيد ويثبته - وكان أبو عمرو يميل إلى القول بشىء من الإرجاء - فقال له : ويلك يا عمرو ، لقد شعرت أنكم من اللكنة أتيتم . إن العرب إذا وعدت وفت ، وإذا أوعدت عفت ، وعدت ذلك كرما ، أما سمعت قول قائلهم :

لاَ يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ وَالْجَارُ صَوْلَتِي ... وَلاَ يَخْتَتِى [4] مِنْ سَطْوَةِ المُتَهَدِّدِ
وَإنِّـى إذَا أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ ... لأُخْلِفُ إيعَادِى وَأُنجِزُ مَوْعِدِى [5]

أراد أن الله - تبارك وتعالى - قد وعد وأوعد ، وهو قادر على أن يعفو عمن أوعده ، وقادر أن ينجز لمن وعده .

فقال له عمرو : أبا عمرو ، شغلك الإعراب عن الصواب ، أفيكون مخلفا ؟! أم ما سمعت قول الآخر :

إنَّ أبَا ثَابِتٍ لَمُشْتَرِكُ الخَيرِ ... شَرِيفُ الآبَاءِ وَالْبَيْتِ

(١) انظر فى الحديث : صحيح البخارى (كتاب العلم) ، والفائق للزمخشرى : ١/٣٧٥ . ونصه فيهما : «كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا» .
(٢) مراتب النحويين : ٣٦ .
(٣) عمرو بن عبيد بن باب ، من شيوخ المعتزلة ، توفى بمران سنة ١٤٤ هجرية . (المعارف : ٢١٢) .
(٤) يختتى : ينكر ، ويذل .
(٥) البيتان : لعامر بن الطفيل . انظر ديوانه : ٥٨ .

لاَ يُـخْـلِـفُ الـوَعْـدَ وَالـوَعِـيـدَ وَلاَ   يَـبِـيـتُ مِـنْ ثَـارِهِ عَـلَـى فَـوْتِ[1]

وقال أبو الطيب اللغوى : «لم يوجد على أبى عمرو خطأ فى شىء من اللغة إلا فى حرف قصر عن معرفته على مَنْ خطأه فيه ، وروايته :

حكى الأصمعى عن يونس أنه قال : قيل لأبى عمرو بن العلاء : ما الثغر ؟ فقال : الإست ، فقيل له : إنه القُبُل ، فقال : ما أقرب ما بينهما !. فذهب قوم من أهل اللغة إلى أن هذا غلط من أبى عمرو ، وليس كما ظنوا ، فقد جاء فى شرح أبى عمرو الثيبانى لقول الراجز :

قَدْ بَعَثُـوا ثَغْـرَ الحِمَـارِ المُنْسَلِقْ

جَهْمًا أَخَـا كُـلِّ لئيمٍ وَحَمِقْ

قوله : ثغر الحمار : دبره ، وقال الأخطل :

أصِـخْ يَـابْـنَ ثَغرِ الْكَلْبِ عَنْ آلِ دَارِمٍ   فَـإِنَّـكَ لَـنْ تَـسْـطِـيـعَ تِـلْـكَ الرَّوَابِـيَا

قالوا : أراد دبر الكلب : والثغر من الأنثى : القُبُل ، وأصله فى السباع ، ثم يستعار لغيرها»[2].

وقال الأصمعى : «سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله – تبارك وتعالى – «... فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ....»[3] مثقلة ، فقال : شدَّدنا ، وأنشد :

أُجُـدٌ إِذَا ضَـمِـرَتْ تُـعَـزَّزُ لَـحْـمَـهَـا   وَإِذَا تُـشَـدُّ بِـنِـسْـعِـهَـا لاَ تَـنْـبِـسُ[4]

ورغم ما قيل من أن أبا عمرو كان يسلم للعرب ، ولا يطعن عليهم ، بل يثق فى كلامهم ، ويصدقه ، وأنه قال : «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو

(١) طبقات الزبيدى : ٣٩ ، ومراتب النحويين : ٣٨ .

(٢) مراتب النحويين : ٤٠ .

(٣) سورة يس : من الآية ١٤ .

(٤) البيت للمتلمس . انظر ديوانه : ١٨٠ الأُجُدُ : الناقة القوية . النسع : سير تشد به الرحال . (السيرافى : ٤٦).

جاءكم وافرا لجاءكم علم كثير» [1] ، نجده لا يجيز القياس على كل مسموع ، ولا يقر بصحة كل مقول : وإنما يضع أساسا للقياس على الكثير الشائع ، المستعمل المتداول ، أما ما عدا هذا فهو لغات يوقف عندها ، ولا يقاس عليها ؛ فقد سأله نوفل بن مساحق المدنى : «أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقال نوفل : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب ، وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات» [2] .

فهو لا يسلم للعرب على حساب اللغة ، كما أنه لا يطعن عليهم مضحيا بالقياس اللغوى ، ولا يصدقهم ضاربا بالاستنباط العقلى عرض الحائط ؛ حيث نجده يقف ببعض لغات شمال الجزيرة العربية عند حد المسموع منها ، إذ يرى فرقا شاسعًا بين لغات أهل الجنوب ولغات أهل الشمال ، فقد روى عنه أنه قال : ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا» [3] .

ولعل فى موقفه من أبى خيرة خير دليل على ذلك ، حيث روى أنه سأل أبا خيرة عن قولهم : (استأصل الله عرقاتهن) ، فنصب أبو خيرة (التاء) من عرقاتهن بالفتحة ، فقال له أبو عمرو : هيهات أبا خيرة . قد لان جلدك» [4] ، وذلك أن أبا عمرو كان قد سمعها من أبى خيرة من قبل ، بنصبها بالكسرة ، والكسر هو الشائع والكثير المسموع ، ولذا رماه بضعف اللسان ، وتطرق الفساد إلى لغته ، لكبر سنه، ومخالطته للأعاجم .

ولعل فى موقفه من تفسير قول رسول الله ﷺ : «فى الجنين غرة» [5] خير شاهد على براعته فى استنباط المعانى ، واستنتاج المقاصد ؛ كما أن موقفه من

(١) نزهة الألباء : ٣٣ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٣٩ .
(٣) طبقات القراء : ٨ .
(٤) نزهة الألباء : ٣٢ .
(٥) راجع ص ١٣٨ .

عمرو بن عبيد ، وهو يتكلم فى الوعد والوعيد ، ويثبته [1] ، ليدل دلالة قاطعة على مدى تجريده للقياس ، والأخذ به ، حيث أراد أن يقيس وعد الله ووعيده على ما جرت به عادة العرب من إنجاز الوعد ، والقدرة على العفو عن الخطأ ، وعدم تنفيذ الوعيد .

مكانته العلمية :

ليس أدل على مكانة أبى عمرو بن العلاء العلمية ، من آراء العلماء فيه ، وما ألحقوه به من صفات ، وما شهدوا به من تبحره وسعة اطلاعه ، وتصدره فى شتى العلوم والمعارف .

فهذا السيرافى يقول عنه: «فأما أبو عمرو بن العلاء، فهو من الأعلام فى القرآن، وعنه أخذ يونس بن حبيب ، والرواية عنه فى القراءة والنحو واللغة كثيرة» [2] .

ويقول عنه الزبيدى : «كان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبد الله بن أبى إسحق ، وكان من جلة القراء والموثوق بهم ، وكان يقرئ الناس القرآن فى مسجد البصرة ، والحسن بن أبى الحسن حاضر» [3] .

وقال أبو عبيدة : «كان أبو عمرو – من أشراف العرب – ووجهائها ، مدحه الفرزدق ، ووثقه يحيى بن معين وغيره» [4] .

وقال السيوطى : «كان إمام أهل البصرة فى القراءات والنحو واللغة» [5] .

وروى الأصمعى عن شعبة أنه قال : كنت أختلف إلى ابن أبى عقرب [6] . فأسأله أنا عن الفقه ، ويسأله أبو عمرو عن العربية ، فيقوم ، وأنا لا أحفظ حرفا مما سأل عنه ، ولا يحفظ هو حرفا مما سألت عنه» [7] .

---

(١) راجع ص ١٣٩ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٤٦ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٣٥ .
(٤) بغية الوعاة : ٢/٢٣١ .
(٥) المصدر السابق :
(٦) معاوية بن عمر الديلمى ، كان رأسا فى الفقه ، عالما فى العربية . (إنباه الرواة – باب الكنى – رقم ٩٦٠).
(٧) طبقات الزبيدى : ٣١ .

وقال الأصمعي : «كنت إذا سمعت أبا عمرو بن العلاء يتكلم ، ظننت أنه لا يحسن شيئًا ولا يلحن ، يتكلم كلامًا سهلاً»[1] .

وقال الأصمعي أيضًا : «لم أر مسانٌ قط أذكرَ من أبى عمرو بن العلاء ، وسلمة بن عياش ، وأبى هلال الراسبى ، وأبى الأشهب العطاردى»[2] . وقال أيضًا : «أنا لم أر بعد أبى عمرو بن العلاء أعلم منه»[3] .

اعتداده بنفسه :

كان أبو عمرو بن العلاء يعرف للعلم قدره وقيمته ، ومن ثم نجده يعلو بنفسه فوق الصغائر، وينأى بها عن مواطن الضعف والمذلة، رافضا التزلف للولاة، والتمسح بأعتابهم، معتزا بعلمه، وما حصله من صنوف المعرفة، فقد قال أبو عبيدة :

«دخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن على ، وهو عم السفاح ، فسأله عن شيء، فَصَدَقَه، فلم يعجبه ما قال أبو عمرو، فوجد أبو عمرو فى نفسه، وخرج وهو يقول:

أَنِفْتُ مِنَ الذُّلِّ عِنْدَ المُلُوكِ ... وَإِنْ أَكْرَمُونِي وَإِنْ قَرَّبُوا
إِذَا مَا صَدَقْتُهُمْ خِفْتُهُمْ ... وَيَرْضَوْنَ مِنِّى بِأَنْ يُكْذَبُوا[4]

وهو الذى يقول حين سئل : منذ متى كان لك هذا العلم ؟! «أخذت فى طلب العلم قبل أن أختن»[5] .

وروى عنه الأصمعي قال : «سمعت أبا عمرو يقول : ما سمع حماد الراوية[6]

---

(١) المصدر السابق : ٣٧ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٩ .
(٣) طبقات القراء : ١/٢٩٠ .
(٤) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٨ .
(٥) طبقات الزبيدى : ٣٧ .
(٦) حماد بن ميسرة بن المبارك ، من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وكان ملوك بنى أميه يطلبونه ويسألونه عن أيام العرب وعلومهم . توفى سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة . (وفيات الأعيان : ١/١٦٤) .

حرفا قط إلا سمعته ؛ وكان أسن من حماد»[1].

وروى الأصمعى أيضًا قال : «وسمعت أبا عمرو يقول – ولم يقله إن شاء الله بغيا ولا تطاولا – : ما رأيت أحدا قط أعلم منى»[2].

كما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه قال : «شهدت عند سوّار[3] ، فقال لى : كيف تعلم هذا ؟ قلت : أعلمه كما أعلم أنك سوار بن عبد الله بن قدامة بن عنَزَة بن نقَب»[4].

وروى الأصمعى أيضًا عنه أنه قال : «لقد علمت من النحو ما لم يعلمه الأعمش ، وما لو كتبته لما استطاع أن يحمله»[5].

وهو القائل للأعمش حينما خالفه فى معنى لفظة (يتخولنا) من حديث عبد الله بن عباس – رضى الله عنه –[6] وقول الأعمش له : وما يدريك ؟ : «لئن شئت يا أبا محمد أن أعلمك الساعة أن الله ما علمك من جميع ما تدّعيه شيئا ، فعلت»[7].

وهو القائل أيضًا : «كنت رأسا والحسن حى»[8].

تواضعه للعلم :

ولم يبلغ أبو عمرو بن العلاء هذه الدرجة من الاعتزاز بنفسه ، وأنفته من مصاحبة الأمراء ، واستعلائه على العلماء ، إلا بتواضعه للعلم ، وتصاغره أمام من

---

(١) طبقات الزبيدى : ٣٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سوار بن عبدالله بن قدامة ، كان فقيها عالما ، ولاه المنصور قضاء البصرة سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة . (تهذيب التهذيب : ٤/٢٦٩) .

(٤) طبقات الزبيدى : ٣٨ .

(٥) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٦ .

(٦) راجع ص ١٣٩ .

(٧) مراتب النحويين : ٣٧ .

(٨) المصدر السابق : ٣٤ . والحسن : أبو سعيد الحسن بن الحسن البصرى ، من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع من كل فن وعلم . توفى سنة عشرة ومائة هجرية . (وفيات الأعيان ك ١/١٢٨) .

يجد ضالته عندهم ، وخضوعه لمن يلقى إليه بالفكرة ، ومن صور تواضعه للعلم إجابته لمن سأله عن اشتقاق لفظة (الخيل) بقوله : لا أعرفه ، ثم سؤاله الأعرابى عنها ، دون تكبر أو غطرسة[1] .

وليس أدل على ذلك من قوله للفرزدق : أرشدنى ، حينما وجده الفرزدق يحيد عن جادة الصواب : فقد حكى عنه أبو عبيدة أنه قال :

«كنا عند بلال بن أبى بردة ، فخرج الفرزدق يتخلع ، فسمعنى أنشد بيت التغلبى :

نُعَاطِى المُلوُكَ القِسْطَ مَا قَصَدُوا لَنَا ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

فقال الفرزدق : أأرشدك أم أدعك ؟ قلت : أرشدنى . قال : ما قصدوا بنا[2] .

وكان أبو عمرو دائما يعترف بفضل أساتذته الذين أخذ عنهم ، وأسلافه الذين ارتوى من معينهم الثر ، ويتصاغر أمام ما تركه الأوائل الأقدمون ، حيث يقول : «إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا لبقل من أصول رقل»[3] .

ومن أبرز الدلائل على تواضعه للعلم ما يحكيه هو من عدم معرفته بضبط لفظة (فَرْجَة) ، وأنه كان أشد سرورا بالوقوف على ضبطها الصحيح منه بموت الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان يطارده هو وأباه ، حيث يقول :

«طلب الحجاج بن يوسف الثقفى أبى ، فخرج منه هاربا إلى اليمن ؛ فإنا لنسير بصحراء اليمن ، إذ لحقنا لاحق ينشد :

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْـ ... ـرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ[4]

---

(١) راجع ص ١٣٧ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٣٨ . والبيت : لجابر بن حنى التغلبى ، وهو فارس جاهلى . (المفضليات : ٢١١) .

(٣) نزهة الألباء : ٣٣ . والرقل : النخل الطويل .

(٤) البيت : لأمية بن أبى الصلت ، وقبله :

لا تَضِيقَنْ بِالأُمُورِ فَقَدْ تُكْـ ... ـشَفُ غَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ

(انظر : لسان العرب (مادة : ف ر ج) .

فقال أبى : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج . قال أبو عمرو : فأنا بقوله : (له فَرْجَة) أشد سرورا منى بموت الحجاج ؟ قال : فقال أبى : اصرف ركابنا إلى البصرة»[1].

قال أبو عبيدة : «قلت لأبى عمرو : كم سنك يومئذ ؟ قال : كنت قد خنقت بضعا وعشرين سنة»[2].

أخلاقه :

كان أبو عمرو رجلا صالحا ، دمث الخلق ، عفوا ، سمحا ، فقد روى أن الفرزدق سخر من اسمه (زبان) ، فضرب صفحا عن هجائه ، وعفا عنه ، مما جعل الفرزدق يجيء إليه معتذرا عما بدر منه ، فقبل أبو عمرو اعتذاره ، واعتبر هجاءه كأن لم يكن ، حيث قال له :

مَا زِلْتُ أَفْتَحُ أَبْوَابًا وَأُغْلِقُهَا ... حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرِو بْنِ عَمَّارِ[3]

وروى الأصمعى قال : «كان لأبى عمرو بن العلاء من غلته كل يوم فلسان ، فلس يشترى به كوزا ، وفلس يشترى به ريحانا ، فيشم الريحان يومه ، ويشرب فى الكوز يومه : فإذا أمسى تصدق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفف الريحان وتدقه فى الأشنان»[4].

وروى الأصمعى أيضا عن أبى عمرو أنه قال : «بينا أنا ذات يوم – أحسبه قال : فى ضيعتى – سمعت قائلا يقول :

وَإِنَّ امْرَأً دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

قال : فكتبت هذا البيت على فص خاتمى . فكان نقشه هذا»[5].

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٧. قال أبو على القالى : «الفرجة – بالفتح – فى الأمر ، والفُرْجَة – بالضم – فى الحائط وغيره» . (طبقات الزبيدى : ٣٥) .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٧ .

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٧٥ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٣٦ .

(٥) المصدر السابق : ٣٨ .

كما كان أبو عمرو غاية فى الكرم والبذل وقرى الضيف ، فقد روى أبو حاتم عن الأصمعى أنه قال :

«كان أبو عمرو بن العلاء يوسع لى ، وربما حلف ألا يخبرنى بحرف حتى آكل : وكانت ابنته تجيء وتجلس عندنا فى مجلسه ، وقد حجم الثدى على نحرها . قال : وعيسى بن عمر وحزبه إنما كانوا يلقونه أيام الجمع»[1] .

ولم يكن أبو عمرو بن العلاء يقرض الشعر ، ولم يؤثر عنه شيء منه سوى بيت واحد ، حيث روى يونس بن حبيب قال : «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : ما زدت فى شعر العرب قط إلا بيتا واحدا وهو :

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

فألحقه الناس فى شعر الأعشى»[2] .

وقال ابن مناذر : «سألت أبا عمرو بن العلاء : «حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : مادامت الحياة تحسن به»[3] .

آثاره :

لم يخلف أبو عمرو بن العلاء شيئا مكتوبا . كما لم يخلف من كان قبله شيئا مكتوبا أيضا ؛ وإنما كان السبب فى أن أبا عمرو لم يترك بعده شيئا مكتوبا ، أنه قد تنسك فى أواخر أيامه ، فعمد إلى ما لديه من كتب فأحرقها ، يقول ابن خلكان :

«وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ – أى تنسك – فأحرقها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأول ، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»[4] .

---

(١) المصدر نفسه ٣٦ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٦٨/٣ ، ومراتب النحويين : ٣٤ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤٦٨/٣ .

(٤) وفيات الأعيان : ٤٦٦/٣ .

ومن ثم كان ما أثر عن أبى عمر بن العلاء ومن سبقه ، هى آراء حوتها كتب النحو من بعدهم ، ونسبت إليهم . فمما نسب إلى أبى عمرو بن العلاء فى كتاب سيبويه إذ شمل أكثر من أربعين موضعا :

١ – قوله عن المستثنى بإلا ،حين يكون الكلام تاما منفيا : «الوجه ما أتانى القوم إلا عبدُالله ؛ ولو كان هذا بمنزلة (أتانى القوم) ، لما جاز أن تقول : ما أتانى أحد ، كما أنه لا يجوز : أتانى أحد»[١] .

٢ – قوله : «واعلم أن ما كان صفة للمعرفة ، لا يحسن أن يكون حالا ، ينتصب انتصاب النكرة»[٢] .

٣ – قراءته : ﴿خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ﴾[٣] .

٤ – قراءته : ﴿فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنْ﴾ و ﴿فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنْ﴾ على الوقف[٤] .

٥ – قوله : «ألارجل إما زيداً وإما عمراً ، لأنه حين قال : ألارجل ، فهو متمن شيئا يسأله ويريده ، فكأنه قال : اللهم اجعله زيدا أو عمرا ، أو وفق لى زيدا أو عمرا ، وإن شاء أظهره فيه»[٥] .

٦ – قوله : «واعلم أن (كم) ، فى الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه (رب) لأن المعنى واحد ، إلا أن (كم) اسم ، و (رب) غير اسم بمنزلة (من) ، والدليل عليه أن العرب تقول : كم رجلٍ أفضلُ منك ، تجعله خبر (كم)»[٦] .

٧ – قوله بأن أصل (وى) من قوله – تعالى – : ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٧] : ويلك فحذفت اللام لكثرة الاستعمال ، وفتح (أن) بفعل مضمر ،

---

(١) الكتاب : ٣١١/٢ .
(٢) الكتاب : ١١٣/٢ .
(٣) الكتاب : ٤٣/٢. والآية رقم ٧ من سورة القمر .
(٤) الكتاب : ١٨٦/٤ . والآيتان رقما ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر .
(٥) الكتاب : ٢٨٦/١ .
(٦) الكتاب : ٢٦١/٢ .
(٧) سورة القصص : من الآية ٨٢ .

كأنه قال : ويلك اعلم أن[1] .

هذه نماذج مما تضمنه كتاب سيبويه من آراء أبى عمرو بن العلاء النحوية ، كما تضمنت كتب أخرى بعض آراء له فى النحو أيضا مثل :

١ – قوله إن (ألف) التثنية هى حرف الإعراب[2] .

٢ – قوله إن المنصوب فى قولهم : (حبذا محمد رجلا) حال لا تمييز[3] .

٣ – تركه صرف لفظة (سبأ) فى قوله – تعالى – : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَأَ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[4] ، وكأنه جعله اسما للقبيلة[5] .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن أبا عمرو إلى أن يكون من اللغويين والقراء أقرب منه إلى أن يكون من النحاة ، ويستدل على ذلك بقول الجاحظ عنه : «كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس» . ثم يقول : الدكتور شوقى ضيف :

«غير أنه نقلت عنه بعض أنظار نحوية ، جعلتنا نسلكه بين أوائل النحاة ، وخاصة أن ابن جنى يقول : «كان ممن نظروا فى النحو والتصريف ، وتدربوا ، وقاسوا»[6] . ولكن لم يكن هذا هو الجانب الذى شغله ، ولعل ذلك هو السبب فى أن سيبويه لم يرو عنه ولا عن تلاميذه شيئا مهما له فى النحو ومسائله ، إنما روى عنه بعض الشواهد اللغوية ، ولم يأخذ عنه مباشرة ، إنما أخذ عن تلميذه يونس ابن حبيب ، وكأنه لم يلقه ، ولم يجلس إليه»[7] .

---

(١) الكتاب : ٢/١٥٤ ، والأشمونى : ٣/١٥٠ .
(٢) الخصائص : ٣/٧٣ .
(٣) مغنى اللبيب : ٥١٥ .
(٤) سورة النمل : ٢٢ .
(٥) الإنصاف فى مسائل الخلاف : ٢٠٧ .
(٦) الخصائص : ١/٢٤٩ .
(٧) المدارس النحوية : ٢٧ .

وفاته :

تروى كتب التراجم والطبقات أن أبا عمرو بن العلاء تنسك فى أخريات أيامه ، حتى إنه عمد إلى ما كان لديه من كتب – وكانت تملأ بيتا له إلى ما يقرب من السقف – فأحرقها ، وتفرغ للعبادة ، وقراءة القرآن ، حتى إنه جعل على نفسه أن يختم القرآن فى كل ثلاثة أيام[١] .

وروى ابن خلكان قال : «وكان أبو عمر إذا دخل شهر رمضان ، لم ينشد بيت شعر حتى ينقضى»[٢] .

كما روى أنه لما حضرته الوفاة كان يغشى عليه ويفيق ، فأفاق من غشية له ، فإذا ابنه بشر يبكى فقال له : ما يبكيك ، وقد أتت علىّ أربع وثمانون سنة[٣] ؟!

وكان قد خرج إلى الشام ، يجتدى عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام والى دمشق ، فلما عاد إلى الكوفة توفى بها سنة أربع وخمسين ومائة ، وقيل : تسع وخمسين ، وقيل : ست وخمسين – عليه رحمة الله – ، وكانت ولادته سنة سبعين ، وقيل : ثمان وستين ، وقيل : خمس وستين[٤] .

وذكرت غالبية كتب التراجم والطبقات أنه توفى فى طريق الشام[٥] ؛ ولكن ابن خلكان ينسب ذلك إلى الخطأ ، إذ يروى أن بعض الرواة ذكر أنه رأى قبره بالكوفة مكتوبا عليه (هذا قبر أبى عمرو بن العلاء)[٦] .

وقد رثاه ابن المقفع – وقيل ابنه محمد – بقوله :

رُزِئْنَا أَبَا عَمْرٍو وَلاَ حَيَّ مِثْلُهُ ... فَلِلَّهِ رَيْبُ الحَادِثَاتِ بِمَنْ فُجِعْ

---

(١) طبقات القراء : ٢٩٠.
(٢) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٨ .
(٣) المصدر السابق : ٣/٤٦٩ .
(٤) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٩ .
(٥) طبقات الزبيدى : ٤٠ ، ومراتب النحويين : ٤٢ .
(٦) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٩ .

فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذَوِى خُلَّةٍ مَا فِى انْسِدَادٍ لَهَا طَمَعْ
فَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقْدُنَا لَكَ أَنَّنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعْ[1]

٢ - عيسى بن عمر الثقفى :

أبو عمر عيسى بن عمر الثقفى ، مولى خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ، نزل فى ثقيف فنسب إليهم . أخذ القراءة عرضا عن عبدالله بن أبى إسحق ، وأبى عمرو بن العلاء ، وروى الحروف عن عبدالله بن كثير ، وابن محيصن ، وروى عن الحسن البصرى ، والحجاج بن رؤبة وجماعة : وروى القراءة عنه أحمد بن موسى اللؤلؤى ، وهارون بن موسى ، والأصمعى ، والخليل بن أحمد ،وسهل بن يوسف ، وعبيد بن عقيل ، وله اختيار فى القراءة على قياس العربية[2].

أخذ النحو عن عبدالله بن أبى إسحق ، وأبى عمرو بن العلاء ، وأخذه عنه الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وسيبويه .

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لم يضع فى النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط ، وأن عيسى بن عمر وضع كتابا على الأكثر ، وبوبه ، وهذبه ، وسمى ما شذ عن الأكثر لغات[3]. ولعله كتاب (الجامع) ، حيث يقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب ، وبسطه ، وحَشَّى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه ، وهو كتاب سيبويه المشهور .

حيث ذكر ابن خلكان أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ، ولازم الخليل ابن أحمد ، سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : «صنف نيفا وسبعين مصنفا فى النحو ، وإن بعض أهل اليسار جمعها ، فأتت عنده عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه (الإكمال) وهو

(١) المصدر السابق .
(٢) وفيات الأعيان : ٤٨٦/٣ ، وبغية الوعاة : ٢٣٧ .
(٣) وفيات الأعيان : ٤٨٧/٣ .

بأرض فارس عند فلان ، والآخر (الجامع) وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه» : فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد :

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ   غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرْ
ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ   وَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرْ

فأشار بالإكمال إلى الغائب ، وبالجامع إلى الحاضر[1] .

وكأن عيسى قد جمع مسائل النحو وقواعده فى (الجامع) ، ثم رأى إكمال تلك المسائل والقواعد فى (الإكمال) . قال السيرافى : «وهذان الكتابان ما وقعا إلينا ، ولا رأيت أحدا يذكر أنه رآهما»[2] ، بينما نقل ياقوت عن المبرد أنه قال : «قرأت أوراقا من أحد كتابى عيسى بن عمر»[3] .

تقعره فى الكلام :

كان عيسى بن عمر صاحب تقعير فى كلامه ، واستعمال الغريب فيه ، وفى قراءته : فقد روى الأصمعى قال : «جاء عيسى بن عمر يوما إلى أبى عمرو بن العلاء ، فقال : مررت بقنطرة مرَّة ، فلقينى بعيران مقرونان فى قرن ، فما شعرت شعرة حتى وقع قرانها فى عنقى ، فَلُبج[4] بى ، فافرنقع عنى ، والناس قيام ينظرون . قال : فكاد أبو عمرو ينشق غيظا من تقعره»[5] .

وحكى الجوهرى قال : «سقط عيسى بن عمر عن حمار له ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : ما لكم تكأكأتم علىّ تكأكؤكم على ذى جنة ، افرنقعوا عنى»[6] .

---

(١) المصدر السابق : ٣/٤٨٦ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٤٩ .
(٣) معجم البلدان : ١٦/١٤٧ .
(٤) يقال : لُبج بفلان لبجا ، إذا صُرِع .
(٥) طبقات الزبيدى : ٤٤ .
(٦) بغية الوعاة : ٢/٢٣٨ ، ووفيات الأعيان : ٣/٤٨٧.

وروى ابن خلكان سببا آخر لهذه المقالة ، قال : «رأيت فى بعض المجاميع أنه - أى عيسى بن عمر - كان به ضيق النفس ، فأدركه يوما وهو بالسوق ، فوقع ، ودار الناس حوله يقولون : مصروع مصروع ، فبين قارئ ، ومعوذ من الجان : فلما أفاق من غشيته ، نظر إلى ازدحامهم ، فقال هذه المقالة ، فقال بعض الحاضرين : إن جنيه يتكلم بالهندية»[1] .

وجمع الحسن بن قحطبة[2] ، عند مقدمه مدينة السلام ، الكسائى والأصمعى وعيسى بن عمر ، فألقى عيسى على الكسائى هذه المسألة : (همُّك ما أهمَّك) ، فذهب الكسائى يقول : يجوز كذا ، ويجوز كذا . فقال له عيسى : عافاك الله ، إنما أريد كلام العرب ، وليس هذا الذى تأتى به كلام العرب .

قال أبو العباس ثعلب : وليس يقدر أحد أن يخطئ فى هذه المسألة ، لأنه كيف عُرِّب فهو مصيب ، وإنما أراد عيسى من الكسائى أن يأتيه باللفظة التى وقعت له[3] .

ومن أبرز الشواهد على تقعر عيسى بن عمر ، وأخذه بالغريب ، ما رواه السيرافى بقوله :

«واستودعه - يقصد عيسى بن عمر - بعض أصحاب خالد بن عبدالله القسرى - وكان واليا على العراق من قِبَل هشام بن عبدالملك - وديعة ، فلما نزع خالد عن إمارة العراق ، وتقلد مكانه يوسف بن عمر[4] ، وكان يوسف يتتبع أصحاب خالد ، فنما خبر الوديعة إليه ؛ كتب إلى واليه بالبصرة ، يأمره أن يحمل إليه عيسى مقيدا ، فدعا به ، ودعا بالحداد ، فأمره بتقييده ، وقال له : لا بأس عليك ، إنما أراد الأمير لتؤدب ولده ، فقال : «فما بال القيد إذن ؟!» فذهبت

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/٤٨٧ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٤٢ .الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائى ، كان من قواد المنصور ، توفى سنة ١٨١ هجرية .

(٣) المصدر السابق .

(٤) يوسف بن عمر الثقفى ، أحد أمراء بنى أمية على اليمن والعراق ، وكان يسلك سبيل الحجاج فى الأخذ بالشدة ، وكان فصيحا جوادا . قتل سنة ١٢٦ هجرية .

قولته مثلا بالبصرة . فلما أُتِيَ به يوسف بن عمر ، سأله عن الوديعة ، فأنكرها ، فأمر به ، فضُرب مقطعا نحوا من ألف سوط ، فجعل يقول له : ما عندك ؟ فيقول : «أيها الأمير ، والله ما كانت إلا أثيابا فى أسيفاط ، قبضها عشاروك» ، فقال : إنك لخبيث ؛ ورفع الضرب عنه ، ووكل به حتى أخذ الوديعة منه»[1] .

قال الأصمعى : ورأيت يده إذ كان ذلك الوقت أجلبت من أثر الجامعة ، وكان ظهره متقطعا[2] .

وروى الأصمعى أيضا أن الذى ضربه على الوديعة هو عمر بن هبيرة[3] ، وليس يوسف بن عمر الثقفى[4] .

وروى أبو حاتم عن الأصمعى أنه قال : «كان عيسى بن عمر لا يدع الإعراب لشىء»[5] .

قال على بن محمد بن سليمان : قال أبى : «فرأيته - طول دهره - يحمل فى كمه خرقة فيها سكر العُشَر[6] والإجَّاص[7] اليابس ، وربما رأيته عندى وهو واقف علىّ ، أو سائر ، أو عند ولاة البصرة ، فتصيبه نهكة على فؤاده يخنق بها ، حتى يكاد أن يُغْلَب ، فيستغيث بإجاصة وسكرة يلقيهما فى فيه ، ثم يمصمصهما ، فإذا سرط من ذلك شيئا سكن ما به ، فسألته عن ذلك فقال :

---

(١) انظر : طبقات الزبيدى : ٤١ ، وأخبار النحويين البصريين : ٤٩ ، ووفيات الأعيان : ٣/٤٨٨. بتصرف يسير.

(٢) طبقات الزبيدى : ٤٢ .

(٣) ابن هبيرة : عمر بن هبيرة بن سعد ، ولى العراقين ليزيد بن عبدالملك ست سنوات (المعارف : ١٧٦) .

(٤) طبقات الزبيدى : ٤١ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) العشر : شجر كبير . له صمغ حلو ، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره ، فيه شىء من مرارة ، يقال له : سكر العشر .

(٧) الإجاص : شجر له ثمر حلو ، يطلق فى سيناء وسوريا وفلسطين على الكمثرى .

أصابنى هذا من الضرب الذى ضربنى يوسف بن عمر ، فتعالجت له بكل شىء ، فلم أجد له شيئا أصلح من هذا»[1].

أخلاقه :

كان عيسى بن عمر منقطعا لمدارسة اللغة والنحو والقراءات ، فقد قال عنه أبو الطيب اللغوى : «كان أفصح الناس»[2] ، وقال عنه السيرافى : «وكان عيسى ابن عمر فصيحا ،ويروى عنه أشياء كثيرة من القراءات»[3] ، وقال ابن الأعرابى : ثقة[4] ، وقال عنه أيضا : «قال عيسى : كنت - وأنا شاب - أقعد بالليل ، فأكتب حتى ينقطع سوائى - أى وسطى - ، وفيه يقول الشاعر :

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ ... غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرْ

وَهُمَا بَابَانِ صَارَا حِكْمَةً ... وَأَزَاحَا مِنْ قِيَاسٍ وَنَظَرْ [5]

وكان عيسى ابن عمر كعبد الله بن أبى إسحق ، كل منهما يطعُن على العرب ، فلا يسلم بما يقولون ، إذ يريان أنهم ليسوا بمعصومين عن الخطأ ، وإنما يرد على ألسنتهم الخطأ كما يرد الصواب ، بخلاف أبى عمرو بن العلاء ، الذى كان يثق فى كل ما يرد عن العرب ، ويسلم لهم بكل ما يقولون .

وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى أن أبا عمر بن العلاء كان من العرب الخلص ، العريقى النسب ، الضاربين فى الأصول العربية ، بينما ابن أبى اسحق وعيسى بن عمر كانا من الموالى ، فالأول كان مولى لآل الحضرمى ، والثانى كان مولى لخالد بن الوليد ، ولعل موقف ابن أبى إسحق من الفرزدق ، وتتبعه له فى تخطئة شعره خير دليل على طعنه على العرب[6] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٤٥ ، وأخبار النحويين البصريين : ٥٠ .

(٢) مراتب النحويين ٤٣ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٤٩ .

(٤) مراتب النحويين : ٤٣.

(٥) طبقات النحويين اللغويين : ٤٢ .

(٦) راجع ص ١٣٣ .

ومن دلائل طعن عيسى بن عمر على العرب ، محاولته تخطئة المشاهير منهم كالنابغة الذبياني ، الذى خطأه فى قوله :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِى أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ [1]

حيث قال : «وجهه أن يكون (السم ناقعا)» [2] ، على أن (ناقعا) حال من السم ؛ إلا أن سيبويه قد ساق هذا البيت شاهدا على إلغاء الجار والمجرور إذا تقدم ، وأعرب (السم) مبتدأ ، و (ناقع) خبرا [3] .

وقد بلغ من طعنه على العرب ، واعتداده بنفسه ، أن قال لأبى عمرو بن العلاء : «أنا أفصح من معد بن عدنان» ، وهذا ما جعل أبا عمرو يكيد له بما يثبت به بطلان قوله ودحض دعواه ، حيث قال له : لقد تعديت ، فكيف تنشد هذا البيت :

قَدْ كُنَّ يَخْبَأْنَ الوُجُوهَ تَسَتُّرًا فَالْيَوْمَ حِينَ بَدَأْنَ لِلنُّظَّارِ [4]

فهل هى (بدأن) أو (بدين للنظار) ؟ فقال عيسى : بدأن ، فقال له أبو عمرو : أخطأت ، يقال : بدا يبدو إذا ظهر ، وبدأ يبدأ إذا شرع فى الشىء ، والصواب : حين بدون للنظار . وإنما قصد أبو عمرو تغليطه ، لأنه لا يقال فى هذا الموضع (بدأن) ولا (بدين) بل (بدون) [5] .

آثاره :

لم يترك عيسى بن عمر بعده أثرا مكتوبا ، رغم توارد الأخبار عن أنه ألف فى النحو كتابين أحدهما (الجامع) والثانى (الإكمال) ، ورغم ما قيل عن أن سيبويه قد اعتمد على (الجامع) فى تأليف كتابه ، وماروى عن أن المبرد اطلع

---

(١) البيت : من إحدى اعتذارات النابغة إلى النعمان بن المنذر ، وهى فى ديوانه : ٥١.

(٢) طبقات الزبيدى : ٤١ .

(٣) الكتاب : ٢/٨٩ .

(٤) البيت : للربيع بن زياد العبسى .

(٥) مجالس العلماء : ١٤٤ ، ووفيات الأعيان : ٣/٤٨٧ .

على بعض أوراق منه ، فإن الراجح عن هذين الكتابين أنهما قد فقدا ، وأتت عليهما صروف الدهر فى زمن مبكر ، حتى إن أبا سعيد السيرافى المتوفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية قال :

«وهذان الكتابان ما وقعا إلينا ، ولا رأيت أحدا يذكر أنه رآهما»[1].

وكل ما وصلنا منه إنما هو بعض الآراء التى كانت تعكس التزامه بمنهج أستاذه عبدالله بن أبى إسحق ، فى تجريد القياس ، واطراده ، وتعميمه فى كل ما يسمع أو يعرض له من كلام العرب ، حتى إنه كان يطبقه على القرآن الكريم ، ومن ثم كانت له مذاهب فى القراءة تخالف ما أجمع عليه القراء ، حتى عدت قراءته من القراءات الشاذة .

١ – ما حكاه سيبويه عنه من أنه كان يقيس النصب فى لفظة (يا مطرا) فى قول الأصمعى :

سَلامُ اللَّهِ يَا مَطَرًا عَلَيْهَا ... وَلَيْسَ عَلَيْكَ يَا مَطَرُ السَّلامُ

على النصب فى لفظة (يا رجلا) ، وكأنه يجعل (مطرا) فى تنوينها ونصبها كالنكرة غير المقصودة[2].

٢ – قراءته لقول الله – تعالى – : ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ﴾[3] بنصب (أطهر) على الحال ، وجعل (هن) ضمير فصل ؛ وقد أنكرها عليه أبو عمرو بن العلاء ، فقال له : كيف تقول : هؤلاء بنى هم ماذا ؟ فقال : عشرين رجلا ، فأنكرها أبو عمرو[4].

٣ – قراءته لقول الله – تعالى – : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[5] بنصب (الطير)

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٤٩ .
(٢) الكتاب : ٢/٢٠٢ .
(٣) سورة هود : من الآية ٧٨ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٤١ .
(٥) سورة سبأ : من الآية ١٠ .

قياسا على النداء ، كما تقول : يا زيدُ والحارثَ ، لما لم يمكن القائل : ويا الحارث ، نصب (الحارث) ، لأن (يا) لا تدخل فى النداء على المعرف بالألف واللام[1] .

٤ – قوله : «ادخلوا الأولُ فالأولُ» برفع لفظتى (الأول) على تقدير أنهما مرفوعتان بفعل مضارع محذوف تقدير (ليدخل) .

ويبدو مما تقدم أنه قد وضع أصلا مهما يدل على دقة حسه اللغوى ، هو اختيار النصب فى الألفاظ التى جاءت عن العرب فى بعض العبارات مرفوعة ومنصوبة ؛ وكأنه أحس أن العرب تنزع إلى النصب أكثر مما تنزع إلى الرفع لخفته ، فجعل النصب فوق الرفع ، وعده الأساس .

كما يتضح من المثال الرابع أنه كان يتوسع فى تقدير العوامل المحذوفة ، وكأنه لقن تلميذه الخليل والنحاة من بعده فكرة تقدير العوامل المحذوفة التى عمموها فى كثير من العبارات[2] .

وفاته :

توفى عيسى بن عمر الثقفى سنة تسع وأربعين ومائة هجرية[3] – عليه رحمة الله – بعد أن مكّن للنحو وقواعده التى اعتمدها البصريون من بعده ، تاركا لتلميذه الخليل بن أحمد جهوده النحوية ، كى يتم صرح النحو ، ويكمل تشييده . وكان ضريرا[4] .

---

(١) المدارس النحوية : ٢٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) وفيات الأعيان : ٣/٤٨٨ ، طبقات الزبيدى : ٤٥ ، بغية الوعاة : ٢/٢٣٨ .

(٤) الفهرست : ٦٢ .

سمات هذه الطبقة :

تتسم الطبقة الثالثة من طبقات نحاة البصرة بسمات أهمها :

١ – بدأ التجريد للقياس ، وتطبيقه على القراءات القرآنية ، والشعر العربى .

٢ – بدأ التعليل لقواعد النحو ، والتأويل لما يخالف القاعدة .

٣ – بدأ ظهور المناظرات كالتى كانت بين أبى عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبى إسحق ، وما كان بين أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر .

٤ – تتبع القراء وتخطئتهم فيما يقولون ، حتى المشهورين منهم كالنابغة الذبيانى والفرزدق .

٥ – ظهور بعض الآراء النحوية الفردية ، والقراءات القرآنية المخالفة لجمهور القراء .

٦ – لم يتركوا أثرا مكتوبا ، سوى ما روى عن كتابى (الجامع) و(الإكمال) لعيسى ابن عمر .



الطبقة الرابعة

١ - الأخفش الأكبر :

أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد ، مولى قيس بن ثعلبة من أهل هجر ، أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين ، وسادس الأخافش الأحد عشر : كان إماما فى العربية ، لقى الأعراب ، وأخذ عنهم ، وعن أبى عمرو بن العلاء وطبقته ، وأخذ عنه يونس بن حبيب ، وأبو عبيدة ، وسيبويه ، والكسائى : وكان دينا ورعا ثقة ؛ وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها [١].

قال ابن خلكان : «كان نحويا لغويا ، وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب» [٢].

آثاره :

لم يخلف أبو الخطاب وراءه شيئا مكتوبا ، وإنما كل ما تركه نتف وآراء لغوية تضمنتها كتب من أتوا بعده منها :

١ – قوله : «لا أقول : (جثة الرجل) إلا لشخصه على سرج أو رحل ، ويكون معمماً» وروى أنه لم يسمع من غيره [٣].

٢ – قوله : «الخفخوف [٤] طائر» . رواه عنه ابن دريد ، قال : ولم يذكره أحد من أصحابنا [٥].

٣ – قوله : «سمعت من قيل له : إليك ، فقال : إليَّ» . حكاه الرضى الإستراباذى [٦].

وقد نقل عنه سيبويه كثيرا فى كتابه ، مثال ذلك :

---

(١) بغية الوعاة : ٢/٧٤ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٣١٠.

(٣) طبقات الزبيدى : ٤٠ .

(٤) الخفخوف : الطائر الذى يقال له : الميساق : وهو الذى يصفق بجناحيه إذا طار (اللسان : مادة خ ف ف).

(٥) طبقات الزبيدى : ٤٠ .

(٦) شرح الرضى على الكافية : ٢/٧٥ .

٤ – قوله : «وزعم أبو الخطاب أن بعض العرب يقول : حيَّهل الصلاة ، فهذا اسم (ائت الصلاة)» [١].

٥ – قوله : وزعم أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب الموثوق بعربيتهم ينشد هذا البيت نصبا :

أَتُوعِدُنِى بِقَوْمِكَ يَا بْنَ حَجْلٍ أُشَابَاتٍ يُخَالُونَ الْعِبَادَا
بِمَا جَمَّعْتَ مِنْ حِضْنٍ وَعَمْرٍو وَمَا حِضْنٌ وَعَمْرٌو وَالْجِيَادَا

أراد : وما حصن وعمرو وملابستهما الجيادا [٢].

٦ – قوله : وزعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون : أنا هذا ، وهذا أنا ، ومثل ما قال الخليل فى هذا قول الشاعر :

وَنَحْنُ اقْتَسَمْنَا الْمَالَ نِصْفَيْنِ بَيْنَنَا فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا لَهَا وَذَا لِيَا

كأنه أراد أن يقول : وهذا لى ، فصير الواو بين هذا وذا ، وزعم أن مثل ذلك : إى ها الله ذا ، إنما هو هذا ، وقد تكون (ها) فى : ها أنت ذا ، غير مقدمة ، ولكنها تكون للتنبيه ، بمنزلتها فى هذا ، يدلك على هذا قوله – عز وجل – ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ [٣]؛ فلو كانت (ها) هنا هى التى تكون أولا إذا قلت : هؤلاء ، لم تعدها ههنا بعد : أنتم .

وحدثنا يونس أيضا – تصديقا لقول أبى الخطاب – أن العرب تقول : هذا أنت تقول كذا وكذا ...» [٤].

٧ – وذكر ابن الأنبارى أن أبا عبيدة قال : «سألت أبا الخطاب الأخفش : هل تجمع اليد الجارحة على : أيادى ؟ فقال : نعم . ثم سألت أبا عمرو بن العلاء ، فأنكر

(١) الكتاب : ١/٢٤١ .
(٢) الكتاب : ١/٣٠٤ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٦٦ .
(٤) الكتاب : ٢/٣٥٥ .

ذلك : فقلت لأبى الخطاب : إن أبا عمرو قد أنكر ما أثبته ، فقال : أوما سمع قول عدى .

سَاءَهَا مَا تَأمَّلْتُ فِى أَيَادِينَا وَإِشْفَاقِهَا إِلَى الأَعْنَاقِ

ثم قال : هى فى علم الشيخ لكننى قد أنسيته ، وهو كما قال أبو الخطاب ، قال الشاعر :

فَمَنْ لِيَدٍ تُطَاوِلُهَا الأَيَادِى

وإن كان الأغلب أن يراد بها النعمة [1].

وفاته :

توفى أبو الخطاب سنة سبع وسبعين ومائة هجرية [2].

---

(١) نزهة الألباء : ٥٣.

(٢) الأعلام : ٢/ ٤٨١ .

٢ - الخليل بن أحمد

أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عبدالرحمن بن عمرو بن تميم بن فرهود بن شبابة بن مالك بن فهم بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن يحمد من اليمن [١].

قال رجل للخليل بن أحمد : من أى العرب أنت ؟ فقال : فراهيدى ؛ ثم سأله آخر ، فقال : فرهودى .

قال المبرد : «قوله (فراهيدى) ، انتسب إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد ؛ وكان من أنفسهم ، صحيح النسب ، معروف الأهل : وقوله (فرهودى) ، انتسب إلى واحد الفراهيد ، وهو فرهود ، والفراهيد : صغار الغنم» [٢].

وكان أبو حاتم يقول : «الخليل بن أحمد الفرهودى ، من الفراهيد من اليمن» ؛ واسم الرجل عنده : فرهود بن مالك ، وكان يذهب إلى أن الفراهيد جمع ، مثل قولهم : الجعافرة والمهالبة [٣].

وقال القفطى : «وقد نسب إلى الفراهيد على غير هذا الوجه ؛ يقال : رجل فراهيدى . وكان يونس يقول : فرهودى مثل قردوسى [٤] . والفراهيد : صغار الغنم» [٥].

مولده :

ولد الخليل بن أحمد فى بلدة وِدَام الساحل بولاية المَصَنْعة من سلطنة عمان ، سنة مائة للهجرة ؛ وقيل : إن أباه أول من سمى بـ (أحمد) بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [٦].

(١) إنباه الرواة : ٣٤١/١ ، وطبقات الزبيدى : ٤٧ ، ووفيات الأعيان : ٢٤٤/٢.

(٢) مراتب النحويين : ٥٤ . (٣) المصدر السابق .

(٤) قردوسى : منسوب إلى قردوس ، وهو أبو قبيلة من اليمن .

(٥) إنباه الرواة : ٣٤١/١ . وفى اللسان : الفرهود : ولد الأسد - عمانية - ، وقيل : ولد الوعل .

(٦) إنباه الرواة : ٣٤٤/١، طبقات الزبيدى : ٤٧/٢، وفيات الأعيان : ٢٤٨/٢.

ثم رحل مع والده إلى البصرة ، وعمره سنتان ، فنشأ بها ، واختلف إلى كبار علمائها ، وأفاضلهم ، وأخذ عن أجل شيوخها وحذاقهم ، - وهى يومئذ ، معقل العلم وموئل العلماء - فقد أخذ اللغة عن أبى عمرو بن العلاء ، والنحو عن عيسى ابن عمر ، والقراءات عن عبدالله بن كثير ، والحديث عن عاصم الأحول ، والفقه عن أيوب السختيانى ، وغيرهم من علماء عصره ، وشيوخ زمانه ؛ حيث يقول أبو الطيب اللغوى :

«كان فى العصر ثلاثة هم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ، والأصمعى ؛ وكلهم أخذوا عن أبى عمرو بن العلاء اللغة والنحو والشعر ، ورووا عنه القراءة ، ثم أخذوا بعد أبى عمرو عن عيسى بن عمر ، وأبى الخطاب الأخفش ، ويونس وحبيب ، وعن جماعة من الثقات من الأعراب وعلمائهم مثل : أبى مهدية [1] ، وأبى طفيلة [2] ، وأبى البيداء [3] ، وأبى خير بن لقيط [4] ، وأبى مالك بن عمرو بن كركرة [5] - صاحب (النوادر) - من بنى نمير ، وأبى الدقين الأعرابى ، وكان أفصح العرب ؛ وليس الذين ذكرنا دونه ، وقد أخذ الخليل أيضا من هؤلاء ، واختلف إليهم» [6] .

ولما أتم الخليل علومه ، تصدر للتدريس بمسجد ومجالس البصرة ، حيث تتلمذ على يديه كثير من النابهين ، وأفاضل العلماء المبرزين أمثال : الأصمعى ، والنضر بن شميل ، وأبو فيد مؤرج الدوسى ، وعلى بن نصر الجهضمى ، وسيبويه ، وغيرهم ممن كانت لهم قدم راسخة فى علوم اللغة والنحو والأدب من بعده [7] .

---

(١) من الطبقة الأولى من اللغويين البصريين ، وهو صاحب غريب يروى عنه البصريون . (طبقات الزبيدى ١٥٧) .

(٢) انظر : مراتب النحويين : ٧١ ، والمزهر : ٢/١ .

(٣) أسعد بن عصمة . أعرابى نزل البصرة ، وكان يعلم الصبيان بأجر ، وكان يؤخذ منه العلم ، وكان شاعرا ، وهو زوج أم أبى مالك عمرو بن كركرة . (الفهرست : ٤٤) .

(٤) إياد بن لقيط ، واسمه نهشل بن زيد ، أعرابى بدوى من بنى عدى ، دخل البصرة وأناد وأخذ الناس عنه ، وصنف فى الغريب . (إنباه الرواة : باب الكنى ، والفهرست : ٤٤) .

(٥) مولى بنى سعدة ، راوية أبى البيداء ، أعرابى كان يعلم فى البادية ، ويورق فى الحضر ، وهو فى الطبقة الأولى من اللغويين البصريين . (طبقات الزبيدى : ١٥٧ ، والفهرست : ٤٤) .

(٦) مراتب النحويين : ٧١ .

(٧) انظر كتابنا (المدارس المعجمية العربية) : ٤٢ .

ومن ثم قيل فى نسبه : (الفراهيدى) أو (الفرهودى) نسبة إلى جده فرهود ابن شبابة ، وقيل : (الأزدى) نسبة إلى قبيلته أزد شنوءة : وقيل : (البصرى) نسبة إلى البصرة منشؤه ومرباه .

أخلاقه وصفاته :

يكاد يجمع العلماء ، ويتفق المترجمون والرواة على أن الخليل بن أحمد كان متصفا بكل ما يجب أن يتصف به العلماء الأجلاء ، والمعلمون والشيوخ الأفاضل : فقد كان دينا ورعا ، معروفا بسماحة النفس ، والجود بماله ، متوشحا بالقناعة والعفة ، والزهد فى نعيم الدنيا ، ومباهجها ، رغم أنه لم يكن ميسور الحال .

تقواه وورعه :

حكى ابن عائشة [1] قال : «كان الخليل بن أحمد يحج سنة ، ويغزو سنة ، حتى جاءه الموت» [2].

وكان – رحمه الله – لشدة تقواه وورعه – إذا شهد عند القاضى ، قبل شهادته على الفور ، دون تدقيق أو تمحيص ، بل كانت شهادته تعدل شهادة رجلين ، فقد روى سوار بن عبدالله بن سوار قال : «حدثنى أبى قال : شهد الخليل عند سوار بن عبدالله شهادات ، فقبله فيها كلها» [3].

وروى أبو عاصم [4] قال : «دخلنا على الخليل بن أحمد قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فعلت قط فعلا أخاف على نفسى منه ، ولا كان على فضل فكر صرفته إلى جهة ووددت أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمدا قط : وأرجو الله أن يغفر لى التأول» [5].

---

(١) عبيد الله بن محمد بن حفص ، منسوب إلى عائشة بنت طلحة لأنه من ذريتها ، توفى بالبصرة سنة ٢٨٨ هجرية (المعارف : ٢٢٨) .

(٢) مراتب النحويين : ٥٦ .

(٣) مراتب النحويين : ٦٧ .

(٤) أبو عاصم الضحاك بن مخلد الشيبانى البصرى ، من شيوخ المحدثين وحفاظهم ، توفى سنة ٢١٢هـ . (تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٣٤) .

(٥) مراتب النحويين : ٥٧ .

وقال المبرد : «جلس رجل إلى الخليل بن أحمد فقال : أحسبنى قد ضيقت عليك ، فقال له : لا تقل ذلك ، فإن شبرا من الأرض لا يضيق على المتحابَّيْن ، والأرض برحبها لا تسع متباغضين»[١].

وقال الأصمعى : «كادت الإباضية[٢] تغلب على الخليل ، حتى مَنَّ الله عليه بمجالسة أيوب»[٣].

وقال النضر بن شميل : «ما رأيت أحدا أعلم بالسنة – بعد ابن عون – من الخليل بن أحمد»[٤].

قناعته وزهده :

لم يؤثر عن الخليل بن أحمد أنه تكسب يوما بعلمه ، أو تعيش من مؤلفاته أو مصنفاته ، وإنما كان يتحرى فى إفادته الناس وجه الله – تعالى – ، وما ينتظره من ثواب فى الدار الآخرة ؛ حيث روى على بن نصر الجهضمى قال : «كان الخليل بن أحمد من أزهد الناس ، وأعلاهم نفسا ، وأشدهم تعففا ؛ ولقد كان الملوك يقصدونه ، ويتعرضون له لينال منهم ، ولم يكن يفعل ، وكان يعيش من بستان له خلفه عليه أبوه بالخُرَيْبَة[٥]».

وقال تلميذه النضر بن شميل : «أقام الخليل بالبصرة لا يقدر على فلسين ، وتلاميذه يكسبون الأموال بعلمه»[٦].

وقال النضر أيضا فى حق أستاذه : «أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه ، وهو يعيش فى خص لا يشعَر به»[٧].

---

(١) طبقات الزبيدى : ٤٨ .

(٢) الإباضية : فرقة تنسب إلى عبيدالله بن إباض التميمى ، أجمعوا على إمامته ، وهو مذهب أهل سلطنة عمان . (الفرق بين الفرق : ٨٠) .

(٣) أيوب بن أبى تميمة السختيانى البصرى . سيد فقهاء أهل البصرة ، ولد سنة ٦٦ هجرية ، وتوفى سنة ١٢٥ هجرية . (تهذيب التهذيب : ١/٣٩٨) .

(٤) المزهر للسيوطى : ١/٦٤ .

(٥) الخريبة – بلفظ التصغير – : موضع بالبصرة (معجم البلدان لياقوت الحموى) .

(٦) بغية الوعاة : ١/٥٥٨ .

(٧) المزهر : ١/٦٥ .

وعنه أيضا أنه قال : «كنا نميل بين ابن عون والخليل بن أحمد ، أيهما تقدم في الزهد والعبادة ، فلا ندرى أيهما نقدم»[1] .

عفته وأنفته :

كان الخليل بن أحمد عفيف النفس عما فى أيدى الناس ، معتزا بنفسه ، معتدا بعلمه ، متمتعا بنفس راضية قانعة ، وأنفة عالية شامخة : فقد أتاه رسول من سليمان بن على ، وكان واليا على الأهواز ، يدعوه إلى ملاقاة سليمان ، وكان سليمان قد أراد أن يصله ، ويكافئه على علمه وما يبذله للناس ، مع ما يحياه من شظف العيش ، وخشونة الحياة ؛ ونظرا لما يعلمه سليمان عنه من العفة والقناعة والزهد والأنفة ، فقد رأى أن يتخذه معلما لأولاده ؛ فلما أتاه الرسول ، أخرج له الخليل خبزا يابسا ، وقدمه قرّى له وقال : «ما عندى غير هذا» ، فقال له الرسول : «وبم أرد على سليمان ؟» فقال له الخليل : «ما دمت أجد هذا ، فلا حاجة بى إلى سليمان» ، ثم قال :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّى عَنْهُ فِى سَعَةٍ ... وَفِى غِنًى ، غَيْرَ أَنِّى لَسْتُ ذَا مَالِ
سَخَّى بِنَفْسِىَ أَنِّى لاَ أَرَىَ أَحَدًا ... يَمُوتُ هُزْلاً ، وَلاَ يُبْقَى عَلَى حَالِ
فَالرِّزْقُ عَنْ قَدَرٍ لاَ الْعَجْزُ يُنْقِصُهُ ... وَلاَ يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلُ مُحْتَالِ
وَالْفَقْرُ فِى النَّفْسِ لاَ فِى الْمَالِ تَعْرِفُهُ ... وَمِثْلُ ذَاكَ الْغِنَىَ فِى النَّفْسِ لاَ الْمَالِ
وَالْمَالُ يَغْشَى أُنَاسًا لاَ أُصُولَ لَهُمْ ... كَمَا تُغَشَّى أُصُولُ الدِّنْدِنِ الْبَالِ[2]

وعن اعتزاز الخليل بنفسه ، واعتداده بعلمه يقول أبو بكر الزبيدى عنه : «... وهو الذى بسط النحو ، ومد أطنابه ، وسبب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحجاج فيه ، حتى بلغ أقصى حدوده ، وانتهى إلى أبعد غاياته ، ثم لم يرض أن

(١) المزهر : ١/٦٤ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٤٧ .

يؤلف فيه حرفا ، أو يرسم منه رسما ، نزاهة بنفسه ، وترفعا بقدره ، إذ كان قد تقدم إلى القول عليه ، والتأليف فيه ، فكره أن يكون لمن تقدمه تاليا ، وعلى نظر من سبقه محتذيا»[1] .

ثقافته ومكانته العلمية :

عرفنا من ترجمة حياة الخليل أنه رحل إلى البصرة منذ نعومة أظفاره ، وقضى بها بقية حياته ، وكانت البصرة آنذاك موئل العلم ، ومعقل المعرفة ، فنهل العلم من منبعه ، واغترف المعرفة من معينها الذى لا ينضب ، حيث أخذ اللغة عن أبى عمرو بن العلاء ، والنحو عن عيسى بن عمر الثقفى ، وأخذ الحديث عن عاصم الأحول ، والتفسير عن عبدالله بن كثير ، والفقه والأصول عن أيوب السختيانى ، وغيرهم من علماء اللغة والنحو ، وأئمة الفقه والأصول .

يقول أبو الطيب اللغوى : «وكان الخليل أعلم الناس وأذكاهم ، وأفضل الناس وأتقاهم»[2] .

وكان الخليل يتمتع بحافظة جبارة لاقطة ، وموهبة فذة مبتكرة ولم يقف نبوغه عند النحو واللغة فحسب ، بل كان ذا عقلية رياضية ظهرت بجلاء فى تأليفه معجم (العين) ، وإقدامه على جمع ألفاظ اللغة فيه بطريقة حاصرة ، عن طريق تقليبات الأصل ، كما تفوق فى العلوم الشرعية وغيرها ، كما كان بارعا فى الموسيقى ، ملما بأنواع النغم ، مما ساعده على ابتكار علم العروض الذى كان غريبا على أهل عصره .

يقول أبو الطيب اللغوى : «بلغنا عن الخليل أنه تعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم ارزقنى علما لم يسبقنى إليه الأولون ، ولايأخذه إلا عنى المتأخرون ، ثم رجع وعمل العروض»[3] .

---

(١) استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين : المقدمة .
(٢) مراتب النحويين : ٥٥ .
(٣) المصدر السابق : ٥٨ .

وقد روى فى سبب وضعه لعلم العروض . أنه كان يحج بيت الله الحرام ذات مرة ، وكان أحد صانعى الأوانى النحاسية يعمل فى دكان تحت الغرفة التى ينزل فيها ، وأراد الخليل أن يخلو إلى النوم وقت القيلولة يوما ؛ فأخذ الرجل فى طرق النحاس بدقات منتظمة ، فأقلقه ومنع عنه النوم ، إلا أن إيقاع المطرقة استهوى الخليل لانتظامه بطريقة مطردة ، فأخذ يضم الدقات إلى بعضها فى مجموعات ، أمكنه أن يؤلف منها جملاً موسيقية ، خرج منها بالتفعيلات التى كانت أساسا لبحور الشعر المختلفة .

وأحدث الخليل أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب ، فقد روى أبو على إسماعيل بن أبى محمد اليزيدى قال : «أخبرنى أصحابنا أن الخليل بن أحمد نظم قصيدة على (فَعَلُن فَعَلُن) ثلاث متحركات فساكن ، وأخرى على (فعْلن فَعْلن) بمتحرك وساكن ، فالتى على ثلاث متحركات قصيدته التى فيها :

سُئِلُوا فَأَبَوْا فَلَقَدْ نَجِلُوا ... فَلَبِئْسَ لَعَمْرِكَ مَا فَعَلُوا
أبَكَيْتَ عَلَى طَلَلٍ طَرَبًا ... فَشَجَاكَ وأَحْزَنَكَ الطَّلَلُ ؟! [1]

والتى على (فَعْلن) ساكن العين قوله :

هَذَا عَمْرو يَسْتَعْفِي مِنْ ... زَيْدٍ عِنْدَ الْفَضْلِ الْقَاضِي
فَانْهَوْا عَمْرًا إنِّي أخْشَى ... صَوْلَ اللَّيْثِ الْعَادِي الْمَاضِي
لَيْسَ الْمَرْءُ الْحَامِي أَنِفًا ... مِثْلَ الْمَرْءِ الضَّيْمِ الرَّاضِي

فاستخرج المحدثون من هذين الوزنين وزنا سموه المخلّع [2] ، وخلطوا فيه بين أجزاء هذا وأجزاء هذا .

ومن بدائع الخليل ماوراه عنه الحرمازى [3] ، وهى ثلاثة أبيات على قافية

---

(١) المصدر نفسه : ٥٩ .

(٢) هو مخلع البسيط ، وتفعيلاته : مستفعلن فاعل فعولن (مرتان) .

(٣) أبو على الحسن بن على ، أعرابى بدوى راوية ، قدم البصرة ، وهو منسوب إلى حرماز بن مالك بن عمرو ابن تميم ، وكان شاعرا . (الفهرست : ٤٨) .

واحدة يستوى لفظها ويختلف معناها ، وإنما أراد بهذا أن يبين أن تكرار اللفظ فى القوافى ليس بضائر إذا لم يكن لمعنى واحد ، وأنه ليس بإيطاء[1] ، وهى :

يَا وَيْحَ قَلْبِى مِنْ دَوَاعِى الْهَوَى ... إِذْ رَحَلَ الْجِيرَانُ عِنْدَ الْغُرُوبِ
أَتْبَعْتُهُم طَرْفِى وَقَدْ أَمْعَنُوا ... وَدَمْعُ عَيْنِى كَفَيْضِ الْغُرُوبِ
بَانُوا وَفِيهِمْ طَفْلَةٌ حُرَّةٌ ... تَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ أَقَاحِى الْغُرُوبِ

فالغروب الأولى : غروب الشمس .

والغروب الثانية : جمع (غرب) وهو الدلو العظيمة المملوءة .

والغروب الثالثة : جمع (غرب) وهى الوهاد المنخفضة[2] .

وروى ابن أبى سعد عن عبدالرحمن بن نوح قال : «لما صنع إسحق بن إبراهيم كتابه فى النغم واللحون ، عرضه على إبراهيم بن المهدى ، فقال : أحسنت يا أبا محمد – وكثيرا ما تحسن – فقال إسحق : بل أحسن الخليل ، لأنه جعل السبيل إلى الإحسان : قال إبراهيم : ما أحسن هذا الكلام ؛ ممن أخذته ؟ قال من ابن مقبل[3] ، إذ سمع حمامة من المطوقات فاهتاج لمن يحب فقال :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِلَيْلَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِى فَهَاجَ لِى الْبُكَا ... بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ[4]

وقال الأصمعى : «كنا عند الخليل بن أحمد ، فأنشدته أبيات اليهودى[5] ، حتى مررت بقوله :

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الْكَسْبِ ... وَلاَ يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ

(١) الإيطاء : اتفاق قافيتين أو أكثر بمعنى واحد فى قصيدة واحدة .

(٢) مراتب النحويين : ٦٠ .

(٣) نسب الشريشى البيتين فى شرح المقامات : ٣٤/١ إلى عدى بن الرقاع ، وكذا المبرد فى الكامل : ١٢٥/٣ ، ونسبهما الأخفش إلى نصيب .

(٤) طبقات الزبيدى : ٥٠ .

(٥) هو السموءل بن عادياء ، من قصيدة له فى الأصمعيات : ٨٥ .

فقال : كيف ؟ فقلت : ليس فى كلامهم (الثاء) . فقال : كيف قال إذن (الكثير) ؟![1] .

ويروى أن ملك اليونانية كتب إلى الخليل كتابا باليونانية ، فخلا بالكتاب شهرا حتى فهمه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : قلت إنه لا بد له من أن يُفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه ، فبنيت أول حروفه على ذلك ، فاقتاس لى ، فكان هذا الأصل الذى عمل له الخليل كتاب (المُعَمَّى)[2] .

ومن الطريف فى اختراعه لعلم العروض ، ما يحكى من أن ابنه دخل عليه يوما – وهو يقطع بيتا من الشعر ، فظن أن بأبيه جنَّة أومسا من الشيطان ، فخرج إلى الناس وهو يقول : «لقد جنُ أبى» ، فتجمع الناس ، ودخلوا على الخليل وهو على هذه الحال ، فلما سألهم أخبروه بمقالة ابنه ، فنظر إليه قائلا :

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِى ... أَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَا
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِى فَعَذَلْتَنِى ... وَعَلِمْتَ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ [3]

جهوده العلمية :

خلف الخليل بن أحمد وراءه آثارا جمة ، كانت جميعها محل اعتبار العلماء والدارسين ، ومناط اعتماد كل من أتى بعده من المؤلفين والمصنفين ، وكانت هذه الآثار صنفين : مؤلفات مكتوبة ، وآراء وتوجيهات أدلى بها إلى تلاميذه .

أما ما ألفه الخليل فقد تناول فيه شتى المعارف والعلوم والفنون التى حذقها ، ولكن معظمها فقد ولم يصل إلينا ، إما نتيجة لهجمات التتار على بلاد العراق ، والعبث فيها بكل غال ورخيص ، وإهدار كل غث وثمين ، أو بفعل عوادى الأيام ، وصروف الدهر ، التى أطلقت فيها أيدى البلى والضياع ، ولم تبق منها إلا النزر اليسير ، ومما تذكر كتب التراجم مما تركه الخليل :

---

(١) طبقات الزبيدى : ٥٠ .
(٢) المصدر السابق : ٥١ .
(٣) وفيات الأعيان : ٢٤٧/٢، معجم الأدباء : ٧٦/١١ ، وإنباه الرواة : ٣٣٧/١ .

فى اللغة :

١ – كتاب العين . وهو الذى دل على أن الخليل ذو عقلية رياضية فذة ، حيث يعد أساسا للتأليف المعجمى فى اللغة العربية ، وقد جمع فيه كل ألفاظ اللغة – المستعمل منها والمهمل – عن طريق تقليب الكلمة ، مستخدما فى ذلك أبجدية صوتية من ابتكاره هو ، تعتمد على ترتيب حروف الهجاء ترتيبا صوتيا ، يبدأ من أقصى الحلق ، وينتهى عند الشفتين ، وقد استهله بحرف (العين) لأنه أنصع الحروف الحلقية ، ولذا سماه (كتاب العين) كما رتب أبوابه ترتيبا منطقيا ، يمكن الباحث من أن يقف على عدد ألفاظ كل باب فى دقة متناهية ، وييسر منقطع النظير ، على نحو ما فعل حمزة الأصفهانى[1] .

٢ – كتاب معانى الحروف .

٣ – كتاب النقط والتشكيل .

٤ – كتاب الجمل .

٥ – كتاب الشواهد .

فى العروض :

١ – كتاب العروض .

٢ – كتاب الفرش والمثال .

فى الموسيقى :

١ – كتاب الإيقاع والنغم ، وهو الكتاب الذى اعتمد عليه إسحق الموصلى فى تأليف كتابه (أصناف النغم وأنواع اللحون)[2] .

أما آراء الخليل وتوجيهاته التى لم يضمنها كتابا من تأليفه ، فهى الخاصة بعلمى النحو والصرف ، حيث أنف أن يؤلف فيهما ، فيكون تابعاً لغيره ،

---

(١) فى كتابه (الموازنة) . انظر : بغية الوعاة : ١/٥٥٩، والمزهر : ١/٧٤ .

(٢) المدارس النحوية : ٣٠.

ومقتفيا لأثره ، بعد أن تقدمه إلى التأليف فيهما أستاذه عيسى بن عمر بتأليفه كتابى : الإكمال والجامع ؛ وإنما عهد إلى أنجب تلاميذه وأخلصهم ، سيبويه بعلمه وفكره ، فأخرج عليه كتابه المسمى (الكتاب) ، والذى أطلق عليه العلماء اسم (قرآن النحو) ، حتى إن غالبية النحاة يعتبرون أن جل ما اشتمل عليه كتاب سيبويه هو من علم الخليل ، حيث يقول أبو بكر الزبيدى :

«وهو – أى الخليل – الذى بسط النحو ، ومد أطنابه ، وسبب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحجاج فيه ، حتى بلغ أقصى حدوده ، وانتهى إلى أبعد غاياته ؛ ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفا ، أو يرسم فيه رسما ، نزاهة بنفسه ، وترفعا بقدره ، إذ كان قد تقدم إلى القول عليه ، والتأليف فيه ، فكره أن يكون لمن تقدمه تاليا ، وعلى نظر من سبقه محتذيا ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ، ولقنه من دقائق نظره ، ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ، وألف فيه (الكتاب) الذى أعجز مَنْ تُقدم عليه ، كما امتنع على مَنْ تأخر بعده»[1] .

وحكى يونس بن حبيب قال : «لما أقدم سيبويه على وضع (الكتاب) أتانى ، فقال لى : يا يونس ، قم نحيى علم الخليل»[2] .

وقال ثعلب : «الأصول والمسائل فى (الكتاب) للخليل»[3] .

وقال أبو الطيب اللغوى : «عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل»[4] .

وقال السيرافى : «وعامة الحكاية فى كتاب سيبويه عن الخليل ، وكلما قال سيبويه : وسألته ، أو قال – من غير أن يذكر قائله – فهو الخليل»[5] .

---

(١) استدراك الغلط الواقع فى كتاب (العين) : المقدمة .
(٢) مقدمة (خزانة الأدب) للبغدادى – تحقيق عبدالسلام هارون .
(٣) المدارس النحوية : ٣٤ .
(٤) مراتب النحويين : ١٠٦ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٥٦ .

وصفوة القول أن الخليل بن أحمد تناول علمي النحو والصرف ساذجين من أسلافه، فرفع قواعدهما، وثبت أركانهما، وشاد صرحهما وبناءهما الضخم؛ بما رسم من مصطلحاتهما، وضبط من قواعدهما، وبما شعب من فروعهما؛ ومازال بهما حتى استويا فى صورتهما التى ثبتت على الزمن، ونستطيع أن نقول – فى إجمال – : إن جمهور ما يصوره سيبويه فى كتابه من أصول النحو والصرف وقواعدهما إنما هو من صنيع أستاذه الخليل[1].

فهو الذى وضع معظم مصطلحات العلمين، وأبوابهما، كتسميته علامات البناء فى الكلمات باسم الضم والفتح والكسر، وتسمية السكون فيها بالوقف، وفى الأفعال بالجزم: ويسمى علامات الإعراب باسم الرفع والنصب والخفض، وتسمية الأبواب باسم: المبتدأ، والخبر، وكان، وإن، وأخواتهما، والفاعل والمفاعيل، والحال، والتوابع، والنداء، والممنوع من الصرف ... إلخ.

كما قسم الكلمات – بحسب البنية – إلى مجردة ومزيدة، وحدد حروف الزيادة فى عشرة تجمعها كلمة (سألتمونيها)، ووضع الميزان الصرفى، والقلب المكانى، والإعلال، والإبدال، والإدغام ... إلخ.

وهو الذى ثبت نظرية العامل، ومد فروعها، وأحكمها، وقسمها إلى عوامل لفظية ومعنوية، وتكلم عن إعمالها ظاهرة ومحذوفة، كما أمعن فى التعليل والتأويل والتخريج حين يجد نصا يصطدم بالقواعد التى يستظهرها.

وهو الذى أرسى دعائم أصول النحو كالسماع، والقياس، والتعليل، والتأويل، وغيرها، فمن أجل السماع اعتمد على مصدرين لا يمكن أن يعتورهما شك أو ارتياب فى صدقهما وهما: قراء القرآن الكريم، ومشافهة العرب الخلص؛ ومن ثم فقد رحل إلى الحجاز ونجد وتهامة؛ كما ثبت فكرة عدم الاستشهاد بالحديث النبوى، لأن الكثيرين من حملته كانوا من الأعاجم، وهم لا يوثق بفصاحتهم، واللحن يدخل على ألسنتهم.

---

(١) المدارس النحوية: ٣٤.

أما بالنسبة للقياس فإن كتاب سيبويه يغص بأقيسته ، حتى لتعد أهم مادة شاد بها بناء النحو العربى ، ويتضح ذلك بجلاء فى محاوراته التى كانت تجرى مع تلميذه سيبويه ، مثال ذلك ما دار بينهما بشأن رفع المنادى إذا كان مفردا ، ونصبه إذا كان مضافا أو نكرة غير مقصودة ، وجواز نصب نعت المنادى المفرد ورفعه ، وتحتم النصب لنعت المنادى المضاف ، حيث يقول سيبويه :

. «وزعم الخليل أنهم نصبوا المضاف نحو : يا عبدَالله ، ويا أخانا ، والنكرة حين قالوا : يا رجلا صالحا حين طال الكلام ، كما نصبوا : هو قبلَك ، وهو بعدك ؛ ورفعوا المفرد كما رفعوا : (قبلُ ، وبعدُ) ، وموضعهما واحد ، وذلك قولك : يا زيدُ ، ويا عمرو ؛ وتركوا التنوين فى المفرد كما تركوه ، فى (قبل) . قلت : أرأيت قولهم : يا زيدُ الطويلَ ، علام نصبوا (الطويل) ؟ قال : نصب لأنه صفة لمنصوب ، وقال : وإن شئت كان نصبا على (أعنى) . فقلت : أرأيت الرفع على أى شىء هو إذا قال : يا زيدُ الطويلُ ؟ قال : هو صفة لمرفوع . قلت : ألست قد زعمت أن هذا المرفوع فى موضع نصب ؟ فلِمَ لا يكون كقوله : لقيته بالأمسِ الأحدث ؟ قال : من قِبَل أن كل اسم مفرد فى النداء مرفوع أبدا ، وليس كل اسم فى موضع (أمس) يكون مجرورا ، فلما اطرد الرفع فى كل مفرد فى النداء ، صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو الفعل ، فجعلوا وصفه إذا كان مفردا بمنزلته . قلت : أفرأيت قول العرب كلهم :

أَزَيْـدُ أخـا وَرْقَـاءَ إنْ كُـنْـتَ ثـائِـرًا ... فَـقَـدْ عَـرَضَـتْ أحْـقَـادُ حَـقٍّ فَـخَـاصِـمِ

لأى شىء لم يجز فيه الرفع كما جاز فى (الطويل) ؟ قال : لأن المنادى إذا وصف بالمضاف فهو بمنزلته إذا كان موضعه ، ولو جاز هذا لقلت : يا أخونا ، تريد أن تجعله فى موضع المفرد ، وهذا لحن ، فالمضاف إذا وصف به المنادى فهو بمنزلته إذا ناديته ، لأنه وصف لمنادى فى موقع نصب ، كما انتصب حيث كان منادى ، لأنه فى موضع نصب ، ولم يكن فيه ما كان فى كلمة (الطويل) لطوله . وقال الخليل : كأنهم لما أضافوا ردوه إلى الأصل كقولك : إن أمسك قد مضى»[1] .

---

(١) الكتاب : ٣٠٣/١ .

وكان دائما يبنى قياسه على الكثرة المطردة من كلام العرب ، مع نصبه على ما يخالفه ، محاولا أن يجد مخرجا لما شذ على الأقيسة عن طريق التأويل .

أما بالنسبة للتعليل ، فقد كان الخليل دائما ما يسند ما يستنبطه من القواعد والأحكام بالعلل التى تصور دقته فى فقه الأسرار اللغوية والتركيبية التى استقرت فى دخائل العرب من قديم ؛ وفى ذلك يقول الزبيدى : «استنبط - الخليل - من علل النحو ما لم يستنبطه أحد ، وما لم يسبقه إلى مثله سابق»[1] .

ومن تعليلاته التى يزخر بها كتاب سيبويه ، تعليله لعدم دخول الألف واللام على المنادى إلا بعد توسط (أى) ، حيث يقول :

«إن الألف واللام إنما منعهما أن يدخلا فى النداء من قِبَل أن كل اسم فى النداء مرفوع معرفة ، وذلك أن المتكلم إذا قال : يا رجل ، فمعناه كمعنى : يا أيها الرجل ، وصار معرفة لأنك أشرت إليه ، وقصدت قصده ، واكتفيت بهذا عن الألف واللام ، وصار كالأسماء التى هى للإشارة نحو : هذا وما أشبهه ، وصار معرفة بغير ألف ولام ، لأنك إنما قصدت قصد شىء بعينه ، وصار هذا بدلا فى النداء من الألف واللام ، واستغنى به عنهما كما استغنيت بقولك : (اضرب) عن (لتضرب) ، وكما صار المجرور بالكسرة بدلا من التنوين - فى حالة الإضافة - ، وكما صارت (الكاف) فى (رأيتك) بدلا من : رأيت إياك . وإنما أدخلوا الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه قد رأيته أو سمعت به ، فإذا قصدوا الشىء بعينه دون غيره وعنوه ، لم يجعلوه واحدا من أمة ؛ فقد استغنوا عن الألف واللام ، فمن ثم لم يدخلوهما فى هذا - أى فى اسم الإشارة - ولا فى النداء ؛ ومما يدلك على أن (يا رجل) معرفة قولك : (يا لكاع) تريد : يا لكعاء ، فصار هذا اسما ... كما صارت حذام ، ورقاش اسما للمرأة»[2] .

ويسأله يونس بن حبيب : «أعن العرب أخذت هذه العلل أم اخترعتها من نفسك ؟» فيقول :

(١) طبقات الزبيدى : ٤٧ .

(٢) الكتاب : ١/٣١٠ .

«إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة له أخرى ، فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظام والأقسام ، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ... وجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الرجل الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ذلك مما ذكره الرجل محتمل أن يكون علة لذلك ؛ فإن سنح لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته للمعلول فليأت بها»[(١)] .

مما تقدم يمكن القول – على نحو من التثبت والقطع – أن الخليل بن أحمد يعد بحق واضع النحو العربى فى صورته المركبة ، سواء من حيث مصطلحاته ، وعوامله ومعمولاته الظاهرة والمقدرة ، أو ما يكتنفه من شواهد وأقيسة وعلل وتأويلات ، وما شمل علم الصرف من أبنية الكلم ، واشتقاقاتها وتصريفاتها ، وصورها الممدودة ، والمقصورة ، والمنسوبة ، والمصغرة ، والممالة ، وما يعتورها من قلب أو إعلال أو حذف[(٢)] .

آراء العلماء فيه :

قدر العلماء الخليل بن أحمد الفراهيدى حق قدره ، وأشادوا بعلمه ونبوغه وعبقريته ، وأخذوا يلهجون بالثناء عليه ، ويذهبون فى تمجيده وتوقيره كل مذهب ، اعترافا بفضله وعلمه وأدبه وتقواه وعفته وزهده ، كما أعجب به كثير من المستشرقين ، فأشادوا بفضله على اللغة العربية ، ونبوغه وذكائه وعبقريته فى خدمة اللسان العربى .

---

(١) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى : ٦٥ .

(٢) المدارس النحوية : ٥٦ (بتصرف يسير) .

فهذا سفيان الثورى – أمير المؤمنين فى الحديث النبوى – يقول عنه : «من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد»[1] .

وقال حمزة الأصفهانى : «وبعد ، فإن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذى لا عن حكيم أخذه ، ولا عن مثال تقدمه احتذاه .. ومن تأسيسه بناء كتاب (العين) الذى يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة ، ثم إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذى هو زينة لدولة الإسلام»[2] .

وقال محمد بن سلام : «سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان للعجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»[3] .

وقال أبو محمد التوجى : «اجتمعنا بمكة ، أدباء كل أفق ، فتذاكرنا أمر العلماء ، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ، ويصفونهم ، ويقدمونهم ، حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال : الخليل أذكى العرب ، وهو مفتاح العلوم ومصرفها»[4] .

وقال وهب بن جرير : «قلَّ من كان بظاهرة البصرة من العلماء والزهاد ، إلا كان فى باطنتها مثله ، يضعه أهل البصرة حياله ، فكان عبدالله بن عون فى الباطنة ، وكان يعد الخليل بن أحمد فى الظاهرة نظيره»[5] .

وقال يحيى بن خالد البرمكى : «أربعة ليس فى فنهم مثلهم : أبو حنيفة فى فنه ، والخليل بن أحمد فى فنه ، وابن المقفع فى فنه ، والفزارى فى فنه»[6] .

---

(١) المزهر : ١/٦٤ ، ودراسات فى المعاجم العربية : ١٣ .
(٢) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٢٤ .
(٣) مراتب النحويين : ٥٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر نفسه : ٥٦ .
(٦) نفس المصدر : ٦٨ .

ويقول عنه السيرافى : «فقد كان الغاية فى استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه، وهو أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها، وعمل أول كتاب (العين) المعروف المشهور الذى به يتهيأ ضبط اللغة»[1].

وقال عنه أبو بكر الزبيدى : «و الخليل بن أحمد أوحد العصر، وقريع الدهر، وجهبذ الأمة وأستاذ أهل الفطنة، الذى لم يُرَ نظيره، ولا عرف فى الدنيا عديله، وهو الذى بسط النحو ومد أطنابه، وسبب علله وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته»[2].

وقال حمزة الأصبهانى : «لم يكن للمسلمين أذكى عقلا من الخليل»[3].

وقال بعض أهل العلم : «إنه لا يجوز على الصراط بعد الأنبياء - عليهم السلام - أحد أدق ذهنا من الخليل»[4].

وقيل : «لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا أجمع لعلم العرب»[5].

وكان الخليل يقول : «إن لم تكن هذه الطائفة - يعنى العلماء - أولياء الله، فليس لله ولى»[6].

وذكر شيوخ البصرة أن ابن المقفع اجتمع مع الخليل بن أحمد، فتذاكرا ليلة كاملة، فلما افترقا سئل ابن المقفع عن الخليل فقال : رأيت رجلا عقله أكبر من علمه : وقيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله[7].

---

(١) أخبار البصريين النحويين : ٥٤ .

(٢) استدراك الغلط الواقع فى كتاب (العين) : المقدمة .

(٣) دراسات فى المعاجم العربية : ١٣ .

(٤) المزهر : ١/٥٣ .

(٥) إنباه الرواة : ١/٣٤٥ .

(٦) نزهة الألباء : ٥٥ .

(٧) طبقات الزبيدى : ٤٩ . وذكر الشريف المرتضى فى أماليه : ١/١٣٤ قال : «كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى عبدالله بن المقفع، وكان ابن المقفع يحب ذلك، فجمعهما عباد بن عباد المهلبى، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن، فقيل للخليل : كيف رأيت عبدالله ؟ قال : ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله :=

وفاته :

توفى الخليل بن أحمد سنة سبعين ومائة ، وقيل سنة خمس وسبعين ومائة ، وقد عمّر أربعا وسبعين سنة ، ودفن بالبصرة .

وكان سبب موته أنه قال : «أريد أن أعمل نوعا من الحساب ، تمضى به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو يُعمل فكره فى ذلك ، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره ، فكانت سبب موته ، وقيل : بل كان يقطع بحرا من الشعر»[1] .

قال أبو عاصم : «دخلنا على الخليل بن أحمد قبل وفاته بأيام فقال : «والله ما فعلت قط فعلا أخاف على نفسى منه ، وما كان لى فضل فكر صرفته إلى جهة ووددت أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمدا قط ، وأرجو أن يغفر الله لى التأول»[2] .

ورُئِىَ الخليل فى النوم بعد وفاته فقيل له : ما صنع الله بك ؟ فقال : أرأيت ما كنا فيه ؟! لم يكن شيئا ، وما وجدت أفضل من : سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر»[3] .

= وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : ما رأيت مثله ، وعقله أكبر من علمه : قال المغيرة : فصدقا ، أدى عقل الخليل إلى أن مات أزهد الناس ، وجهل ابن المقفع أداه إلى أنْ كتب أمانا لعبدالله بن على ... فاشتد ذلك على المنصور جدا وكتب إلى سفيان بن معاوية المهلبى ، وهو أمير البصرة من قبله بقتله ، فقتله» .

(١) وفيات الأعيان : ٢٤٨/١ .

(٢) مراتب النحويين : ٥٧ .

(٣) بغية الوعاة : ٥٦٠/١ .

٣ - يونس بن حبيب :

أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب الضبي ، مولى بني ضبة ، وقيل : مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وقيل : مولى بلال بن هرم من بني ضبيعة بن بجالة[١] ، وقيل : فارسي الأصل[٢] .

وحبيب : اسم أمه ، ولهذا لا يصرفونه ، فإنه لا يعرف له أب ، ويقال : إنه ولد ملاعنة ، ويقال : إنه اسم أبيه فينصرف[٣] .

ولد يونس سنة تسعين هجرية ببلدة (جَبُّل)[٤] ، ورأى الحجاج بن يوسف الثقفي عندما كان واليا على العراق ، حيث كان يقول : «أذكر موت الحجاج»[٥] .

وكان يؤثر أن ينسب إلى (جبل) ، فقد لقيه رجل من بني عمير ، فقال له : «يا أبا عبدالرحمن ، ما تقول في (جبل) ، أتنصرف أم لا ؟» فشتمه يونس ، فالتفت العميري ، فلم يجد أحدا يشهده عليه ؛ حتى إذا كان من الغد ، وجلس للناس ، أتاه العميري فقال : «يا أبا عبدالرحمن ، ما تقول في (جبل) أتنصرف أم لا ؟» فقال له يونس : «الجواب ما قلته لك أمس»[٦] .

ثقافته :

أخذ يونس اللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، وأخذ النحو عن حماد بن سلمة ، حيث كان يقول : «أول من تعلمت منه النحو : حماد بن سلمة»[٧] ، كما واجه الأعراب وسمع منهم ، حتى غدا مرجع الأدباء والنحويين ، كما كان له قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها .

---

(١) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٤ .
(٢) الفهرست : ٦٣ .
(٣) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٧ .
(٤) جبل : بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ، بلدة بين النعمانية وواسط : طبقات الزبيدي : ٥١ .
(٥) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٤ .
(٦) المصدر السابق : ٧/٢٤١ .
(٧) طبقات الزبيدي : ٥١ .

سمع منه الكسائى ، والفراء ، وسيبويه ، حيث روى عنه كثيرا فى كتابه ، ولكن أغلب مروياته كانت فى شواهد اللغة دون الآراء النحوية ، فسيبويه – على ما يبدو – لم يكن يعجب بهذه الآراء ، حيث كان الخليل قد استولى عليه ، واستحوذ على فكره ، فلم يكد يترك فيه بقية لغيره ، وخاصة فى قواعد النحو وأقيسته ، وبذلك غدا يونس فى نحوه وما وضعه من أقيسة أمة وحده[1] .

وكانت حلقة يونس بجامع البصرة ينتابها أهل العلم ، وطلاب الأدب ، وفصحاء العرب ، وعلى رأسهم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصارى ، وخلف الأحمر[2] .

وكان يونس شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج ، فقد روى عنه أبو عبيدة أنه قال :

«كنت عند أبى عمرو بن العلاء ، فجاء شبيل بن عزرة الضبعى[3] ، فقام إليه أبو عمرو فألقى إليه لبد بغلته ، فجلس عليه ، ثم أقبل يحدثه ، فقال شبيل : يا أبا عمرو ، سألت رؤبتكم هذا عن اشتقاق اسمه فما عرف . قال يونس : فلم أملك نفسى عند ذكره رؤبة ، فزحفت إليه ثم قلت : لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح من رؤبة ومن أبيه ! فأنا غلام رؤبة ؛ فما الرُوبة ، والرُوبة ، والرُوبة ، والرَّوبة ، والرؤبة ؟ فلم يدر جوابا ، وقام مغضبا ؛ فأقبل علىّ أبو عمرو وقال : هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ، ويقضى حقوقنا ، وقد أسأت فيما واجهته به ، فقلت : لم أملك نفسى عند ذكر رؤبة ، فقال أبو عمرو : أوسلطت على تقويم الناس !»

قال أبو عبيدة : «ثم فسر لنا يونس فقال :

الرُوبة : الحاجة . يقال : فلان يقوم بروبة أهله ، أى : بحاجتهم .

والرُوبة : جمام الفحل[4] . يقال : أعطنى روبة فحلك .

(١) المدارس النحوية : ٢٨ .

(٢) مدرسة البصرة النحوية : ٤٣٧ .

(٣) أبو عمرو شبيل بن عزرة بن عميرة الضبعى ، من أفاضل أهل البصرة وقرائهم ، كان يرى رأى الخوارج ، ثم عدل عنه . (تهذيب التهذيب : ٤/ ٣١٠) .

(٤) جمام الفحل : ما تجمع من مائه .

والرُّوبة : القطعة من الليل نحو الساعة . يقال : مضت روبة من الليل .

والرُّوبة : القطعة من اللبن الحامض يروّب بها الحليب .

والرُّؤبة : القطعة من الخشب يرأب بها القعب . وبه سمى الرجل رؤبة [1] .

وروى الأصمعى عن يونس أنه قال : «قال لى رؤبة بن العجاج : حتام تسألنى عن هذه البواطيل وأزخرفها لك ، أما ترى الشيب قد بلغ فى لحيتك ؟!» [2] .

وكان ليونس بصر بالأدب ، وقدرة على تمييز الجيد من الردىء ، كما كان عارفا بطبقات شعراء العرب ، حافظا لأشعارهم . فقد روى أنه سئل عن أشعر الناس فقال : «لا أومئ إلى رجل بعينه ، ولكنى أقول : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب» [3] .

وقيل : إنه كان يفضل الأخطل على جرير والفرزدق ، ولما سئل عما فضله به عليهما ، قال : إنه كان أكثرهم عدد قصائد طوال جياد ، ليس فيها فحش ولا سقط .

وروى أن مروان بن أبى حفصة عندما قال الشعر ، وأراد أن يظهره ، ذهب إلى يونس ليعرضه عليه ، وقال : قد قلت شعرا أعرضه عليك ، فإن كان جيدا أظهرته ، وإن كان رديئا سترته ، فأنشده قوله :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلاَلَهَا

فقال له يونس : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ،فأنت – والله – فيه أشعر من الأعشى فى قوله :

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَهَا

---

(١) طبقات الزبيدى : ٥٢ / ومراتب النحويين : ٤٥ .

(٢) بغية الوعاة : ٢/٣٦٥.

(٣) مدرسة البصرة النحوية : ٤٣٨ .

فلما نازعه مروان فى ذلك ، قال : لأنه قال فيها :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِ

والطحال لا يدخل فى شىء إلا أفسده ، وقصيدتك سليمة من هذا ومن شبهه [1] .

وروى عن يونس أنه قال : لم يقل لبيد فى الإسلام سوى بيت واحد وهو :

الحَمْدُ لِلَّهِ إذْ لَمْ يَأْتِنِى أَجَلِى حَتَّى لَبِسْتُ مِنَ الإسْلاَمِ سِربالا [2]

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «قدم جعفر بن سليمان العباسى من عند المهدى الخليفة ، فبعث إلى يونس بن حبيب ، فقال له : أنا وأمير المؤمنين اختلفنا فى هذا البيت :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِى السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ [3]

فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل الليل الذى تعرف ، والنهار النهار الذى تعرف ؛ فقال : زعم المهدى أن الليل فرخ الكروان ، والنهار فرخ الحبارى».

قال أبو عبيدة : «القول فى البيت ما قاله يونس ، والذى قاله المهدى معروف فى الغريب من اللغة» [4] .

وروى عن الفراء أنه قال : أنشدنا يونس النحوى :

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عُدْمُ الْمَالِ ، وَجَهْلٍ غَطَى عَلَيْهِ النَّعِيمُ [5]

بتخفيف (غطى) [6] .

---

(١) معجم الأدباء : ٦٥/٢٠ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢٤١/٧ ، وعلق محقق الكتاب بقوله : «راجع مقدمة ديوان لبيد ، ففيها مناقشة تدحض هذا القول» ، ونحن نقول : ربما كان يونس يقصد أن هذا البيت هو أحسن بيت - فى نظره - مما قاله لبيد بعد دخوله الإسلام .

(٣) البيت للفرزدق . (ديوانه : ٣٧٢/١) .

(٤) وفيات الأعيان : ٢٤١/٧ .

(٥) البيت لحسان بن ثابت . (ديوانه : ٨٠ ، والروض الأنف : ١٦١/٢ ، وخزانة الأدب : ٤٦٢/٤) .

(٦) قال الأزهرى : غطى وأغطى وغطى - بالتشديد - بمعنى واحد . (التهذيب : ١٦٦/٨) : وقال السهيلى : غطى - بتخفيف الطاء - معناه : ارتفع وعلا . (الروض الأنف : ١٦١/٢) .

وكان يونس عالما بالغريب من كلام العرب ، حتى إنه ألف فيه كتابا سماه (كتاب اللغات) ، ومما أثر عنه فى هذا المجال أنه قال : «تقول العرب : طسٌ وطَسْتٌ ، فمن قال : طسٌّ ، قال : طِسَاس ، ومن قال : طست ، قال طِسات» ، وقال أيضا «إنما سميت اللِّمَّة لِمَّة لأنها ألَمَّت بالأذنين»[1] .

وروى محمد بن سلام قال : «سأل بكار بن محمد يونس فقال : ما العجيز من الرجال ؟ قال : لا أعرفه . قال : فما المَليخ ؟ قال : أما إذا جئت بالمليخ ، فالعجيز الذى لا يأتى النساء ، والمليخ : الذى لا يولد له»[2] .

وروى أيضا محمد بن سلام قال :

«قال يونس : يقول العرب : الآل : من غدوة إلى ارتفاع الضحى الأعلى ، ثم هو سراب سائر اليوم ؛ وإذا زالت الشمس فهو فىء ، وغدوة ظل[3] ... وكان كذا وكذا الليلة ، يقولون ذاك إلى ارتفاع الضحى وإذا جاوز ذاك قالوا : كان البارحة»[4] .

وروى يونس قال : «كان جبلة بن عبدالرحمن[5] يُخرِج إلى طباخه الرِّقاعَ يستدعى بها الطعام ، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية ، فلا يدرى الطباخ ما فيها ، حتى يمضى بها إلى ابن إسحق ، ويحيى بن يعمر ، وغيرهما ، يفسرون ما فيها من الألفاظ ، فإذا عرف الطباخ ما فيها ، أتاه بما استدعاه ؛ فقال له يوما : ويحك ! إنى أصوم معك . فقال الطباخ : سهِّل كلامك حتى يسهل طعامك ، فيقول : يا ابن اللخناء ، أفأدع عربيتى لِعيِّك ؟!»[6] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٥٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) يفرق يونس بين الآل والسراب ، وبين الظل والفىء : فالظل ما كان قبل الشمس ، والفىء ما كان بعد ، فقوله (وغدوة ظل) يعنى : ما يسمى فينا هو فى الغدوة ظل : والغدوة ما بين صلاة الغداة – الصبح – وطلوع الشمس .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٥٣ .

(٥) جبلة بن عبدالرحمن ، مولى باهلة ، ولى كرمان سنة ١٠٤ هجرية . (تاريخ الطبرى : ٢/ ١٤٥) .

(٦) وفيات الأعيان : ٧/ ٢٤١ .

ولعل ما رد به على شبيل بن عذرة الضبعى ، وتفسيره لكلمتى : الروبة ، والرؤبة لدليل على مدى تمكنه من ناصية الغريب من كلام العرب[1] .

أخلاقه :

رغم أن يونس بن حبيب قد طعن فى السن ، إلا إنه لم يبتن بامرأة ، بل عاش عزبا حتى مات ، ولعل ذلك ما صبغ حياته بشىء من الانفتاح وعدم التزمت ، ولجوئه إلى شىء من الدعابة والفكاهة أحيانا ؛ فقد روى محمد بن سلام قال :

«كان يونس يزورنى ، فأطلب له النبيذ الحلو ، فيتهافت فيه الذباب ، فيشرب منه القدح ، ثم يقول : قاتله الله ، إنه ليشحنهن شحنا ؛ وربما أتى بالنبيذ الحازر – أى : الحامض الشديد – فيشرب منه قدحا ، ثم يقول : قاتله الله ، إنه ليقصعهن قصعا»[2] .

وروى محمد بن سلام قال : «حدثنا يونس قال : كنا على باب ابن عمير ، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنها خِلْفَة[3] ، فما لبثنا أن أقبل فتى من قريش عليه قميص قوهى[4] ورداء ، فلما رآنا ارتدع ، فقلنا : هاهنا طلبتك فتبعها وقال :

إِذَا سَلَكَتْ قَصْدَ السَّبِيلِ سَلَكْتُهُ ... وَإِنْ هِيَ عَاجَتْ عُجْتُ حَيْثُ تَعُوجُ[5]

وكان يونس حييا ، دمث الخلق ، معتزا بنفسه ، معتدا بعلمه ، فمن حياته ودماثة خلقه ما رواه المبرد عن أبى عثمان المازنى من أن مروان بن سعيد بن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة سأل الكسائى بحضرة يونس : أى شىء يشبه (أى) من الكلام ؟ فقال : مَا ومَن . فقال له : فكيف تقول : لأضربن من فى الدار ؟ قال : لأضربن مَن فى الدار . قال : فكيف تقول : لأركبن ما تركب ؟

---

(١) راجع ص ١٨٢ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٥٣ .

(٣) الخلفة : الحامل من النوق .

(٤) الثياب القوهية : منسوبة إلى قوهستان ، وهى بنواحى هراة .

(٥) أخبار النحويين البصريين : ٥٣ .

قال : لأركبن ما تركب . قال : فكيف تقول : ضربت من فى الدار ؟ قال : ضربت من فى الدار . قال : فكيف تقول : ركبت ما ركبت ؟ قال : ركبت ما ركبت . قال : فكيف تقول : لأضربن أيُهم فى الدار؟ قال : لأضربن أيَّهم فى الدار . قال : فكيف تقول : ضربت أيُهم فى الدار ؟ قال : لا يجوز ذلك .قال : لِمَ ؟ قال : (أى) هكذا خلقت .

قال : فغضب يونس وقال : تؤذون جليسنا ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ؟![1].

ومن اعتزازه بنفسه واعتداده بعلمه ما رواه أبو عبيدة بقوله :

«لما مات سيبويه قيل ليونس : إن سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة فى علم الخليل ، فقال يونس : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟ جيئونى بكتابه ، فلما نظر فيه ورأى ما حكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكى عنى»[2] .

آراء العلماء فيه :

قال السيرافى : «وأما يونس بن حبيب فإنه بارع فى النحو ، من أصحاب أبى عمرو بن العلاء ، وقد سمع من العرب ، كما سمع مَنْ قبله ، وقد روى عنه سيبويه وأكثر ، وله قياس فى النحو ، ومذاهب يتفرد بها ، وقد سمع منه الكسائى والفراء ، وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب ، وفصحاء الأعراب والبادية»[3] .

وقال أبو عبيدة : «اختلفت إلى يونس أربعين سنة ، أملأ كل يوم ألواحى من حفظه»[4].

وقال أبو زيد الأنصارى : «جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة»[5] .

---

(١) المصدر السابق : ٥١ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٥٢ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٥١ .

(٤) وفيات الأعيان : ٧/ ٢٤٤ .

(٥) المصدر السابق : ٧/ ٢٤٥ .

وقال أبو الخطاب زياد بن يحيى[1] : «مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس ، لا يدخله شيء إلا بعسر ، فإذا دخله لم يخرج منه»[2] . يعنى : أنه لا ينسى .

وقال أبو عبيدة : «لم يكن عند يونس علم إلا ما رآه بعينه»[3] .

وقال أبو زيد الأنصارى : «ما رأيت أبذل لعلم من يونس»[4] .

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى : «وقد أخلص يونس نفسه للعلم والدراسة ، فلم يتزوج ، ولم يتسر ، ولم تكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال»[5] .

آراؤه النحوية :

علمنا فيما تقدم أن سيبويه روى فى كتابه الكثير من آراء يونس فى النحو ، إلا أنه كان له قياس فى النحو ، ومذاهب يتفرد بها ، فمن هذه الأقيسة والمذاهب التى تفرد بها مخالفا الخليل بن أحمد وسيبويه :

١ – أن الخليل كان يرى أن مفعول (ننزع) فى قول الله – تعالى – : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[6] محذوف ، وتقديره : لننزعن الفريق الذى يقال فيه : أيهم أشد : فى حين يرى يونس أن جملة (أيهم أشد) هى المفعول[7] .

٢ – كما كان يذهب يونس إلى أن (تاء) أخت وبنت ليست للتأنيث ، لأن ما قبلها ساكن صحيح ، ولأنها لا تبدل (هاء) فى الوقف ، ومن ثم لا تحذف فى النسب ، فى حين يرى الخليل وسيبويه حذفها[8] .

---

(١) أبو الخطاب زياد بن يحيى بن زياد ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، توفى سنة ٢٥٤ . (تهذيب التهذيب : ٣/٣٨٨) .

(٢) طبقات الزبيدى : ٥١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر نفسه : ٥٢ .

(٥) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٥ .

(٦) سورة مريم : آية ٦٩ .

(٧) مغنى اللبيب : ٨٢ .

(٨) التصريح بمضمون التوضيح : ١/٧٤ .

٣ – وكان يذهب إلى أن الشاعر فى قوله :

إنْ تَرْكَبُوا فَرُكُوبُ الْخَيْلِ عَادَتُنَا أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُزُلُ

أراد : أو أنتم تنزلون ، فعطف الجملة الاسمية على الجملة الشرطية ، فى حين يرى الخليل وسيبويه أن ذلك من باب العطف على التوهم[١] .

٤ – كان الخليل يرى أن الحرف الزائد فى مثل (قطّع) هو الحرف الأول ، بينما كان يونس يرى أنه الحرف الثانى[٢] .

٥ – كان الخليل وسيبويه يريان أن تصغير (قبائل) : قبيئل ، فى حين يرى يونس أن تصغيرها : قُبيّل[٣] .

٦ – كان سيبويه لا يرد المحذوف فى التصغير ، فمثل (يضع) يصغر على : يُضَيْع ، بينما كان يونس يرده ، فيقول فى تصغيره : يُوَيْضِع[٤] .

٧ – كان يونس يرى أن تلحق ألف الندبة الصفة ، فيقول : وازيد الظريفاه ، واجمجمتى الشاميتيناه ، بينما زعم الخليل أن هذا خطأ[٥] .

٨ – يرى يونس أن تدخل (نون) التوكيد الخفيفة فعل الاثنين وجماعة النساء ، فيقول : اضربانْ زيدا ، واضربنانْ زيدا ، فى حين يرى سيبويه أن هذا لم تقله العرب ، وليس له نظير فى كلامها[٦] .

٩ – يرى يونس جواز مجيء الحال معرفة من غير تأويل له بالنكرة ، وبقوله أخذ البغداديون ، فى حين يرى البصريون أنه إذا كان معرفة لفظا فإنه نكرة معنى[٧] .

---

(١) الكتاب : ١/٤٢٩ .
(٢) الخصائص : ٢/٦١ .
(٣) المنصف شرح تصريف المازنى : ٢/٨٥ .
(٤) الخصائص : ٣/٧١ .
(٥) الكتاب : ١/٣٢٣ .
(٦) الكتاب : ٢/١٥٧.
(٧) همع الهوامع : ١/٢٣٩ .

١٠ – يرى يونس جواز إعمال (لكن) المخففة ، فى حين رفض ذلك البصريون لعدم ورود إعمالها عن العرب ، ولزوال اختصاصها بالجملة الاسمية[1] .

وغير ذلك كثير مما تفرد به يونس من أقيسة ومذاهب النحو ، ومن أراد الاستزادة وكثرة الإفادة فعليه بكتاب سيبويه والإنصاف لابن الأنبارى وغيرهما من مصنفات النحو ومطولاته .

آثاره :

خلف يونس من الآثار المكتوبة – غير ما روى المؤلفون والمصنفون من آرائه فى النحو – عددا من الكتب التى تعد من أمهات المصادر والمراجع التى يعكف عليها الباحثون والدارسون حتى يومنا هذا ، وهى : معانى القرآن الكريم ، وكتاب اللغات ، وكتاب الأمثال ، وكتاب النوادر الصغير[2] .

وفاته :

عمّر يونس بن حبيب ثمانيا وتسعين سنة ، حيث توفى – رحمه الله – سنة اثنتين وثمانين ومائة هجرية[3] ، مما جعله يتبرم بالحياة ، ويسأم من طول العيش ، وقد بدأ هذا الشعور يظهر فى أقواله فى أخريات أيامه ، فمنها قوله :

«لو تمنيت أن أقول الشعر ، لما تمنيت أن أقول إلا مثل قول عدى بن زيد العبادى :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالدَّهْـ ـرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ ؟!»[4]

وروى محمد بن سلام الجمحى عنه أنه قال : «ما بكت العرب فى أشعارها كبكائها على الشباب ، وما بلغت كنهه»[5] .

---

(١) شرح الأشمونى : ١/٢٣٢ .
(٢) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٥ .
(٣) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٥ ، وطبقات الزبيدى : ٥٣ .
(٤) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٥ .
(٥) المصدر السابق : ٧/٢٤٦ .

وروى أنه دخل المسجد يوما ، وهو يُهادَى بين اثنين من الكبر ، فقال له رجل كان يتهمه فى مودته : بلغت ما أرى يا أبا عبدالرحمن ! قال : هو الذى ترى ، فلا بلغته[1] .

وقال ابن سلام : «وتذاكرنا القدر مرة فى مجلس يونس ، فقالوا : ما تقول يا أبا عبدالرحمن ؟ فقال : لا فكر لى فيه»[2] .

وقال أحمد بن يحيى : «يقال إن يونس جاوز المائة ، وكان قد تفدَّع[3] من الكبر ؛ ويقال : قارب المائة».

وذكر عمر بن شبة[4] ، عن خلاد بن يزيد[5] ، عن يونس النحوى قال :

«ثلاثة – والله – أشتهى أن أمكَّن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم – عليه السلام – فأقول له : قد مكنك الله من الجنة ، وحرم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى ألقيتنا فى هذا المكروه ؟! ويوسف – عليه السلام – أقول له : كنت بمصر وأبوك – عليه السلام – بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكى عليك حتى ابيضت عيناه ، لِمَ لمْ ترسل إليه أنى فى عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن ؟! وطلحة والزبير ، أقول لهما : على بن أبى طالب – رضى الله عنه – بايعتماه بالمدينة ، وخلعتماه بالعراق ، لِمَ ؟ أى شىء أحدث ؟!»[6] .

ويبدو أنه كان يشكو فى أخريات أيامه من احتباس البول أو نحوه ، حيث كان يقول : «ليس لحاقن ذكاء»[7] .

---

(١) مراتب النحويين : ٤٤ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٥٣ .
(٣) الفدع : عوج وميل فى المفاصل – خلقة أو داء – .
(٤) نحوى ، إخبارى ، محدث ، كان ثقة ، توفى سنة ٢٦٢ ، (العبر : ٢/٢٥) .
(٥) خلاد بن يزيد الباهلى ، يعرف بالأرقط ، كان صهر يونس بن حبيب ، توفى سنة ٢٢٠ .
(٦) أخبار النحويين البصريين : ٥٤ ، ونزهة الألباء : ٦٢ .
(٧) طبقات الزبيدى : ٥٣ .

وروى محمد بن سلام الجمحى عن يونس أنه قال : «تقول العرب : فرقة الأحباب سقم الألباب ، وأنشد :

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا عَيْنَاىَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا المعشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا شَرْخُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الأَحْبَابِ [1]

رحم الله يونس بن حبيب الضبى رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

سمات الطبقة الرابعة :

تفردت الطبقة الرابعة من نحاة البصرة بسمات لم تتح لغيرها من الطبقات نجملها فيما يلى :

١ – بدأت الطبقة الرابعة ببعض نظرات فى النحو ، وآراء متفرقة فى اللغة على وجه الخصوص ، على يد أبى الخطاب الأخفش الأكبر ، رواها عنه من صنفوا فى النحو واللغة من بعده .

٢ – آذن مجىء الخليل بن أحمد بقرب اكتمال النحو والصرف ونضجهما ، بل يمكن القول بأنهما قد اكتملا ونضجا فعلا على يديه ، بما أوحى به إلى أخلص تلاميذه سيبويه ، فدونه فى كتابه : فقد أكتمل بنيان العلمين ، وتوطدت أركانهما بما اشتملا عليه من :

(أ) وضع المصطلحات النحوية والصرفية التى يستخدمها النحاة حتى يومنا هذا .

(ب) تحديد أبواب النحو والصرف ، وتقسيم القواعد بحسب كل باب على حدة .

(جـ) تسمية علامات الإعراب ، وحركات البناء ، الأصلية منها والفرعية .

(د) ابتكار علم العروض ، وجمع أشعار العرب على خمسة عشر بحرا ، كما ابتكرت الدوائر العروضية .

---

(١) وفيات الأعيان : ٧/٢٤٦ .

(هـ) ابتكار الميزان الصرفى ، لمعرفة أوزان الكلم ، وتحديد الحروف الأصلية والزائدة .

(ز) الخروج إلى البادية ، والسماع من العرب الخلص فى مضارب خيامهم ، ومشافهتهم فى مربد البصرة .

(حـ) وضع القواعد كما فى كلام العرب من إعلال ، وإبدال ، وإدغام ، وقلب مكانى .

(ط) ابتكار نظرية العامل ، وفروعها ، وأحكامها .

(ى) وضع أصول النحو ، كالسماع ، والقياس ، والتعليل ، والتأويل .

(ك) استخدام الشواهد والأدلة على صحة ما يستنبطونه من القواعد .

(ل) بدء وضع المعاجم اللغوية ، لتفسير الغريب من كلام العرب .

(م) التأليف فى مختلف العلوم العربية نظرا لاتساع مداركهم ومعارفهم .

(ن) اختراع التمارين غير العملية لشحذ الذهن وإعمال الفكر ، ولتكون بمثابة التطبيق على الإلمام بالقواعد نظريا وعمليا .

★ ★ ★

الطبقة الخامسة

١ - سيبويه :

عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه[١] ، ويكنى أبا بشر ، وأبا الحسين ، وأبا عثمان ، وأثبتها أبو بشر[٢] . مولى بنى الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَة بن جَلْد بن مالك بن أُدد ، وقيل : مولى آل الربيع بن زياد الحارثى[٣] .

و(قنبر) ضبطه الذهبى فى (المشتبه) بضم ففتح (قُنَبْر) ، وكذا ضبطه صاحب (تاج العروس) ؛ وأما الدارقطنى فضبطه بفتح القاف وسكون النون (قَنْبَر) ، ومما يؤيد هذا الضبط قول الزمخشرى فى تمجيد سيبويه :

أَلاَ صَلَّى الإلَـهُ صَلاَةَ صِدْقٍ ... عَلَى عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ قَنْبَرْ
فَإِنَّ كِتَابَهُ لَمْ يَغْنَ عَنْهُ ... بَنُو قَلَمٍ وَلا أَبْنَاءُ مِنْبَرْ[٤]

و(سيبويه) بكسر السين المهملة ، وسكون الياء ، وفتح الباء والواو ، وسكون الياء الثانية ، وبعدها هاء ساكنة ؛ والعجم يقولون (سِيبُوْيَه) بضم الباء ، وسكون الواو ، وفتح الياء ، لأنهم يكرهون أن يقع فى آخر الكلمة (ويه) لأنها للندبة[٥] ؛ وهو لقب فارسى مركب من (سيب) بمعنى التفاح ، و(ويه) بمعنى الرائحة ، فيكون معناه : رائحة التفاح[٦] ، وقيل فى سبب تسميته بذلك : أن أمه كانت ترقصه بذلك فى صغره ، وقيل : لأنه كان يعتاد شم التفاح ، وقيل : سمى بذلك للطافته ، لأن التفاح من أطيب الفواكه[٧] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٣ .
(٢) مراتب النحويين : ١٠٦ .
(٣) المصدران السابقان ؛ وطبقات الزبيدى : ٦٦ .
(٤) مقدمة الكتاب ، تحقيق عبدالسلام هارون .
(٥) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٥ .
(٦) نزهة الألباء : ٧١ .
(٧) بغية الوعاة : ٢/٢٢٩ .

وروى أبو عبد الله بن طاهر العسكرى أن الاسم مركب من (سى) الفارسية ، ومعناها : ثلاثون ، و(بوى) أو (بويه) ، ومعناها : رائحة ، فيكون معناه : الثلاثون رائحة ، أى : ذو الثلاثين رائحة ؛ وقيل فى سبب تسميته بذلك أنه كان جميلاً وسيمًا ، وكان أينما تلقاه تشم رائحة الطيب تفوح منه[1] .

وقال إبراهيم الحربى : «سمى سيبويه لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وكان فى غاية الجمال»[2] .

وذهب الأستاذ عبد السلام هارون إلى أن القول بأن (ويه) تعنى فى الفارسية : الرائحة ، زعم باطل ، ولا أساس له من الصحة .

كما ذهب إلى أنها لاحقة من اللواحق الأعجمية ، لها شبه باللفظ العربى (ويه) الذى هو اسم فعل .

وذهب أيضًا إلى أن العرب والعجم قديمًا قد ألحقوا هذه الزوائد بالأسماء للتمليح ، أو للتشبيه أو للنسب ، فقالوا (نفطويه) من النفط ، وقالوا (ماهويه) من (ماه) وهو فى الفارسية : القمر ، أى : الشبيه بالقمر ، وقالوا (مسكويه) من المسك ، تمليحًا وتدليلاً ، كما قالوا (راهويه) من (راه) وهو فى الفارسية : الطريق ، قالوا : سمى بذلك لأن أمه ولدته فى الطريق ، ومعناه : الطريقى[3] .

ولد سيبويه بقرية من قرى شيراز يقال لها : البيضاء ، من عمل فارس ، ثم قدم البصرة مع أسرته ، وراح يطلب العلم بها ، فكان الحديث والفقه من أول ما يدرس العلماء ، فأعجبه ذلك ، ولزم الفقهاء وأهل الحديث ، وأول ما لزمه حلقة حماد بن سلمة بن دينار الباهلى ، فبينما هو يستملى على حماد قول النبى ﷺ : «ليس من أصحابى إلاَّ مَن لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء»[4] . فقال سيبويه : «ليس أبو الدرداء» وظنه اسم (ليس) ، فقال حماد : لحنت يا سيبويه ،

(١) طبقات الزبيدى : ٧٢ ، ومعجم الأدباء : ١٦/١١٤ .
(٢) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٥ .
(٣) الكتاب : المقدمة ٤ .
(٤) عويمر بن عامر ، توفى سنة ٣٢ فى خلافة عثمان - الإستيعاب : ٢٤٣ .

ليس هذا حيث ذهبت ، وإنما (ليس) ها هنا استثناء ، فقال : لا جرم ، سأطلب علمًا لا تلحننى فيه ، فلزم الخليل ، فبرع[1] .

ويذكر عبيد الله بن معاذ العنبرى البصرى[2] حادثة أخرى لسيبويه مع حماد بقوله :

«جاء سيبويه إلى حماد بن سلمة فقال : أحدّثك اليوم هشام بن عروة عن أبيه فى رجل رعُف فى الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت ، إنما هو رعَف ؛ فانصرف إلى الخليل ، فشكا إليه ما لقيه من حماد ، فقال الخليل : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا ، ورعُف لغة ضعيفة ، والصحيح : رعَف»[3] .

وحادثة أخرى لسيبويه مع حماد ، يرويها حماد بنفسه قال :

«جاءنى سيبويه مع قوم يكتبون شيئًا من الحديث ، فكان فيما أمليت ذكر الصفا ، فقلت : (صعد رسول الله ﷺ – الصفا) ، وكان هو الذى يستملى ، فقال : (صعد النبى ﷺ الصفاء) ، فقلت : يا فارسى ، لا تقل الصفاء ، لأن الصفا مقصور ، فلما فرغ من مجلسه كسر القلم وقال : لا أكتب شيئًا حتى أحكم العربية»[4] .

أخذ سيبويه الحديث عن حماد بن سلمة بن دينار ؛ وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر ، وأبى زيد الأنصارى ، وأخذ النحو عن الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمر ، وأخذ القراءة عن يعقوب بن إسحق الحضرمى ، وهارون بن موسى[5] .

وممن روى عنهم : أبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ،

---

(١) طبقات الزبيدى : ٦٦ .

(٢) من رواة الحديث ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، روى عنه البخارى ومسلم ، توفى سنة ٢٣٧ . (الزبيدى : ٦٦) .

(٣) طبقات الزبيدى : ٦٦ .

(٤) مقدمة الكتاب (المقدمة) : ٨ .

(٥) المصدر السابق .

والرؤاسى ؛ وقد أخذ عن سيبويه : الأخفش الأوسط ، وقطرب ، والناشى ، وهو رجل مغمور ، قال عنه المبرد : «لو خرج علم الناشى إلى الناس لما تقدمه أحد»[1] .

ولم يؤثر عن سيبويه أنه تصدر للتدريس ، وربما كان ذلك هو السبب فى قلة تلاميذه ، ويرجع ذلك إلى أنه كان فى لسانه حبسة ، فآثر أن يودع علمه فى كتاب ، فكان هذا الذى تركه ، وسماه الناس (قرآن النحو) حيث لم يترك شاردة ولا واردة من علم النحو إلا أحصاها ، فضلاً على أنه لم يعمر طويلاً ، فقد توفى ابن اثنتين وثلاثين سنة[2] .

صفاته :

كان سيبويه شابًا ممشوق القوام ، جميل المنظر ، نظيف الثياب ، يحب الطيب ، حتى قيل فى سبب تسميته بسيبويه : أن وجنتيه كأنهما تفاحتان ، وقيل : لأنك كلما لقيته شممت منه رائحة طيبة ؛ وقال ابن عائشة : «كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد ، وكان شابًا جميلاً نظيفًا»[3] .

وقال إبراهيم الحربى : «سمى سيبويه لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وكان فى غاية الجمال»[4] .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف : «ولقد كان لسيبويه من اسمه نصيب فى نفسه وطبعه ، كان فى الناس كرائحة التفاح فى الطيب ، لطيفًا هادئًا وديعًا ، لا يغضب ولا يخاشن ، حتى فى المواقف المثيرة التى لا يلام فيها الحليم أن يغضب ، ولا الرزين أن يخف ويثور»[5] .

وكان فى لسانه حُبسة ، ربما كانت السبب فى عدم تصدره للتدريس ، فقد روى أحمد بن معاوية بن بكر العليمى قال : «ذكر سيبويه النحوى عند أبى فقال :

---

(١) المصدر نفسه : ١٦ .
(٢) بغية الوعاة : ٢/٢٣٠ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٦٧ .
(٤) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٥ .
(٥) سيبويه إمام النحاة : ٧٤ .

عمرو بن عثمان : قد رأيته ، وكان حدث السن ، كنت أسمع فى ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد ، وقد سمعته يتكلم ويناظر فى النحو ، وكانت فى لسانه حبسة ، ونظرت فى كتابه ، فعلمه أبلغ من لسانه»[1] .

وقال عمرو بن مرزوق : «رأيت سيبويه والأصمعى يتناظران ، قال : يقول يونس بن حبيب : الحق مع سيبويه ، وقد غلب ذا – يعنى الأصمعى – بلسانه»[2].

وقال أبو حاتم السجستانى : «دخلت على الأصمعى فى مرضه الذى مات فيه ... فقلت : حدثنى بما جرى بينك وبين سيبويه فى المناظرة ، فقال : والله لولا أنى لا أرجو الحياة من مرضتى هذه ما حدثتك : إنه عُرِض علىَّ شىء من الأبيات التى وضعها فى كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسرها ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغنى أنه قال : لا ناظرته إلا فى المسجد الجامع ، فصليت يومًا فى الجامع ثم خرجت ، فتلقانى فى المسجد فقال لى : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذى أنكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولم فسرت بخلاف ما يجب ؟ فقلت له : ما فسرت إلا على ما يجب ، والذى فسرته أنت ووضعته خطأ ، تسألنى وأجيب ، ورفعت صوتى ، فسمع العامة فصاحتى ، ونظروا إلى لكنته فقالوا : قد غلب الأصمعى سيبويه ، فسرَّنى ذلك ، فقال لى : إذا علمت أنت يا أصمعى ما نزل بك منى لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده فى وجهى ومضى ، ثم قال الأصمعى : يا بنى ، فوالله لقد نزل بى منه شىء ، ووددت أنى لم أتكلم فى شىء من العلم»[3] .

وقال أبو موسى الحامض – عندما قيل له إن الفراء مات وتحت رأسه كتاب سيبويه – : «إنما كان لا يفارقه ، لأنه كان يتتبع خطأه ولكنته»[4] .

ومما يروى أن الفراء قال عن سيبويه : «فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقول لجارية له : هات ذيك الماء من ذاك الجرة ، فخرجت من عنده ولم أعد إليه»[5] .

---

(1) طبقات الزبيدى : ٦٦ .
(2) طبقات الزبيدى : ٦٨ .
(3) معجم الأدباء : ١٦/١٢٥ .
(4) الكتاب (المقدمة) : ٢١ .
(5) معجم الأدباء : ١/١٣٨ .

وكان من صفات سيبويه أيضًا شدة اعتزازه بنفسه ، ولعل موقفه من حماد ابن سلمة حين لحن بحضرته ، وهو يستملى منه ، فكسر القلم وقال : لأطلبن علما لا تلحننى فيه ، وترك حلقته ولازم الخليل بن أحمد يطلب علم النحو – لأبلغ دليل على ذلك .

وروى المبرد أن الأخفش كان أكبر سنًا من سيبويه ، وكانا جميعًا يطلبان ، فجاء الأخفش يناظره بعد أن برع ، فقال له الأخفش : إنما ناظرتك لأستفيد لا لغيره ، فقال سيبويه : أترانى أشك فى هذا[1] ؟!. اعتزازًا بعلمه ، واعتدادًا بنفسه .

ومن صفاته أيضًا تصاغره للعلم ، ومشاورة زملائه ممن هم أقل منه علمًا ومعرفة ؛ فقد قال الأخفش : «كان سيبويه إذا وضع شيئًا فى كتابه عرضه علىّ ، وهو يرى أنى أعلم منه ، وكان أعلم منى ، وأنا اليوم أعلم منه»[2] .

ومن صفات سيبويه أيضًا الذكاء المفرط ، والفطنة البالغة واستظهاره لكلام العرب ؛ فقد روى محمد بن سلام قال :

«كان سيبويه جالسًا فى حلقته بالبصرة ، فتذاكرنا شيئًا من حديث قتادة ، فذكر حديثًا غريبًا وقال : لم يرو هذا الحديث إلا سعيد بن أبى العروبة ، فقال له بعض ولد جعفر بن سليمان : ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟ فقال : هكذا يقال ، لأن العروبة هى الجمعة ، ومن قال عروبة فقد أخطأ ؟ فذكرت ذلك ليونس ، فقال : أصاب ، لله دره»[3] .

وروى ابن عائشة قال :

«كنا نجلس مع سيبويه فى المسجد .. فبينا نحن عنده ذات يوم ، إذ هبت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر أى ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد فرس من صُفْر – فنظر ثم عاد فقال : ما يثبت الفرس على شىء ، فقال

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٦٥ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٦٧ .

(٣) طبقات الزبيدى : ٦٧ .

سيبويه : العرب تقول مثل هذا : تذاءبت الريح ، أى : فعلت مثل الذئب ليختِل ، فيتوهم الناظر أنها عدة ذئاب»[١] .

بهذه الصفات الحسنة ، من طلاقة الوجه ، وحسن المظهر ، وحدة الذكاء والفطنة ، واحتواء كلام العرب ، أصبح سيبويه – على صغر سنه – حديث الناس ، واحتل مكانه بين الفقه واللغة والنحو ؛ ولم يقتصر ذكره على علماء عصره وخاصتهم ، وإنما امتد ذلك إلى عامة الناس ، الذين أصبحوا يعزون إليه كل معضلة من معضلات النحو أو اللغة ، فقد روى ياقوت الحموى أن رجلاً قال لسماك بالبصرة : بكم هذه السمكة ؟ قال : بدرهمان ، فضحك الرجل ، فقال السماك : ويلك ! أنت أحمق ! سمعت سيبويه يقول : ثمنها درهمان[٢] .

وهكذا لم يجد هذا السماك من ينقذه من مغبة خطئه إلا أن يلوذ لسيبويه ويتقول عليه ، بدلاً من أن يتهم بالحمق ويؤخذ بالزراية .

وروى الخوانسارى أن نحويا ذهب ليعود مريضًا ، فقال لولده : كيف حال أبيك ؟ فقال : يا عم ، ورمت قدميه ، قال النحوى : لا تلحن ، وقل : قدماه ، ثم ماذا ؟ قال : وصل الورم إلى ركبتاه ، فقال النحوى : لا تلحن ، وقل : ركبتيه ، ثم ماذا ؟ قال : أدخل الله القدمين والركبتين فى بطن عبالك وعبال سيبويه ونفطويه[٣] .

وهكذا ضاق الابن صدرًا بعلم النحو الذى شغل الرجل عن الاهتمام بمرض والده ، وما آلت إليه حاله ، فلم يجد مناصًا من سب الرجل وسب سيبويه الذى علمه النحو هذا .

آثاره :

علمنا فيما تقدم أن سيبويه لم يتصدر للتدريس بالمعنى المفهوم ، ومن ثم لم تؤثر عنه آراء متفردة فى النحو أو الصرف أو اللغة ، إذ لم يتصدر حلقة درس

---

(١) المصدر السابق .
(٢) معجم الأدباء : ٦/٨٦ .
(٣) روضات الجنات : ٥٠٢ .

سوى مرات معدودة فيما رواه محمد بن سلام ، وابن عائشة ، وأبوموسى الحامض[1] ؛ وإنما كل ما حصله من علم على يد أساتذته السابقين قد أودعه كتابه المشهور الذى سارت به الركبان من بعده ، ونهل منه كل من أتى بعده ، وأشاد به العدو قبل الصديق ، وأصبح الجميع عالة عليه فى دراسة النحو والصرف واللغة وغيرها ، فقد قال أبو عمرو الجرمى : «أنا مذ ثلاثون سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه»[2] ؛ وسوف نفرد للكتاب حديثًا خاصًا بعد إتمام ترجمة سيبويه إن شاء الله .

أقوال العلماء فيه :

لم يتردد ذكر سيبويه على لسان أحد إلا بالثناء عليه ، والإشادة بعلمه ، والتعجب من ذكائه وعقليته الفذة ، وإن كان لم ينل من الشهرة وذيوع الصيت فى حياته ، نظرًا لقصرها ، حيث توفى فى أوائل الثلاثينيات من العمر ، وعدم تصدره للتدريس لما كان فى لسانه من حُبسة ، إلا أنه بعد وفاته ، وظهور كتابه ، أصبح ذكره تسير به الركبان ، وصار اسمه على كل لسان ، سواء بين الخاصة من العلماء أو بين العامة من الدهماء ، وإليك أمثلة مما قيل فيه :

قال أحمد بن معاوية بن بكر العليمى[2] : «ذكر سيبويه النحوى عند أبى فقال : عمرو بن عثمان ؟ قد رأيته ، وكان حدث السن ؛ كنت أسمع فى ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد ، وقد سمعته يتكلم ويناظر فى النحو ، وكانت فى لسانه حبسة ، ونظرت فى كتابه ، فعلمه أبلغ من لسانه»[3] .

وقال ابن عائشة : «كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد ، وكان شابًا جميلاً نظيفًا ، وقد تعلق من كل علم بسبب ، فضرب فيه بسهم ، مع حداثة سنه ، وبراعته فى النحو»[4] .

---

(١) راجع الصفحات : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) أبو بكر أحمد بن معاوية بن بكر بن معاوية الباهلى ، كان صاحب أخبار وراوية للآداب . (تاريخ بغداد : ٥/١٦٢) .

(٣) طبقات الزبيدى : ٦٦ .

(٤) المصدر السابق : ٦٧ .

وقال ابن النطاح[1] : «كنت عند الخليل بن أحمد ، فأقبل سيبويه ، فقال الخليل : مرحبًا بزائر لا يمل ، قال أبو عمر المخزومى - وكان كثير المجالسة للخليل - : ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه»[2] .

وقال الأخفش (سعيد بن مسعدة) : «كان سيبويه إذا وضع شيئًا من كتابه ، عرضه علىّ ، وهو يرى أنى أعلم منه - وكان أعلم منى - وأنا اليوم أعلم منه»[3].

وقال العباس بن الفرج الرياشى : «سمعت عمرو بن مرزوق[4] يقول : «رأيت سيبويه والأصمعى يتناظران : قال : يقول يونس بن حبيب : الحق مع سيبويه ، وقد غلب ذا - يعنى الأصمعى - بلسانه»[5] .

وقال أبو الطيب اللغوى : «وأخذ النحو عن الخليل جماعة ، لم يكن فيهم ولا فى غيرهم من الناس مثل سيبويه ، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل»[6] .

وقال أبو سعيد السيرافى : «نجم من أصحاب الخليل أربعة : عمرو بن عثمان سيبويه ، والنضر بن شميل ، وأبو فيد مؤرج العجلى ، وعلى بن نصر الجهضمى : وكان أبرعهم فى النحو سيبويه»[7] .

وقال محمد بن سلام : «كان سيبويه النحوى غاية الخلق ، وكتابه فى النحو هو الإمام فيه»[8] .

وقال أبو منصور الأزهرى : «وله كتاب كبير فى النحو ، وكان علّامة حسن التصنيف»[9] .

---

(١) أبو عبدالله محمد بن صالح بن مهران ، مولى بنى هاشم المعروف بابن النطاح ، كان إخباريا نسابا راوية للسير : توفى سنة ٢٥٢ هجرية . (اللباب لابن الأثير : ٣/٢٣٠) .

(٢) طبقات الزبيدى : ٦٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عمرو بن مرزوق الأزدى ، شيخ أبى داود وأبى الوليد الطيالسيين . (الخلاصة : ٢٤٩) .

(٥) طبقات الزبيدى : ٦٨ .

(٦) مراتب النحويين : ١٠٦ .

(٧) أخبار النحويين البصريين : ٦٤ .

(٨) الكتاب (المقدمة) : ٢٠ .

(٩) المصدر السابق : ٢٢ .

وقال ابن خلكان : «كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، ولم يوضع فيه مثل كتابه»[1] .

وقال أبو زيد الأنصاري : «كان سيبويه غلامًا ، يأتي مجلسي وله ذؤابتان ، فإذا سمعته يقول : حدثني من أثق بعربيته ، فإنما يعنيني»[2] .

وقال يونس بن حبيب – حينما قيل له : إن سيبويه قد ألف كتابًا من ألف ورقة في علم الخليل – : «أظن هذا الغلام يكذب على الخليل ، فمتى سمع من الخليل هذا كله ؟! جيئوني بكتابه ؛ فلما نظر فيه ، ورأى ما حكى ، قال : لابد أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكى عني»[3] .

وذكره ابن قتيبة ضمن رواة الشعر ، وأصحاب الغريب والنحو ، وقال : «وكان النحو أغلب عليه»[4] .

ورغم ذلك لا يعدم سيبويه أن يجد من ينفس عليه علمه ، أو يغض من شأنه ، أو ينال من قدره ، وهذه دائمًا ضريبة الشهرة والنجاح ؛ فقد روى أن أبا موسى الحامض (سليمان بن محمد) ، لما حدث ثعلب عن سلمة أن الفراء مات وتحت رأسه كتاب سيبويه ، قام أبو موسى إلى ثعلب فقال : «إنما كان لا يفارقه لأنه كان يتتبع خطأه ولكنته»[5] .

وقال فيه مرة أخرى : «إنما سيبويه دجال شيطان ، فلذلك تميل إليه الجن»[6] .

وقال عنه الفراء : «فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقوله لجارية له : هات ذيك الماء من ذاك الجرة ، فخرجت من عنده ولم أعد إليه»[7] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٣/٤٦٥ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٦٤، ومعجم الأدباء : ١٦/١١٧ .

(٤) المعارف : ٢٣٧.

(٥) مراتب النحويين : ١٣٩ .

(٦) المصدر السابق : ١٤٠ .

(٧) معجم الأدباء : ١/١٣٧ .

ولا ريب أن كلا من الحامض والفراء كانا يطعنان على سيبويه ، وينفسان عليه مكانته فى العلم على حداثة سنه ؛ فقد كان الحامض معروفًا بشراسته ، وضيق صدره ، وسوء خلقه ؛ كما كان الفراء شديد العصبية على سيبويه : فقد وصف أبو بكر الزبيدى أبا موسى الحامض بقوله : «وكان ضيق الصدر ، سيئ الخلق»[1] ؛ وقال عنه ابن خلكان : «وإنما قيل له (الحامض) ، لأنه كانت له أخلاق شرسة ؛ فلقب بالحامض لذلك ، ولما احتضر أوصى بكتبه لأبى فاتك المقتدرى ، بخلا بها أن تصير إلى أحد من أهل العلم»[2] ، وقال عنه أبو الطيب اللغوى : «وكانت العصبية قد أخذت بعقل الحامض»[3] .

أما الفراء فقال عنه أبو الطيب اللغوى : «وكان زائد العصبية على سيبويه»[4] ، وقال أيضًا : «وكان ابن كيسان [5] يختار أشياء من مذاهب الفراء يخالف فيها سيبويه»[6] ، وقال كذلك : «وكان الفراء يخالف على الكسائى فى كثير من مذاهبه ، فأما على مذاهب سيبويه ، فإنه يتعمد خلافه ، حتى ألقاب الإعراب ، وتسمية الحروف»[7] .

ومما لا شك فيه أن رجلين على هذه الدرجة من التعصب ، والحقد ، وضيق الأفق ، وشراسة الخلق ، لا يعتد برأييهما فى تقييم العلماء ، ولا يؤخذ بقوليهما فى الحكم على الأنباه من الناس ، الذين أشاد الجميع بفضلهم ، وأعلوا ذكرهم فى كل زمان ومكان .

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٥٢ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢١٤/١ .
(٣) مراتب النحويين : ١٤٠ .
(٤) المصدر السابق : ١٣٩ .
(٥) أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان ، كان بصريا كوفيا ، يحفظ القولين ، ويعرف المذهبين ، أخذ عن ثعلب والمبرد ، وكان ميله إلى البصريين أكثر ، توفى سنة ٢٩٩ هجرية . (طبقات الزبيدى : ١٥٣) .
(٦) مراتب النحويين : ١٤٠ .
(٧) المصدر السابق : ١٤١ .

وفاته :

اختلف فى تاريخ وفاة سيبويه اختلافاً بيِّنًا ، على نحو ما اختلف فى تاريخ مولده ، ولكل من الاختلافين ما يبرره ؛ فمرد الاختلاف فى تاريخ مولده أنه لم ينل من الشهرة وذيوع الصيت مثل ما ناله غيره من العلماء ، نظرًا لقصر حياته ، وعدم تصدره للتدريس - كما مر آنفًا - فلم يكن مشوار حياته محل اهتمام المترجمين والمؤرخين وأصحاب الطبقات فى حياته ؛ وأما الاختلاف فى تاريخ وفاته ، فمرده أن الناس شغلوا أيما اشتغال بكتابه الذى ظهر بعد وفاته ، وانكبوا عليه ، بحثًا عنه ، وقراءة له ، ومدارسة ما فيه ، عن محاولة تتبع مشوار حياة صاحبه ؛ ومن ثم فقد اختلفوا فى تاريخ وفاته على خمسة آراء ، فقيل سنة ١٦١ ، وقيل : سنة ١٧٧ ، وقيل : سنة ١٨٠ ، وقيل : سنة ١٨٨ ، وقيل : سنة ١٩٤ هجرية[١] ؛ ومنهم من اكتفى بقوله : «توفى فى أيام الرشيد ، قبل جماعة كان أخذ عنهم ، منهم يونس بن حبيب ، وكانت وفاة يونس سنة ١٨٣ هجرية»[٢] ؛ ومنهم من قال : «توفى قبل الكسائى ، والكسائى توفى سنة ١٨٣ هجرية»[٣] .

وأرجح هذه الأقوال أنه توفى سنة ١٨٠ هجرية ، ويشفع لهذا الترجيح ما يلى :

(أ) أنه قدم إلى بغداد فى خلافة الرشيد ، والرشيد إنما بويع بالخلافة سنة ١٧٠ هجرية ، وهذا يبطل القول بأن وفاته كانت سنة ١٦١ هجرية .

(ب) القول بأن وفاته كانت سنة ١٨٨ هجرية ، أو سنة ١٩٤ هجرية يستلزم أن تكون الفترة منذ خروجه من بغداد إلى وفاته فى فارس أربعة عشر عامًا - على القول الأول - ، وعشرين - على القول الثانى - وكلاهما أمد طويل لا تحتمله الرحلة من بغداد إلى فارس ، وبذا يبطل القولان .

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ١١٦ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٦٤ .
(٣) نزهة الألباء : ٨١ .

(جـ) ذكر السيرافى أنه توفى قبل يونس ، وروى ابن الأنبارى أنه توفى قبل الكسائى ، وكلا الرجلين توفيا سنة ١٨٣ هجرية : فإما أن تكون وفاة سيبويه سنة ١٧٧ أو ١٨٠ ، ولكن أقرب التاريخين إلى تاريخ وفاة الرجلين هو ١٨٠ هجرية ، مما يرجحه على ١٧٧ ، ولاسيما أن أكثر المترجمين والمؤرخين على ذلك ، مما يجعلنا نذهب – على شىء من التثبت والاستيثاق – إلى أن وفاة سيبويه كانت سنة ثمانين ومائة هجرية .

وقيل : إن سبب وفاته ، أنه لما أخفق فى مناظرته الكسائى فيما عرف باسم (المسألة الزنبورية) مات كمدا فى الطريق إلى مسقط رأسه فى فارس ، وإليك ملابسات هذه المناظرة .

المسألة الزنبورية :

تعد مناظرة سيبويه للكسائى المعروفة باسم (المسألة الزنبورية) أشهر مناظرات سيبويه كلها ، بل أشهر مناظرات النحاة قاطبة ، بما لقيت من دراسة العلماء ، ورواية الرواة ، والاختلاف فى تخريجها والاحتجاج لها . حيث لم يروها مناظرة عالم لعالم وكفى ، ولكنهم اعتبروها مناظرة بين مدرسة البصرة ممثلة فى فتاها سيبويه ، ومدرسة الكوفة ممثلة فى شيخها الكسائى ، اعتبروا النصر فيها نصرًا لإحدى المدرستين على الأخرى ، يكسبها فخرًا تدِل به ، وفضلاً تحمد عليه[1] .

فمعلوم أن البصرة قد سبقت الكوفة إلى علم النحو ، وكان أبو الأسود الدؤلى ينزلها ، وهو أبو النحاة ورائدهم ، فقد صار فى النحو سابقة مذكورة ، وعهدًا غير محدث ، من قبل أن يظهر فيه علماء من أهل الكوفة ، على أن أهل الكوفة سبقوهم فى ميدان آخر ، فأسرعوا إلى خلفاء بنى العباس ، يطرقون أبوابهم ، ويتبوءون أماكنهم فى مجالسهم ، وقدرهم الخلفاء ووثقوا بهم ،

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ١٠٠ .

فأكرموهم . واتخذوهم مؤدبين لأولادهم وأولياء عهودهم ، وأصبح مذهبهم الوليد هو المذهب الرسمى فى النحو[1] .

ومن ثم أصبح نحاة البصرة ينفسون على نحاة الكوفة الخير الذى أفاضه الله عليهم ، فأخذت أنفسهم تنازعهم ، وهممهم تساورهم أن يأخذوا من هذا الخير بنصيب ، وأصبحوا يتوقون إلى مشاركة نحاة الكوفة ما أفاءه عليهم بنو العباس من القرب والحظوة والإكرام المادى والمعنوى . فقرر سيبويه أن يشد الرحال إليهم ، وينازلهم فى دارهم ، ويزاحمهم على منزلتهم من الخلفاء ، فراح يطلب الكسائى للمناظرة فى دار الخلافة ، وبحضرة الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وفى الملأ من تلاميذ الكسائى وحوارييه ، وكان الكسائى يومئذ - كما وصفه يحيى بن خالد «شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين، وكل من فى المصر له ومعه»[2] .

روى أبو عثمان المازنى عن أبى الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش أنه قال :

«إن أبا بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) لما قدم على أبى على يحيى ابن خالد بن برمك ، سأله عن خبره ، والحال التى ورد لها ، فقال : جئت لتجمع بينى وبين الكسائى ، فقال له : لا تفعل فإنه شيخ مدينة السلام وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من فى المصر له ومعه ، فأبى إلا أن يجمع بينهما ، فعرّف الرشيد خبره ، فأمر بالجمع بينهما ، فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم ، غدا إلى دار الرشيد ، فوجد الفراء ، والأحمر ، وهشام بن معاوية ، ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الأحمر عن مائة مسألة فأجاب عنها ، فما أجابه بجواب إلا قال : أخطأت يا بصرى ، فقال سيبويه هذا سوء أدب . فأقبل الفراء على الأحمر فقال له : إن فى هذا الرجل جدا وعجلة ، ثم توجه إلى سيبويه قائلاً : ولكن ما تقول فيمن قال : هؤلاء أيّون ، ومررت بأيّين ؟ وكيف تقول على مثال ذلك من وأيت أو أويت ؟ فقدّر وأخطأ ، فقال الفراء : أعد النظر ، فقدر فأخطأ ، فقال الفراء :

(١) سيبويه إمام النحاة : ١٠١ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٦٩ .

أعد النظر ، فقدر فأخطأ ، فقال الفراء : أعد النظر ، ثلاث مرات يجيب ولا يصيب ، فلما كثر ذلك عليه قال : لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره .

فحضر الكسائى ، فأقبل على سيبويه فقال : تسألنى أو أسألك ؟ فقال : لا ، بل تسألنى أنت . فأقبل عليه الكسائى فقال : ما تقول ، أو كيف تقول : قد كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هى ، أو فإذا هى إياها ؟ قال سيبويه : فإذا هو هى ، ولا يجوز النصب ، فقال له الكسائى : لحنت ، ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : خرجت فإذا عبد الله القائمُ ، أو القائم – قال سيبويه : فى ذلك كله الرفع دون النصب ، فقال الكسائى : ليس هذا كلام العرب ، العرب ترفع فى كل ذلك وتنصب ، فدفع سيبويه قوله .

فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ؟ قال الكسائى : هذه العرب ببابك ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيحضرون ويسألون . فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت . وأُمر بإحضارهم ، فدخلوا وفيهم أبو فقعس ، وأبو دثار ، وأبو الجراح ، وأبو ثروان ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بين الكسائى وسيبويه ، فشايعوا الكسائى ، وقالوا بقوله .

فأقبل يحيى على سيبويه فقال : قد تسمع أيها الرجل ! قال : فاستكان سيبويه ؛ وأقبل الكسائى على يحيى فقال : أصلح الله الأمير ! قد وفد عليك من بلده مؤملا ، فإن رأيت ألا ترده خائبًا ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج ، وصير وجهه إلى فارس»[1] .

وروى ثعلب والمبرد قالا : «فيقال : إنه ما لبث إلا يسيرا ، ثم مات كمدا»[2] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٦٨ وما بعدها ، (بتصرف) .
(٢) طبقات الزبيدى : ٦٨ .

وقال الأخفش (سعيد بن مسعدة) : «فأقام سيبويه مديدة فى الأهواز ، ثم مات من ذَرَبٍ[1] أصابه ، وما قتله إلا الغم لما جرى له»[2] .

وروى أن بعض عائدى سيبويه دخل عليه فى مرضه ، فقال له : كيف تجدك أبا بشر ؟ فقال : أجدنى ترحل العافية عنى بانتقال ، وأجد الداء يخامرنى بحلول ، غير أنى وجدت الراحة منذ البارحة . قال : فما تشتهى ؟ قال : أشتهى أنى أشتهى . فلما كان من بعد ذلك اليوم ، دخل إليه وأخوه يبكى وقد قطرت دمعة على خده ، فقال لسيبويه : كيف تجدك ؟ قال :

يَسُرُّ الفَتَى مَا كَانَ قَدَّمَ مِنْ تُقًى ... إذَا عَرَفَ الدَّاءَ الَّذِى هُوَ قَاتِلُه[3]

وروى أنه لما اعتل ، وضع رأسه فى حجر أخيه ، فبكى أخوه لما رآه لمآبه ، فقطرت من دمعه قطرة على وجهه ، فرفع سيبويه رأسه إليه فرآه يبكى ، فقال :

أُخَيَّيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... إلَى الأَمَدِ الأَقْصَى ، وَمَنْ يَأْمَنُ الدَّهْرَا[4]!

وروى أنه تمثل عند الموت بقول القائل :

يُؤَمِّلُ دُنْيَا لِتَبْقَى لَهُ ... فَوَافَى الْمَنِيَّةَ دُونَ الأَجَلْ
حَثِيثًا يُرَوِّى أُصُولَ الْفَسِيلِ ... فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلْ[5]

وقال أبو سعيد الطوال : رأيت على قبر سيبويه هذه الأبيات مكتوبة ، وهى لسليمان بن يزيد العدوى :

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بَعْدَ طُولِ تَزَاوُرٍ ... وَنَأَى الْمَزَارُ فَأَسْلَمُوكَ وَأَقْشَعُوا
تَرَكُوكَ أَوْحَشَ مَا تَكُونُ بِقَفْرَةٍ ... لَمْ يُؤْنِسُوكَ وكُرْبَةً لَمْ يَدْفَعُوا
قُضِيَ القَضَاءُ وَصِرتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ ... عَنْكَ الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وتَصَدَّعُوا[6]

---

(١) الذرب : المرض الذى لابرء منه كالطاعون أو السرطان وما إلى ذلك .
(٢) طبقات الزبيدى : ٧٠ .
(٣) سيبويه إمام النحاة : ١١٤ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٧٢ .
(٥) سيبويه إمام النحاة : ١١٤ .
(٦) طبقات الزبيدى : ٧٢ .

ورجع سيبويه إلى ربه قبل أن يدرك أمله من الدنيا ، وكأنما ندبه الله ليخرج كتابه للناس إمامًا ، ويدعه فيهم للنحو قرآنا وكفى ، أما الدنيا فليست له ، وليس لها ، وبحسبه ثواب الآخرة ، ولثواب الآخرة خير وأبقى[1] .

أما مكان وفاته فقد اختلف فيه أيضًا على نحو ما اختلف فى تاريخ ميلاده ، وتاريخ وفاته : فقيل : مات فى ساوة[2] ، وقيل : مات فى البصرة[3] ، وقيل : مات فى فارس[4] ، وقيل : فى شيراز[5] ، وقيل : فى البيضاء[6] ، والله أعلم .

كتاب سيبويه

هو ذلك السفر العظيم الذى تركه العالم الخليل فى ساحة الخلود أثرًا ، وأرسله مع الأيام ذكرًا ، وادخره للعربية كنزًا ، وندبه فى العالمين شاهدًا على براعته فيها ، ونفاذه إلى أسرارها ، وإمامته فى الاشتراع لها ، وضبطه لأصولها ، على نحو يعز نظيره فى الأولين والآخرين[7] .

وكان من الطبيعى أن يضع له سيبويه اسمًا يعرف به بين العلماء والمتخصصين ، سيرًا على نهج المؤلفين فى عهده والعهد الذى سبقه ، الذين خرجت مؤلفاتهم تحمل عناوين تميزها من غيرها ، وتدل على ما يحويه كل منها من مادة علمية ، كالاشتقاق ، ومعانى القرآن للأخفش الأوسط ؛ ومعانى القرآن للفراء ؛ والعين ، والشواهد ، والنقط والشكل ، والنغم واللحون للخليل بن أحمد ، والجامع ، والإكمال لعيسى بن عمر ... إلخ : إلا أن سيبويه قد ترك كتابه دون

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ١١٥ .

(٢) تاريخ بغداد : ١٢/ ١٩٨ . وساوة : مدينة بين الرى وهمذان ، على ثلاثين فرسخا من كلتيهما .

(٣) وفيات الأعيان : ٣/ ٤٦٤ .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٦٥ .

(٥) مراتب النحويين : ١٠٦ .

(٦) وفيات الأعيان : ٣/ ٤٦٤ .

(٧) سيبويه إمام النحاة : ١٢٣ .

تسمية ، ولم يضع له اسما بعينه ، إذ ربما كان على نية العود إليه ، لأن لديه منه بقية ، ولا يزال فى نفسه منه شىء ، فأرجأ تسميته حتى يفرغ منه ، ويبلغ به غاية ما يريد ، ولكنه أُعْجل عن ذلك ، إذ وافته المنية وهو فى ريعان شبابه ، فاحتُضِر فى الثانية والثلاثين من عمره[1] ، ولم يتمكن من معاودة النظر فى كتابه أو إتمامه ، ومما يؤيد ذلك أن سيبويه لم يضع لكتابه مقدمة ، ولم يردفه بخاتمة - على النحو المتعارف عليه بين المؤلفين ؛ إذ يبدؤه فجأة بقوله : «هذا باب علم ما الكلم من العربية» ، وينهى مبتورًا بقوله : «ومثل هذا قول بعضهم : (عَلْمَاءِ بنو فلان) فحذف اللام ، يريدون : على الماء بنو فلان ، وهى عربية» .

هذا فضلاً على أنه لم يقرأه على أحد ، ولم يقرأه أحد عليه[2] ، وإنما كان طريقه إلى الناس الأخفش (سعيد بن مسعدة) بعد موت سيبويه - كما سيأتى -[3] ؛ علاوة على أن يونس بن حبيب - وهو من شيوخ سيبويه - لم يعلم نبأ هذا الكتاب إلا عرضًا وبعد موت سيبويه أيضًا ، حينما قيل له : إن سيبويه صنف كتابًا من ألف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئونى بكتابه ؛ فلما تصفحه قال : يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عنى[4] .

وإذا كان القدَر قد ضن على سيبويه بأن يضع لكتابه اسما يعرف به ، ويدل عليه ؛ فقد أتاح للعلماء من بعده أن يطلقوا عليه اسما لا يدانيه اسم غيره ، ولا يطاوله اسم بعده ، اسم لم يكن يطمح إليه سيبويه نفسه ، ولا يطمع أن يخرجه للناس به ، ألا وهو (الكتاب) ، دون أن يوصف بصفة ، أو يخصص بإضافة ، فكأنما هو الجامع لكل شىء ، المشتمل على كل شىء ، الأكبر من أى صفة ، الأجل من أى إضافة ؛ ورضى الناس هذه التسمية ووافقوا عليها ، لا ينكرها منكر ، ولا يعترض عليها معترض . فهذا أبو سعيد السيرافى يقول :

(١) راجع ص ٢٠٥ .
(٢) نزهة الألباء : ١٨٤ .
(٣) انظر ص ٢٧٨ .
(٤) بغية الوعاة : ٢/٢٢٩ .

«وكان كتاب سيبويه – لشهرته وفضله – علمًا عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيعلم أنه كتاب سيبويه ؛ وقرأ نصف الكتاب ، ولا يشك أنه كتاب سيبويه»[1] .

ولقد بلغ من تقدير العلماء له ، والإشادة بفضله ، أن سموه (قرآن النحو) ، فقد قال أبو الطيب اللغوى :

«وأخذ عن الخليل جماعة ، لم يكن فيهم ولا فى غيرهم من الناس مثل سيبويه ، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل ، وألف كتابه الذى سماه الناس قرآن النحو»[2] .

تاريخ تأليفه :

لا يعلم أحد متى بدأ سيبويه يصنف (الكتاب) ، ولا متى انتهى إلى ما انتهى إليه منه ، لأنه – رحمه الله – انتقل إلى جوار ربه تعالى دون أن يقرأه على أحد ، ولم يقرأه عليه أحد ، حيث لم يخرجه إلى الناس ، فلم يعلم به أحد ، حيث لقى ربه قبل أن يتمه ، أو يراجعه ، ومن ثم لم يضع له اسما ، ولم يجعل له مقدمة ولا خاتمة[3] .

اللهم إلا الأخفش (سعيد بن مسعدة) الذى استودعه سيبويه (الكتاب) عند لقائه به بشاطئ البصرة ، فى طريق عودته إلى الأهواز ، بعد هزيمته التى منى بها فى مناظرته المشهورة للكسائى[4] ، فكان هو الطريق الوحيد للناس إلى كتاب سيبويه .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٦٥ .
(٢) مراتب النحويين : ١٠٦ .
(٣) راجع ص ٢١١ .
(٤) راجع ص ٢٧٨ .

ولكن العلماء اجتهدوا فى الوقوف على زمن تأليف (الكتاب)، فاختلفوا فى اجتهادهم فريقين :

الأول : يرى أن سيبويه بدأ تأليفه بعد موت الخليل بن أحمد، أى : بعد سنة ستين ومائة للهجرة، وهى تاريخ وفاة الخليل، ويمثل هذا الفريق الأستاذ عبد السلام هارون – رحمه الله – محقق الكتاب، ويستدل لذلك بأمرين :

(أ) أن مخطوطات الكتاب كثيرًا ما يوجد بها تعقيب سيبويه على قول الخليل بعبارة (رحمه الله).

(ب) ما يرويه نصر بن على بن نصر بن على الجهضمى عن أبيه أنه قال : «قال لى سيبويه – حين أراد أن يضع كتابه – تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل»[1] .

الثانى : يرى أن سيبويه صنف بعض (الكتاب) فى حياة الخليل، وصنف البعض الآخر بعد موته : ويمثل هذا الفريق الأستاذ على النجدى ناصف – رحمه الله –، ويستدل لذلك بأمرين :

(أ) أن سيبويه لم يلتزم التعقيب على قول الخليل بعبارة (رحمه الله) فى كل أبواب الكتاب، ولا كلما ذكر قولاً للخليل[2] .

(ب) ما رواه القفطى من أن سيبويه عرض شيئًا من (الكتاب) على الخليل، حيث يقول : «وقد قيل إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى بـ (الجامع)، وبسطه، وخشى عليه من كلام الخليل وغيره، وإنه كان كتابه الذى اشتغل به، فلما استكمل بالبحث والتحشية، نسب إليه»[3] .

ثم يقول : «لما فارق سيبويه عيسى بن عمر ولازم الخليل، سأله الخليل عن مصنفات عيسى بن عمر، فقال سيبويه : قد صنف نيفا وسبعين مصنفا فى

(١) الكتاب (المقدمة) : ٢٤ .
(٢) سيبويه إمام النحاة : ١٢٥ .
(٣) إنباه الرواة : ٢/٣٤٧ .

النحو، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عليها عنده آفة، فذهبت ولم يبق منها في الوجود سوى تصنيفين: أحدهما اسمه (الإكمال) وهو بأرض فارس عند فلان، و(الجامع) وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه عليك، وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة، ثم رفع رأسه وقال: رحم الله عيسى، ثم أنشد ارتجالاً:

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ ... غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بنُ عُمَرْ

ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ ... فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرْ

فأشار إلى (الإكمال) بالإشارة إلى الغائب في قوله (ذاك)، وأشار إلى (الجامع) بالإشارة إلى الحاضر بقوله (هذا)[1].

هذا كل ما قيل حول زمن تأليف (الكتاب)، وهي أقوال كلها مظنونة مستنتجة، لا يؤيدها نقل صريح، ولا رواية موثقة، ولا شاهد يطمأن إليه، والله أعلم.

سند الكتاب:

لم يسند (الكتاب) إلى سيبويه إلا بطريق الأخفش، إذ تقدم أنه لم يعلم أحد بالكتاب، ولا سمع به، إذ لم يقرأه سيبويه على أحد، ولم يقرأه عليه أحد، إلا أن الأخفش قد شهد مولده، وعلم ببدء تصنيفه، بحكم تلمذته على سيبويه، وقوة الآصرة التي كانت تربط بينهما، فهو الوحيد الذي أرسل سيبويه في طلبه ليبثه لواعجه، ويشكو إليه الظلم الذي وقع عليه في مناظرته للكسائي، دون غيره؛ ومن الراجح أنه استودعه (الكتاب) حين لقيه بشاطئ البصرة وهو في طريقه إلى الأهواز، حيث قضى نحبه بها، ولم يعد ثانية إلى البصرة، وعن مشهد الأخفش تصنيف (الكتاب) يروي الرياشي عن الأخفش قوله: «كان سيبويه إذا وضع شيئًا من كتابه، عرضه عليّ، وهو يرى أني أعلم منه – وكان أعلم مني – وأنا اليوم أعلم منه»[2].

(١) سيبويه إمام النحاة: ١٣٠.

(٢) طبقات الزبيدي: ٦٧.

ويحكى ابن الأنبارى طريقة أخذ (الكتاب) عن الأخفش بقوله :

«ويقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له فى حسنه وصحته ، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه ، استحسنه كل الاستحسان ؛ فيقال إن أبا عمر الجرمى وأبا عثمان المازنى - وكانا رفيقين - توهما أن أبا الحسن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فقال أحدهما للآخر : كيف السبيل إلى إظهار الكتاب ، ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له : أن نقرأه عليه ، فإذا قرأناه عليه أظهرناه ، وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه .

وكان أبو عمر الجرمى موسرا ، وأبو عثمان المازنى معسرا ، فأرغب أبو عمر الجرمى أبا الحسن الأخفش ، وبذل له شيئًا من المال على أن يقرئه وأبا عثمان المازنى الكتاب ، فأجاب إلى ذلك ، وشرعا فى القراءة عليه ، وأخذا الكتاب عنه ، وأظهرا أنه لسيبويه ، وأشاعا ذلك ، فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعى الكتاب ؛ فكانا السبب فى إظهار أنه لسيبويه ، ولم يسند كتاب سيبويه إليه إلا بطريق الأخفش ، فإن كل الطرق مستند فيها إليه»[1] .

ومصداق ذلك أن يونس بن حبيب ، وأبا زيد الأنصارى ، وهما من أساتذة سيبويه الذين روى عنهم ، لم يعلما بتصنيفه (الكتاب) إلا بعد وفاته ، حينما قيل ليونس : إن سيبويه ألف كتابًا فى ألف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟! جيئونى بكتابه ؛ فلما نظر فيه ، ورأى ما حكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكى عنى[2] ؛ وما يحكيه أبو عمر الجرمى عن أبى زيد الأنصارى بقوله :

«نظر فى كتاب سيبويه فقال : قد أكثر هذا الغلام إن كان سمع ؛ فقلت له : قد روى عنك شيئًا كثيرًا ، فهل صدق فيه ؟ قال : نعم ، قلت : فصدقه فيما روى عن غيرك»[3] .

---

(1) نزهة الألباء : ١٨٥ .

(2) راجع ص ١٨٧ .

(3) مراتب النحويين : ١٢٤ .

وما حكاه عنه أيضًا أبو حاتم السجستانى بقوله :

«كان سيبويه غلامًا يأتى مجلسى ، له ذؤابتان ، فإذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعربيته ، فإنما يعنينى»[1] .

وممن قرأ كتاب سيبويه على الأخفش أبو الحسن على بن حمزة الكسائى (ت ١٨٣) . قال أبو نصر الباهلى : «حمل الكسائى إلى أبى الحسن الأخفش خمسين دينارًا ، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرًّا»[2] .

وحكى محمد بن سلام قال : «حدثنى الأخفش أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائى فى جمعه ، فوهب له سبعين دينارًا : وأن الكسائى كان يقول للأخفش : هذا الحرف لم أسمعه ، فاكتبه لى ، فيفعل»[3] .

وقرأ على الأخفش كذلك أبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٠) مرتين[4] .

وقرأه على أبى عمر الجرمى ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون التوزى (ت ٢٣٣)[5] .

وقرأ محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥) ثلث الكتاب على أبى عمر الجرمى ، فلما توفى الجرمى ، أتم قراءته على أبى عثمان المازنى[6] .

وممن قرأه على المازنى : العباس بن الفرج الرياشى (ت ٢٥٧)[7] ، وأبو على أحمد بن جعفر الدينورى (ت ٢٨٩) . ثم رحل أبو على إلى بغداد ، فقرأ على المبرد الكتاب مرة أخرى ، وكان أبو على صهرا لثعلب ، فكان يتخطاه

---

(١) طبقات الزبيدى : ٦٧ .
(٢) مراتب النحويين : ١٢٠ .
(٣) معجم الأدباء : ١٢٢/١٦ ، إنباه الرواة : ٣٥٠/٢ .
(٤) نزهة الألباء : ٢٥١ .
(٥) أخبار النحويين البصريين .
(٦) طبقات الزبيدى : ١٠١ .
(٧) نزهة الألباء : ٢٦٢ .

ويمضى إلى المبرد ، ومعه محبرته ودفتره ، فيقرأ عليه كتاب سيبويه ، فكان ثعلب يعاتبه على ذلك[1] .

وممن قرأ الكتاب على المبرد كذلك : ابن السراج (أبو بكر محمد بن السرى) المتوفى سنة ٣١٦ هـ[2] ، وابن درستويه (عبد الله بن جعفر المتوفى سنة ٢٥٨ هجرية[3] ، وأبو الحسين محمد بن الوليد بن ولاد (ت ٢٩٨)[4] .

وقرأه أبو سعيد السيرافى (ت ٣٦٨) على ابن السراج ، ومبرمان ، وكان مبرمان لا يقرئ كتاب سيبويه إلا بمائة دينار[5] .

وقرأه على أبى على الدينورى ، محمد بن موسى بن هاشم القرطبى (ت ٣٠٩)[6] .

وقرأه على ابن درستويه ، أبو على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى (ت ٣٥٦)[7] .

وقرأه أبو القاسم بن ولاد مرارًا على والده أبى الحسين بن ولاد ، من نسخة نقلها عن المبرد ، كما قرأه أيضًا على أبى جعفر أحمد بن محمد النحاس[8] .

وقرأه على أبى القاسم بن ولاد ، أبو عبد الله محمد بن يحيى الرياحى (ت ٣٥٣)[9] ، وهو راوى هذه النسخة التى بأيدى الناس الآن ، والتى حققها الأستاذ عبد السلام هارون - رحمه الله - ، إذ تبدأ بقوله : «قال أبو عبد الله محمد بن يحيى قرأت على ابن ولاد وهو ينظر فى كتاب أبيه ، وسمعته يقرأ على أبى جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس . وأخذه أبو القاسم بن ولاد عن

(١) طبقات الزبيدى : ١٤٢ .
(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٧٣ .
(٣) طبقات الزبيدى : ١١٦ .
(٤) المصدر السابق : ٢١٧ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٨ .
(٦) بغية الوعاة : ٢٥٢/١ .
(٧) طبقات الزبيدى : ١٢١ .
(٨) المصدر السابق : ٢١٧ .
(٩) مقدمة (الكتاب) : ١١ .

أبيه عن المبرد . وأخذه أبو جعفر عن الزجاج عن المبرد . ورواه المبرد عن المازنى عن الأخفش عن سيبويه»[1] .

مصادر الكتاب :

ولا ريب أن سيبويه فى تصنيفه (الكتاب) قد انتفع بعلم الخليل انتفاعًا ظاهرًا ، كما انتفع بعلم شيوخه الذين أخذ عنهم ، ومن سبقوه من أئمة النحو الذين ألفوا فيه ، أو أثرت عنهم رواية فيه ، فجاء (الكتاب) لقاح جهود كل هؤلاء ، إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا العلم المتكامل دون أن يفيد من تلك الجهود الأصيلة التى رسمت كثيرًا من أصول النحو ، ومسائله ، ومقاييسه ، وعلله ، وفى هذا يقول أبو العباس ثعلب فيما يرويه عنه ابن النديم بقوله : «قرأت بخط أبى العباس ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا منهم سيبويه ؛ والأصول والمسائل للخليل»[2] .

وربما يقصد ثعلب بقوله هذا أن (الكتاب) جاء نتاج خلق كثيرين ممن أخذ سيبويه عنهم ، أو سمع منهم ، أو روى لهم ، إذ إن رقم (الأربعين) من الأرقام التى تشيع قديمًا وحديثًا فى الخرافات ذات الأعداد ، للدلالة على الكثرة كرقم (السبعين) ، ورقم (السبعمائة) ، ويبقى من العدد الذى ذكره اثنان هما : الخليل وسيبويه ؛ حيث يقول السيرافى : «دعامة الحكاية فى كتاب سيبويه عن الخليل ، وكلما قال سيبويه : (وسألته) أو (قال) من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل»[3] .

وقال أبو جعفر الطبرى : «وسمعت أبا إسحق يقول : إذا قال سيبويه بعد قول الخليل : (وقال غيره) فإنما يعنى نفسه ، لأنه أجلّ الخليل عن أن يذكر نفسه معه ، وإذا قال : (وسألته) ، فإنما يعنى الخليل»[4] .

---

(١) المصدر السابق : ٣ .

(٢) الفهرست : ٧٦ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٥٦ .

(٤) الكتاب (المقدمة) : ٦ .

فمما صرح فيه باسم الخليل قوله : «وسألت الخليل عن : ما أحسن وجوههما ، فقال : لأن الاثنين جميع ، وهذا بمنزلة قول الاثنين : نحن فعلنا»[1] ... وقوله : «وأما قول الأخطل :

وَلَقَدْ أبِيتُ مِنَ الْفَتَاةِ بِمَنْزِلٍ   فَأبِيتُ لاَ حَرِجٍ ولاَ مَحْرُومِ

فزعم الخليل أن هذا ليس على إضمار (أنا) ، ولو جاز هذا على إضمار (أنا) ، لجاز (كان عبد الله لا مسلم ولا صالح) على إضمار (هو)»[2] ... وقوله : «فالفعل إذا كان غاية منصوب ، والاسم إذا كان غاية جر ، وهذا قول الخليل»[3] .

ومما لا يصرح فيه باسم الخليل قوله : « وسألته عن الإضافة إلى (عدد) ، فقال : عددى»[4] ... وقوله : «واعلم أن من قال : أقاويل ، وأبابيت فى أبيات ، وأنابيب فى أنياب ، لا يقول : أقوالان ، ولا أبياتان . قلت : فلِمَ ذلك ؟ قال : لأنك لا تريد بقولك : هذه أنعام ، وهذه أبيات ، وهذه بيوت ، ما تريد بقولك : هذا رجل ، وأنت تريد (رجل واحد) ، ولكنك تريد الجمع»[5].

ومما أضمر فيه اسمه بعد اسم الخليل قوله : «وسألت الخليل عن قوله :

ألاَ رَجُلاً جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا   يَدُلُّ عَلَى مُحَصِّلَةٍ تَبِيتُ

فزعم أنه ليس على التمنى ، ولكنه بمنزلة قول الرجل : فهلا خيرًا من ذلك ، كأنه قال : ألا ترونني رجلاً جزاه الله خيرًا . وأما يونس فزعم أنه نوّن مضطرا ، وزعم أن قوله :

لاَ نَسَبَ الْيَوْمَ ولاَ خُلَّةً

على الاضطرار ؛ وأما غيره فوجهه على ما ذكرت لك ؛ والذى قال مذهب»[6] .

---

(1) الكتاب : ٢/٤٨ .
(2) الكتاب : ٢/٨٤ .
(3) الكتاب : ٣/١٦ .
(4) الكتاب : ٣/٣٤٣ .
(5) الكتاب : ٣/٦٢٢ .
(6) الكتاب : ٢/٣٠٦ .

وقد صدق السيرافى حين قال : «وعامة الحكاية فى كتاب سيبويه عن الخليل»[1] ، فقد روى سيبويه عن الخليل فى كتابه قدرًا لم يرو مثله ، ولا قريبًا منه عن أحد من أساتذته ، حيث بلغ جملة ما رواه عنه فى الكتاب اثنتين وعشرين وخمسمائة مرة[2] .

والمصدر الثانى من مصادر الكتاب : يونس بن حبيب الضبى .

وكان من أكابر النحويين ، وأعلمهم بتصاريف النحو ، وله فيه مذاهب وأقيسة تفرد بها ، وكانت له حلقة بالبصرة يقصدها طلاب العربية وفصحاء الأعراب ووفود البادية ، وقضى حياته كلها عزبًا لم يتزوج ولم يتسر ، لا هم له إلا طلب العلم ومحادثة الرجال .

وكان سيبويه يروى عنه فى كتابه ، كما كان يروى عن أبى عمرو بن العلاء من طريق يونس قليلا ، وعن عبد الله بن أبى إسحق من طريقه أيضًا فى بعض الأحيان .

فمما رواه عن يونس قوله : «وزعم يونس أن قوما يقولون : هذه عشرون أضعافها ، وهذه عشرون أضعاف ، أى : مضاعفة ، والنصب أكثر»[3] .

ومما رواه عن أبى عمرو بن العلاء من طريق يونس قوله : «وقال قوم : يا أخانا زيدُ ، وقد زعم يونس أن أبا عمرو كان يقوله ، وهو قول أهل المدينة»[4] .

ومما رواه عن عبد الله بن أبى إسحق من طريق يونس قوله : «فإذا سميت المؤنث باسم زيد أو عمرو لم يجز صرفه . هذا قول ابن أبى إسحق وأبى عمرو فيما حدثنا يونس»[5] .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٦ .
(٢) سيبويه إمام النحاة : ٨٩ .
(٣) الكتاب : ٢/١١٨ .
(٤) الكتاب : ٢/١٨٤ .
(٥) الكتاب : ٣/٢٤٢ .

وقد بلغ ما رواه سيبويه فى كتابه عن يونس قدرًا يلى قدر ما رواه عن الخليل، حيث بلغ جملة ما رواه عنه مائتى مرة[1].

والمصدر الثالث من مصادر كتاب سيبويه: الأخفش الأكبر (أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد).

مولى قيس بن ثعلبة، لقى الأعراب، وأخذ عنهم، وعن أبى عمرو بن العلاء وطبقته، حتى صار من أكابر علماء العربية وأئمتها المعروفين، وكان ثقة ورعا دينا، وقد أخذ عنه سيبويه اللغة، وروى عنه فى كتابه كثيرًا من النصوص والمفردات، وكان يذكره فى (الكتاب) بكنيته، حيث يقول: «(هذا باب ما تكون فيه أنّ وأنْ مع صلتهما بمنزلة غيرهما من الأسماء)، وذلك قولك: ما أتانى إلا أنهم قالوا» ... ومثل ذلك قولهم: ما منعنى إلا أن يغضب علىّ فلان؛ والحجة على أن هذا فى موضع رفع أن أبا الخطاب حدثنا أنه سمع من العرب الموثوق بهم من ينشد هذا البيت رفعًا:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْر أَنْ نَطَقَتْ ... حَمَامَةٌ فِى غُصُونٍ ذَاتِ أَوْقَالِ[2]

وقد بلغ ما رواه سيبويه عن الأخفش الأكبر فى كتابه سبعًا وأربعين مرة[3].

والمصدر الرابع من مصادر (الكتاب) عيسى بن عمر الثقفى.

مولى خالد بن الوليد، نزل فى ثقيف فنسب إليهم، وكان ضريرًا، وكان يتقعر فى كلامه، ويؤثر اصطناع الغريب على المألوف، وكان له كتابان فى النحو: الجامع، والإكمال، ولكنهما لم يقعا لأحد، ولا ذكر أحد أنه رآهما، وكان سيبويه يذكر اسمه صراحة حين يروى له فى كتابه كما فى قوله: «وكان عيسى يقول: ادخلوا الأولُ فالأولُ؛ لأن معناه: ليدخل، فحمله على المعنى، وليس بأبعد من:

(١) سيبويه إمام النحاة: ٩٠.
(٢) الكتاب: ٢/٣٢٧.
(٣) سيبويه إمام النحاة: ٩١.

وقد بلغ ما رواه سيبويه عن عيسى بن عمر فى الكتاب اثنتين وعشرين مرة[2].

والمصدر الخامس من مصادر (الكتاب) : أبو زيد الأنصارى (سعيد بن أوس ابن ثابت بن بشير).

من الخزرج ، وقد أكثر السماع من العرب ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، ورؤبة بن العجاج ، وعمرو بن عبيد ، وغيرهم ؛ وكان - رحمه الله - إمامًا من أئمة العربية ، لكنه لم يبلغ فى النحو شأو الخليل وسيبويه ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب . وقال عنه السيرافى : «وكان أبو زيد كثير السماع من العرب ، ثقة ، مقبول الرواية»[3].

ولم يكن سيبويه دائمًا يصرح باسم أبى زيد فيما روى عنه فى كتابه ، ولكن قال أبو زيد : «كان سيبويه يأتى مجلسى وله ذؤابتان ... فإذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعربيته ، فإنما يريدنى»[4].

وروى أبو عمر الجرمى عن أبى زيد أنه نظر فى كتاب سيبويه فقال : «قد أكثر هذا الغلام إن كان سمع» . فقلت له : قد روى عنك شيئًا كثيرًا ، فهل صدق فيه ؟ قال : نعم ، قلت : فصدقه فيما روى عن غيرك[5].

وروى السيرافى قال : «وذكر أبو زيد النحوى اللغوى كالمفتخر بذلك - بعد موت سيبويه - قال : «كل ما قال سيبويه : (وأخبرنى الثقة) فأنا أخبرته»[6].

---

(١) الكتاب : ١/٣٩١ .
(٢) سيبويه إمام النحاة : ٩١ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ٦٨ .
(٤) المعارف : ٢٣٧ ، ومراتب النحويين : ٧٤ .
(٥) مراتب النحويين : ١٢٤ .
(٦) أخبار النحويين البصريين : ٦٤ .

ولا ريب أن أبا زيد حقيق بالتصديق ، وجدير أن يعد من شيوخ سيبويه ، فقد تكرر فى (الكتاب) قول سيبويه : وأخبرنى الثقة ، وأخبرنى من أثق بعربيته ، وأخبرنى من لا أتهم ، ونحو ذلك : وادعى أبو زيد أنه المعنى بذلك ، ولم يذكر أحد من الرواة أن أحدًا نازعه فى ذلك ؛ فضلاً على أنه كان من أهل الثقة ، فقد روى عنه أبو داود والترمذى : كما كان جده ثابت بن بشير قد شهد أحدًا وما بعدها ، وكان أحد الستة الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول ﷺ[1] .

وكل ما رواه سيبويه فى كتابه عن أبى زيد إنما هو أشياء تتعلق باللغة نحو قوله : «وحدثنا من لا نتهم أنه سمع من العرب من يقول : رويد نفسه : جعله مصدرًا كقوله : فضرب الرقاب»[2] .

وقد بلغ ما رواه سيبويه فى (الكتاب) عن أبى زيد تسع مرات[3] .

استدراك :

يقطع الأستاذ على النجدى ناصف بأن سيبويه لم يصرح باسم أبى زيد الأنصارى حين يروى عنه فى كتابه ، وإنما كان دائمًا يكنى عنه بالكنى السابق ذكرها ، حيث يقول :

«ولم أر من الرواة من ذكر أن سيبويه أخذ عن أبى زيد ، ولم أر سيبويه فى الكتاب يروى عنه ... ولا تعرف على وجه التحقيق لماذا آثر سيبويه ألا يصرح باسم أبى زيد فى الرواية عنه ، لا يعدل عن ذلك أبدا ، على حين يصرح بأسماء أخرى ، أو يراوح بين التصريح والإضمار ، كدأبه مع الخليل : ربما كان فى ذلك نوع من التكريم لأبى زيد : ولاسيما أنه يكنى عنه بأفضل ما يكنى به عن الرواة والعلماء ، مثل : من نثق به ، ومن لانتهم : فكأنما أراد سيبويه أن يدعو الناس إلى هذه التسمية ، وأن يشاركه فيها من لم يكن يشاركه ؛ إجلالاً للرجل ومكافأة»[4] .

---

(١) بغية الوعاة : ١/٥٨٢ .

(٢) الكتاب : ١/٢٤٥ .

(٣) سيبويه إمام النحاة : ٩٣ .

(٤) المصدر السابق .

ويقطع الأستاذ عبد السلام هارون - محقق (الكتاب) - بعدم تصريح سيبويه باسم أبى زيد حين يروى له فى كتابه ، حيث يقول : «ولم يصرح سيبويه بذكر اسمه فى (الكتاب) . ولكن هذه النصوص القديمة التى لم يعترض عليها العلماء تدل على أنه روى عنه فى كتابه ، وإن لم يصرح»[1] .

وقد عثرت أثناء مطالعتى لكتاب سيبويه أنه روى عن أبى زيد مصرحًا باسمه مرتين ، الأولى سماعًا منه بنفسه ، إذ يصدرها بقوله : «وقال أبو زيد ....» ، والثانية من طريق أبى عمرو بن العلاء .

ففى الرواية الأولى يقول سيبويه : «(هذا باب الإضافة إلى الجمع) ... وتقول فى الإضافة إلى أناس : إنسانىّ وأناسى ، لأنه لم يكسر له إنسان . وهو أجود القولين . وقال أبو زيد : النسبة إلى محاسن محاسنى ؛ لأنه لا واحد له ، فصار بمنزلة نفر»[2] .

وفى الرواية الثانية يقول سيبويه : «(هذا باب عدة ما يكون عليه الكلم) ... وأما (عن) فلما عدا الشىء ، وذلك قولك : أطعمته عن جوع ، جعل الجوع منصرفًا تاركًا له ، قد جاوزه . وقال : قد سقاه عن العَيْمة : شهوة اللبن . قال أبو عمرو : سمعت أبا زيد يقول : رميت عن القوس . وناس يقولون : رميت عليها»[3] .

والمصدر السادس من مصادر كتاب سيبويه : هارون .

وهو أبو عبد الله هارون بن موسى النحوى[4] . من أهل البصرة ، كان يهوديا ، فأسلم وحسن إسلامه ، وحفظ القرآن ، ثم طلب القراءة ، فسمع طاوسًا ، وثابتًا البنانى ، وحميدا الطويل ، وغيرهم ، حتى برع فى القراءة ، وصار رأسًا فيها ، كما درس النحو ، وسمع الحديث ، وروى له الشيخان .

---

(١) مقدمة الكتاب : ١٢ .
(٢) الكتاب : ٣/٣٧٩ .
(٣) الكتاب : ٤/٢٦٦ .
(٤) تاريخ بغداد : ١٤/٣ .

قال جلال الدين السيوطي : «وهو أول من تتبع وجوه القرآن وألفها ، وتتبع الشاذ منها ، وبحث عن إسناده ، وتوفى فى حدود سنة ١٧٠ هجرية[١] .

وقد روى عنه سيبويه فى (الكتاب) نحو قوله : «وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَصَّلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾»[٢] ؛ وقوله : «وتقول : ودَّ لو تأتيه فتحدثه ، والرفع جيد على معنى التمنى ؛ ومثله قوله – عز وجل – : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٣] . وزعم هارون أنها فى بعض المصاحف : ودوا لو تدهن فيدهنوا»[٤] .

وقد بلغ ما رواه عنه سيبويه فى كتابه خمس مرات ، كلها من القراءات[٥] .

وقد روى سيبويه فى كتابه عن نحاة بالواسطة ، حيث لم يثبت أنه التقى بهم ، أو أخذ عنهم مشافهة ، وهم :

١ - أبو عمرو بن العلاء :

قارئ أهل البصرة ، وإمامها فى اللغة ، أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثى – تلميذ أبى الأسود الدؤلى – وشيخ الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب الضبى ، ولم يأخذ عنه سيبويه إلا من طريق رواية يونس ، فهو يصرح بذلك كثيرًا ، ويضمر السند إليه أو يغفله قليلاً ، فمن الكثير قوله : «وحدثنى يونس أن أبا عمرو كان يقول : الوجه : ما أتانى القوم إلا عبدُ الله»[٦] .

ومن القليل قوله : «وزعموا أن أبا عمرو كان ينشد هذا البيت نصبا :

قُبِّحَ مَنْ يَزْنِي بِعَوْ ... فٍ مِنْ ذَوَاتِ الخُمُرْ

---

(١) بغية الوعاة : ٢/٣٢١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢٨ . وانظر الكتاب : ٤/٤٦٧ .

(٣) سورة القلم : الآية ٩ .

(٤) الكتاب : ٣/٣٦ .

(٥) سيبويه إمام النحاة : ٩٤ .

(٦) الكتاب : ٢/٣١١ .

«الآكِلُ الأسْلاءِ لاَ يَخْفِلُ ضَوْءَ القَمَرْ»[1]

وقوله : «وذلك قول بعض العرب : يا للعجب ، ويا للماء ، وكأنه نبه بقوله يا غير الماء للماء ، وعلى ذلك قال أبو عمرو : يا ويل لك ، ويا ويح لك ، وكأنه نبه إنسانًا ، ثم جعل الويل له»[2] .

وقيل : إن سيبويه أخذ الحروف عن أبى عمرو بن العلاء ، وفى (الكتاب) دليل على ذلك ، حيث يقول سيبويه : «ورأيت أبا عمرو أخذ بهن فى قوله – عز وجل – : ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ﴾[3]» . أما النحو فلم يؤثر أنه أخذه عنه ، وليس فى (الكتاب) دليل عليه .

ولكن كيف يتسنى لسيبويه أن يأخذ النحو عن عيسى بن عمر سماعًا ، ولا يأخذه عن أبى عمرو إلا نقلا ، مع أنه أخذ عنه الحروف ، فضلاً على أن أبا عمرو قد توفى بعد عيسى بنحو خمس سنوات ؟!

معلوم أن وفاة أبى عمرو كانت بالكوفة ، فربما أخذ سيبويه عنه الحروف فى سن مبكرة ، وفى بداية عهده بالدراسة ، إبان حياة أبى عمرو بالبصرة ، ثم رحل أبو عمرو إلى الكوفة ، ولم يكن سيبويه قد بلغ السن التى يطيق فيها مدارسة العلوم ، وبقى أبو عمرو فى الكوفة حتى وافته المنية بها ، فلم يتسن لسيبويه لقاءه ، والأخذ عنه ، والله أعلم .

٢ - عبد الله بن أبى إسحق :

عبد الله بن زيد أبى إسحق بن الحارث ، مولى آل الحضرمى ، إمام فى العربية والقراءة ، وهو من أهل الإحسان فى القياس ، حتى قيل : إنه أول من علل النحو ، وتناظر هو وأبو عمرو بن العلاء ، وسئل عنه يونس فقال : «هو والنحو سواء» يعنى أنه الغاية فيه ، وكان ممن يطعُن على العرب .

---

(١) الكتاب : ٢/٧٢ .

(٢) الكتاب : ٢/٢١٨ .

(٣) سورة هود : من الآية ٧٢ ، وانظر الكتاب : ٣/٥٤٩ .

وقد بلغ جملة ما نقله سيبويه فى كتابه عن ابن أبى إسحق أربع مرات، جميعها فى النحو والاستشهاد له، وسنده فى الرواية عنه يونس بن حبيب[1]. كما فى قوله: «فإن سميت المؤنث بعمرو أو زيد، لم يجز الصرف. هذا قول ابن أبى إسحق، وأبى عمرو فيما حدثنى يونس. وهو القياس»[2].

٣ - الرؤاسى:

محمد بن الحسن بن أبى سارة، وسمى بالرؤاسى لأنه كان عظيم الرأس، أخذ النحو عن عيسى بن عمر، وهو أول من وضع من الكوفيين كتابًا فى النحو سماه (الفيصل)، وكان أستاذا للكسائى والفراء.

قال الرؤاسى: «بعث الخليل إلى يطلب كتابى، فبعثته إليه، فقرأه ووضع كتابه: فكل ما فى كتاب سيبويه (وقال الكوفى) فإنما يعنينى»[3].

وبتصفح كتاب سيبويه، لم نعثر فيه على عبارة (قال الكوفى) هذه ولا مرة واحدة، وإنما كل ما ورد فيه عبارة (الكوفيون) أو (أهل الكوفة) دون تحديد شخص بعينه: فربما كان الرؤاسى داخلاً فيهم ولم يحدده سيبويه بالاسم كعادته فى عدم تحديد أشخاصهم، ولاسيما أنه كان أستاذهم، وأول من وضع كتابًا فى النحو من الكوفيين.

٤ - الكوفيون:

تقدم أن سيبويه كان يذكرهم فى كتابه بصفتهم فيقول: (الكوفيون) أو (أهل الكوفة) دون تحديد أشخاص بأعيانهم.

وقد نقل عنهم سيبويه فى كتابه أربع مرات، ثلاثًا فى القراءات، وواحدة فى الصرف، وهى على النحو التالى:

---

(١) سيبويه إمام النحاة: ٩٦.
(٢) الكتاب: ٣/٢٤٣.
(٣) الفهرست: ٩٦.

قوله : «وسألت الخليل عن قولهم : اضرب أيُّهم أفضل . فقال : القياس النصب ، كما تقول : اضرب الذى أفضل ... وحدثنا هارون أن الكوفيين يقرأونها : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾[1] . وهى لغة جيدة ، نصبوها حين جروها حين قالوا : امرر على أيُّهم أفضل»[2] .

قوله : «وقال – عز وجل – : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾[3] . فانتصب لأنه أمر بالإشهاد لأن تذكر إحداهما الأخرى ، ومن أجل أن تذكر . وقرأ أهل الكوفة : فتذكرُ – رفعا –»[4] .

قوله : «وإن شئت قلت فى ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ ونحوها : تذكرون ، كما قلت : تكلمون ، وهى قراءة أهل الكوفة فيما بلغنا»[5] .

قوله : «وتقول فى (فيعَل) من حويت وقويت : حيًا وقيًا ... وتقول فى (فيعِل) منهما :حيٌ وقيٌ ... وينبغى أن يكون (فيعِل) هو وجه الكلام فيه ؛ لأن (فيعِلا) عاقبت (فيعَلا) فيما الواو والياء فيه عين . ولا ينبغى أن يكون فى قول الكوفيين إلا (فيعِلا) مكسور العين ، لأنهم يزعمون أنه (فيعل) ، وأنه محدود عن أصله»[6] .

هذه هى المصادر التى استقى منها سيبويه مادة كتابه ، والمنابع التى أثمرت شخصية سيبويه العلمية ، فضلا على ما سمعه بنفسه من العرب الخلص الذين لم تشب فصاحتهم شائبة ، مما جعل (الكتاب) يخرج إلى الناس غاية فى الفصاحة ، وذروة فى الثقة ، وأهلا لأن يعتمد عليه ، ويتسابق الناس إلى درسه والاطلاع عليه ، وبذل المال والجهد فى سبيل الوصول إليه وقراءته ، وحقيقًا بأن يكاد الأخفش أن ينسبه إلى نفسه . لولا أن المازنى والجرمى حالا بينه وبين

---

(١) سورة مريم : الآية ٦٩ .

(٢) الكتاب : ٢/٣٩٩ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢ .

(٤) الكتاب : ٣/٥٤ .

(٥) الكتاب : ٤/٤٧٧ .

(٦) الكتاب : ٤/٤٠٨ .

تحقيق هدفه ، وجديرًا بأن يموت الفراء ثم يعثر على الكتاب تحت وسادته ، وأن يقرأه الكسائى على الأخفش سرًا حتى لا يعلم من أين استقى علمه ، وألا يجد الجاحظ هدية يقدمها إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أفضل من (الكتاب) .

شواهد الكتاب :

الشواهد هى الأدلة القاطعة على سلامة اللغة ، والبراهين الساطعة على صحة القواعد النحوية والصرفية ؛ ومن يطلع على كتاب سيبويه يجده قد حوى الجم الغفير من الشواهد التى تتوزع بين القرآن الكريم ، ونصوص الشعر والرجز ، كما اشتمل على فيض غزير من المفردات والأساليب العربية فى شتى مطالب التعبير ، كل ذلك يشرحه ، ويحلله ، ويمثل به لما يريد .

وتدل رواية هذه الشواهد مجردة على أنه كان يحفظ القرآن واللغة ، وإذا لاحظنا مع ذلك حسن عرضه لها ، وبراعته فى اصطناعها ، ومقدرته على التخريج ، وتصنيف الأشباه ، وإدراك الفروق بينها ، بدا لنا مبلغه من التفقه فى العربية ، والنفاذ إلى أسرارها ، مع سلامة ذوق ، ودقة ملاحظة ، وأستاذية لا تبارى .

وإذًا نستطيع أن نقول مع القائلين إن سيبويه – رحمه الله – «قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فيه بسهم»[1] إلى جانب إمامته فى اللغة[2] .

وكان سيبويه فى تعامله مع هذه الشواهد ، يروى بعضها ، أو ينسب الوجه فيها إلى أشياخه ، ويزجى بعضها الآخر من حفظه ، فيقول مثلاً فى (باب ما يختار فيه إعمال الفعل مما يكون فى المبتدأ مبنيا عليه الفعل) : «وذلك قولك : رأيت زيدا وعمرا كلمته ... ومثل ذلك قوله – عز وجل – : ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3] ، وقوله – عز وجل – : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وأَصْحَابَ

---

(١) طبقات الزبيدى : ٣٩ (عن سيبويه إمام النحاة : ٨٢) .

(٢) سيبويه إمام النحاة : ٨٢ .

(٣) سورة الإنسان : الآية ٣١ .

الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾[1] ، ومثله : ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[2] .

ومن شواهده الشعرية قوله في (باب من اسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع)[3] : «وذلك قولك : هذا ضاربٌ زيدا غدا ، فمعناه وعمله : هذا يضرب زيدا غدا ... ومما جاء في الشعر منونًا من هذا الباب قوله :

إنِّـي بِـحَـبْـلِـكِ وَاصِـلٌ حَـبْـلِـي ... وَبِـرِيشِ نَـبْـلِـكِ رَائِـشٌ نَـبْـلِـي

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وَمِـنْ مَـالِـئٍ عَـيْـنَـيْـهِ مِـنْ شَـيْءِ غَـيْـرِهِ ... إذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ البِيضِ كَالدُّمَى

وقال زهير :

بَـدَا لِـيَ أَنِّـي لَـسْـتُ مُـدْرِكَ مَـا مَـضَـى ... وَلاَ سَـابِـقًـا شَـيْـئًـا إذَا كَـانَ جَـائِـيَـا

وقال الأحوص الرياحي :

مَـشَـائِـيمُ لَـيْـسُـوا مُـصْـلِـحِـينَ عَـشِـيرَةً ... وَلاَ نَـاعِـبًـا إلاَّ بِـبَـيْـنٍ غُـرَابُـهَـا

ومما جاء في الشعر غير منون قول الفرزدق :

أَتَـانِـي عَـلَـى الـقَـعْـسَـاءِ عَـادِلَ وَطْـبِـهِ ... بِـرِجْـلَـيْ لَـئِـيـمٍ وَاسْـتِ عَـبْـدٍ تُـعَـادِلُه

يريد : عادلا وطبه ، وقال الزبرقان بن بدر :

مُـسْـتَـحْـقِـبِـي حَـلَـقِ الْـمَـاذِيِّ يَـحْـفِـزُهُ ... بِـالْـمَـشْـرَفِـيِّ وَغَـابٍ فَـوْقَـهُ حَـصِـدُ

وقال سليك بن السلكة :

تَـرَاهَـا مِـنْ يَـبِـيسِ الـمَـاءِ شُـهْـبًـا ... مُـخَـالِـطَ دِرَّةٍ مِـنْـهَـا غِـرَارًا

---

(1) سورة الفرقان : الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(2) سورة الأعراف : الآية ٣٠ . وانظر الكتاب : ١/٨٧ .

(3) الكتاب : ١/١٦٤ .

يريد : عرق الخيل ؛ وما يزيد هذا الباب إيضاحًا أنه على معنى المنون قول النابغة :

احْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ

فوصف بالنكرة ، وقال المرار الأسدى :

سَلِ الْهُمُومَ بِكُلِّ مُعْطِي رَأْسَهُ ... نَاجٍ مُخَالِطِ صُهْبَةٍ مُتَعَيِّسِ

وزعم عيسى أن بعض العرب ينشد هذا البيت لأبى الأسود الدؤلى :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلاَ ذَاكِرِ اللهَ إلاَّ قَلِيلا

فهذا التوفق العجيب فى الاستشهاد ، وضرب الأمثلة ، وسوق الأمثال ، يدل على الغزارة والتمكن ، وشدة الاستحضار[1] .

وأما شواهده النثرية ، فهى تشمل الأمثال العربية ، وعبارات أثرت عن العرب أو وردت عنهم ، ومفردات وردت فى الاستعمال العربى الفصيح ؛ والشواهد النثرية هو المعين الذى لا ينضب فى الاستشهاد : لكثرتها والظفر بها عند تلمس الدليل ، فهو منطلق العربى فى غدواته وروحاته ، يرسلها متى شاء ، وحيثما كان ، وفيما يبتغى ويريد . فمن الأمثال العربية :

١ - عسى الغوير أبؤسا[2] :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد) : «وإنما صُيِّر (جاء) بمنزلة (كان) فى هذا الحرف وحده ، لأنه بمنزلة المَثَل ، كما جعلوا (عسى) بمنزلة (كان) فى قولهم : (عسى الغوير أبؤسا) ، ولا يقال : عسيت أخانا»[3] .

(١) سيبويه إمام النحاة : ١٤٣ .

(٢) المثل قالته الزباء لقومها حين رجع قصير من العراق ومعه الرجال ، فبات بالغوير على طريقه ، والغوير : ماء لكلب فى ناحية السماوة ، والأبؤس : جمع بؤس ، وهو مثل يضرب للرجل يأتى الشر من قبله . الميدانى : ١/٤٢٤) .

(٣) الكتاب : ١/٥١ .

٢ - اللهم ضَبُعا وذئبا[1] :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب ما جرى من الأمر والنهى على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل) : «من ذلك قول العرب فى مثل من أمثالهم : (اللهم ضبعًا وذئبًا) إذا كان يدعو بذلك على غنم رجل ، وإذا سألتهم ما يعنون قالوا : اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعًا وذئبًا ، وكلهم يفسر ما ينوى»[2] .

٣ - أمرَ مبكياتك لا أمر مضحكاتك[3] :

٤ - الظباءَ على البقر[4] :

حيث يقول سيبويه فى الباب نفسه : «ومن ذلك قولك : زيدا وعمرا ، كأنك تريد : اضرب زيدا وعمرا ، كما قلت : زيدا وعمرا رأيت . ومنه قول العرب : (أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك) و(الظباء على البقر) . يقول : عليك أمر مبكياتك ، وخلِّ الظباء على البقر»[5] .

٥ - إن لا حظيَّةً فلا أليّة[6] :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف) : «ومثل ذلك قول العرب فى مثَل من أمثالهم : «إن لاحظية فلا ألية) أى : إن لا تكن له فى الناس حظية فإنى غير ألية ، كأنها قالت فى المعنى : إن كنت ممن لا يُحظى عنده فإنى غير ألية»[7] .

---

(١) ذكر المبرد أنه سمع أن هذا دعاء له لا دعاء عليه ، لأن الضبع والذئب إذا اجتمعا تقاتلا فأفلتت الغنم ، وذهب ابن رشيق إلى أنه يستخدم للدعاء له ، كما يستخدم للدعاء عليه . العمدة : ٢/١٥٢) .

(٢) الكتاب : ١/٢٥٥ .

(٣) المعنى : اتبع أمر من ينصح لك وإن كان مرا ، ولا تتبع أمر من يداهنك وإن كان حلوا . الميدانى : ١/٣٠) .

(٤) يضرب عند انقطاع ما بين الشخصين من القرابة والصداقة . (الميدانى : ١/٤٤٤) .

(٥) الكتاب : ١/٢٥٦ .

(٦) معناه : إن أخطأتك الحظوة فيما تطلب ، فلا تأل أن تتودد إلى الناس لعلك تدرك بعض ما تريد . (الميدانى : ١/١٨) .

(٧) الكتاب : ١/٢٦١ .

ومما ورد بالكتاب من عبارات رويت عن العرب ، أو سمعت منهم فى استعمالهم اليومى ، دون أن تجرى مجرى الأمثال :

١ - ما جاءت حاجتك :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد) : «ومثل قولهم : من كان أخوك ، قول العرب : ما جاءت حاجتك ، كأنه قال : ما صارت حاجتك ؛ ولكنه أدخل التأنيث على ما ، حيث كانت الحاجة، كما قال بعض العرب : من كانت أمك ، حيث أوقع من على مؤنث ؛ وإنما صُيِّر (جاء) بمنزلة (كان) فى هذا الحرف وحده لأنه بمنزلة المثل»[1] .

٢ - اجتمعت أهل اليمامة :

حيث يقول سيبويه فى الباب نفسه : «وسمعنا من العرب ممن يوثق به : اجتمعت أهل اليمامة ، فأنث الفعل فى اللفظ ، إذ جعله فى اللفظ لليمامة ، فترك اللفظ يكون على ما يكون عليه فى سعة الكلام»[2] .

٣ - ما كل سوداءَ تمرة ولا بيضاءَ شحمة :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب ما أجرى مجرى ليس فى بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ، ثم يصير إلى أصله) : «وتقول : ما كل سوداء تمرة ولا بيضاء شحمة» ، وإن شئت نصبت (شحمة . وبيضاء فى موضع جر ، كأنك أظهرت كل ، فقلت : ولا كل بيضاء»[3] .

٤ - شهرٌ ثرى ، وشهرٌ ترى ، وشهرٌ مرعى :

حيث يقول سيبويه فى (هذا باب ما يجرى مما يكون ظرفا هذا المجرى) :

---

(١) الكتاب : ١ / ٥٠ .
(٢) الكتاب : ٥٣/١ .
(٣) الكتاب :١ /٦٦ .

«وزعموا أن بعض العرب يقول : شهر ثرى ، وشهر ترى ، وشهر مرعى . يريد : ثرى فيه»[1] .

ويلاحظ أن هذه الأمثال ، والعبارات المروية عن العرب تكثر فى : (باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف)[2] و(باب ما يحذف منه الفعل لكثرته فى كلامهم حتى صار بمنزلة المثل)[3] ، (وباب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره)[4] .

وأما شواهد الكتاب من المفردات ، فمنها العربية ، ومنها الأعجمية – سواء كانت خالصة أو معربة ، ويكثر ورود هذه المفردات فى أبواب الصرف ، ومثال ذلك :

١ – قوله فى (باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل) : «ويكون على (إفعيل) فى الاسم والصفة . فالأسماء نحو : إخريط[5] ، وإسليح[6] ، وإكليل[7] ، والصفة نحو : إصليت[8] ، وإجفيل[9] ، وإخليج[10]» .

٢ – قوله فى (باب الأسماء الأعجمية) : «وأما إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، وهرمز ، وفيروز ، وقارون ، وفرعون ، وأشباه هذه الأسماء ، فإنها لم تقع فى كلامهم إلا معرفة على حد ما كانت فى كلام العجم ، ولم تمكن فى كلامهم كما تَمَكَّن الأول»[11] .

---

(١) الكتاب : ١/٨٦ .
(٢) الكتاب : ١/٢٥٧ .
(٣) الكتاب : ١/٢٧٩ .
(٤) الكتاب : ١/٣٠٨ .
(٥) الإخريط : نبات من الحمض .
(٦) الإسليح : نبت يكثر عليه إدرار اللبن ويغزر .
(٧) الإكليل : شيء يعقد للمنتصر أو الفائز كالتاج .
(٨) الإصليت : السيف الصقيل الماضى .
(٩) الإجفيل : الجبان .
(١٠) الإخليج : الناقة المختلجة من أمها ، وراجع الكتاب : ٤/٢٤٦ .
(١١) الكتاب : ٣/٢٣٥ .

٣ – قوله فى (باب اطراد الإبدال فى الفارسية) : «ومثل ذلك تغييرهم الحركة التى فى زَوْر ، وآشوب ، فيقولان : زُور ، وأشوب ، وهو التخليط ، لأن هذا ليس من كلامهم»[١] .

ولم يخل كتاب سيبويه من مسائل فرضية ، وأسئلة افتراضية ، لا تمثل ما كان مستخدما فى اللسان العربى آنذاك : وهذه المسائل والأسئلة تتوزع فى كثير من أبواب الكتاب كما فى :

١ – قوله فى (باب تغيير الأسماء المبهمة إذا صارت علامات خاصة) : «وسألته عن رجل سمى بـ (أولى) من قوله : ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٢] ، أو بـ (ذوى) ؛ فقال : أقول : هذا ذوون ، وهذا أولون ، لأنى لم أضف ، وإنما ذهبت النون فى الإضافة»[٣] .

٢ – قوله فى (باب الإضافة إلى ما فيه الزوائد من بنات الحرفين) : «وأما الإضافة إلى رجل اسمه ذو مال ، فإنك تقول : ذووى ، كأنك أضفت إلى (ذوا) ، وكذلك فعل به حين أفرد وجعل اسما رد إلى أصله ؛ لأن أصله (فَعَل) ، يدلك على ذلك قولهم : ذواتا»[٤] .

تعقيب :

بعد أن تحدثنا عما احتواه كتاب سيبويه من الشواهد النثرية والشعرية ، نجد لزاما علينا أن نتناول بالتوضيح أمرين مهمين يتعلقان بهذه الشواهد ، لكونهما مثار تساؤلات ومناقشات بين الكثير من المحققين والباحثين حتى اليوم ، وهما :

١ – نسبة الشواهد الشعرية .

---

(١) الكتاب : ٤/٣٠٥ .
(٢) سورة النمل : آية ٣٣ .
(٣) الكتاب : ٣/٢٨٠ .
(٤) الكتاب : ٣/٣٦٢ .

٢ – الاستشهاد بالحديث النبوى .

ولتوضيح هذين الأمرين المهمين ، نقول وبالله التوفيق :

أولا : نسبة الشواهد الشعرية :

اشتمل كتاب سيبويه على ألف وخمسين بيتا من الشعر ، وقيل إنه لم يعن – رحمه الله – بنسبة الشعر إلى قائليه فى كثير من الشواهد – سواء ما استشهد به العلماء الذين حكى عنهم ، أم ما استشهد به هو ، مخافة أن يخطئ ، فينسب شاهدا إلى غير قائله ، لأن بعض الشعر قد روى لشاعرين أو أكثر ، وبعضه لا سبيل إلى معرفة قائله لقدم العهد به : فاعتمد على شيوخه فيما استشهدوا به ونسب الإنشاد إليهم ، وعلى نفسه فيما سمعه بأذنه : ولم يتخذ أحد من العلماء إغفاله للنسبة سبيلا للطعن عليه ، على حين أنه أخرج للناس كتابه والعلماء كثير ، والعناية بهذا العلم وتهذيبه وكيدة ، ولعل ذلك لأن العلماء فى ذلك الحين كانوا على علم بها لقرب العهد ، فإن العلماء بعدئذ تطلعوا إلى معرفة هؤلاء الشعراء ، وبحثوا عنهم ، فقد قال الجرمى : «نظرت فى كتاب سيبويه ، فإذا به ألف وخمسون بيتا ، فأما ألف فعرفت أسماء قائليها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائليها»[1] .

فالنسبة المذكورة الآن فى كتاب سيبويه حادثة بعد سيبويه من الجرمى ، وسميت الأبيات الخمسون بين العلماء بأبيات سيبويه الخمسين المجهولة القائل .

والعلماء – على كل حال – يحسنون الظن بسيبويه ، ويثقون بشواهده ما عرفت نسبتها ، وما لم تعرف ، فهم يروون هذه وتلك ، ويحتجون بها جميعا ، قال عبدالقادر البغدادى :

«أبيات سيبويه أصح الشواهد ، اعتمد عليها خلف بعد سلف ، مع أن فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها ، وما عيب بها ناقلوها : وقد خرج كتابه إلى الناس

---

(١) خزانة الأدب : ١/٣٦٩ .

والعلماء كثير ، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة ، ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه ، ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر»[1] .

والعلماء فى ذلك لم يجاملوا سيبويه ، ولم يغلوا فى الثقة به ، فإنه إذا كانت الشواهد ألفا وخمسين ، وإذا كان المجهول النسبة منها خمسين لا غير ، فالعدل يقتضى أن تقبل المجهولة حملا على المعلومة ، وأن تنزل منزلتها فى الاستشهاد ، لأنها بالإضافة إليها جد قليل ، وليس يغض منها أو يدعو إلى الاسترابة فيها أنها مجهولة النسب ، لا يعرف أصحابها سابق ولا لاحق : فقد تكون من أبيات مفردة ، قيلت عرضا فى مناسبات عابرة ، أو من مقطعات وقصائد لم يقدر لها ذيوع الرواية ، ولا طول الحياة ، وقد يكون أصحابها من المغمورين ، أو القائلين الذين لا يعلمهم الناس ، ولا يروى لهم إلا قليل[2] .

والآن بعد أن أخذ الناس ينتبهون إلى الآثار القديمة ، وأصبحوا يقدرونها قدرها ، وبات تقصيها والتعرف إليها ممكنا ، بدأت تتفتح مغاليق هذه الأبيات الخمسين ، وبدأ العلماء والباحثون يضعون أيديهم عليها ، ويتعرفون على مواطنها : فهذا هو العلامة أحمد تيمور باشا ينقل عن شيخه الجليل الشيخ محمد ابن التلاميد الشنقيطى أنه ذكر فى كتابه (الحماسة السنية) أن واحدا من هذه الأبيات عرف اسم قائله وهو : أَفَبَعْدَ كِنْدَةَ تَمْدَحَنَّ قَبِيلاً ؟

قال : «وصدره : قَالَتْ فُطَيْمَةُ حَلِّ شِعْرَكَ مَدْحَهُ . وهو لامرئ القيس ، من قصيدة عدتها ثمانية عشر بيتا نادرة الوجود» أوردها كلها فى كتاب الحماسة المذكورة[3] .

وهذا الشيخ محمد الطنطاوى يتعرف على واحد وثلاثين بيتا ، مستعينا فى ذلك بخزانة الأدب لعبدالقادر البغدادى ، حيث يذكر عند شرحه الشاهد منها أنه

---

(١) خزانة الأدب : ١/٣٧٠ .

(٢) سيبويه إمام النحاة : ١٤٥ .

(٣) خزانة الأدب : ١/٢٩ (طبعة السلفية) .

من أبيات سيبويه الخمسين المجهولة القائل ، وقد ذكرها الشيخ الطنطاوى مرتبة على حسب ورودها فى (الكتاب) فى كتابه (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة)[1] .

ومن يدرى ، لعلنا أن نوفق على الأيام إلى معرفة أنسابها ، أو أنساب بعضها ، لاسيما بعد أن أسست دوائر البحث والتقصى فى ثنايا آثارنا القديمة ، وتراث سلفنا الصالح . فهذا هو الأستاذ عبد السلام هارون محقق الكتاب يقف على نسبة تسعة أبيات منها ، محددا مصادره فى هذه النسب[2] .

وبالرغم من ثقة الناس بسيبويه ، واعتماد العلماء على شواهده ، باعتبارها أصح الشواهد وأصدقها ، لم يعدم سيبويه من يتصدى بالنقد لهذه الشواهد الموثقة ، والطعن عليها . وقد اتخذ هذا النقد مظهرين : تخطئته فى رواية بعض الشواهد ، والادعاء بأن بعض الشواهد مصنوعة .

فبالنسبة للمظهر الأول ، فقد كثر ما طعن العلماء على بعض الأبيات المنسوبة للقائل ، طعنا يقضى بعدم الاستدلال بها ، مما يجعل الاستشهاد بها خطأ وقع فيه سيبويه ؛ ومثال ذلك :

١ - قول عقيبة بن هبيرة الأسدى :

مُعَاوِىَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ ... فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلاَ الْحَدِيدَا

أَدِيرُوهَا بَنِى حَرْبٍ عَلَيْكُمْ ... وَلاَ تَرْمُوا بِهَا الْغَرَضَ الْبَعِيدَا [3]

فقد استشهد سيبويه على جواز الإجراء على الموضع بالبيت الأول ، على أن قوله (الحديدا) معطوف على محل المجرور قبله فى قوله (بالجبال) لأن الباء زائدة .

وقد خطأ ابن قتيبة هذه الرواية ، مدعيا أن الصواب الجر كبقية القصيدة ،

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٨٨ .

(٢) الكتاب (مقدمة التحقيق) : ٥٨ .

(٣) الكتاب : ١/٦٧ .

وأن البيت الثانى لاصلة له بالأول[1] ، وقد تابع ابن قتيبة فى ذلك المبرد[2] . وأبو هلال العسكرى حيث قال : «ومما غلط فيه النحويون من الشعر ، ورووه موافقا لما أرادوه ، ما روى عن سيبويه عندما احتج به فى نسق الاسم المنصوب على المخفوض : وقد غلط على الشاعر ، لأن هذه القصيدة مشهورة ، وهى مخفوضة كلها»[3] .

ولكن العلماء المنتصرين لسيبويه ، وفى مقدمتهم ابن الأنبارى [4] ، والزمخشرى حيث قال : «إن هذا البيت روى مع أبيات منصوبة ، ومع أبيات مجرورة»[5] . وعليه فإن استشهاد سيبويه منوط بالرواية الأولى ، فصح الاعتماد عليه ، ومن ثم استشهد به الرضى فى شرحه على كافية ابن الحاجب .

٢ - قول نهشل بن حرى :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ [6]

فقد استشهد به سيبويه فى (باب ما يحذف منه الفعل لكثرته فى كلامهم حتى صار بمنزلة المثل) على أن رافع (ضارع) محذوف للعلم به من سابقه (ليبك) ، كأنه قال : يبكيه ضارع .

وقد خطأ الأصمعى هذه الرواية مدعيا أن الصواب نصب (يزيد) بالفعل قبله ، وأنه مبنى للمعلوم ، و (ضارع) فاعل له ، لانائب فاعل لفعل محذوف . وقد نقل هذا التصحيح عن الأصمعى ابن قتيبة بقوله : «وكان الأصمعى ينكر هذا ،

---

(١) الشعر والشعراء : ٢٣ .

(٢) راجعت كتاب (المقتضب) فى المواضع الأربعة التى استشهد فيها المبرد بهذا البيت ، فلم أعثر على تخطئة لسيبويه فى روايته ، فربما ورد ذلك فى كتابه (الكامل فى اللغة والأدب) . وهذا يحتاج إلى معاودة بحث وتقص إن شاء الله .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : ٢٠٧ .

(٤) الإنصاف : ٢٠٧ .

(٥) خزانة الأدب : ٢/٢٦٢ .

(٦) الكتاب : ١/٢٨٨ .

ويقول : ما اضطره إليه ؟! وإنما الرواية : لِيَبْكِ يزيدَ ضارعٌ»[1] . كما نقله عنه أبو هلال العسكرى[2] .

إلا أن ابن جنى ينتصر لسيبويه فيرى صحة روايته بقوله : «أول البيت مبنى على اطراح ذكر الفاعل ، فإن آخره عوود فيه الحديث عن الفاعل ، لأن تقديره فيما بعد : ليبكه مختبط مما تطيح الطوائح ، فدل قوله (ليُبْك) على ما أراد من قوله (ليَبْك)»[3] .

كما أجاز العلماء هذه الرواية ، فاقتفى أثر سيبويه فى الاستدلال بها فى (باب الفاعل) كل من الزمخشرى[4] ، وابن الحاجب[5] ، وابن هشام[6] ، والأشمونى[7] .

٣ - قول الأخطل :

كُرُّوا إلَى حَرَّتَيْكُمْ تَعْمُرُونَهُمَا كَمَا تَكِرُّ إلَى أوْطَانِهَا البَقَرُ[8]

فقد استشهد به سيبويه فى (باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جوابا لأمر أو نهى أو استفهام أو تمن أو عرض) على جواز رفع المضارع بعد الطلب لعدم قصد الجزائية ، حيث يقول - بعد أن ذكر البيت - : فعلى قوله : كروا عامرين ؛ وإن شئت رفعت على الابتداء . وتقول : مُرْه يحفرْها ، و قلْ له يقلْ ذلك ... ولو قلت : مرْه يحفرها على الابتداء كان جيدا»[9] .

وقد تابع سيبويه فى الاستشهاد بالبيت الزمخشرى[10] ، والأشمونى[11] . وقد جاءت تخطئة رواية سيبويه هذه المرة من قبل باحث محدث هو الشيخ محمد الطنطاوى ، حيث صرح بأن صحة الرواية على الحكاية للغائبين وليست على

---

(١) الشعر والشعراء : ٣٣ .
(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : ٢٠٨ .
(٣) الخصائص : ٢/٣٥٣ .
(٤) شرح المفصل لابن يعيش : ١/٨٠ .
(٥) شرح الكافية للرضى : ١/٧٦ .
(٦) أوضح المسالك : ٢/٩٣ .
(٧) شرح الأشمونى بحاشية الصبان : ٢/٤٩ .
(٨) الكتاب : ٣/٩٩ .
(٩) الكتاب : ٣/٩٩ .
(١٠) شرح المفصل : ٧/٥٠ .
(١١) شرح الأشمونى بحاشية الصبان : ٣/٣٠٩ .

الأمر للمخاطبين ، حيث يقول : «والحقيقة أن الفعل ماض ، وأن صواب الشطر الأول كرُّوا إلى حرتيهم يعمرونهما ، على الحكاية للغائبين ، فالبيت من قصيدة فى متناول أيدى الجميع» . ثم يعتذر عن سيبويه : «يبدو لى أن هذا التحريف غير مقصود إليه ، وإنما سرى لسيبويه من الراوى المحرِّف ؛ وأكاد أعتقد أن هذا البيت فى تحريفه لا مثيل له فى (الكتاب) ؛ والعجب العاجب عدم الالتفات لما فيه من الأعلام السابقين»[1] .

أقول : العجب الحقيقى من الشيخ الطنطاوى ، إذ تراه فى الشاهد الأول يطمئن إلى قول المنتصرين لسيبويه بأن الشاهد يروى بروايتين ، وأن استشهاد سيبويه منوط بالرواية الأولى ، فصح الاعتماد عليه ، ومن ثم استشهد به العلماء من بعده ، فى حين نجده يقف من بيت الأخطل هذا عند رواية فريدة حفظها واستظهرها ، كما حفظناها واستظهرناها جميعا منذ سنى الطلب فى المرحلة الثانوية ، شأنها شأن جميع ما كنا ندرسه من محفوظات مختارة ، ثم يتبين لنا فيما بعد كلما تعمقنا فى البحث والدرس أن معظم ما درسناه آنفا إنما كان إحدى الروايات لهذه النصوص ، وأن لها روايات أخر ؛ فما بال شيخنا الطنطاوى يقف على رواية حكاية الغائبين ويلتزمها ، وينكر سواها كرواية حكاية المخاطبين ، ويقطع بتخطئة سيبويه فى هذه الرواية ، ضاربا باعتماد أئمة النحو واللغة لها ، والاستشهاد بها عرض الحائط ، وعلى رأسهم الزمخشرى والأشمونى .

وثمة طعن آخر يوجه إلى شواهد سيبويه ، وهو القول بأن كتابه اشتمل على بعض الشواهد المصنوعة خصيصا لتأييد بعض القواعد ، منها :

حَــذِرٌ أُمُــورًا لاَ تَــضِــيــرُ وَآمِــنٌ   مَـا لَـيْـسَ مُـنْـجِـيَـهُ مِـنَ الأَقْدَارِ[2]

حيث استشهد به سيبويه على إعمال (فَعِل) من أبنية المبالغة ، حيث يقول :

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٩٥ .

(٢) الكتاب : ١/١٣

«وقد جاء فى (فَعِل) وليس فى كثرة ذلك ... و (فَعِل) أقل من (فعيل) بكثير ... ومما جاء على (فَعِل) قوله :

حَـذِرٌ أُمُـورًا لاَ تُـخَـافُ وَآمِـنٌ ... مَـا لَـيْـسَ مُـنْـجِـيـهِ مِـنَ الأَقْـدَارِ»

فقد روى المازنى قال : «أخبرنى أبو يحيى اللاحقى[1] قال : سألنى سيبويه عن (فَعِل) يتعدى ، فوضعت له هذا البيت»[2] .

وقد تصدى للدفاع عن سيبويه ضد هذا الطعن الموجه إليه كثير من العلماء كالأعلم الشنتمرى ، وهارون بن موسى ، وابن يعيش ، وغيرهم : حيث قال الأعلم : «... وإن كان هذا صحيحا ، فلا يضر ذلك سيبويه ، لأن القياس يعضده ، وقد ألفيت فى بعض ما رأيت لزيد الخيل بن مهلهل الطائى بيتا فى تعدّى (فَعِل) وهو قوله :

أَتَـانِـى أَنَّـهُـمْ مَـزِقُـونَ عِـرْضِـى ... جِـحَـاشُ الـكَـرْمِـلِـيـنَ لَـهَـا فَـدِيـدُ

فقال : مزقون عرضى – كما ترى – وأجراه مجرى ممزقين ، وهذا لا يحتمل غير هذا التأويل ، فقد ثبت صحة القياس بهذا الشاهد القاطع»[3] .

وقال : أبو نصر هارون بن موسى : « وهذا ضعيف فى التأويل ، وكيف يصح أن ينسب اللاحقى إلى نفسه ما يضع منه ولا يحل ، أو كيف يجوز هذا على سيبويه ، وهو المشهور فى دينه وعلمه وعقله ، وأخذه عن الثقات الذين لا اختلاف فى علمهم وصحة نقلهم : وإنما أراد اللاحقى بقوله : (فوضعت له هذا البيت) : فرويته»[4] .

---

(١) هو أبان بن عبدالحميد بن لاحق بن عُفَير مولى رقاش ، من شعراء هارون الرشيد ، وهو شاعر مطبوع بصرى ، نظم للبرامكة (كليلة ودمنة) ليسهل عليهم حفظه ، وكان مطعونا فى دينه . (الأغانى : ٢٠/٧٣، والخزانة : ٨/١٧٣) .

(٢) خزانة الأدب : ٨/١٧١ .

(٣) تحصيل عبد الذهب للأعلم الشنتمرى – بهامش (الكتاب) طبعة بولاق : ١/٥٨ .

(٤) خزانة الأدب : ٨/١٧١ .

وقال ابن يعيش : «فأما قولهم عن البيت * حذر أمورا إلخ * فإن سيبويه رواه عن بعض العرب ، وهو ثقة لا سبيل إلى رد ما رواه»[1] .

وقال عبدالقادر البغدادى : «إن طعن على سيبويه بهذا البيت ، فقد استشهد ببيت آخر لا مطعن عليه فيه ، وهو قول لبيد الصحابى :

أَوْ مِسْحَلٌ شَنِجٌ عَضَادَةَ سَمْحَجٍ   بِسَرَاتِهِ نَدَبٌ لَهَا وَكُلُومُ[2]»

وقد تبع سيبويه فى الاستشهاد بالبيت : ابن يعيش[3] ، والرضى الاسترابادى[4] .

وإذا كانت لنا كلمة فى هذا الصدد ، فإننا نقول : إن قصة اللاحقى هذه ظاهرة الاختلاق ، بينة الافتراء على سيبويه ، وإن الداعى إليها أحد أمرين :

١ – إما أن اللاحقى أراد بها الفخر والاستعلاء ، أن كان ممن يسألهم سيبويه ، ويروى عنهم .

٢ – أنه أراد بهذه القصة أن يطعن على سيبويه ، وأن ينال من ثقة العلماء به ، واعتمادهم على ما يسوقه من الشواهد الموثقة .

وكلا الأمرين مردود عليه بما عرف عن سيبويه من الدقة فى اختيار شواهده التى لم يؤثر أن أحدا من العلماء قد شكك فيها ، أو ارتاب فى الاعتماد عليها ؛ ثم إن سيبويه يعرف الموضوع الذى يتكلم فيه حق المعرفة ، فيعرف مبلغ (فَعِل) من الإعمال ، ويعرف مكانه من أخواته ، ثم يستشهد له ببيت مروى منسوب ، حيث يقول : «وقد جاء فى (فَعِل) وليس فى كثرة ذلك ، قال :

أَوْ مِسْحَلٌ شَنِجٌ عَضَادَةَ سَمْحَجٍ   بِسَرَاتِهِ نَدَبٌ لَهَا وَكُلُومُ

و (فَعِل) أقل من (فعيل) بكثير»[5] .

(١) شرح المفصل : ٦/٧٣ .
(٢) ديوان لبيد : ١٢٥ ، والكتاب : ١/١١٢ ، وخزانة الأدب : ٨/١٩٦ .
(٣) شرح المفصل : ٦/٧١ .
(٤) شرح الكافية .
(٥) الكتاب : ١/١١٢ .

ثم يأتى الأعلم الشنتمرى فيعزره بشاهد آخر منسوب لزيد الخيل حيث يقول :

أَتَانِى أَنَّهُمْ مَزِقُونَ عِرْضِى ... جِحَاشُ الْكَرْمِلِينَ لَهُمْ فَدِيدُ

فما حاجة سيبويه إذن إلى التماس المزيد على ذلك من الشواهد ، حتى يسأل اللاحقى أن يمده بشاهد يؤيد قوله ، ويدلل على صحة ما ذهب إليه ؟! .

وعلى فرض صحة هذه القصة ، فما بال سيبويه لم يشر إلى اللاحقى تصريحا أو تلميحا ، كدأبه فى مثل هذه المواطن من قوله مثلا : قال الخليل ، وزعم يونس ، وروى أبو عمر ، وسمعت فلانا ... إلخ ، ثم كيف رضى اللاحقى من سيبويه تجاهله ، وعدم الإشارة إليه أو التصريح باسمه ، على فرض أنه أراد من ذلك الفخر و الاستعلاء ؟! .

ثم إن خطة سيبويه فى (الكتاب) تحمل على الثقة به ، والاطمئنان إليه ، فإنه ليتحرى الدقة فى العرض ، ويعنى بتمييز الصريح من المشوب ، والتنبيه على ما يصادف من المنحول ؛ استمع إليه يروى عن يونس ، وينقد ما روى عنه : «وزعم يونس أن قوما من العرب يقولون : أما العبيد فذو عبيد ... ويجرونه مجرى المصدر سواء . وهو قليل خبيث ، وذلك أنهم شبهوا الجماء الغفير ، بالمصدر ، وكأن هؤلاء أجازوا : هو الرجل العبيد والدراهم ، أى للعبيد وللدراهم : فهذا لا يتكلم به»[1] .

واستمع إليه أيضا وهو ينص على المصنوع من الشواهد ، حتى يضع الحقيقة كاملة أمام من يقرأ كتابه ، ويبرئ نفسه من احتمال الظنة به وبشواهده :

«وقال رجل من بنى مازن :

عَلَىَّ دِمَاءُ الْبُدْنِ إنْ لَمْ تُفَارِقِى ... أَبَا حِرْدَبٍ لَيْلاً وَأَصْحَابَ حِرْدَبِ

قال : وهو مصنوع على طَرَفَةَ ، وهو لبعض العباديين»[2] .

---

(١) الكتاب : ٣٨٩/١ .

(٢) الكتاب : ٢٥٥/٢ .

أبعد هذه الدقة والتحرى فى توثيق الشواهد ، يمكن اعتماد قصة اللاحقى وتصديقها ، وهو المتهم فى دينه ؟!! والذى يقول فيه أبو عبيدة : «لقد أغفل السلطان كل شيء ، حتى أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحقى ، هو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة ، وليس فيها مصحف ، وأوضح الأدلة على تهودهم أن أكثرهم يدّعى حفظ التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلّى به»[1] .

٢ - هُمُ الفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالآمِرُونَهُ إِذَا مَا خَشُوا يَوْمًا مِنَ الأَمْرِ مُعْظَمَا

٣ - وَلَمْ يَرْتَفِقْ وَالنَّاسُ مُحْتَضِرُونَهُ جَمِيعًا وَأَيْدِى الْمُعْتَفِينَ رَوَاهِقُه

حيث أوردهما سيبويه فى (باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذى فعل فى المعنى ، وما يعمل فيه) إذ يقول :

«واعلم أن حذف النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ، لأنه لا يتكلم به مفردا حتى يكون متصلا بفعل قبله أو باسم فيه ضمير ، فصار كأنه النون والتنوين فى الاسم ، لأنهما لا يكونان إلا زوائد ، ولا يكونان إلا فى أواخر الحروف : والمظهر وإن كان يعاقب النون والتنوين ، فإنه ليس كعلامة المضمر المتصل ، لأنه اسم ينفصل ويبتدأ ، وليس كعلامة الإضمار ، لأنها فى اللفظ كالنون والتنوين ، فهى أقرب إليها من المظهر ، اجتمع فيها هذا والمعاقبة . وقد جاء فى الشعر ، وزعموا أنه مصنوع : ...»[2] . وذكر البيتين .

وقد أخذ المبرد على سيبويه رواية هذين البيتين بقوله :

«وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين المتقنين يجيز مثل هذا فى الضرورة لما ذكرت لك من انفصال الكناية ، والبيتان اللذان رواهما سيبويه : ...»[3] . وذكر البيتين .

(١) خزانة الأدب : ١٧٤/٨ .
(٢) الكتاب : ١٨٨/١ .
(٣) خزانة الأدب : ٢٦٦/٤ ، والكامل - مع رغبة الآمل - : ٤٢/٤ .

يريد أنه لا يجوز إثبات نون الجمع مع اتصال الضمير ، لأن الضمير فى الإضافة يعاقب النون والتنوين ، إذ حكم الضمير أن يعاقب النون والتنوين ، لأنه بمنزلتهما فى الضعف والاتصال ، فهو معاقب لهما إذ كان المظهر مع قوته وانفصاله يعاقبهما ، فالمضمر أولى بالمعاقبة .

وقد انتصر لسيبويه أبو جعفر النحاس حيث قال :

«هذا خطأ عند المبرد ، لأن المجرور لا يقوم بنفسه ولا ينطق به وحده ، فإذا أُتى بالتنوين فقد فصل ما لا ينفصل ، وجمع بين زائدتين . وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط لأنه قال نصا : وزعموا أنه مصنوع ؛ فهو عنده مصنوع لا يجوز ، فكيف يلزمه منه غلط ؟!»[1] .

وقال عبد القادر البغدادى :

«ولا يبعد أن يكون من باب الحذف والإيصال : والأصل (والآخرون به) ، فحذفت الباء ، واتصل الضمير به ، فإن (أمر) يتعدى إلى المأمور به بالباء ، يقال : أمرته بكذا ؛ والمأمور هنا محذوف ، أى الآمرون الناس بالخير ، فيكون الضمير منصوبا لا مجرورا . يقول : هؤلاء يفعلون الخير ويأمرون به ، فى وقت خشيتهم الأمر العظيم من حوادث الدهر ، فلا يمنعهم خوف الضرر عن الأمر بالمعروف»[2].

فكيف يبيح المبرد لنفسه – بعد ذلك – أن يخطئ سيبويه ، وهو الذى أكد على أن القاعدة تلزم بعدم الجمع بين النون أو التنوين والضمير ، ثم ذكر أنه ورد فى الشعر الجمع بينهما ، مع النص على أن ذلك الشعر مصنوع ، بمعنى أن ذلك مناف للقاعدة : كما نقل عنه ذلك ابن يعيش[3] ، والرضى الاستراباذى[4] ، فى معرض الشذوذ والخروج على القاعدة ؛ وقد استعرض عبدالقادر البغدادى

---

(١) خزانة الأدب : ٤/ ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شرح المفصل : ٢/ ١٢٥ .

(٤) شرح الكافية : ١/ ٢٨٣ .

اعتراض المبرد على البيتين وما قيل فى دفع الاعتراض عليهما[1] .

٤- إذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ ... فَذَاكَ أَمَانَةَ اللَّهِ الثَّرِيدُ

فقد استشهد به سيبويه مرتين . الأولى : على رفع ما بعد (إذا) ، حيث يقول :

«وسألته – أى الخليل – عن (إذا) ، ما منعهم أن تجَازوا بها ؟ فقال : الفعل فى (إذا) بمنزلته فى (إذ) إذا قلت : أتذكر إذ تقول ؛ فـ (إذا) فيما نستقبل بمنزلة (إذ) فيما مضى ... وقال ذو الرُّمَّة :

تَصْغَى إذَا شَدُّها بِالرَّحْلِ جَانِحَةً ... حَتَّى إذَا مَا اسْتَوى فِي غَرْزِهَا تَثِبُ

وقال الآخر ، ويقال وضعه النحويون :

إذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ ... فَذَاكَ أَمَانَةَ اللَّهِ الثَّرِيدُ

وقد جازوا بها فى الشعر مضطرين ، شبهوها بـ (إنْ) ، حيث رأوها لما يستقبل ، وأنها لابد لها من جواب»[2] . والثانية : على نصب (أمانة) على نزع الخافض ، وهو من حروف القسم ، حيث يقول :

«واعلم أنك إذا حذفت من المحلوف به حرف الجر نصبته ، كما تنصب (حقا) إذا قلت : إنك ذاهب حقا ... وذلك قولك : اللهَ لأفعلن ، وقال ذو الرمة :

أَلاَ رُبَّ مَنْ قَلْبِي لَهُ اللَّهَ نَاصِحُ ... ومَنْ قَلْبُهُ لِي فِي الظِّبَاءِ السَّوَانِحُ

وقال الآخر :

إذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ ... فَذَاكَ أَمَانَةَ اللَّهِ الثَّرِيدُ

فأما (تالله) فلا تحذف منه التاء إذا أردت معنى التعجب ، و (للهِ) مثلها إذا تعجبت ليس إلا»[3] .

---

(١) خزانة الأدب : ٤/٢٦٦ – ٢٧١ .
(٢) الكتاب : ٣/٦٠ .
(٣) الكتاب : ٣/٤٩٨ .

ولكن المتتبعين لشواهد سيبويه بالنقد يذهبون إلى أن البيت مصنوع ، وربما كان عندهم من الوسائل ما يؤكد لهم ذلك .

ولكن واجب الإنصاف لسيبويه يقتضينا القول بأنه لم يشأ أن يضلل قارئى كتابه ، فيستشهد لهم ببيت مصنوع دون بينة على ذلك ، ولذلك رأى أن الأمانة العلمية تقتضى أن يقول – قبل أن يلقى بالبيت أمام القارئ : «ويقال وضعه النحويون»[1] ، أى أن سيبويه قد اعترف بأن البيت من وضع النحويين قبل أن يصرح النقدة بوضعه ، فلا وجه إذن لهذا النقد . فضلا على أن الزمخشرى قد تابع سيبويه فى الاستشهاد به ، وتابعه على ذلك ابن يعيش[2] .

وثمة نقد آخر وجه إلى سيبويه فى شواهده ، إذ مما لا ريب فيه بين العلماء قاطبة أن سيبويه لم يحتج فى كتابه إلا بأشعار من يستشهد بشعرهم من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين : فلم يتجاوزهم إلى المحدثين . ولقد كان ذلك ديدنه فى تعليمه ودراسته وحجاجه . ولكن بعض النقدة اتهم سيبويه بأنه استشهد فى كتابه بشطر بيت لبشار بن برد ، وهو رأس المحدثين الذين أجمع العلماء على عدم جواز الاحتجاج بشعرهم ، وهو قوله :

وَمَا كُلُّ ذِى لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ   وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ

فقد استشهد به سيبويه فى (هذا باب الإدغام فى الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه) : «وتقول : هذا ثوب بكر ، البيان فى هذا أحسن منه فى الألف ، لأن حركة ما قبله ليس منه ، فيكون بمنزلة الألف ... ولا يجوز فى القوافى المحذوفة ، وذلك أن كل شعر حذفت من أتم بنائه حرفا متحركا ، أو زنة حرف متحرك ، فلابد فيه من حرف لين للردف ، نحو :

* وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ *

---

(١) الكتاب : ٦١/٣ .

(٢) شرح المفصل : ٩٢/٩، ١٠٢ ، ١٠٤ .

فالياء بين الباءين ردف»[1].

وقد رويت قصة احتجاج سيبويه ببيت بشار هذا بروايات مختلفة نذكر منها :

روى عبدالقادر البغدادى عن المرزبانى قوله : «وأول الشعراء المحدثين بشار بن برد ، وقد احتج سيبويه ببعض شعره تقربا إليه ، لأنه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره»[2].

وجاء فى (رسالة الغفران) لأبى العلاء المعرى : «وذكر من نقل أخبار بشار أنه توعد سيبويه بالهجاء ، وأنه تلافاه واستشهد بشعره»[3].

وقالت الدكتورة عائشة عبدالرحمن محققة (رسالة الغفران) : «قيل إن بشارا هجا بالفعل سيبويه ، عندما عاب عليه هذه الأخرى – تقصد : الوجلى ، والغزلى ، ونينان ، وهو جمع (نون) من السمك – فتوقاه سيبويه ، واحتج بشعره»[4].

ويروى الشيخ محمد الطنطاوى : «نعم روى أن سيبويه عاب على بشار – صدر المحدثين – كلمات له فى أبيات ، وبلغ عيبه لها بشارا ، فقال يهجوه :

أَسِيْبَوَيْهِ يَا ابْنَ الفَارِسِيَّةِ مَا الَّذِى ... تَحَدَّثْتَ عَنْ شَتْمِي وَمَا كُنْتَ تَنْبِذُ
أَظَلْتَ تُغَنِّى سَادِرًا فِى مَسَاءَتِى ... وَأُمُّكَ بِالْمِصْرَيْنِ تُعْطِي وَتَأْخُذُ

فتوقى شره بعدئذ ، وكان إذا سئل عن شىء ، فأجاب عنه ووجد له من شعر بشار شاهدا احتج به استنكافا لشره»[5].

وفى معرض الانتصاف لسيبويه ، نرى لزاما علينا أن نقدم ذلك فى صورة إجابة على سؤالين :

---

(١) الكتاب : ٤/٤٤٠ .

(٢) خزانة الأدب : ١/٨ .

(٣) رسالة الغفران : ٤٣١ .

(٤) المصدر السابق ، سيبويه حياته وكتابه للدكتور أحمد بدوى : ٤١ .

(٥) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٠٠ .

(أ) هل استشهد سيبويه فعلا بشعر بشار ؟

(ب) هل استشهاده بشعر بشار - إن صح ذلك - كان تقية له ، واستنكافا لشره ؟

وللإجابة على السؤال الأول نقول إن سيبويه لم يؤثر عنه أن استشهد بشعر محدث ، وإنما كانت كل شواهده لجاهليين ومخضرمين وإسلاميين ، وقد قدم أبو العلاء المعرى الإجابة الصحيحة بقوله : «ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم»[1] .

ثم إن هذا البيت لم ينسب إلى بشار وحده ، وإنما نسب إلى أبى الأسود الدؤلى ، وهو فى ديوانه من قصيدة مطلعها :

أَمِنْتَ امْرَأً فِى السِّرِّ لَمْ يَكُ حَازِمًا وَلَكِنَّهُ فِى النُّصْحِ غَيْرُ مُرِيبِ[2]

كما يروى لمودود العنبرى ، وبعده :

وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ[3]

فماذا يمنع من أن نحسن الظن بسيبويه ، ونرى أنه استشهد بهذا البيت لكونه لأبى الأسود الدؤلى ، أو لمودود العنبرى ، وهما من الشعراء الذين أجمع العلماء على صحة الاستشهاد بشعرهم ، ولا سيما أنه ثبت وروده فى ديوان كل منهما ؛ وعليه يكون سيبويه بريئا من تهمة الاستشهاد بشعر بشار هذا .

وللإجابة على السؤال الثانى نقول : علمنا من بعض الروايات أن بشاراً قد أنكر على سيبويه ألا يستشهد بشعره على قواعد النحو ، وتوعده بالهجاء إن هو لم يفعل .

وكل ما عثرنا عليه فى كتاب سيبويه هو استشهاده فى (باب الإدغام) بصدر البيت القائل :

---

(١) رسالة الغفران : ٤٣١ .

(٢) ديوان أبى الأسود : ٩٩ ، والحيوان : ٦٠١/١ ، والأغانى : ١٠٥/١١ ، والعمدة : ٥/٢ ، وشرح شواهد المغنى : ١٨٤ .

(٣) كتاب سيبويه : هامش ٤٤١/٤ .

* وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيب *

ودون نسبة إلى قائل بعينه ، شأنه فى ذلك شأن كل شواهد سيبويه فى كتابه : فهل يظن عاقل أن بشاراً كان يمكن أن يرضى بذلك من سيبويه ، ويجد فيه مقنعا ، فتهدأ ثورته ، ويرجع عن هجاء سيبويه الذى توعده به ، وهو الذى كان يأمل ، وتطمح نفسه إلى أن يرفعه سيبويه إلى مرتبة الشعراء الذين يحتج بشعرهم ، بعد أن عده العلماء رأس المولدين الذين لا يرقى شعرهم إلى مرتبة الاحتجاج به ، إذ كان يرى أن ذلك لا يتحقق له إلا إذا استشهد سيبويه بشعره ، وذكر اسمه صراحة فى الاستشهاد .

ثم ما جدوى إغفال سيبويه لاسم بشار حيث استشهد بشطر بيته هذا ، إن كان يعلم حقيقة أنه من شعر بشار ، وقد قبل الاحتجاج به ، إذ الرواة والعلماء جميعا سوف يقفون على أنه من شعر بشار ، سواء صرح سيبويه باسمه أو أغفله ، فلن يجديه ذلك نفعا أمام وعيد بشار له ، ولا سيما أن الهجاء كان هينا على بشار ، بل كان مولعا به ، وفيه جريئا ، حتى ما يكاد يرقب فيه إلاًّ ولا ذمة ، فهل كان بشار يقنع أو يرضى بهذا العمل من سيبويه ، وينثنى عن هجائه دون أن يجنى شيئا من وراء ذلك ، على فرض صحة هذه القصة ؟!

وعليه فالقصة من أساسها مفتراة على الرجلين ، ملفقة بينهما ، ولا يمكن حوكها إلا ممن فى قلبه مرض ، ويضمر الحقد والحسد لرجل خرج على الناس لأول مرة بكتاب يجمع بين دفتيه كل شاردة وواردة فى علم جديد مبتكر يحفظ على الناس سليقتهم ، ويرسخ ملكتهم التى جبلوا عليها ، ليكونوا أهلا لحمل كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أسلوب الكتاب :

لكل إنسان فى التعبير عما يعتمل فى نفسه من معان نمط مفضل ، يعتمده ويود لو استقام له أبدا على ما يريد ، فهذا واضح جلى لاحجاب دونه ، وذلك غامض مغلق أسدلت دونه الأستار والحجب ، والثالث مقل يكتفى بالإيجاز ،

والرابع مكثر يؤثر الإطناب والتفصيل ، والخامس ذواق أنيق يستطيب الزخرف والتصنيع ، والسادس فطرى ساذج يؤلف العبارة على ما خيلت ، وكما وقفت له ، وهلم جرا .

وسيبويه فى أسلوب الكتاب . يؤثر الانصباب والاسترسال ، كلماته متلاحمة مستوية ، لا قلق فيها ولا نتوء ، وفقراته متواصلة ، يجذب بعضها بعضا ، وتأخذ فيها الهوادى بالتوالى : فإذا هى تمر بين يديك فى أكثر الأمر تباعا متداركة ، لا تكاد تنقطع أو تنفصم ، حتى تتم مسائل الباب كله ، أو مرحلة من مراحله .

وإنه فى سبيل الحفاظ على هذه الخصيصة – ليصل الموضوع بالحديث عنه فى كثير من الأحوال ، فما تجد بينهما انفصالا ، وما تكاد تقرأ العنوان ، حتى يسلمك – من حيث لا تشعر – إلى الباب ، فتنطلق فيه ماضيا مسترسلا . لا تجد موضعا لوقف أو راحة حتى تبلغ آخر الباب أو آخر مرحلة فيه ؛ فتسمعه غالبا يقول لك : «واعلم أن الأمر كذا وكذا» يؤذنك أنه آخذ بك إلى مرحلة أخرى من مراحل الحديث ، فإذا أنت انقدت له ، ومضيت معه ، فهيهات أن تدعه أو تمتنع عن متابعته دون الغاية ، إلا أن ترد نفسك ردا ، وتأخذها منه انتزاعا[١] .

ويتفاوت أسلوب الكتاب وضوحا وغموضا ، فربما وضح حتى صار كفلق الصبح سفورا وإشراقا ، تستبق إلى الفهم ألفاظه ومعانيه ، وربما غمضت واستغلقت حتى تكون كالأحاجى والطلسمات ، يحار فيها الفهم ، ويرتد عنها القارئ عجزا وكلالا ، وبين هذين الحدين مراتب من الوضوح والغموض لا تكاد تحصى كثرة[٢] .

وإليك مثالا للنوع الأول من أساليب سيبويه فى الكتاب ، و هو النوع الذى

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ١٥٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٥٥ .

يشع وضوحا وإشراقا ، حيث يقول فى باب عنون له بقوله : (هذا باب ذكر معنى لبيك وسعديك وما اشتق منه) حيث يقول :

«حدثنا أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لا يفارقه ولا يقلع عنه : قد ألب فلان على كذا وكذا ، ويقال : قد أسعد فلان فلانا على أمره وساعده . والإلباب والمساعدة دنو ومتابعة ، إذا ألب على الشيء فهو لا يفارقه وإذا أسعده فقد تابعه ؛ فكأنه إذا قال الرجل للرجل : يا فلان ، فقال : لبيك وسعديك ، فقد قال : قربا منك ومتابعة لك : فهذا تمثيل وإن كان لا يستعمل فى الكلام ؛ كما كان براءة الله تمثيلا لسبحان الله ، ولم يستعمل .

وكذلك إذا قال : لبيك وسعديك يعنى بذلك الله عز وجل ، كأنه يقول : أى رب ، لا أنأى عنك فى شيء تأمرنى به ، فإذا فعل ذلك فقد تقرب إلى الله بهواه»[1] .

أما عن النوع الثانى من أسلوب الكتاب ، وهو النوع الذى يتسم بالغموض والإبهام ، فمعلوم أن القدماء كانوا يستهولون دراسة الكتاب لما فيه من هذا النوع ، فنرى المبرد يقول لمن أراد أن يقرأه عليه : «هل ركبت البحر ؟!» تعظيما له ، واستصعابا لما فيه[2] .

كما نرى ابن كيسان يقول عنه : «نظرنا فى كتاب سيبويه ، فوجدناه فى الموضع الذى يستحقه ، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح ، لأنه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ ، فاختصر على مذاهبهم»[3] .

ولعل من قبيل ما ورد من غموض فى أسلوب سيبويه فى الكتاب ما رواه المازنى بقوله . «سألت الأخفش عن حرف رواه سيبويه عن الخليل فى (باب من الابتداء يضمر فيه ما بنى على الابتداء) وهو قوله : «ما أغفله عنك شيئا ، أى دع

---

(١) الكتاب : ١/٢٥٣ .
(٢) نزهة الألباء : ٧٥ .
(٣) خزانة الأدب : ١/٣٧١ .

الشك» ، ما معناه ؟ قال الأخفش : أنا منذ ولدت أسأل عن هذا . وقال المازنى : سألت الأصمعى وأبا زيد وأبا مالك عنه ، فقالوا : ما ندرى ما هو»[1] .

فقال السيرافى : «لم يفسر هذا الحرف فيما مضى إلى أن مات المبرد ، وفسره أبو إسحق الزجاج بعد ذلك فقال : معناه على كلام تقدم ، كأن قائلا قال : ليس زيد بغافل ، فقال المجيب : بلى ما أغفله عنك ، انظر شيئا ، أى تفقد أمرك : فاحتج به على الحذف ، يريد حذف (انظره) الناصب (شيئا)»[2] .

ويتفق أستاذنا على النجدى ناصف مع ابن كيسان فيما ذهب إليه حيث يقول :

«والواقع أن مفردات الكتاب لا غموض فيها ولا غرابة ، وإنما الغموض فى تأليفها ، وصياغة العبارة فيها ، وفى الإشارة العابرة يشيرها إلى مسائل كانت لعهده متعالمة مشهورة ، ولم يكن بالناس يومئذ حاجة إلى تجليتها وتفصيل القول فيها ، فوكلهم إلى علمهم بها ، وغنى عن ذكرها بالإشارة إليها . مثال ذلك قوله فى (باب لا تكون هو وأخواتها فيه فصلا) :

«وأما أهل المدينة فينزلون هو هاهنا بمنزلته بين المعرفتين ، ويجعلونها فصلا فى هذا الموضع ، وزعم يونس أن أبا عمرو رآه لحنا ، وقال : احتبى ابن مروان فى هذه فى اللحن» . فهو هنا يشير إلى آية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ، وقراءة ابن مروان (أَطْهَرَ) بالنصب ، وهى – كما ترى – إشارة مبهمة ، لا تكفى فى بيان المراد ، وإفهام معنى الكلام ، إلا العارف بهذه القراءة وصاحبها من القراء»[3] .

كما يتفق معهما أستاذنا عبدالسلام هارون فى ذلك حيث يقول : «كما أن لسيبويه عباراته الخاصة التى تحتاج إلى الإلف والممارسة ، فمن ذلك ما جاء

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٦٥ .

(٢) الكتاب : ٢/١٢٩ (الحاشية) .

(٣) الكتاب : ٢/٣١٦ وحاشيتها . وانظر : سيبويه إمام النحاة : ١٥٦ .

فى حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى عند الكلام على (معائش) ، وتخطئة النحويين لها ، قال : وأما قول سيبويه رحمه الله إنها غلط ، فإنه عنى أنها خارجة عن القياس . وهو كثيرا ما يستعمل الغلط فى كتابه بهذا المعنى»[1] .

وقد أشار فضيلته إلى نظائر هذا فى مواضع كثيرة من شرحه لكتاب سيبويه[2] . ثم يقول : كما أن عنواناته لأبواب النحو ومسائله تحتاج إلى كثير من التفهم والنظر ، ولكن هذا ليس بمستعص على الإلف والممارسة أيضا ، ثم يضرب أمثلة لبعض العنوانات الغامضة التى لا يدرك المقصود منها للوهلة الأولى ومنها قوله :

(هذا باب الفاعلَيْن والمفعولَيْن اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذى يفعل به)[3] . ومعناه . هذا باب التنازع .

وقوله أيضا : (هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنيا على الفعل قُدِّم أو أُخِّر وما يكون الفعل فيه مبنيا على الاسم)[4] . ومعناه : هذا باب الاشتغال .

وقوله كذلك : (باب ما ينصب من المصادر لأنه حال صار فيه المذكور)[5] ، حيث قال عنه السيرافى : «هذا الباب فيه صعوبة ، ونقل كلام النحويين من البصريين والكوفيين» .

وكذلك قال الزجاج : «هذا باب لم يفهمه إلا الخليل وسيبويه»[6] .

ولكن ثمة فريقًا آخر يرى فى الأمر رأيا آخر خلاف ما ارتآه الفريق الأول ، ويمثل الفريق الآخر الأخفش الصغير – على بن سليمان ، وأبو جعفر النحاس ، حيث يروى أبو جعفر عن الأخفش بقوله :

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى : ١٥٢/٤ .
(٢) الكتاب (مقدمة التحقيق) : ١٣.
(٣) الكتاب : ٧٣/١ .
(٤) الكتاب : ٨٠/١ .
(٥) الكتاب : ٣٨٤/١ .
(٦) المصدر السابق (هامش) .

«ورأيت على بن سليمان يذهب إلى غير ما قال ابن كيسان ، قال : عمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها ، فجعل فيه بيِّناً مشروحا ، وجعل فيه مشتبها ، ليكون لمن استنبط ونظر فضل ؛ وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن»[1] .

ثم علق أبو جعفر على كلام الأخفش بقوله : «وهذا الذى قاله على بن سليمان حسن ، لأن بهذا يشرف قدر العالِم ، وتفضل منزلته ؛ إذ كان ينال العلم بالفكرة واستنباط المعرفة ؛ ولو كان كله بينا لاستوى فى علمه جميع من سمعه ، فيبطل التفاضل ، ولكن يستخرج منه الشيء بالتدبر ، ولذلك لا يُمَلّ ، لأنه يزداد فى تدبره علما وفهما»[2] .

صحيح أنه قد ثبت أنه ثمت أناس من النحاة كانوا يبالغون فى التعمية والإبهام فى أساليبهم وعباراتهم لدرجة لا يكاد المخاطب بها يفهم منها شيئا ، أو يخرج منها فائدة ترتجى ، ولكن كان لهذا النوع من الأساليب ، أسباب تدعو إليه ، ومقدمات تسلم إلى الأخذ به والتزامه .

وهذا الفريق من النحاة الذى يتسم أسلوبه بالغرابة والإبهام يمثله أبو الحسن الرمانى[3] ، وأبو زكريا الفراء[4] ، وأبو الحسن الأخفش[5] .

أما الرمانى والفراء ، فقد تأثرا بظروف الحال والبيئة ، حيث كانت الفلسفة قد استحصدت ، وأغرم الناس بها ، فدخلت النحو وأثرت فيه ، كما دخلت غيره

---

(١) خزانة الأدب : ٣٧٢/١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أبو الحسن على بن عيسى . نشأ بالرمان بمدينة واسط . أخذ عن الزجاج وابن دريد وابن السراج ، شرح كتاب سيبويه ، والمقتضب ، وأصول ابن السراج . توفى سنة ٣٨٤هـ .

(٤) أبو زكريا يحيى بن زياد ، مولى بنى أسد ، ولد بالكوفة من أصل فارسى ، تلقى عن الكسائى وغيره ، وكان يطلق عليه (أمير المؤمنين فى النحو) . توفى سنة ٢٠٧هـ .

(٥) أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، مولى بنى مجاشع بن دارم (بطن من تميم) ، ولد ببلخ وأقام بالبصرة ، أخذ عن سيبويه وشيوخه إلا الخليل ، وهو الطريق الوحيد إلى كتاب سيبويه . توفى سنة ٢١٥هـ .

وأثرت فيه ؛ فكان الرماني والفراء ممن غلبت عليهم الفلسفة ، وأثرت في كتاباتهم ، حيث كان كل منهما نحويا متكلما معتزليا .

فهذا أبو علي الفارسي يقول عن نحو الرماني : «إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني ، فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله ، فليس معه منه شيء»[1] .

وقال غيره : «كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين ، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا ، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ، ومنهم من نفهم جميع كلامه ؛ فأما من لا نفهم من كلامه شيئا فأبو الحسن الرماني ، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي ، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي»[2] .

وأما أبو الحسن الأخفش فكان كفريق من النحاة يؤثر الإبهام والتعمية في عرض النحو في كتاباتهم ، والصعوبة في مصنفاتهم ، لئلا يهون شأنه ، وتقل الحاجة إلى أهله ، ويتيسر فهمه والإفادة منه على غير الخاصة من المنقطعين له وأصحاب المزية والتفهم فيه ، حيث يقول الجاحظ :

«قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟

قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه ، قلت حاجتهم إليّ فيها ، وإنما كانت غايتي المنالة»[3] .

وإذا رجعنا إلى أسلوب سيبويه في كتابه ، وجدنا الأمر مختلفا بينه وبين

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٠٢.
(٢) نزهة الألباء : ٣٩٠.
(٣) الحيوان : ١/ ٩١.

هذا الفريق الذى سبق الحديث عنه ، فسيبويه ليست لديه أسباب تدعوه إلى إيثار الغموض فى حديثه ، والإبهام فى كتاباته ، والتعمية فى عرض القضايا النحوية ، وإنما هو يسير فى كتابه سير المعلم ، متبعا أسلوب التعليم لعلم لم يزل بكرا ، وليس لدى الناس كبير إلف به ، ولا ممارسة له ، ولا نقول فى أسلوب الكتاب إلا ما سبق أن قال أستاذنا على النجدى ناصف :

«والواقع أن مفردات الكتاب لا غموض فيها ولا غرابة ، وإنما الغموض فى تأليفها وصياغة العبارة فيها ، وفى الإشارة العابرة يشيرها إلى مسائل كانت بعهده متعالمة مشهورة ، ولم يكن بالناس يومئذ حاجة إلى تجليتها وتفصيل القول فيها ، فوكلهم إلى علمهم بها ، وغنى عن ذكرها بالإشارة إليها»[1] .

منهج الكتاب :

منهج سيبويه فى عرض مادة كتابه منهج الفطرة والطبع ، يدرس أساليب الكلام فى الأمثلة والنصوص ، ليكشف عن الرأى فيها صحة وخطأ ، أو حسنا وقبحا ، أو كثرة وقلة ، لا يكاد يعرِّف معرَّفا ، أو يلتزم مصطلحا ، أو يفرع فروعا ، أو يشترط شروطا على نحو ما نرى فى الكتب التى صنفت لعهد ازدهار الفلسفة واستثمار العلوم .

فهو فى جملة الأمر يقدم مادة النحو الأولى موفورة العناصر ، كاملة الأطراف ، لا يكاد يعوزها إلا استخلاص الضوابط وتصنيع الأصول ، على ما تقتضى الفلسفة المدروسة والمنطق الموضوع .

ومعلوم أن لكل باب فى كتاب ، بل لكل مسألة فى باب مقتضيات خاصة ، وطبيعة متميزة ، وإذن لا ينتظر من سيبويه أن يعالج أبواب الكتاب ، ولا مسائل الأبواب علاجا واحدا مطردا ؛ ومع ذلك يمكن أن يقال – على وجه الإجمال – إنه كان فى تصنيف الكتاب يتجه إلى فكر الباب كما تتمثل له ، فيستحضرها ،

---

(١) سيبويه إمام النحاة : ١٥٦.

ويضع المعالم لها ، ويتعرف حاجتها من الأمثلة والنصوص ، فيجمعها ويصنفها ، ثم يعرضها جملة أو آحادا ، وينظر فيها تصعيدا وتصويبا ، يحلل التراكيب ، ويؤول الألفاظ ، ويقدر المحذوف ، ويستخلص المعنى المراد[1] .

فالكتاب مقسم إلى أبواب قد بلغت عدتها ثمانمائة وعشرين بابا ، كل باب منها يعالج ناحية من نواحى القواعد ، والكتاب لم يعمل له سيبويه مقدمة ، وإنما يبدؤه بالدخول فى صميم الموضوع ، إذ يتحدث عن أقسام الكلمة بقوله : «هذا باب علم ما الكلم من العربية» . والكتاب قسمان : يحوى القسم الأول موضوعات النحو ، ويحوى القسم الآخر موضوعات الصرف ، ولكن ترتيب الكتاب يخالف النهج الذى سار عليه المصنفون المتأخرون فيما يلى :

أولا : ترتيب أبواب الكتاب يخالف ما عهدناه من الترتيب فيما نتداوله من الكتب التى بين أيدينا ، فلا يأتى بالمرفوعات كلها على حدة ، ثم المنصوبات والمجرورات .. إلخ ، بل بعضها ممزوج ببعض ، حيث ينتقل من الفاعل إلى المفعول ، ثم بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر ... وهكذا .

ثانيا : لا يسير فى ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة ، إذ يقدم أبوابا من حقها التأخير ، ويؤخر أبوابا من حقها أن تتقدم ، ويضع فصولا فى غير موضعها الطبيعى ، فهو يتحدث عن المسند إليه والمسند ، وكان من اللائق أن يستوفى أبواب المسند إليه ، من مبتدأ وفاعل وغيرهما ، ثم يعود إلى المسند ، ليستوفى أنواعه وأحكامه ، ولكنه لم يتبع ذلك ، وكثيرا ما تقول – وأنت تقرأ الكتاب – ليت ذلك الباب وضع هنا ، أو ليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك .

ثالثا : يذكر سيبويه الباب العام ، ثم يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبا بابا خاصا يعالجها ، فهو يعنون – مثلا – للتصغير ، ويذكر صيغه المختلفة ، ثم يعقد أبوابا للمسائل الجزئية فيه ، فتجد بابا لتصغير ما يكون على خمسة

---

(1) المصدر السابق : ١٥٨ .

أحرف ، وآخر لتصغير المضاعف ، وبابا لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف ولحقته الزيادة للتأنيث ، وأبوابا أخرى لفروع التصغير المختلفة .

رابعا : يذكر مسائل فى أبواب نضعها نحن تحت عنوانات أخرى ، فمثلا يذكر فى أبواب الفاعل ، بابا للفاعل الذى لايتعداه فعله إلى مفعول ، وبابا آخر للفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول ، وبابا ثالثا للفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، بينما نحن الآن نضع كل ذلك تحت عنوان الفعل المتعدى واللازم .

خامسا : لا يذكر دائما مسائل الباب الواحد سلسلة متصلة متتابعة ، بل يذكر بعضها فى موضع ، وبعضها الآخر فى موضع آخر ، بعد أن يفصل بينهما – فى كثير من الأحيان – بأبواب أخرى ، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها .

سادسا : نظرا لأن المصطلحات النحوية لم تكن قد استقرت بعد ، نجد سيبويه يضع عناوين طويلة للأبواب ، وغالبا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا ، فترى نفسك مضطرا إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها ؛ وقلما تجد عنوانا يفهمه الدارسون فى سهولة ويسر ، وحسبك أن تعلم أنه وضع لإن وأخواتها هذا العنوان : (هذا باب الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده ، وهى من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التى بمنزلة الفعل ، ولا تصرف تصرف الأفعال ، كما أن عشرين لا تصرف تصرف الأسماء التى أخذت من الفعل وكانت بمنزلته ، ولكن يقال : بمنزلة الأسماء التى أخذت من الأفعال وشبهت بها فى هذا الموضع ، فنصبت درهما لأنه ليس من نعتها ، ولا هى مضافة إليه ، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حمل العشرون عليه ، ولكنه واحد بين به العدد ، فعملت فيه كعمل الضارب فى زيد إذا قلت : هذا ضارب زيدا ، لأن زيدا ليس من صفة الضارب ولا محمولا على ما حمل عليه الضارب ، وكذلك هذه الحروف منزلتها من الأفعال» ؟ وبعد ذلك كله يقول : وهى إن ولكن وليت ولعل وكأن[1] .

(١) الكتاب : ٢/١٣١ .

كما يضع عنوانا لكان وأخواتها يقول : «هذا باب الفاعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد»[1] .

كما لم يضع اسما لأسماء الإشارة ، بل أطلق عليها : الأسماء المبهمة ، كما كان يسمى التسكين : جزما ، ويسمى المقصور : منقوصا ... إلخ .

سابعا : يذكر القاعدة وأمثلتها ، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية ، وبيان وجه القياس فيما يذكره من القواعد ، وعرض الآراء المختلفة فى الموضوع الواحد .

ثامنا : يفرض فروضا قد تخرج عن الاستعمال العربى للغة ، ثم يضع لها أحكاما بناء على تصوره هو ، كما فى قوله : «ولوجاء فى الكلام شىء نحو أكلل وأيقن فسميت به رجلا صرفته ، لأنه لو كان أفعل لم يكن الحرف الأول إلا ساكنا مدغما»[2] .

مصطلحات الكتاب :

لم يكن للنحو - كما يتمثل فى (الكتاب) - مصطلحات ثابتة مستقرة ، يلتزمها سيبويه هنا وهناك فى شتى المواطن والمناسبات ، وكل ما كان من ذلك على وجه الإجمال أسماء عابرة ، وتراكيب متغيرة ، لا تكاد تثبت على لفظ واحد أو صورة واحدة إلا قليلا ، مثلها كمثل المفردات المترادفة والتراكيب المتنوعة ، تتوارد على معنى واحد ؛ والمفهوم أن سيبويه لم يكن وحده صاحب هذه المفردات والتراكيب جميعا ، فليس هو واضع النحو الأول ، وإن كان بانيه ومعلى بنائه فى العلوم ؛ وهو حقيق أن يكون نصيبه منها على مقدار ما كان له فى إقامة النحو من نصيب[3] .

ويدل نظر سيبويه إلى هذه المصطلحات ، وصنيعه بها على أنه لم يدر

(١) الكتاب : ١/٤٥ .
(٢) الكتاب : ٣/١٩٥ .
(٣) سيبويه إمام النحاة : ١٦٦ .

بخلده ، وربما لم يدر كذلك بخلد أحد من شيوخه - حين قالوها - أن يجعلوا استعمالها على صورة واحدة أمرا مقضيا : وإلا فما لسيبويه أولا لم يلتزمها ، ثم ما له آخرا خالف شيوخه ، ودعا بما عمل إلى خلاف ما دعوا إليه إذا كان هو الذى تمرد عليها ، وجرى على غير سننهم فيها ؟!

وعلى كل حال لقد قدر لبعض هذه المصطلحات - كما نسميها - أن تبقى على الزمن ، وتتخطى العصور والأجيال حتى تصل إلينا كما قالها أصحابها الأولون ، ومنها : الاسم ، والفعل ، والحرف ، والتنوين ، والحال ، والاستثناء ، والنداء ، والترخيم ، والندبة ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة به ، وغيرها ؛ ومن التى لم يكتب لها البقاء كالتى سلفت : تسمية أنواع الإعراب والبناء بمجارى أواخر الكلم[1] ، وتسمية الصلة بالحشو[2] ، وأسماء الأفعال بالحروف التى للأمر والنهى وليست بفعل[3] وفك الإدغام بالبيان[4] .

ومن المصطلحات التى لم يقدر لها البقاء ما أخذ اسمه المستعمل الآن من كلام سيبويه عنه ، وافتنانه فى تسميته ، وذلك نحو (الصلة) و (التصغير) : إذ بعد ما سمى الصلة (حشوا) ، وأدار الكلام أكثره عليها بهذا الاسم ، عاد فقال : «فكما أن الذى لا يكون إلا معرفة لا يكون (ما) و (من) إذا كان الذى بعدهما حشوا ، وهو الصلة إلا معرفة ؛ وتقول : هذا مَنْ أعرف منطلق ، فتجعل (أعرف) صفة ، وتقول : هذا من أعرف منطلقا ، تجعل (أعرف) صلة»[5] . وقد سمى التصغير : تصغيرا ، وتحقيرا ، فعاش الاسم الأول ومات الآخر أو كاد[6] .

ومن أمثلة تحرر سيبويه من التزام المصطلحات بلفظ واحد ، أنه يسمى

---

(١) الكتاب : ١/١٣ .
(٢) الكتاب : ١/٢٦٩ (باب ما يكون الاسم فيه بمنزلة (الذى) فى المعرفة) .
(٣) الكتاب : ٣/٥٢٩ (باب ما لا يجوز فيه نون خفيفة ولا ثقيلة) .
(٤) الكتاب : ٤/٤٤٠ (باب الإدغام فى الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه) .
(٥) الكتاب : ٢/١٠٧ .
(٦) سيبويه إمام النحاة : ١٦٨ .

التنوين (تنوينا) فى قوله عن زيادتى المثنى : «وتكون الزيادة الثانية نونا كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين»[1] .

ويسمّيه (نونا) فى قوله : «وتقول : هذا ضارب عبدَاللهِ وزيدًا يمر به ، إن حملته على المنصوب ، فإن حملته على المبتدأ وهو (هذا) رفعت ، فإن ألقيت النون ، وأنت تريد معناها فهو بتلك المنزلة»[2] . ثم يعود فى الباب نفسه فيسميه (تنوينا) إذ يقول : «وتقول : هذا ضاربُ القوم حتى زيدًا يضربه ، إذا أردت معنى التنوين»[3] .

ويسمى حروف القسم فى عنوانها : حروف الإضافة إلى المحلوف به . ولكنه فى أثناء الحديث عن حذفها يسميها : حروف الجر والإضافة ، فيقول : «واعلم أنك إذا حذفت من المحلوف به حرف الجر نصبته ، كما تنصب (حقا) إذا قلت : إنك ذاهب حقا ، فالمحلوف به مؤكد به الحديث ، كما تؤكده بالحق ؛ ويجر بحروف الإضافة ، كما يجر (حق) إذا قلت : إنك ذاهب بحق»[4] .

ويعتبر (باب التصغير)[5] أوضح الأمثلة لتحرر سيبويه من قيد الاصطلاح ، فقد سماه فى العنوان العام التصغير ، فقال : (باب التصغير) ، والتزم هذه التسمية فى أربعة من عناوين الفروع ، ولكنه جعل فى البقية تسميه (التحقير) كثيرا ، والتصغير ، قليلا : وجمع بينهما مرة فى عنوان واحد ، فقال : (هذا باب ما يحذف فى التحقير من بنات الثلاثة من الزيادات لأنك لو كسرتها للجمع لحذفتها وكذلك تحذف فى التصغير)[6] . وجعل فى أثناء الحديث عنه يذكره تارة باسم التصغير ، وأخرى باسم التحقير[7] .

---

(١) الكتاب : ١/١٧ .
(٢) الكتاب : ١/٩٣ .
(٣) الكتاب : ١/٩٦ .
(٤) الكتاب : ٣/٤٩٧ .
(٥) الكتاب : ٣/٤١٥ .
(٦) الكتاب : ٣/٤٢٦ .
(٧) راجع سيبويه إمام النحاة : ١٦٨ .

تقدير العلماء للكتاب :

لقد دهش الناس عند ظهور الكتاب فجأة على صورته الرائعة الغريبة من سيبويه الشاب ، فقرب إلى نفوسهم الظن فى أمانته العلمية ، فمنهم من اتهمه بالكذب كيونس بن حبيب ، وبعد أن تأكد من صدق ما رواه عنه قال : «إنه صدق فى كل ما قال»[1] : ومنهم من اتهمه بأنه ليس من عمله وحده ، وإنما شاركه فى وضعه آخرون كثعلب ، ولكنه لم يقم الحجة والدليل على ذلك . مما جعل الناس يذهبون فى تأويل قوله على غير مذهب واحد[2] .

وقد انتهى الأمر بأن عظم شأن (الكتاب) بالبصرة ، حتى صار علما بالغلبة ، فكان إذا قيل فى البصرة : فلان يقرأ الكتاب ، لا يفهم السامع سوى كتاب سيبويه ، بل سموه – إكبارًا له – : قرآن النحو ؛ وهكذا كان (الكتاب) أعجوبة الدهر الخالدة . فإنه منذ ألف استفرغ عناية العلماء به فى الطواف حوله ، فمن شارح له ، ومن شارح لشواهده ، ومن منتقد له ، ومن مثن عليه مكبر له .

قال أبو جعفر النحاس : «لم يزل أهل العربية يفضلون كتاب أبى بشر عمرو ابن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه ، حتى لقد قال محمد بن يزيد : لم يعمل كتاب فى علم من العلوم مثل كتاب سيبويه ؛ وذلك أن الكتب المصنفة فى العلوم مضطرة إلى غيرها ، وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره»[3] .

وقال أبو جعفر الطبرى : «سمعت الجرمى يقول : أنا منذ ثلاثون أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه . قال : فحدثت بذلك محمد بن يزيد على وجه التعجب والإنكار فقال : أنا سمعت الجرمى يقول هذا ، وأومأ بيديه إلى أذنيه . وذلك أن أبا عمر الجرمى كان صاحب حديث ، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث ؛ إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش»[4] .

(١) راجع ص ١٨٧ .
(٢) راجع ص ٢١٨ .
(٣) خزانة الأدب : ١/ ٣٧١ .
(٤) إنباه الرواة : ١/ ٣٤ .

وقال المازني : «من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه ،فليستحي مما أقدم عليه»[1] .

وقال المازني أيضا : «ما أخلو في كل زمن من أعجوبة في كتاب سيبويه ، ولهذا سماه الناس : قرآن النحو»[2] .

وقال أبو إسحق : «إذا تأملت الأمثلة في كتاب سيبويه ، تبينت أنه أعلم الناس باللغة»[3] .

وقال أبو جعفر : «حدثني علي بن سليمان قال : حدثني محمد بن يزيد أن المفتشين من أهل العربية ، ومن له المعرفة باللغة ، تتبعوا على سيبويه الأمثلة ، فلم يجدوه ترك من كلام العرب إلا ثلاثة أمثلة . منها : الهُنْدَلِع ، وهي بقلة : والدُّرْداقِس ، وهو عظم القفا ؛ وشَمَنْصير ، وهو اسم أرض»[4] .

وكان المبرد – إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه – يقول له : هل ركبت البحر ؟! تعظيما لما فيه ، واستصعابا لألفاظه ومعانيه[5] .

وقال عنه السيرافي : «وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ، ولم يلحق به من بعده»[6] .

وقال أبو منصور الأزهري : «وقد ألف كتابا كبيرا في النحو ، وقد نظرت فيه ، فرأيت فيه علما جما»[7] .

وقال أبو إسحق : «وقد فسر الأصمعي حروفا من اللغة التي في كتاب سيبويه ، وفسر الجرمي الأبنية ، وفسرها أبو حاتم وأحمد بن يحيى . وكل واحد

---

(١) خزانة الأدب : ١/٣٧١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مقدمة (الكتاب) : ٧.

(٤) مقدمة (الكتاب) : ٧ .

(٥) خزانة الأدب : ١/٣٧١ .

(٦) أخبار النحويين البصريين : ٦٤ .

(٧) مقدمة (تهذيب اللغة) : ٩ .

منهم يقول ما عنده فيما يعلمه ، ويقف عما لا علم له به ، ولا يطعُن على ما لا يعرفه ، ويعترف لسيبويه فى اللغة بالثقة ، وأنه علم ما لم يعلموا ، وروى ما لم يرووا»[1] .

وقال صاعد بن أحمد الجيانى الأندلسى : «لا أعرف كتابا ألف فى علم من العلوم – قديمها وحديثها – فاشتمل على جميع ذلك العلم ، وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب . أحدها : المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى : كتاب أرسطاطاليس فى علم المنطق ، والثالث : كتاب سيبويه البصرى فى النحو ؛ فإن كل واحد من هذه لم تشذ عنه من أصول فنه شىء إلا ما لا خطر له»[2] .

وقال ابن كيسان : «نظرنا فى كتاب سيبويه ، فوجدناه فى الموضع الذى يستحقه ، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح ، لأنه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ ، فاختصر على مذاهبهم»[3] .

وقال على بن سليمان (الأخفش الصغير) : «عمل سيبويه كتابه على لغة العرب ، وخطبها ، وبلاغتها ؛ فجعل منه بينا مشروحا ، وجعل فيه مشتبها ، ليكون لمن استنبط ونظر فضل : وعلى هذا خاطبهم الله – عز وجل – بالقرآن»[4] .

وقال أبو جعفر النحاس : «وهذا الذى قاله على بن سليمان حسن ، لأن بهذا يشرف قدر العالم ، وتفضل منزلته ، إذا كان ينال العلم بالفكرة واستنباط المعرفة ؛ ولو كان بينا لاستوى فى علمه جميع من سمعه ، فيبطل التفاضل ؛ ولكن يستخرج منه الشىء بالتدبر ، ولذلك لا يُمل ، لأنه يزداد فى تدبره علما وفهما»[5] .

---

(١) خزانة الأدب : ١/٣٧٠ .

(٢) معجم الأدباء : ٦/٨٣ .

(٣) خزانة الأدب : ١/٣٧١ .

(٤) المصدر السابق : ١/٣٧٢ .

(٥) خزانة الأدب : ١/٣٧٢ .

وقال ابن خلكان : «كان – سيبويه – أعلم الناس المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، ولم يوضع فيه مثل كتابه»[١] .

وقال الجاحظ عن (الكتاب) : «لم يكتب الناس فى النحو كتابا مثله ، وجميع كتب الناس عليه عيال»[٢] .

وقال الجاحظ أيضا : «أردت الخروج إلى محمد بن عبدالملك الزيات – وزير المعتصم – ففكرت فى هدية أهديها له ، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه ، فلما وصلت إليه قلت له : لم أجد شيئا أهديه إليك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، فقال لى ابن الزيات : أوظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟! فقلت : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ، ومقابلة الكسائى ، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ ، فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجد وأعزها . والله ما أهديت إلىّ شيئا أحب إلىّ منه»[٣] .

طبعات (الكتاب) :

خرج كتاب سيبويه ، ونشر على الناس فى طبعات ستة ، استغرقت نحو قرن من الزمان ، حيث خرجت الطبعة الأولى سنة ١٨٨١ ميلادية ، وخرجت السادسة سنة ١٩٦٦ ، وذلك على النحو التالى :

الطبعة الأولى :

طبعت فى مدينة باريس ، بالمطبعة العامة سنة ١٨٨١ ميلادية بعناية المستشرق الفرنسى (هر تويج درنبرج)[٤] فى مجلدين : الأول فى ٤٦٠ صفحة مع

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/٤٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ولد فى باريس سنة ١٨٤٤ ، وتوفى بها سنة ١٩٠٨ . درس العربية فى جامعات ألمانيا ، عين أستاذ اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٨٧٩ ، ثم فى مدرسة الدراسات العليا سنة ١٨٨٥ ، وعمل بقسم المخطوطات فى مكتبة باريس الوطنية . من آثاره العلمية : تحقيق ديوان النابغة ، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، والنكت العصرية لعمارة اليمنى ، والجزء الثانى من فهرس المخطوطات العربية فى الأسكوريال . (انظر : المستشرقون : ١/٢١٣ ، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس . ٨٩٩) .

مقدمة فرنسية فى ٤٤ صفحة ؛ والثانى فى ٤٨١ صفحة مع مقدمة فرنسية فى صفحتين ، وعنوانه : «كتاب سيبويه المشهور فى النحو ، واسمه (الكتاب)» .

الطبعة الثانية :

طبعت فى مدينة كلكتا بالهند سنة ١٨٨٧ بعناية وتصحيح كبير الدين أحمد فى ١١٠٥ صفحة من القطع المتوسط ، وعنوانها : «هذا الكتاب اسمه (الكتاب) ، وهو فى النحو مثل أم الكتاب» . وتوجد منها نسخة فى دار الكتب المصرية برقم ٩٤٧ .

الطبعة الثالثة :

طبعت فى ألمانيا سنة ١٨٩٥ ، وهى الترجمة الألمانية الكاملة لنص الكتاب الذى حققه المستشرق درنبرج ، وقام بهذه الترجمة المستشرق الألمانى ج . بان[1] ، وهى فى خمسة مجلدات ، وقد ضمنها المترجم تعليقات بالعربية مقتبسة من : شرح السيرافى ، وشرح ابن يعيش على المفصل ، وشرح أبيات الكتاب لكل من السيرافى والأعلم الشنتمرى ، وخزانة الأدب ، وتاج العروس ، ومحيط المحيط ، وحاشية الصبان على شرح الأشمونى ، وغيرها . ومنها نسخة بالقسم الإفرنجى بدار الكتب المصرية برقم (Ph . Ar. 272) ، كما توجد نسخة بالمكتبة التيمورية برقم ٥٢٩ نحو ، ونسخة ثالثة بجامعة القاهرة برقم (492/75) .

الطبعة الرابعة :

طبعت فى المطبعة الأميرية ببولاق بالقاهرة سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) بإشراف خادم التصحيح بالمطبعة الأميرية محمود مصطفى ، بنفقة السيد /

(١) جوستاف بان ، مستشرق ألمانى ، ولد سنة ١٨٣٧ ، وتوفى سنة ١٩١٧ ، تتلمذ على يد المستشرق فلايشر ، ودرس على ووستنفيلد ، وإيفالد ، من أعماله : نشر شرح المفصل لابن يعيش ، وطبعه فى ليبزيج سنة ١٨٨٢ ميلادية .

فرج الله كبشاني الإيراني ، وقد اتخذت هذه الطبعة نسخة باريس أصلا لها ، كما أضيفت إليها شروح وتعليقات ثمينة من شرح السيرافي ، كما ذيل أسفلها بنص كامل لشرح أبيات الكتاب للأعلم الشنتمري المسمى (تحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الأدب ، في علم مجازات العرب) ، كما رجع المصحح في تصحيحها إلى مخطوطات أخرى يعتقد أنها نسخ دار الكتب المصرية ؛ وقد تمتعت هذه الطبعة بسمعة طيبة لدى المستشرقين ، حتى قال عنها بروكلمان : «وأصح طبعات الكتاب طبعة بولاق»[1] .

الطبعة الخامسة :

طبعت في بغداد بالعراق ، وهي نسخة مطابقة لنسخة بولاق عن طريق الطباعة التصويرية ، بعناية الأستاذ قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى .

الطبعة السادسة :

طبعت في مطبعة دار العلم بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م) بتحقيق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون ، في خمسة أجزاء ، وقد أفرد الجزء الخامس للفهارس الفنية الهامة التي تكشف عن غوامض الكتاب ، وتيسر على الطالب والباحث الحصول على طلبتها منه ؛ وتمتاز هذه الطبعة بجودة الطبع ، وحسن الإخراج ، ودقة الضبط والتصحيح ، وتقديم النص ، كما رجع الأستاذ المحقق إلى جميع مخطوطات الكتاب ومطبوعاته ، وكذا شروحه المخطوط منها والمطبوع ، وشروح شواهده ، وغيرها من مصنفات النحو ومطولاته كخزانة الأدب للبغدادي ، ومجالس ثعلب ، وشرح شواهد المغني ، وأمالي ابن الشجري ، والإنصاف لابن الأنباري ، وغيرها كثير .

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ١٣٦ .

٢ - اليزيدى :

أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى ، المعروف باليزيدى . وسمى بالعدوى نسبة إلى عدى بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، وهى قبيلة كبيرة مشهورة ، كان جده المغيرة مولى لامرأة من بنى عدى ، فنسب إليهم[1] .

وسمى باليزيدى لأنه كان يؤدب أولاد يزيد بن منصور بن عبدالله بن يزيد الحميرى ، خال المهدى . فنسب إليه ، وسرى هذا اللقب فى أولاده وحفدته من بعده .

وقال أبو حاتم : «نسب إلى اليزيد ، وكان مؤدبا ليزيد بن مزيد»[2] .

وقال ابن النديم : «سمى باليزيدى لصحبته يزيد بن منصور الحميرى»[3] .

وقال ابن قتيبة : اسمه عبدالرحمن ، والأشهر : يحيى[4] .

ونشأ اليزيدى بالبصرة ، وأخذ اللغة والقراءة عن أبى عمرو بن العلاء ، والنحو والعروض عن الخليل بن أحمد ، وخلف أبا عمرو فى القيام بالقراءة بعده ، وحدث عن أبى عمرو وابن جريج وغيرهما : كما أخذ عن عبدالله بن أبى إسحق ، ويونس بن حبيب : وكان معلما قبالة دار أبى عمرو بن العلاء دهرا ، وما لبث أن اشتهر فضله فى البصرة ، وعرف اللغة والنحو وأخبار الناس : وعرضت فتنة بالبصرة اقتضت اختفاءه عنها ، ثم ظهر بعد ذلك فى بغداد عند يزيد بن منصور الحميرى ، حيث عمل مؤدبا لأولاده ، فنسب إليه ولقب باليزيدى من هذا الحين ، ولم يلبث أن وصله يزيد بالرشيد فاختصه بأدب المأمون ، وكان الكسائى يؤدب الأمين ، وصار اليزيدى يدرس فى مساجد بغداد كما يدرس الكسائى ، فتولدت بين

---

(١) وفيات الأعيان : ١٨٩/٦ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٦١ .
(٣) الفهرست : ٧٤ .
(٤) المعارف : ٥٤٤ .

الشيخين المنافسة ، وتطلع كل منهما لغلب الآخر ، فحدثت المناظرات بينهما ، وكان اليزيدى مظفرا فى أغلبها ، ومنها ما حكاه أبو هلال العسكرى بقوله :

«اجتمع الكسائى واليزيدى عند الرشيد ، فجرت بينهما مسائل كثيرة ، فقال له اليزيدى : أتجيز هذين البيتين :

مَا رَأَيْنَا خَرَبًا نَقْـ ... قَرَ عَنْهُ الْبَيْضَ صَقْرُ
لَا يَكُونُ الْعَيْرُ مُهْرًا ... لَا يَكُونُ الْمُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائى : يجوز على الإقواء ، وحقه : لا يكون المهر مهرا ، فقال له اليزيدى : فانظر جيدا ، فنظر ثم أعاد القول ، فقال اليزيدي : لا يكون المهر مهرا محال فى الإعراب ، والبيتان جيدان ، وإنما ابتدأ فقال : المهر مهر ، وضرب بقلنسوته الأرض وقال : أنا أبو محمد ، فقال له يحيى بن خالد : خطأ الكسائى مع حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك ، أتكتنى قدام أمير المؤمنين ، وتكشف رأسك ؟! فقال : إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عنى التحفظ»[1] ولما مات الكسائى قبله لم يقصر فى رثائه[2] .

روى أبو حاتم عن الأصمعى قوله : «كان ههنا مؤدب يقطع الصيف فى رداء وَذِرَة[3] ، كان سفيها ، وكان جارا لأبى عمرو بن العلاء ، وكان لزم قراءة شعيب بن صخر»[4] .

أخلاقه وعلمه :

كان اليزيدى ثقة ، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو ، وكان صدوقا ، وله التصانيف الحسنة والنظم الجيد[5] .

---

(١) مجالس العلماء : ١٩٥ ، شرح ما يقع فيه التحريف والتصحيف : ١٢٤ ، وفيات الأعيان : ١٨٦/٦ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٦٤ ، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٠٤ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٦٢ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) وفيات الأعيان : ١٨٣/٦ .

وقال ابن المنادى : «أكثرت من السؤال عن أبى محمد اليزيدى ، ومحله من الصدق ، ومنزلته من الثقة ، لعدة من شيوخنا ، بعضهم أهل عربية ، وبعضهم أهل قرآن وحديث ، فقالوا : هو ثقة صدوق ، لا يدفع عن سماع ، ولا يرغب عنه فى شىء ، غير ما يتوهم عليه من الميل إلى الاعتزال ؛ وقد روى عنه الغريب أبو عبيد القاسم بن سلام وكفى به ، وما ذاك إلا عن معرفة منه به ، وكان يجلس فى أيام الرشيد مع الكسائى فى مجلس واحد ويقرئان الناس ، وكان الكسائى يؤدب الأمين وهو يؤدب المأمون ، فأما الأمين فإن أباه أمر الكسائى أن يأخذ عليه بحرف حمزة ، وأما المأمون فإن أباه أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبى عمرو»[1] .

وحكى عن أبى حمدون الطيب بن إسماعيل قال : «شهدت ابن أبى العتاهية وقد كتب عن أبى محمد اليزيدى قريبا من ألف جلد ، عن أبى عمرو بن العلاء خاصة ، ويكون ذلك عشرة آلاف ورقة ، لأن تقدير الجلد عشر ورقات ؛ وأخذ عن الخليل من اللغة أمرا عظيما ، وكتب عنه العروض فى ابتداء وضعه له ، إلا أن اعتماده على أبى عمرو لسعة علم أبى عمرو باللغة»[2] .

وسأل المأمون اليزيدى عن شىء فقال : لا وجعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين ، فقال المأمون : لله درك ! ما وضعت (الواو) قط فى موضع أحسن من موضعها فى لفظك هذا ، ووصله وحمله[3] .

وكان الخليل بن أحمد يجل اليزيدى ويقدره ، ويفسح له فى مجلسه ، لسعة علمه وكريم خلقه . فقد حكى الأثرم قال : « دخل اليزيدى يوما على الخليل بن أحمد ، وهو جالس على وسادة ، فأوسع له وأجلسه معه ؛ فقال له اليزيدى : أحسبنى ضيقت عليك ، فقال الخليل : ما ضاق موضع على اثنين متحابين ، والدنيا لا تسع متباغضين»[4] .

(١) المصدر السابق : ٦/ ١٨٤ .
(٢) وفيات الأعيان : ٦/ ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق : ٦/ ١٨٥ .
(٤) المصدر نفسه : ٦/ ١٨٤ .

وكان اليزيدى – مع علمه – أديبا شاعرا ، فقد نظم فى المدح ، والهجاء ، ولاسيما مدح النحاة البصريين ، وهجاء الكوفيين[1] ، كما نظم فى الاعتذار ، والغزل ، ومن ذلك ما رواه هو بقوله :

«دخلت على المأمون يوما ، والدنيا غضة ، وعنده (نُعْمٌ) تغنّيه ، وكانت من أجمل أهل دهرها ، فأنشدت :

وَزَعَمْتِ أنِّى ظَالِمٌ فَهَجَرْتِنِى ... وَرَمَيْتِ فِى قَلْبِى بِسَهْمٍ نَافِذِ
فَنَعَمْ هَجَرْتُكِ فَاغْفِرِى وَتَجَاوَزِى ... هَذَا مَقَامُ المُسْتَجِيرِ العَائِذِ
هَذَا مَقَامُ فَتًى أَضَرَّ بِهِ النَّوَى ... قَرِحِ الجُفُونِ بِحُسْنِ وَجْهِكِ لائِذِ
وَلَقَدْ أَخَذْتُمْ مِنْ فُؤَادِى أُنْسَهُ ... لاَ شَلَّ رَبِّى كَفَّ ذَاكَ الآخِذِ

فاستعادها المأمون الصوت ثلاث مرات ، ثم قال : يا يزيدى ، أيكون شىء أحسن مما نحن فيه ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما هو ؟ قلت : الشكر لمن خولك هذا الإنعام العظيم الجليل ، فقال : أحسنت وصدقت ، ووصلنى ، وأمر بمائة ألف درهم يتصدق بها ، فكأنى أنظر إلى البِدَر وقد أخرجت والمال يفرق»[2] .

آثاره :

خلف اليزيدى مصنفات نافعة فى اللغة والنحو منها :

١ – كتاب (النوادر فى اللغة) . وهو على مثال كتاب نوادر الأصمعى الذى صنفه لجعفر البرمكى ، وفى مثل عدد ورقه .

٢ – كتاب (المقصور والممدود) .

٣ – مختصر فى النحو .

٤ – كتاب (النقط والتشكيل)[3] .

---

(١) انظر ذلك فى أخبار النحويين البصريين : ٥٧ . وغيره ص ٦٠ وما بعدها .
(٢) وفيات الأعيان : ٦/ ١٨٥ .
(٣) إنباه الرواة : ٢/ ٣٤٠ . ووفيات الأعيان : ٦/ ١٨٣ .

وفاته :

خرج اليزيدى فى صحبة المأمون من بغداد إلى مَرْو ، وفى سنة اثنتين ومائتين هجرية خرج المأمون من مرو عائدا إلى بغداد ، حيث دخلها فى شهر صفر من سنة أربع ومائتين ؛ وفى سنة اثنتين ومائتين التى خرج فيها المأمون من مرو ، توفى أبو محمد اليزيدى بخراسان عن أربع وسبعين سنة .

وقال أبو عمرو الدانى فى (طبقات القراء) إنه توفى بمرو .

وقال ابن المنادى : مات بالبصرة ، ودفن بها ؛ وقال ابن خلكان : والأول أصح[1] .

وقد بورك له فى نسله ، فكان العلم والأدب والفضل فى أبنائه وحفدته[2] .

قال محمد بن عبيدالله بن أبى محمد اليزيدى : «أتانا النضر بن شميل بمرو يعزينا عن أبينا ، فقال : كنت مع أبى محمد ، وأبى زيد الأنصارى فى كُتَّابه ، وهأنذا قد جئت أعزى بأبى محمد ، النضر - والله - لاحق به . فلما صرنا إلى جرجان جاءنا نعيه»[3] .

سمات الطبقة الخامسة :

تتسم الطبقة الخامسة من النحاة البصريين بسمات تميزها عن غيرها من الطبقات السابقة منها :

١ - اكتمال علم النحو على أيديها :

فقد اكتمل علم النحو ، وبلغ غاية منتهاه ، بل قيلت فيه الكلمة الأخيرة ، ولم يعد فى حاجة إلى زيادة مزيد ، وذلك على النحو الذى خرج عليه كتاب سيبويه ، الذى جمع كل واردة فى النحو وشاردة ، ولم يترك فيه صغيرة ولا كبيرة

---

(١) طبقات الزبيدى : ٦٥ ، ووفيات الأعيان : ٦/١٨٩ ، وإنباه الرواة : ٢/٢٤٠ .

(٢) راجع تفصيل ذلك فى : طبقات الزبيدى : ٦٥ ، ووفيات الأعيان : ٦/١٨٨ ، والفهرست : ٧٤ .

(٣) طبقات الزبيدى : ٦٢ .

إلا أحصاها : فقد جمع بين دفتيه كل علم من تقدمه من علماء النحو وآرائهم . فضلا على ما سمعه سيبويه مشافهة من الأعراب الخلص ، علاوة على ما ضمنه من التمرينات العملية التى تشحذ الذهن وتعمق الفكر ، وتعد نماذج تطبيقية على ما تقدمه الدراسة النظرية لقواعد النحو وأحكامه . ذلك الكتاب الذى أعجز من قبله ولم يلحق به من بعده ، فكان جديرا بأن يسميه العلماء (قرآن النحو) ، كما سماه المبرد (البحر) نظرا لكثرة ما به من علم ، ولصعوبة ارتياده .

٢ - التأليف والتصنيف :

كما اتسمت هذه الطبقة بكثرة التأليف والتصنيف ، فقد ألف سيبويه كتابه الضخم الحجم ، الجليل القدر ، رغم انقضاء أجله فى ريعان شبابه حيث وافته المنية وهو فى الثلاثينيات من عمره ، وربما لو أمهله القدر لأخرج للناس علما جما فى مختلف الفنون والآداب .

كما صنف اليزيدى : النوادر فى اللغة ، والمقصور والممدود ، ومختصر فى النحو ، وكتاب النقط والتشكيل .

٣ - المناظرات :

وقد اتسمت هذه الطبقة بشيوع المناظرات بين علمائها وغيرهم ، ولاسيما الكوفيين ، وكان أشهرها مناظرة سيبويه والكسائى المعروفة بالمسألة الزنبورية ، ومناظرة اليزيدى والكسائى فى مجلس الرشيد ، وكانت الغلبة فى الأولى للكسائى ، وفى الثانية لليزيدى[1] .

★ ★ ★

(١) راجع : مجالس العلماء للزجاجى ، والأشباه والنظائر للسيوطى .

الطبقة السادسة

١ - الأخفش الأوسط[١] :

أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، مولى بنى مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم[٢] . وهو أشهر الأخافشة ذكرا فى النحو ، فلذا ينصرف إليه الحديث عند ذكر (الأخفش) مجردا من الوصف فى كتب النحو ، فإن قصد غيره وجب ضم (الأكبر) أو (الأصغر) إليه على وفاق المطلوب .

ولد الأخفش ببلخ ، وقيل : أصله من خوارزم[٣] ، وأقام بالبصرة لطلب العلم ، وشارك سيبويه فى التلقى عن جل شيوخه سوى الخليل بن أحمد رغم وجوده معه فى البصرة ، إلا أنه لم يؤثر عنه أنه روى عن الخليل شيئًا ؛ ثم أخذ عن سيبويه رغم أنه أسن منه ، فكان أنحى تلاميذه[٤] .

كما أخذ عن أبى مالك النميرى ، فقد روى عن المازنى قوله : «قال الأخفش : سألت أبا مالك عن قول أمية بن أبى الصلت :

سَلامَكَ رَبَّنَا فِى كُلِّ فَجْرٍ ... بَرِيئًا مَا تَغَنَّثُكَ الذُّمُومُ

فقلت : ما (تغنثك) ؟ فقال : ما تتعلق بك[٥] .

وكان الأخفش معتزليا ، كما كان أعلم الناس بالكلام وأحذقهم فى الجدل ، حدث عن الكلبى ، والنخعى ، وهشام بن عروة ، وروى عنه أبو حاتم السجستانى[٦] ؛

---

(١) الأخفش : الصغير العينين مع ضعف بصرهما ، وكان سعيد بن مسعدة يعرف بالأخفش الصغير ، حيث كان عبدالحميد بن عبدالرحمن يعرف بالأخفش الأكبر ، فلما ظهر على بن سليمان عرف بالأصغر ، وسمى سعيد بن مسعدة بالأوسط .

(٢) طبقات الزبيدى : ٧٢ ، وجمهرة أنساب العرب : ٢١٧ .

(٣) الفهرست : ٧٧ .

(٤) مراتب النحويين : ١١١ ، وبغية الوعاة : ١/٥٩٠ .

(٥) مراتب النحويين : ١١٢ .

(٦) بغية الوعاة : ١/٥٩٠ .

وقيل : كان قدريًا مرجئًا على مذهب أبي شِمْر[1] . وكان الأخفش أجلعَ[2] .

وكان الأخفش من أخص أصحاب سيبويه وأصدقهم ، ومن ثم فقد اختصه سيبويه ببث حزنه وشكواه عند قفوله من بغداد بعد هزيمته في مناظرة الكسائي ، حيث يقول الأخفش بعد أن حكى قصة المناظرة .

«فلما دخل – أي سيبويه – إلى شاطئ البصرة ، وجّه إليّ فجئته ، فعرفني خبره مع البغدادي ، وودعني ومضى إلى الأهواز ، وتزودت وجلست في سُمارِيَّة حتى وردت بغداد ، فوافيت مسجد الكسائي ، فصليت خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته ، وقعد في محرابه ، وبين يديه الفراء والأحمر وهشام وابن سعدان ، سألته عن مائة مسألة ، فأجاب عنها بجوابات خطأته في جميعها ، وأراد أصحابه الوثوب على ، فمنعهم من ذلك ، ولم يقطعني ما رأيتهم عليه مما كنت فيه . فلما فرغت من مائة مسألة قال الكسائي : بالله أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش ! قلت : نعم ، فقام إليّ وعانقني وأجلسني إلى جانبه ، ثم قال : لي أولاد أحب أن يتأدبوا بك ، ويخرّجوا على يدك ، وتكون معي غير مفارق لي ، وسألني ذلك فأجبته ، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلف له كتابًا في معاني القرآن ، فألفت كتابي في المعاني ، فجعله إمامًا لنفسه ، وعمل عليه كتابًا في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما»[3].

وعن كتاب (معاني القرآن) للأخفش يقول أبو حاتم : «كتابه في المعاني : صويلح ، إلا أن فيه مذاهب سُوء في القدر» ؛ وكان أبو حاتم يعيب كتابه في القرآن في جمع الواحد ، حيث قال :

«كان الأخفش قد أخذ كتاب أبي عبيدة في القرآن ، فأسقط منه شيئًا ، وزاد شيئًا ، وأبدل منه شيئًا ، فقلت له : أي شيء هذا الذي تصنع ؟ من أعرف بالغريب ،

---

(1) أحد أئمة القدرية المرجئة . كان شيخا وقورا ، ذا تصرف في العلم ، مذكورا بالحلم (الأنساب : ٣٣٨) .
(2) مراتب النحويين : ١١١ .
(3) طبقات الزبيدي : ٧٠ .

أنت أو أبو عبيدة ؟ فقال : أبو عبيدة ، فقلت : هذا الذى تصنع ليس بشىء ، فقال : الكتاب لمن أصلحه ، وليس لمن أفسده» . قال أبو حاتم : «فلم يلتفت إلى كتابه وصار مطروحا»[1] .

والأخفش الأوسط هو الطريق الوحيد إلى كتاب سيبويه ، وذلك أن كتاب سيبويه لا يُعْلَمُ أحد قرأه على سيبويه ، ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكنه قرئ على أبى الحسن الأخفش بعد وفاة سيبويه ، وأول من قرأه عليه أبو عمر الجرمى ، وأبو عثمان المازنى[2] . كما قرأه عليه الكسائى سرًا ، حيث يقول الأخفش : «جاءنا الكسائى فى البصرة ، فسألنى أن أقرأ عليه أو أقرئه كتاب سيبويه ، ففعلت ، فوجه إلىّ خمسين دينارًا»[3] .

وكان الأخفش يقول : «ما وضع سيبويه فى كتابه شيئًا إلا وعرضه علىّ ، وكان يرى أنه أعلم به منى ، وأنا اليوم أعلم به منه»[4] .

ويقول أيضًا : «كنت أسأل سيبويه عما أشكل علىّ منه ، فإن تصعب الشىء منه قرأته عليه»[5] .

الأخفش المؤسس الحقيقى لمدرسة الكوفة :

ما إن ضم الكسائى الأخفش إلى جانبه ، وأكرم مثواه ، حتى استحال تحرشه به محبة له ، وأقام عنده ينعم بالحياة السعيدة الهانئة ، وبقى فى جواره ببغداد بقية حياته ، حيث صار مؤدب أولاده ، وقرأ له كتاب سيبويه سرًا .

وما كاد الأخفش ينعم بهذه الحياة الجديدة فى بغداد بما اكتنفها من رغد العيش ، ورفاهة المعيشة ، وحسن المقام ، حتى فترت عصبيته البصرية ، وأخذ

---

(١) المصدر السابق : ٧٣ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٦٦ . وراجع ص ٢١٥ فيما احتال به الجرمى والمازنى على الأخفش ليخرجا كتاب سيبويه إلى الناس خشية أن ينسبه الأخفش إلى نفسه .

(٣) المصدر السابق .

(٤) وفيات الأعيان : ٢/٣٨١ .

(٥) المدارس النحوية : ٩٤ .

يوافق الكوفيين فى كثير من آرائهم ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فخالف أستاذه سيبويه فى كثير من المسائل ، وحمل عنه ذلك الكوفيون ، ومضوا يتسعون فيه ، حتى تكونت مدرستهم النحوية .

فكان الأخفش هو الذى فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل بما بسط من وجوهه ، وقد تابعه الكوفيون فى كثير من هذه الوجوه بحيث يمكن أن يقال بحق إنه المؤسس الأول لمدرسة الكوفة ، ليس لأن إماميها الكسائى والفراء تتلمذا له فحسب ، بل أيضًا لأنهما تابعاه فى كثير من آرائه التى حاول بها نقض طائفة من آراء سيبويه والخليل ، وقد مضيا هما وغيرهما من أعلام النحاة فى الكوفة يتخذون من آرائه قبسًا للاهتداء به فيما نفذوا إليه من آراء أعدت لقيام المدرسة الكوفية .

فمما تابعه فيه الكسائى :

١ – زيادة (مِنْ) الجارة فى الإيجاب . نحو قول الله – تعالى – : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ (١) و ﴿لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) و﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ (٣) و﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ (٤) و﴿يُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (٥) .

٢ – جواز تأكيد عائد الصلة المحذوف ، والعطف عليه . نحو : جاء الذى ضربت نفسه ، أى ضربته نفسه ، ونحو : جاء الذى كلمت وعمرًا ، أى كلمته وعمرا (٦) .

٣ – جواز إعمال (إنَّ) إذا دخلتها (ما) الكافة . نحو : إنما زيدا قائم (٧) .

---

(١) سورة مريم : آية ٦٩ .
(٢) سورة الأنعام : آية ٣٤ .
(٣) سورة نوح : آية ٤ .
(٤) سورة الكهف : آية ٣١ .
(٥) سورة البقرة : آية ٢٧١ ، وانظر : المغنى : ٣٩٠ .
(٦) همع الهوامع : ١/٣١٤ .
(٧) شرح الكافية للرضى : ٢/٣٤٨ .

٤ – من معانى (لعل) التعليل . نحو : قول الله – تعالى – : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١] .

٥ – جواز تنوين (ثالث) من قولهم : ثالث ثلاثة ، مع نصب (ثلاثة) ، على أن (ثالث) متمم ثلاثة[٢] .

ومما تابعه فيه الفراء :

١ – جواز دخول (لام) الابتداء على (نعم وبئس) نحو : إن محمدا لنعم الرجل[٣] .

٢ – مجىء (إلا) الاستثنائية عاطفة ، بمعنى (الواو) ، ودلالتها على التشريك لفظاً ومعنى ، وجعلا منه قول الله – تعالى – : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٤] و﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾[٥] أى : ولا الذين ظلموا فى الآية الأولى ، ولا من ظلم فى الآية الثانية ؛ وتأول الجمهور (إلا) فى الآيتين على الاستثناء المنقطع[٦] .

٣ – جواز العطف على معمولى عاملين مختلفين ، نحو : فى الدار زيد والحجرة عمرو ، بعطف الحجرة على الدار ، وعمرو على زيد[٧] .

٤ – جواز النصب والرفع فى توكيد المنادى العلم المفرد إذا كان التوكيد مضافاً ، إذ حكى عن العرب قولهم : يا تميم كلكم – بالرفع –[٨] .

٥ – مجىء (حاشا) فى الاستثناء فعلاً متعديًا جامدًا ، وليست جارة فقط – كما ذهب سيبويه – وحينئذ يكون فاعلها ضميرًا مستكنًا فيها واجب الإضمار

---

(١) سورة طه : آية ٤٤ .

(٢) همع الهوامع : ٣١٥/٥ .

(٣) المصدر السابق : ٢٧/٥ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٥٠ .

(٥) سورة النمل : آية ١٠ .

(٦) مغنى اللبيب : ٦٩/١ .

(٧) المصدر السابق : ١٠١/٢ .

(٨) همع الهوامع : ٢٨٢/٥ .

عائد على البعض المفهوم من الكلام ، فمثل قولهم : قام القوم حاشا زيدا ، تقديره : حاشا هو ، أى : بعضهم زيدا[1] . خلافًا لسيبويه .

ومما تابعه فيه عامة الكوفيين :

١ – جواز إلغاء (ظن) وأخواتها إذا تلاها المفعولان ، مستدلين بقول الشاعر :

إِنِّى رَأَيْتُ مِلَاكَ الشِّيمَةِ الأَدَبُ[2]

وقول الآخر :

وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ[3]

٢ – جواز إقامة الظرف والجار والمجرور نائب فاعل مع وجود المفعول به فى الجملة . لمجيء ذلك فى قراءة أبى جعفر : ﴿لِيُجْزَى قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4] . فقد نصب (قوما) ، وهى مفعول به ، وجُعِل الجار والمجرور نائبًا للفاعل ، إذ الفعل (يجزى) مبنى للمجهول[5] .

٣ – جواز إغناء الفاعل عن الخبر إذا كان المبتدأ وصفا بدون اعتماد على نفى أو استفهام نحو : قائم الزيدان ، وكذلك إذا كان الوصف اسما لـ (إن) نحو : إن قائمًا الزيدان[6] .

٤ – رفع الاسم بالظرف إذا تقدم عليه نحو : أمامك زيد[7] ؛ بينما كان سيبويه يعرب الظرف خبرا مقدما ، و(زيد) مبتدأ مؤخرًا .

---

(١) مغنى اللبيب : ١/١١٠ .

(٢) عجز بيت نسب لأحد الفزاريين ، وصدره • كذاك أدبت حتى صار من خلقى •
(انظر فيه : أوضح المسالك : رقم ١٨٩ ، وشرح ابن عقيل : ١/١٥٢ ، والأشمونى : ٢/٢٩ ، والهمع : ٢/٢٢٩) .

(٣) عجز بيت لكعب بن زهير ، وصدره • أرجو وآمل أن تدنو مودتها •
(انظر فيه : الأشمونى : ٢/٢٩ ، وهمع الهوامع : ٢/٢٢٩) .

(٤) سورة الجاثية : آية ١٤ .

(٥) همع الهوامع : ٢/٢٦٥ .

(٦) المصدر السابق : ٢/٦ .

(٧) الخصائص : ١/١٠٥ .

٥ – إعراب الاسم المرفوع بعد أداة الشرط مبتدأ[١] لما فى قوله الله – تعالى – : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [٢] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [٣] ، خلافًا لسيبويه حيث كان يعربه فاعلاً لفعل محذوف يفسره ما بعده .

وقد تغيرت نزعة الأخفش البصرية – نزعة السماع – إلى النزعة الكوفية – نزعة القياس – بل أسرف فيها ، فعوَّل على قياسه النظرى فى كثير من المسائل التى لم يأبه فيها بآراء الفريقين ، بل انفرد فيها بقياسه الخاص ، ومن هذه المسائل :

١ – جواز وقوع (أن) بعد (لعل) قياسًا على (ليت) ، فقد قال الزمخشرى : «وقد أجاز الأخفش (لعل أن زيدًا قائم) قاسها على (ليت)» [٤] .

٢ – جواز رفع المضارع بعد (حتى) المسبوقة بالنفى ، قياسًا على الإيجاب ، وعد النفى داخلاً على الكلام برمته . قال ابن هشام : «وأجاز الأخفش الرفع بعد النفى على أن يكون أصل الكلام إيجابًا ، ثم أدخلت الأداة على الكلام بأسره ، لا على ما قبل (حتى) خاصة» [٥] . قال الدمامينى : «فكأنه إنما أجاز بالقياس لا بالسماع» .

٣ – جواز منع الصرف لـ (أفعل) الصفة مع قبول (التاء) نحو : أرمل ؛ قياسًا على (أحمر) ، قال الأشمونى : وأجاز الأخفش منعه لجريه مجرى (أحمر) لأنه صفة وعلى وزنه» [٦] .

٤ – قياسه مجىء اسم فعل الأمر من الرباعى على (فَعلال) . قال الرضى الاستراباذى : «وعند الأخفش (فَعلال) أمرا من الرباعى قياس» [٧] .

---

(١) أسرار العربية : ٧١ ، وشرح الكافية للرضى : ٨٤/١ .
(٢) سورة التوبة : آية ٦ .
(٣) سورة الانشقاق : آية ١ .
(٤) شرح المفصل : ٨٦/٧ .
(٥) مغنى اللبيب : ١١٣/١ .
(٦) شرح الأشمونى : ٢٣٥/٣ .
(٧) شرح الكافية للرضى : ٧٦/٢ .

٥ – تصغيره (اللاتى) و(اللائى) على لفظهما . قال الرضى : «وقد صغرهما على لفظهما قياسًا لا سماعًا ؛ وكان لا يبالى بالقياس فى غير المسموع»[١] .

وبعد ، فالمخالفات التى خرج فيها الأخفش على الفريقين معتمدًا على قياسه النظرى ، غير متقيد فيها بقانون السماع كثيرة جدًّا ، ومن ثم يقول الرضى الإستراباذى : «وأجاز الأخفش الكسر أيضًا فى (ألم الله) قياسًا لا سماعًا ، كما هو عادته فى التجرد بقياساته على كلام العرب الذى أكثره مبنى على السماع»[٢] .

على أنه لتحلله من التقليد آثره فى آرائه ، فكثر ما كان له فى المسألة الواحدة رأيان فصاعدا ؛ قال ابن جنى : «وقد كان أبو الحسن ركابًا لهذا الثبج ، آخذًا به غير محتشم منه ، وأكثر كلامه فى عامة كتبه عليه : وكنت إذا ألزمت عند أبى على – رحمه الله – أن أقول لأبى الحسن شيئًا ، لا بد للنظر من إلزامه إياه ، يقول لى : مذاهب أبى الحسن كثيرة»[٣] .

وجدير بالذكر أن ما اشتهرت به مدرسة الكوفة من قياسها على الشاذ أحيانًا ، نجده واضحًا فى كثير من آراء الأخفش ؛ وأيضًا ما اشتهر به جمهور الكوفيين من الاعتداد بالقراءات الشاذة على مقاييس سيبويه ، نجده مؤسسًا على آراء الأخفش ، فقد أخذ بقراءة أبى جعفر : ﴿لِيُجْزَى قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] مشتقًّا منها قاعدة جواز إقامة غير المفعول به – مع وجوده – نائب فاعل ، مخالفًا بذلك أستاذه سيبويه[٥] ؛ كما كان سيبويه لا يجيز العطف على الضمير المخفوض بدون إعادة الخافض ، ومن ثم ضعف البصريون المتأخرون قراءة حمزة : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ﴾[٦] بالجر عطفًا على الضمير المجرور بالباء ، وأبى الأخفش – وتبعه جمهور الكوفيين – قاعدة سيبويه

---

(١) شرح الشافية للرضى : ١/٢٨٨ .
(٢) المصدر السابق : ٢/٢٣٦ .
(٣) الخصائص : ١/٢٠٥ .
(٤) سورة الجاثية : آية ١٤ .
(٥) همع الهوامع : ٢/٢٦٥ .
(٦) سورة النساء : آية ١ .

المذكورة ، وجوز مثل هذا العطف ، مستشهدا بقراءة حمزة[1] . ورأى سيبويه عدم الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف ، وخص ذلك بالشعر ، ومن ثم ضعف بعض البصريين قراءة ابن عامر : ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾[2] بنصب (أولادهم) وخفض (شركائهم) ، وهو فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به للمصدر (قتل) ؛ وجوز ذلك الأخفش – وتبعه الكوفيون – منشدًا قول الشاعر :

فَزَجَجْتُهَا بِمَزَجَّةٍ ... زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ

فقد فصل الشاعر بين (زج) و(أبى مزادة) بكلمة (القلوص) ، وهى مفعول به للفعل (زج)[3] .

مما تقدم نستطيع أن نلحظ أن عقل الأخفش كان عقلاً خصبًا ، أمده بما لا يحصى من الآراء الجديدة التى خالف فيها ما سجله سيبويه فى كتابه ، كما فسح المجال للقياس على الأشعار الشاذة التى لا تطرد مع قوانين سيبويه النحوية ، وكذا الاحتجاج بالقراءات الشاذة مهما خالفت قواعد النحو القياسية عند سيبويه ؛ وعلى نحو ما كان يخالف سيبويه فى كثير من مسائل النحو ، كان يخالفه فى كثير من مسائل الصرف ؛ وقد تقدم القول بأن الأخفش هو الذى فتح باب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل بما بسط من وجوهه ، وقد تابعه الكوفيون فى كثير من هذه الوجوه .

ولا ريب أن خلافات الأخفش لسابقيه ، وكذا خلافات الكوفيين ، وغيرهم من نحاة المدارس الأخرى ، إنما هى خلافات فى بعض الفروع والمسائل ، إذ إن النحو وأصوله وقواعده الأساسية قد تكونت نهائيًا على يد سيبويه وأستاذه الخليل ، وكأنهما لم يتركا للأجيال القادمة سوى خلافات فرعية ، ومسائل ثانوية تتسع وتضيق حسب المدارس والنحاة ، وفى هذا يقول الأخفش :

(١) همع الهوامع : ٥/٢٦٨ .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٣٧ .
(٣) شرح المفصل : ٣/٢٢ .

«لما دخلت بغداد ، أتانى هشام الضرير ، فسألنى عن مسائل عملها وفروع فرعها : فلما رأيت اعتماده واعتماد غيره من الكوفيين على المسائل ، عملت كتاب (المسائل الكبير) ، فلم يعرفوا أكثر ما أوردته فيه»[1] .

وروى ابن الخياط أنه قصد يومًا أحمد بن يحيى ثعلبا ، فدق عليه الباب ، فخرج وبيده جزء من مسائل الأخفش ، فقال له : ويحك ! صاحبك هذا مجنون ، ويتكلم بما لا يُفْهَم ، فقلت : وأى شىء وقفت عليه من هذا ؟ فقال : كم منى مكان السارية رجل ، وكم منى مكان السارية ذراع ، فى غير ذلك من المسائل ، فقلت له : هذا رجل أشرف على بحر ، فهو يتكلم منه بما يريد ، فسكت[2] .

وصفوة القول أن الأخفش كان كثير الخلاف لسيبويه والقواعد النحوية والصرفية المبثوثة فى كتابه ، وهو خلاف يدل على خصب ملكاته ، وسعة معرفته بكلام العرب ولغاتهم ، وقراءات الذكر الحكيم ، وقدرته على النفوذ إلى حقائق اللغة التفصيلية فى كثير من الآراء الطريفة ، حتى ليصبح إمام الخلاف فى النحو والصرف ومسائلهما ، وحتى ليعد فى قوة السبيل إلى ظهور لا المدرسة الكوفية وحدها ، بل جميع المدارس النحوية التالية لها[3] .

أقول العلماء فيه :

أجمع العلماء على قوة ذكاء الأخفش ، ونفاذ بصيرته فى اللغة والنحو ، وسعة علمه وفطنته ، فقد قال المازنى : «كان الأخفش أعلم الناس بالكلام ، وأحذقهم بالجدل»[4] .

وقال المبرد : «أحفظ من أخذ عن سيبويه الأخفش ، ثم الناشئ ، ثم قطرب» [5] .

---

(1) طبقات الزبيدى : ٧٣ .
(2) المصدر السابق : ٧٤ .
(3) المدارس النحوية : ١٠٧ .
(4) مراتب النحويين : ١١١.
(5) بغية الوعاة : ١/ ٥٩٠ .

وقال السيرافي : «هو من مشهوري نحويي البصرة ، وهو أحذق أصحاب سيبويه»[1] .

وحكى أبو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سلم قالوا : «دخل الفراء على سعيد المذكور ، فقال لنا : قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية ، فقال الفراء : أما ما دام الأخفش يعيش فلا»[2] .

وقال المبرد : «كان الأخفش أسن من سيبويه ، ولكن لم يأخذ عن الخليل ، وهو الذي تكلم على كتاب سيبويه ، وشرحه ، وبينه ، وهو معظَّم في النحو عند البصريين والكوفيين»[3] .

وكان أبو العباس ثعلب يفضل الأخفش ويقول : «كان أوسع الناس علما ، وله كتب كثيرة في النحو والعروض والقوافي»[4] .

وقال الكسائي : «لم يكن في القوم – يعني البصريين – أعلم من الأخفش ، نبههم على عوار الكتاب وتركهم ، ولم يكن الأخفش ناقصًا في اللغة أيضًا ، وله فيها كتب مستحسنة»[5] .

وقال الأخفش نفسه : «كان سيبويه إذا وضع شيئًا في كتابه ، عرضه عليّ ، وهو يرى أني أعلم به منه ، وكان أعلم مني ، وأنا اليوم أعلم منه»[6] .

آثاره :

خلف الأخفش – علاوة على ما تركه من آراء كثيرة خالف فيها سيبويه والخليل ، وتابعه عليها جمهور الكوفيين – كثيرًا من الكتب النافعة في النحو واللغة والعروض وغيرها نذكر منها :

(١) أخبار النحويين البصريين : ٦٦ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢/٣٨٠ .
(٣) مراتب النحويين : ١١١ .
(٤) أخبار النحويين البصريين : ٦٦ .
(٥) مراتب النحويين : ١١١ .
(٦) المصدر السابق : ١١٢ .

١ – كتاب الأوسط فى النحو.

٢ – كتاب المقاييس فى النحو.

٣ – كتاب الاشتقاق.

٤ – كتاب المسائل الكبير.

٥ – كتاب المسائل الصغير.

٦ – كتاب وقف التمام.

٧ – كتاب الأصوات.

٨ – كتاب تفسير معانى القرآن الكريم.

٩ – كتاب الأربعة.

١٠ – كتاب العروض.

١١ – كتاب القوافى.

١٢ – كتاب معانى الشعر.

١٣ – كتاب الملوك.

١٤ – كتاب الغنم، وألوانها، وعلاجها[١].

وقال ثعلب: «أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته الأخفش، وكان الطوسى مستمليه»[٢].

ويقال إنّه زاد على بحور الشعر الخمسة عشر التى وضعها الخليل بحر (المتدارك) أو (الخبب)، وسمى (المتدارك) لأنه استدركه على بحور الخليل؛ وقيل: إنه إنما زاد اسمه فقط، حيث نجد للخليل أشعارًا على وزنه[٣].

(١) الفهرست: ٧٩.

(٢) طبقات الزبيدى: ٧٤.

(٣) إنباه الرواة: ١/٣٤٢.

وعن مصنفات الأخفش يقول الجاحظ : «إنه كان ينشر فى مصنفاته ضربًا من الغموض والعسر ، حتى يلتمس منه الناس تفسيرها رغبة فى التكسب بها»[1] .

وفاته :

أجمعت كتب التراجم التى ترجمت لحياة الأخفش (سعيد بن مسعدة) على أنه توفى سنة خمس عشرة ومائتين للهجرة ، وقبل سنة إحدى وعشرين ومائتين . بينما انفرد القفطى بقوله إنه توفى سنة خمس وعشرين ومائتين[2] ، وانفرد الدكتور شوقى ضيف بقوله إنه توفى سنة إحدى عشرة ومائتين[3] – عليه رحمة الله – .

٢ - قطرب :

أبو على محمد بن المستنير ، ويقال : أحمد بن محمد ، ويقال : الحسن بن محمد ، والأول أصح حكاية[4] : مولى سلْم بن زياد ، ولد ونشأ بالبصرة ، وأقبل مبكرًا على دراسة اللغة والنحو .

أخذ عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، ولزم سيبويه ، حتى إنه كان يباكر إلى لقاء سيبويه ويقعد له بباب بيته ، فكان سيبويه كلما خرج بالأسحار وجده بباب بيته ، فقال له مرة : «إنما أنت قطرب ليل» ، فأطلق عليه اسم (قطرب) ولصق به[5] .

برع فى النحو والغريب ، فقد روى عنه محمد بن الجهم : «إذا طلعت الجوزاء ، حميت المَعْزاء ، وكنست الظباء ، وأوفى فى عوده الحرباء»[6] .

---

(١) الحيوان : ٩١/١ .
(٢) إنباه الرواة : ٤١/٢ .
(٣) المدارس النحوية : ٩٥ .
(٤) الفهرست : ٧٨ .
(٥) وفيات الأعيان : ٣١٢/٤ . والقطرب : دويبة لا تزال تدب ولا تفتر .
(٦) طبقات الزبيدى : ٩٩ . الجوزاء : نجم يقال إنه يعترض فى جوز السماء ، أى وسطها . المعزاء : الأرض المرتفعة الغليظة . كنست الظباء : دخلت فى الكناس ، وهو المكان الذى تسكن فيه من الحر . الحرباء : دويبة نحو العظاءة تستقبل الشمس برأسها ، وتكون معها كيف دارت .

وكان قطرب يرى رأى المعتزلة النظامية ، فأخذ عن النظام مذهبه ، وحذق الجدل وعلم الكلام[1] ، وقد نبغ فى اللغة والنحو والغريب والنوادر ، حتى ذاعت شهرته فاتخذه الرشيد مؤدبا لولده الأمين ، وقربه منه أبو دلف العجلى أحد قواد الرشيد والمأمون النابهين ، فاتخذه مؤدبا لأولاده ، وظل يعنى بتأديبهم إلى أن توفى إلى رحمة الله ، فتولى ابنه الحسين بن قطرب تأديبهم من بعده[2] .

آراؤه :

تفرد قطرب بآراء فى النحو والصرف . خالف فيها كلا من الخليل وسيبويه والأخفش ، نذكر منها :

١ - أن حركات الإعراب المسماة بالرفع والنصب والجر والجزم هى نفسها حركات البناء المسماة بالضم والفتح والكسر والسكون ؛ ولا بأس من إطلاق كل منها على مقابلها فى الحالتين ، فيقال للرفع فى الكلمات المعربة الضم ، ويقال للضم فى الكلمات المبنية الرفع ، وهلم جرا[3] .

٢ - كان الخليل وسيبويه يريان أن إعراب المثنى والجمع المذكر إنما هو بحركات مقدرة فى الألف والواو والياء ، وكان الأخفش يرى أن إعرابها بحركات مقدرة فيما قبل الألف والواو والياء ، أى على (الدال) فى مثل : الزيدان ، والزيدَيْن ، والزيدون ، والزيدين . وذهب قطرب إلى أن إعرابها بنفس هذه الحروف ، إذ مثلها مثل حركات الإعراب فى مفردها ، تتغير بتغير مواقع الكلمات وعواملها فى العبارات[4] .

٣ - كان سيبويه يرى أن الأسماء الخمسة معربة بحركات مقدرة فى حروف الواو والألف والياء ، رفعا ونصبا وجرا ؛ وكان الأخفش يرى أنها معربة بحركات

(١) بغية الوعاة : ١/٢٤٢ .
(٢) الفهرست : ٧٨ ، والمدارس النحوية : ١٠٨ .
(٣) المدارس النحوية : ١١٠ ، والمزهر : ١/٤٠٠ .
(٤) الإنصاف : ١٢ ، وأسرار العربية ٥١ .

مقدرة على ما قبل الواو والألف والياء ، أسوة برأيه فى المثنى والجمع ؛ وذهب قطرب – كما ذهب فى المثنى والجمع – إلى أن هذه الأحرف نفسها هى الإعراب ، وكأنها نابت فيها عن الحركات[1] .

٤ – أن (واو) العطف تفيد الترتيب . لأن الترتيب فى اللفظ إذا قلت مثلا : جاء زيد وعمرو ، يستدعى سببا ، وهو الترتيب فى المجىء[2] .

٥ – أن (إنْ) تأتى بمعنى (قد) . مستدلا بقول الله – تعالى – : ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[3] .

٦ – إعراب (لاجرم) فى قول الله – تعالى – : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾[4] على أن لا ، رد لما قبلها ، أى : ليس الأمر كما وصفوا ، ثم ابتدئ ما بعده ، و (جرم) فعل لا اسم ، ومعناه : وجب ، وما بعده فاعل[5] .

آثاره :

خلف قطرب بعد وفاته العديد من المصنفات فى مختلف العلوم والمعارف كالقرآن والحديث واللغة والصرف . نذكر منها :

١ – كتاب معانى القرآن .

٢ – كتاب إعراب القرآن .

٣ – الرد على الملحدين فى متشابه القرآن .

٤ – كتاب غريب الآثار .

٥ – كتاب العلل فى النحو .

٦ – كتاب المثلث فى النحو .

---

(١) همع الهوامع : ١/١٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥/٢٢٤ .

(٣) سورة الأعلى : آية ٩ . مغنى اللبيب : ١/٢٣ .

(٤) سورة النحل : آية ٦٢ .

(٥) مغنى اللبيب : ١/٢٣٨ .

٧ – كتاب الأضداد .

٨ – كتاب الهمز .

٩ – كتاب فعل وأفعل .

١٠ – كتاب القوافى .

١١ – كتاب الصفات .

١٢ – كتاب الأصوات .

١٣ – كتاب النوادر .

١٤ – كتاب الأزمنة .

١٥ – كتاب الفرق .

١٦ – كتاب خلق الإنسان .

١٧ – كتاب خلق الفرس(١) .

وجدير بالذكر أن كتاب قطرب فى علل النحو لم يصلنا ، غير أن الكتب المتأخرة احتفظت ببعض آرائه فيه : من ذلك تعليله لدخول الإعراب فى الكلام ، وهو يعارض فيه ما ارتآه سيبويه وغيره من النحاة أن الإعراب دخل الكلام لبيان الفرق بين المعانى التى يريدها المتكلمون للكلمات ، إذ تكون فاعلة ومفعولة ومضافة أو مضافا إليها(٢) ؛ حيث يقول :

«لم يعرب الكلام للدلالة على المعانى والفرق بين بعضها وبعض ، لأنا نجد فى كلامهم أسماء متفقة فى الإعراب مختلفة المعانى ، وأسماء مختلفة فى الإعراب متفقة المعانى ؛ فمما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك : إن زيدا أخوك ، ولعل زيدا أخوك ، وكأن زيدا أخوك ، اتفق إعرابه واختلف معناه . ومما اختلف

---

(١) الفهرست : ٧٨ .

(٢) المدارس النحوية : ١٠٩ .

إعرابه واتفق معناه قولك : ما زيد قائما ، (أى فى لغة الحجازيين) ، وما زيد قائم (أى فى لغة بنى تميم) اختلف إعرابه واتفق معناه . ومثله : ما رأيته منذ يومين ، ومذ يومان : ولا مالَ عندك ، ولا مالٌ عندك ؛ وما فى الدار أحد إلا زيدٌ ، وما فى الدار أحد إلا زيدًا . ومثله : إن القوم كلَّهم ذاهبون ، وإن القوم كلُّهم ذاهبون . ومثله : (إن الأمر كلَّه لله) و (إن الأمر كلُّه لله) قرئ بالوجهين جميعا . ومثله : ليس زيد بجبان ولا بخيلٍ ، وليس زيد بجبان ولا بخيلاً . ومثل هذا كثير جدا مما اتفق إعرابه واختلف معناه ، ومما اختلف إعرابه واتفق معناه .

فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعانى ، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه ولا يزول إلا بزواله ؛ وإنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام ؛ ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن . ومتحركين وساكنين ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة فى كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب السكون .

فقيل له : فهلا لزموا حركة واحدة ؟

فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم ، فأرادوا الاتساع فى الحركات ، وأن لا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة»[1] .

ويروى جلال الدين السيوطى عن قطرب تعليله لظاهرة الترادف فى اللغة بالاتساع فى الكلام ، على نحو ما علل به اختلاف حركات الإعراب ، حيث يقول :

«إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم فى

---

(١) الإيضاح فى علل النحو : ٧٠ .

كلامهم ، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم ، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب»[1] .

وعن كتاب (المثلث فى اللغة) يقول ابن خلكان :

«وهو أول من وضع (المثلث فى اللغة) ، وكتابه وإن كان صغيرا ، لكن له فضيلة السبق ، وبه اقتدى أبو محمد عبدالله بن السيد البطليوسى ، وكتابه كبير ؛ ورأيت مثلثا آخر لشخص آخر تبريزى ، ليس هو الخطيب «أبوزكريا التبريزى» ، بل غيره ، ولا أستحضر الآن اسمه ، وهو كبير أيضا وما قصَّر فيه ؛ وما نهج لهم الطريق إلا قطرب»[2] .

شعره :

روى ابن المنجم فى كتابه (البارع) بيتين من الشعر نسبهما لقطرب هما :

إنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِى فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِى ... يَرَاكَ قَلْبِى وَإِنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِى

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ مَنْ تَهْوَى وَتَفْقِدُهُ ... وَبَاطِنُ الْقَلْبِ لاَ يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ

قال ابن خلكان : «هذان البيتان مشهوران ، ولا أعلم أنهما له إلا من هذا الكتاب»[3] .

ويروى أن أبا القاسم الباهلى المهلبى – وكان من تلاميذ قطرب – جعل له جعلا على أن يقدمه على نفسه ، ويشهد له بالعلم ، ويقول فى ذلك شعرا ، فأجابه قطرب إلى ذلك وقال :

ذَا مَا أَقَرَّ بِهِ قُطْرُبُ ... عَلَى نَفْسِهِ لأَبِى الْقَاسِمِ

وَأَشْهَدَ هُودًا وَجَهْمًا عَلَيْهِ ... وَأَشْهَدَ غَزْوَانَ مَعَ عَاصِمِ

بِأَنْ قَالَ قَدْ بَزَّنِى فِى الْقِيَاسِ ... وَصَيَّرْتُ فِى يَدِهِ خَاتَمِى

---

(١) المزهر : ١/٤٠٠ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٣١٢ .

(٣) المصدر السابق : ٤/٣١٣ ، وبغية الوعاة : ١/٢٤٣ .

وَأَعْلَمُ بِالنَّحْوِ مِنْ سِيبَوَيْهِ ... وَأَجْوَدُ بِالْمَالِ مِنْ حَاتِمِ

بَدِيهَتُهُ عِنْدَ رَدِّ الْجَوَابِ ... تَزِيدُ عَلَى فِطْنَةِ الْعَالِمِ

فَصِرْتُ عَلَى السِّنِّ تِلْمِيذَهُ ... وَصَارَ أَبُو قَاسِمٍ عَالِمِي [1]

أقوال العلماء فيه :

تضاربت أقوال العلماء حول قطرب ، فمنهم من مدحه ، وأثنى عليه ، ووصفه بأنه ثقة ، ومنهم من سحب عنه هذه الصفة ، وصرح بأنه ليس ثقة فيما يرويه .

فقد وصفه أبو الطيب اللغوى بقوله : «كان حافظا للغة ، كثير النوادر والغريب»[2] .

وقال عنه ابن النديم : «ثقة فيما يحكيه»[3] .

وقال عنه ابن خلكان : «كان حريصا على الاشتغال والتعلم»[4] .

أما السيوطى فقد وصفه بقوله : «ولم يكن ثقة»[5] .

وقال ابن السكيت : «كتبت عن قطرب قمطرا ، ثم تبينت أنه يكذب فى اللغة ، فلم أذكر عنه شيئا»[6] .

وفاته :

أجمعت كل المصادر التى ترجمت لحياة قطرب على أنه توفى سنة ست ومائتين هجرية – عليه رحمة الله –[7] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٠٠ .
(٢) مراتب النحويين : ١٠٩ .
(٣) الفهرست : ٧٨ .
(٤) وفيات الأعيان : ٤/٣١٢ .
(٥) بغية الوعاة : ١/٢٤٢ .
(٦) المصدر السابق : ١/٢٤٣ .
(٧) انظر المصادر السابقة .

سمات الطبقة السادسة :

اتسمت الطبقة السادسة من النحويين البصريين بسمات معينة ، منها ما شاركها فيها بعض من رجال الطبقات الأخرى ، ومنها ما تفرد به رجال هذه الطبقة السادسة دون غيرهم ، ولكن ثمة سمات خاصة ارتبطت برجالها حتى غلبت عليهم ، ومن هذه السمات :

١ - حدة الذهن ، ورجاحة الفكر ، وسعة الأفق :

وقد برز ذلك بوضوح وجلاء فيما خرج به كل من الأخفش وقطرب على آراء العلماء السابقين ممن أخذا عنهم كالخليل وسيبويه ، ومما تفرد به كل منهما من آراء خاصة نسبت إليه وارتبطت به حتى يومنا هذا ، على نحو ما هو مطرد فى ترجمة كل منهما ؛ وربما كان مرد ذلك إلى اعتناق كل منهما الاعتزال مما أكسبهما قدرة فائقة فى علم الكلام ، وحذقا ملموسا فى الجدل : فقد كان الأخفش قدريا مرجئا على مذهب أبى شِمّر ، وحدث عن الكلبى ، والنخعى ، وهشام بن عروة[1] . كما كان قطرب نظاميا ، أخذ عن النظام مذهبه ، وحذق الجدل وعلم الكلام[2] .

٢ - الإلمام بالثقافات العامة :

إن الملاحظ على رجال هذه الطبقة أنهم لم يقتصروا على تعلم النحو واللغة والقرآن والحديث والشعر فحسب ، وإنما كانوا يجمعون بين علوم العربية هذه وغيرها من الثقافات العامة ، فنجد الأخفش يؤلف كتاب (الملوك) وكتاب (الغنم ، وأمراضها ، وعلاجها) ؛ ونجد قطرب يؤلف كتاب الأزمنة ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب خلق الفرس[3] .

---

(١) راجع ص ٢٧٦ من هذا البحث .

(٢) راجع ص ٢٨٩ من هذا البحث .

(٣) راجع ص ٢٨٧ ، ٢٩١ من هذا البحث .

٣ - كثرة التصنيف :

ولعل هذا ناتج عن الإلمام بالثقافات العامة ، حيث نجد الأخفش يخلف وراءه بعد موته أربعة عشر مصنفا فى مختلف المعارف والعلوم : كما نجد قطربا وقد ترك لنا بعد وفاته سبعة عشر مصنفا فى شتى أنواع العلوم والمعارف[1] .

٤ - الثقة بالنفس والاعتداد بالعلم :

ومن مواقف رجال هذه الطبقة تبرز ثقتهم بأنفسهم ، واعتدادهم بما حصلوه من علم ، حيث لم يقتصروا على مخالفة أساتذتهم ومعلميهم ، بل تعدوا ذلك إلى الانفراد بآراء خاصة بهم ، تجعلهم غير تابعين لسابقيهم من العلماء ، ويتضح ذلك بجلاء فيما تفرد به كل من الأخفش وقطرب من آراء نحوية وصرفية جديدة تخالف ما ارتآه الخليل وسيبويه وغيرهما[2] .

٥ - التقرب إلى الخلفاء وعلية القوم :

وهذه سمة شاركهم فيها غالبية العلماء ، إذ ندر من لم يسع إلى ذلك منهم كالخليل بن أحمد ، الذى رد رسول سليمان بن على حينما أراد التوسعة عليه مما يلقاه من شظف العيش[3] . بينما نرى سيبويه يسعى إلى القرب من خلفاء بنى العباس ، فيخفق فى مناظرة الكسائى ، ويلقى حتفه بسببها ، وغيره كثير .

وها هو الأخفش بعد أن قدم إلى بغداد للانتقام لسيبويه من الكسائى ، مالبث أن تخلى عن نزعته البصرية ، وتحول إلى تأييد الكوفيين ، وفتح باب الخلاف على الخليل وسيبويه بمجرد أن قربه الكسائى وجعله مؤدب أولاده ، وأبقاه إلى جانبه ينعم برغد العيش ورفاهة الحياة .

وهذا قطرب يتخذ من النحو حرفة يستخدمها فى تعليم أبناء الطبقة الممتازة ببغداد ، ويتطرق منها إلى تأديب الأمين ، ثم أولاد أبى دلف العجلى أحد قواد الرشيد والمأمون النابهين .

---

(١) راجع ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ من هذا البحث .

(٢) راجع ص ٢٧٩ ، ٢٨٩ من هذا البحث .

(٣) راجع ص ١٦٦ من هذا البحث .

٦ - التكسب بالعلم :

وهذه السمة ربما لم تبرز بهذا الوضوح إلا فى هذه الطبقة : إذ نجد الأخفش يضن بإظهار كتاب سيبويه بعد وفاته ، ولم يظهره إلا بعد أن احتال عليه الجرمى والمازنى وبذلا له قدرا من المال . نظير إقرائه لهما : كما أقرأه للكسائى سرا نظير خمسين دينارا ، وعنه يقول الجاحظ : «إنه كان ينشر فى مصنفاته ضربا من الغموض والعسر ، حتى يلتمس منه الناس تفسيرها رغبة فى التكسب بها»[1] .

وعن قطرب يقول الدكتور شوقى ضيف : «... قد عنى بالنحو والتقدم فيه ، بل لقد اتخذه حرفة وأداة لتكسبه فى تعليم أبناء الطبقة الممتازة فى بغداد»[2] .

كما روى أبو القاسم الباهلى المهلبى أنه بذل مبلغا من المال ليقول فيه شعرا يقدمه فيه على نفسه ، ويشهد له بالعلم ، ففعل[3] .



(١) الحيوان : ١/٩١ .

(٢) المدارس النحوية : ١٠٨ .

(٣) راجع ص ٢٩٣ من هذا البحث .

الطبقة السابعة

١ - الجرمى :

أبو عمر صالح بن إسحق البجلى ، مولى بجيلة بن أنمار بن إراش بن الغوث أخى الأزد بن الغوث ،[١] نزل فى جَرْم بن رَبَّان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة ، وهى قبيلة معروفة من قبائل اليمن ، فنسب إليهم[٢] .

ولد الجرمى ونشأ بالبصرة ، وقد دأب منذ صغره على الاختلاف إلى حلقات العلماء بها من النحويين واللغويين ، فأخذ النحو عن الأخفش الأوسط حيث قرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم أخذ عنه كل ما عنده ، كما أخذ عن يونس بن حبيب ، إلا أنه لم يلق سيبويه : وأخذ اللغة عن أبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى والأصمعى ومن فى طبقتهم[٣] .

قدم بغداد ، وناظر الفراء وانتصر عليه ، وكان يلقب بالكلب وبالنُّبَّاح لكثرة صياحه فى مناظراته ، وإليه انتهت رياسة علم النحو فى زمانه[٤] .

وكان الجرمى فقيها ، جليلا فى الحديث والأخبار ، وحدث عنه المبرد وغيره ، فقد روى أبو جعفر الطبرى قال : «سمعت الجرمى يقول : أنا مذ ثلاثون أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه : فحدثت به محمد بن يزيد – على وجه التعجب والإنكار – فقال : أنا سمعت الجرمى يقول هذا – وأومأ بيده إلى أذنيه – وذلك أن أبا عمر الجرمى كان صاحب حديث ، فلما علم كتاب سيبويه ، تفقه فى الحديث ، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش»[٥] .

---

(١) الفهرست : ٨٤ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٧٤ .
(٣) وفيات الأعيان : ٢/٤٨٥ .
(٤) بغية الوعاة : ٢/٨ .
(٥) طبقات الزبيدى : ٧٥ .

وكان الجرمى ذا دين وأخا ورع ، وقد روى عن محدثى أهل البصرة : فقد روى المبرد قال : «حدثنا أبو عمر الجرمى ، عن عبدالأعلى بن عبدالأعلى السامى ، عن محمد بن إسحق ، عن يونس عن الزهرى فى قول الله – عز وجل – : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ...﴾[1] قال : معناه : ما الذى علمناه شعرا ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعرا .

قال الزهرى : وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يقول من الشعر إلا ما قد قيل قبله»[2].

وقال المبرد : «وكان الجرمى يقول فى قوله – تعالى – : ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[3] : لا تقل سمعت ولم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[4].

كما روى عن الجرمى محدثو أهل البصرة ، فقد حدث أبو مزاحم الحاقانى قال : «حدثنا ابن أبى سعد قال : حدثنا مسعود بن عمرو قال : حدثنا أبو عمر الجرمى صالح بن إسحق قال : ما رأيت فقيها قط أفصح من عبدالوارث ، وكان حماد بن سلمة أفصح منه»[5] .

وحدث هؤلاء أيضا عن الجرمى أنه قال : «رأيت يونس النحوى ، وهو بحلقة من حلاق المسجد ، فقام إليه ، فسأله عن قول الله – جل ذكره – : ﴿... وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[6] قال : فقال بيده : التناول ، وأنشد :

وَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشًا مِنْ عَلَا
نَوْشًا بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازُ الْفَلَا [7]

---

(١) سورة يس : آية ٩٦ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٨٤ .
(٣) سورة الإسراء : آية ٣٦ .
(٤) سورة الإسراء : آية ٣٦ ، وانظر وفيات الأعيان : ٢/٤٨٥ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٨٤ .
(٦) سورة سبأ : آية ٥٢ .
(٧) أخبار النحويين البصريين : ٥٨.

وجدير بالذكر أن نسبة الشواهد الشعرية فى كتاب سيبويه هى من عمل الجرمى[1] ، وفى هذا يقول الجرمى : «نظرت فى كتاب سيبويه ، فإذا فيه ألف وخمسون بيتا ، فأما الألف فعرفت أسماء قائليها ، وأما الخمسون فلم أعرف قائليها»[2] .

آراؤه النحوية والصرفية :

ثمة آراء نحوية وصرفية تفرد بها أبو عمر الجرمى ، مخالفا فيها سيبويه والجمهور ، تدل على دقة فكره ، ورجاحة عقله ، وغوصه على المعانى ، نذكر منها :

١ – إعراب المثنى والجمع المذكر ليس لفظيا ، وإنما هو معنوى ببقاء الألف فى المثنى والواو فى الجمع رفعا ، وانقلابهما إلى الياء نصبًا وجرا : وبذلك أنكر الإعراب الظاهر عند سيبويه ، والمقدر عند الأخفش[3] .

٢ – وكذلك ذهب فى إعراب الأسماء الستة ، إذ قال إن إعرابها بالتغير والانقلاب من الواو إلى الألف والياء فى حالتى النصب والجر ، وبعدم الانقلاب فى حالة الرفع[4] .

٣ – كان سيبويه والجمهور يرون أن اسم (لا) النافية للجنس ، إذا كان مفردا ركُب معها وبنى على الفتح مثل : لا رجلَ ، وذهب الجرمى إلى أنه منصوب وحذف منه التنوين تخفيفا[5] .

٤ – المفعول لأجله لا يكون إلا نكرة ، وإذا جاء مضافا كانت الإضافة على نية الانفصال ، فمثل (ادخاره) فى قول الشاعر :

• وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الكَرِيمِ ادِّخَارَهُ •

---

(١) راجع ص ٢٣٦ من هذا الكتاب (فى معرض الكلام على شواهد كتاب سيبويه) .

(٢) طبقات الزبيدى : ٥٧ .

(٣) راجع ص ٢٨٩ من هذا الكتاب .

(٤) همع الهوامع : ١/١٢٣ .

(٥) همع الهوامع : ٢/١٩٩ .

تقديره : ادخاراً له[1] . وكذلك إذا جاء معرفا بالألف واللام مثل (الجبن) فى قول الشاعر :

* لَا أَقْعُدُ الْجُبْنَ عَنِ الْهَيْجَاءِ *

كانت الألف واللام زائدة ، أى (جبنا)[2] .

٥ – إن (الفاء) العاطفة لا تفيد ترتيبا فى المطر والأماكن ، مستدلا بقول امرئ القيس :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[3]

٦ – الفعل المضارع ينتصب بعد (أو) و (فاء) السبب ، و (واو) المعية ، وناصبه هذه الحروف أنفسها ، دون حاجة إلى تقدير (أن) بعدها ، خلافا لما ذهب إليه سيبويه[4] .

أما آراؤه فى الصرف فنذكر منها :

١ – كان سيبويه يرى أن وزن (كلتا) فِعْلَى مثل ذِفْرى ، وذهب الجرمى إلى أن (التاء) فيها زائدة ، وأن وزنها لذلك (فِعْتَل)[5] .

٢ – كان سيبويه يذهب إلى أن كلمة (اطمأنَّ) مقلوبة عن (طأمن) ؛ وذهب الجرمى إلى العكس ، وأن كلمة (طأمن) هى المقلوبة عن (طمأن)[6] .

يتضح مما أثبتناه من آراء الجرمى أنه كان ينزع إلى التيسير والتسهيل فى تناول القواعد النحوية والصرفية ، ويأبى التعقيد وكثرة التقديرات ، حتى إنه كان يمنع التنازع فى الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة ، ذاهبا إلى أنه ينبغى

---

(١) أسرار العربية : ١٨٨ .
(٢) همع الهوامع : ٥/٢٣٢ .
(٣) المصدر السابق :
(٤) الإنصاف : ٢٢٩ .
(٥) الخصائص : ١/٢٠٣ .
(٦) المنصف : ٢/١٠٤ .

أن يقتصر فى الباب على السماع والقياس عليه دون الإتيان بصور معقدة لم يرد لها مثيل عن العرب .

آثاره :

خلف الجرمى بعد وفاته عددا من المصنفات فى شتى علوم العربية وغيرها ، نذكر منها :

١ – كتاب الفرخ . ومعناه : فرخ كتاب سيبويه .

٢ – كتاب التثنية والجمع .

٣ – كتاب تفسير غريب سيبويه .

٤ – كتاب مختصر نحو المتعلمين .

٥ – كتاب الأبنية .

٦ – كتاب التصريف .

٧ – كتاب العروض .

٨ – كتاب القوافى[١] .

٩ – كتاب السِّيَر . وصفه ابن خلكان بأنه كتاب عجيب[٢] .

وأما عن كتابه فى النحو – ولعله كتاب الفرخ – فقد روى أبو حاتم أن الجرمى قال : «أنا لم أضع كتابا فى النحو ، إنما اختصرت كتاب سيبويه» : فقلت له : وذاك لو كنت تحسن تختصره[٣] .

وقال أبو حاتم أيضا – وهو يذم الجرمى – : «ما أحد يأخذ ذلك الكتاب إلا رمى به ، وذلك كان يحسن أن يضع كتابا ؟!»[٤] .

---

(١) الفهرست : ٨٤ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٨٦/٢ .

(٣) طبقات الزبيدى : ٧٤ .

(٤) المصدر السابق : ٧٥ .

ولكن قال العباس بن الفرج – وقد سأله ابنه – : أيهما أحب إليك ؟ كتاب أبى عمر فى النحو أم كتاب الأخفش ؟ فقال : كتاب أبى عمر[1] .

أقوال العلماء فيه :

انقسم العلماء تجاه الجرمى فريقين ، فريق يثنى عليه ويجله ، ويعترف له بالعلم والتدين والتورع ، وفريق يسلبه هذه الصفات ، وينعته بضدها .

فقد وصفه الخطيب البغدادى بقوله : كان فقيها عالما بالنحو واللغة ، دَينا ورعا ، حسن المذهب ، صحيح الاعتقاد ... وكان جليلا فى الحديث والأخبار ، وانتهى إليه علم النحو فى زمانه[2] .

وروى عن المبرد أنه قال : «وكان أعلم القوم فى اللغة ، وأبلغهم فى النحو بعد الجرمى والمازنى : التوجى»[3] ، ويقال له التوزى نسبة إلى توز من بلاد فارس . وقال عنه أيضا : «كان المازنى أحد من الجرمى ، وكان الجرمى أغوصهما»[4] .

وقال عنه كذلك : «كان ذا دين وأخا ورع ، وقد روى عن محدثى أهل البصرة»[5] .

وقال المبرد أيضا : «كان الجرمى أثبت القوم فى كتاب سيبويه ، وعليه قرأت الجماعة»[6] .

وقال عنه ابن خلكان : «كان فقيها عالما بالنحو واللغة»[7] .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) بغية الوعاة : ٢/٨ .
(٣) مراتب النحويين : ١٢٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٢٤ ، وبهذا المعنى نفسه فى أخبار النحويين البصريين : ٨٤ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٨٤ .
(٦) وفيات الأعيان : ٢/٤٨٥ .
(٧) المصدر السابق .

وقال أيضا : «كان عالما باللغة حافظا لها ، وله كتب تفرد بها ، وكان جليلا فى الحديث والأخبار»[1] .

أما أبو حاتم فقال : «كان الجرمى قد اختلط فى آخر أمره ، وكان توءما ؛ ولا يزال من خولط فى الرحم يصيبه شىء»[2] .

وفاته :

أجمعت كتب التراجم التى ترجمت لحياة الجرمى على أنه توفى إلى رحمة الله - تعالى - سنة خمس وعشرين ومائتين للهجرة[3] .

وذكر أبو نعيم الأصبهانى أن الجرمى قدم أصبهان مع فيض بن محمد عند منصرفه من الحج ، فأعطاه يوم مقدمه عشرين ألف درهم ، وكان يعطيه كل سنة اثنى عشر ألفا ، ونزل بغداد فى أوائل العقد الأول من القرن الثانى للهجرة ، واختلف إليه الطلاب يحاضرهم فى كتاب سيبويه ، ويملى عليهم بعض مصنفاته ، وظل بها إلى وفاته سنة ٢٢٥ للهجرة[4] .

٢ - التوزى :

أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون . كان مولى لقريش[5] ، فغلب عليه لقب (القرشى) : يقول أبو العباس المبرد : «كنا ندعوه : أبا محمد القرشى»[6] . وقد لقب بـ (التوزى) نسبة إلى (تَوز)[7] .

قرأ على الأصمعى ، وروى عن أبى عبيدة وغيره ، وقرأ كتاب سيبويه على

---

(١) المصدر نفسه : ٤٨٦/٢ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٧٤.
(٣) انظر المصادر السابقة .
(٤) تاريخ أصبهان : ٣٤٦/١ .
(٥) الفهرست : ٨٥ .
(٦) أخبار النحويين البصريين : ٩٥ .
(٧) توز : بلدة من بلاد فارس ، ويقال لها : توج أيضا ، ومن ثم يقال للرجل : التوزى ، والتوجى .

أبى عمر الجرمى[1] ، كما أخذ عن أبى زيد الأنصارى والأخفش ، واشتهر باللغة والأدب ، فكان أعلم أهل زمانه بالشعر .

وكان التوزى من جملة رجال وندماء الواثق[2] ، وقد تزوج بأم أبى ذكوان النحوى[3] ، فكان أبو ذكوان إذا قيل له : من كان التوزى منك ؟ قال : أبا إخوتى[4] .

روى المبرد أن التوزى قال : «كنت أقرأ على الأصمعى أنا وحِبَّان[5] – وكان لقب حبان : عينين – فكان الأصمعى إذا رآنا تمثل :

وَشَرِيكَيْنِ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْوُدْ ... دِ وَكَانَا مُحَالِفَىْ إِقْلاَلِ» [6]

وروى أبو على الصفار عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : «قرأت على عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، لأبى محمد التوزى كلمة جرير التى أولها :

طَرِبَ الحَمَامُ بِذِى الأَرَاكِ فَشَاقَنِى ... لاَزِلْتَ فِى فَنَنٍ وَأَيْكٍ نَاضِرِ

حتى صرت إلى قوله :

أَمَّا الْفُؤَادُ فَلَنْ يَزَالَ مُوَكَّلاً ... بِهَوَى جُمَانَةَ أَوْ بِرَيَّا العَاقِرِ [7]

فقال له التوزى : ما هما ؟ فقال عمارة : ما يقول صاحبكم ؟ – يعنى أبا عبيدة – فقال التوزى : قال : هما امرأتان . فضحك عمارة ثم قال : هما – والله – رملتان تبتدان بيتى من عن يمينه وعن شماله . فقال لى التوزى : اكتب ،

---

(١) الفهرست : ٨٥ .

(٢) الخليفة هارون بن المعتصم بن الرشيد ، ولى الخلافة خمس سنين وأشهرا ، كان أديبا شاعرا ، توفى سنة ٢٣٢ هجرية عن بضع وثلاثين سنة . (العبر : ١/٤١٢) .

(٣) القاسم بن إسماعيل ، من طبقة المبرد .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٩٧ .

(٥) حبان بن هلال الباهلى نحوى فقيه . توفى سنة ٢١٦ هجرية . (تهذيب التهذيب : ٢/١٧٠) .

(٦) البيت للأعشى (انظر ديوانه : ١٦٩) .

(٧) القصيدة فى ديوان جرير : ٢٣٦ .

وعمارة بن عقيل من أحفاد جرير ، كان شاعرا مقدما فصيحا ، يسكن البادية ، وكان النحويون فى البصرة يأخذون عنه . توفى سنة ٢٣٩ هجرية .

فاستكبرت ما قال إجلالا لأبى عبيدة ؛ فقال : اكتب ، فإن أبا عبيدة لو حضر هذا لأخذ هذا الضرب عنه ، هذا بيت الرجل»[1] .

روى أبو على القالى عن أبى العباس المبرد قوله : «سأل التوزى عمارة عن بيت الفرزدق :

وَمِنَّا غَدَاةَ الرَّوْعِ فِتْيَانُ غَارَةٍ إِذَا مَتَعَتْ بَعْدَ الأَكُفِّ الأَشَاجِعُ[2]

– وما سمعته سئل قط عن شىء من شعر الفرزدق غير هذا – فلم يجبه . فقال التوزى : معناه : الحمرة من الدم ، متعت : احمرت من الدم ، ويقال : نبيذ ماتع ، أى ، شديد الحمرة»[3].

آثاره :

رحل التوزى وخلف وراءه جملة من المصنفات فى الأدب واللغة منها :

١ – كتاب الأمثال .

٢ – كتاب الأضداد .

٣ – كتاب النوادر .

٤ – كتاب فعلت وأفعلت .

٥ – كتاب الخيل ، وسبقها ، وأنسابها ، وشياتها ، وغُرَّتِها ، وإضمارها ومَنْ نُسِبَ إلى فرسه[4] .

أقوال العلماء فيه :

اختلفت آراء العلماء حول التوزى ومكانته العلمية ، بين منصف مكبر له ، وبين منتقص من قدره ومكانته ، ولكن المنصفين أكثر .

---

(١) الفهرست : ٨٥ ، والخبر فى أخبار النحويين البصريين : ٩٥ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٤١٨/١ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٩٦ – ٩٧ .

(٤) الفهرست : ٨٥ .

فقد قال عنه أبو العباس المبرد : «ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من أبى محمد التوزى ، كان أعلم من الرياشي والمازنى ، وأكثرهم رواية عن أبى عبيدة»[1] .

وقال أبو الطيب اللغوى – بعد أن ذكر الحرمازى ، والجرمى ، والزيادى ، والمازنى ، والرياشى ، وأبا حاتم السجستانى – : «وكان التوجى أبلغ القوم فى اللغة ، وأعلمهم بالنحو بعد الجرمى والمازنى»[2] .

ولا يعدم التوزى أن يجد من يهجوه بقوله :

يَا مَنْ يَزِيدُ تَمَقُّتًا ... وَتَبَغُّضًا فِى كُلِّ لَحْظَهْ
وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ الْخَلِيلَ ... لَمَا كَتَبْنَا عَنْكَ لَفْظَهْ [3]

وفاته :

اختلف العلماء ممن ترجموا لحياة التوزى حول تاريخ وفاته ، فقد ذكر الزبيدى فى طبقاته ، والقفطى فى الإنباه أنه توفى سنة مائتين وثلاثين هجرية[4] .

وذكر جلال الدين السيوطى فى البغية أن وفاته كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين[5] .

وذكر الشيخ محمد الطنطاوى أنه توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين للهجرة[6] . رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٩٥ .

(٢) مراتب النحويين : ١٢٣ .

(٣) بغية الوعاة : ٦١/٢ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٩٩ ، وإنباه الرواة : ١٢٦/٢ .

(٥) بغية الوعاة : ٦١/٢ .

(٦) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١١٠ .

٢ - المازنى :

أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان ، وقيل : ابن بقية ، وقيل : ابن عدى بن حبيب . من بنى مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن على ابن بكر بن وائل[١] : وقيل : مولى بنى سدوس ، نزل فى بنى مازن فنسب إليهم[٢].

وكان أبوه محمد بن حبيب نحويا قارئا ، وكان له مع أبى سوار الغنوى مجلس ، قال أبو عثمان : «قرأت على أبى - وأنا غلام - ﴿تَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[٣]، فقال أبو سوار - وكان فصيحا ، أخذ عنه أبو عبيدة فمن دونه - : ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ﴾ ، فقال أبى : (من خلله) قراءة ، فقال أبو سوار : أما سمعت قول الشاعر :

يُشِيرُ بِغَمْزَةٍ يَخْرُجْنَ مِنْهَا ... خُرُوجَ الوَدْقِ مِنْ خِلَلِ السَّحَابِ»

قال أبو عثمان : خلل ، وخلال واحد ، وهما مصدران[٤] .

روى أبو عثمان عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى ومحبوب ابن الحسن ، وروى عنه الفضل بن محمد اليزيدى والمبرد وعبدالله بن أبى سعد الوراق ، وقرأ على الأخفش كتاب سيبويه مع الجرمى[٥] .

وورد بغداد ، فأخذ عنه أهلها ، وروى عنه منهم الحارث بن أبى أسامة ، ومحمد بن أبى الجهم السَّمَّرى ، وموسى بن سهل الجونى[٦] .

علمه وثقافته :

كان المازنى من فضلاء الناس ، ورواتهم ، وثقتهم ، وكان متخلقا رفيقا بمن يأخذ عنه ؛ فقد ذكر المبرد عنه قوله : «قرأ علىّ رجل كتاب سيبويه فى مدة

---

(١) إنباه الرواة : ٢٤٦/١ ، وأخبار النحويين البصريين : ٨٥ ، والفهرست : ٨٤ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٨٧ ، وبغية الوعاة : ٤٦٣/١ .

(٣) سورة النور من الآية ٤٣ .

(٤) الفهرست : ٦٧ .

(٥) راجع قصة احتيال المازنى والجرمى على الأخفش لإقرائهما كتاب سيبويه ص ٢١٥ .

(٦) إنباه الرواة : ٢٤٦/١ .

طويلة ، فلما بلغ آخره قال لى : أما أنت فجزاك الله خيرا ، وأما أنا فما فهمت منه حرفا[1].

وحكى عنه المبرد أيضا أنه قال : «قرأت على يعقوب بن إسحق الحضرمى القرآن ، فلما ختمت رمى إلىّ بخاتمه وقال : خذه ، ليس لك مثل ؛ وكذلك فعل يعقوب بأبى حاتم ، ختم عليه سبع ختمات ، وقيل خمسا وعشرين ختمة ، فأعطاه خاتمه وقال له : أقرئ الناس[2].

وقال أبو عثمان : «سألنى الأصمعى عن هذا :

يَا بِئْرُ ، يَا بِئْرَ بَنِى عَدِىّ

لَيُمْخَضَنَّ جَوْفُك بالدَّلِىّ

حَتَّى تَعُودِى أَقْطَعَ الْوَلِىّ [3]

فقلت : حتى تعودى قليبا أقطع الولىّ . كان حقه أن يقول : قطعاء الولى ، لقوله : تعودى»[4].

وذُكِر أن بعض تلامذة المازنى دخل عليه وهو يعالج نفسه ، قال : فقلت له : امرخ صدرك يلين - لأنى سمعت فى حلقه حشرجة - فقال لى : امرخ صدرك يلن»[5].

وكان عبدالصمد بن المُعَذَّل[6] قد وجد من شىء كان أنكره المازنى ، أو كلام تكلم به فيه ، فقال يهجوه وأفحش :

بِنْتُ ثَمَانِينَ بِفِيهَا لَثْغَهْ ... شَوْهَاءُ وَرْهَاءُ كَطِينِ الرَّدَغَهْ [7]

(١) المصدر السابق : ٢٤٨/١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الولى : الماء الذى يلى الماء الموجود فى البئر إذا نزح . الأمالى الشجرية : ١٥٨/١ ، والخزانة : ٥١١/٢ .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٩٣ .

(٥) إنباه الرواة : ٢٥١/١ .

(٦) شاعر فصيح من شعراء الدولة العباسية ، كان هجّاء خبيث اللسان شديد العارضة . (الأغانى : ٥٤/١٢) .

(٧) شوهاء : قبيحة . ورهاء : حمقاء لا تحسن العمل . الردغة : الوحل الكثير الشديد .

وهى أرجوزة فاحشة عدتها عشرة أبيات (عشرون بيتا على نظام كتابة الرجز) ينهيها بقوله :

فَقُلْتُ : مَنْ أَنتِ ؟ فَقَالَتْ لِى : دُغَهْ وَابْنِى أبو عُثْمَانَ ذُو عِلْمِ اللُّغَهْ [1]

فَاطُوِ حَدِيثِى دُونَهُ أَنْ يَبْلُغَهْ هَمَمْتُ أَعْلُو رَأْسَهَا فَأَدْمَغَهْ

فبلغ أبا عثمان فقال : قولوا له الجاهل : بم نصبت (فأدمغه) ؟ لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك[2] .

المازنى فى حضرة الواثق :

حمل المازنى من البصرة إلى الواثق فى سامرا (سر من رأى) مرتين :

الأولى : حين كتب الواثق فى حمله إليه ، إذ أراده على النظر والكلام ، فأبى وقال : أنا تارك ، فأعفوهُ ، ووهب له الواثق مالا ورده إلى البصرة[3] .

والثانية : عندما قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من ذلك ، قال المبرد : فقلت له : جعلت فداك ، أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية من كتاب الله - عز وجل - ولست أرى أن أمكن منها ذميا ، غيرةً على كتاب الله ، وحمية له ؛ قال : فاتفق أن اشتريت للواثق جارية من البصرة بمائة ألف فغنته يوما :

أَظُلَيْمُ إِنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلاً أَهْدَى السَّلاَمَ إِلَيْكُمُ ظُلْمُ [4]

فرد عليها الواثق وقال : (إن مصابكم رجل) ، فأعادت (إن مصابكم رجلا) ، فأعاد الرد عليها ، فقالت : لا أقول إلا كما علمت ، فقال للفتح بن خاقان : كيف

---

(١) دغة : اسم امرأة حمقاء ، وفى المثل : أحمق من دغة . (الأمثال لأبى عبيد : ٣٦٦) .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٩٥ .

(٣) إنباه الرواة : ١/٢٤٨ .

(٤) البيت : نسبه ابن خلكان (١/٩٢) والحريرى فى درة الغواص (٤٣) إلى العرجى ، وهو فى ديوانه : ١٩٣ ، ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب (١/٢١٧) إلى الحارث بن خالد المخزومى .

هو يافتح ؟ فقال : هو خبر (إن) كما قال أمير المؤمنين ؛ فقالت الجارية : أخذت هذا الشعر من أعلم بالعربية ، فقال : ومن هو ؟ قالت : بكر بن عثمان المازنى ، وكان يعرب شعر غنائى ؛ فأمر الواثق بإشخاصه من البصرة فأُشْخِصَ[1].

قال المازنى : فلما وصلت إليه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أى الموازن ؟ أمازن تميم ، أم مازن قيس ، أم مازن اليمن ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمنى بكلام قومى ، وقال : بَاسمك ؟ يريد : ما سمك ؟ – وهى لغة بلحارث بن كعب ، يقلبون فيها الميم باء والباء ميما – ، فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدت ، وأعجب به ، وقال : أحسنت يا مازنى ، فما تقول فى قول الشاعر :

* أَظَلُومُ إنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلاً *

أترفع (رجلا) أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين ، فقال : ولم ذلك ؟ قلت : إن (مصابكم) مصدر بمعنى إصابتكم[2] : فأحضر التوزى ، وكان فى دار الواثق ، وكان يقول : (إن مصابكم رجلٌ) ويظن أن (مصابكم) مفعول به ، و (رجل) خبر.

قال المازنى : فأخذ التوزى فى معارضتى ، فقلت له : كيف تقول (إن ضربك زيدا ظلم ؟) فقال التوزى : حسبى . وفهم[3].

قال الواثق : أين خبر (إن) ؟ قلت : (ظلم) الحرف الذى فى آخر البيت ، أما ترى . يا أمير المؤمنين – أن البيت كأنه معلق لا معنى له حتى يتم بهذا الحرف ؟ وإذا قال : (أظلوم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام إليكم) فإنه ما قال شيئًا حتى يقول : (ظلم) . قال : فاستحسنه الواثق وقال : صدقت يا مازنى . ومن خلفت وراءك من العيلة عند شخوصك ؟ قلت : أخية تحل منى محل البنت . قال : فما قالت لك عند فراقك لها ؟ قلت : قالت لى ما قالت ابنة الأعشى لأبيها :

(١) طبقات الزبيدى : ٨٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ١/٢٨٥ .

(٣) إنباه الرواة : ١/٢٥٠ .

تَـقُـولُ ابْـنَـتِـى حِـيـنَ جَدَّ الـرَّحِـيـلُ أرَانَــا سَــوَاءً وَمَــنْ قَــدْ يَــتِــمْ
أَبَــانَــا ، فَــلاَ رُمْـتَ مِـنْ عِـنْـدِنَـا فَــإنَّــا بِــخَــيْــرٍ إِذَا لَــمْ تَــرِمْ
وَيَــا أَبَــتَــا لاَ تَــزَلْ عِــنْــدَنَــا فَــإنَّــا نَــخَــافُ بِــأَنْ نُــخْــتَــرَمْ
أَرَانَــا إِذَا أَضْــمَــرَتْــكَ الــبِــلاَ دُ نُـجْـفَـى وَيُـقْـطَـعُ مِـنَّـا الرَّحِـمْ [1]

فقال الواثق : كأنى بك قد قلت لها :

تَـقُـولُ بِـنْـتِـى وَقَـدْ قَـرَّبْـتُ مُـرْتَـحِـلاً يَارَبِّ جَنِّبْ أَبِى الأَوْصَابَ وَالوَجَعَا
عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِى صَلَّيْتُ فَاغْتَمِضِى نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرء مضطجعا [2]

ثم قال : فما قلت لها عند ذلك ؟ قلت : ما قال جرير لابنته :

ثِـقِـى بِـالـلَّـهِ لَـيْـسَ لَـهُ شَـرِيكٌ وَمِـنْ عِـنْـدِ الـخَـلِـيـفَـةِ بِالـنَّـجَاحِ [3]

فقال الواثق : ثق بالنجاح من عند الله – عز وجل – ومن عندنا يا بكر[4] ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردنى مكرما .

قال المبرد : فلما عاد إلى البصرة قال لى : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة ، فعوضنا ألفا[5] .

وللمازنى فى حضرة الواثق موقف آخر ، حيث يحكى أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس عند المازنى قوله : «قلت لابن قادم – أو لابن سعدان – لما كابرنى : كيف تقول : نفقتك دينارا أصلح من درهم ؟ فقال : دينار – بالرفع – ، قلت : فكيف تقول : ضربك زيدا خيرك ؟ فنصب (زيدا) . فقلت له : فرِّق بينهما ، فانقطع ؛ وكان ذلك عند الواثق[6] .

(١) ديوان الأعشى : ٣٣ .
(٢) البيتان : للأعشى . انظر ديوانه : ٧٣ .
(٣) ديوان جرير : ٧٣ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٨٨ .
(٥) وفيات الأعيان : ١/ ٢٨٥ .
(٦) إنباه الرواة : ١/ ٢٥١.

وله موقف آخر مع يعقوب ابن السكيت فى حضرة الواثق[1] حيث يقول أيضا فى رواية أبى جعفر النحاس : «... وحضر ابن السكيت ، فقال الواثق : سله عن مسألة ، فقلت له : ما وزن (نَكْتَلْ) مِنَ الفعل ؟[2] فقال : نفعل . فقال الواثق : غلطت ، ثم قال لى : فسره . فقلت (نكتل) تقديره : نفتعل . إذ أصله (نكتيل) ، فانقلبت الياء ألفا لتحركها وفتحة ما قبلها ، فصار لفظها : نكتال ، فأسكنت اللام للجزم ، لأنه جواب الأمر ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين . فقال الواثق : هذا الجواب ، لا جوابك يا يعقوب . فلما خرجنا قال لى يعقوب : ما حملك على هذا وبينى وبينك من المودة الخالصة ؟ فقلت : والله ما قصدت تخطئتك ، ولم أظن أنه يعزب عنك ذلك» .

وثمة موقف آخر للمازنى فى حضرة الواثق ، حيث يقول :

«وحضرت يوما آخر ، واجتمع جماعة من نحويى الكوفة ، فقال لى الواثق : يا مازنى ، هات مسألة ، قلت : ما تقول فى قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[3] ، لِمَ لم يقل : بغية ، وهى صفة لمؤنث ؟ فأجابوا بإجابات غير مرضية . فقال لى : هات . قلت : لو كان (بغىّ) على تقدير (فعيل) بمعنى فاعلة ، للحقتها الهاء مثل : كريمة وظريفة ؛ وإنما تحذف الهاء إذا كانت فى معنى مفعولة نحو : امرأة قتيل ، وكف خضيب ، و (بغىّ) ها هنا ليس بفعيل ، وإنما هو (فَعُول) لا تلحقه الهاء فى وصف التأنيث نحو : امرأة شكور ، وبئر شطون ، إذا كانت بعيدة الرشاء ، وتقدير (بغىّ) : بغوىٌ ، قلبت الواو ياء ، ثم أدغمت الواو فى الياء ، فصارت ياء ثقيلة نحو : سيِّد ، وميِّت . فاستحسن الجواب . فاستأذنته فى الخروج[4] .

قال : إن ها هنا قوما يختلفون إلى أولادنا ، فامتحنهم ؛ فمن كان منهم عالما ينتفع به لزمناه إياهم ومن كان بغير هذه الصفة قطعناه عنهم ، ثم أمر

(١) ذكر القفطى فى إنباه الرواة : ١/٢٥١ أن ذلك كان فى مجلس المتوكل ، وما أوردناه فى طبقات الزبيدى : ٨٩ .

(٢) من قول الله – تعالى – : «فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون» . يوسف : ٦٣ .

(٣) سورة مريم : من الآية ٢٨ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٨٩ .

فجمعوا إلىّ ، فامتحنتهم فما وجدت طائلا ، وحذروا ناحيتى . فقلت : لا بأس على أحد . فلما رجعت إليه قال : كيف رأيتهم ؟ قلت : يفضل بعضهم بعضا فى علوم يفضل الباقون فى غيرها ، وكل يحتاج إليه .

قال الواثق : إنى خاطبت منهم واحدا ، فكان فى نهاية الجهل فى خطابه ونظره ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أكثر من تقدم منهم بهذه الصفة ، ولقد أنشدت فيهم :

إنَّ الْمُعَلِّمَ لاَ يَزَالُ مُضَعَّفًا ... وَلَوِ ابْتَنَى فَوْقَ السِّمَاكِ بِنَاءً
مَنْ عَلَّمَ الصِّبْيَانَ أَصْبَوْا عَقْلَهُ ... حَتَّى بَنِى الْخُلَفَاءَ وَالأُمَرَاءَ

فقال : لله درك يا بكر ! كيف لى بك يا بكر ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الغنم والفوز فى قربك والنظر إليك ، ولكنى ألفت الوحدة ، وأنست بالانفراد ، ولى أهل يوحشنى البعد عنهم ، ويضرهم ذلك ؛ ومطالبة العادة أشد من مطالبة الطباع ، فأمر لى بألف دينار وكسوة وطيب ، وقال : لا تقطعنا وإن لم يأتك أمرنا ، فقلت : سمعا وطاعة ، وودعته وانصرفت[1] .

المازنى فى مجلس المتوكل :

وفى رواية أخرى عن أبى إسماعيل بن القاسم (القالى) عن المازنى أنه قال :

«فانصرفت إلى البصرة ، وكتب إلى عاملها أن يدر علىّ مائة دينار كل شهر . فلما مات الواثق قطعت عنى ؛ ثم ذكرت للمتوكل ، فأمر بإشخاصى ، فلما دخلت عليه رأيت من العدة والسلاح والأتراك ما راعنى ، والفتح بن خاقان بين يديه ، وخشيت أنى إن سئلت عن مسألة ألا أجيب فيها ، فلما مثلت بين يديه ، وسلمت قلت : يا أمير المؤمنين ، أقول كما قال الأعرابى :

---

(١) المصدر السابق : ٩٢ .

لاَ تَقْلُوَاهَا وَادْلُوَاهَا دَلْوَا

إنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَدْوَا[1]

قال المازنى : فلم يفهم عنى ما أردت ، واستبردت فأخرجت ، ثم دعانى بعد ، ذلك فقال : أنشدنى أحسن من شعر الأعرابى ، فأنشدته قصيدة أبى ذؤيب الهذلى :

* أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ *[2]

فقال : ليس بشىء ، ثم أنشدته قصيدة متمم بن نويرة :

* لَعَمْرِى وَمَا دَهْرِى بِتَأْبِينِ مَالِكٍ *[3]

فقال : ليست بشىء ، فأنشدته قصيدة كعب الغنوى :

* تَقُولُ سُلَيْمَى ما لِجِسْمِكَ شَاحِبًا *[4]

فقال : ليست بشىء ، فأنشدته قصيدة ابن مناذر فى عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفى :

* كُلُّ حَىٍّ لاَقِى الْحِمَامَ فَمُودِى *[5]

فقال : ليست بشىء ، ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبدالصمد ابن المُعَذَّل بن غيلان ، قال : فأنشدنى له ، فأنشدته أبياتا قالها فى قاضينا ابن رياح :

---

(١) الرجز فى (لسان العرب) : ١٨/٢٩٢ ، ١٩/٣٥٢. لا تقلواها : لا تعنفاها فى السير. يقال : قلوت إذا سرت سيرا عنيفا ، ودلوت : إذا سرت سيرا رفيقا . والغدو : أصل الغد حذفت لامه ، ولم يستعمل تاما إلا فى الشعر .

(٢) القصيدة فى ديوان الهذليين : ١/١ ، وعجز البيت :

* والدهر ليس بمعتب من يجزع *

(٣) القصيدة فى المفضليات : ٢/٦٤ ، وعجز البيت :

* ولا جزع مما أصاب فأوجعا *

(٤) القصيدة فى جمهرة أشعار العرب : ٢٧٤، وعجز البيت :

* كأنك يحميك الطعام طبيب *

(٥) القصيدة فى الأغانى : ٩/١٧ ، وعجز البيت :

* ما لحى مؤمل من خلود *

أَيـا قـاضِيَـةَ الْـبَـصْـرَةْ قُـومِـى فـارْقُـصِـى قَـطْـرَه

وَمُـرِّى بِـرَوَاشِـنْـكِ فَـمَـاذَا الْـبَـرْدُ والْـغَـشْـرَه

أَرَاكِ قَـدْ تُـشِـيـرِيـنَ عَـجَـاجَ الْـقَـصْـفِ يَـا حُـرَّه

بِـتَـخْـذِيـفِـكِ خَـدَّيْـكِ وَتَـجْـعِـيـدِكِ لِـلـطُّـرَّه[1]

قال المازنى : فاستحسنها المتوكل ، واستطار لها سرورا وابتهاجا ، وأمر لى بجائزة : فكنت أتعمل له حفظ مثل ذلك ، واستدللت على نقصه وكمال الواثق[2] .

آراؤه فى النحو :

كان المازنى فطنا ذكيا ، ومناظرا ألمعيا ، حيث لزم منذ إقباله على العلم حلقات المتكلمين ، إذ كان يقول بالإرجاء[3] . أى : يعتنق مذهب المرجئة من المعتزلة ، مما جعله يفحم مناظريه دائما بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، وقد سقنا آنفا أن الواثق والمتوكل عقدا مناظرات بينه وبين علماء عصره ظهر فيها فضله ، وخصب عقله ، وقوة ذهنه وملكاته . ولم يشأ أن يصنف كتابا فى النحو عملا بقوله : «من أراد أن يصنف كتابا كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى»[4] . إلا أن له آراء طريفة كثيرة يتناقلها النحاة ، وتتناثر فى مطولات النحو ، نذكر منها – على سبيل التمثيل لا الحصر :

١ – قوله بأن ألف الاثنين ، وواو الجماعة ، وياء المخاطبة ليست فاعلين ، وإنما هى علامات تؤذن بالتثنية ، والجمع ، والتأنيث ، والفاعل مع الجميع ضمير مستتر ؛ وكذلك نون النسوة فى نحو (قمن) فهى حرف تأنيث والفاعل مستكن أو مستتر[5] .

---

(١) الأبيات فى الأغانى : ١٢/ ٥٤ .

(٢) إنباه الرواة : ١/ ٢٥٣.

(٣) بغية الوعاة : ١/ ٤٦٣ .

(٤) المصدر السابق : ١/ ٤٦٦ .

(٥) شرح الكافية للرضى : ٢/ ٨ .

٢ – قوله بأن الألف والواو والياء فى المثنى وجمع المذكر السالم، ليست حروف الإعراب وإنما هى دوال عليه[١].

٣ – قوله بأن (إذا) الفجائية حرف، وأن (الفاء) قبلها فى نحو (خرجت فإذا محمد بالباب) زائدة، مستدلا على ذلك بقول الله – تعالى –: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[٢].

٤ – إجازته تقديم التمييز على عامله فى مثل (تصبب زيد عرقا). مستدلا بقول الشاعر:

أَتَهْجُرُ لَيْلَى بِالْفِرَاقِ حَبِيبَهَا وَمَا كَادَ نَفْسًا بِالْفِرَاقِ تَطِيبُ[٣]

٥ – إجازته النصب فى الاسم التالى لـ (أى) فى نحو (يا أيها الرجل)، كما جاز فى نعت المنادى المفرد فى مثل: يا زيد الظريفَ، خلافا لسيبويه[٤].

٦ – قوله بأن (مثل ما) فى قول الله – تعالى –: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٥] إنما هى اسم واحد، بنيت فيه (مثل) على الفتح، وهى مع (ما) فى موضع رفع نعت لكلمة (حق)، وهما مضافان إلى (أن) وما بعدها[٦].

٧ – قوله بأن بعض أسماء الأفعال منصوبة بأفعال مضمرة، على أنها مفعولات مطلقة، فهيهات وشتان – مثلا – مفعولان مطلقان لفعل محذوف تقديره (بَعُدَ) وكأنهما: بُعْداً[٧].

٨ – قوله بوجوب بناء جمع المؤنث السالم على الفتح مع (لا) النافية للجنس مثل: لا مطيعاتَ لك. بفتح التاء[٨].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الخصائص: ٣/٣٢٠.
(٣) أسرار العربية: ١٩٦.
(٤) المصدر السابق: ٢٢٩.
(٥) سورة الذاريات: آية ٢٣.
(٦) الخصائص: ٢/١٨٢.
(٧) همع الهوامع: ٥/١٢٢.
(٨) الخصائص: ٣/٣٠٥.

٩ – قوله بأن الأسماء الستة تعرب بالحركات ، وأن الواو والألف والياء نشأت عن إشباع الضمة والفتحة والكسرة(١) .

١٠ – قوله بأن الفعل المضارع حين يجزم يكون مبنيا لا معربا ، إذ إعرابه قائم على وقوعه موقع الاسم ، ولما كان الاسم يمتنع وقوعه موضع جزمه ، فقد ذهبت عنه علة الإعراب ، وعاد إلى الأصل فى الفعل وهو البناء(٢) .

آراؤه فى التصريف :

وعناية المازنى بالنحو ومسائله لا تقاس فى شىء إلى عنايته بالتصريف ، فقد ألف فيه كتابا وسمه بهذا الاسم ، وشرحه ابن جنى بكتاب سماه (المنصف) ، وهو كتاب نفيس جمع فيه موضوعات التصريف المتناثرة فى كتاب سيبويه ، ونظمها لأول مرة ، وصاغها صياغة علمية متقنة إلى أبعد حدود الإتقان(٣) .

ومن يطلع على كتاب (المنصف) يقف على أن المازنى هو الذى فتح باب التمارين غير العملية فى الصرف على مصاريعه ، كأن يقال : ابن من (ضرب) على مثال جعفر ، فيقال : ضربَبْ ، أو ابن منها على مثال قمطر ، فيقال : ضِرَبّ ، أو ابن منها على مثال سفرجل ، فيقال : ضربَّب ، وتقول من (عَلِم) على نفس الوزن : عِلَمَّم ، ومن ظرف : ظرفُف(٤) .

وقد تفرد المازنى بآراء فى التصريف خالف فيها كلا من الخليل بن أحمد وسيبويه ، نذكر بعضا منها :

١ – ذهب الخليل إلى أن وزن (دلامص)(٥) على مثال : فُعَامِل ، بزيادة الميم على

---

(١) الإنصاف : ٦.

(٢) المصدر السابق : ٢٥٠ .

(٣) المدارس النحوية : ١١٨ .

(٤) المنصف : ١/١٧٣ – ١٧٥ .

(٥) دلامص : الأملس البراق .

حروفها الأصلية ، لقول العرب : دليص ودِلاص ؛ وذهب المازنى إلى أن وزنها : فَعالِل ، أى أن الميم أصلية فى بنائه[1] .

٢ – كان الخليل يرى أن (خطايا) وما يماثلها ، قلبت لامها فى مفردها ، وهى الهمزة فى (خطيئة) موضع الياء ... فهى على وزن (فَعالَى) ؛ وذهب المازنى إلى أنها على وزن (فعائل) لأنك تهمز ياءها فى المفرد حين تجمعها ، كما تهمز ياء قبيلة وسفينة فتقول : قبائل وسفائن[2] .

٣ – ذهب الخليل إلى أن حذف عين الفعل (استحيى) بحيث أصبح (استحى) إنما هو لالتقاء الساكنين فى مثل : استحييت ؛ ورأى المازنى أنها إنما حذفت تخفيفا لكثرة الاستعمال[3] .

٤ – ذهب سيبويه إلى أن صيغة (فَعَلَّل) الخماسية لا تكون إلا صفة ؛ وذهب المازنى إلى أنها تكون صفة واسما[4] .

٥ – ذهب سيبويه إلى أن كلمة (أشده) فى قول الله – تعالى – : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾[5] جمع شدة كنعمة وأنعم ؛ وذهب المازنى إلى أنها اسم جمع لا واحد له[6] .

٦ – ذهب سيبويه إلى عدم رد الحرف المحذوف من بناء الكلمة حين تتحول إلى صيغة التصغير فى مثل : هار – وهو البئر – ، ويضع – اسم رجل – إذ تصير فى التصغير : هُوَيْر ، ويُضَيْع ؛ وذهب المازنى إلى رد المحذوف فيقال : هُوَيْئر ، ويويضيع[7] .

---

(١) المنصف : ١/١٥١ .
(٢) المصدر السابق : ٢/٥٤ .
(٣) المصدر نفسه : ٢/٢٠١ .
(٤) نفس المصدر : ١/٣٠ .
(٥) سورة يوسف : من الآية ٢٢ .
(٦) الخصائص : ١/٨٦ .
(٧) المصدر السابق : ٣/٧١ .

٧ – ذهب سيبويه إلى قياس اسم التفضيل من صيغة الفعل الماضى المصوغ على (أفعل) مثل : أكرم ، فيقال : هو أكرم من زيد : وذهب المازنى إلى منع القياس فى ذلك حتى لا تلتبس صيغة اسم التفضيل المشتقة من الفعل الثلاثى بصيغته من الفعل الرباعى ، وإنما تطبق عليه طريقة الفعل المزيد ، إذ يؤتى بمصدره ويسبقه تفضيل من مثله : كثر ، فيقال : أكثر إكراما[١] .

٨ – وذهب المازنى إلى أن القياس فى الإلحاق إنما يطرد فى لام الكلمة مثل : قُعْدُد ومَهْدَد ، أما الإلحاق فى وسط الكلمة مثل إلحاق (الواو) فى جوهر وجدول ، (والياء) فى بيطر فشاذ لا يقاس عليه[٢] .

ولعل فيما تقدم ما يوضح إمامة المازنى وخاصة فى علم التصريف ، وبلا ريب هو الذى نظّم قواعده ومسائلة ، وهو الذى فصله عن النحو الذى كان مخلوطا به فى كتاب سيبويه ، وأقامه علما مستقلا بأبنيته وأقيسته وتمارينه الكثيرة التى ذلل بها شوارده ، ويسرها للباحثين من بعده أمثال أبى على الفارسى وابن جنى ، وكأنما سخرت له اللغة ليستقيم صنيع الخليل وسيبويه فى صياغة قواعد التصريف صياغة تبنى على الضبط الدقيق ، وسلامة التطبيق[٣] .

المازنى والقياس :

كان المازنى ممن يتشددون فى الأخذ بالقياس ، ويردون ما لا يطرد من لغة العرب ومن بعض القراءات القرآنية ، سيرا على نهج عبدالله بن أبى إسحق ، والأخفش ، والفراء ، ولعل رده لقراءة نافع (معائش) بالهمز فى قول الله – تعالى – : ﴿ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾[٤] ، لخير دليل على تمسكه بالقياس ، ورد ما لا يطرد معه من السماع ؛ فقد كان نافع يقرأ (معائش) بالهمز ، والقياس فيها الياء ، ونرى المازنى يرد هذه القراءة بقوله :

(١) المفصل : ٢٣٥ .
(٢) المنصف : ١/٤١ .
(٣) المدارس النحوية : ١٢١ .
(٤) سورة الأعراف : آية ١٠ .

«فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة (معائش) بالهمز ، فهى خطأ ، فلا يلتفت إليها ، وإنما أُخِذت عن نافع بن أبى نعيم ، ولم يكن يدرى ما العربية ، وله أحرف يقرؤها لحنا نحوا من هذا ، وقد قالت العرب : مصائب ، فهمزوا وهو خطأ ... ولكنهم توهموا أن (مصيبة) على مثال (فعيلة) فهمزوها حيث جمعوها ، كما همزوا جمع سفينة سفائن ، ولكن مصيبة (مفعلة) من أصاب يصيب وأصلها : مُصْوِبَة ، فألقوا حركة الواو على الصاد ، فانكسرت الصاد ، وبعدها واو ساكنة ، فأبدلت ياء للكسرة قبلها ، وأكثر العرب يقولون : مَصاوب ، فيجيئون بها على القياس»[1] .

وإنما منع أن تجيء (معيشة) فى الجمع على (معائش) بالهمز ، أن حرف اللين عين الكلمة ، إذ هى من (عاش) ، وحرف اللين إنما يقلب همزة إذا كان مزيدًا على حروف الكلمة مثل : رسالة ورسائل ، وعجوز وعجائز ، وصحيفة وصحائف[2] .

من أقوال المازنى :

سئل المازنى عن أهل العلم ، فقال : «أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف ، وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة ، والقراء فيهم هوَج ، والنحاة فيهم ثِقل ، وفى رواة الأخبار الظرف كله ، والعلم هو الفقه»[3] .

وروى أبو القاسم الكوكنى عن العنزى قال : «أنشد رجل أبا عثمان المازنى شعرا له وقال : كيف تراه ؟ قال : أراك قد عملت عملا بإخراجك هذا من صدرك ، لأنك لو تركته لأورثك السل»[4] .

---

(١) المنصف : ١/٣٠٧ .
(٢) المدارس النحوية : ١١٩ .
(٣) بغية الوعاة : ١/٢٦٤ .
(٤) وفيات الأعيان : ١/٢٨٥ .

آثاره :

خلف المازنى وراءه مجموعة من المصنفات القيمة ، كانت مناط اعتماد العلماء والباحثين من بعده ، وإن لم يصنف فى النحو لا قتناعه بأنه لن يصنف فى النحو كتابا جامعا بعد كتاب سيبويه ، ولعل من أهم مصنفات المازنى كتاب (التصريف) الذى جمع فيه ماتفرق من قضايا الصرف وأبوابه فى كتاب سيبويه ، وجعل منه علما قائما بذاته منفصلا عن علم النحو ، وأرسى به منهجا فى التأليف فى علم الصرف منفردا سار عليه العلماء من بعده أمثال أبى على الفارسى وابن جنى ، وشرحه ابن جنى بكتاب قيم سماه (المنصف) . وله أيضا من المصنفات :

١ – كتاب فى القرآن .

٢ – كتاب فى علل النحو .

٣ – تفاسير كتاب سيبويه .

٤ – ما تلحن فيه العامة .

٥ – كتاب (الألف واللام) .

٦ – كتاب العروض .

٧ – كتاب القوافى .

٨ – كتاب الديباج فى جوامع كتاب سيبويه ، على خلاف كتاب أبى عبيدة[١] .

أقوال العلماء فيه :

انقسمت آراء العلماء فى المازنى ومكانته العلمية وأخلاقه قسمين ، منهم من يكبره ويثنى عليه ، ومنهم من يهجوه وينتقص من علمه .

---

(١) بغية الوعاة : ١/٤٦٥ .

فقد روى الزيادى أبو إسحق قال : «صرت إلى أبى عمرو الجرمى أقرأ عليه كتاب سيبويه ، ووافيت المازنى يقرأ عليه فى الجزاء : «هذا باب ما يرتفع بين الجزمين»[1] ، فكنا نعجب من حذقه وجودة ذهنه»[2] .

وقال أبو الطيب اللغوى : «كان المازنى من فضلاء الناس ، وعظمائهم ، ورواتهم ، وثقاتهم ، وكان من أهل القرآن»[3] .

وقال أيضا : «كان المازنى متخلقا ، رفيقا بمن يأخذ عنه ، إلا أنه كان فى كلامه غموض»[4] .

وروى أبو جعفر الطحاوى ، سمعت القاضى بكار بن قتيبة – رحمه الله يقول : «ما رأيت نحويا قط يشبه الفقهاء إلا حبان بن هلال ، والمازنى – يعنى أبا عثمان – »[5] .

وكان أبو العباس المبرد يصف المازنى بحذق الكلام والنحو ، قال : «وكان إذا ناظر أهل الكلام ، لم يستعن بشىء من النحو ؛ وإذا ناظر أهل النحو ، لم يستعن بشىء من الكلام»[6] .

وقال الجاحظ فى كتاب (البلدان) – وقد ذكر فضل البصرة ورجالها – : «وفينا اليوم ثلاثة رجال نحويون ليس فى الأرض مثلهم ، ولا يدرك مثلهم – يعنى فى الاعتلال والاحتجاج والتقريب – ، منهم أبو عثمان بكر بن محمد المازنى ، والثانى العباس بن الفرج الرياشى ، والثالث أبو إسحق إبراهيم ابن عبدالرحمن الزيادى ؛ وهؤلاء لا يصاب مثلهم فى شىء من الأمصار»[7] .

---

(١) الكتاب : ٣/٨٥ .
(٢) وانظر : طبقات الزبيدى : ٩٣ .
(٣) مراتب النحويين : ١٢٦ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) إنباه الرواة : ١/٢٤٧ .
(٦) المصدر السابق : ١/٢٤٨ .
(٧) المصدر نفسه .

وقال المبرد : «لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبى عثمان»[1] .

وقال السيوطى : «كان أبو عثمان إماما فى العربية ، متسعا فى الرواية ، يقول بالإرجاء ، وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام وقد ناظر الأخفش فى أشياء كثيرة فقطعه»[2] .

أما أبو حاتم السجستانى فكان ينتقص من علم المازنى ، ويرى أنه لا يحسن شيئا ، بل كان يرى ذلك أيضا فى الرياشى ، ولعله من حسد العلماء بعضهم لبعض حيث روى مروان بن عبدالملك بن مروان قال : «سمعت أبا حاتم يقول : كان أبو عثمان مخذولا فى النحو ، كان إذا سئل فأجاب أخطأ ، بل سمعته يقول أيضا : المازنى ، أى شىء كان يحسن ! أو أى شىء كان يحسن الرياشى ! هل وضعا كتابا قط ، أو صنعا شيئا !»[3] .

شعر المازنى :

كان أبو عثمان المازنى - مع علمه بالنحو - متسعا فى الرواية ، وقد أوردت كتب التراجم التى ترجمت لحياته كثيرا من مروياته[4] ، ورغم ذلك لم يؤثر عنه أنه كان يقرض الشعر ، سوى بيتين ذكرهما السيوطى فى البغية[5] ، وهما :

شَيْئَانِ يَعْجَزُ ذُو الرِّيَاضَةِ عَنْهُمَا رَأْىُ النِّسَاءِ وَإِمْرَةُ الصِّبْيَانِ
أَمَّا النِّسَاءُ فَإِنَّهُنَّ عَوَاهِرٌ وَأَخُو الصِّبَا يَجْرِى بِغَيْرِ عِنَانِ

وفاته :

توفى أبو عثمان المازنى بالبصرة سنة تسع وأربعين ومائتين ، وهذا ما عليه غالبية كتب الطبقات التى ترجمت لحياة المازنى ؛ إلا أن الخطيب البغدادى

---

(١) بغية الوعاة : ١/٤٦٤ .
(٢) المصدر السابق : ١/٤٦٣ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٩٣ .
(٤) انظر : أخبار النحويين البصريين : ٨٩ ، وإنباه الرواة : ١/٢٥٣ ، ووفيات الأعيان : ١/٢٨٥ .
(٥) بغية الوعاة : ١/٤٦٦ .

زاد على ذلك بقوله : «أو ثمان وأربعين ومائتين»[1] : وزاد ابن خلكان : «وقيل : ست وثلاثين ومائتين» [2] . وتفرد ياقوت الحموى بأن وفاته كانت سنة ثلاثين ومائتين[3] .

٤ - أبو حاتم السجستانى :

أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم بن يزيد الجُشمى السجستانى[4] : والسجستانى : بكسر السين المهملة والجيم ، وسكون السين الثانية ، وفتح التاء المثناة من فوقها ، وبعد الألف نون : هذه نسبة إلى سجستان – الإقليم المشهور – ، وقيل : نسبة إلى سجتان – قرية من قرى البصرة –[5] .

وأبو حاتم نزيل البصرة وعالمها ، كان إماما فى علوم القرآن واللغة والأدب : وكان كثير الرواية عن أبى زيد الأنصارى ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، وعمرو بن كركرة ، وروح بن عبادة ؛ وعنه أخذ علماء عصره كأبى بكر محمد بن دريد ، والمبرد وغيرهما .

وكان أعلم الناس بالعروض ، واستخراج المُعَمَّى ، وكان يعد من الشعراء المتوسطين ، وكان جماعا للكتب يتجر فيها[6] .

أخلاقه :

كان أبو حاتم صالحا عفيفا ، يتصدق كل يوم بدينار ، ويختم القرآن كل أسبوع ،[7] وقال أبو جعفر الطبرى : «كان أبو حاتم إذا اكتحل ، نفض الكحل على

---

(١) المصدر السابق .
(٢) وفيات الأعيان : ٢٨٦/١ ، والذى قال بذلك هو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح فى تاريخه الكبير (انظر: طبقات الزبيدى : ٩٣ ، وإنباه الرواة : ٢٥٣/١) .
(٣) معجم الأدباء : ١٠٧/٧ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٩٤ ووفيات الأعيان : ٤٣٠/٢ ، وبغية الوعاة : ٦٠٦/١ .
(٥) وفيات الأعيان : ٤٣٠/٢ .
(٦) بغية الوعاة : ٦٠٦/١ .
(٧) وفيات الأعيان : ٤٣١/٢ .

لحيته يغيرها به ، فكان الكحل يسقط من لحيته على ثوبه وعلى صدره ، وكان يتعجب من ذلك»[1].

وروى ابن الغازى[2] قال : «أخبرنى رجل من أهل البصرة قال : قلنا لأبى زيد : على مَنْ نقرأ بعدك ؟ قال : على سهل بن محمد – يعنى أبا حاتم – قال : وكان يُزَنُّ بنحو ما زُنَّ به أبو عبيدة ، ولكن كان برينا منه ، إلا أنه كانت فيه دعابة ، فكان ذلك مما يوجد به السبيل إليه»[3].

فقد كان أبو العباس المبرد يحضر حلقته ، ويلازم القراءة عليه ، وهو غلام وسيم فى غاية الحسن ، فعمل فيه أبو حاتم هذه الأبيات :

مَاذَا لَقِيتُ الْيَوْمَ مِنْ ... مُتَمَجِّنٍ خَنِثِ الْكَلَامِ
وَقَفَ الْجَمَالُ بِوَجْهِهِ ... فَسَمَتْ لَهُ حِدَقُ الأَنَامِ
حَرَكَاتُهُ وَسُكُونُهُ ... تُجْنَى بِهَا ثُمُرُ الأَثَامِ
وَإِذَا خَلَوْتُ بِمِثْلِهِ ... وَعَزَمْتُ فِيهِ عَلَى اعْتِزَامِ
لَمْ أَعْدُ أَفْعَالَ الْعَفَا ... فِ ، وَذَاكَ أَوْكَدُ لِلْغَرَامِ
نَفْسِى فِدَاؤُكَ يَا أَبَا الْـ ... عَبَّاسِ جَلَّ بِكَ اعْتِصَامِى
فَارْحَمْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ... نَزْرُ الْكَرَى بَادِى السَّقَامِ
وَأَنِلْهُ مَا دُونَ الْحَرَا ... مِ فَلَيْسَ يَرْغَبُ فِى الْحَرَامِ[4]

وقال أبو العباس المبرد : «أتيت السجستانى وأنا حدث ، فرأيت بعض ما ينبغى أن تهجر حلقته له ، فتركته مدة ثم صرت إليه ، وعملت له بيتا لهارون الرشيد ، وكان يجيد استخراج المعمى ، فأجابنى :

---

(١) طبقات الزبيدى : ٩٤ .
(٢) محمد بن عبدالله بن الغازى بن قيس ، من أهل قرطبة ، رحل إلى المشرق ، ولقى السجستانى والرياشى ، ثم عاد إلى الأندلس ، وأخذ عنه ما حمل من الشعر والغريب ، توفى سنة ست وتسعين ومائتين هجرية .
(٣) طبقات الزبيدى : ٩٥ .
(٤) وفيات الأعيان : ٢/٤٣١ .

أَيَا حَسَنَ الْوَجْهِ، قَدْ جِئْتَنَا بِدَاهِيَةٍ عَجَبٍ فِي رَجَبْ
فَعَمَّيْتَ بَيْتًا وَأَخْفَيْتَهُ فَلَمْ يَخْفَ، بَلْ لاَحَ مِثْلَ الشُّهُبْ
فَأَظْهَرَ مَكْنُونَهُ الطَّيْطَوِيُّ وَهَتَّكَ عَنْهُ الْحَمَامُ الْعَجَبْ
فَذَلَّلَ مَا كَانَ مُسْتَصْعَبًا لَنَا، فَتَنَاوَلْتُهُ عَنْ كَثَبْ
أَيَا مَنْ إِذَا مَا دَنَوْنَا لَهُ نَأَى، وَإِذَا مَا نَأَيْنَا اقْتَرَبْ
عَذَرْنَاكَ إِذْ كُنْتَ مُتَحَسِّنًا وَبَيْتُكَ ذُو الطَّيْرِ بَيْتٌ عَجَبْ
سَلاَمٌ عَلَى النَّازِحِ الْمُغْتَرِبِ تَحِيَّةَ صَبٍّ بِهِ مُكْتَئِبْ [1]

ومما قاله أبو حاتم أيضا فى أبى العباس المبرد :

أَبْرَزُوا وَجْهَكَ الْجَمِيلَ وَلاَمُوا مَنِ افْتَتَنْ
لَوْ أَرادوا صِيَانَتِى سَتَرُوا وَجْهَكَ الْحَسَنْ [2]

ومن شعره أيضا فى هذا الصدد :

الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيَّ مُرْفَضُّ وَلِلْهَوَى فِي كَبِدِي عَضُّ
أَخْلَقَ وَجْهِي شَادِنٌ وَجْهُهُ عِنْدِي جَدِيدٌ أَبَدًا غَضُّ
أُرْعَدُ إِنْ أَبْصَرْتُهُ مُقْبِلاً كَأَنَّمَا بِي تَزْحَفُ الأَرْضُ [3]

وروى أبو بكر بن السراج قال : أنشدنا أبو العباس لأبى حاتم :

كَبِدَ الْحَسُودِ، تَقَطَّعِي قَدْ بَاتَ مَنْ أَهْوَى مَعِي [4]

وروى جعفر بن محمد عن على بن سهل أنه قال : «حضر معنا مجلس أبى حاتم غلام من بنى هاشم، من آل جعفر بن سليمان، أحسن الناس وجها، فقال أبو حاتم :

---

(١) أخبار النحويين البصريين ـ ١٠٣ .
(٢) بغية الوعاة : ١/٦٠٧ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٩٥ .
(٤) أخبار النحويين البصريين : ١٠٤ .

نَـصَـبُــوا الــلَّـحْـمَ لِـلْـبُـزَا ةِ عَــلَــى ذِرْوَتَــــى عَـــدَنْ
ثُـــمَّ لاَمُـــوا الْـــبُـــزَاةَ أَنْ خَــلَـعُــوا فِــيــهِـمُ الــرَّسَـــنْ
لَــوْ أَرَادُوا عَـــفَـــافَـــنَـــا نَــقَّـبُــوا وَجْـهَــهُ الْــحَــسَـــنْ

فقيل له فى ذلك ، فقال :

لاَ تَـظُـنَّـنْ بـى فُـجُـورًا فَـمَـا يَـزْ كُـو فُـجُـورٌ بِـحَـامِـلِ الْـقُـرْآنِ
أَنَـا عَـفُّ الضَّـمِـيـرِ غَـيْـرُ مُـرِيبٍ غَـيْـرَ أَنِّـى مُـتَـيَّـمٌ بِـالْـحِـسَّـانِ [1]

مذهبه الفقهى :

كان أبو حاتم يظهر العصبية مع أصحاب الحديث ، ويضمر القول بالعدل ، فقد روى جعفر بن محمد عن الحنفى قوله : «كنا عند أبى حاتم ، فجاء رجل من أصحاب الحديث ، فقال له : يا أبا حاتم ، إنى سائلك عن ثلاث ، وجاعل جوابك على طبق أدور به على أصحاب الحديث ؛ فقال : هاتِ . قال : ما معنى قول الله – عز وجل – : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾[2] ؟ وما الإباء فى كلام العرب ؟ قال : القدرة على الشىء والترك له من غير عجز ، قال : وما معنى قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3] ؟ هل يكون الناظر فى كلام العرب بغير معنى الرائى ؟ قال : نعم ، يكون بمعنى الانتظار ، أما سمعت قوله – تعالى – : ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[4] ؟

قال : فأخبرنى عن هذا الاسم : القدرية ، يلزمنا أم يلزمهم ؟ قال : فأدلى رأسه وقال بل يلزمنا ، ولكنا نكابر ، كما أن من يبيع السمك يقال له : سمَّاك»[5] .

---

(١) مراتب النحويين : ١٣١ .
(٢) سورة البقرة : من الآية ٣٤ .
(٣) سورة القيامة : الآيتان ٢٢،٢٣ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٨٠ .
(٥) مراتب النحويين : ١٣٢ .

ثقافته النحوية :

كان أبو حاتم فى نهاية الثقة والإتقان والنهوض باللغة والقرآن ، مع علم واسع بالإعراب أيضا ، أخذ ذلك عن الأخفش ، وبصره بالآثار ، وكتبه فى نهاية الاستقصاء والحسن والبيان[1] .

قال المبرد : «وسمعته - يقصد أبا حاتم - يقول : قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين»[2] .

وقال ابن الغازى : «وكانت تقرأ على أبى حاتم كتب الأخفش ، فكان يرد ردا حسنا : قال : وسمعت أبا حاتم يقول : قال أبو زيد الأنصارى : يقال : تغديت وتعشيت ، ولم أسمع غدوت وعشوت ؛ وقال أبو عبيدة : قد سمعت غدوت وعشوت»[3] .

وروى ابن الغازى أيضا : «كتب يعقوب الصفار[4] ، والى سجستان - وكان متغلبا عليها ، وكان فى ملك شديد - يسأل أبا حاتم نحوا مختصرا ، فأراد أن يبعث إليه كتب الأخفش ، فقيل له : لو أراد كتب الأخفش علم مكانها ، وإنما أراد من قِبَلِك ، فبعث إليه كتابه (المختصر فى النحو) المنسوب إليه ، وهو على مذهب الأخفش وسيبويه»[5] .

ولم ينل أبو حاتم حظا ببغداد ، وإنما قوبل حين دخلها بما لا يحب ، مما جعله يغادرها فورا إلى البصرة ، فقد روى جلال الدين السيوطى :

«... ودخل بغداد ، فسئل عن قوله - تعالى - : ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾[6] ، ما يقال منه للواحد ؟ فقال : قِ ، فقال : فالاثنين ؟ فقال : قِيَا ، فقال : فالجمع ؟ قال : قُوا ، قال : فاجمع لى الثلاثة ، قال : قِ ، قِيا ، قوا . قال : وفى ناحية المسجد رجل

---

(١) المصدر السابق : ١٣٠ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ١٠٢.

(٣) طبقات الزبيدى : ٩٤.

(٤) يعقوب بن الليث الصفار ، كان واليا على الشرق ، وله مواقع مع الخوارج ، توفى سنة ٢٦٥ هجرية .

(٥) طبقات الزبيدى : ٩٤ .

(٦) سورة التحريم من الآية ٦ .

جالس معه قماش ، فقال لواحد : احتفظ بثيابى حتى أجىء ، ومضى إلى صاحب الشرطة ، وقال : إنى ظفرت بقوم زنادقة ، يقرأون القرآن على صياح الديك : فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة ، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة ، فسألنا ، فتقدمت إليه وأعلمته الخبر ، وقد اجتمع خلق من خلق الله ، ينظرون ما يكون ، فعنفنى وعذلنى ، وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا !! وعمد إلى أصحابى فقربهم عشرة عشرة ، وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا : فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعا ، ولم يقم ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها»[1].

ومن ثم قال المبرد عن أبى حاتم : «ولو قدم بغداد ، لم يقم له منهم أحد ، وله كتاب فى النحو»[2].

وقال عنه المبرد أيضا : «ولم يكن صادقا فى النحو ، وكان إذا اجتمع بأبى عثمان المازنى فى دار عيسى بن جعفر الهاشمى تشاغل ، أو بادر بالخروج خوفا من أن يسأله عن مسألة فى النحو»[3].

وعنه يقول السيوطى : «... وكان يعنى باللغة ، وترك النحو بعد اعتنائه ، حتى كأنه نسيه ، ولم يكن حاذقا فيه ، وكان إذا اجتمع بالمازنى فى دار عيسى ابن جعفر الهاشمى ، تشاغل وبادر بالخروج ، خوف أن يسألة مسألة فى النحو»[4].

آثاره :

ترك أبو حاتم بعد وفاته كمًّا غفيرا من المؤلفات والمصنفات ، شملت علوم القرآن ، والنحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، وغيرها ، وعنه يقول أبو بكر بن دريد : «... وكان يتجر فى الكتب ، ويخرج المعمى ، حاذقا بذلك ، دقيق النظر فيه ، وله من الكتب :

(١) بغية الوعاة : ١/٦٠٦ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ١٠٢ .
(٣) وفيات الأعيان : ٢/٤٣١ .
(٤) بغية الوعاة : ١/٦٠٦ .

١ – إعراب القرآن .

٢ – كتاب القراءات .

٣ – كتاب المقاطع والمبادئ .

٤ – كتاب اختلاف المصاحف .

٥ – المختصر فى النحو ، وهو على مذهب الأخفش وسيبويه ، والذى بعث به إلى يعقوب الصفار .

٦ – كتاب ما تلحن فيه العامة .

٧ – كتاب المقصور والممدود .

٨ – كتاب المذكر والمؤنث .

٩ – كتاب الإشباع .

١٠ – كتاب الأضداد .

١١ – كتاب الهجاء .

١٢ – كتاب الفصاحة .

١٣ – كتاب الشجر والنبات .

١٤ – كتاب النخلة .

١٥ – كتاب الكرم .

١٦ – كتاب العشب والبقل .

١٧ – كتاب الوحوش .

١٨ – كتاب الحشرات

١٩ – كتاب الزرع .

٢٠ - كتاب الجراد .

٢١ - كتاب خلق الإنسان .

٢٢ - كتاب القسى والسهام والنبال .

٢٣ - كتاب السيوف والرماح .

٢٤ - كتاب اللبأ واللبن الحليب .

٢٥ - كتاب الخصب والقحط .

٢٦ - كتاب النحل والعسل .

٢٧ - كتاب الشتاء والصيف .

٢٨ - كتاب الإبل .

٢٩ - كتاب الحر والبرد والشمس والقمر والليل والنهار .

٣٠ - كتاب الفرق بين الآدميين وبين كل ذى روح .

٣١ - كتاب الشوق إلى الوطن»[١] .

وعن مؤلفات ومصنفات أبى حاتم يقول أبو الطيب اللغوى : «وكتبه فى نهاية الاستقصاء والحسن والبيان»[٢] .

آراء العلماء فيه :

قال أبو الطيب اللغوى : «كان أبو حاتم فى نهاية الثقة والإتقان ، والنهوض باللغة والقرآن ، مع علم واسع بالإعراب أيضا ، أخذ ذلك عن الأخفش ، وبصره بالآثار»[٣] .

---

(١) الفهرست : ٨٧ .

(٢) مراتب النحويين : ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق .

وقال المبرد : ... وكان حسن المعرفة بالعروض ، كثير التأليف للكتب فى اللغة ، يقول الشعر ، صادق الرواية ، وعليه اعتمد أبو بكر بن دريد فى اللغة»[1] .

وقال أبو جعفر الطبرى : «... ورأيت عنده قوما من أهل البصرة يعظمونه ويقولون : أنت شيخنا وأستاذنا ، ونحو ذلك من القول»[2] .

وقال مروان بن عبدالملك : «سمعت الرياشى يقول - ونحن على قبر أبى حاتم لما دفناه وهو يترحم عليه - : «ذُهِبَ معه بعلم كثير ، فقال له بعض أصحابه : كتبه ؟ فقال : الكتب تؤدى ما فيها ، ولكن صدره»[3] .

وقال ابن الغازى : أخبرنى رجل من أهل البصرة قال : قلنا لأبى زيد : على مَنْ نقرأ بعدك ؟ قال : على سهل بن محمد - يعنى أبا حاتم -»[4] .

وقال يعقوب بن إسحق الحضرمى القارئ :

اسْتَمِعِ الْقُرْآنَ إذْ يَقْرَؤُهُ ... سَهْلُ الْقَارِئُ زَيْنُ الْقِرَأَةِ [5]

وروى عن أبى عثمان الخزاعى أنه قال لأبى حاتم : «كنت البارحة بين النائم واليقظان ، فرأيتنى فى المحراب ، إذ سمعت قائلا يقول :

أَبُو حَاتِمٍ عَالِمٌ بِالْعُلُومِ ... فَأَهْلُ الْعُلُومِ لَهُ كَالْخَوَلْ
عَلَيْكُمْ أَبَا حَاتِمٍ إنَّهُ ... لَهُ بِالْقِرَاءَةِ عِلْمٌ جَلَلْ
فَإنْ تَفْقِدُوهُ فَلَنْ تدرِكُوا ... لَهُ مَا حَيِيتُمْ بِعِلْمٍ بَدَلْ [6]

وقال فيه أبو عمرو البصرى :

إلَى مَنْ تَفْزَعُونَ إذَا فُجِعْتُمْ ... بِسَهْلٍ بَعْدَهُ فِى كُلِّ بَابَ

(١) الفهرست : ٨٧ .
(٢) طبقات الزبيدى : ٩٤ .
(٣) المصدر السابق : ٩٥ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٩٥.
(٥) المصدر السابق : ٩٦ .
(٦) المصدر نفسه .

وَمَـنْ تَـرْجُـونَـهُ مِـنْ بَـعْـدِ سَـهْـلٍ   إذَا أوْدَى وَغُـيِّـبَ فِـى الـتُّـرَابِ ![1]

وأبو حاتم ذكره ابن حبان فى الثقات ، وروى له النسائى فى سننه ، والبزار فى مسنده[2].

وفاته :

اختلفت كتب الطبقات حول تاريخ وفاة أبى حاتم . إلا أن غالبيتها أجمع على أنه توفى سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية[3] ، وحدد بعضها أن وفاته كانت فى شهر رجب[4] ، ومنها من ذكر أنها كانت فى شهر المحرم[5] ؛ وقيل : توفى سنة ثمان وأربعين ، وقيل : سنة خمسين ، وقيل : سنة أربع وخمسين[6] .

وكان ذلك بالبصرة فى يوم مطير ، وصلى عليه سليمان بن جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الهاشمى ، وكان يلى البصرة يومئذ ، ودُفن أبو حاتم بصرة المصلى حيال الميل .. عليه رحمة الله — ؛ وقد رثاه الرياشى بقوله :

بَـانَـتْ بَـشَـاشَـةُ أهْـلِ الْـعِـلْـمِ وَالْأدَبِ   مُذْ بَانَ سَـهْـلٌ فَـأمْـسَـى غَـيْـرَ مُـقْـتَـرِبِ
يَا سَهْلُ كُنْتَ — كَمَا سُمِّيتَ — ذَا خُلُقٍ   سَـهْـلٍ بَـعِـيـدًا عَـنِ الْـفَـحْـشَـاءِ وَالـرِّيَـبِ
أمْـسَـتْ دِيَـارُكَ بَـعْـدَ الْـعِـلْـمِ مُـوحِـشَـةً   إنْ تَـسْـألِ الْـعِـلْـمَ لَـمْ تَـنْـطِـقْ وَلَـمْ تُـجِـبِ
مَـنْ لِـلْـغَـرِيـبِ وَلِـلْـقُـرْآنِ يُـسْـألُـهُ   إذَا تُـعْـوِصِـى مَـعْـنَـاهُ وَلَـمْ يُـصِـبِ ![7]

ودخل أعرابى مسجد البصرة ، فتفقد أبا حاتم وكان مختلفا إليه — فأعلم بموته ، فقال :

---

(١) نفس المصدر .
(٢) بغية الوعاة : ٦٠٦/١ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٤ ، طبقات الزبيدى : ٩٦ ، والفهرست : ٨٧ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٩٦ ، الفهرست : ٨٧ .
(٥) وفيات الأعيان : ٤٣٣/٢ .
(٦) المصدر السابق ، مراتب النحويين ١٣٠ ، ووفيات الأعيان : ٤٣٣/٢ ، وبغية الوعاة : ٦٠٦/١ .
(٧) مراتب النحويين : ١٣٠ .

يَا بَانِيَ الدُّنْيَا لِلَذَّاتِهِ ... أعظِمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ مِنْ هَادِمِ
أَمَا تَرَى الإِخْوَانَ قَدْ سَارَعُوا ... بِقَادِمٍ مِنْهُمْ عَلَى قَادِمِ
ومَرَّ مَنْ كُنْتَ تَزَهَّى بِهِ ... وَلَسْتُ مِمَّا ذَاقَ بِالسَّالِمِ
وَلَيْسَ نَقْصُ الأَرْضِ فِي جَاهِلٍ ... كَلاَّ ، وَلَكِنْ ذَاكَ فِي عَالِمِ
أَمَّا الْعِرَاقَانِ فَقَدْ أَقْفَرَا ... بِحَادِثٍ حَلَّهُمَا قَاصِمِ
مَنْ كَانَ لِلْخِطْبَةِ يُعْنَى بِهَا ... وَلِلْغَرِيبِ الْمُشْكِلِ الْغَاتِمِ
قَدْ ذَهَبَ الْعِلْمُ بِأَعْلاَمِهِ ... وَالنَّحْوُ مِنْ بَعْدِ أَبِي حَاتِمِ
مَنْ لِلدَّوَاوِينِ إِذَا حُصِّلَتْ ... وَكُتُبِ أَمْلاَكِ بَنِي هَاشِمِ
مِفْتَاحُ قُفْلٍ ضَلَّ مِفْتَاحُهُ ... وَلُؤْلُؤٍ يَبْقَى بِلاَ نَاظِمِ
يَا مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ لَمْ تَبْكِهِ ... بِوَاكِفٍ مِنْ دَمْعِكَ السَّاجِمِ [1]

٥ - الرياشى :

أبو الفضل عباس بن الفرج ، مولى محمد بن سليمان بن على الهاشمى : كان الفرج - والد عباس - عبدا لرجل من جذام يقال له : رياش ، فنسب إليه ، وامتد هذا النسب إلى ولده العباس ؛ إلا أن رياش هذا باع الفرج لرجل من بنى هاشم ، فأعتقه الهاشمى ، فصار ولاء الفرج وابنه العباس لبنى هاشم ، وبقى عليهما النسب إلى رياش[2] .

كان عالما باللغة والشعر ، كثير الرواية عن الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ، وروى عنه المبرد وابن دريد وإبراهيم الحربى وابن أبى الدنيا وغيرهم . ومما رواه عن الأصمعى ، قال : «مر بنا أعرابى ينشد ابنا له ، فقلنا له : صفه لنا ، فقال : كأنه دنينير ، فقلنا له : لم نره ، قال : فلم يلبث أن جاء بصغير

---

(١) طبقات الزبيدى : ٩٦ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٩٨ ، وطبقات الزبيدى : ٩٧ .

أسَيِّد كأنه جُعَل قد حمله على عنقه ، فقلنا : لو سألتنا عن هذا لأرشدناك ، فإنه مازال اليوم بين أيدينا ، ثم أنشد الأصمعى :

نِعْمَ ضَجِيعُ الْفَتَى إذَا بَرَدَ اللَّيْـ ـلُ سَمِيرًا وَقَرْقَفَ الصَّرَدُ
زَيَّنَهَا اللَّهُ فِى الْفُؤَادِ ، كَمَا زُيِّنَ فِى عَيْنِ وَالِدٍ وَلَدُ [1]

ومما رواه الرياشى أيضا ما حكاه المبرد بقوله : «حدثنا الرياشى - أحسبه عن الأصمعى - قال : قال رؤبة : خرجت مع أبى أريد سليمان بن عبدالملك ، فلما صرنا ببعض الطريق ، قال لى أبى : أبوك راجز ، وجدك كان راجزا ، وأنت مفحم ! قلت : أفأقول ؟ قال : نعم . قال : فقلت :

* كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عَلاَةٍ عَنْسِ * [2]

ثم أنشدته إياها ، فقال : اسكت ، فض الله فاك ! قال : فلما انتهينا إلى سليمان قال له : ما قلت ؟ فأنشده أرجوزتى ، فأمر له بعشرة آلاف . فلما خرجنا من عنده قلت : أتسكتنى وتنشد أرجوزتى ؟! فقال : اسكت ويلك ، فإنك أرجز الناس ! قال : فالتمست منه أن يعطينى نصيبا مما أخذه بشعرى ، فأبى أن يعطينى منه شيئا ، فنابذته ، فقال :

لَطَالَمَا أَجْرَى أَبُو الجَحَّافِ
لِنِيَّةٍ بَعِيدَةِ الإيجَافِ
نَاءٍ عَنَ الأَهْلِينَ وَالأُلاَّفِ
سَرْهَفْتُهُ مَا شِئْتَ مِنْ سِرْهَافِ [3]
حَتَّى إذَا آمَنَ ذَا أعْرَافِ

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٩٩ ، ووفيات الأعيان : ٢٧/٣ .

(٢) الأرجوزة فى ديوان العجاج : ٤٧٢ ، وحسر الدابة : سيرها حتى ينقطع سيرها . العلاة : الجسيمة . العنس : الشديدة .

(٣) سرهفته ، وسرعفته : إذا أحسنت غذاءه .

كَالْكَوْدَنِ الْمَشْدُودِ بِالإِكَافِ [1]
قَالَ : الَّذِى عِنْدَكَ لِى صَوَافِ
مِنْ غَيْرِ مَا كَسْبٍ وَلاَ احْتِرَافِ [2]

فقال رؤبة يجيبه :

إِنَّكَ لَمْ تُنْصِفْ أَبَا الْحَجَّافِ
وَكَانَ يَرْضَى مِنْكَ بِالإِنْصَافِ
ظَلَمْتَنِى غَيْرُكَ ذُو الإِسْرَافِ
يَالَيْتَ حَظِّى مِنْ نَدَاكَ الضَّافِى
وَالْفَضْلُ أَنْ تَتْرُكَنِى ، كِفَافِ [3]

قرأ الرياشى النحو على المازنى ، وقرأ عليه المازنى اللغة : قال المبرد : «سمعت المازنى يقول : قرأ الرياشى علىّ كتاب سيبويه ، فاستفدت منه أكثر مما استفاد منى – يعنى أنه أفادنى لغته وشعره ، وأفاد هو النحو»[4] .

وقال أبو مروان : «وناظر العباس المازنى فى كتاب سيبويه حتى أتى على آخره» . وقال أبو على البغدادى : «وبلغنى أن المازنى قال : قرأ علىّ الرياشى الكتاب ، وهو أعلم به منى»[5] .

أخلاقه :

كان الرياشى زاهدا ، وقد وهب حياته للعلم ، ولم يؤثر عنه أنه تكسب

(١) الكودن : البرذون الهجين ، أى فرس غير عربى ، والبغل أيضا . الإكاف : البرذغة .
(٢) الأبيات فى ديوان العجاج : ١٠٩ ، وأبو الحجاف : كنية رؤبة .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٠ .
(٤) بغية الوعاة : ٢/٢٧ .
(٥) طبقات الزبيدى : ٩٩ .

بعلمه ، كما كان يفعل غالبية العلماء فى عصره ؛ فقد روى ابن الغازى عن الرياشى قوله :

خَلِيلَىّ إنْ كَانَتْ بِسَامَرَّ مَيْتَتِى فَإيَّاكُمَا فِى الْبَرِّ أنْ تَدْفِنَانِيَا

قال : «فإنه حين احْتُمِل إلى سُرَّ مَنْ رَأى ، وكان احتمل لقضاء البصرة ، واستعفى منه ، وقال شعرا يمدح المتوكل به ، وذكر خلاء مسجده ، وأنه لا قائم له ، فأعطاه وتوسع عليه ورده»[1] .

وروى مروان بن عبد الملك أنه سمع الرياشى يقول عما حصله من العلم : «ما طلبنا هذا حين طلبناه لموضع الأجر»[2] .

كما كان الرياشى تقيا ورعا ، متشددا فى تنفيذ أحكام الدين وفرائضه ، فقد حكى عنه المبرد أنه إذا كان صائما لا يبلع ريقه[3] .

وكان الرياشى معتزا بنفسه ، معتدا بعلمه ، معجبا بالمنهج البصرى الذى نشأ عليه ، فقد روى أبو بكر بن دريد قال : «رأيت رجلا فى الوراقين بالبصرة يفضل كتاب (المنطق) ليعقوب بن السكيت ، ويقدم الكوفيين ؛ فقيل للرياشى - وكان قاعدا فى الوراقين - ما قال ، فقال : إنما أخذنا نحن اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع[4] ، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز[5]»[6] .

علمه وثقافته :

علمنا أن الرياشى قد قرأ كتاب سيبويه على المازنى ، وروى كثيرا عن الأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وغيرهما ، وروى عنه المبرد وابن دريد

---

(١) المصدر السابق : ٩٨ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٩٧ .

(٣) بغية الوعاة : ٢/٢٧ .

(٤) حرشة الضباب : صائدى الضباب . واليرابيع : جمع يربوع ، وهو حيوان صغير يشبه الجرذ الصغير .

(٥) الكامخ : شىء يؤتدم به كالدهن وغيره . والشواريز : جمع شيراز ، وهو الجبن القريش .

(٦) أخبار النحويين البصريين : ٩٩ ، والفهرست : ٨٦ .

وغيرهما ، فقد قال مروان بن عبدالملك : «سمعت العباس بن الفرج يقول : تحفظت كتب أبى زيد ودرستها ، إلا أنى لم أجالسه مجالستى للأصمعى ؛ وأما كتب الأصمعى فإنى حفظتها لكثرة ما كانت تردد على سمعى لطول مجالستى له . قال : وكنت أقرأ على أبى زيد ، ولعل حفظى كان قريبا من حفظه»[1] .

وروى مروان أيضا قال : «وقال لى يوما : عمن تأخذ ؟ قلت له : عن فلان . قال : فاجتمعنا عنده يوما أنا وذلك ، قال : فتناظرنا عنده ، فقال لى : تقول لى إنك تأخذ عن هذا وأنت أعلم منه !»[2] .

وروى ابن الغازى أن ولد الفتح بن خاقان قرأ على الرياشى ، وكان الفتح صاحب الخلافة حينئذ ، وأُعطى مالا كثيرا ، ورجع إلى البصرة[3] .

وكان الرياشى مغرما بالغريب ، ملتزما له ، ومن ذلك قوله : «الذُّنَابَى : ما كان لذى جناح خاصة ، وربما استعير للفرس ؛ والذَّنَب لما سوى ذلك . ويقال : عَجَفْتُ للرجل إذا ضربته بالعصا ؛ ويقال للواحد : كَرَوَان وللجمع كِرْوَان ، وكذلك وَرَشَان ووِرْشَان ، وظَرِبان وظِرْبان»[4] .

وقال أبو مروان : «وسمعت أبا الفضل الرياشى يقول : إنما صار لى ذكر بهذا - يعنى بالغريب والشعر -»[5] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيرافى : «كان عالما باللغة والشعر ، كثير الرواية عن الأصمعى ، وروى أيضا عن غيره»[6] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٩٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) نفس المصدر : ٩٨ .
(٤) طبقات الزبيدى : ٩٨ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر نفسه : ٩٩ .

وقال ابن خلكان : «كان عالما رواية ثقة ، عارفا بأيام العرب ، كثير الاطلاع»[1] .

وروى أبو بكر بن أبى الأزهر قال : «كنا نراه – أى الرياشى – يجىء إلى أبى العباس المبرد فى قدمة قدمها من البصرة ، وقد لقيه أبو العباس ثعلب ، وكان يفضله ويقدمه»[2] .

وقال الخشنى : «كان المازنى فى الإعراب ، وأبو حاتم فى الشعر والرواية ، وكان الرياشى فى الجميع ؛ وكان أهل البصرة إذا اختلفوا فى شىء قالوا ما قال فيه أبو الفضل ، فانقادوا لقوله وروايته . وكان من أهل الفضل ، ولا تخرج البصرة مثل الرياشى»[3] .

إلا أن أبا حاتم السجستانى كان ينتقص من علم الرياشى ، ولعل هذا كان دأب أبى حاتم تجاه جل علماء عصره ، فقد قال مروان بن عبدالملك : «سمعت أبا حاتم قال لى – وليس معنا ثالث – إنه ليشتد علىَّ أن يذهب هذا العلم على رأس وتذهب هذه الكتب ، وما ههنا إلا هذا الرياشى ، وعلمه قليل ، ليس عنده كبير شىء . ثم قال لى : وإن أصحاب الحديث يدقون عليه ، ولقد كتب إلى إنسان من أهل خراسان فيه ، ويدق عليه . فقلت لأبى حاتم : إنه يذهب فى هذا الوقت إلى مذهب ابن المعذل ، حتى صار يذكر فيه رؤيا ، عن رجل ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه أمره بالوقف»[4] .

الا أن الخشنى يرد رأى أبى حاتم هذا ، وينقض قوله حيث يقول : «وأشهد لرأيت أبا حاتم يكفر[5] بين يدى الرياشى ، ويعظمه ويجله ، وكان أبو حاتم أسن من الرياشى بسنة ، ولكنه كان يعطيه الحق لفضله عليه ، وما هو فيه»[6] .

(١) وفيات الأعيان : ٣/٢٧ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٩٩ .
(٣) طبقات الزبيدى : ٩٨ .
(٤) المصدر السابق : ٩٧.
(٥) التكفير : التعظيم والتبجيل .
(٦) طبقات الزبيدى : ٩٨ .

آثاره :

خلف الرياشى بعد موته ثلاثة كتب لم تذكر كتب التاريخ والطبقات غيرها وهى :

١ - كتاب الخيل .

٢ - كتاب الإبل .

٣ - كتاب ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب[١] .

وفاته :

أجمعت كتب الطبقات والتراجم التى ترجمت لحياة أبى الفضل الرياشى على أنه توفى سنة سبع وخمسين ومائتين على أيدى الزنج بالبصرة[٢] ، ما عدا ابن الأثير الذى قال إن وفاته كانت فى سنة خمس وستين ومائتين[٣] ، وقال السيوطى : «قتله الزنج بالأسياف ، وكان قائما يصلى الضحى فى مسجده ، ولم يدفن إلا بعد موته بزمان»[٤] .

سنه عند وفاته :

توفى الرياشى وقد بلغ عمره ثمان وسبعين سنة ، فقد روى أبو مروان قال : «وسمعته - أى الرياشى - يقول فى عقب ذى الحجة من سنة أربع وخمسين ومائتين ، وقيل له : كم تعد ؟ فقال : أظن سبعا وسبعين ، وخلفته بالبصرة فى شوال سنة ست وخمسين ومائتين»[٥] .

وروى له السيوطى بيتين من الشعر قالهما فى هذه السنة وهما :

أَنْكَرْتُ مِنْ بَصَرِى مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ وَاسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مَا قَدْ كَانَ يُعْطِينَا

---

(١) الفهرست : ٨٦ ، وبغية الوعاة : ٢/٢٧ .

(٢) المصدران السابقان ، وطبقات الزبيدى : ٩٩ ، وإنباه الرواة : ٢/٣٦٨ ، ووفيات الأعيان : ٣/٢٨.

(٣) الكامل لابن الأثير : ٧/٣٢٨ .

(٤) بغية الوعاة : ٢/٢٧ .

(٥) طبقات الزبيدى : ٩٩ ، ووفيات الأعيان : ٣/٢٨ .

أبعدَ سبعينَ قد ولّتْ وسابعةٍ أبغي الّذي كُنتُ أبْغِيهِ ابنَ عِشرينَا[1]

ثورة الزنج :

الزّنج جماعة من عبيد البصرة ونواحيها ، التقوا حول أحد الأدعياء من العلويين ، واسمه على بن محمد بن عيسى ، وكان فى بدء أمره فقيرا ، ثم أثرى واشتدت شوكته ، وقامت بينه وبين الخلفاء العباسيين حروب تخربت فيها البصرة ، وكثر عدد القتلى : حيث دخل الزنج البصرة وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقين من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين ، فأقاموا على القتل والإحراق ليلة السبت ويوم السبت ، ثم عادوا إليها يوم الاثنين ، فدخلوها وقد تفرق الجند وهربوا ، فنادوا بالأمان ، فلما ظهر الناس قتلوهم ، فلم يسلم منهم إلا النادر ، واحترق الجامع ومن فيه ، وقتل أبو الفضل الرياشى حيث كان بالجامع وقتئذ[2] ؛ إلا أن قوات المتوكل قضت على هذه الفتنة ، وقتل على بن محمد بن عيسى ، وحمل رأسه إلى المتوكل فى بغداد[3] .

سمات الطبقة السابعة :

١ – ظهور البحث فى القواعد الصرفية بصورة واضحة بعدما كانت منضوية تحت مسمى قواعد النحو أفردها المازنى بكتاب سماه (التصريف) .

٢ – الاتجاه إلى التيسير والتسهيل فى تناول القواعد النحوية والصرفية .

٣ – البعد عن التعقيد وكثرة التقديرات فى تفسير القواعد .

٤ – الاقتصار على السماع ثم القياس على المسموع ما أمكن .

٥ – عدم الإتيان بصور مفترضة لم يرد لها مثيل عن العرب .

٦ – كثرة المناظرات والمساجلات بين العلماء .

---

(١) بغية الوعاة : ٢/ ٢٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٧/ ٣٢٨ . ووفيات الأعيان : ٣/ ٢٨.

(٣) الفخرى : ٢٢١ . والكامل : ٧/ ٣٢٩ .

٧ - ظهور فكرة التمارين غير العملية فى الصرف .

٨ - الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالعلم دون متابعة السابقين مطلقا متمثلا فى الاختصاص بما يراه كل عالم .

٩ - كثرة التصنيف ، والتأليف فى شتى المعارف وعلوم اللغة بعامة .

١٠ - كثرة الرواية والإحاطة بأخبار العرب .

* * *

الطبقة الثامنة

١ - المبرد :

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليم بن سعد بن عبدالله بن يزيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبدالله بن بلال بن عوف بن أسلم بن أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث . وعوف بن أسلم يقال له : ثمالة ، وهو بطن من الأزد[١] - أزد شنوءة - إحدى قبائل اليمن .

وسميت هذه البطن من الأزد : ثمالة ، لأنهم شهدوا حربا فنى فيها أكثرهم ، فقال الناس : ما بقى منهم إلا ثمالة : البقية الباقية اليسيرة ، هكذا قال المبرد فى كتاب (الاشتقاق)[٢] .

أما سبب تلقيبه بـ (المبرد) ، فقد ذكر ابن الجوزى فى كتاب (الألقاب) أن المبرد سئل : لم لقبت بهذا اللقب ؟ فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة ، فكرهت الذهاب إليه ، فدخلت إلى أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبنى ، فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا - يعنى غلاف مزملة فارغا - فدخلت فيه وغطى رأسه ، ثم خرج إلى الرسول وقال : ليس هو عندى ، فقال : أخبرت أنه دخل إليك ، فقال : ادخل الدار وفتشها ، فدخل فطاف فى كل موضع فى الدار ، ولم يفطن لغلاف المزملة ، ثم خرج ؛ فجعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة : المبرد المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به»[٣] .

---

(١) الفهرست : ٨٧ ، وطبقات الزبيدى : ١٠١ .
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٣٢٠ .
(٣) المصدر السابق : ٤/٣٢١ .

أما ياقوت الحموى فيقول : «وإنما لقب بالمبرد ، لأنه لما صنف المازنى كتاب (الألف واللام) سأله عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازنى : قم فأنت المبرد – أى : المثبت للحق – فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء»[1].

ولد المبرد يوم الاثنين عيد الأضحى سنة عشر ومائتين ، وقيل : سنة سبع ومائتين هجرية[2].

علمه وثقافته :

أخذ المبرد النحو عن الجرمى والمازنى وأبى حاتم السجستانى ، وقيل إنه بدأ قراءة كتاب سيبويه على الجرمى ، فلما لحق الجرمى بالرفيق الأعلى أتم قراءته على المازنى[3] ؛ وأخذ عن المبرد أبو إسحق الزجاج ، وأبو بكر بن السراج ، ومبرمان[4] ؛ وروى عنه إسماعيل الصفار ، ونفطويه ، والصولى[5].

أخلاقه :

قال أبو بكر التاريخى[6] : «كان المبرد من أبخل الناس بكل شىء . وقال : أبو عبيدة معمر بن المثنى : لا يكون نحوى شجاعا ، فقيل له : وكيف ؟ فقال : ترونه يفرق بين الساكن والمتحرك ، ولا يفرق بين الموت والحياة ! وقال المبرد : وأنا أقول : إنه لا يكون نحوى جوادا . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : ترونه يفرق بين الهمزتين ، ولا يفرق بين سبب الغنى والفقر ! – يريد أن الإمساك سبب من أسباب الغنى ، والعطاء سبب من أسباب الفقر –»[7].

---

(١) معجم الأدباء : ١١١/١٩ .
(٢) وفيات الأعيان : ٣١٩/٤ ، وطبقات الزبيدى : ١١٠ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٨ ، وبغية الوعاة : ٢٦٩/١ .
(٤) مراتب النحويين : ١٣٥ . ومبرمان هو محمد بن على بن إسماعيل ، توفى سنة ٣٢٦ هجرية (إنباه الرواة : ١٨٩/٣) .
(٥) بغية الوعاة : ٦٩/٢ .
(٦) أبو بكر محمد بن عبدالملك التاريخى البغدادى : حدث عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، والرمادى ، وثعلب ، وغيرهم ؛ ولقب (التاريخى) لأنه كان يعنى بالتواريخ وجمعها . (الأنساب للسمعانى : ١٠٢) .
(٧) طبقات الزبيدى : ١٠٦ .

وروى عن المبرد قوله : «ما وضعت بحذاء الدرهم شيئا قط إلا رجح الدرهم في نفسي عليه» ، هذا مع سعة كان فيها ووُجْد[1] .

وقال التاريخي أيضا : «وكان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد فى الإمساك ، وفوقه فى السعة غير أن المبرد كان يسأل سؤالا صراحا ، وكان الأصمعي يعرض ولا يصرح ، ولولا أنى أكره أن أكون عيابا للعلماء خاصة لأخبرتك عنهما من الأخبار التى تزيد على أخبار محمد بن الجهم البرمكى ، والكندى ، وخالد بن صفوان»[2] .

المبرد وأصول النحو :

يقول ابن جنى عن المبرد : «يعد جيلا فى العلم ، وإليه أغضت مقالات أصحابنا ، وهو الذى نقلها وقررها ، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها»[3] .

وقال عنه الأزهرى : «كان أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو ومقاييسه»[4] .

وفعلا إذا رجعنا إلى آراء المبرد النحوية والصرفية التى أودعها مؤلفاته ومصنفاته ، لوجدناه مقتفيا آثار سابقيه من علماء المدرسة البصريه ، سائرا على نهجهم ، من الأخذ بالسماع ، والاهتمام بالقياس ، والعمل بالتعليل ، والاهتمام بالعامل ... إلخ من الأصول التى كانت مناط تركيز البصريين فى صوغ مذهبهم فى النحو والصرف .

---

(١) المصدر السابق : ١٠٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) سر صناعة الإعراب : ١/ ١٣٠.
(٤) تهذيب اللغة (المقدمة) .

السماع :

فكان يعنى بالسماع عناية فائقة ، فحذا حذو أستاذه المازنى فى رفض بعض القراءات الشاذة التى لا تطرد مع ما يراه من القواعد النحوية ، كما تشدد – مثل سابقيه – فى قبول الرواية عن العرب ، بل كان يطعن فى بعض الأشعار الموثقة التى لا تستقيم مع مقاييسه ، حتى ولو أثبتها سيبويه فى كتابه : على نحو ما اشتهر به سيبويه من تسكين المضارع فى الضرورة الشعرية بقول امرئ القيس :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ   إِثْماً مِنَ اللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ [1]

حيث قال المبرد : «ليست هذه هى الرواية الصحيحة للبيت ، إنما روايته الصحيحة هى «فاليوم فاشربْ» ، وإذن يكون سكون الفعل طبيعيا لأنه فعل أمر»[2] .

كما رد رواية سيبويه والأخفش عن العرب قولهم : لولاك ولولاه . على اعتبار أن ضمير الجر ناب عن ضمير الرفع الذى كان ينبغى أن يحل محله ، كما ناب ضمير الرفع مناب ضمير الجر فى (أنا كأنت)[3] ، كما رفض ما روى عن بعض الشعراء من نحو :

أَوْمَتْ بِكَفَّيْهَا مِنَ الْهَوْدَجِ   لَوْلاَكَ هَذَا الْعَامُ لَمْ أَحْجُجِ [4]

محتجا بقول الله – تعالى – : ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[5] ، أى أنه كان يحتم أن يلى (لولا) الضمير مرفوعا ، حيث يقول : «إن هذا خطأ ، لا يصلح إلا أن تقول : لولا أنت»[6] .

---

(١) البيت : من بحر السريع . قاله امرؤ القيس بن حجر الكندى .
(انظر فيه : الكتاب : ٢/٢٩٧ ، وابن يعيش : ١/٤٨ ، وخزانة الأدب : ٣/٥٣٠) .
(٢) الكامل : ٧/١٣ ، والإنصاف : ٢٨٥ .
(٣) الكتاب : ٢/٣٧٣ .
(٤) البيت : من بحر السريع . قاله عمر بن أبى ربيعة .
(انظر فيه : ملحقات ديوانه : ٤٧٨ ، وابن يعيش : ٣/١١٨ ، والعينى : ٣/٢٦٤) .
(٥) سورة سبأ : من الآية ٣١ .
(٦) الكامل : ٨/٤٨ .

وعن رده بيت امرئ القيس يلومه ابن جنى بقوله : «اعتراض أبى العباس فى هذا الموضع إنما هو رد للرواية وتحكم على السماع بالشهوة مجردة من النصفة ، ونفسه ظلَم لا مَن جعله خصمه»[1] .

وعن رده رواية سيبويه والأخفش لقول العرب : لولاك ولولاه ، يقول السيرافى : «ما كان لأبى العباس أن يسقط الاستشهاد بشعر رجل من العرب قد روى قصيدته النحويون وغيرهم ، واستشهدوا بهذا البيت وغيره من القصيدة ، ولا أن ينكر ما أجمع الجماعة على روايته عن العرب»[2] .

القياس :

فمن ذلك كثرة استعمال العرب لصيغتى (فاعِل) و (فعَّال) للاستغناء بهما عن ياء النسب ، فالأولى نحو : طاعم ، وكاس ، وشاعر ، وحائك ؛ والثانية نحو : زجاج ، ولبان ، وخباز ، وبزاز ، وقراز ، وبناء ، وسقاء ، وبقال ، وخياط ، ونجار ؛ حيث قال سيبويه : «إن الصيغتين فى النسب موقوفتان على السماع ، ولا يقاس عليهما شىء ، وإن كان قد كثر فى كلامهم ، فلا يقال لصاحب البر برّار ، ولا لصاحب الشعير شعّار ، ولا لصاحب الدقيق دقاق ، ولا لصاحب الفاكهة فكاه»[3] بينما قاس المبرد الصيغتين جميعا محتجا بأن ذلك فى كلامهم أكثر من أن يحصى أو يستقصى»[4] .

ومن ذلك أيضا ما ورد عن العرب كثيرا فى النسب إلى (فَعِيل) و (فُعَيْلِ) حذف الياء مثل : ثقيف وثقفى ، وقريش وقرشى ، وهذيل وهذلى ، حيث ذهب سيبويه إلى عدم القياس فى ذلك حيث يقول : «إن هذا الصنيع لا يقاس عليه ، إذ

---

(١) الخصائص : ١/ ٧٢ .
(٢) الكتاب : ٢/ ٣٧٤ هامش (هارون) .
(٣) الكتاب : ٣/ ٣٨٢ .
(٤) المقتضب : ٣/ ١٦١ .

القياس أن تثبت (الياء) فى الصيغتين ، فيقال : ثقيفى ، وقريشى ، وهذيلى» .
بينما ذهب المبرد إلى القياس فى الصيغتين لأنه هو الذى كثر عن العرب[1] .

ومن ذلك أيضا أن القياس فى صيغة (مفعول) أن تحذف (الواو) إذا كانت مشتقة من فعل أجوف مثل : مقول ؛ ولكن سمع عن بنى تميم كثيرا إثبات (الواو) فى الصيغة مثل : مقوول ، ومصوون ، فجعل المبرد ذلك قياسا مطردا ، فيقال : مبيوع[2] .

التعليل :

كان المبرد يحاول جاهدا أن يؤيد آراءه وما يذهب إليه بالعلل ، إذ لابد عنه لكل رأى من علة تبرره ، وتؤيد الأخذ به .

فمن ذلك تعليله لمجىء الإعراب فى آخر الكلمة دون أوائلها وأواسطها ، حيث يقول «لم يجعل الإعراب أولا ، لأن الأول تلزمه الحركة ضرورة للابتداء ، لأنه لا يبتدأ إلا بمتحرك ، ولا يوقف إلا على ساكن ، فلما كانت الحركة تلزمه ، لم تدخل عليه حركة الإعراب لأن الحركتين لا تجتمعان فى حرف واحد ؛ ولما فات وقوعه أولا لم يمكن أن تجعل وسطا . لأن أوساط الأسماء مختلفة لأنه تكون ثلاثية ورباعية وخماسية وسباعية فأوساطها مختلفة ، فلما فات ذلك جعل آخرا بعد كمال الاسم ببنائه وحركاته»[3] .

ومن ذلك أيضا تعليله لتسكين الفعل فى مثل (ضَرَبْنَ) و (يَضْرِبْنَ) بأنه لو لم يسكن لاجتمع أربع متحركات ، إذ الفعل والفاعل كالشىء الواحد .

ومن ذلك أيضا أن سيبويه يصغر إبراهيم وإسماعيل على بريهم وسميعل ، بينما صغرهما المبرد على أبيريه وأسيميع ، وعلل ذلك بأن الهمزة أصلية وليست

---

(١) المقتضب : ٣/١٣٣ .
(٢) المقتضب : ١/١٠٥ – ١٠٦ .
(٣) الكامل : ٢/٧٣ .

زائدة ، لأنها لا تزيد أولا إلا وبعدها أربعة أحرف ، أما الميم فإنها تحذف لأنها آخر الكلمة ، وآخر الكلمة يحذف كثيرا فى الخماسى حيث يصغر كتصغير سفرجل على سفيريج»[1] .

العامل :

وكان المبرد ممن يقولون بالعامل النحوى ، ويعترفون بتأثير الكلمات والحروف بعضها فى بعض ، فمن ذلك أن سيبويه كان يرى أن العامل فى المستثنى هو الفعل السابق عليه المتعدى إليه بواسطة (إلا) ؛ وذهب المبرد فى أحد رأيين له إلى أن (إلا) هى عاملة النصب فيه ، وذهب فى رأيه الثانى إلى أن العامل فيه فعل (أستثنى) المفهوم من الكلام[2] .

ومن ذلك أيضا أن سيبويه كان يذهب إلى أن (الواو) التى يجر بعدها المبتدأ المنكر فى نحو :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَىَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى [3]

إنما هى واو عطف ، والمبتدأ المنكر بعدها مجرور بـ (رب) المحذوفة ، ومن هنا سميت هذه الواو : واورب[4] ؛ وذهب المبرد إلى أنها ليست عاطفة ، بل هى حرف جر ، واحتج بأن الشعراء يفتتحون بها أحيانا قصائدهم كقول رؤبة فى مطلع إحدى قصائده :

* وقَاتِمِ الأَعْماقِ خَاوِى المُخْتَرَق[5] *

مما يؤكد أنها غير عاطفة ، إذ لا يسبقها أحيانا شىء يمكن أن تعطف عليه[6] .

---

(١) المقتضب : ٢/٢٤٧ .

(٢) سر صناعة الإعراب : ١/١٤٦ .

(٣) البيت : من بحر الطويل . قاله امرؤ القيس بن حجر الكندى .
(انظر فيه : جمل الزجاجى : ٢٧٣ ، والتصريح : ٢/٢٢ ، والأشمونى : ٢/٢٣٣) .

(٤) الكتاب : ١/١٣٣ .

(٥) البيت : من بحر الرجز . قاله رؤبة بن العجاج .
(انظر فيه : الكتاب : ٢/٣٠١ ، خزانة الأدب : ١/٣٨ ، والعينى : ١/٣٨ ، وديوان رؤبة : ١٠٤) .

(٦) المقتضب : ٢/٣٤٦ .

ومن ذلك أيضا أنه كان يذهب إلى أن العامل فى النعت هو المنعوت : والعامل فى عطف البيان هو متبوعه . والعامل فى التوكيد هو المؤكَّد ، فكل متبوع ينْصَبُّ على تابعه انصبابا[1] .

ومن ذلك أيضا أن سيبويه كان يعرب (ركضا) فى نحو : جاء زيد ركضا ، حالا مؤولا بالمشتق ، فتأويله : راكضا : وكان الأخفش يعربه مفعولا مطلقا لفعل محذوف من صيغته أى : جاء يركض ركضا : أما المبرد فكان يعربه مفعولا مطلقا دالا على نوع الفعل ، أى دون حاجة إلى تقدير فعل عامل فيه كما ذهب الأخفش[2] .

ومن ذلك أيضا أن سيبويه كان يرى أن (ما) فى قلما ونحوها مثل كثر وطال تكفها عن العمل . ولا يليها حينئذ إلا الفعل مثل : قلما يكتب ، فأما قول الشاعر :

صَـدَدْتِ فَـأَطْـوَلْـتِ الصُّـدُودَ وَقَـلَّـمَـا ... وِصَـالٌ عَـلَـى طـولِ الصُّـدُودِ يَـدُومُ[3]

فقال فيه : إنما دخلت على اسم ضرورة ، وهو فاعل لفعل محذوف مفسَّر ، والتقدير : يدوم ؛ وذهب المبرد إلى أن (ما) فى قلما زائدة ، وهى لا تكفها عن العمل ، فوصال فاعل لقلما[4] .

المبرد فى مجلس المتوكل :

كان سبب حمل المبرد من البصرة أن المتوكل على الله قرأ يوما ، وبحضرته الفتح بن خاقان : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جَاءَتْ﴾[5] . فقال له الفتح بن

(١) المقتضب : ٤/٣١٥ .
(٢) المقتضب : ٣/٢٧٠ ، هامش .
(٣) البيت : من بحر الطويل . قاله المرار الفقعسى ، أو عمر بن أبى ربيعة .
(انظر فيه : الكتاب : ١/١٢ ، والمقتضب : ١/٤٨ ، وابن يعيش : ٤/٤٣) .
(٤) المقتضب : ٢/٥٤ .
(٥) سورة الأنعام : من الآية ١٠٩ .

خاقان : يا سيدى ، ﴿إِنَّها إذا جَاءَتْ﴾ بالكسر ، فوقعت المشاجرة . فتبايعا على عشرة آلاف دينار ، وتحاكما إلى يزيد بن محمد المهلبى – وكان صديقا للمبرد – فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يسقط أحدهما ، فقال : والله ما أعرف الفرق بينهما ، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ، فقال المتوكل : فليس هـهنا من يسأل عن هذا ؟ فقال : ما أعرف أحدا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد ، فقال : ينبغى أن يشخص ، فنفذ الكتاب إلى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمى بأن يشخصه مكرَّما .

فروى محمد بن يزيد قال : وردت سُرَّ مَنْ رَأىَ ، فأدخلت على الفتح بن خاقان فقال لى : يا بصرى ، كيف تقرأ هذا الحرف : «وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون» بالكسر ، أو «أنها إذا جاءت» بالفتح ؟ فقلت : (إنها) بالكسر ، هذا المختار ، وذلك أن أول الآية : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ثم قال – تبارك وتعالى – : يا محمد «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» باستئناف جواب الكلام المتقدم . قال : صدقت ، وركب إلى دار أمير المؤمنين ، فعرَّفه بقدومى ، وطالبه بدفع ما تخاطرا عليه ، وتبايعا فيه ، فأمر بإحضارى فحضرت ؛ فلما وقعت عين المتوكل على قال : يا بصرى ، كيف تقرأ هذه الآية : «وما يشعركم إنها إذا جاءت» بالكسر ، أو أنها إذا جاءت» بالفتح ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أكثر الناس يقرؤها بالفتح ، فضحك وضرب برجله اليسرى وقال : أحضر يا فتح المال ، فقال : والله يا سيدى إنه قال لى خلاف ذلك ، فقال : دعنى من هذا ، أحضر المال ؛ وأخرجت ، فلم أصل إلى الموضع الذى كنت أنزله ، حتى أتتنى رسل الفتح ، فأتيته فقال لى : يا بصرى ، أول ما ابتدأنا به الكذب ! فقلت : ما كذبت . فقال : كيف وقد قلت لأمير المؤمنين إن الصواب : «وما يشعركم أنها إذا جاءت» بالفتح ؟ فقلت : أيها الوزير ، لم أقل هكذا ، وإنما قلت : أكثر الناس يقرؤها بالفتح ، وأكثرهم على الخطأ ، وإنما

تخلصت من اللائمة ، وهو أمير المؤمنين ، فقال : أحسنت . قال أبو العباس : فما رأيت أكرم كرما ، ولا أرطب بالخير لسانا من الفتح[1] .

قال أبو العباس : أحضرت مجلس المتوكل يوما ، وقد عمل فيه النبيذ ، وبين يديه أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى ، وهو ينشد قصيدة يمدح فيها المتوكل ، وبالقرب من البحترى أبو العنبس الصيمرى ، فأنشد البحترى قصيدته التى أولها :

مِنْ أَىِّ ثَغْرٍ يَبْتَسِمْ ... وَبِأَىِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ
حَسَنٌ يضن بِحُسْنِهِ ... وَالْحُسْنُ أَشْبَهُ بِالْكَرَمْ

حتى بلغ إلى قوله :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ جَعْفَرَ الْـ ... مُتَوَكِّلِ بْنِ الْمُعْتَصِمْ
الْمُرْتَضَى بْنِ الْمُجْتَبَى ... وَالْمُنْعِمِ بْنِ الْمُنْتَقِمْ
أَمَّا الرَّعِيَّةُ فَهْىَ مِنْ ... أَمَنَاتِ عَدْلِكَ فِى حَرَمْ
نِعَمٌ عَلَيْهَا فِى بَقَا ... ئِكَ فَلْتَتِمَّ لَهَا النِّعَمْ
يَا بَانِىَ الْمَجْدِ الَّذِى ... قَدْ كَانَ قُوِّضَ فَانْهَدَمْ
اسْلَمْ لِدِينِ مُحَمَّدٍ ... فَإِذَا سَلِمْتَ لَهُ سَلِمْ
نِلْنَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى ... بِكَ وَالْغِنَى بَعْدَ الْعَدَمْ

فلما انتهى رجع القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس الصيمرى فقال : يا سيدى يا أمير المؤمنين ، تأمر برده ؟ فرده ، فقال أبو العنبس : عارضتك فى قصيدتك ، وكنت بحضرة أمير المؤمنين ، ثم اندفع ينشد شيئا ، لولا أنها جواب وبها تجب الفائدة لأمسكت عنها ، قال :

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٠١ .

فِــى أىّ سَــلْــخِ تــرْتَــطِــمْ وَبِــأىّ كَــفٍّ تَــلْــتَــقِــمْ
أَدْخَــلْــتَ رَأْسَ الْــبُــحْــتُــرِ ىّ أبَــا عُــبَــادَةَ فِــى الــرَّحِــمْ

ووصل ذلك بما أشبهه ، فضحك المتوكل ، وضرب برجله اليسرى وقال : ادفعوا لأبى العنبس عشرة آلاف . فقال الفتح : يا سيدى ، فالبحترى الذى هُجِىَ وأسمع المكروه ينصرف خائبا ؟ قال : وتدفع إليه عشرة آلاف درهم . فقال له : يا سيدى ، فهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال : تدفع إليه أيضا عشرة آلاف درهم . فانصرفنا فى شفاعة الهزل ؛ ولم ينفع البحترى جدُّه واجتهادُه ، ولا تقدمه[1] .

رحيله إلى بغداد :

روى أبو بكر الزبيدى قال : لما قتل المتوكل بسُرَّ مَنْ رأى رحل المبرد إلى بغداد ، فقدم بلدا لا عهد له بأهله ، فاختل وأدركته الحاجة ، فتوخى شهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول ، فلم يكن عند من سأله علم ، فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ، يوهم بذلك أنه قد سئل ، فصارت حوله حلقة ، وأبو العباس يصل فى ذلك كلامه[2] .

اتصاله بالطاهريين :

وروى الزبيدى قال : لما قُتِل الفتح بن خاقان كتب محمد بن عبدالله بن طاهر فى إشخاص محمد بن يزيد ، فلم يزل مقيما معه ، وأرزاقه مسببة على أعمال مصر ، حسب ما كانت أرزاق الندامى تجرى عليه : يدل على ذلك ما شاهدته منه يوما ، وقد ورد عليه كتاب من طاهر بن الحارث – كاتب محمد بن

---

(١) المصدر السابق : ١٠٣ .
(٢) طبقات الزبيدى : ١٠٩ .

عبدالله بن طاهر - مع غلام له يقال له : نصر ، فى درجه كتاب التسبب بأرزاقه إلى مصر ، فأجاب عن الكتاب أبياتا قالها على البديهة منها :

بِنَفْسِى أَخٌ شَدَدْتُ بِهِ أَزرى ... فَأَلْفَيْتُهُ حُرًّا عَلَى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
أَغِيبُ فَلِى مِنْهُ ثَنَاءٌ وَمِدْحَةٌ ... وَأَحْضُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ الْقَوْلِ وَالْبِشْرِ
وَمَا طَاهِرٌ إلاَّ جَمَالٌ لِصُحْبَةٍ ... وَنَاصِرُ عَافِيهِ عَلَى كَلَبِ الدَّهْرِ [1]

بين المبرد وثعلب :

كان المبرد وأحمد بن يحيى ثعلب عالمين متعاصرين ، قد ختم بهما تاريخ الأدباء ، وفيهما يقول أبو بكر بن أبى الأزهر :

أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ لاَ تَجْهَلَنْ ... وَعُذْ بِالْمُبَرِّدِ أَوْ ثَعْلَبِ
تَجِدْ عِنْدَ هَذَيْنِ عِلْمَ الْوَرَى ... فَلاَ تَكُ كَالْجَمَلِ الأَجْرَبِ
عُلُومُ الْخَلاَئِقِ مَقْرُونَةٌ ... بِهَذَيْنِ فِى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ [2]

وحدث أن المبرد عندما أنشأ لنفسه حلقة بمسجد بغداد - على النحو المتقدم[3] - تشوف ثعلب إلى الحلقة ، وكان كثيرا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر ، فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم ، فإذا بصر بهم ثعلب ، أرسل من تلاميذه من يناقشهم ، فإذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم . فلما نظر ثعلب إلى من حول أبى العباس ، أمر إبراهيم بن السرى الزجاج وابن الحائك بالنهوض ، وقال لهما : فُضَّا حلقة هذا الرجل ، ونهض معهما من حضر من أصحابه ؛ فلما صاروا بين يديه ، قال له إبراهيم بن السرى : أتأذن - أعزك الله - فى المناكشة ؟ فقال له أبو العباس : سل عما أحببت . فسأله عن مسألة فأجاب

(١) المصدر السابق : ١٠٤ .
(٢) وفيات الأعيان : ٣١٤/٤ .
(٣) راجع ص ٣٥٦ .

فيها بجواب أقنعه : فنظر الزجاج فى وجوه أصحابه متعجبا من تجويد أبى العباس للجواب ، فلما انقضى ذلك قال له أبو العباس : أقَنِعْتَ بالجواب ؟ فقال : نعم ، قال : فإن قال لك قائل فى جوابنا هذا : كذا ، ما أنت راجع إليه ؟ وجعل أبو العباس يوهن جواب المسألة ويفسره ويعتل فيه . فبقى إبراهيم سادرا لا يحير جوابا ، ثم قال : إن رأى الشيخ – أعزه الله – أن يقول فى ذلك ؟ فقال أبو العباس : فإن القول على نحو كذا ، فصحح الجواب الأول ، وأوهن ما كان أفسده به ، فبقى الزجاج مبهوتا ، ثم قال فى نفسه : قد يجوز أن يتقدم له حفظ هذه المسألة واتفاق القول فيها ، ثم يتفق إذا سأله عنها ، فأورد عليه مسألة ثانية ، ففعل أبو العباس فيها بنحو فعله فى المسألة الأولى ، حتى والى بين أربع عشرة مسألة ، يجيب عن كل واحدة بما يقنع ، ثم يفسد الجواب ، ثم يعود إلى تصحيح القول الأول .

فلما رأى ذلك إبراهيم بن السرى قال لأصحابه : عودوا إلى الشيخ ، فلست مفارقا هذا الرجل ، ولابد لى من ملازمته ، فعاتبه أصحابه وقالوا : تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه ، وتدع من قد شهر علمه ، وانتشر فى الآفاق ذكره ، فقال لهم : لست أقول بالذكر والخمول ، ولكنى أقول بالعلم والنظر ، وأنه قد حبس نفسه على ذلك إلا ما يشغله من صناعة الزجاج فى كل خمسة أيام من الشهر ، فيتقوت بذلك الشهر كله ، ثم أجرى عليه فى الشهر ثلاثين درهما ، وأمره أبو العباس باطراح كتب الكوفيين ، ولم يزل ملازما له ، وآخذا عنه حتى برع من بين أصحابه : فكان أبو العباس لا يقرئ أحدا كتاب سيبويه حتى يقرأه على إبراهيم ويصحح به كتابه[1] .

وكان المبرد يحب الاجتماع فى المناظرة بثعلب والاستكثار منه ، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه ، وحكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلى – وكان صديقا لهما قال :

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٠٩ .

قلت لأبى عبدالله الدينورى – ختن ثعلب – وكان ممن تركوا حلقة ثعلب والتحقوا بحلقة المبرد[1] : لم يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال : لأن المبرد حسن العبارة ، حلو الإشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ؛ وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فإذا اجتمعا فى محفل ، حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن[2] .

قال السيرافى : وكان بينه وبين أبى العباس ثعلب من المنافرة ما لا خفاء فيه ، وأكثر أهل التحصيل يفضلونه[3] .

ولاشتهار العداوة بينهما كان الشعراء ينظمون فيهما مقطعات منها :

كَفَى حَزَنًا أَنَّا جَمِيعًا بِبَلْدَةٍ ... وَيَجْمَعُنَا فِى أَرْضِ بِرْشَهْرَ مَشْهَدُ
وَكُلٌّ لِكُلٍّ مُخْلِصُ الْوُدِّ وَامِقٌ ... وَلَكِنَّنَا فِى جَانِبٍ عَنْهُ نُفْرَدُ
نَرُوحُ وَنَغْدُو لاَ تَزَاوُرَ بَيْنَنَا ... وَلَيْسَ بِمَضْرُوبٍ لَنَا عَنْهُ مَوْعِدُ
فَأَبْدَانُنَا فِى بَلْدَةٍ وَالْتِقَاؤُنَا ... عَسِيرٌ كَأَنَّا ثَعْلَبٌ وَالْمُبَرِّدُ [4]

وقد بلغت المنافرة بينهما إلى حد التهاجى بالشعر ، فمما هجا به المبرد ثعلبا قوله :

أُقْسِمُ بِالْمُبْتَسَمِ الْعَذْبِ ... وَمُشْتَكَى الصَّبِّ إِلَى الصَّبِّ
لَوْ كُتِبَ النَّحْوُ عَنِ الرَّبِّ ... مَا زَادَهُ إِلاَّ عَمَى قَلْبِ

فلما أنشد ثعلب هذين البيتين تمثل بقول الشاعر :

أَسْمَعَنِى عَبْدُ بَنِى مِسْمَعٍ ... وَصُنْتُ مِنْهُ النَّفْسَ وَالْعِرْضَا
وَلَمْ أُجِبْهُ لاحْتِقَارِى لَهُ ... وَمَنْ يَعَضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَّا [5]

---

(١) المدارس النحوية : ١٢٤ .
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٣١٤ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٩ .
(٤) بغية الوعاة : ١/٢٧٠ .
(٥) طبقات الزبيدى : ١٠٦ .

وكان المبرد على علم جم باللغة ، ومعرفة تامة بالغريب ، فقد روى الزبيدى أنه أنشد :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوجُوهُهُمْ ... دُجَى اللَّيلِ حَتَّى نَظَمَ الْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

ويقال للخرز : الجزع ، ومنعطف الوادى جزع .

وروى أبو يعقوب الضرير قال : كنا عند عبدالله بن إسحق بن إبراهيم المصعبى على نبيذ ، وحضرنا محمد بن يزيد ، فغنت قينة هناك :

يَا أَيُّهَا السَّدِمُ الْمُلَوِّى رأسَهُ ... لِيَقُودَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ تَرِيمَا

قال : ما هذا ؟ إنما هو (بريما) وهو جيش ، وقال : (تريما) جد من أجدادى ، قال أبو الحر : الجيش من أخلاط ، وأصل ذلك الخيط يفتل من ألوان ، ويعلق فى عنق الصبى[1] .

وروى أبو بكر التاريخى ؛ قال جدى : سمعت محمد بن يزيد يقول : النَّعَم الإبل خاصة ، وإن كان معها بقر أو شاء أو كلاهما ، قيل لجميع ذلك ، نَعَم ، لاتصاله بالنَّعَم ؛ فإن أفردت الشاء والبقر ، لم يقل لشىء منها نَعَم . وأنشد للأخطل :

فَيَوْمٌ مِنْكَ خَيْرٌ مِنْ أُنَاسٍ ... كَثِيرٍ عِنْدَهُمْ نَعَمٌ وَشَاءُ

قال : ونظير ذلك (قوم) ، إنما يقال ذلك للرجال ، فإذا كان معهم نساء قلت : قوم ، وإن انفردن لم يقل لهن (قوم) ، قال الله - عز وجل - : ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[2] . وأنشد لزهير :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

---

(١) المصدر السابق : ١٠٧ .

(٢) سورة الحجرات : من الآية ١١ .

قال أبو بكر : وأن أبا محمد المغربى حضر ، فاستحسن الشرح ، وقبّل رأس أبى العباس[1] .

وروى ابن خلكان قال : وذكر أن رجلا عاد المبرد بالبصرة مع جماعة ، فغنت جارية من وراء ستارة :

وَقَالُوا لَنَا هَذَا حَبِيبُكِ مُعْرِضٌ ... فَقَالَتْ أَلاَ إِعْرَاضُهُ أَيْسَرُ الْخَطْبِ
فَمَا هِيَ إِلاَّ نَظْرَةٌ بِتَبَسُّمٍ ... فَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فطرب كل من حضر إلا المبرد ، فقال له صاحب المجلس : كنت أحق بالطرب ، فقالت الجارية : دعه يا مولاى ، فإنه سمعنى أقول : هذا حبيبك معرض ، فظننى لحنت ، ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ : ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ﴾[2] . قال : فطرب المبرد من قولها إلى أن شق ثوبه[3] .

وكان المبرد كثير الأمالى حسن النوادر ، فمما أملاه أن المنصور أبا جعفر ولى رجلا على الإجراء على العميان والأيتام من النساء اللواتى لا أزواج لهن ، فدخل على هذا المتولى أحد المتخلفين ومعه ولده ، فقال له : إن رأيت – أصلحك الله – أن تثبت اسمى مع القواعد ؟ قال له المتولى : القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن ؟ فقال : ففى العميان ؟ فقال : أما هذا فنعم ، فإن الله – تعالى – يقول : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[4] ؛ فقال : وتثبت ولدى فى الأيتام ، فقال : وهذا أفعله أيضًا ، فإنه من تكن أنت أباه فهو يتيم ؛ فانصرف من عنده وقد أثبته فى العميان وولده فى الأيتام[5] .

ومن نوادره ما حكاه عن نفسه بقوله : ما تنادر أحد علىّ بمثل ما تنادر به سذاب الوراق ، فإنى اجتزت يوما به وهو قاعد بباب داره ، فقال لى : إلى أين ؟

(1) طبقات الزبيدى : ٤/١٠٧ .
(2) سورة هود : من الآية ٧٢ .
(3) وفيات الأعيان : ٤/٣١٧ .
(4) سورة الحج : من الآية ٤٦ .
(5) وفيات الأعيان : ٤/٣١٤ .

ولاطفنى وعرض علىّ القِرى ، فقلت له : ما عندك ؟ فقال : عندى أنت وعليه أنا ، يشير إلى اللحم المبرد بالسذاب[1] .

آثاره :

خلف المبرد مصنفات كثيرة مازال أغلبها مفزع دارسى اللغة والأدب والنحو ، نذكر منها :

١ – نسب عدنان وقحطان .

٢ – إعراب القرآن .

٣ – ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد .

٤ – كتاب الفاضل .

٥ – كتاب الكامل .

٦ – المقتضب .

٧ – كتاب الاشتقاق .

٨ – كتاب التصريف .

٩ – المدخل إلى سيبويه .

١٠ – شرح شواهد الكتاب .

١١ – معنى كتاب (الأوسط) للأخفش .

١٢ – الرد على سيبويه (مسائل الغلط) . حاول فيه أن يظهر براعته فى تخطئة إمام النحويين ، جامعا ملاحظات الأخفش وغيره على آراء سيبويه ؛ ولكنه اعتذر عنه بعد أن تقدمت به السن بقوله : «إن هذا الكتاب كنا عملناه فى أوان الشبيبة والحداثة» . وقال عنه ابن جنى : «أما ما تعقب به أبو العباس المبرد

---

(١) وفيات الأعيان : ٣١٧/٤ .

محمد بن يزيد كتاب سيبويه فى المواضع التى سماها (مسائل الغلط) فقلما يلزم صاحب الكتاب إلا الشىء النزر، وهو أيضا مع قلته من كلام غير أبى العباس»[1].

وقد رد ابن ولاد المصرى على ما أورده المبرد من هذه المسائل فى كتاب سماه (الانتصار لسيبويه من المبرد)، وقد حققه الدكتور زهير عبد المحسن سلطان.

١٣ - ضرورة الشعر.

١٤ - طبقات النحاة البصريين.

١٥ - المقصور والممدود.

١٦ - القوافى.

أقوال العلماء فيه:

قال عنه أبو الطيب اللغوى: «لم يكن فى وقته ولا بعده مثله، وعنه أخذ أكابر من لقينا من الشيوخ - رحمهم الله -»[2].

وقال عنه السيرافى: «انتهى علم النحو بعد طبقة الجرمى والمازنى إلى أبى العباس محمد بن يزيد الأزدى»[3].

وقال إسماعيل بن إسحق القاضى: «ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه ممن كان قبله ولا جاء بعده»[4].

وقال أبو بكر بن مجاهد: «ما رأيت أحسن جوابا من المبرد فى معانى القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم»[5]. كما كان يقول أيضا: «لقد فاتنى منه علم

---

(١) الخصائص: ٣/٢٨٧.

(٢) مراتب النحويين: ١٣٥.

(٣) أخبار النحويين البصريين: ١٠٥.

(٤) المصدر السابق: ١٠٨، وطبقات الزبيدى: ١٠١.

(٥) أخبار النحويين البصريين: ١٠٨.

كثير لقضاء ذمام ثعلب»[1].

وقال نفطويه: «ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه، ومن أبى العباس ابن فرات»[2].

وقال عبدالله بن الحسين بن سعد الكاتب، وأبو بكر بن أبى الأزهر: «كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم، وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه»[3].

وروى سهل البهزى، وإبراهيم المسمعى قالا: «رأينا محمد بن يزيد – وهو حديث السن – متصدرا فى حلقة أبى عثمان المازنى، يقرأ عليه كتاب سيبويه، وأبو عثمان فى تلك الحلقة كأحد من فيها»[4].

وقال اليوسفى الكاتب: «كنت يوما عند أبى حاتم السجستانى، إذ أتاه شاب من أهل نيسابور، فقال له: يا أبا حاتم، إنى قدمت بلدكم، وهو بلد العلم والعلماء، وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه: فقال له: الدين النصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام محمد بن يزيد، فتعجب من ذلك»[5].

وقال عنه السيوطى: «إمام العربية ببغداد فى زمانه، وكان فصيحا بليغا مفوها، ثقة إخباريا علامة، صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلا لاسيما فى صباه»[6].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٩.
(٣) طبقات الزبيدى: ١٠١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) بغية الوعاة: ٢٦٩/١.

وفاته :

توفى المبرد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ست وثمانين ، وقيل : خمس وثمانين ومائتين ببغداد ، ودفن فى مقابر باب الكوفة فى دار اشتريت له ، وصلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضى – رحمه الله تعالى – . ولما توفى نظم فيه وفى ثعلب ابن العلاف أبياتا سائرة :

ذَهَبَ الْمُبَرِّدُ وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُ ... وَلَيَذْهَبَنْ إِثْرَ الْمُبَرِّدِ ثَعْلَبُ
بَيْتٌ مِنَ الآدَابِ أَصْبَحَ نِصْفُهُ ... خَرِبًا وَبَاقِي نِصْفِهِ فَسَيُخْرَبُ
فَابْكُوا لِمَا سَلَبَ الزَّمَانُ وَوَطِّنُوا ... لِلدَّهْرِ أَنْفُسَكُمْ عَلَى مَا يُسْلَبُ
وَتَزَوَّدُوا مِنْ ثَعْلَبٍ فَبِكَأْسِ مَا ... شَرِبَ الْمُبَرِّدُ عَنْ قَرِيبٍ يَشْرَبُ
وَأَرَى لَكُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَنْفَاسَهُ ... إِنْ كَانَتِ الأَنْفَاسُ مِمَّا يُكْتَبُ [1]

سمات الطبقة الثامنة :

١ – الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالعلم متمثلا فى محاولة تصنيف المؤلفات الكبيرة مثل كتاب المقتضب مضارعة لكتاب سيبويه .

٢ – تعقب آراء السابقين بالتفنيد والمؤاخذة كما فى كتاب (مسائل الغلط) الذى ألفه المبرد فى مآخذ له على سيبويه فى بعض المسائل .

٣ – تنوع التأليف والتصنيف فى النحو والصرف واللغة والأدب كالمقتضب ، والكامل ، والفاخر ، والسير ، والأخبار ... إلخ .

٤ – بدأ ظهور فكرة أصول النحو وكثرة دورانها فى مؤلفاتهم ، كالقياس ، والسماع ، والتعليل ، والعوامل ، والمعمولات .

٥ – كثرة المناظرات بينهم وبين نحاة الكوفة كالتى كانت بين المبرد وثعلب .

★ ★ ★

---

(١) وفيات الأعيان : ٤/٣١٩ .

الباب الرابع

مدرسة الكوفة

الفصل الأول

الكـــوفـــة

بعد مقتل قائد جيش المسلمين أبى عبيد الثقفى على أيدى الفرس ، نادى عمر بن الخطاب بالنفير ، فاستجاب لندائه جمع كبير ، واستشار فيمن يوليه عليهم ، فأشير عليه بسعد بن أبى وقاص ، وكان وقتئذ عاملا على صدقات هوازن ، فولاه عمر ، وجهز تحت إمرته الجيوش وكانوا نحوا من تسعة عشر ألفا .

وبعد أن انتصر العرب على الفرس فى معركة القادسية ، أخذوا يتعقبونهم حتى دخلوا المدائن ، ثم كانت معركة (جلولاء) التى انتصر العرب فيها على الفرس نصرا مؤزرا ، حيث كانت هى الفاصلة التى لم تقم للفرس قائمة بعدها .

وبعد انتصار العرب فى هذه المعركة الفاصلة ، ظلوا منتشرين فى البلاد الفارسية التى احتلوها ، فنزلوا (الأنبار) وأقاموا فى (المدائن) : ولكن الحياة لم تسلم لهم فى هذه البلاد ، فقد آذاهم البق فى الأنبار . وأصابتهم وخومة المدائن لعدم اعتيادهم على حياة الحضر بضيقها وقيودها ، وقد ألفوا حياة البدر والصحراء بسعتها وانطلاقها ، فلما لاحظ ذلك سعد بن أبى وقاص ، شكا إلى الخليفة عمر بن الخطاب أمر الجنود وما يلاقونه فى هذه البلاد ؛ فجاءه رد الخليفة عمر بأن يرتاد لأصحابه وجنده منزلا بريا بحريا ، لا يفصله عن دار الخلافة فاصل طبيعى ، وأن يكتب إليه بصفته .

وقع اختيار سعد على مكان فى وادى الفرات الأوسط الخصيب ، يمتاز بخصوبة أرضه ، وغزارة أمطاره ، وكثرة جداوله المستمدة من النهر ، حيث يكثر العشب . وتنتشر الأزهار والرياحين ، ويمتد النخيل إلى مسافات بعيدة بحذاء

النهر : ثم انتقل ببعض رجاله إلى المنزل الجديد ، وخلف وراءه كثيرا ممن رأوا البقاء وأكثرهم من بنى عبس ، ثم كتب إلى الخليفة عمر : «إنى نزلت بكوفة منزلا بين الحيرة والفرات ، بريا بحريا ، ينبت الحَلِىَّ والنَّصِىَّ[1] ، وخيّرت المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة[2] ، فبقى قوم من الأفناء ، وأكثرهم بنو عبس»[3] .

وكان تمصير سعد للكوفة فى السنة السادسة عشرة للهجرة[4] ، أو السابعة عشرة[5] ، أى بعد تمصير البصرة بسنتين أو ثلاث .

موقعها :

تقع الكوفة فى وادى الفرات الأوسط الخصيب على الضفة الغربية للنهر ، إلى الشرق من مدينة الحيرة حيث تشرف على سهل واسع خصيب ، يحده من جهة الشرق نهر الفرات ، ومن جهة الغرب الصحراء الواسعة المطلة على مشارف بلاد الشام .

ونظرا لخصب السهل الذى تشرف عليه الكوفة ، وانتشار العشب فيه والأزهار والرياحين ، فقد أقدم بعض الرهبان على بناء الديارات والدساكر ، حيث جمال المكان يبعث على صفاء النفس ، ورقة الحس ، وسمو الخيال .

كما تنتشر بظاهر الكوفة منازل النعمان بن المنذر ، والحيرة ، والنجف ، والخورنق ، والسدير ، والغَرِيَّان ، وغيرها من الحدائق والمتنزهات والديارات الكثيرة[6] .

---

(١) الحلى ، والنصى : مرحلتان من مراحل نضوج (الغضى) وهو من خير مراتع النعم والخيل فى البادية حيث يبدأ بالنصى ، ثم الطريفة ، ثم الحلى . (لسان العرب : مادة : حلى) .

(٢) كحراس ، وحماة للثغر . (القاموس : ٢٣٧/١ «مادة : سلح») .

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٤٧٦ .

(٤) ابن الأثير : ٢٥٩/٢ .

(٥) البلاذرى (فتوح البلدان) : ٣٨٤ .

(٦) مدرسة الكوفة : ٣.

تسميتها :

جاء في القاموس المحيط : «الكوفة - بالضم - : الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تخالطها حصباء»[1] .

وأكبر الظن أن العرب الأوائل الذين ارتادوها قادمين من النجف في الشمال لما رأوا ما بها من الرمال التي هذه صفتها ، سموها (كوفة)[2] ، ومن ثم ذكرها سعد بن أبي وقاص بهذا الاسم في رسالته إلى عمر بن الخطاب .

وذكر ياقوت الحموى أنها سميت (كوفة) بموقعها من الأرض ، وذلك أن كل رملة تخالطها حصباء تسمى (كوفة)[3] .

ويقول البكرى : «إنما سميت (الكوفة) لأن سعدا لما افتتح القادسية ، نزل المسلمون الأنبار ، فآذاهم البق ، فخرج وارتاد لهم موضع الكوفة . وقال لهم : تكوفوا أى : تجمعوا ، إذ التكوف : التجمع»[4] .

والرأيان الأول والثاني أولى بالقبول ، وأرجح في التصديق ، والدليل على ذلك أن سعدا وهو في طريقه لارتياد موضع للجند بعد أن استوبئوا المدائن واستوخموها ، مر على موضع يقال له (كويفة ابن عمرو) ؛ وقصة هذا الموضع أن كسرى أبرويز لما انهزم من بهرام جور ، نزل على رجل من الأزد يدعى (ابن عمرو) ؛ فقراه الرجل ، وأكرم وفادته ؛ فلما رجع كسرى إلى ملكه ، أقطع ابن عمرو ذلك الموضع . فسمى (كويفة ابن عمرو) [5] ؛ أى أن اسم (كوفة) و (كويفة) كان معروفا قبل أن تطأ قدما سعد بن أبي وقاص المنطقة .

★ ★ ★

---

(١) القاموس المحيط : ٣/١٩٩. وبه أسباب أخرى لتسميتها .

(٢) مدرسة الكوفة : ٢.

(٣) معجم البلدان : ٧/٢٩٥ .

(٤) معجم ما استعجم : ١١٤٢ .

(٥) مدرسة الكوفة : ١ .

المبحث الأول

تمصيرها

بعد أن أتم سعد بن أبى وقاص تخطيط الكوفة فى السنة السادسة عشرة للهجرة ، أو السابعة عشرة ، أى بعد تخطيط البصرة بعامين أو ثلاثة : أخذ سعد يأمر القبائل التى نزحت إليها أن تحتل الخطط التى أعدت لها ، وكان أغلبهم من عرب جنوب الجزيرة العربية ، حيث بلغت عدتهم عشرين ألفا ، اثنى عشر ألفا من اليمنيين ، وثمانية آلاف من المضريين[1] .

ولما كان هؤلاء السابقون العرب إلى سكنى الكوفة هم العسكريون المجاهدون الذين تم على أيديهم فتح هذه البلاد بعد اندحار دولة الفرس ، فقد كانوا يمثلون فى مجتمع الكوفة عنصر الأشراف ، وطبقة زعماء القبائل ، وطبقة رؤساء الجيش ، وأصحاب الألوية ، وطبقة الجند .

وما لبثت الكوفة أن توافد عليها الناس من كل حدب وصوب ، ويمم شطرها كثير من العناصر العربية والأجنبية ، مما جعل المجتمع فيها يتعقد شيئا فشيئا إلى أن أصبحت الكوفة بعد ذلك قبلة أنظار العرب ، وصارت فى مطلع القرن الرابع الهجرى حاضرة عراقية كبيرة ، كما كانت قاعدة الخلافة الإسلامية فى عهد على ابن أبى طالب .

ولا ريب أن مثل هذا المجتمع الجديد المتنامى كان فى حاجة إلى عناصر أخرى من الصناع والتجار والزراع وأصحاب الحرف حتى يمكن تلبية طلبات هذا المجتمع واحتياجاته اليومية ، ومن ثم نشأت فى هذا المجتمع بعض عناصر أجنبية من الفرس ، ومن الذين هاجروا إلى الكوفة ليزاولوا ما يحسنون فى هذا المجتمع الجديد ، وكان قوام هذه العناصر الأجنبية :

---

(١) مدرسة الكوفة : ٦ .

(أ) عناصر فارسية : وتعد أكبر هذه المجموعات ، حيث كان كثير منهم يعيش في هذه المنطقة وما حولها قبل تمصير الكوفة ، يعملون في الزراعة ، كما وفد إليها بعد تمصيرها نحو أربعة آلاف كانوا يعملون في جيش الفرس ، وأرادوا الدخول في الإسلام ، والانضواء تحت لوائه ، والتصدي للدفاع عنه ، حتى قيل إن جيش المختار بن أبي عبيد كان لا يقل عن عشرين ألفا معظمهم من الفرس ، وقد سمي هؤلاء (حمراء ديلم) نسبة إلى نقيبهم (ديلم)[1] .

(ب) عناصر سريانية : وهم نصارى خليط من اليعاقبة والنساطرة الذين كانوا يسكنون أرض الجزيرة ، والديارات التي كانت منتشرة في هذه المنطقة وما حولها كالنجف والحيرة ، وقد أقاموا في الكوفة ، ودخل بعضهم الإسلام ، وبقي البعض الآخر على دينه ، فدخل في ذمة المسلمين[2] .

(جـ) عناصر نبطية : وهم من نصارى يوحنا المعمدان ، كانوا يسكنون المنطقة الممتدة من الكوفة إلى البطائح جنوب العراق ، وذهب قوم إلى أنهم آراميون ، وذهب آخرون إلى أنهم عرب يتخذون العربية لغة كتابة[3] .

(د) عناصر نجرانية : وهي جماعة من اليهود والنصارى وفدوا على الكوفة من (نجران) باليمن ، وكانوا يقومون بأعمال الصرافة ، حتى شاركهم المسلمون بأخرة ، حيث روى البلاذري أن حوانيت الصيارفة كانت في مسجد بني جذيمة[4] .

مما تقدم نرى أن مجتمع الكوفة قد تكاملت عناصره ، كمجتمع متكامل ، حيث ضم بين أصحاب الأعمال فيه صيارفة ، وصاغة ، ووراقين[5] ، وتمَّارين[6] ،

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٥٤ .

(٢) مدرسة الكوفة : ٨ .

(٣) فقه اللغة : ٦٣ .

(٤) فتوح البلدان : ٢٨٥ .

(٥) الوراقون : هم ناسخو الكتب .

(٦) التمارون : بائعو التمر .

وسوّاقين[1] ، وقصارين[2] ، ورسامين ، وغير ذلك من الحرف التى يحتاج إليها مصر ضم مجتمعا كبيرا كالكوفة[3] .

★ ★ ★

(١) السواقون : بائعو السويق .

(٢) القصارون : محورو الثياب وموشوها .

(٣) مدرسة الكوفة : ١١ .

المبحث الثانى

الكوفة قبة الإسلام

كان سلمان الفارسى يقول : «أهل الكوفة أهل الله ، وهى قبة الإسلام»[1] .

فقد هبط إلى الكوفة سبعون رجلا من صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ممن شهدوا بدرا ، وثلاثمائة من أصحاب الشجرة[2] ؛ وفى مقدمة من نزلها من الصحابة : عمار بن ياسر ، وعبدالله بن مسعود ؛ وقد بعث بهما عمر بن الخطاب ، ليكون الأول أميرا ، والثانى مؤذنا ووزيرا ، وكان يقول عنهما لأهل الكوفة : «هما من النجباء ، من أهل بدر ، فخذوا عنهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبدالله بن مسعود على نفسى»[3] ويروى الدكتور مهدى المخزومى عن أبى العباس قوله : «الكوفة بلاد الأدب ، ووجه العراق وهى غاية الطلب ، ومنزل خيار الصحابة وأهل الشرف»[4] .

كوفة الجند :

أصبحت الكوفة مقر القيادة العامة لجيوش المسلمين فى المنطقة الوسطى من بلاد العراق ، كما كانت مركز الحركات العسكرية ، حيث كانت القوى العسكرية فى العراق تعتمد على القبائل العربية من جهة ، وعلى بقية الصحابة المجاهدين الذين شهدوا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – بدرا وغيرها من الغزوات الإسلامية الأولى من جهة أخرى ؛ كما اختط فيها السائب بن الأقرع

(١) البلدان لابن الفقيه : ١٦٣ .
(٢) الطبقات الكبير لابن حجر : ٦/٤ .
(٣) البلدان : ١٦٤ .
(٤) مدرسة الكوفة : ١٢ .

الثقفى خطط العرب فى عهد عثمان بن عفان ، ومن ثم أطلق عليها اسم (كوفة الجند)[1] .

الكوفة حاضرة الخلافة الإسلامية :

وفى عهد على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – أصبحت الكوفة حاضرة الخلافة الإسلامية ، حتى وصفها على بقوله : «الكوفة كنز الإيمان ، وجمجمة الإسلام ، وسيف الله ورمحه ، يضعه حيث يشاء»[2] .

كل هذه العوامل جعلت من الكوفة متجه أنظار المجاهدين ، والعلماء وأصحاب المصالح ، إذ تتابعت الهجرات إلى حيث يستوطن المهاجرون الأولون ، من وجوه الصحابة ، ووجوه القبائل[3] .

الكوفة وبقاء العصبيات العربية :

نظرا لكثرة المهاجرين إلى الكوفة من المجاهدين ، الذين يقومون بأمور الدفاع ، وتنظيم الحركات العسكرية ، فقد نشأ فى مجتمع الكوفة طبقة من العلية والأشراف الذين شغلوا عن الحياة الحضارية ، وطال عهد البداوة فيهم ، ووجدوا فى الحياة العسكرية ما يشبع رغباتهم كالتغنى بالبطولة ، والتفاخر بالأنساب ، ولم يشركوا العناصر الأخرى غير العربية إلا فى قليل من الأعمال ، ولا سيما الأعمال المدنية ، ومن ثم كانت الفوارق بين الطبقات كبيرة ، وكانت نظرة العرب إلى الأجانب على أنهم محكومون ، فعليهم أن يقوموا بواجباتهم نحو الحاكمين[4] .

وقد أنتجت هذه العصبية العربية كثيرا من الشغب المتواصل ، والاضطرابات وعدم الاستقرار فى الحياة الكوفية ، حتى أنهم ضجوا على الحجاج بن يوسف الثقفى لأنه استقضى عليهم سعيد بن جبير – وهو كما عرف

---

(١) القاموس المحيط : ٣/١٩٩ .
(٢) البلدان : ١٦٣ .
(٣) مدرسة الكوفة : ١٣.
(٤) المصدر السابق : ١٤ .

من وجوه التابعين – وقالوا : «لا يصلح للقضاء إلا عربى» فعزله الحجاج ، واستقضى عليهم أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى[1] ، حتى عمر بن الخطاب قد ضاق بتقلباتهم ، وثوراتهم على من يوليه ويستعمله عليهم حتى قال : «من عذيرى من أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم القوى فجَّروه ، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه»[2] .



(١) شذرات الذهب : ١/١٠٨ .
(٢) فتوح البلدان : ٢٧٧ .

الفصل الثانى

الكوفة ودراسة النحو

. بدأت الدراسات النحوية بالكوفة متأخرة عنها فى البصرة بنحو قرن من الزمان ، وذلك لأمور تتعلق بطبيعة موقع كل من المصرين ، وطبيعة تكوين شعبه ، ونمط الحياة فيه .

فقد بدأت دراسة النحو بالبصرة مبكرة نظرا لتوسط موقعها فى طرق القوافل ، وقربها من الثقافات الأجنبية فى فارس والهند واليونان ، وتلاقى النصرانية واليهودية والمجوسية والإسلام بين أحضانها ، مما أدى إلى سبقها إلى التحضر ، وحياة الاستقرار ، والاشتغال بالعلوم ، ففى مثل هذه البيئة تلتمس الحياة العقلية المنظمة ، وتبدو بواكير العلوم المختلفة التى تحتاج إليها هذه الحياة المتحضرة [١].

أما فى الكوفة ، فنظرا لبعدها عن طريق التجارة ، ومواطن تبادل الثقافات ، وطبيعة الحياة العسكرية بها ، فضلا على هجرة الكثير من القراء والفقهاء والشعراء إليها ، حيث أرسل عمر بن الخطاب إليها عمار بن ياسر ليكون أميرا ، وعبد الله بن مسعود ليكون معلما ووزيرا ، كما كان بها ثلاثة من القراء السبعة المشهورين هم : عاصم بن أبى النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى ابن حمزة الكسائى ، فقد انشغل أهلها بالقراءات القرآنية ، والحديث النبوى ، وأصول الفقه ، ودراسة آيات الأحكام . والفتيا بها ، إلى جانب رواية الشعر ودراسة الأدب لتمكن العادات القبلية فيهم كالمفاخرات ، والمنافرات ، والإشادة

(١) مدرسة الكوفة : ٤٠ .

بالأصول والأجداد ، وقد تحدث جلال الدين السيوطى عن سبب تفوق أهل الكوفة فى رواية الشعر ، ودراسة الأدب فقال : «رُوِى أن حماد الراوية قال : أمر النعمان ابن المنذر ، فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج – الكراريس – ، ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد ، قيل له : إن تحت القصر كنزا فاحتفره ، فلما فتحه أخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة» [1] .

ففى الوقت الذى كانت البصرة فيه قابعة على دراسة اللغة والنحو ، كانت الكوفة مشغولة بالدراسات الدينية ورواية الشعر والأدب ، ولم نكد نسمع عن نحوى كوفى بالمعنى الدقيق إلا حين كانت الطبقة الرابعة من نحاة البصرة ، حيث ظهر اسم على بن حمزة الكسائى الذى يعزى إليه بحق قيام مدرسة الكوفة النحوية ، والذى نضم إليه فى هذا العمل تلميذه يحيى بن زياد الفراء .

نحو البصرة أصل لنحو الكوفة

حينما نعرض لنحاة الكوفة نجد أنهم جميعا أخذوا نحوهم عن نحاة البصرة ، فأبو جعفر الرؤاسى الذى يحلو لقدامى نحاة الكوفة أن يعدوه رأس المدرسة الكوفية إنما أخذ النحو عن أبى عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر فى البصرة [2] وخاله معاذ بن مسلم الهراء أيضا قد اختلف إلى نحاة البصرة وأخذ عنهم النحو والصرف [3] .

أما الكسائى فقد أخذ عن عيسى بن عمر ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وقصته مع كتاب سيبويه معروفة ، حيث يروى أن سيبويه لما قفل من بغداد بعد خذلانه فى المسألة الزنبورية ، استشخص تلميذه الأخفش فى طريقه إلى الأهواز ، لما سبق أنه ولى وجهه عن البصرة خزيا ، وشكا إليه بثه وحزنه مما هاضه ، فيمم الأخفش وجهه شطر بغداد ، فوصلها فى الغلس ، وصلى خلف

---

(١) الاقتراح : ٢٣ .

(٢) المدارس النحوية : ١٥٣ .

(٣) المصدر السابق : ١٥٤ .

الكسائى الغداة فى مسجده ، ثم تحرش به بأن سأله أمام تلامذته والفراء ، والأحمر ، وغيرهما ، وخطأه فى إجاباته ، حتى هم التلامذة بالوثوب عليه ، فمنعهم الكسائى ، وقال له : «بالله أما أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة؟» ، فقال : «بلى» ، فقام إليه وعانقه ، وأجلسه إلى جانبه ، وأكرم مثواه ، فاستحال تحرشه محبة له ، وأقام عنده ينعم بالحياة السعيدة الجديدة ، وبقى فى جوارد ببغداد بقية حياته ، وصار مؤدب أولاده ، وقرأ له كتاب سيبويه سرا ....» [1] ، وقيل : إنه حمل إليه خمسين دينارا مقابل ذلك [2] .

الفراء أيضا بعد أن اختلف إلى الرؤاسى ، ولم يجد عنده من النحو ما يشفى غليله ، توجه إلى البصرة ولزم يونس بن حبيب ، وتتلمذ عليه ، وروى أنه عند وفاته وجد كتاب سيبويه تحت رأسه [3] .

مما تقدم يتضح لنا أن نحاة الكوفة جميعا كانوا عيالا على نحاة البصرة ، وأن جل ما عندهم من علوم اللغة والنحو إنما هو مأخوذ من علوم البصريين .



---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٠٥ .

(٢) مراتب النحويين : ١٢٠ .

(٣) المدارس النحوية : ١٩٢ ، ١٩٣ .

الفصل الثالث

مدرسة الكوفة النحوية

لم تتضح مدرسة الكوفة النحوية كمدرسة مستقلة ، لها سمات متميزة ، وخواص منوطة بها ، فى مقابلة مدرسة البصرة ، إلا من خلال مناوأتها لها ، ومناهضتها لمبادئها ، ورد آراء نحاتها ، ووقوفها منها موقف الند ، والمعارض ، والناقض لكل ما يذهب إليه علماؤها .

ولعل منشأ هذا الخلاف ، وهذه الندية كان على يد أقرب الناس إلى سيبويه – رأس المدرسة البصرية ، وأخلص تلاميذه ، وهو الأخفش الأوسط ، سعيد بن مسعدة – الذى آثره سيبويه بكتابه دون غيره من التلاميذ ، والذى أسر إليه ببثه وحزنه بعد إخفاقه فى المناظرة ، وهو الذى يمم شطر بغداد ليثأر لسيبويه من الكسائى .

وذلك أنه بعد أن أكرم الكسائى وفادته ، واتخذه مؤدبا لأولاده ، وظل إلى جواره ينعم بالحياة السعيدة الجديدة ، تغيرت عصبيته حتى وافق الكوفيين فى كثير من آرائهم ، فكان أكثر البصريين موافقة للكوفيين ، بل إنه هو الذى فتح أبواب الخلاف على أستاذه سيبويه ، حيث كان عالما بلغات العرب ، وكان ثاقب الذهن ، حاد الذكاء ، فخالف سيبويه فى كثير من المسائل التى تابعه فيها الكوفيون ، كما اتخذوا من آرائه قبسا للاهتداء به فيما نفذوا إليه من آراء أعدت لقيام المدرسة الكوفية ، فقد تابعه الكسائى فى كثير من آرائه منها :

١ – جواز تأكيد عائد الصلة المحذوف ، والعطف عليه نحو : جاء الذى ضربت نفسه ، أى : ضربته نفسه ، ونحو : جاء الذى كلمت وعمرا ، أى : كلمته وعمرا [١] .

(١) همع الهوامع : ٩١/١ .

٢ – زيادة (من) الجارة فى الإيجاب . نحو قول الله – تعالى – : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ و﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ و﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ و﴿نُكَفِّرْ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [١] .

٣ – جواز إعمال (إنّ) إذا لحقتها (ما) الكافة . نحو : إنما زيدًا قائم [٢]

٤ – من معانى (لعل) التقليل . كما فى قول الله – تعالى – : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٣] .

٥ – (لولا) قد تأتى بمعنى (هلا) . كما فى قول الله – تعالى – : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [٤] .

٦ – الحال السادة مسد الخبر فى نحو : كلامى محمدا مسينا ، قد تأتى فعلا نحو رأى الناس يعطى الكثير [٥] .

٧ – جواز أن تكون (ثالث) فى نحو : ثالث ثلاثة منونة ، و(ثلاثة) منصوبة ، أى : متمم ثلاثة [٦] .

كما تابعه الفراء فى مجموعة لا بأس بها من آرائه نذكر منها :

١ – تأخير الخبر إذا كان مبدوءا بـ (أن) المفتوحة . نحو : أن العلم نور قول مشهور [٧] .

٢ – جواز ترخيم الاسم الثلاثى . نحو قولك فى نداء (حكَم) : يا حكَ[٨] .

---

(١) مغنى اللبيب : ٣٦٠ .
(٢) شرح الكافية للرضى : ٢/٣٢٤ .
(٣) مغنى اللبيب : ٣١٩ .
(٤) المصدر السابق : ٣٠٥ .
(٥) همع الهوامع : ١/١٠٦ .
(٦) المصدر السابق : ٢/١٥١ .
(٧) المصدر السابق : ٢/١٠٣ .
(٨) شرح الكافية للرضى : ١/١٣٦ .

٣ – جواز دخول (لام) الابتداء على نعم وبئس . نحو : إن محمدا لنعم الرجل[١].

٤ – مجيء (إلا) عاطفة بمعنى (الواو) ، وبمنزلتها في التشريك لفظا ومعنى . وجعل منه قول الله – تعالى – : ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ و﴿لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي : ولا الذين ظلموا ، ولا من ظلم[٢].

٥ – جواز العطف على معمولي عاملين مختلفين . كما في نحو : في الدار زيد والحجرة عمرو ، بعطف الحجرة على الدار ، وعمرو على زيد[٣].

٦ – المنادى المفرد العلم المرفوع إذا أكد بمضاف ، جاز فيه النصب والرفع . إذ حكى عن بعض العرب : يا تميم كلكم – بالرفع[٤].

٧ – (حاشا) في الاستثناء قد تكون فعلا جامدا ، إلى جانب كونها جارة – كما ذهب سيبويه – وفاعلها حينئذ – في رأي الأخفش – ضمير مستكن فيها واجب الإضمار عائد على البعض المفهوم من الكلام . نحو: قام القوم حاشا زيدًا ، تقديره : حاشا هو ، أي : بعضهم زيدا .

٨ – عامل الرفع في المضارع هو تجرده من النواصب والجوازم[٥].

هذا فضلا على الكثير من الآراء التي تابع الأخفش فيها غير الكسائي والفراء من النحاة الكوفيين ، مما جعل البعض يعدونه هو المحرك الحقيقي للخلاف الذي استعر بين نحاة الكوفة وبين سيبويه وأستاذه الخليل ، مما أسلم في النهاية إلى قيام مدرسة الكوفة النحوية ، بعد أن ألف كتابا جمع فيه هذه

(١) همع الهوامع : ١/١٤٠ .
(٢) مغني اللبيب : ٧٦ .
(٣) المصدر السابق : ٥٣٩ .
(٤) همع الهوامع : ٢/١٤٢ .
(٥) همع الهوامع : ٢/٢٧٤ .

المسائل التى خالف فيها أستاذيه الخليل وسيبويه سماه (المسائل الكبير) [1] ، حتى عده آخرون بحق الإمام الأول لمدرسة الكوفة .

علاوة على أن جل علماء مدرسة الكوفة قد أخذوا نحوهم عن علماء مدرسة البصرة ، مما سوف يتضح من تراجم نحاة الكوفة .

★ ★ ★

(١) طبقات الزبيدى : ٧٣ .

الفصل الرابع

طبقات الكوفيين

على الرغم مما ثبت لنا أن قيام مدرسة الكوفة النحوية منوط بعلى بن حمزة الكسائى ، وتلميذه يحيى بن زياد الفراء ، وأن المحرك الأساسى لتشكيل المذهب الكوفى هو الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة بما أثاره من مخالفات لآراء أستاذيه سيبويه والخليل .

ونظرا لأن الكسائى يأتى بحذاء الطبقة الرابعة من نحاة البصرة ، فقد أنف القدماء من نحاة الكوفة أن تبدو مدرستهم متأخرة فى نشأتها عن مدرسة البصرة ، ومن ثم فقد أبوا إلا أن يذكروا أشخاصا قبل الكسائى ، وأن ينسبوا إليهم المشاركة فى نشأة هذه المدرسة ، بل أن يزعموا أنهم رؤساء هذه المدرسة ومؤسسوها ، حيث لم يرضوا إلا أن يكون لهم - كما كان لنحاة البصرة - تاريخ بعيد فى صناعة الإعراب ، وما حملهم على هذا إلا العصبية والخلاف الذى كان محتدما بين البصريين والكوفيين ، وكان فرسا الرهان فى إذكاء هذه المزاعم أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وأبا بكر بن الأنبارى ، حيث نسبا قيام مدرسة الكوفة إلى معاذ بن مسلم الهراء ، وابن أخيه أبى جعفر الرؤاسى [1] .

وبناء على ما تقدم نسير فى تقسيم طبقاتهم على النحو التالى :

---

(١) مدرسة الكوفة : ٧٤ .

الطبقة الأولى

١ - معاذ الهراء

أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء ، لقب بالهراء لبيعه الثياب الهروية ، مولى محمد بن كعب القرظى ، أقام بالكوفة ، واشتغل مع ابن أخيه الرؤاسى بالنحو ، عمل مؤدبا لأولاد عبد الملك بن مروان ، لم يوقف له على مصنف فى النحو ، ولم ترو له كتب النحو أقوالا أو آراء نحوية ، روى أنه دارت بينه وبين أحد الأدباء مقارضة شعرية حول ما كان يدور بين الدارسين من مسائل نحوية وصوفية ، حيث كان ذلك الأديب قد جلس إلى معاذ فسمع منه النحو ، فلما انتقل إلى التصريف سمعه يقول لرجل : «كيف تقول من تؤزهم أزا فى قوله – تعالى – ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[١] أو من قوله : – سبحانه – : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾[٢] : «فاعل افعل»[٣] فأنكره الأديب وقال :

قَدْ كَانَ أَخْذُهُمُ فِى النَّحْوِ يُعْجِبُنِى ... حَتَّى تَعَاطَوْا كَلَامَ الزِّنْجِ والرُّومِ
لَمَّا سَمِعْتُ كَلَامًا لَسْتُ أَفْهَمُهُ ... كَأَنَّهُ زَجَلُ الْغِرْبَانِ وَالْبُومِ
تَرَكْتُ نَحْوَهُم وَاللَّهُ يَعْصِمُنِى ... مِنَ التَّقَحُّمِ فِى تِلْكَ الجَرَائِمِ

فأجابه معاذ بقوله :

عَالَجْتَهَا أَمْرَدَ حَتَّى إِذَا ... شِبْتَ لَمْ تُحْسِنْ أَبَا جَادِهَا
سَمَّيْتَ مَنْ يَعْرِفُهَا جَاهِلاً ... يُصْدِرُهَا مِنْ بَعْدِ إِيرَادِهَا

قال السيوطى : «ومن هنا لمحت أن أول من وضع التصريف : معاذ هذا»[٤]

ولكن هذه اللمحة أيضا لا تمثل الحقيقة فى شىء ، حيث لم يؤثر عن معاذ أن رأى رأيا فى التصريف ، ولم يصنف فيه شيئا ، ولكن كل ما كان يفعله هو ما

---

(١) سورة مريم : الآية ٨٣.
(٢) سورة التكوير : الآية ٨ .
(٣) بغية الوعاة : ٣٩٣ .
(٤) بغية الوعاة : ٣٩٣ .

يعرف باسم (مسائل التدريب) أو (مسائل التمرين) ، إلا أن غالبية مصنفى التصريف المحدثين قد اقتفوا أثر السيوطى فى عزو نشأة الصرف إلى معاذ الهراء .

هذا فضلا على أن علم التصريف لم يظهر كعلم مستقل إلا فى نهاية القرن الثانى الهجرى ، حين جمعها عثمان بن بقية المازنى فى كتاب سماه (التصريف) بعد أن كان التصريف جزءا من النحو تحت مسمى واحد هو (علم النحو) .

عمّر معاذ طويلا ، حيث ولد فى عهد عبد الملك بن مروان ، وعاش إلى أيام البرامكة ، وولد له أولاد ، وأحفاد ، وماتوا كلهم وهو باق ، حيث توفى بالكوفة سنة سبع وثمانين ومائة هجرية [1] .

وجدير بالذكر أن بعض الباحثين يذهب إلى أن معاذا بصرى ، انتقل هو وابن أخيه الرؤاسى إلى الكوفة ، وأذاعا فيها علم البصرة [2] .

٢ - الرؤاسى

أبو جعفر محمد بن الحسن ، مولى محمد بن كعب القرظى ، لقب بالرؤاسى لكبر رأسه [3] ، نشأ بالكوفة ، وورد البصرة فأخذ عن عيسى بن عمر ، وأبى عمرو ابن العلاء ، ثم قفل إلى الكوفة حيث اشتغل بالنحو مع عمه معاذ الهراء ، تتلمذ عليه الكسائى والفراء ، ذكر ثعلب أنه صنف فى النحو كتاب (الفيصل) وأنه أول كتاب صنف فى نحو الكوفة ، كما ذكر ابن النديم وابن الأنبارى أن له كتبا كثيرة منها : الفيصل ، والتصغير ، ومعانى القرآن ، والوقف والابتداء [4] ، ويحكى عن الرؤاسى أنه قال : «أرسل إلىّ الخليل بن أحمد يطلب كتابى ، فبعثته إليه ، فقرأه ووضع كتابه» [5] ، كما روى عنه أنه قال : «كل ما جاء فى (الكتاب) من قوله : قال

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١١٥ .
(٢) نظرة فى النحو لطه الراوى ، مجلة المجمع العلمى بدمشق : ٣١٧/٩ .
(٣) جاء فى (تاج العروس) نقلا عن أبى عمر الزاهد : هو محمد بن سارة الرواسى ، منسوب إلى رؤاس ، قبيلة من سليم . (مدرسة الكوفة : ٧٤) .
(٤) نزهة الألباء : ٦٦ .
(٥) نزهة الألباء : ٦٦ ، ومدرسة الكوفة : ٧٧ .

الكوفى ، كان يقصدنى» ، غير أن كتاب سيبويه يخلو تماما من هذه الكلمة [1] .

وواضح أن كل ما أضفى على الرؤاسى من نبوغ وتبحر فى النحو ، والتصنيف فيه ، إنما هو من فعل الكوفيين واختلاقاتهم ، بدافع العصبية القبلية التى لم يكونوا قد تحرروا منها بعد، حيث كان البصريون يرون أنه (مطروح العلم ليس بشىء) [2] ، حتى الكوفيون أنفسهم لم يكونوا يرون فيه النحوى الكفء الذى يحتذى ، ويتضح ذلك من مناظرة الفراء للكسائى حيث يقول الفراء :

«لما خرج الكسائى إلى بغداد ، قال لى الرؤاسى : قد خرج الكسائى ، وأنت أسن منه ، فجئت إلى بغداد ، فرأيت الكسائى ، فسألته عن مسائل الرؤاسى ، فأجابنى بخلاف ما عندى ، فغمزت قوما من علماء الكوفة كانوا معى ، فقال : مالك قد أنكرت لعلك من أهل الكوفة ؟ قلت : نعم ، قال : الرؤاسى يقول : كذا وكذا وليس صوابا ، وسمعت العرب تقول : كذا وكذا ، حتى أتى على مسائلى ، فلزمته» [3].

توفى الرؤاسى بالكوفة فى عهد هارون الرشيد . [4]

سمات الطبقة الأولى

تتسم الطبقة الأولى من طبقات الكوفيين بمرويات موهمة من جانب قدامى المترجمين من الكوفيين بغرض إثبات أن لهم قدماً راسخة فى الدراسات النحوية ، وذلك بإقحام أناس ليس لهم آثار أو آراء نحوية يعتد بها ، بل قيل عنهم إنهم بصريون وليسوا كوفيين أمثال : معاذ الهراء ، وأبى جعفر الرؤاسى .



(١) المدارس النحوية : ١٥٣ .

(٢) هذه العبارة قالها أبو حاتم السجستانى . (انظر : مراتب النحويين : ٢٤) .

(٣) نزهة الألباء : ٦٥ .

(٤) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١١٥ .

الطبقة الثانية

١ - الكسائى [١]

أبو الحسن على بن حمزة ، مولى بنى أسد ، وهو من أصل فارسى ، ولد بالكوفة سنة تسع عشرة ومائة للهجرة ، وقد سئل عن تلقيبه بالكسائى فقال : لأننى أحرمت فى كساء [٢] ، وقيل : لأنه كان يحضر مجلس حمزة بن حبيب الزيات – مقرئ أهل الكوفة – وعليه كساء أسود ثمين ، وحدث أن غاب فترة فافتقده أستاذه فقال : ما صنع صاحب الكساء الجيد ؟ فسمى (الكسائى) لذلك [٣] .

أكب منذ نعومة أظفاره على حلقات القراء أمثال : سليمان بن أرقم – راوى قراءة الحسن البصرى – ، وأبى بكر شعبة بن عَيَّاش – راوى قراءة عاصم بن أبى النجود – ، وسفيان بن عيينة – راوى قراءة عبد الله بن كثير – ، ثم لزم حلقة حمزة بن حبيب الزيات حتى حذق قراءته ، وظل يقرئ الناس قراءة حمزة حتى بعد رحيله إلى بغداد ، ثم اختار لنفسه قراءة ، صارت بعد ذلك إحدى القراءات السبع المتواترة [٤] .

لقى جماعة من الهباريين كان قد ألف جماعتهم ومجالستهم وقد أعيا من التعب ، فقال لهم : عييْتُ ، فقالوا له : أتجالسنا وأنت تلحن ! فقال : كيف لحنت ؟ قالوا : إن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر فقل «عَيِيتُ» مخففا – وإن كنت أردت من التعب فقل : أعييت [٥] . فأنف من تخطئتهم له ، وقام من فوره يتعلم النحو ، فاختلف إلى حلقات معاذ الهراء ، وأبى جعفر الرؤاسى ، فلما أخذ

---

(١) انظر فى ترجمة الكسائى : طبقات النحويين اللغويين : ١٢٧ ، ومراتب النحويين : ١٢٠ ، ونزهة الألباء : ٩٨ ، ومعجم الأدباء : ٩/٢٠ ، وبغية الوعاة : ٤١١ ، ومدرسة الكوفة : ٩٧ ، والمدارس النحوية : ١٧٢ ، والمذاهب النحوية : ٥٤ .

(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١١٦ .

(٣) المذاهب النحوية : ٥٤ .

(٤) المدارس النحوية : ١٧٣ .

(٥) معجم الأدباء : ١٦٨/١٣ ، ونزهة الألباء : ٨٢ ، ومدرسة الكوفة : ٩٧ .

ما عندهما ، لم يشف ذلك غليله ، ولم يرو ظمأه ، فيمم وجهه تلقاء البصرة – وكان قد تقدم به السن – وأخذ ينتقل بين حلقات عيسى بن عمر ، وأبى عمرو بن العلاء ، وعكف على حلقة الخليل بن أحمد ، وراعته روايته لأشعار العرب وأقوالهم ، فسأله عن ينابيع هذه الرواية ، فقال الخليل : من ملابسة أهل البوادى فى الحجاز ونجد وتهامة ، فمضى إليها ، وظل يدون ما يسمعه منهم ، حتى أنفد فى ذلك خمس عشرة قنينة حبر ، ثم قفل إلى البصرة فألفى الخليل قد انتقل إلى جوار ربه وخلفه يونس بن حبيب ، فلزمه ، ودارت بينهما مسائل اعترف له يونس فيها بالتقدم والتفوق ، منها ما ذكره المبرد بقوله :

«يروى أن يونس بن حبيب قال لأبى الحسن الكسائى : كيف تنشد بيت الفرزدق :

غَـدَاةَ أَحَـلَّـتْ لِابْـنِ أَصْـرَمَ طَـعْـنَـةٌ ... حُـصَـيْـنٍ عَـبِـيطَاتِ السَّدَائِفِ والخَمْرُ[1]

فقال الكسائى : (لما قال : غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف ، تم الكلام ، فحمل (الخمر) على المعنى ، أراد وحلت الخمر) ، فقال له : ما أحسن ما قلت!» [2] فكان ذلك إجازة للكسائى أن يجلس لمزاولة التدريس ، وشهادة له بالأستاذية التى تجعله فى عداد العلماء والأئمة .

رجع الكسائى إلى الكوفة ينشر علمه الذى استقاه من علماء البصرة ، والكوفة متعطشة إلى نحو يضارع نحو البصرة ، وسرعان ما عظم شأنه ، وذاع صيته حتى وصل إلى مسامع أمير المؤمنين المهدى فى بغداد ، فاستقدمه لحادثة خاصة ، ورأى فيه عالما متبحرا لقِنًا ، فاستبقاه فى بغداد حيث اتخذه مؤدبا لابنه هارون الرشيد ، وظل عنده موضع التكريم والتقدير ، إلى أن آلت الخلافة إلى الرشيد ، فاستبقاه فى معيته حيث اتخذه مؤدبا لابنيه الأمين والمأمون .

---

(١) عبيطات : جمع (عبيط) وهو اللحم الطرى . السدائف : جمع (سديف) وهو شحم السنام .

(٢) الكامل فى اللغة والأدب : ٥٩/٤ .

مرض الكسائي بالوضح ، فطلب منه الرشيد أن يختار من العلماء من ينوب عنه في تأديب ولديه ، فاختار أبا الحسن على بن المبارك الملقب بالأحمر ، وظل الكسائي في صحبة الرشيد الذى كان يجله ويحرص على وجوده في مجلسه ، ويتخذه إمامه في صلواته ، ورفيقه في رحلاته وغزواته [1] .

تأسيسه للمدرسة الكوفية :

كان لاحتضان الخليفة المهدى للكسائي ، وابنه هارون الرشيد من بعده أبلغ الأثر في ظهور المذهب الكوفي في النحو ، حيث تكاثر أتباعه ، وعز علماؤه ، كما كان للكسائي نشاط ملحوظ في الدراسة والتصنيف ، فقد صنف كتابا في (معاني القرآن) ، وكتاب مختصر النحو ، وكتاب القراءات ، وكتاب العدد ، وكتابي النوادر الكبير والصغير ، وكتاب (ما تلحن فيه العوام) الذى يعد تأريخا لظهور نتائج التفاعل بين اللغات المختلفة التي تلاقت في صعيد الأمصار العراقية ، ولبداية تطور الفصحى إلى حيث آلت إلى ما هي عليه لهجة أهل العراق اليوم ، [2] كما ألف كتاب (الحدود في النحو) [3] .

وكانت هناك عشيرة من بنى عبد القيس يقال لها (الحطمية) [4] قد نزلت ببغداد ، وأقامت بها ، وكان البصريون لايروون اللغة عن أمثالهم من العرب المتحضرين الذين يمكن أن يكون قد دخل الفساد على ألسنتهم ، إلا أن الكسائي قد مضى يكثر من السماع منهم ، وكأنه لم يكن يجد بأسا في الأخذ عن هؤلاء الأعراب [5] ومن هنا بدأ الخلاف في منهج المدرستين ، حيث ظهر ذلك بجلاء في المناظرة التي دارت بين الكسائي وسيبويه المعروفة باسم (المسألة الزنبورية) التي انتصر فيها الكسائي على سيبويه بمناصرة عربَ الحطمية هؤلاء وتأييدهم

---

(١) المدارس النحوية : ١٧٣ ، المذاهب النحوية : ٥٥ .

(٢) مدرسة الكوفة : ١٠٤ .

(٣) المدارس النحوية : ١٧٥ .

(٤) الحطمية : قرية على فرسخ من بغداد ، من الجانب الشرقي ، منسوبة إلى السرى بن أحطم أحد القواد العرب . (مدرسة الكوفة : ١١٤) .

(٥) المدارس النحوية : ١٧٣ .

له ، مما أدى إلى إرساء أصل من أصول المدرسة الكوفية ، وهو الأخذ باللغات الشاذة المخالفة للأقيسة البصرية من جهة ، وللشائع المتداول على أفواه العرب من جهة ثانية [1] .

وكما علمنا آنفا أنه بعد وفاة سيبويه قد احتال الكسائى على الأخفش حتى أقرأه كتاب سيبويه سرًا ، وهو الذى دفع الكسائى وتلاميذه دفعا إلى مخالفة البصريين ، حيث وجده الكسائى يكثر من الخلاف على سيبويه والخليل مستضيئا بمعرفته الواسعة بلغات العرب ، فاستقر فى نفسه أن يتابعه فى هذا الاتجاه ، وبذلك أعد الأخفش الكسائى إعدادا حسنا لكى ينمى رغبته الملحة فى مخالفة النحو البصرى مخالفة تقوم على الاتساع فى الرواية والقياس [2] .

من كل ما تقدم يتضح لنا أن عَلِيَّ بن حمزة الكسائى هو الذى أرسى أولى دعائم المدرسة الكوفية فى النحو ، تلك التى قام منهجها على مناقضة كل ما ذهب إليه علماء البصرة ، ومخالفة جل آرائهم ، مما سوف نتناوله فى موضعه بشىء من التفصيل ، وعن الكسائى يقول أبو الطيب المتنبى : «كان عالم أهل الكوفة وإمامهم ، إليه ينتهون بعلمهم ، وعليه يعولون فى روايتهم» [3] .

وفاته :

خرج الرشيد فى رحلة إلى طوس من بلاد فارس ، واصطحب معه الكسائى ومحمد بن الحسن الشيبانى الفقيه صاحب أبى حنيفة ، وعند بلدة رنبويه – قريبا من الرَّىِّ – اشتد المرض على الكسائى ، وأحس بقرب منيته ، فتمثل بقول مؤرج السدوسى :

قَدَرٌ أَحَلَّكَ ذَا النُّجَيلِ وَقَدْ أرَى ... وَأبِيَ مَالِكُ ذُو النُّجَيلِ بِدَارِ
إلاَّ كَدَارِكُمُ بِذِى بَقَرِ الحِمَى ... هَيْهَاتَ ذُو بَقَرٍ مِنَ المِزْدَارِ

(١) المصدر السابق : ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق :
(٣) مراتب النحويين : ١٢٠ .

ثم مات ، ومات معه فى اليوم نفسه محمد بن الحسن ، ودفنا معًا برنبويه سنة تسع وثمانين ومائة للهجرة ، فقال الرشيد : «اليوم دفنت الفقه والنحو برنبويه» [١] .

سمات الطبقة الثانية :

تتسم الطبقة الثانية من طبقات الكوفيين ، التى يمثلها الكسائى بما يلى :

١ - البحث والتقصى . حيث وجدنا الكسائى عندما سأل الخليل عن مصادر علمه ، وأجابه الخليل بأنها مواطن الأعراب فى الحجاز ونجد وتهامة ، وجدناه يخرج إلى هذه البوادى ليسمع من الأعراب مشافهة ، ويدون كل ما يسمع ، ثم ليعود بعد أن أنفد خمس عشرة قنينة من الحبر .

٢ - التحايل على تحصيل المعرفة . حيث احتال الكسائى على الأخفش حتى ضمه إلى جانبه وجعله مؤدب أولاده ، ثم احتال عليه حتى أقرأه كتاب سيبويه سرا .

٣ - مناظرة البصريين . وذلك بغرض إظهار رسوخ قدمهم فى الدراسات النحوية أمام البصريين ، حيث حينما نزل سيبويه بغداد تسابق إليه تلاميذ الكسائى : الفراء ، والأحمر ، وهشام الضرير ، ومحمد بن سعدان يناظرونه ويحاولون تخطئته فى كل ما يجيب به ، حيث سأله الأحمر عن مسائل ، وكلما أجاب عن مسألة ، قال له : أخطأت يا بصرى [٢] .

ومنها مناظرة الأخفش للكسائى فى مسجده حينما قدم بغداد بغرض القصاص لسيبويه [٣] ومنها مناظرة الفراء للكسائى التى دفعه إليها أبو جعفر الرؤاسى ، وكانت سببا فى ملازمة الفراء للكسائى [٤] .

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١١٨ .
(٢) المدارس النحوية : ١٧٣ .
(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٠٥ .
(٤) نزهة الألباء : ٦٥ ، ومدرسة الكوفة : ٧٨ .

وأشهر هذه المناظرات تلك التى دارت بين سيبويه والكسائى المعروفة بالمسألة الزنبورية التى كان فيها القضاء على سيبويه [1].

٤ – التأليف والتصنيف . حيث ألف الكسائى : معانى القرآن ، والقراءات ، ومختصر فى النحو ، والحدود النحوية ، والعدد ، والنوادر ، وما تلحن فيه العامة [2].



(١) طبقات النحويين واللغويين : ٦٨ .

(٢) المذاهب النحوية : ٥٦ .

الطبقة الثالثة

١ - الأحمر :

أبو الحسن على بن الحسن – وقيل : ابن المبارك ، وبه جزم الخطيب البغدادى [١] – المعروف بالأحمر [٢] .

كان أبو الحسن رجلا من الجند ، يعمل حارس نوبة على باب الرشيد ، وكان يحب العربية ، ولا يستطيع أن يجالس الكسائى إلا فى غير أيام نوبته ، فكان يرصده فى طريقه إلى الرشيد كل يوم فإذا أقبل تلقاه ، وأخذ بركابه ، وماشاه ، وسأله المسألة بعد المسألة ، إلى أن يبلغ الكسائى الستر ، فيرجع الأحمر إلى مكانه ، فإذا خرج الكسائى ، فعل به مثل ذلك ، حتى قوى وتمكن ، وكان فطنا حريصا ، فلما أصاب الكسائى الوضح (البرص) ، كره الرشيد ملازمته أولاده ، فأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، وقال له : «إنك قد كبرت ، ولسنا نقطع راتبك» ، فدافعهم خوفا أن يأتيهم برجل يغلب على موضعه ، إلى أن ضيق عليه الأمر وشدد ، وقيل له : «إن لم تأت برجل من أصحابك ، اخترنا نحن لهم من يصلح» ، وكان قد بلغه أن سيبويه والأخفش يريدان الشخوص إلى بغداد ، فقلق لذلك ، وعزم على أن يدخل عليهم من لا يخشى غائلته، فقال للأحمر : هل فيك خير؟ قال : نعم . قال : قد عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد ، فقال الأحمر : لعلى لا أفى بما يحتاجون إليه ! فقال الكسائى : إنما يحتاجون كل يوم إلى مسألتين فى النحو ، وبيتين من معانى الشعر ، وأحرف من اللغة ، وأنا ألقنك كل يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلمهم ، فقال : نعم . فقال لهم الكسائى : قد وجدت من أرضاه ، وإنما أخرت ذلك حتى وجدته ، وسماه لهم ، فقالوا له : إنما

---

(١) تاريخ بغداد : ١٢/١٠٤ .

(٢) انظر فى ترجمته :

– طبقات النحويين واللغويين : ١٤٧ .
– معجم الأدباء : ١٣/٥ .
– مراتب النحويين : ٨٩ .
– إنباه الرواة : ٢/٣١٣ .
– نزهة الألباء : ٩٧ .
– بغية الوعاة : ٢/١٥٨ .

اخترت رجلا من رجال النوبة ، ولم تأت بأحد متقدم فى العلم ، فقال : ما أعرف فى أصحابى أحدا مثله فى الفهم والصيانة ، ولست أرضى لكم غيره .

أدخل الأحمر إلى قصر الرشيد ، وفرش له البيت الذى يعلم فيه بفرش حسن – وكان الخلفاء إذا أدخلوا مؤدبا إلى أولادهم ، فجلس أول يوم ، أمروا بعد قيامه بحمل كل ما فى المجلس إلى منزله – فلما أراد الأحمر الانصراف ، دعى له بحمالين ، فقال الأحمر : والله ما يسع بيتى هذا ، وما لنا إلا غرفة ضيقة ، وإنما يصلح هذا لمن له دار وأهل ، فأمر بشراء دار له ، وجارية ، وغلام ، ودابة ، وأقيم له راتب .

جعل الأحمر يختلف إلى الكسائى كل عشية، فيتلقن ما يحتاج إليه أولاد الرشيد ، ويغدو إليهم فيلقنهم ، ويأتيهم الكسائى فى الشهر مرة أو مرتين ، فيعرضون عليه بحضرة الرشيد ما علمهم الأحمر ، فيرضاه ، فلم يزل الأحمر كذلك حتى صار نحويا ، وجلت حاله ، وعرف بالأدب حتى قدم على أصحاب الكسائى [1] .

قال ثعلب : كان الأحمر يحفظ أربعين ألف شاهد فى النحو ، وكان مقدما على أقراد ، فى حياة الكسائى ، وأملى شواهد النحو ، فأراد الفراء أن يتممها ، فلم يجتمع له الناس كما اجتمعوا للأحمر ، فقطع [2] .

قال محمد بن الجهم : كنا نأتى الأحمر ، فيدخل قصرا من قصور الملوك ، فيه فرش الشتاء فى وقته ، وفرش الصيف فى وقته ، ويخرج عليه ثياب الملوك ينفح منها رائحة المسك والبخور ، ويلقانا بوجه طلق ، وبشر حسن ، ثم ننصرف إلى الفراء فيخرج إلينا معبّسًا قد اشتمل بكسائه ، فيجلس لنا على بابه ، ونجلس على التراب بين يديه ، فيكون أحلى فى قلوبنا من الأحمر وجميل فعله [3] .

---

(١) معجم الأدباء : ١٣/٥ .
(٢) بغية الوعاة : ٢/١٥٩ .
(٣) معجم الأدباء : ١٣/١٣ .

صنف الأحمر : مقاييس التصريف ، وتفنن البلغاء ، وكان من المتآمرين لكسب المناظرة بين الكسائى وسيبويه لصالح الكسائى ، وكان ممن اجتمعوا إلى سيبويه قبلها ، وأخذ يسأل سيبويه ، وكلما أجاب سيبويه عن مسألة قال له : أخطأت يا بصرى ، حتى قال سيبويه له : «هذا سوء أدب» [1] .

وفاته:

توفى أبو الحسن بطريق الحج سنة أربع وتسعين ومائة للهجرة [2]

٢ - الفراء:

أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمى ، مولى بنى أسد ، وأبوه زياد الأقطع ، حيث قطعت يده فى الحرب مع الحسين بن على ، وكان مولى لأبى ثروان ، وأبو ثروان مولى بنى عبس [3].

ولد الفراء بالكوفة سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة من أصل فارسى ، وقد سمى بالفراء لأنه كان يفرى الكلام ، أى : يقطعه ، ويفصل القول فيه [4]

اختلف منذ نشأته إلى حلقات القراء والمحدثين والمفسرين ورواة الشعر من أمثال أبى بكر بن عياش ، وسفيان بن عيينة ، كما درس اللغة والنحو على أبى جعفر الرؤاسى والكسائى .

لقاؤه الكسائى وملازمته:

لم يعد الكسائى على وفاق مع أبى جعفر الرؤاسى ، لأن الكسائى لم يعد يرى فى الرؤاسى إماما بعد أن جلس إلى الخليل بن أحمد فى البصرة ، وبعد أن

---

(١) مدرسة الكوفة : ١١١ .
(٢) بغية الوعاة : ٢/١٥٩ .
(٣) بغية الوعاة : ٢/٣٣٣ .
(٤) المذاهب النحوية : ٥٩ .

خرج إلى بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، وسمع من أعرابها ، وأخذ الكثير عنهم ، فتركه ويمم شطر بغداد ، فأغرى الرؤاسى الفراء باللحاق به ومناظرته بما أخذه عن أبى جعفر ، حيث يقول الفراء :

«لما خرج الكسائى إلى بغداد ، قال لى الرؤاسى : قد خرج الكسائى ، وأنت أسن منه [1] ، فجئت بغداد ، فرأيت الكسائى ، فسألته عن مسائل الرؤاسى ، فأجابنى بخلاف ما عندى ، فغمزت قوما من علماء الكوفيين كانوا معى ، فقال : ما لك قد أنكرت ؟ لعلك من أهل الكوفة ؟ قلت : نعم ، فقال : الرؤاسى يقول كذا وكذا وليس صوابا ، وسمعت العرب تقول كذا وكذا ، حتى أتى على مسائلى ، فلزمته» [2] ويقول الفراء أيضا :

«كنا بالرَّقَّة ، وكان الناس قد كثروا على الكسائى ، فشغلوه عنا ، فعملت له مسائل فيها محال ، وفيها صواب ، فأقبل يقول ، فيصيب ويغلط ، لما شغله من الناس ، فلمار صار إلى منزله ، كتب إلىّ رقعة ، فأعاد إلىّ فيها ما سألته ، فقال فيها بالصواب كلها ، وقال : كنت مشغولا بما كان عندى ، وقد ظننت أنك أردت ببعض مسائلك أن تتغفلنى ، وقد قيل :

وَلاَ تَبْغِ التَّغَفُّلَ إنَّ فِيهِ ... تَفَرُّقُ بَيْنَ ذَاتِ الأَصْفِيَاءِ

ولا ينبغى بمثلك أن يفعل معى ذلك ، فبلغ منى هذا القول كل مبلغ ، وكأنى فجرت به منه بحرا» [3] .

وقد مضى الفراء فى إثر أستاذه يكثر من الرواية عن الأعراب ، الذين نزلوا بغداد ، من أمثال أبى دثار الفقعسى ، وأبى زياد الكلابى ، وأبى ثروان ، وأبى الجراح العقيلى ، غير ملتفت لطعن البصريين فيهم وفى أمثالهم ممن اختلطوا بأهل الحضر [4] .

---

(١) ورد فى نزهة الألباء : وأنت أميز منه .

(٢) الفهرست : ٦٦ ، ونزهة الألباء : ٦٥ .

(٣) مجالس اللغويين والنحاة : ٧٨ .

(٤) المدارس النحوية : ١٩٣ .

رحلته إلى البصرة:

ذهب الفراء إلى البصرة بعد وفاة الخليل بن أحمد ، وتصدر يونس بن حبيب للتدريس مكانه ، فجلس إلى يونس وأخذ عنه اللغة والنحو ، وروى عنه الكثير من لغات الأعراب وأشعارهم ، وقد ظهر ذلك فيما وافقه فيه من مسائل ، فقد ذكر ابن هشام أن يونس والفراء قالا بوقع (الذى) مصدرية [1] .

اعتزاله:

عاش الفراء فى زمن كان علم الكلام فيه قد خطا خطوات واسعة ، وكان منهجه قد أخذ يطغى على المناهج الدراسية ، وكان القائمون على علم الكلام هم المعتزلة ، الذين كانت حلقاتهم مهوى قلوب الشباب والمثقفين والأدباء فى البصرة ، وممن استهوت قلوبهم هذه الحلقات : الفراء ، حيث اختلف إليها ، فتلقى مبادئ الاعتزال ، وظل مؤمنا بها حقا ، حتى قال عنه مترجموه : «إنه كان متكلما ، يميل إلى الاعتزال ، وإنه كان يتفلسف فى تصانيفه ، ويستعمل ألفاظ الفلاسفة» [2] وآثار اعتزاله تبدو واضحة فى كتابه (معانى القرآن) إذ تراه يتوقف فيه مرارا للرد على الجبرية ، ولعل صلته بالاعتزال والمعتزلة هى التى دفعته إلى قراءة كتب الفلسفة والطب والنجوم ، حيث كان المعتزلة يحرصون على قراءة هذه الكتب ، حتى ليقول الجاحظ : «لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا فى الصناعة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا هو الذى يجمع بينهما» [3] وليس أدل على حذقه لهذه العلوم وتبحره فيها من شهادة ثمامة بن أشرس أحد أئمة المعتزلة حيث يقول : «جلست إليه ، فناقشته عن اللغة فوجدته بحرا ، وعن النحو فوجدته نسيج وحده ،

---

(١) مدرسة الكوفة : ١٢١ .

(٢) معجم الأدباء : ٧/ ١٠ .

(٣) المدارس النحوية : ١٩٢ .

وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم ، وبالنجوم ماهرا ، وبالطب خبيرا ، وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها حاذقا» [1].

اتصاله بالمأمون:

قدم المأمون من مرو إلى بغداد عاصمة ملكه ، بعد أن قضى على أخيه الأمين ، وأخذ يعقد للعلماء من كل صنف مجالس بحضرته يتحاورون فيها ويتناقشون ، ولا يكاد مستشاروه يتركون له عالما إلا ويشخصونه إليه ، ويضمونه إلى مجالسه ، وكان من أبرز مستشاريه ثمامة بن أشرس ، أحد أئمة المعتزلة ، وقد عزم الفراء على الاتصال بالمأمون ، فاختلف إلى باب ثمامة ، وهنا يروى ثمامة القصة بقوله : «فرأيت له أبهة أدب ، فجلست إليه ، فناقشته عن اللغة فوجدته بحرا ، وعن النحو فشاهدته نسيج وحده ، وعن الفقه فوجدته فقيها عارفا باختلاف القوم ، وفى النجوم ماهرا ، وبالطب خبيرا ، وبأيام العرب ، وأشعارها حاذقا ، فقلت : من تكون ؟ وما أظنك إلا الفراء ، فقال : أنا هو ، فدخلت على أمير المؤمنين فأعلمته ، فأمر بإحضاره لوقته ، فكان سبب اتصاله به» [2]

ولعل مما أكد صلة الفراء بالمأمون ، وثبت أقدامه عنده هو اتباعه مذهب الاعتزال ، إذ موقف المأمون من المتكلمين ، وتقريب أتباع المعتزلة معروف ، لأنه كان معتزليا ، شديد التعصب لمذهبهم ، وكان ممن قال بخلق القرآن ، وبالغ فى ذلك ، حتى عمد إلى تسخير قوة الدولة فى فرض هذا الرأى ، وأمر أن يؤخذ على قضاة الدولة عهد ألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن [3].

فاعتزال الفراء ، إلى جانب حذقه لألوان الثقافة المتنوعة ، جعلا المأمون يعجب به ويقربه منه ، ويعهد إليه بتأديب ولديه . اللذين ما لبثا أن بلغ الفراء من

---

(١) شذرات الذهب : ١٩/٢ .
(٢) نزهة الألباء : ١٣٣ .
(٣) مدرسة الكوفة : ١٣٤ .

أنفسهما مبلغا عظيما، وبالغا فى إكرامه وإعظامه، وأظهرا له من التوقير والاحترام ما يفوق الحد، فقد كشف عليهم المأمون من خلال الستر، فرأى الفراء حين عزم على الانصراف تسابق ولداه إلى تقديم نعليه، مما جعله يسأله ذات مرة قائلا: «من أعز الناس؟ قال الفراء: أعز الناس أمير المؤمنين، فقال المأمون: بل أعزهم من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، حتى يرضى كل واحد منهم أن يقدم له فردا»[1]

وبلغ من إعجاب المأمون بالفراء، ووثوقه بعلمه واطلاعه، أن طلب إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه أصول النحو، وما سمع من العرب، وهيأ له دارا مجهزة بكل وسائل الراحة، ووفر له كل ما يلزمه للقيام بهذا العمل، ودعا الوراقين إليه ليكتبوا ما يمليه عليهم وينسخوه، فكان (كتاب الحدود) الذى عرض فيه لكل أبواب النحو، وكان له فى كل باب منها رأى خاص[2].

ويروى أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب قائلا: «كان السبب فى إملاء كتابه فى القرآن، وهو كتاب لم يعمل قبله ولا بعده مثله، ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعا أن يزيد عليه شيئا، أن عمر بن بكير الراوية الإخبارى النسابة، وكان من أصحابه، وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل فى أثناء نيابته عن المأمون ببغداد حين كان لا يزال بمرو قبل تحوله منها إلى بغداد عاصمة ملكه، كتب إليه أن الحسن بن سهل يسأله عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضرد فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا، أو تجعل فى ذلك كتابا نرجع إليه، فعلت.

فلما قرأ الكتاب. قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن، وجعل لهم يوما، فلما حضروا خرج إليهم، وكان فى المسجد رجل من القراء يؤذن فيه، فقال له الفراء: اقرأ، فبدأ الرجل بفاتحة الكتاب، ففسرها، ثم

---

(١) نزهة الألباء: ١٣٠.

(٢) المصدر السابق: ١٢٨.

مر في الكتاب كله على ذلك ، يقرأ الرجل ، والفراء يفسر ، حتى أنهى الكتاب في نحو ألف ورقة [1] . فكان كتاب (معاني القرآن) وقد رواه عن الفراء أبو عبد الله محمد بن الجهم السمرى ، حيث قال في مقدمته :

«هذا كتاب فيه معاني القرآن ، أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء - يرحمه الله - عن حفظه من غير نسخة ، في مجالس أول النهار من أيام الثلاثاءات والجمع من شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين ، وفي شهور سنة ثلاث وشهور من سنة أربع ومائتين» [2]

كما يروى أن الفراء في هذه الأثناء اتصل بطاهر بن الحسين قائد المأمون المشهور الذي قضى له على أخيه الأمين قضاء مبرما ، وكان لطاهر ابن يدعى عبد الله ، يعنى بفصاحته وسلامة أسلوبه في كلامه وفي كتابته ، وقد لاحظ عليه بعض اللحن في ذلك ، فطلب إلى الفراء أن يكتب له كتابا يقفه فيه على اللحن الذي بدأ يتفشى على ألسنة العامة ، فصنف له الفراء كتاب (البهاء - أو البهي - فيما تلحن فيه العامة) ، كما صنف له أيضاً كتاب (المذكر والمؤنث) [3]

مؤلفات الفراء:

كان الفراء حاد الذهن ، خارق الذكاء ، حاضر البديهة ، دقيق النظر ، خصب التفكير ، وقد ساعدته هذه المواهب على سعة ثقافته ، وإلمامه بعلوم عصره المختلفة ، وتعمقه في علوم القراءات ، والفقه ، وحذقه علوم اللغة والنحو حتى قيل عنه : «أمير المؤمنين في النحو» ، وهو الذي قال : «الآن أموت وفي نفسي شيء من (حتى) ، لأنها ترفع ، وتنصب ، وتخفض» [4] ، كما كان شديد العصبية على سيبويه، رغم أنه لما مات وجد كتاب سيبويه تحت رأسه ، وقد خلف الفراء العديد من الكتب الهامة في الثقافات المختلفة نذكر منها :

---

(١) طبقات الزبيدي : ١٣٢ .

(٢) مقدمة الجزء الأول من : معاني القرآن .

(٣) المدارس النحوية : ١٩٥ .

(٤) نشأة النحو : ١١٩ .

١- معانى القرآن .

٢ - الحدود فى النحو .

٣ - البهاء - أو البهى - فيما تلحن فيه العامة .

٤ - المذكر والمؤنث .

٥ - المقصور والممدود .

٦ - النوادر .

٧ - المصادر فى القرآن الكريم .

٨ - الجمع والتثنية فى القرآن الكريم .

٩ - الوقف والابتداء فى القرآن الكريم .

١٠ - الأيام والليالى والشهور .

١١ - (يافع ويافعة) .

١٢ - (فعل وأفعل) .

١٣ - لغات القرآن .

١٤ - اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام فى المصاحف .

١٥ - آلة الكتاب .

١٦ - الفاخر .

١٧ - مشكل اللغة .

١٨ - كتاب (الواو) .

١٩ - الكتاب الكبير فى النحو[١] .

---

(١) الفهرست : ١٠٠ .

وفاته :

ومازال الفراء وجيها عند المأمون ، مغبوط المنزلة عند الناس ، يؤلف ، ويفيض علمه ، حتى لبى نداء ربه وهو فى طريقه إلى مكة عام سبعة ومائتين للهجرة[1] ، عن سبع وستين سنة[2] .

٢ - هشام الضرير :

أبو عبدالله هشام بن معاوية الضرير ، أنبه تلاميذ الكسائى بعد الفراء ، قضى حياته مقصورا للتدريس والإملاء على الطلاب، كما كان مؤدبا لبعض أبناء الأثرياء وذوى الجاه ، فقد حكى أن الرُّخَّجى كان يجرى عليه فى الشهر عشرة دنانير ، وأن إسحق بن إبراهيم بن مصعب القائم على شرطة بغداد فى عهد المأمون لزمه وقرأ النحو عليه[3] .

مؤلفاته :

عنى هشام بالتصنيف فى النحو ، فقد صنف ثلاثة كتب هى :

١ – الحدود .

٢ – المختصر .

٣ – القياس[4] .

وقال السيوطى : «له مقالة فى النحو تعزى إليه»[5] .

وفاته :

توفى هشام بن معاوية سنة تسع ومائتين[6] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٣٣ ، مراتب النحويين : ١٤١ .

(٢) بغية الوعاة : ٢/٣٣٣ .

(٣) المدارس النحوية : ١٨٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) بغية الوعاة : ٢/٣٢٨ .

(٦) المصدر السابق .

٤ - اللحيانى :

أبو الحسن على بن المبارك – وقيل : ابن حازم – من بنى لحيان بن هذيل ابن مدركة ، وقيل : سمى (اللحيانى) لعظم لحيته ، أخذ عن الكسائى ، وأبى زيد ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وعمدته على الكسائى ، وأخذ عنه القاسم بن سلام ، صنف كتاب (النوادر) .

وفاته :

توفى اللحيانى سنه عشرين ومائتين[1] .

سمات الطبقة الثالثة :

تتميز الطبقة الثالثة من طبقات الكوفيين بسمات معينة منها :

(أ) كثرة التأليف والتصنيف . سواء فى العلوم الدينية أو اللغوية .

(ب) بداية التأليف فى التصريف مستقلا عن النحو .

(جـ) الاهتمام بالحدود النحوية ، وإفرادها بالتأليف .

(د) الاهتمام بالأخطاء التى تظهر على ألسنة العامة ، ومحاولة إصلاحها .

(هـ) كثرة عقد المناظرات بينهم وبين البصريين ، وبين بعضهم البعض .

(و) ظهور المصطلحات النحوية الكوفية .

★ ★ ★

(١) المصدر نفسه : ٢/١٨٥ .

الطبقة الرابعة

١ - ابن سعدان :

أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير ، ولد ببغداد سنة إحدى وستين ومائة ، ونشأ بالكوفة ، وأخذ عن عبدالله بن إدريس ، وأبى معاوية الضرير ، وأخذ عنه محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وعبدالله ابن الإمام أحمد بن حنبل ، وكان ثقة ، عمل معلما للعامة يعلمهم القرآن ، والقراءات ، وكان يقرأ بقراءة حمزة بن حبيب ، ثم اختار لنفسه قراءة ، ففسد عليه الفرع والأصل ، إلا أنه كان نحويا(١) .

جمع ابن سعدان بين القراءة وعلم العربية ، وليست له أقوال كثيرة فى النحو ، بل يضع مسائل قليلة(٢) .

ألف ابن سعدان كتابا فى النحو ، وآخر فى القراءات(٣) .

وفاته :

توفى ابن سعدان يوم عيد الأضحى سنة إحدى وثلاثين ومائتين للهجرة(٤) .

٢ - الطوال :

أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله الطُّوال ، نشأ بالكوفة ، أخذ عن الكسائى ، وحدث عن الأصمعى ، وقدم بغداد ، وسمع منه أبو عمرو الدورى المقرئ .

قال ثعلب : كان صادقا بإلقاء العربية(٥) .

وفاته :

توفى الطوال سنة مائتين وثلاث وأربعين للهجرة(٦) .

---

(١) بغية الوعاة : ١/١١١ .
(٢) مدرسة الكوفة : ١٢٩ .
(٣) بغية الوعاة : ١/١١١ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) نشأة النحو : ١٢٠ .

٣ - ابن قادم :

أبو جعفر محمد بن عبدالله بن قادم ، أخذ النحو عن الفراء ، وأخذه عنه ثعلب ، كان حسن النظر فى علل النحو ، وكان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلى ، واتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة ، ألف فى النحو : الكافى ، والمختصر ، كما ألف غريب الحديث[١] .

وفاته :

لما ولى المعتز الخلافة ، أرسل فى طلب ابن قادم ، فقيل له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : أليس هو ببغداد ؟ - يعنى المستعين - ، فقالوا : لا قد ولى المعتز . وكان قد حقد عليه بطريق تأديبه له ، فخشى من بادرته ، فقال لعياله : عليكم السلام ، وخرج ولم يرجع إليهم ، وكان ذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين[٢] .

سمات الطبقة الرابعة :

لم تخرج سمات هذه الطبقة عما تميزت به الطبقة الثالثة من سمات ، إلا أنها كان بها نضوب فى التصنيف إلى حد ما ، كما لم تكن لها آراء نحوية ولا صرفية خاصة ، بل كانت آراؤها تدور فى فلك السابقين من نحاة الكوفة كالكسائى والفراء .



(١) طبقات الزبيدى : ١٣٨ ، وبغية الوعاة : ١٤١/١ ، ونشأة النحو : ١٢٠ .
(٢) المصدران الأخيران السابقان .

الطبقة الخامسة

ثعلب :

أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد المعروف بثعلب ، كان أبوه من موالى بنى شيبان ، ويحتمل أن يكون فارسى الأصل ، ولد ثعلب ببغداد سنة مائتين للهجرة وبها نشأ ، دفع به والده منذ صغره إلى كتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وأشعار العرب ، وما أن بلغ التاسعة من عمره حتى أخذ يتردد على حلقات العلماء ، فأخذ النحو عن سلمة ، واللغة عن ابن الأعرابى ، وروى كتب أبى زيد عن أبى نجدة ، وكتب أبى عبيدة عن الأثرم ، وكتب الأصمعى عن أبى نصر ، وكتب أبى عمرو الشيبانى عن ابنه عمرو[1].

وقد استكمل ثعلب ثقافته فدرس القراءات والحديث والتفسير ورواية الأخبار والأشعار ، مما جعله يشتهر بين علماء عصره بغزارة علمه وسعة حفظه وقوة ذاكرته ، وصار موضع ثقتهم ، وإعزازهم وإكبارهم ، حتى إن أبا نصر الطوسى كتب إلى أبى أحمد الحاكم يقول : «شككنا فى حرف كذا وكذا ، فصر إلى أبى العباس فاسأله عنه ، فإنه كان أحفظ لما يسمعه منا»[2]. ويقول ابن المُدَوَّر : «كنت أرى أبا عبدالله بن الأعرابى يشك فى الشىء فيقول : ما عندك يا أبا العباس من هذا ؟ ثقة بغزارة حفظه»[3].

تصدر ثعلب للتدريس على مذهب الكسائى والفراء فى الوقت الذى اشتدت فيه المنافسة بين البصريين والكوفيين ، فكان المبرد على رأس المدرسة البصرية ، وثعلب على رأس المدرسة الكوفية ، ولكل مجلسه الخاص وطلابه الذين يقصدونه ، ولكن كل من يطلع على مؤلفات ثعلب ومصنفاته يدرك بوضوح تام مدى حرصه على استخدام مصطلحات النحو الكوفى ، والتزام المنهج الذى اختطه

---

(١) المدارس النحوية : ٢٢٤ ، المذاهب النحوية : ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) طبقات الزبيدى : ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٣ .

الكسائى والفراء قبله ، مما جعله يستحق عن جدارة أن يكون ثالث الثلاثة الذين قامت على جهودهم مدرسة الكوفة النحوية[1] .

عمل ثعلب مؤدبا لطاهر بن محمد بن عبدالله بن طاهر صاحب شرطة بغداد الذى أغدق عليه الكثير حيث كان يتناول عنده الغداء كل يوم ، حيث يقدم له سبعة أرغفة من الخبز ، وقطعة من السميذ ، وسبعة أرطال من اللحم ، وعلوفة لدابته ، كما أجرى له فى الشهر ألف درهم[2] ؛ كما اتصل بعد ابن طاهر بالموفق وهو أخو الخليفة المعتمد ، الذى جعل له راتبا يكفل له العيش الرغيد .

مصنفاته :

صنف ثعلب الكثير من الكتب فى النحو واللغة والقراءات والأمثال ، إلا أن معظمها سقط من يد الزمن ، ولم يصلنا منها إلا القليل مثل :

١ – مجالس ثعلب ، حرص فيه على تدوين آرائه فى النحو واللغة والأخبار ومعانى القرآن ، والأشعار الغريبة والشاذة والأمثال والأقوال المأثورة .

٢ – الفصيح . وفيه أراد تقويم ألسنة المبتدئين ، وبيان وجه الصواب فى كثير من مفردات اللغة وأساليبها ، على نحو ما فعل الفراء فى كتابه (البهاء فيما تلحن فيه العامة) .

٣ – قواعد الشعر . وهو رسالة صغيرة يقسم فيها الشعر إلى أمر ونهى وخبر واستخبار . ويتحدث فى إيجاز عن أغراضه ، وعن بعض ما يجرى فيه من الصور البيانية والبديعية .

وألف فى النحو خاصة :

١ – اختلاف النحويين .

٢ – ما ينصرف وما لا ينصرف .

---

(١) المذاهب النحوية : ٦٦ .

(٢) المذاهب النحوية : ٦٦ .

٣ - حد النحو[1] .

وفاته :

رغم سعة العيش ورغده التى كان يتقلب فيها ثعلب ، فقد كان مقترا على نفسه ، يؤثر الاقتصاد ، ويكره الإنفاق ، حتى إنه ترك بعد وفاته ثروة عظيمة آلت إلى ابنة ابنته ، حيث يقول أبو بكر محمد بن أبى الأزهر : «توفى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ليلة السبت فى حجرة اشتريت له ، وكان خلَّف أحدا وعشرين ألف درهم ، وألفى دينار ، ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، فرد ماله على ابنة ابنته» [2] .

وكانت وفاته على أثر صدمة دابة لم يسمع وقع حوافرها وراءه لضعف سمعه[3] .

وقد خلف ثعلب كثيرا من التلاميذ إلا أنهم لم يقتصروا على علم النحو ، وإنما توزعت جهودهم بين النحو ، واللغة ، والقراءات ، والشعر ، مما جعلهم لا تدور لهم آراء متميزة فى كتب النحو ، فيما عدا أبا بكر بن الأنبارى الذى اضطلع ببعض الآراء النحوية وألف فيه : المقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، والكافى ، والموضح . وعند ابن الأنبارى :

* أبو موسى الحامض . تولى التدريس بعد ثعلب ، واكتفى بإقراء الناس مؤلفات ثعلب والفراء وألف مختصرا .
* أبو عمرو الزاهد . اهتم باللغة ، وألف فيها : الياقوت ، وشرح الفصيح ، وفائت العين ، وفائت الجمهرة ، والرد على ابن دريد .
* أبو بكر بن مقسم . ركز نشاطه فى القراءات ، وألف فيها كتبا عدة منها كتاب السبعة الكبير .

---

(١) المدارس النحوية : ٢٢٦ ، والمذاهب النحوية : ٦٩ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين : ١٥٠ .

(٣) المذاهب النحوية : ٦٨ .

سمات الطبقة الخامسة :

١ – الثقافة العامة ، والمعارف المتنوعة ، كالنحو واللغة والقراءات والشعر والأمثال والرواية والبلاغة .

٢ – كثرة المصنفات والمؤلفات في شتى مناحي الثقافات والمعارف .

★ ★ ★

الباب الخامس

الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة

الفصل الأول

بذور الخلاف بين المدرستين

بدأ الخلاف بين البصرة والكوفة سياسيا ، فما كاد المسلمون ينشئونها ويمصرونها فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – حتى أسس البصرة سنة خمس عشرة هجرية يحيى بن غزوان ،وبعدها بستة أشهر على أصح الأقوال – أسس سعد بن أبى وقاص الكوفة ، حتى ازدهر البلدان فى عهد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – «وتحولت إليهما حضارة بابل والحيرة ، وهويت إليهما أفئدة المسلمين ، وذخرتا بالعلماء والقواد ، وتقاسمتا مدنية العراق ، حتى كان إذا قيل : العراق ، كان معناه البصرة والكوفة ، وكانوا يطلقون عليهما اسم (العراقين)» [1] .

وبعد مقتل عثمان – رضى الله عنه – وتولى على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – الخلافة ، انتقل إلى الكوفة ، واتخذها مقرا لخلافته ، ولعل مرد ذلك أن بيئة الكوفة كانت بيئة إسلامية من الدرجة الأولى ، فقد اشتغل أهلها منذ بدء نشأتها بعلم الفقه ، والقراءات ، ورواية الحديث ، فقد أمَّها ثلاثة من كبار القراء السبعة هم : عاصم بن أبى النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائى كما انتشر فيها مذهب فقهى تليد هو مذهب أبى حنيفة النعمان ، وكذلك ارتحل إليها كثير من رواة الحديث النبوى الشريف ، مما أكسب أهلها لين الخلق ، وطيبة القلب ، وسلامة الطوية ، وسماحة النفس ، فضلا على سهولة الانقياد

(١) رسالة فى المذهب البغدادى : ٢١ .

والطاعة ، وأيضا كان بها كثير من اليمنيين المخلصين لبنى هاشم ، الناقمين على قريش .

فى ذات الوقت هبطت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – البصرة على رأس جيش لمحاربة على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – لثأر عثمان بن عفان – رضى الله عنه – نظرا لما اشتهر به أهلها من العصيان والشقاق والعصبية ، وكانت بينهما الموقعة المعروفة باسم (موقعة الجمل) ، وفى الحقيقة كانت هذه الموقعة بين البصرة والكوفة ، ومن ثم أصبحت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية .

واستمر هذا الخلاف وازداد على تعاقب الأيام وتوالى السنين ، حتى جاءت دولة بنى أمية المعروفة بقسوتها ، وصرامة رجالها ، فكان عطفها وحدبها منصبين على البصرة التى ظاهرتها وناصرت قيامها ، أما التبرم ، والحنق ، والضغط فكان كل ذلك من نصيب الكوفة .

ولما قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة الأمويين ، كان مبدأ ظهورها بالكوفة حيث تمت البيعة لأول خلفائها أبى العباس السفاح فيها بفضل تشيعها ومظاهرتها للهاشميين ، ومن ثم حفظ لها العباسيون هذا الفضل ، وكافئوهم عليه بتوجيه عطفهم وحدبهم إليها ، فعزت الكوفة بعد ذل ، وأفل نجم البصرة بعد تألق .

واستمر الخلاف بين المدينتين ، واستعر الشقاق بينهما فى الأمور السياسية ، وسادت بينهما المنافرات ، ونشبت المفاخرات ، وهذا شاعر الكوفة أعشى همدان يفاخر أهل البصرة :

فَـإِذَا فَاخَرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا   مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلْ

حتى جرهم ذلك الخلاف والشقاق السياسى إلى إيثار الخلاف والشقاق فى المسائل العلمية على الموافقة فيها .

الفصل الثانى

الخلاف فى المسائل العلمية

تولد عن الخلاف السياسى بين الكوفة والبصرة ، خلاف بينهما فى المسائل العلمية ، فمنذ بدء اشتغال الكوفيين بعلم النحو على يد معاذ الهراء وابن أخيه الرؤاسى اللذين يمثلان الطبقة الأولى من النحاة الكوفيين فى مقابلة الطبقة الرابعة من النحاة البصريين التى يمثلها الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ورغم أن جلة نحاة الكوفة قد أخذوا النحو عن نحاة البصرة ، نجد الرؤاسى يفاخر نحاة البصرة ، ويتظاهر عليهم بقوله : «بعث الخليل إلىّ يطلب (الفيصل) [1]، فبعثه إليه فقرأه ، فكل ما فى كتاب سيبويه : وقال الكوفى كذا فإنما يعنينى» [2] ، رغم أن كتاب سيبويه يخلو تماما من هذه العبارة ، إذ كان كل ما نقله سيبويه عن الكوفيين فى كتابه أربع مرات ، ثلاث فى القراءات [3] ، وواحدة فى الصرف [4] .

كما أن الرؤاسى هذا لم يؤثر عنه أية آراء ذات قيمة فى النحو ، ولم يدُر اسمه فى كتب النحو التى صنفت بعد عصره ، حتى قال فيه أبو حاتم السجستانى : «كان بالكوفة نحوى يقال له أبو جعفر الرؤاسى ، وهو مطروح العلم ليس بشىء» [5] .

أما عن كتابه الذى يدعى إرساله إلى الخليل ليحفظه ، ويملى منه كتاب سيبويه ، فيكفى تقييم الكسائى — وهو أبرز نحاة الكوفة ، ومنشئ مدرستها

---

(١) حيث ورد فى ترجمة الرؤاسى أنه ألف مختصرا فى النحو سماه (الفيصل) . نزهة الألباء : ٦٦ .

(٢) نزهة الألباء : ٦٦ ، ومدرسة الكوفة : ٧٧ .

(٣) انظر الكتاب : ١/٣٩٧، ٤٣٠ ، ٢/٤٢٦ .

(٤) انظر الكتاب : ٢/٣٩٣ .

(٥) مراتب النحويين : ٢٤ .

النحوية – بأنه مختصر قليل القيمة ، حيث يقول : «حدانى على النظر فى النحو أنى كنت أقرأ على حمزة الزيات ، فتمر بى الحجة ولا أتجه لها ، ولا أدرى ما الجواب فيها ، فأرجع إلى المختصر الذى عمله أهل الكوفة ، وكان يسمى هذا المختصر (الفيصل) فلا أتبين فيه حجة ، وكانت قبائل العرب متصلة بالكوفة ، فخرجت وأهلى لا يعلمون بخروجى ، فلما صرت إلى ظاهر ولقيت القبائل ، جعلت أسألهم فيخبرونى مشافهة ، وينشدونى الأشعار ، فأنظر إلى ما فى يدى وإلى ما أسمعه منهم ، فأجد الحجة تلزم ما عندى ، فمازلت أكتب عنه حتى نفدت نفقتى ، وشحب وجهى وجلدى ...» [1] .

وعن (الفيصل) أيضا يقول الفراء . وهو الرجل الثانى فى مدرسة الكوفة النحوية – :

«كان للكوفيين كتاب يقال له (الفيصل) بمنزلة مختصر للكسائى ، وكنت أحفظ له من الكسائى ، فدخلت مدينة السلام وسألت عنه ... فأتيته فى مسجده الذى يعقد فيه للناس .... وجئت معى بشاهدين يشهدان على أخطائه ، فسألته عن مسألة ، فأجابنى بخلاف ما معى ، فأومأت إلى اللذين معى : أن اشهدا ، ثم سألته عن أخرى ، فأجابنى بخلاف ما معى ، ففطن فقال لى : سألتنى عن كيت وكيت ، والجواب فيه ما أخبرتك به ، أفتريد أن أجيبك بما يقول أهل الكوفة فيه وهو خطأ؟! فقلت له : من أين قلت : إنه خطأ ؟ قال لأن الله – جل وعز – قال كذا وكذا فى كتابه ، وهو خلافه ، وقال كذا وكذا . قال الفراء : فرميت بما كان معى واستأنفت عنه التعليم ، فهو أنبت على رءوسنا الشعر» [2] .

ناهيك عما كان يدور بين علماء المدرستين من المناظرات ، وما يقع بينهم من المفاخرات والمنافرات ، بتشجيع من خلفاء بنى العباس ، وانحياز منهم لجانب علماء الكوفة ، وإليك اثنتين من المناظرات مما كان يدور بين على بن

---

(١) مجالس العلماء : ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٥ .

حمزة الكسائى ، وأبى محمد اليزيدى ، تظهران مدى تحفز كل منهما لتحقيق النصر على صاحبه ، وما كان يتصف به علماء الكوفة من الفظاظة والغلظة فى معاملة البصريين حين يستشعرون قرب الهزيمة أمام البصريين.

■ الأولى : ما يرويه خلف البزار بقوله :

«جمعت بين الكسائى واليزيدى فى عرس أم هولاء – يعنى أولاده – فقال له اليزيدى : يا أبا الحسن ، تأتينا عنك أشياء ننكرها . فقال : وأى شىء مع الناس إلا فضل بزاقى ، قال : فما كلمه اليزيدى حتى قام» [1] .

والثانية : ما رواه أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب عن أبيه قال:

«سأل اليزيدى الكسائى بحضرة الرشيد قال : انظروا ، فى هذا الشعر عيب؟ وأنشد :

مَا رأَيْنَا خَرِبًا نَقْ ... قَرَ عَنْهُ الْبَيْضَ صَقْرُ

لاَيَكُونُ الْعَيْرُ مُهْرًا ... لاَيَكُونُ الْمُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائى : قد أقوى الشاعر . فقال اليزيدى : انظر جيدا ، فقال : أقوى ، لابد أن ينصب المهر الثانى على أنه خبر (كان) . فضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض وقال : أنا أبو محمد ، والشعر صواب ، إنما ابتدأ فقال : المهرُ مهرُ ، فقال له يحيى بن خالد : أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك ؟! والله لخطأ الكسائى مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع فعلك . فقال اليزيدى : لذة الغلب أنستنى من هذا ما أحسن» [2] .

المسألة الزنبورية

ولعل أشهر مناظرة وقعت فى تاريخ المدرستين هى تلك التى دارت بين سيبويه والكسائى بحضرة الرشيد ، وهى المناظرة المعروفة فى التاريخ باسم

(١) نفس المصدر : ١١ .

(٢) مجالس العلماء : ١٩٥.

(المسألة الزنبورية) ، تلك التى كتب فيها النصر للكسائى على سيبويه ، والتى أفضت إلى موت سيبويه كمدا وهو فى طريقه إلى الأهواز ، والتى تمثلت فيها كل مظاهر التآمر والخداع ، والتضافر على النيل من سيبويه وهزيمته ، بدءا من اتفاق تلاميذ الكسائى كالفراء ، وخلف الأحمر على إحراجه ، وتشتيت فكره ، وإجهاد ذهنه ، وإفقاده الثقة فى نفسه قبل أن يلقى أستاذهما الكسائى .

فقد روى الفراء قال : «قدم سيبويه على البرامكة ، فعزم يحيى على الجمع بينه وبين الكسائى ، فجعل لذلك يوما ، فلما حضر تقدمت والأحمر فدخلنا ، فإذا بمثال[1] فى صدر المجلس ، فقعد عليه يحيى ، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم ، وحضر سيبويه ، فأقبل عليه الأحمر ، فسأله عن مسألة أجاب فيها سيبويه ، فقال له : أخطأت ، ثم سأله عن ثانية فأجابه فيها ، فقال له : أخطأت ، ثم سأله عن ثالثة فأجابه فيها ، فقال له أخطأت ، فقال له سيبويه : هذا سوء أدب .

فأقبلت عليه فقلت : إن فى هذا الرجل حدا وعجلة ، ولكن ما تقول فيمن قال : هؤلاء أبون ، ومررت بأبينَ ، كيف تقول مثال ذلك من : وأيت أو أويت ؟ فقدَّر سيبويه فأخطأ : فقلت أعِد النظر فيه ، فقدر فأخطأ . فقلت : أعد النظر ثلاث مرات ، يجيب ولا يصيب . فلما كثر ذلك قال : لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره .

فحضر الكسائى ، فأقبل على سيبويه فقال : تسألنى أو أسألك ؟ فقال : لا ، بل سلنى أنت . فأقبل عليه الكسائى فقال له : ما تقول ، أو كيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هى ، أو فإذا هو إياها ؟ فقال سيبويه : فإذا هو هى ، ولا يجوز النصب .

فقال له الكسائى : لحنت ، ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : خرجت فإذا عبد الله القائمُ ، أو القائمَ ؟ فقال سيبويه فى كل ذلك بالرفع دون النصب ، فقال

(١) المثال : الفراش . أو ما يفترش من مفارش الصوف الملونة .

الكسائى : ليس هذا كلام العرب ، العرب ترفع فى ذلك كله وتنصب ، فدفع سيبويه قوله ، فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ؟!

فقال الكسائى : هذه العرب ببابك ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : لقد أنصفت ، وأمر بإحضارهم ، فدخلوا وفيهم أبو فقعس ، وأبو زياد ، وأبو الجراح ، وأبو ثروان ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بين الكسائى وسيبويه ، فتابعوا الكسائى ، وقالوا بقوله ، فأقبل يحيى على سيبويه فقال له : قد تسمع أيها الرجل : قال : فاستكان سيبويه ، وأقبل الكسائى على يحيى فقال : أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد عليك من بلده مؤملا ، فإن رأيت ألا ترده خائبا ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصير وجهه إلى فارس ، ولم يعد إلى البصرة» [1] .

وقد قيل إن العرب الذين أشار الكسائى بالاحتكام إليهم هم من عرب الحطمية الذين حشدهم بباب الوزير ، ودبر الأمر معهم بليل ، وهم ممن لا ترتضى عربيتهم .

إلى هذا الحد وصل الخلاف والتنافس بين الكوفة والبصرة فى المسائل العلمية تأسيسا على الخلاف فى أمور السياسة ، حتى انتهى أمره بالقضاء على فتى البصرة وعالمها بالمكر والدهاء ، وبتشجيع من أولى الأمر من الخلفاء والوزراء العباسيين .

وما علينا الآن إلا أن ننوه بهذه المسائل التى كانت مثار الخلاف بين المدرستين ، والكتب التي صنفت حتى يمكن الرجوع إليها لمن يريد الاستزادة وكثرة الإفادة .

---

(١) مجالس العلماء : ٩ .

فلعل أول من بدأ التصنيف فى المسائل التى كانت مثار خلاف بين المدرستين هو أحمد بن يحيى ثعلب : حيث ألف كتابا باسم (اختلاف النحويين) ، ثم تلاه ابن كيسان فألف كتابا باسم (المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون) ، ثم ألف أبو جعفر النحاس كتابا باسم (المقنع فى اختلاف البصريين والكوفيين) ، وألف ابن درستويه كتابا باسم (الرد على ثعلب فى اختلاف النحويين) ، ثم ألف كمال الدين ابن الأنبارى كتابه الشهير (الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) ، وألف ابن إياز كتابا باسم (الإسعاف فى مسائل الخلاف) .

ولعل أشمل هذه المصنفات وأجمعها لهذا الموضوع هو كتاب (الإنصاف فى مسائل الخلاف) لابن الأنبارى ، حيث جمع فيه إحدى وعشرين ومائة مسألة . إلا أنه لم يكن بمنأى عن الميل والهوى فى عرضه لهذه المسائل ، فبالرغم من تصريحه فى مقدمة الكتاب بأنه قد وقف منها موقف الفيصل العادل ، غير متعسف فى حكمه ، ولا متعصب في قضائه ، إلا أن من يطلع على الكتاب يلمس أن اتجاهه وصغوه مع البصريين دون الكوفيين ، حيث لم يذهب إلى ترجيح مذهب الكوفيين إلا فى سبع مسائل فقط من جملة المسائل التى أوردها فى كتابه ، مما دفع أبا البقاء العكبرى الكوفى النزعة إلى تأليف كتابه (التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ليتتبع فيه ما ذكره ابن الأنبارى من مسائل ، ثم يذهب إلى ترجيح آراء الكوفيين فيها ، انتصارا لمذهبه النحوى.

والآن نقدم ثبتا بمسائل الخلاف بين المدرستين بحسب ورودها فى كتاب (الإنصاف) لابن الأنبارى ، مع بيان وجه الخلاف فيها بين المدرستين .

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
١	اشتقاق الاسم	من السمو	من الوسم
٢	إعراب الأسماء الستة	من مكان واحد	من مكانين
٣	الألف والواو والياء فى التثنية والجمع	حروف إعراب	علامات إعراب
٤	المذكر المختوم بتاء التأنيث كطلحة	لا يجمع بالواو والنون	يجوز جمعه بهما

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
٥	رافع المبتدأ والخبر	المبتدأ يرفع بالابتداء والخبر يرفع بالمبتدأ	المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ
٦	الظرف إذا تقدم على الاسم	لايرفعه	يرفعه
٧	الخبر إذا كان اسما محضا	لايتضمن ضميرا	يتضمن ضميرا
٨	اسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له	يجب إبراز ضميره	لايجب إبراز ضميره
٩	تقديم الخبر على المبتدأ	يجوز	لايجوز
١٠	العامل فى الاسم المرفوع بعد (لولا)	يرفع بالابتداء	يرفع بـ (لولا) أو بفعل محذوف
١١	العامل فى المفعول به	الفعل	الفعل والفاعل، أو الفاعل أو معنى المفعولية
١٢	المنصوب فى باب الاشتغال	بفعل مقدر	بالفعل الظاهر
١٣	أى العاملين فى التنازع أولى بالعمل	الفعل الثانى	الفعل الأول
١٤	نعم وبئس اسمان أو فعلان	فعلان	اسمان
١٥	أفعل التعجب اسم أو فعل	فعل	اسم
١٦	التعجب من البياض والسواد	لايجوز	يجوز
١٧	تقديم خبر (مازال) عليها	لايجوز	يجوز
١٨	تقديم خبر (ليس) عليها	يجوز	لايجوز
١٩	ناصب الخبر بعد (ما)	(ما) نفسها	نزع الخافض
٢٠	تقديم معمول خبر (ما) الحجازية عليها	لا يجوز	يجوز
٢١	تقديم معمول الفعل المقصور عليه	يجوز	لايجوز
٢٢	العامل فى خبر (إن)	(إن) نفسها	باق على رفعه قبل دخولها
٢٣	العطف على اسم (إن) بالرفع قبل تمام الخبر	لا يجوز	يجوز
٢٤	هل تعمل (إن) المخففة النصب فى الاسم؟	تعمل	لا تعمل
٢٥	دخول لام الابتداء على خبر (لكن)	لا يجوز	يجوز
٢٦	اللام الأولى فى (لعل) أصلية أو زائدة؟	زائدة	أصلية
٢٧	تقديم معمول اسم الفعل عليه	لايجوز	يجوز
٢٨	أصل الاشتقاق	المصدر	الفعل
٢٩	عامل النصب فى الظرف الواقع خبرا	بفعل مقدر	الخلاف
٣٠	عامل النصب فى المفعول معه.	بالفعل بتوسط الواو	الخلاف
٣١	تقديم الحال على الفعل العامل فيها	يجوز	لايجوز

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
٣٢	هل يقع الفعل الماضى حالا ؟	لا يجوز	يجوز
٣٣	إعراب الصفة التى تصلح للخبرية إذا وجد معها ظرف مكرر	يجوز فيها الرفع والنصب	يجب فيها النصب
٣٤	ناصب المستثنى	الفعل، أو معناه بتوسط (إلا) أو (إلا) وحدها	(إن) من (إنْ لا) أو على التشبيه بالمفعول
٣٥	هل تأتى (إلا) بمعنى الواو ؟	لا	نعم
٣٦	تقديم حرف الاستثناء فى أول الكلام	لا يجوز	يجوز
٣٧	(حاشى) فعل أو حرف	حرف جر	فعل ماض
٣٨	بناء (غير) على الفتح	يجوز إذا أضيفت إلى غير متمكن	يجوز مطلقا
٣٩	(سوى) اسم أو ظرف	ظرف فقط	اسم وظرف
٤٠	(كم) مفردة أو مركبة؟	مفردة	مركبة
٤١	الفصل بين (كم) الخبرية وتمييزها	يجب نصب التمييز	يجب خفضه
٤٢	هل تجوز إضافة النيف إلى العشرة؟	لا	نعم
٤٣	تعريف العدد المركب وتمييزه	لا يجوز تعريف العشر ولا التمييز	يجوز تعريف العدد بجزءيه وكذا التمييز
٤٤	هل يجوز (ثالث عشر ثلاثة عشر)	يجوز	لا يجوز
٤٥	حكم المنادى المفرد العلم	مبنى على الضم	معرب بغير تنوين
٤٦	نداء ما فيه (أل)	لا يجوز	يجوز
٤٧	الميم المشددة فى (اللهم)	عوض عن (يا)	بقية (يا الله أمنا بخير)
٤٨	ترخيم المضاف	لا يجوز	يجوز
٤٩	ترخيم الاسم الثلاثى	لا يجوز	يجوز
٥٠	ترخيم الرباعى الذى ثالثه ساكن	بحذف الحرف الأخير فقط	بحذف الثالث والرابع
٥١	ندبة النكرة والأسماء الموصولة	لا تجوز	تجوز
٥٢	إلقاء علامة الندبة على الصفة	لا يجوز	يجوز
٥٣	اسم (لا) النافية للجنس المفرد النكرة	مبنى على الفتح	منصوب بـ (لا)
٥٤	تقع (مِنْ) لابتداء الغاية فى الزمان أو فى المكان؟	فى المكان فقط	فى الزمان والمكان
٥٥	عمل (واو) رب فى النكرة	العمل لـ (رب) مقدرة	تعمل فيها الخفض بنفسها
٥٦	الاسم الموضوع بعد (مذ) و(منذ)	خبر عنهما	بتقدير فعل محذوف أو مبتدأ
٥٧	هل يعمل حرف القسم محذوفا بغير عوض؟	لا يجوز	يجوز

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
٥٨	(اللام) الداخلة على المبتدأ.	لام الابتداء	جواب قسم مقدر
٥٩	(أيمن) فى القسم	اسم مفرد (مشتق من اليمن)	جمع (يمين)
٦٠	الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار	لايجوز	يجوز
٦١	إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان	لا يجوز	يجوز
٦٢	(كلا) و(كلتا)مثنيان لفظا ومعنى أو معنى فقط ؟	مفردان لفظا ، مثنيان معنى	لفظا ومعنى
٦٣	توكيد النكرة بغير لفظها	جائز مطلقا	جائز إن كانت مؤقتة
٦٤	مجيء (واو) العطف زائدة	لا يجوز	يجوز
٦٥	العطف على الضمير المخفوض	لا يجوز	يجوز
٦٦	العطف على الضمير المتصل المرفوع	يجوز بعد توكيد أو فصل	يجوز
٦٧	(أو) تكون بمعنى (الواو) وبمعنى (بل)	لا يجوز	يجوز
٦٨	العطف بـ (لكن) بعد الإيجاب .	لا يجوز	يجوز
٦٩	صرف (أفعل) التفضيل فى ضرورة الشعر	يجوز	لا يجوز
٧٠	منع المصروف للضرورة	لا يجوز	يجوز
٧١	بناء لفظ (الآن)	لمشابهته اسم الإشارة	لدخول (أل) على فعل ماض
٧٢	فعل الأمر	مبنى	معرب مجزوم
٧٣	علة إعراب الفعل المضارع	شياعه ، دخول لام الابتداء عليه جريانه على اسم الفاعل	معانيه المختلفة وأوقاته الطويلة
٧٤	علة رفع الفعل المضارع	لقيامه مقام الاسم	تعريته من الناصب والجازم
٧٥	ناصب المضارع بعد (واو) المعية	بتقدير (أن)	منصوب على الظرف
٧٦	ناصب المضارع بعد (فاء) السببية	بإضمار (أن)	بالخلاف
٧٧	هل تعمل (أن) المصدرية محذوفة من غير بدل	لا	نعم
٧٨	مجيء (كى) حرف جر	يجوز أن تكون حرف جر	لا تكون إلا حرف نصب
٧٩	ناصب المضارع بعد (لام) كى	(أن) مقدرة بعد (كى)	(كى) هى الناصبة للمضارع
٨٠	إظهار (أن) المصدرية بعد (كى) و(حتى)	لايجوز	يجوز
٨١	مجيء (كما) بمعنى (كيما) وتنصب المضارع	لا يجوز	يجوز
٨٢	ناصب الفعل بعد (لام) الجحود	(أن) مقدرة بعد (لام) الجحود	(لام) الجحود بنفسها

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
٨٣	ناصب الفعل بعد (حتى)	بتقدير (أن)	(حتى) بنفسها
٨٤	عامل الجزم فى جواب الشرط	خلاف ، دون الجوار	على الجوار
٨٥	عامل الرفع فى الاسم المرفوع بعد (إن) الشرطية	بتقدير فعل	بما عاد إليه من الفعل
٨٦	جواز الجزم فى جواب الشرط مع تقدم اسم مرفوع أو منصوب	يجوز	لا يجوز ، ويجب الرفع
٨٧	جواز نصب معمول جواب الشرط إذا تقدم على الأداة	لا يجوز	يجوز
٨٨	وقوع (إن) الشرطية بمعنى (إذا)	لا يجوز	يجوز
٨٩	(إن) الواقعة بعد (ما) نافية مؤكدة لـ (ما) أو زائدة ؟	زائدة	نافية مؤكدة لـ (ما)
٩٠	معنى (إن) إذا جاءت بعدها (اللام) ومعنى (اللام)	(إن) مخففة من الثقيلة و(اللام) للتوكيد	(إن) بمعنى (ما) و (اللام) بمعنى (إلا)
٩١	هل يجازى بـ (كيف) ؟	لا	نعم
٩٢	أصل (السين) التى تدخل على الفعل المستقبل	هى أصل بنفسها	أصلها (سوف)
٩٣	المحذوف من التاءين المبدوء بهما المضارع	التاء الأصلية	تاء المضارعة
٩٤	إدخال (نون) التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وجماعة النسوة	لا يجوز	يجوز
٩٥	الاسم فى (ذا) و(الذى)	اختلفوا	الذال وحدها
٩٦	الاسم فى (هو) و(هى)	هو ، وهى بمجموعهما	الهاء وحدها
٩٧	الياء والكاف فى (لولاى) و(لولاك)	فى موضع جر بـ (لولا)	فى موضع رفع
٩٨	الضمير فى (إياك) وأخواتها	(إيا) هى الضمير	(إيا) عماد، وما بعدها الضمير
٩٩	المسألة الزنبورية	فإذا هو هى	فإذا هو إياها
١٠٠	ضمير الفصل	يسمى ضمير فصل	يسمى عمادا
١٠١	الاسم المبهم والعلم	العلم أعرف من المبهم	المبهم أعرف من العلم
١٠٢	(أى) الموصولة معربة أو مبنية إذا كانت بمعنى (الذى) وحذف العائد من الصلة	مبنية على الضم	معربة
١٠٣	هل تأتى أسماء الإشارة أسماء موصولة ؟	لا	نعم

رقم	المسألة	البصريون	الكوفيون
١٠٤	هل يكون للاسم المحلى بـ (أل) صلة؟	لا	نعم
١٠٥	همزة بين بين متحركة أو ساكنة؟	متحركة	ساكنة
١٠٦	هل يوقف بنقل الحركة على المنصوب الساكن ما قبل آخره ؟	لا	نعم
١٠٧	أصل الحركة فى همزة الوصل	تكون متحركة مكسورة	تتبع حركة عين الفعل
١٠٨	هل يجوز نقل حركة همزة الوصل إلى الساكن قبلها ؟	لا يجوز	يجوز
١٠٩	جواز مد المقصور فى ضرورة الشعر	لا يجوز	يجوز
١١٠	جواز حذف آخر المقصور والممدود إذا كثرت حروفهما	لا يجوز	يجوز
١١١	حذف علامة التأنيث من (حائض) ونحوه	لقصد النسب	لاختصاص المؤنث به
١١٢	علة حذف الواو من (يعد) ونحوه	لوقوعها بين ياء وكسرة	للفرق بين الفعل اللازم والمتعدى
١١٣	وزن الخماسى المكرر ثانيه وثالثه	على وزن (فعلعل)	على وزن (فعّل)
١١٤	هل فى كل رباعى وخماسى من الأسماء زيادة؟	لا	نعم
١١٥	وزن (سيد) و(ميت) ونحوهما	على وزن (فَيْعِل)	على وزن (فَعيل)
١١٦	وزن (خطايا) جمع خطيئة	على وزن (فعائل)	على وزن (فعالَى)
١١٧	وزن (إنسان)	على وزن (فعلال)	على وزن (إفعان)
١١٨	وزن (أشياء)	لفعاء ، والأصل فعلاء	أفعاء ، والأصل أفعلاء
١١٩	نصب خبر (كان) والمفعول الثانى لـ (ظن)	على المفعول به	على الحال
١٢٠	جواز تقديم التمييز على العامل فيه إذا كان فعلا متصرفا	لا يجوز	يجوز
١٢١	(رب) اسم أو حرف ؟	حرف جر	اسم

وهكذا بعد عرض المسائل التى اختلفت حولها آراء نحاة كل من المدرستين البصرة والكوفة ، نختم حديثنا عنهما بالتعرف على دعائم كل مدرسة ، والعناصر الأساسية التى ينبنى عليها مذهبها فى معالجة القضايا النحوية ، والتى كانت عماد قيام هذا المذهب ، واستقلاله ، ومن ثم حددت اتجاهه فى مقابلة اتجاه المذهب المقابل فى المدرسة الأخرى .

★ ★ ★

الفصل الثالث

دعائم كل من المدرستين

قد علمنا آنفا أن البصرة سبقت الكوفة فى الاشتغال بالنحو بما يناهز قرنا من الزمان ، وذلك لأسباب وعوامل توافرت لها ، وقد سبق عرضها والحديث عنها [1] . فقد كانت البصرة تموج بمختلف فئات العرب الذين يمثلون أغلب القبائل المعترف بسلامة سلائقها ، كما كانت تعج بالرواة والحفظة والنقدة ، مما كان له أطيب الأثر فى سلوك البصريين فى صوغ قواعدهم ، فحولهم الأساليب العربية متوافرة ، تجود لهم بشواهد القواعد بدون مجهود يلحقهم ، ولا منافس لهم يستعجلهم ، ويقطع عليهم سلسلة الاستقراء حتى يثقوا بما يدونون متئدين مطمئنين ، ومن ثم لم تدون قواعدهم إلا مدعومة على عناصر ثلاثة :

الأول : سلامة من أخذوا منهم من العرب المقطوع بعراقتهم فى العروبة ، وصون فطرتهم عن تسرب الوهن إليها من رطانة الحضارة ، فلم يأخذوا عن أحد غير سكان البوادى ، بل كانوا يحرزون عنها إذا لمحوا عليهم ضعفا اعتراهم ، فكانوا يختبرونهم أحيانا قبل التقبل لما يأخذون عنهم ، وفى هذا يقول ابن جنى:

«ومن ذلك ما يحكى أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبى خيرة لما سأله فقال : كيف تقول : استأصل الله عرقاتهم ؟ ففتح أبو خيرة (التاء) ، فقال له أبو عمرو : هيهات أبا خيرة ، قد لان جلدك»[2] .

---

(١) راجع ص : ٨٨ .

(٢) الخصائص : ١/٤١٣ .

الثانى : الثقة برواية ما سمعوه عنهم من طريق الحفظة والأثبات الذين بذلوا النفس والنفيس من نقل المرويات عن قائليها معزوة إليهم .

الثالث : الكثرة الفياضة من هذا المسموع التى تخول لهم القطع بنظائرها ، وتسلمهم إلى الاطمئنان إليه فى بناء القواعد عليه ، وإلا عدوه مرويا يحفظ ولا يقاس عليه ، إذا لم يرد من نوعه ما يخالفه ، فلا بأس من عده مبنى للتقعيد عليه .

حقا لقد بالغ البصريون فى التحرى والتنقيب عن الشواهد السليمة ، وأبلوا بلاء حسنا فى ذلك ، فتجافوا عن كل شاهد منحول أو مفتعل ، فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة الصحة لكفالة مقدماتها لسلامتها ، فلا غرابة بعدئذ أن جعلوا الحكم بينهم فيما يرد من الكلام غير مكترثين بما جاء مخالفا لها مما لا نظير له ولا مثيل فى كثرة الاستعمال والتداول ، فهم بعدئذ أمامه إما أن يؤولوه تأويلا يتفق وقواعدهم ، وإما أن يستنكروه لكثرة ما اندس من الرواة وذوى الأهواء فى اللغة ، وإما أن يتلمسوا الضرورة إذا كان فى نظم ، فإن اعتاص كل ذلك عليهم ، فإنهم يضطرون إلى جعله جزئيا شاذا يوضع فى صف المحفوظات التى لا يقاس عليها [1] .

دعائم المذهب الكوفى

لا يغيب عنا أن دراسة النحو بدأت فى الكوفة متأخرة عنها فى البصرة بنحو قرن من الزمان ، لانصرافهم إلى القراءات القرآنية ، والحديث النبوى ، وعنايتهم برواية الشعر والأدب وطرائفهما ، ولا سيما بعد أن أخرج لهم المختار بن عبيد الثقفى ما كان قد دفنه النعمان بن المنذر من أشعار العرب فى قصره الأبيض ، وآية ذلك ما قاله الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – فى ذم أهل الكوفة حينما تخاذلوا عنه فى الاستعداد لقتال أهل الشام :

«إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٢٦ .

الأشعار ، تربت أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل» [١] .

فلما تنبه الكوفيون ، وصحوا من سباتهم ، أرادوا مساهمة البصريين فى علم النحو بعد أن عرفوه منهم ، وعمدوا إلي تنظيم نحوهم على نمط خاص ، ينتحون فيه اتجاه البصريين ، فاستمعوا إلى الأعراب الثاوين بالكوفة ، وكانوا أقل عددا ، وأضعف فصاحة ممن كانوا بالبصرة ، فقد كان أغلبهم يمانيين ، وأهل اليمن لا ترتضى عربيتهم لخلاطهم أهل الحبشة والهند ، والتجار يفدون إليهم من مختلف الأمصار .

كما أن قصورهم عن جزيرة العرب ، ينبوع هذا العلم الذى لا ينضب ، وحيلولة صحراء السماوة بينهم وبينها قعد بهم عن القيام برحلات جادة إلى الأعراب فى مرابضهم ومنتجعاتهم للأخذ منهم ومشافهتم ، وذلك لبعد الشقة وثقل المؤونة ، اللهم إلا رحلة الكسائى المعروفة [٢] .

حتى الشعر الذى هو مناط الاستشهاد على سلامة اللغة بعد كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والذى تفوقوا فيه على البصريين ، لم يسلم لهم ، فقد كان من رواتهم حماد الراوية الذى جر عليهم التلبيس فى المرويات ، والتزيد عليها من مختلقاته ، حتى قال عنه المفضل الضبى الكوفى :

«قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبدا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله

---

(١) انظر فى ذلك : نهج البلاغة : ٢٤٢/١ ، ط دار البلاغة بيروت .

(٢) راجع ترجمة الكسائى ص : ٣٩٢ .

فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك؟!»[1] .

وكذلك خلف الأحمر الذى أكثر الكوفيون رواية الشعر عنه ، وكانوا يقصدونه لما توفى حماد الراوية ، لأنه قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغا فى الرواية لم يبلغه حماد ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : «أنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة» ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم[2] .

وما كان تلبيس الأحمر على الكوفيين فى رواية الشعر وانتحاله إلا انتقاما لنفسه منهم ، إذ إن أصله من البصرة ، وارتحل إلى الكوفة ليتلقى عن الكوفيين فبخلوا عليه بشعرهم ، حيث يقول أبو زيد الأنصارى :

«حدثنى خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر ، فبخلوا علىّ به ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ عنهم الصحيح : ثم مرضت ، فقلت لهم : ويلكم ، أنا تائب إلى الله ، هذا الشعر لى ، فلم يقبلوا منى ، فبقى منسوبا إلى العرب لهذا السبب»[3] .

ورغم ذلك فإن الكوفيين يتلقون بالقبول روايات هؤلاء ويعتمدون فى تقعيدهم للنحو على شواهدهم : كما أن الكسائى – وهو ناشر المذهب الكوفى ، وصاحب الفضل فى نشأته – ما كاد يظهر فى بغداد حتى استمع إلى الأعراب الذين أقاموا بها وحولها ، وهم أوشاب من مختلف القبائل غير العريقة فى العروبة ، ومنهم أعراب الحليمات الذين قدموا بغداد وضربوا خيامهم فى (قطربل)[4] ، فاعتد بكلامهم واستشهد به ، وهم زعانف العرب الذين اختبل لسانهم : فازداد مذهبه ضعفا على ضعف[5] . قال أبو زيد الأنصارى :

(١) الأغانى : ٢/٧٢٩ ، وخزانة الأدب : شاهد ٧٧٤ .
(٢) المزهر : ٢/٤٠٣ .
(٣) وفيات الأعيان : ٢/٣٧٩ .
(٤) قطربل : قرية من متنزهات بغداد ، اشتهرت باللهو وشرب الخمر .
(٥) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٣٩ .

«قدم علينا الكسائى البصرة ، فلقى عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحوا كثيرا ، ثم سار إلى بغداد فلقى أعراب الحليمات ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه من البصرة كله»[1] .

وروى القفطى قال : «وقالوا إنه لقى عشيرة من بنى عبد القيس تسمى (الحطمة) كانت نازلة ببغداد ، فأخذ عنها كثيرا من الخطأ واللحن»[2] .

وقال ياقوت الحموى :

«إن الكسائى كان يسمع الشاذ الذى لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات ، فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو»[3] .

ويصف اليزيدى هذه الحالة بقوله :

كنا نَقِيسُ النَّحْوَ فِيمَا مَضَى ... عَلَى لِسَانِ الْعَرَبِ الأَوَّلِ
فَجَاءَ أَقْوَامٌ يَقِيسُونَهُ ... عَلَى لُغَى أَشْيَاخِ (قُطْرُبُّلِ)
فَكُلُّهُمْ يَعْمَلُ فِى نَقْضِ مَا ... بِهِ يُصَابُ الْحَقُّ لاَ يَأْتَلِى
إِنَّ الْكِسَائِىَّ وَأَصْحَابَهُ ... يَرْقُونَ فِى النَّحْوِ إِلَى أَسْفَلِ[4]

وقد اقتفى الكوفيون طريق الكسائى ، فعولوا على شعر الأعراب بعد أن امتزجوا وتأشبوا بالمتحضرين ، ولان جفاؤهم ، ومن أجل هذا كان البصريون يغمزون الكوفيين ، ويفخرون عليهم ، فيقول الرياشى البصرى :

«نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع ؛ وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد أصحاب الكواميخ ، وأكلة الشواريز»[5] .

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافى : ٧١ .
(٢) إنباه الرواة : ٢/٢٧٤ .
(٣) معجم الأدباء : ١٧/١٨٣ .
(٤) أخبار النحويين البصريين : ٦٠ .
(٥) أخبار النحويين البصريين : ٩٩ .

ومن ثم يمكن بلورة مذهب الكوفيين فى ثلاث دعائم :

الأولى : التوسع فى الرواية .

حيث اعتمدوا شعر الأعراب من غير أولى الفصاحة ، كما عولوا على الشاذ والضرورات ، بل قعدوا على الشعر المنحول الذى كان يضيفه الرواة أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر.

الثانية : التوسع فى القياس :

حيث أصاخوا لكل مسموع من الشاذ والخطأ واللحن وقاسوا عليه ، فعثرت بهم عجلة الرأى ، ولم يدققوا تدقيق البصريين ، بل قنعوا بالشاهد الواحد ، ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين ، وفى هذا يقول الأندلسى :

«الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا وبوبوا عليه ، بخلاف البصريين»[1] .

الثالثة : الاختلاف فى المصطلحات النحوية ، وما يتصل بالعوامل والمعمولات .

إذ ترتب على قصد الكوفيين أن تكون لهم فى النحو مدرسة يستقلون بها فى مقابلة مدرسة البصرة ، أن عمدوا – على الرغم من تلمذة أئمتهم الأولين على أيدى البصريين ، وعكوفهم جميعا على كتاب سيبويه ، ينهلون منه ويعلون – جاهدين إلى أن يميزوا نحوهم بمصطلحات تغاير مصطلحات البصريين ، والذهاب إلى آراء خاصة بهم فى بعض العوامل والمعمولات . فمن هذه المصطلحات الغريبة :

الخلاف . وهو عامل معنوى ، جعله الكوفيون علة لنصب الظرف إذا وقع خبرا فى نحو : محمد أمامك ؛ بينما يجعل البصريون الظرف متعلقا بمحذوف هو خبر المبتدأ .

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٤١ .

الصرف . ذهب الفراء إلى جعله علة لنصب المفعول معه فى مثل : جاء محمد وطلوعَ الشمس ؛ بينما ذهب البصريون إلى أنه منصوب بالفعل بتوسط (الواو) .

كما جعله الفراء أيضا علة لنصب المضارع بعد (واو) المعية ، و (فاء) السببية ، و (أو) كما فى قول الشاعر :

* لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْمُنَى *(1)

ونحو : ما تأتينا فنتحدث معك ، ونحو قول الشاعر :

* لَا تَنْهَ عنْ خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ *(2)

بينما ذهب جمهور البصريين إلى أن المضارع بعد هذه الحروف منصوب بـ (أن) مضمرة وجوبا .

التقريب . ويخصون به اسم الإشارة (هذا) و (هذه) فى نحو : هذا محمد قائما ، وهذه الشمس طالعة ؛ حيث يعربون اسم الإشارة (تقريبا) ، وما بعده اسمه مرفوعا ، والثانى خبره منصوبا ؛ بينما يعرب البصريون اسم الإشارة مبتدأ ، وما بعده خبره ، والثانى حالا .

شبه المفعول . ويقصدون به المفعولات الأربعة بخلاف المفعول به ، حيث لا يطلقون اسم (المفعول) إلا على المفعول به فقط ، بينما يطلق عليها البصريون : المفعول المطلق ، والمفعول له ، والمفعول معه ، والمفعول فيه .

---

(1) البيت : من بحر الطويل ، قاله مجهول وعجزه :

* فما انقادت الآمال إلا لصابر *

(انظر فيه : العينى : ٤/ ٣٨٤، والتصريح : ٢/ ٢٣٦ ، والدرر : ١/ ٧ ، والأشمونى : ٣/ ٢٩٥) .

(2) البيت : من بحر الكامل ، قاله أبو الأسود الدؤلى ، كما نسب لآخرين وعجزه :

* عار عليك إذا فعلت عظيم *

(انظر فيه : الكتاب : ١/ ٤٢٤ ، المقتضب : ٢/ ١٦ ، خزانة الأدب : ٣/ ٦١٧ ، ملحقات ديوان أبى الأسود : ١٣٠ ، والأشمونى : ٢/ ٢٠٧) .

حروف الحشو والصلة . ويطلقونها على نحو (إنْ) فى قولهم : ما إنْ محمد رأيته : بينما يطلق عليها البصريون اسم : حروف الزيادة .

وإليك ثبت ببعض المصطلحات الكوفية ، وما يقابلها من مصطلحات البصريين :

مصطلحات كوفية	مصطلحات بصرية
الفعل الدائم	اسم الفاعل
المكنى أو الكناية	الضمير
المجهول	ضمير الشأن
العماد	ضمير الفصل
الصفة أو المحل	الظرف
الترجمة	البدل
التفسير	التميز
(لا) التبرئة	(لا) النافية للجنس
النعت	الصفة
عطف النسق	العطف
حروف الجحد	حروف النفى
ما يجرى وما لا يجرى	ما ينصرف وما لا ينصرف
(لام) القسم	(لام) الابتداء

وهكذا رأينا الكوفيين يحاولون أن يقيموا مدرستهم النحوية على نمط خاص يخالف ما عليه مدرسة البصرة ، ويخصوها بخصائص تميزها عن قرينتها البصرية حتى تكون لها شخصيتها المتميزة ، وسمتها الذى لا يشاركها فيه أحد ، وذلك عن طريق المخالفة الصريحة والمطردة لكل ما تنادى به مدرسة البصرة من مصطلحات أو عوامل ومعمولات : غير مبالين بما يفضى إليه ذلك من اتساع شقة الخلاف واحتدام الصراع بين الفريقين ، كما ظهر جليا فيما كان يدور بين علماء المدرستين من مناظرات ومنافرات ، ودسائس ومؤامرات ، مما

جعل الغيورين على اللغة وقواعدها وأحكامها يسأمون العيش فى هذا الجو العلمى الفاسد ، وأخذوا ينأون بأنفسهم عن هذا الصراع الهدام البغيض ، وشرعوا يفكرون فى إنشاء مذهب جديد لا يغفل ما توصل إليه كل فريق من قواعد بناءة وأحكام صائبة ، فيأخذها وينميها ، ويطرح كل ما لا حاجة للنحوى إليه من تفريعات مما كانت تثقل كاهل باحث اللغة ودارسها ، مذهب يجمع بين المذهبين - الكوفى والبصرى - فى قرن ، بعد تنقية ما تخلف عن الصراع بينهما من مهاترات ومشاحنات وتفريعات على الأصول ، بل يأخذ من كل مذهب أحسن آرائه وأفضلها ؛ وهو ما عرف باسم المذهب البغدادى .

★ ★ ★

الباب السادس

مدرسة بغداد

الفصل الأول

الكوفيون أسبق دخولا إلى بغداد

ما كاد خلفاء بنى العباس يتخذون من بغداد حاضرة لدولتهم الفتية، حتى استطاعت بغداد ببريقها الجذاب، ورفاهية الحياة فيها أن تجذب إليها العلماء على اختلاف تخصصاتهم، وتنوع مشاربهم، حيث كان تقريب الخلفاء لهم، وتشجيعهم، والبذل لهم، خير دافع لهم إلى الوقوف بأبواب الخلفاء والأمراء والوزراء، وعرض ما لديهم من علوم وأفكار وأشعار.

أما بالنسبة لعلماء النحو واللغة، فقد كان الكوفيون أسبق من البصريين فى الوفود إلى بغداد، ونيل الحظوة عند أرباب السلطان، حيث وفد إليها الكسائى حاملا معه نحو الكوفة وعلمها وآراء العلماء فيها، فما كاد يصل خبره إلى الخليفة المهدى حتى قربه إليه، وجعله فى حاشية ابنه الرشيد.

وحينما آلت الخلافة إلى الرشيد، ندبه لتأديب ولديه الأمين والمأمون: ولما تقدمت به السن واعتلت صحته، طلب إليه الرشيد أن يختار من يخلفه فى تأديب ولديه، فاختار لذلك أحد أصحابه وهو على بن المبارك الأحمر.

وهكذا استطاع الكسائى أن يمكن للنحو الكوفى فى بغداد؛ ولعل ما كان يلقاه الكسائى من حظوة عند الرشيد هى التى رفعت مكانته عند وزرائه، وهى التى كانت وراء عقد الغلبة له فى المناظرات التى كانت تعقد فى مجالسهم، كتلك التى جرت بينه وبين سيبويه إمام أهل البصرة فيما عرف باسم (المسألة الزنبورية)، والتى كانت بينه وبين الأصمعى، وبينه وبين اليزيدى ... إلخ[1].

---

(١) انظر ذلك فى: مجالس العلماء للزجاجى، وانظر مدرسة الكوفة: ١٠١.

وبعد الكسائى و الأحمر ، رحل إلى بغداد يحيى بن زياد الفراء ، حيث عهد إليه الخليفة المأمون بتأديب ولديه ، وقد نال حظوة عظيمة عندهما ، واكتسب احتراما بالغا ، وحفاوة ما بعدها حفاوة ، حتى إنهما كانا يتسابقان على تقديم نعليه إليه عند انصرافه ، على نحو ما هو مبسوط فى كتب التراجم[1] .

وفى هذا يقول أبو الطيب اللغوى :

«فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا ، وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدثوا الملوك فقدموهم ، ورغب الناس فى الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع ، فاختلط العلم»[2] .

وجدير بالذكر أن من أهم العوامل التى مكنت لتغلغل المذهب الكوفى وتمكنه فى بغداد – إلى جانب سبق نحاة الكوفة إلى الاتصال بذوى السلطان قبل غيرهم من علماء البصرة – أن البيئة وطبيعة الحياة فى بغداد كانت مهيأة لاستقبال علماء الكوفة ، والاحتفاء بهم ، وبما يحملون معهم من العلوم النحوية واللغوية ، إذ لم تكن بغداد حينئذ مدينة علم ، ولم يكن لها سابق معرفة بهذه العلوم ، وإنما كانت مدينة ملك فقط ، الجميع يشحذون هممهم لتدعيم الدولة ، وتوطيد سلطانها ، والتفانى فى خدمة الخلافة العباسية : وفى هذا يقول أبو الطيب اللغوى :

«وأما مدينة بغداد فمدينة ملك ، وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم منقول إليها ، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ؛ ورغبتهم ونيتهم مع ذلك فى العلم ضعيفة ، لأن العلم جد ، وهم قوم الهزل أغلب عليهم ، واللعب أملك لهم : فإن تعاطى أحدهم شيئا أو شدا به ، فإنما بغيته المساماة به ، وهمه المباهاة فيه ، فترى أحدهم يتكلم بغير علم ، ويلمز ليعد في العلماء ، ويذكر رغبته فى أطراف

---

(١) نزهة الألباء : ١٣٠ .

(٢) مراتب النحويين : ١٤٤ .

العلم ودواوينه وفروعه وغرائبه ، ويسامح نفسه فى أصوله وسهله وذلوله : فهو يبنى على غير أس ، ويحب الرياسة بأهون مس ، فلا جرم أنهم يوهمون ولا يفهمون ، ويسألون فيستبهمون»[1] .

ويقول أبو حاتم السجستانى :

«أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، ولم يكن بها من يوثق به فى كلام العرب ، ولا من ترتضى روايته : فإذا ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلطا ، صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة ، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو ، وبين الرؤاسى والكسائى ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة ، ويحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف إليه ، وإنما هم أحدهم إذا سبق إلى العلم أن يسيِّر اسما يخترعه لينسب إليه ، فيسمى الجر خفضا ، والظرف صفة ، ويسمون حروف الجر حروف الصفات ، والعطف النسق ، و (مفاعيل) فى العروض (مفعولان) ونحو هذا من التخليط»[2] .

★ ★ ★

(١) مراتب النحويين : ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٦٠ – ١٦١ .

الفصل الثانى

تلاقى البصرة والكوفة فى بغداد

حينما تواردت الأخبار عن مدى النعيم الذى يعيش فيه نحاة الكوفة فى كنف خلفاء بنى العباس فى بغداد ، عقد بعض نحاة البصرة العزم على الرحيل إليها ليقاسموهم هذا النعيم ، ورفاهة الحياة ، ورغادة العيش ، فشد المبرد رحاله إلى بغداد ، واحتال لإقامة مجلس له فى مسجدها ، رغم تصدى أبى العباس ثعلب وأنصاره له ، إلا أن المبرد نجح فى اختراق هذا الحصار ، وأسس لنفسه حلقة فى مسجد الكوفة ، بل استطاع أن يستقطب إلى حلقته بعض أنصار ثعلب كأبى إسحق الزجاج ، وختن ثعلب أبى على الدينورى الذى كان ثعلب يعاتبه فى ذلك دون أن يعيره الدينورى اهتماما ، وظل يمضى إلى حلقة المبرد [1] .

وهكذا التقت المدرستان فى بغداد ، مدرسة البصرة وزعيمها المبرد ، ومدرسة الكوفة وزعيمها ثعلب ، وأصبح لكل فريق مؤيدون ومشايعون ، وكل يعرض بضاعته ، ويستعرض علمه ، ويقيم حججه وبراهينه ، على نقض حجج الفريق الآخر ، وتفنيد براهينه ، حتى أصبحت جذوة المنافسة بينهما مشتعلة ، وباتت نار المنافرة بينهما مستعرة ، لا يخبو أوارها ، ولا يهدأ لهيبها ؛ فكثرت بينهم المناظرات ، وتعددت المفاخرات ، واشتدت المنافرات ، حتى إن رجال الدولة – وعلى رأسهم الخلفاء – قد برزت لديهم الرغبة الأكيدة لنبذ هذه الأفكار العدائية ، وهذه الروح الهدامة لدى العلماء ، وآثروا الاعتماد فى مسائل النحو واللغة على أصلح الآراء فى منهج كلتا المدرستين [2] .

(١) رسالة فى المذهب البغدادى : ٢١ .
(٢) المصدر السابق .

وما كاد القرن الثالث الهجرى ينتصف ، حتى كان هذا الاتجاه قد صادف هوى فى نفوس فريق من النحاة ، ممن هالهم ما وصل إليه حال النحو واللغة من الاختلاف والتباين فى الآراء ، والإسراع فى نقض الرأى الآخر بتمحل الأدلة وتصيد البراهين على يد التابعين الذين تولوا أمر الدراسات النحوية بعد أن قضى زعيما المدرستين – المبرد وثعلب – نحبهما ، وتركا لهيب الخلاف مشتعلا ، ونار الفتنة مستعرة .

كان هذا الفريق الذى أحزنه ما أضحت عليه حال الدراسات النحوية من خلاف وشقاق وتنابز وتنافر قد أخذ عن علماء المدرستين معاً ، وأفاد من آرائهما جميعا : ومن ثم فقد عقدوا العزم على اطراح أوجه الخلاف ، والبعد عن كل ما يثير التنافر والشقاق ، وإزالة البغضاء والإحن بين نحاة البلدين ، وذلك بالتعمق فى دراسة المذهبين ، ومحاولة التعرف على الآراء التى تتميز بالجدية والابتكار ، ثم الخروج بمذهب موحد ، يجمع ما تطمئن إليه نفوسهم ، ويغلب على ظنهم صحته ، سواء أكان منتميا لمذهب البصريين أم مما نادى به الكوفيون ، فلا تعصب لأحد الفريقين ضد الآخر ، أى أن هذا المذهب الجديد يقوم على الاختيار والانتخاب من آراء المذهبين جميعا .

ومن ثم فقد ظهر فى بغداد – داخل إطار هذا المذهب الجديد – ثلاث فرق من النحاة ، يحدوهم الأمل فى تجنيب الأمة هذه الصراعات ، والنأى بها عن هذه الخلافات ، ودفع مغبة التعصب والتشرذم عنها ، خدمة للغة العربية ، واستقامة قواعدها ، وصحة استنباطاتها ، وجدية استدلالاتها ، كل ذلك متمثلا فى الخروج إلى الناس بمذهب جديد قائم على الانتخاب والاختيار مما يرضونه من آراء علماء المدرستين ، وتطمئن إليه نفوسهم مما استقر عليه علماؤهما ، مما أطلق عليه فيما بعد اسم (مدرسة بغداد) أو المذهب البغدادى .

وعلى الرغم من نبل الهدف ، وسماوة الغاية التى وضعها هذا الفريق نصب أعينهم ، إلا أنهم انقسموا فيما بينهم إلى فرق ثلاثة ، جميعهم ينضوون تحت لواء هذا المذهب الجديد – المذهب البغدادى – وهم على النحو التالى :

الفريق الأول : وهم النحاة الذين تتلمذوا لعلماء الكوفة ، وتعمقوا في دراسة المذهب الكوفي ، ثم درسوا نحو البصريين بأخرة ، وارتضوا منه قواعد آمنوا بصحتها ، وثبت لديهم جدية الاستدلال لها ، ودقة قياسها ، وسلامة استنباطها ؛ وهذا الفريق – مع إيمانه الشديد بمبادئ المذهب الجديد – المذهب البغدادي – إلا أن صغوه وميله كان لا يزال معلقا بمذهبه الأصلي – المذهب الكوفي – يحاول الانتصار له ، والاستدلال لصحة آرائه ، قسرًا ورغما عنه ، مهما حاول في ذلك وعاني ، ويمثل هذا الفريق : أبو موسى الحامض ، وابن كيسان ، وابن شقير ، وابن الخياط ؛ وعن هؤلاء يقول الزجاجي :

« من علماء الكوفيين الذين أخذت عنهم : أبو الحسن بن كيسان ، وأبو بكر ابن شقير، وأبو بكر بن الخياط، لأن هؤلاء قدوة أعلام، وكان أول اعتمادهم عليه، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك ، فجمعوا بين العلمين»[1] .

ثم ينضاف إلى هذا الفريق أيضا ابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية ، وفيهم يقول الزجاجي :

«وإنما تذكر هذه الأجوبة عند الكوفيين على حسب ما سمعنا مما يحتج به عنهم من ينصر مذهبهم من المتأخرين ، وعلى حسب ما في كتبهم ، إلا أن العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم والمعنى واحد ، لأنا لو تكلفنا حكاية ألفاظهم بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة ، بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم ، وكثير من ألفاظهم ، قد هذبها من نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان ، وابن شقير ، وابن الخياط ، وابن الأنباري ؛ فنحن إنما نحكي علل الكوفيين على ألفاظ هؤلاء ومن جرى مجراهم ، مع أنه لازيادة في المعنى عليهم ، ولا بخس حظ يجب لهم»[2] .

وإليك ترجمة لأشهر علماء هذا الفريق الذي جمع بين المذهبين ، ولكن اتجاهه وصغوه ظلا مع المذهب الكوفي .

---

(١) الإيضاح في علل النحو : ٧٩ .

(٢) الإيضاح في علل النحو : ١٣١ .

الفصل الثالث

أشهر نحاة مدرسة بغداد

١ - أبو موسى الحامض (*)

أبو موسى سليمان بن محمد بن محمد بن أحمد . أخذ النحو عن أبى العباس ثعلب ، حيث لازمه زهاء أربعين سنة[١] ، وهو المقدم من أصحابه ، وجلس موضعه حيث خلفه بعد موته ؛ وأخذ أيضا عن البصريين ، وخلط النحوين البصرى والكوفى ، وكان يتعصب على البصريين فيما أخذ عنهم فى عرينهم[٢] .

روى عنه أبو عمرو الزاهد ، وأبو جعفر الأصبهانى المعروف ببرزويه غلام نفطويه .

أخلاقه :

كان أبو موسى ضيق الصدر ، سيئ الخلق ، وإنما سمى بالحامض لشراسة أخلاقه[٣] ، كما كان بخيلا ممسكا بما عنده حتى العلم ، حيث لما حضرته الوفاة أوصى بما لديه من كتب لابن فاتك المقتدرى ، بخلا بها أن تصير لأحد من أهل العلم[٤] .

(*) انظر ترجمته فى: معجم الأدباء: ١١ / ٢٥٣، وتاريخ بغداد: ٩ / ٦١، وإنباه الرواة: ٢ / ٢١، ووفيات الأعيان: ٢ / ٤٠٦، بغية الوعاة: ١/ ٦٠١، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ١٧٥، الفهرست لابن النديم: ١١٧ .

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٧٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢/٤٠٦ .

(٣) بغية الوعاة : ١/٦٠١ .

(٤) وفيات الأعيان : ٢/٤٠٦ .

روى أبو على إسماعيل بن القاسم القالى قال :

«حدثنى بعض أصحابنا قال : لما توفى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تقدم أبو موسى الحامض ليصلى عليه ، فجذبه ابن الحائك[1] وقال : أنت رجل شرس ، ومثلك لا يصلح أن يصلى على أبى العباس[2] .

تعصبه للكوفيين :

كان الحامض شديد التعصب للكوفيين ، حتى عندما روى ثعلب عن سلمة قوله : «مات الفراء وتحت رأسه كتاب سيبويه» ، قام أبو موسى الحامض إلى ثعلب قائلا : «إنما كان لا يفارقه ، لأنه كان يتتبع خطأه ولكنته»[3] .

وكانت العصبية ضد النحاة البصريين قد ذهبت بعقله ، وكان زائد العصبية على سيبويه ، فقد أخبر ابن كيسان قال :

«رأيت فى المنام الجن وهم يتناظرون فى كل فن من العلوم ، فقلت لهم : إلى من تميلون فى النحو ؟ فقالوا إلى سيبويه ، فأخبرت بذلك ثعلبا - بحضرة أبى موسى الحامض - فغضب الحامض وقال : قد صدق ، إنما سيبويه شيطان دجال ، فلذلك يميل إليه الجن ؛ فأسكته أبو العباس ثعلب»[4] .

آثاره :

خلف الحامض بعد موته كتبا حسانا فى الأدب منها :

١ - كتاب (خلق الإنسان) .

٢ - كتاب (السبق والنضال).

---

(١) ابن الحائك : هو هارون بن الحائك ، كان ضريرا ، وكان يوزن بميزان ثعلب فى النحو رشحه ثعلب لتأديب ولد وزير عبيدالله بن سليمان ، ناظر الزجاج فى مجلس عبيد الله ، فهزمه الزجاج ، وفاز بتأديب ولد عبيدالله ، وقيل إنه مات كمدا بسبب هذه الهزيمة . (طبقات الزبيدى : ١٥١) .

(٢) طبقات الزبيدى : ١٥٢ .

(٣) مراتب النحويين : ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٠ .

٣ – كتاب (النبات) .

٤ – كتاب (الوحوش) .

٥ – كتاب مختصر فى النحو .

آراء العلماء فيه :

قال عنه أبو بكر الزبيدى : «كان أبو موسى بارعا فى اللغة والنحو على مذهب الكوفيين ، وكان فى اللغة أبرع»[١] .

وقال عنه ابن خلكان والسيوطى : «كان دينا ورعا صالحا ، وكان أوحد الناس فى البيان والمعرفة بالعربية واللغة والشعر ، كما كان حسن الوراقة فى الضبط والمذهب[٢] .

وفاته :

توفى الحامض ليلة الخميس لسبع بقين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثمائة ، ودفن بمقبرة باب التبن ، وهى محلة ببغداد ، وبها قبر عبد الله بن أحمد بن حنبل .

٢ - ابن كيسان [*]

أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد[٣] بن كيسان[٤] . أخذ النحو عن المبرد وثعلب وغيرهما ، فكان بصريا كوفيا ، يحفظ القولين ، ويعرف المذهبين ، ثم ذاع صيته ، فكان مجلسه غاصا بالأمراء والأشراف والدهماء ، والكل عنده سواء .

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٥٢ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٠٦/٢ ، وبغية الوعاة : ٦٠١/١ .

(*) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ١٥٣ ، أخبار النحويين البصريين : ١١٣ ، مراتب النحويين : ١٤٠ ، ونزهة الألباء : ٢٣٥ ، وتاريخ بغداد : ٣٣٥/١ ، ومعجم الأدباء : ١٣٧/١٧ ، وإنباه الرواة : ٥٧/٣ ، بغية الوعاة : ١٨/١ ، والفهرست : ١٢٠ .

(٣) فى بغية الوعاة : ابن إبراهيم ، وهو ساقط من طبقات الزبيدى .

(٤) كيسان : الغدر ، وهى لغة سعدية . (الفهرست : ١٢٠) .

قال القفطى : «وليس هذا بالقديم الذى له فى العروض والمعمى كتاب»[١] .

وقال عنه ياقوت الحموى : «... لكنه كان إلى مذهب البصريين أميل» .

ونقل ذلك عن ياقوت أبو بكر الزبيدى فى طبقاته ، والسيوطى فى بغيته ، ولكن كلام الزجاجى المتقدم يرد ذلك ويدحضه[٢] ، فضلا على قول أبى الطيب اللغوى : «وكان ابن كيسان يختار أشياء من مذاهب الفراء ، يخالف فيها سيبويه» .

كما روى عن محمد بن يحيى قوله : «كان ابن كيسان يسأل أبا العباس محمد بن يزيد المبرد عن مسائل ، فيجيبه ، فيعارضها بقول الكوفيين ، فيقول : فى هذا على من كذا يلزمه كذا ، فإذا رضى قال له : قد بقى عليك شىء ، لم لا تقول كذا ؟ فقال له يوما – وقد لزم قولا للكوفيين ولجَّ فيه – : أنت كما قال جرير :

أُسَلِّيكِ عَنْ زَيْدٍ لِتَسْلِى وَقَدْ أَرَى ... بِعَيْنِكِ مِنْ زَيْدٍ قَذًى غَيْرَ بَارِحِ
إِذَا ذَكَرَتْ زَيْدًا تَرَقْرَقَ دَمْعُهَا ... بِمَطْرُوقَةِ الْعَيْنَيْنِ شَوْسَاءَ طَامِحِ
تُبْكِى عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ تَرَ مِثْلَهُ ... بَرَاءً مِنَ الْحُمَّى صَحِيحَ الْجَوَانِحِ
فَإِن تَقْصِدِى فَالْقَصْدُ مِنْكِ سَجِيَّةٌ ... وَإِنْ تَجْمَحِى تَلْقَىْ لِجَامَ الْجَوَامِحِ[٣]

وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن ابن كيسان – رغم جلوسه إلى أبى العباس المبرد ، وأخذه منه مذهب البصريين – إلا أن ميله وصغوه كان مع الكوفيين ، وليس كما قال ياقوت ، ونقله عنه كل من الزبيدى والسيوطى .

(١) يقصد القفطى بالقديم : أبا سليمان بن المعروف كيسان الهجيمى الذى أخذ عن الخليل وأبى عبيدة ، وصفه أبو الطيب اللغوى وابن النديم بأنه كان مغفلا ؛ وروى عن أبى عبيدة قوله : «نسخ العلم على لسان كيسان ، لأنه يسمع منى غير ما أقول ، ويقول غير ما يسمع ، ويكتب فى ألواحه غير ما يقول ، ويقرأ غير ما فى الألواح» . (مراتب النحويين : ١٣٨، والفهرست : ١٢٠) .

(٢) انظر ص ٤٤٣ .

(٣) انظر ديوان جرير : ١٠٥ . وقصتها أن جريرا كان قد اشترى جارية من زيد النجار مولى بنى حنيفة ، ففركت جريرا ، وجعلت دمعتها لا ترقأ بكاء على زيد وحباله ، فقال جرير هذه الأبيات .
وقد سئل جرير : ما لجام الجوامح ؟ فقال : هذاك ، وأشار إلى سوط معلق ....
والشوساء : الرافعة الرأس . والطامح : التى تطمح وترغب فى غير زوجها .

وماذا يقول ياقوت والناقلان عنه بعد قول أبى بكر مبرمان : «قصدت ابن كيسان لأقرأ عليه كتاب سيبويه ، فامتنع وقال : اذهب إلى أهله – يشير بذلك إلى الزجاج –»[1] .

أخلاقه :

كان ابن كيسان تقيا ورعا ، محبًا للعلم والإفادة ، يبذل ما عنده للكافة دون تفرقة بينهم ، فهذا ياقوت الحموى يروى قول أبى حيان التوحيدى فيه :

«ما رأيت مجلسا أكثر فائدة ، وأجمع لأصناف العلوم والتحف والنتف من مجلسه ، وكان يجتمع على بابه نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والأشراف الذين يقصدونه ، وكان إقباله على صاحب المرقعة والخلق كإقباله على صاحب الديباج والدابة والغلام» .

آثاره :

خلف ابن كيسان مصنفات نافعة فى مختلف علوم العربية منها :

فى النحو : مختصر فى النحو ، الشاذ فى النحو ، المذكر والمؤنث ، كتاب الفاعل والمفعول به ، كتاب المقصور والمنقوص ، كتاب الهجاء ، المهذب ، والمختار فى علل النحو ، اللامات ، المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون .

وفى الصرف : كتاب التصاريف .

وفى علوم القرآن : البرهان ، معانى القرآن ، كتاب القراءات ، الوقف والابتداء .

وفى الحديث : غريب الحديث ، الحقائق .

وفى الأدب : غلط أدب الكاتب ، مصابيح الكتاب .

---

(١) طبقات الزبيدى : ١٥٣ .

أقوال العلماء فيه :

لا يعدم العالم من ينصفه ، كما لا يعدم من يغبنه ، فهو دائما عرضة لهذا ، وهدف لذاك ، فهذا ابن مجاهد يقول فيه : «كان ابن كيسان أنحى من الشيخين» – يعنى المبرد وثعلبا – .

ويقول عنه ابن النديم : «كان أبو الحسن فاضلا ، خلط المذهبين ، وأخذ عن الفريقين» .

ويقول أبو بكر ابن الأنبارى : «كان شديد التعصب عليه ، والتنقص له – يقصد المبرد – خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ولا مذهب البصريين» .

ولا ريب أن هذه سمة التنافس والتنابز بين العلماء ، ولا سيما حينما يجمع بينهم تخصص علمى واحد .

وفاته :

توفى أبو الحسن بن كيسان يوم الجمعة لثمان خلون من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين[1] .

وقال ياقوت : «لا شك أن هذا سهو ، ففى تاريخ أبى غالب همام بن الفضل ابن المهذب المغربى أنه مات سنة عشرين وثلاثمائة»[2] .

٣ - ابن شقير [*]

أبو بكر أحمد بن الحسن بن العباس بن الفرج بن شقير . أخذ عن علماء الكوفة ثم عن علماء البصرة ، فجمع بين المذهبين ، وكان فى طبقة ابن السراج من البغداديين .

---

(١) تاريخ بغداد : ١/٣٣٥ ، وطبقات الزبيدى : ١٥٣ ، وبغية الوعاة :١ / ١٩ .

(٢) معجم الأدباء : ١٧/١٤١.

(*) انظر فى ترجمة ابن شقير : إنباه الرواة : ١/٣٤ ، وتاريخ بغداد : ٤/٨٩ ، ومعجم الأدباء : ٣/١١ ، ونزهة الألباء : ٢١٥ ، وبغية الوعاة : ١/٣٠٢ ، والوافى بالوفيات : جـ٢ مجلد٢ ، وطبقات ابن قاضى شهبة : ١/١٩٣ ، والفهرست ١٢٣ .

روى عن أحمد بن عبيد بن ناصح المعروف بأبى عصيدة تصانيف الواقدى فى المغازى والسير وغيرها ، وكان ممن اشتهروا برواياتها ؛ وحدث عنه إبراهيم ابن أحمد الخرقى ، وأبو بكر بن شاذان .

آثاره :

خلف ابن شقير بعد وفاته كتاب مختصر فى النحو ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث .

قال ياقوت الحموى : «قرأت فى طبقات ابن سعد أن الكتاب الذى ينسب للخليل ويسمى (الجمل) من تصانيف ابن شقير» .

وفاته :

توفى أبو بكر بن شقير فى شهر صفر سنة سبع عشرة وثلاثمائة هجرية .

٤ - ابن الخياط (••)

أبو بكر أحمد بن محمد بن منصور بن الخياط . من أهل سمرقند ، قدم بغداد بعد وفاة المبرد ، وكان الأصمعى قد ضعف عن الإفادة لصممه الشديد ، فأخذ عن أترابهما .

قال محقق طبقات الزبيدى أنه وجد بالمختصر المطبوع فى روما : «أبو بكر محمد بن منصور ، أخذ عن المبرد ، ونقل عن ثعلب ، وله تصنيف حسن» .

وقال القفطى : «أخذ عن المبرد ، وله تصنيف حسن» .

وصار ابن الخياط يخلط نحو الكوفيين بنحو البصريين ؛ ولقى إبراهيم بن السرى الزجاج ببغداد ، وجرت بينهما مناظرة ، وأخذ عن الزجاجى والفارسى .

(••) انظر فى ترجمة ابن الخياط : طبقات الزبيدى : ١١٧ ، وإنباه الرواة : ١/١٢٩ ، ومعجم الأدباء ١٧/١٤١ ، وطبقات ابن قاضى شهبة : ١/٣٤٦ ، والفهرست : ١٢١ .

أخلاقه :

قال السيوطى : «كان حميد الأخلاق ، طيب العشرة» .

آثـاره :

خلف ابن الخياط بعد وفاته مصنفات مفيدة منها فى النحو : كتاب النحو الكبير ، وكتاب المقنع ، وكتاب الموجز . كما صنف كتاب معانى القرآن .

وفاته :

توفى أبو بكر بن الخياط سنة عشرين وثلاثمائة بالبصرة .

٥ - نفطويه (*)

أبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة العتكى الأزدى الواسطى . ولد بواسط سنة أربعين ومائتين . وقيل سنة أربع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ومائتين . وسكن بغداد .

وأمه من ولد خالد بن عبدالله المزنى الطحان المحدث المعروف ، وقد روى عنه المرزبانى قوله : «أبو الهيثم خالد بن عبدالله المزنى جد جدى لأمى ، وتوفى سنة تسع وسبعين ومائة ، وفيها مات حماد بن زيد ، ومالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى ، وأبو الأحوص سلام بن سليم» .

قال ابن خالويه : «ليس فى العلماء من اسمه إبراهيم ، وكنيته أبو عبدالله سوى نفطويه» .

وإنما سمى (نفطويه) لدمامته وأدمته ، تشبيها له بالنفط ، وجعل على مثال (سيبويه) لانتسابه فى النحو إليه ، وجريه على طريقته ، ودراسة كتابه .

(*) انظر فى ترجمته : إنباه الرواة : ١/١٧٦، وفيات الأعيان : ١/١١ ، تاريخ بغداد : ٦/١٥٩ ، طبقات الزبيدى : ١٥٤ ، معجم الأدباء : ١/٢٦٤ ، وبغية الوعاة : ١/٤٢٨ ، والفهرست : ١٢١ .

وروى أن أبا حيان الأندلسى قد ذكر أن من لقب بمثل هذه الصيغة من النحاة ستة لا سابع لهم : سيبويه ، ونفطويه ، ونزرويه ، وابن درستويه ، وابن خالويه ، وابن شاهويه .

وقال ياقوت الحموى إن ابن بسام ضبط (نفطويه) بضم الطاء ، وتسكين الواو ، وفتح الياء فى قوله :

رَأَيْتُ فِى النَّوْمِ أَبِى آدَمَا ... صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
فَقَالَ أَبْلِغْ وَلَدِى كُلَّهُمْ ... مَنْ كَانَ فِى حَزْنٍ وَفِى سَهْلِ
بِأَنَّ حَوَّا أُمَّهُمْ طَالِقٌ ... إِنْ كَانَ نِفْطُويَهُ مِنْ نَسْلِى

قال السيوطى : «هذا اصطلاح لأهل الحديث فى اسم بهذه الصيغة ، وإنما عدلوا إلى ذلك لحديث ورد أن (ويه) اسم شيطان ، فعدلوا عنه كراهة له» .

علمه وثقافته :

أخذ نفطويه النحو عن ثعلب والمبرد ، وسمع من محمد بن الجهم ، وعبدالله ابن إسحق بن سلام ، وأصحاب المدائنى ، وخلط نحو الكوفيين بنحو البصريين، وكان حسن الحفظ للقرآن الكريم ، وهو أول ما يبتدئ به فى مجلسه بمسجد الأنباريين بالغدوات ، إلى أن يقرئ القرآن على قراءة عاصم[1] ، ثم الكتب بعدها؛ وكان يشير إلى أحد أعمدة المسجد ويقول : «جلست إلى هذه الأسطوانة[2] منذ خمسين سنة .

وذكر أبو عمرو الدانى فى (طبقات القراء) أن نفطويه أخذ القراءة عرضا عن أبى عون محمد بن عمر بن عون الواسطى ، وشعيب بن أيوب الصريفينى ، وأخذ عنه محمد بن أحمد الشنبوذى .

(١) عاصم بن أبى النجود بهدلة أبو بكر مولى بنى جذيمة بن مالك ، أحد القراء السبعة ، أخذ القراءة عن أبى عبدالرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وأخذ عنه أبو بكر بن عياش ، وأبو عمرو البزاز ، توفى سنة ١٢٧ بالكوفة . (وفيات الأعيان : ١/٢٤٣) .
(٢) الأسطوانة : العمود ، معرب (أستون) .

وكان نفطويه ينكر وجود الاشتقاق فى كلام العرب ويحيله[1] ، وله فى ذلك مصنف ، وكل حجة فيه مدخولة .

وقال عنه الزبيدي : «كان ضعيفا فى النحو» .

أخلاقه :

قال عنه ابن النديم : «كان طاهر الأخلاق ، حسن المجالسة» .

وقال عنه أحمد بن كامل القاضى : «كان من طهارة الأخلاق ، وحسن المجالسة ، والصدق فيما يرويه على حال ما شاهدت عليها أحدا مما لقيناهم .. وكان حسن المجالسة للخلفاء والوزراء ، وكانت له فتوة ومروءة وظرف ، ولقد هجم علينا يوما فى بستان كان له بالزبيدية[2] ، فرآنا على حال تبذُّل ، فانقبضت وذهبت أعتذر إليه ، فقال لى : التغافل عن النبيذ سخف ، ثم أنشدنا لنفسه :

لَنَا صَدِيقٌ غَيْرُ عَالِي الْهِمَمْ ... يُخْصِي عَلَى الْقَوْمِ سِقَاطَ الْكَلِمْ
مَا اسْتَمْتَعَ النَّاسُ بِشَيْءٍ كَمَا ... يَسْتَمْتِعُ النَّاسُ بِجِسْمِ الْحَشَمْ

وقال عنه ياقوت الحموى : كان زاهر الأخلاق ، حسن المجالسة ، صادقا فيما يرويه .

وجاء فى (تاريخ بغداد) أنه كان يخضب بالوسمة .

وقال الزبيدى : كان يخضب رأسه ولحيته إلى أن مات .

وروى السيوطى عن أبى بكر الزبيدى – ولم أعثر عليه فى طبقاته – قوله : «كان غير مكترث بإصلاح نفسه ، يفرط فى الصُنان فلا يغيره : حضر مجلس وزير المقتدر ، فتأذى هو وجلساؤه بكثرة صنانه ، فقال : يا غلام ، احضر لنا مرتكا[3] ، فاحتد به ، فبدأ الوزير بنفسه فتمرتك ، وأداره على جلسائه ، وفطنوا لما

(١) يرى فساده .
(٢) الزبيدية : محلة ببغداد .
(٣) المرتك : الطيب .

أراد بنفطويه ، فقال نفطويه : لا حاجة لى به ، فراجعه فأبى ، فاحتد الوزير وقال : يا عاض بظر أمه ، إنما تمرتكنا من أجلك ، قم ، لا أقام الله لك وزنا ، أبعدوه عنى إلى حيث لا أتأذى به» .

بين نفطويه وابن دريد :

روى أنه كانت بين نفطويه وابن دريد منافرة ، حيث هجاه نفطويه حين ألف كتاب (جمهرة اللغة) بقوله :

ابـــنُ دُرَيْـــدٍ بَـــقَـــرَهْ ... وَفِـــيـــهِ عِـــىٌّ وَشَـــرَهْ
وَيَـــدَّعِـــى مِـــنْ حُـــمْـــقِـــهِ ... وضـــعَ كِـــتَـــابِ الْـــجَـــمْـــهَـــرَهْ
وَهْـــوَ كِـــتَـــابُ الْـــعَـــيْـــنِ إلْـ ... ـــلاَ أنَّـــهُ قَـــدْ غَـــيَّـــرَهْ

فرد عليه ابن دريد بقوله :

وَشَـاعِـرٍ يُـدْعَـى بِـنِـفْـطَـوَيْـهِ ... مُـسْـتَـأهِـل لِـلصَّـفْـعِ فِـى أخْـدَعَـيْـهِ
أحْـرَقَـهُ الـلَّـهُ بِـنِـصْـفِ اسْـمِـهِ ... وَصَـيَّـرَ الْـبَـاقِـى صُـرَاخًـا عَـلَـيْـهِ
لَـوْ أُنْـزِلَ الْـوَحْـىُ عَـلَـى نِـفْـطَـوَيْـهِ ... لَـكَـان ذَاكَ الْـوَحْـىُ سُـخْـطًـا عَـلَـيْـهِ
مَـــنْ سَـــرَّهُ ألاَّ يَـــرَى فَـــاسِـــقًـــا ... فَـلْـيَـجْـتَـهِـدْ ألاَّ يَـرَى نِـفْـطَـوَيْـهِ
أُفٌّ عَـــلَـــى الـــنَّـــحْـــوِ وَأرْبَـــابِـــهِ ... قَـدْ صَـارَ مِـنْ أرْبَـابِـهِ نِـفْـطَـوَيْـهِ

مذهبه الفقهى :

كان نفطويه فقيها عالما على مذهب أهل الظاهر ، وكان رأسا فيه ، سلّم له ذلك جميع أصحابه ، وكانت تربطه بمحمد بن داود الظاهرى الذى تولى رئاسة المذهب بعد أبيه علاقة قوية ، وصداقة وطيدة .

حكى عبد العزيز بن الفضل قال : «خرج القاضى أبو العباس أحمد بن عمر ابن سريج وأبو بكر محمد بن داود الظاهرى ، وأبو عبدالله نفطويه إلى وليمة دعوا

إليها ، فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق ، فأراد كل واحد منهم صاحبه أن يتقدم عليه ، فقال ابن سريج : ضيق الطريق يورث سوء الأدب ، وقال ابن داود : لكنه يعرف مقادير الرجال ، فقال نفطويه : إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف .

ولما مات محمد بن داود حزن عليه نفطويه ، وانقطع لا يظهر للناس ، ثم ظهر ، فقيل له في ذلك . فقال : إن ابن داود قال لي يوما : أقل ما يجب على الصديق أن يحزن على صديقه سنة كاملة ، عملا بقول لبيد :

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

فحزنا عليه كما شرط .

آثاره :

خلف نفطويه مصنفات كثيرة جيدة منها : كتاب التاريخ ، وكتاب الاقتصارات ، وكتاب غريب القرآن ، وكتاب المقنع في النحو ، وكتاب الاستثناء والشرط في القراءات ، وكتاب الملح ، وكتاب الأمثال ، وكتاب الشهادات ، وكتاب المصادر ، وكتاب القوافي ، وكتاب الرد على من زعم أن العرب تشتق الكلام بعضه من بعض ، وكتاب الرد على من قال بخلق القرآن ، وكتاب الرد على المفضل بن سلمة في نقضه على الخليل ، كتاب في أن العرب تتكلم طبعا لا تعلما .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه القفطي : سكن بغداد ، حَدَّث وحُدِّث عنه ، وكان صدوقا ، وله مؤلفات كثيرة ، وله شعر .

وقال عنه أبو بكر بن شاذان : كان - رحمه الله - متقنا في العلوم .

وقال الزبيدي : كان نفطويه أديبا متقنا في العلوم والآداب ، حافظا لنقائض جرير والفرزدق ، وشعر ذي الرمة ، وغيرهم من الشعراء ، وكان يروي الحديث ، وكان سمح المنظر .

وقال عنه ابن النديم : كان طاهر الأخلاق ، حسن المجالسة ، وكان مجلسه فى مسجد الأنباريين بالغدوات .

وقال عنه ابن خلكان : له التصانيف الحسان فى الآداب ، وكان عالما بارعا .

وقال عنه ياقوت الحموى : كان نفطويه عالمًا بالعربية واللغة والحديث ... وكان زاهر الأخلاق ، حسن المجالسة . صادقا فيما يرويه ، حافظا للقرآن ، مسندا للحديث ، حافظا للسير وأيام الناس والتواريخ والوفيات ، ذا مروءة وظرف . جلس للإقراء أكثر من خمسين سنة .

شعره :

كان نفطويه شاعرا مطبوعا ، عالما بالشعر ورواياته : وكان يحفظ نقائض جرير والفرزدق ، وشعر ذى الرمة وغيرهم ، عارفا برواة الشعر ، وكان يقول عن نفسه : سائر العلوم إذا مت هنا من يقوم بها ، وأما الشعر فإذا مت مات على الحقيقة ، وقال أيضا : من أغرب عليّ بيتا لجرير لا أعرفه فأنا عبده .

وكان يقول من الشعر المقطعات من القول ، وما جرى مجرى ذلك ، كما يقول المتأدبون ، فمن ذلك ما أنشده لنفسه :

تَشْكُو الْفِرَاقَ وَأَنْتَ تُزْمِعُ رِحْلَةً ... هَلاَّ أَقَمْتَ وَلَوْ عَلَى جَمْرِ الْغَضَا
فَالآنَ عُدْ بِالصَّبْرِ أَوْ قِفْ حَسْرَةً ... فَعَسَى يَرُدُّ لكَ الْقَضَا مَا قَدْ مَضَى

وله فى العفة :

كَمْ قَدْ خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فَيُقْنِعُنِي ... مِنْهُ الفُكَاهَةُ وَالتَّحْدِيثُ والنَّظَرُ
أَهْوَى الْمِلاَحَ وَأَهْوَى أَنْ أُجَالِسَهُمْ ... وَلَيْسَ لِي فِي حَرَامٍ مِنْهُمُ وَطَرُ
كَذَلِكَ الْحُبُّ لاَ إِتْيَانُ مَعْصِيَةٍ ... لاَ خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا سَقَرُ

وفاته :

توفى نفطويه ببغداد يوم الأربعاء لست خلون من شهر صفر بعد طلوع الشمس بساعة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، ودفن يوم الخميس فى مقابر باب الكوفة ، وصلى عليه البربهارى رئيس الحنابلة ، وقيل دفن فى يوم وفاته .

وقال أحمد بن كامل القاضى : توفى - رحمه الله - يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، حضرت جنازته عشاء .

وقال السيوطى : ومات يوم الأربعاء ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة .

وقيل : توفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة هو وابن مجاهد .

والأول أصح .

٦ - ابن الأنبارى (*)

أبو بكر محمد بن أبى محمد القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان ابن سماعة ابن فروة بن قطن بن دعامة الأنبارى . ولد يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وأقام مع والده فى بغداد . وأصلهما من الأنبار .

علمه وثقافته :

أخذ الأدب والرواية عن والده ، وعن أبى جعفر أحمد بن عبيد ، وأخذ النحو عن ثعلب . وكان أفضل من أبيه وأعلم ، فى نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة ، وسرعة الحفظ ، وكان يضرب به المثل فى حضور البديهة ، وسرعة الجواب ، وأكثر ما كان عليه من حفظه ومن غير دفتر ولا كتاب .

(*) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ١٥٣ ، ووفيات الأعيان : ٣٤١/٤، وبغية الوعاة : ٢١٢/١ ، والفهرست : ١١٢ .

قال أبو على القالى : كان أبو بكر بن الأنبارى يحفظ - فيما ذكر - ثلاثمائة ألف بيت شاهد فى القرآن الكريم .

وقيل : كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا للقرآن بأسانيدها .

وروى أنه مرض يوما فعاده أصحابه ، فرأوا من انزعاج والده أمرا عظيما ، فطيبوا نفسه ، فقال : «كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون؟!» وأشار إلى خزانة مملوءة كتبا .

وروى الخطيب البغدادى أنه كان يملى فى ناحية من المسجد ، وأبوه يملى فى الناحية الأخرى .

شغفه بالعلم وانكبابه عليه :

وقال أبو الحسن العروضى : اجتمعت أنا وأبو بكر ابن الأنبارى عند الرضى بالله على الطعام - وكان الطباخ قد عرف ما يأكل ، فكان يطبخ له قلية يابسة - فأكلنا نحن ألوان الطعام وأطايبه ، وهو يعالج تلك القلية ، ثم فرغنا وأوتينا بحلواء ، وقمنا وملنا إلى الخيش ، فنام بين الخيشين ، ونمنا نحن فى الخيشين ، ولم يشرب ماء إلى العصر ؛ فلما كان العصر قال : يا غلام : الوظيفة ، فجاءه بماء من الجب ، وترك الماء المزمل بالثلج ، فغاظنى ذلك فصحت ، فأمر الرضى بإحضارى ، وقال : ما قصتك ؟! فأخبرته وقلت : هذا يا أمير المؤمنين يحتاج إلى أن يحال بينه وبين تدبير نفسه لأنه يقتلها ، ولا يحسن عشرتها ، فضحك وقال : يا أبا بكر ، لم تفعل هذا ؟ قال : أبقى على حفظى ، قلت له : قد أكثر الناس من حفظك ، فكم تحفظ ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقا» .

قال : وكان يأخذ الرطب فيشمه ويقول : إنك لطيب ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لى من العلم .

ولما مرض مرض الموت ، أكل كل شىء كان يشتهيه وقال : هى علة الموت.

قال أبو على القالى : «ورأى يوما جارية بالسوق حسناء ، فوقعت فى قلبه، فذكرها للراضى ، فاشتراها وحملها إليه ، فقال لها : اعتزلى إلى الاستبراء ، قال: وكنت أطلب مسألة ، فاشتغل قلبى ، فقلت للخادم : خذها وامض بها ، فليس قدرها أن تشغل قلبى عن علمى ؛ فأخذها الغلام ، فقالت له : دعنى أكلمه بحرفين ، فقالت له : أنت رجل لك محل وعقل ، وإذا أخرجتنى ولم تبين ذنبى ، ظن الناس فى ظنا قبيحا ، فقال لها : ما لك عندى ذنب غير أنك شغلتنى عن علمى ؛ فقالت : هذا سهل ؛ فبلغ الراضى فقال : «لا ينبغى أن يكون العلم فى قلب أحد أحلى منه فى صدر هذا الرجل» .

وروى أنه سألته يوما جارية للرضى عن شىء فى تعبير الرؤيا ، فقام وقال : أنا حاقن ، ثم مضى من يومه ، فحفظ كتب الكِرمانى ، وجاء من الغد وقد صار معبرا للرؤيا .

تواضعه للعلم وانقياده له :

حكى أبو الحسن الدارقطنى أنه حضر فى مجلس إملاء ابن الانبارى يوم جمعة ، فصحف اسما أورده فى إسناد حديث ، إما كان (حيان) فقال (حبان) ، أو (حبان) فقال : (حيان) ، قال : فأعظمت أن يحمل عن مثله – فى فضله وجلاله – وهم ، وهبت أن أوقفه على ذلك ؛ فلما انقضى الإملاء ، تقدمت إلى المستملى ، فذكرت له وهمه ، وعرفته صواب القول فيه ، وانصرفت ، ثم حضرت الجمعة التالية مجلسه ، فقال للمستملى : عرِّف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية ونبهنا ذلك الشاب على الصواب ، وهو كذا ؛ وعرِّف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال.

أخلاقه :

كان ابن الأنبارى دينا ، ورعا ، صدوقا ، ثقة ، فاضلا ، خيرا ، من أهل السنة ، من الصالحين ، لا يعرف له حرمة ولا زلة .

إلا أنه كان شحيحا رغم يسار حاله وسعة عيشه ، وكان يأكل كل يوم طباهجة ، تصلح له بلحم أحمر ومُرِّيّ[1] ، وما أكل له أحد شيئا قط :

وحكى أن أبا يوسف الأقسامى وقف يوما على ابن الأنبارى فى المسجد الجامع ، فقال له : يا أبا بكر ، قد أجمع سبعة فراسخ ناس على شىء – يعنى أهل بغداد – فأعطنى درهما حتى أخرق هذا الإجماع ، فقال : وما هذا الإجماع يا أبا يوسف ؟ قال : أجمع أهل هذا البلد عن آخرهم على أنك بخيل ، فضحك ولم يعطه شيئا .

آثاره :

خلف ابن الأنبارى مصنفات كثيرة فى شتى العلوم والمعارف ، ففى النحو : كتاب الأضداد ، وكتاب الزاهر ، وكتاب الكافى ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب الواضح ، وكتاب الموضح ، وكتاب المذكر والمؤنث .

وفى اللغة : كتاب الألقاب ، كتاب الهجاء ، كتاب اللامات ، كتاب الهاءات فى كتاب الله – عز وجل – .

وفى الأدب : كتاب أدب الكاتب (لم يتمه) كتاب المفضليات ، كتاب السبع الطوال ، والجاهليات .

وفى الدراسات القرآنية : كتاب المشكل فى معانى القرآن (لم يتمه) ، كتاب إيضاح الوقف والابتداء ، كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان .

وفى الحديث النبوى : كتاب غريب الحديث (لم يتمه) .

كما شرح عدة دواوين من أشعار العرب الفحول من أمثال زهير بن أبى سلمى ، والنابغة الجعدى ، والأعشى وغيرهم .

---

(١) الطباهجة : اللحم المشرح ، والمرى : نوع من الإدام .

وفاته :

لم يعمر ابن الأنبارى طويلا ، وإنما مات دون الخمسين ، حيث توفى ببغداد ليلة عيد النحر سنة ثمان وعشرين ، وقيل سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، ودفن فى داره .

٧ - الأخفش الأصغر (*)

أبو الحسن على بن سليمان بن الفضل ، وهو أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين ، الأكبر عبد الحميد بن عبدالمجيد أخذ عنه سيبويه ، والأوسط سعيد ابن مسعدة أخذ عن سيبويه ، والأصغر هذا ، وهو تاسع الأخافشة جميعا [1] .

أخذ النحو عن ثعلب ، والمبرد ، واليزيدى ، وأبى العيناء ، ولم يبلغ حد الكمال فى النحو ؛ روى عنه المرزبانى ، وأبو الفرج المعافرى الحريرى وغيرهما .

رحلاته :

قدم الأخفش الأصغر إلى مصر سنة سبع وثمانين ومائتين ، ثم خرج منها إلى حلب سنة ثلاثمائة ، ونزل ضيفا على أبى على بن مقلة ، وكان ابن مقلة يراعيه ويبره ، فشكا إليه الأخفش فى بعض الأيام ما هو فيه من شدة الفاقة، وزيادة الإضاقة ، وسأله أن يكلم الوزير أبا الحسن على بن عيسى فى أمره، ويسأله إقرار رزق له فى جملة من يرتزق من أمثاله ، فخاطبه أبو على فى ذلك، وعرّفه اختلال حاله ، وتعذر القوت عليه فى أكثر أيامه ، وسأله أن يجرى عليه رزقا أسوة بأمثاله ، فانتهره الوزير انتهارا شديدا ، وكان ذلك فى مجلس حافل ، فشق ذلك على أبى على ، وقام من مجلسه ، وسار إلى منزله لائما نفسه على

(*) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ١١٥ ، ومعجم الأدباء : ٢٤٦/١٣، ووفيات الأعيان : ٣١٠/٣ . وبغية الوعاة : ١٦٧/٢ ، والفهرست : ١٢٣ .

(١) الأخافشة التسعة هم : عبدالحميد بن عبدالمجيد ، سعيد بن مسعدة ، على بن سليمان ، أحمد بن عمران ، أحمد بن محمد الموصلى ، خلف بن عمر ، عبدالعزيز بن أحمد ، عبدالله بن محمد ، على بن إسماعيل : (انظر بغية الوعاة : ٤٤٨/٢) .

سؤاله ، ووقف الأخفش على الصورة ، فاغتنم لها ، وقفل راجعا إلى بغداد ، وكان كثيرا ما ينشد على الناس ، وكأنه كان يعرِّض بعلى بن عيسى الوزير :

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّى لَسْتُ جَائِيكَا ... وَإِنَّنِى غَيْرُ مَاضٍ فِى نَوَاحِيكَا
وَاللَّهِ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِزِينَتِهَا ... وَادٍ بِكَفِّكَ لَمْ أَحْلُلْ بِوَادِيكَا
وَلَوْ مَلَكْتَ رِقَابَ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... شَرْقًا وَغَرْبًا لَمَا جِئْنَا نُهَنِّيكَا

بين الأخفش وابن الرومى :

كان بين الأخفش وابن الرومى الشاعر وقائع ومهاجاة ، إذ كان الأخفش يباكر دار ابن الرومى ، ويقول عند بابه كلاما يتطير به - وكان ابن الرومى معروفا بكثرة التطير - فإذا سمع كلام الأخفش ، لم يخرج ذلك اليوم من بيته ، ولما كثر ذلك منه ، هجاه ابن الرومى بأهاج كثيرة ، وهى مثبتة فى ديوانه ، ومنها قصيدة شينية [1] تبدأ بقوله :

أَلاَ قُلْ لِنَحْوِيِّكَ الأَخْفَشِ ... أَنِسْتَ ، فَأَقْصِرْ وَلاَ تُوحِشِ
وَمَا كُنْتُ عَنْ غَيِّهِ مُقْصِرًا ... وَأَشْلاَؤُ أُمِّكَ لَمْ تُنْبَشِ

وكان الأخفش يحفظ هذه الأهاجى ، ويرويها فى جملة ما يرويه استحسانا لها ، وافتخارا بأن ابن الرومى ينوه بذكره إذ هجاه ، فلما علم ابن الرومى بذلك أقصر عنه ... ثم انتهت العلاقة بينهما إلى صداقة ومودة .

آثاره :

خلف الأخفش الأصغر مصنفات نحوية ولغوية منها : شرح كتاب سيبويه ، وتفسير رسالة كتاب سيبويه ، وكتاب التثنية والجمع ، وكتاب المهذب فى النحو ، وكتاب الجراد ، وكتاب الأنواء .

---

(١) القصيدة بتمامها أوردها ياقوت الحموى فى معجم الأدباء : ١٣/٢٤٦ .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه المرزباني : «لم يكن بالمتسع في الرواية للأخبار ، والعلم بالنحو ، وما علمته صنف شيئا ، ولا قال شعرا ، وكان إذا سئل عن مسائل النحو ضجر كثيرا ، وانتهر من يواصل مساءلته ويتابعها .

وفاته :

بعد أن قفل الأخفش الأصغر عائدا إلى بغداد ، اشتد عليه الفقر ، وضاقت معيشته ، حتى أكل السلجم النيء[1] ، فقيل إنه قبض على قلبه فمات فجأة في شعبان ، وقيل في ذي القعدة سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ست عشرة وثلاثمائة ، وقد قارب الثمانين ، ودفن في مقبرة قنطرة بَرَدان .

الفريق الثاني :

أما الفريق الثاني من الفرق الثلاثة التي كانت تعمل في إطار المذهب البغدادي ، وتنضوي تحت لوائه ، فهم قوم من النحاة درسوا النحو البصري بالتتلمذ على يد نحاة البصرة ، وأتقنوه وتبحروا فيه ، وأصبحوا علماء أفذاذا ، يشار إليهم بالبنان فيه ، ثم قفلوا يدرسون نحو الكوفيين ، ليتعرفوا على معالمه وسماته ، ومواطن الاستدلال لدى علمائه ، ومدى جدية استنباط قواعده ، لينظروا نظرة فاحصة مقارنة بين المذهبين ؛ ومنهم من درس النحو الكوفي ابتداء ، ثم استهواه نحو البصرة ، فترك ما كان عليه والتزم الآخر ، لما ترجح لديه جدواه وسلامة منهجه ، وطرق استدلاله واستنباطه ، وصحة قواعده ، مثلما فعل الزجاج وأبو علي الدينوري حينما فارقا حلقة ثعلب ، ولزما حلقة المبرد .

ولما نشأت فكرة قيام المذهب البغدادي القائم على الاختيار والانتخاب من آراء علماء كلا المذهبين البصري والكوفي ، أصبح هذا الفريق بشقيه يجمع

---

(١) لعله (الشلجم) وهو ما يعرف عند المصريين باسم (اللفت) الذي يدخل في المخللات .

بين المذهبين على حد سواء ، إلا أن ميله وصغوه ظلا مع المذهب البصرى رغما عنه وقسرا ، مهما حاول فى درء هذا الانحياز وعانى ؛ ويمثل هذا الفريق : الزجاج ، وابن السراج ، والزجاجى ، ومبرمان ، وابن درستويه .

وإليك ترجمة لعلماء هذا الفريق ، تجلى مواقفهم ، وتوضح اتجاهاتهم ، رغم انضوائهم تحت لواء المذهب الجديد (مدرسة بغداد) .

١ - الزجاج (*)

أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج . لقب الزجاج لأنه كان فى مقتبل عمره يخرط الزجاج .

أخذ النحو عن ثعلب – وكان ختنا له – ثم تحول إلى المبرد ، ولزمه بعد أن شرط على نفسه أن يعطيه كل يوم درهما إلى أن يفرق الموت بينهما ، سواء استغنى عن التعليم أو احتاج إليه ، وفعلا وفى بشرطه هذا إلى أن مات المبرد[1].

أخلاقه :

كان الزجاج لينا ، متسامحا ، صفوحا ، لايبادر أحدا بالإساءة ، وإن حدث بادر إليه بالاعتذار طالبا الصفح ، فقد حكى أنه كان بينه وبين رجل من أهل العلم يسمى مسيند شر استحكم ، فاتصل حتى خرج الزجاج معه إلى حد الشتم ، فكتب إليه مسيند :

أَبَى الزَّجَّاجُ إِلاَّ شَتْمَ عِرْضِي ... لِيَنْفَعَهُ ، فَآثَمَهُ وَضَرَّهْ
وَأُقْسِمُ صَادِقًا مَا كَانَ حُرٌّ ... لِيَنْطِقَ لَفْظَةً فِي شَتْمِ حُرَّهْ
وَلَوْ أَنِّي كَرَرْتُ لَعَزَّ مِنِّي ... وَلَكِنْ لِلْمَنُونِ عَلَيَّ كَرَّهْ
فَأَصْبَحَ قَدْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرِّي ... لِيَوْمٍ لاَ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّهْ

(*) انظر فى ترجمته : إنباه الرواة : ١/١٥٩ ، وبغية الوعاة : ١/٤١٢ ، ووفيات الأعيان : ١/٤٩ ، وطبقات الزبيدى : ١١٢ ، والفهرست : ٩٠ .

(١) قصة مفارقة الزجاج لثعلب ولزومه المبرد معروفة انظرها فى ترجمة المبرد ص ٣٤٧ .

فلما اتصل هذا بالزجاج ، قصده راجلا معتذرا إليه ، وسأله الصفح .

ويروى انه أجتاز يوما نيروز بشارع الأنبار راكبا ، فصب عليه بعض الصبيان ماء ، فأنشأ يقول – وهو ينفض رداءه من الماء :

إِذَا قَـلَّ مَـاءُ الْـوَجْـهِ قَـلَّ حَـيَـاؤُهُ وَلاَ خَـيْـرَ فِـى وَجْـهٍ إِذَا قَـلَّ مَـاؤُهُ

علمه ومكانته :

احتل الزجاج من نفس أستاذه المبرد مكانة سامية ، فقد كان أقدم أصحابه قراءة عليه ، وكان من يريد أن يقرأ على المبرد شيئا يأمره بأن يعرض على الزجاج أولا ما يريد قراءته .

وروى أبو سليمان الخطابى قال : «كان أصحاب المبرد إذا اجتمعوا واستأذنوا ، يخرج الآذن فيقول : إن كان فيكم أبو إسحق الزجاج وإلا انصرفوا ، فحضروا مرة ولم يكن معهم الزجاج ، فقال لهم ذلك فانصرفوا ، وثبت رجل منهم يقال له عثمان ، فقال للآذن : قل لأبى العباس انصرف القوم كلهم إلا عثمان فإنه لم ينصرف ، فعاد إليه الآذن وأخبره فقال : قل له إن عثمان إذا كان نكرة انصرف ، ونحن لا نعرفك فانصرف راشداً .

وحدث أن دخل الزجاج يوما دار ثعلب ، ووجد معه أبا موسى الحامض ، واستطرد الحديث إلى ذمهما المبرد وسيبويه ويونس فاغتاظ الزجاج ، وخطأ ثعلبا فى نصف كتابه (الفصيح) ، لما عرض ثعلب لتخطئة سيبويه فى (الكتاب) ، حتى قيل إن ثعلبا كان ينكر نسبته بعد إليه .

وعمل الزجاج مؤدبا للقاسم بن عبدالله بن سليمان [1] ، وكان ذلك سبب غناه ورفاهة عيشه ، ثم إن درجته ارتفعت ، وعلا قدره فى بلاط المعتضد حتى

(١) عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وزير المعتضد ، استمر فى وزارته إلى أن مات سنة ٢٨٨ هـ . وكان حظيا عنده ، وقد عز عليه موته ، وتألم بفقده ، وأهمه من يجعله فى مكانه بعده ، فعقد الوزارة لولده القاسم جبرا لمصابه به . (تاريخ ابن كثير : ٢١/٨٥) .
وكان القاسم بن عبيدالله من دهاة العالم ، وأفاضل الوزراء ، وكان شهما فاضلا كريما مهيبا جبارا ؛ فلما مات المعتضد استوزره من بعده المكتفى بالله ، وتوفى فى خلافته . (الفخرى : ٢٢٦) .

نادم المعتضد نفسه : وكان سبب اتصاله به أن بعض ندماء المعتضد وصف له كتاب (جامع المنطق) الذى عمله محبرة النديم ، وهو أبو جعفر محمد بن يحيى بن أبي عباد، وكان حسن الأدب، ونادم المعتضد، وجعل كتابه جداول؛ فأمر المعتضد القاسم بن عبيد الله أن يطلب من يفسر هذه الجداول ، فبعث إلى ثعلب، فاعتذر وقال: لست أعرف هذا، فإن أردتم كتاب (العين) فموجود ولا رواية له، فكتب إلى المبرد، فاعتذر أيضا بأنه قد أسَنَّ وضعف عن ذلك، ورشح له أبا إسحق الزجاج، فعرضه على الزجاج فقال: أنا أعمل ذلك على غير نسخة، ولا نظر فى جدول، فلما عمله وحمله الوزير إلى المعتضد استحسنه ، وأمر له بثلاثمائة دينار.

قال محمد بن إسحق : وصار للزجاج بهذا السبب منزلة عظيمة ، وجعل له رزق فى الندماء ، ورزق فى الفقهاء ، ورزق فى العلماء ، ثلاثمائة دينار .

آثـــاره :

خلف الزجاج مصنفات جيدة منها : كتاب معانى القرآن، وكتاب الاشتقاق، وكتاب القوافى، وكتاب العروض، وكتاب الفرق، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب خلق الفرس، وكتاب مختصر فى النحو، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب شرح أبيات سيبويه، وكتاب النوادر، وكتاب ما فُسر من جامع الفطن، وكتاب الأنواء.

أقوال العلماء فيه :

قال عنه القفطى : «كان من أهل الفضل والدين ، حسن الاعتقاد ، وله مؤلفات حسان فى الأدب» .

وقال عنه ابن خلكان : «كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين» .

وقال عنه السيوطى : «كان من أهل الفضل والدين ، حسن الاعتقاد ، جميل المذهب» .

وفاته :

توفى أبو إسحق ببغداد يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشر ، وقيل إحدى عشرة ، وقيل ست عشرة وثلاثمائة ، وقد أناف على الثمانين ، وآخر ما سمع منه قوله : «اللهم احشرنى على مذهب أحمد بن حنبل – رضى الله عنهما» .

٢ - ابن السراج (*)

أبو بكر محمد بن السرى بن سهل السراج ، نسبة إلى صناعة سروج الخيل ، أحد الأئمة المشاهير ، المجمع على نبله وفضله ، وجلالة قدره فى النحو والآداب .

أخذ عن المبرد وغيره ، وكان أحدث أصحاب المبرد سنا ، مع ذكاء وفطنة ، وكان المبرد يميل إليه ، ويقربه ، ويشرح له ، ويجتمع معه فى الخلوات والدعوات ، ويأنس به ، فقرأ عليه كتاب سيبويه ثم اشتغل عنه بالموسيقى والمنطق بعد موت المبرد ، ثم لزم حلقة الزجاج ، ثم استقل عنه بحلقة خاصة به .

قال ابن درستويه : «رأيت ابن السراج يوما ، وقد حضر عند الزجاج مسلما عليه بعد موت المبرد ، فسأل رجل الزجاج فى مسألة . فقال لابن السراج : أجبه يا أبا بكر ، فأجابه فأخطأ ، فانتهره الزجاج وقال له : والله لو كنت فى منزلى لضربتك ، ولكن المجلس لا يحتمل هذا ، وقد كنا نشهد لك بالذكاء والفطنة ، ونشبهك بأبى الحسن بن رجاء ، وأنت تخطئ فى مثل هذا ؟! فقال : قد ضربتنى يا أبا إسحق وأدبتنى ، وأنا تارك ما درست مذ قرأت هذا الكتاب – يعنى كتاب سيبويه – لأنى تشاغلت عنه بالمنطق والموسيقى ، والآن أعاود ، ثم رجع إلى الكتاب، ونظر فى دقائق مسائله، وعوَّل على مسائل الأخفش والكوفيين، وخالف أصول البصريين فى مسائل كثيرة [1] .

(*) انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان : ٤/٣٣٩ ، وبغية الوعاة : ١/١١٠، والفهرست : ٩٢ .

(١) الفهرست لابن النديم : ٩٢ .

وأخذ عن ابن السراج جماعة من العلماء ، منهم أبو سعيد السيرافى ، وعلى ابن عيسى الرمانى ، وأبو القاسم الزجاجى ، وأبو على الفارسى ، وغيرهم ، ونقل عنه الجوهرى فى كتابه (الصحاح) فى مواضع كثيرة .

وكان ابن السراج يلثغ فى (الراء) فيجعلها (غينا) ، فأملى يوما كلاما فيه لفظة بالراء ، فكتبوها بالغين ، فقال : لا ، بالغاء بالغاء - يريد بالراء - وجعل يكررها على هذه الصورة [1] .

أخلاقه :

كان ابن السراج متصاغرا للعلم ، معترفا بفضل أساتذته عليه ، حيث لما ألف كتابه (الأصول الكبير) الذى انتزعه من كتاب سيبويه ، وأضاف إليه إضافات بارعة ، وجعله تقاسيم على طريقة المناطقة ، ولم يكتف فيه بآراء سيبويه ، بل ضم إليه كثيرا من آراء الأخفش الأوسط والكوفيين موازنا ومقارنا ، حتى قيل فيه : «مازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله» .

وقال أحد تلاميذه - وهو يلقى بعض فصول (الأصول) : «إنه أحسن من كتاب (المقتضب) للمبرد أستاذه» ، فبادره ابن السراج بقوله : لا تقل هذا ، فإنما استفدنا ما استفدناه من صاحب المقتضب ، وأنشد :

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِشِعْرِى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِى فَهَيَّجَ لِى الْبُكَا ... بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ [2]

آثاره :

خلف ابن السراج عددا لا بأس به من مصنفات اللغة والنحو والصرف منها : كتاب الأصول الكبير ، كتاب جمل الأصول ، كتاب الموجز فى النحو ، كتاب

---

(١) وفيات الأعيان : ٤/٣٣٩

(٢) البيتان لعدى بن الرقاع، وقبلهما:

وممـا شجانى أننى كنت نائما ... أعلل من فرط الكرى بالتنعم
إلى أن دعت ورقاء فى غصن أيكة ... تردد مبكاها بحسن الترنم

الاشتقاق ، كتاب شرح سيبويه ، كتاب احتجاج القراءة ، كتاب الجمل ، كتاب الشعر والشعراء كتاب الرياح والهواء والنار ، كتاب المواصلات فى الأخبار والمذكرات ، كتاب الخط والهجاء .

وفاته :

توفى ابن السراج يوم الأحد لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة – رحمه الله تعالى .

٢ - الزجاجى (*)

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى، أصله من الصيمر بنهاوند، نزل بغداد صغيرا، وأخذ النحو عن محمد بن العباس اليزيدى، وأبى بكر بن دريد، وأبى بكر بن الأنبارى، ولزم أبا إسحق إبراهيم بن السرى الزجاج حتى برع فى النحو فنسب إليه، وعرف به، ثم سكن دمشق، وأملى وحدث بها عن الزجاج ونفطويه، وابن دريد، وأبى بكر بن الأنبارى، والأخفش الصغير وغيرهم. وروى عنه أحمد بن شرام النحوى، وأبو محمد بن أبى نصر، فكان إماما فى علم النحو، وانتفع الناس به، وتخرج عليه جمع كثير .

آثــاره :

خلف الزجاجى مصنفات نافعة فى اللغة والنحو والعروض والأدب منها : كتاب الجمل ، وكتاب الإيضاح فى علل النحو ، والكافى ، وشرح كتاب الألف واللام للمازنى ، وشرح خطبة أدب الكاتب ، واللامات ، والمخترع فى القوافى ، والأمالى .

وكتاب الجمل كتاب مبارك لم يشتغل به أحد إلا انتفع به ، ويقال إنه صنفه بمكة ، وكان إذا فرغ من باب طاف سبعا ، ودعا الله – تعالي – أن يغفر له ، وأن

(*) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ١١٩، وفيات الأعيان : ١٣٦/٣ ، وبغية الوعاة : ٧٧/٢ .

ينفع به قارئه ، ولهذا الكتاب حظوة عند المغاربة تداني حظوة كتاب سيبويه عند المشارقة ، وتصدى الكثيرون لشرحه وشرح شواهده .

وفاته :

خرج الزجاجي من دمشق مع ابن الحارث عامل الضياع الإخشيدية ، فمات بطبرية في شهر رجب ، وقيل في شهر ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ، وقيل سنة تسع وثلاثين ، وقيل في شهر رمضان سنة أربعين وثلاثمائة ، والأول أصح .

٤ - مبرمان (*)

أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل العسكري ، ولد بطريق رامهرمز ، وأخذ عن المبرد ، وأكثر بعده الأخذ عن الزجاج ، وبعد صيته ، وعلا شأنه في النحو ، وأخذ عنه الفارسي والسيرافي .

أخلاقه

كان مبرمان شحيحا، ضنينا بالأخذ عنه ، لا يقرئ كتاب سيبويه إلا بمائة دينار ، وله مع أبي هاشم الجبائي [1] في ذلك قصة ، فقد قصده أبو هاشم فقال له : هل عرفت الرسم ؟ قال : نعم ، ولكن أسألك النظرة ، وأحمل إليك شيئا يساوي أضعاف القدر الذي تلتمسه ، فتدعه عندك إلى أن يجيئني مال من بغداد ، فأحمل إليك ما تريد وأسترجع ما عندك ، فتمنع قليلا ثم أجابه ، فجاء أبو هاشم إلى زنفيلجة [2] حسنة مغشاة بالأدم ومحلاة ، فملأها حجارة وقفلها وختمها وحملها في منزيل حتى وضعها بين يدي مبرمان ، فلما رأى منظرها وثقلها لم يشك في حقيقة ما ذكره ، فوضعها عنده ، وأخذ عنه ، فما مضت مدة حتى ختم الكتاب ، فقال له مبرمان : احمل مالي قبلك ، فقال : أنفذ معي غلامك حتى أدفع إليه

(*) انظر في ترجمته : طبقات الزبيدي : ١١٤ ، إنباه الرواة : ٣/١٥٤ ، معجم الأدباء : ١٨/٢٥٤، بغية الوعاة : ١/١٧٥ .

(١) أبو هاشم الجبائي : من أكابر شيوخ المعتزلة ، ورأس من رءوسها .

(٢) زنفيلجة : معرب (زين فالة) بالفارسية ، وهي قدر من الفخار .

فأنفذه معه ، فجاء إلى منزله ، وكتب إليه رقعة فيها : قد تعذر عليّ إحضار المال ، وأرهقنى السفر ، وقد أبحتك التصرف فى الزنفيلجة ، وهذا خطى حجة بذلك ، وخرج أبو هاشم لوقته إلى البصرة ومنها إلى بغداد .

فلما وقف مبرمان على الرقعة ، استدعى بالزنفيلجة ، فإذا فيها حجارة فقال : سخر منا أبو هاشم لا حياه الله ! واحتال عليّ ما لم يتم لغيره قط .

وروى أبو على القالى قال : «قال ولد أبى العباس محمد بن يزيد : فى تلاميذ أبى رَجُلان : أحدهما يسفل ، والآخر يعلو ، فقيل له : من هما ؟ فقال : المبرمان ، يقرأ على أبى ، ويأخذ عنه كتاب سيبويه ثم يقول : قال الزجاج : والكلابزى يقرأ عليه ثم يقول : قال المازنى» .

وكان مبرمان – مع علمه – ساقط المروءة ، سخيفا ، إذا أراد أن يمضى لمصلحة ، طرح نفسه فى طبق حمال ، وشده بحبل ، وبما كان معه من نبق وغيره ، فيأكل ويرمى الناس بالنوى ، يتعمد رءوسهم ، وربما بال على رأسهم ، فإذا قيل له ، يعتذر .

وكان هدفا لهجاء الناس له ، فقد قال بعضهم يهجوه :

صُدَاعٌ مِنْ كَلامِكَ يَعْتَرِينَا ... وَمَا فِيهِ لِمُسْتَمِعٍ بَيَانُ
مُكَابَرَةٌ ومَخْرَقَةٌ وبُهْتٌ ... لَقَدْ أَبْرَمْتَنَا يَا مِبْرَمَانُ

آثاره :

خلف مبرمان مصنفات فى النحو واللغة منها : شرح كتاب سيبويه (لم يتمه) ، وشرح شواهد سيبويه ، وشرح كتاب الأخفش ، والنحو المجموع على العلل ، والعيون ، والتلقين ، والمجارى ، وصفة شكر المنعم .

وفاته :

توفى مبرمان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة هجرية .

٥ - ابن درستويه (*)

أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان ، ضبطه السمعانى فى (الأنساب) بضم الدال والراء ، وسكون السين ، وضم التاء ، وسكون الواو وفتح الياء ، وبعدها ياء ساكنة ، وضبطه ابن ماكولا فى (الإكمال) بفتح الدال والراء والواو .

ولد بفسا – من بلاد فارس – سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وأقام ببغداد ، فأخذ النحو عن المبرد وثعلب ، وأخذ الأدب عن ابن قتيبة ، وروى الحديث عن الدارقطنى ، وأخذ عنه جماعة من الفضلاء ، وكان شديد الانتصار للبصريين فى النحو واللغة ، ووثقه ابن منده وغيره .

آثاره :

خلف ابن درستويه مصنفات كثيرة فى النحو واللغة والأدب منها :

كتاب المتمم ، وكتاب الإرشاد فى النحو ، وكتاب الهداية شرح كتاب الجرمى ، كتاب شرح الفصيح لثعلب ، كتاب أدب الكاتب ، كتاب المذكر والمؤنث ، كتاب المقصور والممدود ، كتاب الهجاء ، كتاب غريب الحديث ، كتاب معانى الشعر ، كتاب الحى والميت . كتاب المتوسط بين الأخفش وثعلب فى معانى القرآن وأخبار أبى محمد فى ذلك ، كتاب تفسير السبع (لم يتمه) ، كتاب تفسير الشىء (لم يتمه) ، كتاب أسرار النحو (لم يتمه) ، كتاب شرح المقتضب (لم يتمه) ، كتاب نقض كتاب ابن الراوندى على النحويين ، كتاب الرد على مدرج العروضى ، كتاب الأزمنة (لم يتمه) ، كتاب الرد على ثعلب فى اختلاف النحويين ، كتاب خبر قس بن ساعدة وتفسيره كتاب شرح الكلام ونقاه (لم يتمه) ، كتاب الرد على ابن خالويه فى الكل والبعض ، وكتاب فى الأضداد ، وكتاب الرد على أبى مقسم فى

(*) انظر فى ترجمته : إنباه الرواة : ٢/١١٣ ، طبقات الزبيدى : ١١٦ ، وفيات الأعيان : ٣/٤٤ ، تاريخ بغداد : ٩/٤٢٩ ، بغية الوعاة : ٢/٣٦ ، الفهرست : ٩٣ .

اختياره ، وكتاب أخبار النحويين ، وكتاب الرد على الفراء فى المعانى ، وكتاب جوامع العروض ، وكتاب الاحتجاج للفراء ، وكتاب تفسير شبل بن عروة ، وكتاب رسالة إلى نجيح الطولونى فى تفضيل العربية ، وكتاب الكلام على ابن قتيبة فى تصحيف العلماء ، وكتاب الرد على ابن زيد البلخى فى النحو ، وكتاب الرد على من قال بالزوائد وأن يكون فى الكلام حرف زائد ، وكتاب النصرة لسويد على جماعة النحويين (لم يتمه) ، وكتاب مناظرة سيبويه للمبرد ، وكتاب الرد على المفضل بن سلمة الضبى فى نقده كتاب (العين) للخليل بن أحمد .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن النديم : «كان فاضلا ، متفننا فى علوم كثيرة من علوم البصريين ، ويتعصب لهم عصبية شديدة» .

وقال عنه ابن خلكان : «كان عالما فاضلا ، وأخذ عنه جماعة من الأفاضل ، وكان أبوه من كبار المحدثين وأعيانهم ، وتصانيفه فى غاية الجودة والإتقان» .

وقال عنه السيوطى : « أحد من اشتهر وعلا قدره ، وكثر علمه ، جيد التصنيف ، وثقه ابن منده وغيره ، إلا أنه روى أن هبة الله اللالكانى ضعفه ، حيث قال : بلغنى أنه قيل له : حدث عن عباس الدورى حديثا ونعطيك درهما ، ففعل ولم يكن سمعه منه ، ولكن الخطيب البغدادى رد هذا الخبر بقوله : هذا باطل ، لأنه كان أرفع قدرا من أن يكذب» .

وفاته :

توفى ابن درستويه فى بغداد يوم الاثنين لتسع بقين من صفر ، وقيل لست ، وقيل لسبع سنة سبع وأربعين وثلاثمائة هجرية - رحمه الله تعالى .



الفصل الرابع

تأثر المذهب البغدادى بالاضطرابات السياسية

المبحث الأول

دعائم المذهب البغدادى

ظل المذهب البغدادى – منذ أن نشأ ببغداد فى أخريات القرن الثالث الهجرى – متماسكا فتيا ، يعكف علماؤه على البحث والتقصى والاستقراء لآراء النحاة فى المدرستين – البصرة والكوفة – والاختيار والانتخاب من آراء الفريقين تبعا لما تترجح كفته عند النظر.

وقد علمنا آنفا أن المذهب البغدادى – فى أول نشأته – كانت سيطرة الكوفيين عليه أشد من البصريين ، حيث كانت لهم الغلبة والحظوة لدى خلفاء بنى العباس ، فامتدت هذه الغلبة إلى العلماء الجامعين بين المذهبين ، وكانت المسائل المختارة من المذهب الكوفى أكثر من تلك التى اختيرت من المذهب البصرى ، ثم ما لبث هذا الأمر أن تغير بعد موت ذوى العصبية المذهبية ، وزوال المتأثرين بها ، إذ رجع النحاة إلى تقدير المذهب البصرى ، والتنديد بالمذهب الكوفى والحط من حججه .

ونظرا لأن سلائق العرب كانت – إلى ذلك العهد – لم تزل سليمة فى البوادى ، ومشافهة العلماء لأهلها متيسرة ، إما بالسمع ممن يغدون عليهم للتجارة أو طلبا للعطاء من الخلفاء ، والتماسا للرزق ، وإما بالرحلة إليهم فى بواديهم وهى قريبة منهم ، فقد نتج عن ذلك أن توصل البغداديون إلى استنباط

قواعد أخرى بفضل اجتهادهم وتمحيصهم ، قواعد لا تمت بصلة إلى أى من المذهبين البصرى والكوفى ، بل تولدت لديهم نتيجة استقرائهم واستدلالهم الشخصى قياسا وسماعا ، ومن ثم كان المذهب الجديد ملفقا من المذهبين مع بعض القواعد التى استنبطوها بأنفسهم ، فأصبحت مسائله إما كوفية ، أو بصرية ، أو مبتكرة[1] ، وإليك نماذج لهذه الأنواع الثلاثة من المسائل :

أولا : من المسائل التى ارتضاها البغداديون من المذهب الكوفى :

١ – إعمال المصدر عمل فعله .

٢ – استخدام (بله) للاستثناء .

٣ – إعطاء المستثنى المتقدم على المستثنى منه حكم المستثنى منه على سبيل القياس ، فيصير المستثنى منه المؤخر بدل كل ، لأنه عام أريد به خاص .

٤ – جواز نداء المعرف بـ (أل) فى الاختيار دون التوصل إليه بـ (أى) أو اسم إشارة .

٥ – عدم تنوين المنقوص الممنوع من الصرف مع الفتح حال الجر .

٦ – مراعاة لفظ الجمع فى العدد ، فيجرد من التاء فى نحو : ثلاث حمامات .

ثانيا : من القواعد التى ارتضاها البغداديون من المذهب البصرى

١ – عمل المصدر المنون عمل فعله – بدليل قول الله – تعالى – : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ....﴾[2]

ثالثا : من القواعد التى استنبطها البغداديون أنفسهم .

١ – جواز تعريف الحال مطلقا ، كما فى قول الشاعر :

فَأَرْسَلَهَا الْعِرَاكَ وَلَمْ يَذُدْهَا ... وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى نَغَصِ الدِّخَالِ

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٨٥ .

(٢) سورة البلد : من الآيتين ١٤ ، ١٥ .

وذلك خلافا للبصريين الذين يوجبون التنكير مطلقا، والكوفيين الذين يشترطون ألا يشعر بالشرط نحو: عبد الله المحسن أفضل منه المسيء.

٢ – جواز عدم الفصل بين (أن) المخففة والفعل المتصرف، حيث حكى المبرد عن البغاددة قولهم: علمت أن تخرج – بالرفع بلا عوض.

٣ – جواز بناء اسم (لا) مع تعلق الظرف والجار به، حيث حكى أبو على الفارسى عن البغاددة أنهم يجيزون كون الظرف والجار فى نحو: لا آمرَ بالمعروف، و﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [(١)]، من صلة المنفى المبنى.

٤ – جواز إتباع محل المعطوف عليه مع عدم أصالته. حيث ذكر ابن هشام من شروط العطف على المحل، أن يكون الموضع بحق الأصالة، فلا يجوز: هذا ضارب زيدا وأخيه، لأن الوصف المستوفى لشروط العمل، الأصل إعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل، ولكن البغاددة أجازوه.

٥ – تقدير عامل النصب فى (ويحه) وأختيها من مادتها – حيث قال الشيخ خالد الأزهرى: «وذهب بعض البغداديين إلى أن (ويحه) (ويله) و(ويسه) منصوبة بأفعال من لفظها [(٢)].

وهكذا لم يكد القرن الرابع الهجرى يطل برأسه، حتى كثرت قواعد المذهب الجديد، وأيده النظار له، واشتهر به طائفة من النحويين، فقاسم المذهبين الرئيسيين عملا ومزاولة، وشق له سبيلا معهما، وامتدت به الأيام، فحدث للنحو به عهد جديد [(٣)].

★ ★ ★

---

(١) سورة هود: من الآية ٤٤.
(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ١٨٦.
(٣) المصدر السابق: ١٨٥.

المبحث الثانى

تفرق المذهب البغدادى فى الممالك والأقطار

ظل المذهب البغدادى قويا متماسكا ، يؤدى دوره من البحث والتنقيب والتنظير والتوضيح والاستنباط طالما كانت بغداد قوية متماسكة ، تؤدى دورها من كونها حاضرة الخلافة ، ومحج العلماء من أقاصى بلاد الإسلام ، إذ من المسلم به أن العلم لا ينمو ويترعرع إلا حيث يستقر الأمن وتستتب الأمور ، لأن العلماء هم ضمير الأمة ، وعنوان استقرارها .

وما أن تغيرت الأحوال فى بغداد ، واضطربت الأمور بها ، بفعل استبداد الأتراك بعد أن تجرأوا على خلفاء بنى العباس ، لما استكثر منهم الخليفة المعتصم ، واتخذ منهم حرسا خاصا له ، حتى تحكموا فى تعيين وعزل الخلفاء أنفسهم ، إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الفتك بالخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هجرية ، فشاعت الفوضى والاضطراب ، وانفرط عقد الخلافة ، وأصبحت أمور الدولة والتصرف فيها منوطا بيد الأتراك الجلبان ، حتى شعر أهل العلم أن البيئة – والحالة هذه – غير صالحة للبحث والدرس والتنظير ، والتصنيف ، وكان معظمهم من العرب والفرس ، ففكروا فى مغادرة بغداد ، والتفرق فى البلاد شرقا وغربا ، زرافات ووحدانا .

واستمر الأمر على هذه الحال من اطراد ضعف الخلافة العباسية ، حتى دخل بغداد معز الدولة أبو الحسين أحمد بن أبى شجاع بويه من جهة الأهواز فى عهد الخليفة المستكفى بالله ، وقبض على أزمة الأمور سنة ٣٣٤ هجرية مع بقاء الخلافة صورية فى بغداد .

وقد تزامن هذا مع استقلال العديد من الأقطار العربية وإقامة الممالك فيها على أنقاض دولة بنى العباس التى كانت تزداد ضعفًا على ضعف على مر الأيام، فالدولة البويهية الفارسية كانت تحكم العراق وفارس وخراسان، إلى أن تغلب عليها السلاجقة الأتراك سنة ٤٤٧ هجرية فى عهد الخليفة القائم بأمر الله.

إذ كان أول ملوك السلاجقة محمد بن ميكائيل بن سلجوق المعروف بطغرل بك، والدولة السامانية الفارسية تحكم بلاد ما وراء النهر ، والدولة الغزنوية التركية تحكم أفغانستان والهند ، والدولة الحمدانية العربية تحكم حلب وما بين النهرين ، والدولة الإخشيدية التركية ثم الفاطمية العربية تحكم مصر وبلاد المغرب ، والدولة الأموية العربية تحكم الأندلس ... إلخ [1] .

وتبعا لانفراط عقد الدولة العباسية هذا ، انفرط عقد المذهب البغدادى ، إذ توزع العلماء فى مختلف هذه الأقطار ، فتنقل هذا العلم فى الحواضر الإسلامية . وقام علماء كل قطر يشتغلون به كل فى قطره ، طبقا لما تتيحه لهم وتوحى به الحياة الجديدة فى هذا القطر ؛ ومعنى هذا أن المذهب البغدادى بكونه مذهبا نحويا مستقلا قائما فى بغداد حاضرة الدولة العباسية لم يعد له وجود بعد تفرق علمائه فى مختلف الأقطار العربية ، وأصبح كل عالم يجتهد فيه ، ويعمل رأيه ونظره مستقلا عن زملائه فى الأقطار الأخرى ، لا يربط بينهم رابط ، ولا تجمعهم صلة، إلا العمل على خدمة علم النحو ، ورفعة شأن اللغة العربية .

وجريا على عادة المنافسة بين ملوك هذه الدول التى ظهرت حديثا كالشطء حول الخلافة العباسية ، وعملا على توطيد ملكهم على اختلاف أصولهم من فارسى وتركى وعربى ، ولعلمهم بأن ازدهار العلم ، وشيوع المعرفة ، وجدية البحث والتنظير هى مرآة استقرار الدولة ، وشيوع الأمن والأمان فيها ، فقد اتجه الملوك والأمراء والوزراء إلى مناصرة العلماء، وإجزال العطاء لهم، وتقريبهم دفعا لهم على مواصلة البحث والدرس، وإخراج مكامن عقولهم، وإظهار مكنونات أفكارهم، وطرح ما تجود به قرائحهم .

وقد تأثر العلماء أنفسهم بهذه الروح التى شاعت بين ملوك هذه الدول، فكثرت الآراء الفردية، وتنوعت التعليلات النحوية، وتضخمت المؤلفات والمصنفات؛ وتبع ذلك تغير تقاليد العلماء النسبية، فبعد أن كانوا فى بلدهم

---

(١) انظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٨٩ .

ينتسبون غالبا إما إلى أصولهم كالدؤلى، والمازنى، والجرمى، والزيادى، واللحيانى ... إلخ، أو إلى صناعاتهم كالهراء، والزجاج، والنحاس، أو إلى ما يتصل بهم على وجه كالرؤاسى ، والكسائى ، والزجاجى؛ أخذوا ينتسبون بكثرة إلى الأقطار المقيمين بها أو المدن التى نشأوا فيها، فقيل: السيرافى، والفارسى، والرمانى، والبغدادى والتبريزى، والزمخشرى، والأنبارى، والعكبرى، والسهيلى، والإشبيلى ، والبطليوسى ، والشنتمرى ، والمصرى ، والحلبى ، والدمشقى ، ونحو ذلك[1] .

وقد لقى هذا النوع من النسب ارتياحا فى نفوس العلماء أنفسهم ، فاتخذوه لقبا وارتضوه ، وبقى على مر الزمن شعار العلماء حتى الآن ، وليس أدل على ذلك من أن عالما من علماء الأندلس وهو علم الدين اللُّورقى تغص كتب النحو ومصنفاته بذكر آرائه النحوية ، ولا تقرنها إلا باسم (الأندلسى) فقط ، ولا يعرف أحد اسمه الحقيقى إلا بالغوص فى بطون أمهات التراجم وكتب الطبقات .



(١) انظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٩٤ .

المبحث الثالث

بعث المذهب البغدادى من جديد :

عرفنا فيما تقدم أن ملوك الدول الجديدة التى قامت على أنقاض الخلافة العباسية قد وضعوا نصب أعينهم العناية بالعلم، والاحتفاء بالعلماء، وتقريبهم، وإجزال العطايا لهم، توطيدا لملكهم، وتدعيما لأركان دولهم؛ فقد كانوا – رغم أنهم كانوا ممن لا ينتمون إلى أصول عربية – على علوم اللغة العربية أحدب من الخلفاء العباسيين أنفسهم ، فسخوا ببذل الأموال فى رفع منارها ، ومكافأة المبرزين فى علومها ، بل لقد حبب إلى أولى الشأن فيهم مشاركة العلماء فى هذا الشرف الأدبى، فنالوا فيه مرتبة محمودة، وكان العلماء يبادلونهم سخاء بسخاء، إذ كان الواحد منهم يتوج كتابه بإهدائه إلى صاحب السلطان فى بلده، كما فعل أبو على الفارسى حيث صدر كتابيه (الإيضاح) و(التكملة) بإهدائهما إلى عضد الدولة البويهى .

وفى عهد الدولة السلجوقية التى خلفت الدولة البويهية ، أنشأ نظام الملك أبو على الحسن بن إسحق بن العباس وزير السلطان ألب أرسلان ، وولده السلطان ملكشاه أول مدرستين فى التاريخ ، بعد أن كان التدريس يتم فى المساجد الجامعة ، وقرر فيهما الرواتب للمدرسين والطلبة ، وأجرى عليهم الجرايات ، وعين جل العلماء للتدريس فيهما ، ومنهم من تلقى العلم بها ثم رقى للتدريس بها ، وهما المدرسة النظامية فى بغداد ، وأختها النظامية أيضا فى نيسابور .

كل هذا الحدب على العلم والعلماء من جانب المسئولين فى هذه الدول الفتية دفع العلماء إلى بذل الجهد فى البحث والتنقيب والترجيح والتنظير ، والتأليف والتصنيف ، فكثرت المؤلفات والمصنفات النحوية ، وأربى عدد المشتغلين بالنحو على من كان قبلهم ، غير أنهم ما برحوا يقتفون طرائق أسلافهم ، ويتلمسون خطى من سبقوهم ، فكانوا مرآة صادقة لهم ، انطبعت فيها اتجاهاتهم لأخذهم عنهم ، فظلت النزعات الثلاث قائمة بينهم – البصرية ،

والكوفية والبغدادية – ثم أخذت تنتقل من الأساتذة إلى من يتلقون منهم[1].

ونظرا لاختلاف البيئة ، واختلاف الظروف السياسية ، وما تبعها من ظروف علمية وبحثية تختلف عما كانت عليه الحال قبل انفراط عقد المذهب البغدادى ، فقد اصطلح الناس على تسمية علماء ذلك العهد المنصرم باسم المتقدمين ، وتسمية علماء هذا العهد الجديد بالمتأخرين ، ومن ثم فقد عدوا ابن درستويه ، وابن الأنبارى ، ونفطويه وأقرانهم من المتقدمين ، كما عدوا السيرافى ، وأبا على الفارسى ، وابن خالويه وأترابهم من المتأخرين ، ويؤيد هذا ما قاله الرضى الاسترابادى استطرادا فى باب (اسم المفعول) لمناسبة الكلام على شروط عمله : «وليس فى كلام المتقدمين ما يدل على اشتراط الحال أو الاستقبال فى اسم المفعول ، لكن المتأخرين كأبى على ومن بعده صرحوا باشتراط ذلك فيه كما فى اسم الفاعل»[2].

يقول الشيخ محمد الطنطاوى – رحمه الله – : «وهذا الذى يتفق والواقع فى الفصل بين المتقدمين والمتأخرين ، فالمتأخرون عندهم يبدأون من العلماء الذين قاموا بنهضة هذا الفن بعد انفراط عقد المذهب البغدادى ، واشتغالهم بعلم النحو فى الممالك الإسلامية الحديثة ، لا تجمعهم زعامة فى قطر دون آخر ، طوعا للوضع الجديد من تعدد الممالك ، واستقلال كل شئونها الخاصة ، لضعف نفوذ الخلافة العباسية ، إلا أن هدف العلماء على اختلاف مواطنهم واحد ، فاستقروا فى أوطانهم ، يتشاطرون الرفع من شأن هذا العلم ، ويتبارون فى الاستزادة منه»[3].

ويقول أيضاً : «إن علماء هذه الحقبة أفرغوا جهدهم فى إعلاء منارة هذا العلم ، ونوعوا فى مصنفاتهم ، ابتغاء الإحاطة بكل ما يتصل به ، وافتنوا فى تلوين عرض هذا الفن بصور مختلفة ، وأدوا رسالتهم خير تأدية ، وما فتئوا

---

(١) انظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٩٧ .
(٢) شرح الكافية للرضى ٣/٤٢٨.
(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٩٢.

جادين فى خدمة هذا العلم ، حتى آذنت شمس الدولة العباسية بالمغيب بسقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هجرية ، فسقط كثير من هذه الممالك الإسلامية وراءها ، وطويت صفحاتها حيناً من الدهر ، فوهنت فيها اللغة العربية نفسها، وخفت صوت هذا الفن[١] .

وإليك تراجم لمشاهير المتأخرين من علماء المذهب البغدادى .

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق : ١٩٢ .

الفصل الخامس

أشهر نحاة المذهب البغدادى المتأخرين

١ - السيرافى (*)

أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان ، ولد بسيراف[١] قبل سنة تسعين ومائتين[٢] ، ونسب إليها ، وكان أبوه مجوسيا يسمى (بهزاز) ثم أسلم فسماه ابنه أبو سعيد (عبدالله) .

قرأ القرآن والقراءات على ابن مجاهد ، وأخذ اللغة من ابن دريد وقرآ هما عليه النحو ، وقرأ النحو على ابن السراج ، وأبى بكر مبرمان ، وقرأ عليه أحدهما القراءات ، وقرأ الآخر عليه الحساب .

رحلته فى طلب العلم :

تعد حياة أبى سعيد السيرافى نموذجا لحياة العالم فى طلبه للعلم ، وأدائه له ، فقد تنقل بين البلاد يأخذ العلم عن شيوخه وأعلامه ، يخلص فى التلقى ، ويخلص كذلك فى إبلاغ ما يحصله ، وما عرف عنه أنه تكسب به أو طلب به عرضا من أعراض الدنيا .

(*) انظر فى ترجمته : تاريخ بغداد : ٣٤١/٧ ، طبقات الزبيدى : ١١٩ ، معجم الأدباء : ١٤٥/٨ ، نزهة الألباء : ٣٧٩ ، وفيات الأعيان : ٧٨/٢ ، إنباه الرواة : ٣١٣/١ ، بغية الوعاة : ٥٠٧/١ .

(١) سيراف : كانت ميناء للسفن على ساحل بحر العرب مما يلى كرمان ، ذكر أبو زيد الأنصارى أنها مدينة عظيمة ، وأنها أغنى بلاد فارس : قال ياقوت الحموى : «كذا كانت فى أيامه ... ولقد رأيتها ليس بها قوم إلا صعاليك ما أوجب لهم القيام بها إلا حب الوطن ، وعلل ما أصابها باستحداث مدينة أخرى باسم جزيرة قيس ، فأغنت عنها ، وانقلب النحاة إليها : (معجم البلدان : ٢٩٩/٣) .

(٢) ذكر السيوطى أنه ولد قبل السبعين ومائتين ، ولكن الخطيب البغدادى يحدد بأن مولده كان بين سنة ٢٨٤ — ٢٨٨ هـ ، مما يرد كلام السيوطى . (تاريخ بغداد : ٣٤٢/٧ ، وبغية الوعاة : ٥٠٨/١) .

فقدا بتدأ بطلب العلم فى مسقط رأسه سيراف ، ثم خرج عنها قبل العشرين من عمره ومضى إلى عُمان ، وتفقه بها ، ثم عاد إلى سيراف ، ثم خرج منها فى رحلة أخرى إلى عسكر مكرم ، فأقام بها عامه ، ولقى أبا محمد بن عمر الصيمرى المتكلم الذى انتهت إليه رئاسة المعتزلة بعد شيخه هاشم الجبائى، وكان الصيمرى يجله ويقدمه على جميع أصحابه، ثم دخل بغداد، وخلف أبا محمد بن معروف على قضاء الجانب الشرقى، ثم الجانبين، ثم انتهى إلى الجانب الشرقى.

تصدر لتدريس القرآن، والقراءات، وعلوم القرآن، والنحو، واللغة، والفرائض، والكلام، والشعر، والعروض، والقوافى، والحساب، وعلوم أخرى .

أخلاقه :

قال عنه الخطيب البغدادى : «كان زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أو التدريس أجرا ، إنما كان يأكل من كسب يمينه ، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى مجلس التدريس فى كل يوم حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مؤنته .

وروى أبو حيان التوحيدى فى (محاضرات الأدباء) أنه كان دينا ورعا تقيا نقيا ، زاهدا عابدا خاشعا ، له دأب بالنهار من القرآن والخشوع ، وورد بالليل من القيام والخضوع ، ما قرئ عليه شيء قط فيه ذكر الموت والبعث ونحوه إلا بكى وجزع ، ونغص عليه يومه وليلته ، وامتنع من الأكل والشرب ، وأنه صام أربعين سنة أو أكثر الدهر كله .

وكان يعرف قدر نفسه ، فيلزم قدراته فلا يعدوها ، ولا يقحم نفسه فيما لم يتيسر له ، فقد روى أبو حيان التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) أنه كان حسن الخط ، فطلب منه أن يقرر فى ديوان الإنشاء ، فامتنع وقال : «هذا أمر يحتاج إلى دربة وأنا عار منها ، وسياسة وأنا غريب فيها» .

وروى ياقوت الحموى عن القاضى البغدادى أن أبا على الفارسى وأصحابه

كانوا يحسدون السيرافى كثيرا ويفضلون الرمانى ، ويسوق رواية عن ابن جنى تقول : «حكى ابن جنى عن أبى على أن أبا سعيد قرأ على ابن السراج خمسين ورقة من أول (الكتاب) ثم انقطع – قال أبو على : فلقيته بعد ذلك فعاتبته على انقطاعه ، فقال لى : يجب على الإنسان أن يقدم ما هو أهم ، وهو علم الوقت من اللغة والشعر والسماع من الشيوخ ؛ فكان يلزم ابن دريد ومن جرى مجراه من أهل السماع» .

ولكن الواقع يرد هذه الرواية إذ لا يستساغ أن الرجل الذى شرح كتاب سيبويه وأنفق فى إخراجه الجهد والوقت بما أذهل العلماء وأدهشهم من استحسانه والإعجاب به ، يصدر عنه هذا التصور لعلم النحو وأهميته ، ولا يمكن أن يكون الدافع إلى هذه الرواية سوى تنافس الأقران ، وتنافر المتعاصرين ، وما يكون بين التلاميذ من التعصب لأشياخهم .

وهذا أبو الفرج الأصفهانى يهجوه لمناقشة كانت بينهما على نحو ما يجرى بين المتعاصرين من العلماء والفضلاء بقوله :

لَسْتَ صَدْرًا وَلاَ قَرَأْتَ عَلَى صَدْ ... رٍ وَلاَ عِلْمُكَ الْبَكِىُّ بِشَافِ [1]

لَعَنَ اللهُ كُلَّ شِعْرٍ وَنَحْوٍ ... وَعَرُوضٍ يَجِىءُ مِنْ سِيرَافِ

علمه بالنحو واجتهاده :

وهذه رواية يرويها ابن الشجرى عن السيرافى نفسه ، توضح مدى تبحره فى علم النحو ، كما تفصح عن صفاء ذهنه ، وقدرته على الاجتهاد والاستنباط : مما يدحض رواية ابن جنى ، فقد روى ابن الشجرى عن أبى سعيد أنه قال :

«حضرت مجلس أبى بكر بن دريد – ولم أكن قبل ذلك رأيته – فجلست فى ذيل المجلس ، فأنشد أحد الحاضرين بيتين يعزيان إلى آدم – عليه السلام – قالهما لما قتل ابنه قابيل أخاه هابيل ، وهما :

---

(١) البكى : القليل .

تَـغَـيَّـرَتِ الـبِـلاَدُ وَمَـنْ عَـلَـيْـهَـا فَـوَجْـهُ الأَرْضِ مُـغْـبَـرٌّ قَـبِـيـحُ
تَـغَـيَّـرَ كُـلُّ ذِى حُـسْـنٍ وَطِـيـبٍ وَقَـلَّ بَـشَـاشَـةُ الْـوَجْـهِ الْـمَـلِـيـحِ

فقال أبو بكر : هذا شعر قد قيل فى صدر الدنيا ، وجاء فيه الإقواء . فقلت : إن له وجها يخرجه من الإقواء ، فقال : ما هو ؟ قلت : نصب (بشاشة)، وحذف التنوين منها لالتقاء الساكنين لا بالإضافة ، فتكون بهذا التقدير نكرة منتصبة على التمييز ، ثم رفع (الوجة) وصفته بإسناد (قل) فيصير اللفظ :

* وَقَلَّ بَشَاشَةَ الوجهُ المليحُ *

والأصل : بشاشةً الوجهُ المليحُ. فقال: ارتفع، فرفعنى حتى أقعدنى إلى جنبه»[1] .

ولكن أبا العلاء المعرى لم يرتض تخريج السيرافى هذا ، فقال : «هذا الوجه الذى قاله أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات فى القصيدة الواحدة»[2] .

والحقيقة أن الصواب فى جانب أبى سعيد ، حيث اعتمد فى تخريجه على صحة حذف التنوين لالتقاء الساكنين لوروده فى القرآن الكريم وفى الشعر ، فقد قرأ نصر بن عاصم وأبو عمرو بن العلاء قول الله – تعالى – : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[3] بحذف التنوين من (أحد) ، وأيد ذلك الفراء من الكوفيين ، وصححه أبو حيان الأندلسى من المتأخرين بقول الشاعر :

* وَلاَ ذَاكِرَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاً *

وقول الآخر :

* عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ *[4]

---

(١) أمالى ابن الشجرى : ١/ ٣٨٤ (المجلس الخامس والأربعون) .
(٢) رسالة الغفران : ٢٨٤ .
(٣) سورة الإخلاص : الآيتان ١ ، ٢ .
(٤) البحر المحيط : ٨/ ٥٢٨ .

وكان السيرافي يدرِّس النحو على مذهب البغداديين إلا أنه كان بصري النزعة[1].

مذهبه الفقهي :

كان السيرافي قد تفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة حتى أصبح رأسا فيه ، فقد روى أبو حيان التوحيدي أنه أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر له على زَلّة : كما تولى القضاء ببغداد ، حيث خلف القاضي أبا محمد بن معروف على قضاء الجانب الشرقي من بغداد ، ثم الجانبين ، ثم الجانب الشرقي ، كما كان أبو الحسن الكرخي الذي انتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي يجله ويفضله ويقدمه ، وعقد له حلقة يقرئ فيها .

إلا أن القاضي البغدادي يقول : وقد وجدناه من بعدُ يحدث ببغداد عن علمين من أعلام الشافعية هما : أبو عبيد علي بن الحسن حربويه المتوفى سنة ٣١٩ هـ ، وأبو بكر عبدالله بن محمد بن زياد بن واصل المتوفى سنة ٤١٣هـ[2].

اعتزاله :

ذكر أبو بكر الزبيدي أن أبا سعيد كان معتزليا من أصحاب أبي هاشم الجبائي .

وذكر يوسف بن السيرافي أنه بعد أن عاد من عُمان إلى سيراف ، مضى إلى عسكر مكرم ، فأقام بها عاما ، لقي خلاله محمد بن عبدالرحمن الصيمري المتوفى سنة ٣١٥هـ الذي انتهت إليه رياسة المعتزلة بعد شيخه أبي هاشم ، وأنه كان يفضله على جميع أصحابه .

وعلى الرغم من هذه التلمذة ، ونسبة أبي سعيد إلى الاعتزال ، فلم يكن يظهر من ذلك شيئا .

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ١٩٩ .

(٢) تاريخ بغداد : ٣٤١/٧ .

ولعل شغفه بالاعتزال ، وتمكنه من علم الكلام والفلسفة قد أفاداه كثيرا فى إقامة الحجة والجدل ، مما أكسبه الظفر دائما على مناظريه ، ولعل مناظرته التى أفحم فيها متى بن يونس عن النحو والمنطق أيهما أدق فى معرفة صحيح الكلام من سقيمه ، أشهر من أن تذكر[1] .

آثاره :

خلف السيرافى وراءه مجموعة طيبة من المصنفات فى النحو واللغة والأدب وعلوم القرآن منها شرح كتاب سيبويه . لم يسبق إلى مثله ، وحسده عليه أبو على الفارسى وغيره من معاصريه ، وكتاب ألفات الوصل والقطع ، وكتاب أخبار النحويين البصريين ، وكتاب الوقف والابتداء ، وكتاب صنعة الشعر والبلاغة ، وكتاب شرح مقصورة ابن دريد ، وكتاب الإقناع فى النحو (لم يتمه ، وأتمه ابنه يوسف ، وكان يقول : «وضع والدى النحو فى المزابل بالإقناع» يعنى أنه سهله جدا فلا يحتاج إلى مفسر) ، وكتاب شرح شواهد كتاب سيبويه ، وكتاب المدخل إلى كتاب سيبويه ، وكتاب جزيرة العرب .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه القفطى : «كان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وكان زاهدا لا يأكل إلا من كسب يده» .

وقال أبو حيان التوحيدى : «أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ ، وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه، واللغة، والشعر، والعروض، والقوافى، والقرآن، والفرائض، والحديث، والكلام، والحساب، والهندسة»[2] .

---

(١) مناظرة السيرافى لمتى بن يونس مبسوطة فى كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبى حيان التوحيدى . فراجعها هناك .

(٢) نقله السيوطى فى بغية الوعاة من كتابى الإمتاع والمؤانسة ، ومحاضرات الأدباء لأبى حيان التوحيدى (بغية الوعاة : ١/٥٠٨) .

وقال أيضا : «شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل ، ما رأيت أحفظ منه لجوامع الزهد نظما وشعرا ، وكان دينا ورعا تقيا نقيا ، زاهدا عابدًا ، خاشعًا ... وما رأيت أحدا من المشايخ كان أذكر بحال الشباب ، وأكثر تأسفا على ذهابه منه ، وكان إذا رأى أحدا من أقرانه عاجله الشيب تسلى به»[1] .

وقال كذلك : «هو أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل فى كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى في الخلق والدين ، وأروى للحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفتوى ، كتب إليه ملوك عدة كتبا مصدرة بتعظيمه ، تسأله فيها عن مسائل فى الفقه والعربية واللغة»[2] .

وقال عنه ابن خلكان : «كان نزها عفيفا ، جميل الأمر ، حسن الأخلاق» .

شعره :

روى عن أبى سعيد أنه كان كثيرا ما ينشد فى مجالسه :

اسْكُنْ إلَى سَكَنٍ تُسَرُّ بِهِ ... ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَدًا وَغَدٌ كَحَامِلَةٍ ... فِى الْحَىِّ لاَ يَدْرُونَ مَا تَلِدُ

وفاته :

توفى أبو سعيد - رحمه الله - بين صلاتى الظهر والعصر من يوم الاثنين الثانى من شهر رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية، ودفن فى مقبرة الخيزران بعد صلاة العصر من اليوم نفسه ، وذلك عن أربع وثمانين سنة .

---

(١) ، (٢) نقله السيوطى فى بغية الوعاة من كتابى الإمتاع والمؤانسة ، ومحاضرات الأدباء لأبى حيان التوحيدى (بغية الوعاة : ١/٥٠٨) .

٢ - ابن خالويه (٠)

أبو عبدالله الحسين بن أحمد[١] بن خالويه . ولد ونشأ بهمدان ، ثم رحل إلى بغداد سنة أربع عشرة وثلاثمائة طلبا للعلم ، فقرأ القرآن على ابن مجاهد ، والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه وأبى بكر بن الأنبارى وأبى عمر الزاهد ؛ وسمع الحديث من محمد بن مخلد العطار وغيره ؛ وأملى الحديث بجامع المدينة ، وروى عنه المعافى بن زكريا وآخرون ، وكان شافعى المذهب .

كما قرأ على أبى سعيد السيرافى ، وكان منتصرا له على أبى على الفارسى .

قال الشيخ محمد الطنطاوى : «كان قصير الباع فى النحو ، طويله فى اللغة ، خلط بين المذهبين ، وكان كوفى النزعة ، يشهد بذلك ما ساقه فى انتصاره لثعلب عند رده الاعتراضات العشرة التى نقد بها الزجاج تصنيف كتاب (الفصيح)»[٢] .

ثم رحل ابن خالويه إلى الشام ، واستوطن حلب ، وتصدر بها وبميافارقين وحمص للإفادة والتدريس والفتوى والتصنيف .

وقد اختص ابن خالويه بسيف الدولة ابن حمدان ، وأدب بعض أولاده ، وصار من ندمائه وجلسائه ، قال :

«دخلت يوما على سيف الدولة ابن حمدان ، فلما مثلث بين يديه ، قال لى : اقعد ، ولم يقل اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب ، واطلاعه على أسرار كلام العرب» .

---

(٠) انظر فى ترجمته : إنباه الرواة : ١/٣٤٢ ، وفيات الأعيان : ٢/١٧٨ ، معجم الأدباء : ٩/٢٠٠ ، نزهة الألباء : ٣٨٣ ، شذرات الذهب : ٣/٧١ ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٠٠ .

(١) تفرد القفطى بقوله : «الحسين بن محمد بن خالويه ، حيث ذكر محقق (إنباه الرواة) بعد أن أثبت أسماء الكتب التى ترجمت له - أنه فى جميع هذه الكتب ، عدا تلخيص ابن مكتوم فإنه مذكور فيه باسم : الحسين بن أحمد .

(٢) راجع اعتراضات الزجاج على ثعلب ، ورد ابن خالويه عليها فى : الأشباه والنظائر للسيوطى : جـ٤ الفن السابع .

قال ابن خلكان :

«وإنما قال ابن خالويه هذا ، لأن المختار عند أهل الأدب أن يقول للقائم : اقعد ، وللنائم أو الساجد : اجلس ؛ وعلله بعضهم بأن القعود هو الانتقال من العلو إلى السفل ، ولهذا قيل لمن أصيب برجله : مقعد ؛ والجلوس هو الانتقال من السفل إلى العلو، ولهذا قيل لنجد: جَلَسًا لارتفاعها، وقيل لمن أتاها: جالس، وقد جَلَس، ومنه قول مروان بن الحكم – لما كان واليا على المدينة – يخاطب الفرزدق :

قُلْ لِلْفَرَزْدَقِ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... إنْ كُنْتَ تَارِكَ مَا أَمَرْتُكَ فَاجْلِسِ

أي : اقصد جَلَسًا ، وهي نجد .

وعاش ابن خالويه في صحبة شريف ولد سيف الدولة ، وغيره من آل حمدان يكرمونه ، ويدرسون عليه ، ويقتبسون من علمه إلى أن توفاه الله .

سعة علمه واطلاعه :

ذكره شيرويه في علماء همذان فقال : «رفيق عبدالرحمن بن حمدان الجلاب بالشام روى عن ابن دريد ، والصولي وغيرهما ، وروى عنه أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ» .

وقال أبو عمرو الداني : «روى عنه غير واحد من شيوخنا : عبدالمنعم بن عبيدالله ، والحسن بن سليمان وغيرهما» .

وقال مسلم بن محمد اللحجي في كتاب (الأترجة) : «لما دخل الحسين بن خالويه الإمام اليمن ، ونزل ديارها ، وأقام بها ، شرح ديوان ابن الحائك ، وعني به ، وذكر غريبه ، وإعرابه» .

ولابن خالويه قصة مع سيف الدولة بن حمدان تدل على سعة اطلاعه وتمكنه العلمي ، يرويها ابن النديم في كتابه (تاريخ حلب) بقوله :

«رأيت في جزء من أمالي بن خالويه : سأل سيف الدولة جماعة من العلماء بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور ؟ فقالوا : لا ، فقال

لابن خالويه : ما تقول أنت ، قلت : أنا أعرف اسمين ، قال : ما هما ؟ قلت : لا أقول لك إلا بألف درهم ، لئلا تؤخذ بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى ؛ فلما كان بعد شهر ، أصبت حرفين آخرين ، ذكرهما الجرمى فى كتاب (التنبيه) وهما : صلفاء وصلافى – وهى الأرض الغليظة – ، وخبراء وخبارى – وهى الأرض التى فيها ندوّة – ثم بعد عشرين سنة وجدت حرفا خامسا ذكره ابن دريد فى (الجمهرة) وهو : سبتاء وسباتى – وهى الأرض الخشنة – .

تصاغره للعلم :

يروى أن رجلا قال لابن خالويه : أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لسانى ، فقال : أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ، ما تعلمت ما أقيم به لسانى .

بين ابن خالويه والمتنبى :

لما كان المتنبى هو شاعر بنى حمدان ، وقد قصر شعره على مدح سيف الدولة ، ووصف معاركه ووقائعه وانتصاراته ، وكانوا يبادلونه بذلك الكثير من الحظوة والتقريب منهم ، أشعره ذلك بعلو قدره لديهم ، فبعث فيه شيئا من العظمة والشموخ والكبر ، حتى إنه كان يجيب سيف الدولة أحيانا ، ويتغاضى عنه أحيانا أخرى ، مما كان يوغر صدر سيف الدولة ، ويحفظه عليه .

ولما كان ابن خالويه قد نال من الحظوة والتقريب ما نال لدى سيف الدولة ، وآل حمدان من بعده ، أوغر ذلك صدر المتنبى ، وأوجده عليه ، واشتعلت بينهما نار المنافسة حتى كانت بينهما مجالس ومباحثات ومناظرات بين يدى سيف الدولة .

فقد روى أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الببغاء قال :

«وأذكر ليلة ، وقد استدعى سيف الدولة بدرة ، فشقها بسكين الدواة ، فمد أبو عبدالله بن خالويه جانب طيلسانه ، وكان صوفا أزرق ، فحشا فيه سيف الدولة شيئا صالحا ، ومددت ذيل دراعتى ، وكانت ديباجا ، فحشا إلى فيها ، وأبو

الطيب حاضر، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلهما، أو يطلب شيئا منها، فما فعل، فغاظه ذلك، فنثرها كلها؛ فلما رأى المتنبى أنها قد فاتته، زاحم الغلمان يلتقط معهم، فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه، وركبوه، وصارت عمامته وطرطوره فى عنقه، فاستحى ومضت له ليلة عظيمة وانصرف؛ وخاطب ابن خالويه سيف الدولة فى ذلك، فقال: ما يتعاظم تلك العظمة، ويتضع إلى مثل هذه المنزلة إلا لحماقته» .

آثاره :

خلف ابن خالويه مصنفات نافعة فى النحو والصرف واللغة والأدب والقراءات منها : الجمل فى النحو، والاشتقاق ، إطرغن فى اللغة ، القراءات ، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، المقصور والممدود ، الألفات ، المذكر والمؤنث ، شرح مقصورة ابن دريد ، كتاب (ليس) ، كتاب اشتقاق (خالويه) ، البديع فى القراءات السبع ، كتاب الأسد ، كتاب (تقفية ما اختلف من لفظه واتفق معناه لليزيدى) ، كتاب المبتدأ فى النحو ، كتاب التذكرة .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه شيرويه[1] : «رأيته ببيت المقدس ، وكان إماما ، أحد أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام العلم والأدب ، وكان إليه الرحلة من الآفاق» .

وقال عنه أبو عمرو الدانى : «عالم بالعربية ، حافظ للغة ، بصير بالقراءة ، ثقة ، مشهور ، روى عنه غير واحد من شيوخنا» .

وقال عنه السيوطى : «إمام اللغة العربية ، وغيرها من العلوم الأدبية» .

---

(١) شيرويه بن شهروان بن شيرويه بن فناخسرو المعروف بالحافظ أبى شجاع الديلمى مؤرخ همذان ومؤلف كتاب (الفردوس) ، ولد سنة ٤٤٥ ، وتوفى سنة ٥٠٩ هجرية .

شعره :

قال ابن خلكان : «وله شعر حسن ، فمن شعره :

إذَا لَـمْ يَـكُـنْ صَـدْرُ المجَـالِـسِ سَـيِّدًا ... فَـلاَ خَـيْـرَ فِـيـمَـنْ صَـدَّرَتْـهُ المجَـالِـسُ
وَكَـمْ قَـائِـلٍ : مَـالِـى رَأَيْـتُـكَ رَاجِـلاً ! ... فَـقُـلْـتُ لَـهُ : مِـنْ أجْـلِ أنَّـكَ فَـارِسُ

ومنه أيضا :

الْجُودُ طَبْعِى وَلَكِن لَيْسَ لِى مَالُ ... فَكَيْفَ يَبْذُلُ مَنْ بِالْقَرْضِ يَحْتَالُ؟
فَـهَـاكَ خَـطِّـى فَـخُـذْهُ الْـيَـوْمَ تَـذْكِـرَةً ... إلَى اتِّسَاعِى فَلِى فِى الْغَيْبِ آمَالُ

وفاته :

توفى أبو عبدالله بن خالويه بحلب سنة سبعين وثلاثمائة هجرية .

٣ - أبو على الفارسى (•)

أبو على الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن محمد بن سليمان بن أبان . ولد بفسا(١) من أرض فارس سنة ثمان وثمانين ومائتين هجرية ، وأمه عربية سدوسية من ربيعة الفَرَس من سدوس شيبان .

رحلته فى طلب العلم :

رحل إلى بغداد سنة سبع وثلاثمائة، وأخذ النحو عن الزجاج، وابن السراج، ومبرمان، والأخفش الصغير، ونفطويه؛ وأخذ اللغة عن ابن دريد، وعكف على حلقات البغداديين الأولين ، وخاصة حلقة ابن الخياط، وأخذ القراءات عن بكر بن مجاهد، وروى أنه كان يعتنق مذهب المعتزلة، وأغلب الظن أنه كان شيعيا، وذلك لغلبة التشيع حينئذ على أهل العراق وفارس .

(•) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد : ٧/١٧٥ ، وفيات الأعيان : ٢/٨٠ ، طبقات الزبيدى : ١٢٠ ، معجم الأدباء : ٧/٢٣٢ ، نزهة الألباء : ٣٨٧ ، شذرات الذهب : ٣/٨٨، بغية الوعاة : ١/٤٩٦ .

(١) فسا : مدينة فى بلاد فارس ، قريبة من شيراز العاصمة .

أبو على فى الشام :

كان فى أبى على حب للرحلة ، فتنقل يملى ويدرِّس للطلاب فى عسكر مكرم ، وبعض مدن الموصل ، حتى طار صيته فى الأقطار العربية ، ورفع من شأن المذهب البغدادى حتى قال عنه بعض تلاميذه : «هو فوق المبرد وأعلم» .

استقدمه سيف الدولة الحمدانى إلى حلب ، فدخلها سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وأقام بها مدة عند سيف الدولة ، نال خلالها الزلفى عنده ، مما أوغر صدر ابن خالويه الذى كان عالم بنى حمدان ، وكذا أبو الطيب المتنبى الذى كان شاعرهم : ولهذا لما ألف أبو على كتاب (الإغفال) الذى ذكر فيه ما أغفله شيخه الزجاج فى (معانى القرآن) تعقبه ابن خالويه مفندا ما ذكره أبو على ، رغم أنه سبق أن وقف مناصرا ثعلب حينما رد على الزجاج اعتراضاته العشرة التى نقد بها نصف كتاب (الفصيح) ، فلم يسع الفارسى انتصارا لنفسه من ابن خالويه إلا أن يصنف كتابا يفند فيه تعقبات ابن خالويه له سماه (نقض الهاذور) : كما جرى بينه وبين المتنبى مجالس ومطارحات ومناظرات .

أبو على فى فارس :

عاد أبو على إلى فارس ، وصحب عضد الدولة[1] ، وتقدم عنده ، وعلت منزلته، حتى قال عضد الدولة : «أنا غلام أبى على الفسوى فى النحو» .

ألف له أبو على كتاب (الإيضاح فى النحو) ، فلما عرضه عليه استصغره وقال : «ما زدت على ما أعرف شيئا ، وإنما يصلح هذا للصبيان»؛ فمضى أبو على، وصنف له (التكملة) فى التصريف، فلما وقف عضد الدولة عليه قال: «غضب الشيخ ، فجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو» .

---

(١) أبو شجاع فناخسرو الدولة بن ركن الدولة (حسن) بن بويه الديلمى . كان فاضلا محبا للفضلاء ، مشاركا فى عدة فنون ، وقصده فحول الشعراء فى عصره ، ومدحوه بأحسن مدائحهم ، ومنهم المتنبى ، توفى سنة ١٣٧٢ . (وفيات الأعيان : ٤١٦/١) .

ذكر تلميذه الربعى قال : «كان أول من سمع (الإيضاح) ورواه بإذن ممن ألفه له – أنا وأبو أحمد ابن الجلاب ، رسم لنا أخذه عن أبى على ، ثم خرج إلى الناس من بعد»[1] .

وقد التزم أبو على منهج السابقين فى شواهد (الإيضاح) ، فلم يكن يستشهد على قواعده وأحكامه بشعر المحدثين ، إلا أنه استشهد فى باب (كان) بقول أبى تمام :

مَـنْ كَـانَ مَـرْعَـى عَـزْمِـهِ وَهُـمُـومِـهِ رَوْضُ الأَمَـانِـى لَـمْ يَـزَلْ مَـهْـزُولاً[2]

وذلك مما أخذ على أبى على ، لكن قيل إن الحامل له على ذلك أن عضد الدولة كان كثيرا ما ينشد هذا البيت ، فجاء به أبو على تمثيلا به لا استشهادا مجاراة لعضد الدولة فى تقديره لحكمة البيت[3] .

ويحكى أن أبا على كان يساير عضد الدولة يوما فى ميدان شيراز ، فسأله عضد الدولة : لم انتصب المستثنى فى قولنا : قام القوم إلا زيدا ؟ فقال الشيخ : بفعل مقدر ، فقال له : كيف تقدره ؟ قال : استثنى زيدا ، فقال عضد الدولة : هلا رفعته وقدرت الفعل : امتنع زيد ؟ فانقطع الشيخ وقال له : هذا جواب ميدانى ؛ ثم إنه رجع إلى منزله ، ووضع فى ذلك كلاما حسنا ، وحمله إليه فاستحسنه ؛ وذكر أبو على بعد ذلك فى كتاب (الإيضاح) أنه انتصب بالفعل المتقدم بتقوية (إلا)[4] .

ويعقب السيوطى على الخبر بقوله : «والمسألة فيها سبعة أقوال وأنا أميل إلى القول الذى ذكره أبو على أولا»[5] .

ويحكى أيضا أنه لما عزم عضد الدولة على الخروج لقتال ابن عمه ، دخل عليه أبو على ، فقال له عضد الدولة : ما رأيك فى صحبتنا ؟ فقال الشيخ : أنا من

---

(١) إنباه الرواة : ١/٢٧٥ .

(٢) البيت من قصيدة للمتنبى فى مدح نوح بن عمر السكسكى . (ديوانه : ٣/٦٧) .

(٣) وفيات الأعيان : ٢/٨١ .

(٤) وفيات الأعيان : ٢/٨٠ . والإيضاح : ١/٣٦٢.

(٥) بغية الوعاة : ١/٤٩٧ .

رجال الدعاء لا من رجال اللقاء ، فخار الله للملك فى عزيمته ، وأنجح قصده فى نهضته ، وجعل العافية رداءه ، والظفر تجاهه ، والملائكة أنصاره ، ثم أنشد :

وَدَّعْتُهُ حِينَ لاَ تُوَدِّعُهُ نَفْسِي وَلَكِنَّهَا تَسِيرُ مَعَهْ
ثُمَّ تَوَلَّى وَفِي الْفُؤَادِ لَهُ ضِيقُ مَحَلٍّ وَفِي الدُّمُوعِ سَعَهْ

فقال له عضد الدولة : بارك الله فيك ، فإنى واثق بطاعتك ، وأتيقن صفاء طويتك[1] .

أبو على والقياس :

كان أبو على الفارسى شديد التجريد للقياس ، يلتزمه فى كل ما يصدر عنه من آراء نحوية أو صرفية ، ويعتمد عليه فى كثير من أحكامه ، حتى يحكى عنه تلميذه ابن جنى قوله : «أخطئ فى مائة مسألة لغوية ، ولا أخطئ فى مسألة واحدة قياسية» ؛ ويتعجب ابن جنى من مهارته فى القياس ويقول : «ما كان أقوى قياسه ، فكأنه كان مخلوقا له»[2] .

وقد سئل أبو على – قبل أن ينظر فى العروض – عن خرم (متفاعلن) ففكر ثم انتزع الجواب من علم النحو فقال : «لا يجوز ، لأن (متفاعلن) يُنْقَل إلى (مستفعلن) إذا خُبِن ، فلو خرم لتعرض إلى الابتداء بالساكن ، فكما لا يجوز الابتداء بالساكن ، لا يجوز التعرض له»[3] .

آثاره :

خلف أبو على الفارسى العديد من الكتب النافعة فى مجالات متعددة :

ففى التفسير : كتاب تفسير ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ .

---

(١) بغية الوعاة : ١/٤٩٧ .
(٢) الخصائص : ١/٢٧٧ .
(٣) بغية الوعاة : ١/٤٩٧ .
والخرم : حذف الحرف الأول من التفعيلة ، والخبن : تسكين الحرف الثانى .

وفى القراءات: كتاب الحجة فى القراءات، وفيه يحتج لكل قراءة بما يؤيدها من اللغة والشعر.

وفى علم الكلام : كتاب (التتبع لكلام أبى على الجبائى).

وفى النحو: الإيضاح، والتكملة، والتذكرة، والمقصور والممدود، والإغفال فيما أغفله الزجاجى فى معانيه ، العوامل المائة ، نقض الهاذور ، شرح الأبيات المشكلة الإعراب (الإيضاح الشعرى) ، مختصر عوامل الإعراب ، الترجمة ، أبيات المعانى.

وكان أبو على كثير الأمالى ، يمليها أينما حل وحيثما رحل ، وكان من عادته أن يسمى إملاءاته باسم البلد التى تم الإملاء فيها ، وبذلك يمكن التعرف على رحلاته وأماكن دراسته وتدريسه ، فمن ذلك : المسائل البغداديات ، والمسائل الشيرازيات ، والمسائل البصريات ، والمسائل الدمشقيات ، والمسائل الحلبيات، والمسائل المجلسيات ، والمسائل الذهبيات ، والمسائل العسكريات[1] ، والمسائل القصريات[2]، والمسائل الكرمانية[3]، والمسائل المنثورة، والمسائل المشكلة[4].

شعره :

لم يؤثر عن أبى على الفارسى أنه تعاطى الشعر ، ولا تيسر له نظمه ، وكان هو يعترف بأنه ليس له فيه نصيب ؛ فقد روى أبو القاسم بن أحمد الأندلسى قال :

«جرى ذكر الشعراء ، فقال أبو على الفارسى – وأنا حاضر – : إنى لأغبطكم على قول الشعر ، فإن خاطرى لا يوافقنى فى قوله ، مع تحققى بالعلوم التى هى من مواده : فقال له رجل : فما قلت قط شيئا منه ألبتة ؟ قال : ما أعلم أن لى شعرا إلا ثلاثة أبيات فى الشيب ، وهو قولى :

---

(١) نسبة إلى مدينة عسكر مكرم من بلاد فارس.

(٢) نسبة إلى محمد بن طويس القصرى : تلميذ أبى على الذى أملاها عليه حينما كان ملازما له . ونسبها الدكتور شوقى ضيف إلى قصر ابن هبيرة بنواحى الكوفة . (المدارس النحوية : ٢٥٦).

(٣) نسبة إلى كرمان من بلاد فارس.

(٤) انظر : معجم الأدباء : ٧/٢٣٢.

خَضَبْتُ الشَّيْبَ لَمَّا كَانَ عَيْبًا — وَخَضْبُ الشَّيْبِ أَوْلَى أَنْ يُعَابَا
وَلَمْ أَخْضِبْ مَخَافَةَ هَجْرِ خِلٍّ — وَلاَ عَيْبًا خَشِيتُ وَلاَ عِتَابَا
وَلَكِنَّ الْمَشِيبَ بَدَا ذَمِيمًا — فَصَيَّرْتُ الْخِضَابَ لَهُ عِقَابَا [1]

ويحكى ابن خلكان تجربة شخصية له تتعلق بقول أبى على الشعر حيث قال :

«كنت رأيت فى المنام فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وأنا يومئذ بمدينة القاهرة ، كأننى قد خرجت إلى قليوب، ودخلت إلى مشهد بها ، فوجدته شعثا ، وهو عمارة قديمة ، ورأيت به ثلاثة أشخاص مقيمين مجاورين ، فسألتهم عن المشهد – وأنا متعجب لحسن بنائه و إتقان تشييده ، – : ترى هذا مشهد مَنْ ؟ فقالوا : لا نعلم ، ثم قال أحدهم : إن الشيخ أبا على الفارسى جاور فى هذا المشهد سنين عديدة ، وتفاوضنا فى حديثه ، فقال : وله – مع فضائله – شعر حسن ، فقلت : ما وقفت له على شعر ، فقال ، أنا أنشدك من شعره ، ثم أنشد بصوت رقيق طيب إلى غاية ثلاثة أبيات ، فاستيقظت فى إثر الإنشاد ، ورق صوته فى سمعى ، وعلق على خاطرى منها البيت الأخير وهو :

النَّاسُ فِي الْخَيْرِ لاَ يَرْضَوْنَ عَنْ أَحَدٍ — فَكَيْفَ ظَنُّكَ سِيمُوا الشَّرَّ أَوْ سَامُوا [2]

وفاته :

توفى أبو على الفارسى ببغداد يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، عن اثنتين وتسعين سنة ، ودفن بالشونيزى ، بعد أن تخرج على يديه جلة العلماء أمثال أبى الفتح عثمان بن جنى ، وعلى بن عيسى الرُّبعى ؛ وكان محل وُجد وحنق من السيرافى وابن خالويه ، والمتنبى ، وهو عادة ما يجرى بين المتعاصرين من المناقشة والمنافرة .

---

(١) إنباه الرواة : ١/ ٢٧٥ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢/ ٨٢.

٤ - الرمانى (٠)

أبو الحسن على بن عيسى بن على بن عبدالله . ويقال له : الوراق [١] ، والإخشيدى [٢] ، والرمانى [٣] أشهر ، أصله من (سُرَّ مَنْ رَأى) ، وولد ببغداد سنة ست وتسعين وثلثمائة .

أخذ عن ابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، وغيرهم ، وروى عنه أبو القاسم التنوخى ، وأبو محمد الجوهرى وغيرهما .

برع فى علوم العربية ، وكان يؤيد المذهب البصرى فى النحو ، مع ميل إلى الفلسفة ، لأنه معتزلى ، حتى إنه كان يخلط النحو بالفلسفة والمنطق ، ومن ثم قال عنه أبو على الفارسى :

«إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان ما نقوله نحن فليس معه منه شىء» .

آثاره :

خلف الرمانى عددا من المصنفات الناقصة فى النحو والصرف والقرآن الكريم :

ففى القرآن الكريم : كتاب إعجاز القرآن ، وكتاب الألفات فى القرآن الكريم .

وفى النحو : كتاب شرح سيبويه ، وكتاب نكت سيبويه ، وكتاب أغراض كتاب سيبويه ، وكتاب المسائل المفردة فى كتاب سيبويه ، كتاب شرح المدخل إلى سيبويه للمبرد ، وشرح مختصر الجرمى ، وشرح المسائل للأخفش – صغير، وكبير – شرح الألف واللام للمازنى ، وشرح الموجز لابن السراج ، وكتاب الإيجاز

---

(٠) انظر ترجمته فى : الفهرست : ٩٤ ، وطبقات الزبيدى : ١٢٠ ، ووفيات الأعيان : ٣/٢٩٩ ، وبغية الوعاة : ٢/١٨٠ .

(١) الفهرست : ٩٥ .

(٢) المصدر السابق : ٩٤ .

(٣) وفيات الأعيان : ٣/٢٩٩ .

فى النحو، وكتاب المبتدأ فى النحو، وكتاب شرح الأصول لابن السراج، وكتاب الهجاء.

وفى الصرف: كتاب التصريف، وكتاب الاشتقاق الصغير، وكتاب الاشتقاق الكبير[١].

أقوال العلماء فيه:

قال عنه ابن النديم: «من أفاضل النحويين والمتكلمين البغداديين، مفتن فى علوم كثيرة من القرآن، والفقه، والكلام، والنحو، كثير التصرف والتأليف، وأكثر ما يؤلفه يؤخذ عنه إملاء»[٢].

وقال عنه ابن خلكان: «أحد الأئمة المشاهير، جمع بين علم الكلام والعربية»[٣].

وقال عنه أبو حيان التوحيدى: «لم ير مثله قط علما بالنحو وغزارة بالكلام، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص، وإيضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه، ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة، وكان يمزج النحو بالمنطق»[٤].

وقال عنه السيوطى: «كان إماما فى العربية، علامة فى الأدب، فى طبقة الفارسى والسيرافى»[٥].

وفاته:

توفى الرمانى ليلة الأحد حادى عشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة هجرية – رحمه الله رحمة واسعة –.

---

(١) بغية الوعاة: ٢/١٨١.
(٢) الفهرست: ٩٤.
(٣) وفيات الأعيان: ٣/٢٩٩.
(٤) بغية الوعاة: ٢/١٨١.
(٥) المصدر السابق: ٢/١٨٠.

٥ - ابن جنى (•)

أبو الفتح عثمان بن جنى [١] . ولد بالموصل قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة [٢] .

قرأ على ابن مقسم [٣] ، وأبى الفرج الأصفهانى [٤] ، وأبى العباس أحمد بن محمد ويعرف بالأخفش [٥] ، وأبى سهل القطان [٦] .

ثم تصدر للإقراء مبكرا بجامع الموصل ، حيث لم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، وأخذ عنه كثير من المشاهير مثل : الشريف الرضى [٧] ، والثمانينى [٨] ، وعبدالسلام البصرى [٩] ، وأبى الحسن السمسمى [١٠] ، وثابت الجرجانى [١١] ، والقاشانى [١٢] ، وابن سنان الخفاجى [١٣] .

(•) انظر ترجمته فى : الفهرست : ١٢٨ ، وإنباه الرواة : ٢/٣٣٦ ، ووفيات الأعيان : ٣/٢٤٨ ، ودمية القصر وجريدة العصر للباخرزى : ٢٩٧ ، ونزهة الألباء : ٢٢٧ .

(١) جنى : بكسر الجيم وتشديد النون مع الكسر وبعدها ياء ، وهو معرب (كِنّى) ، ومعناه فى الرومية : كريم نبيل ، وذكر السمعانى أن أبا الفتح كان يذكر أن أباه كان فاضلا بالرومية ، وربما كان يترجم لفظ (كنى) . (الأنساب : ١٣٩ أ) .

وكان (جنى) مملوكا روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى .

(٢) وقيل : ولد حوالى سنة عشرين وثلاثمائة . (ابن جنى النحوى : ٣٧) .

(٣) أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب ، كان أحد القراء ببغداد ، وكان أحفظ الناس لنحو الكوفيين ، توفى سنة ٣٥٤ هجرية . (تاريخ بغداد : ٢/٢٠٦) .

(٤) على بن الحسين بن الهيثم القرشى ، صاحب (الأغانى) ، توفى سنة نيف وستين وثلاثمائة . (تاريخ بغداد : ١/٣٩٨) .

(٥) كان إماما فى النحو ، فقيها على مذهب الشافعى ، وكانت له حلقة بجامع المنصور قريبًا من حلقة أبى حامد الأسفرايينى .

(٦) أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد القطان ، أخذ عن ثعلب والمبرد ، وأبى سعيد السكرى ، توفى سنة ٣٥٠ هجرية . (تاريخ بغداد ، ٥/٤٥) .

(٧) أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ، توفى ببغداد سنة ٤٠٦ هجرية .

(٨) أبو القاسم عمر بن ثابت الضرير ، من (ثمانين) وهى بليدة فى ناحية الموصل ، يقال إنها أول قرية بنيت بعد الطوفان ، بناها الثمانون الذين خرجوا من السفينة ، فسميت بهم ، توفى سنة ٤٤٢هـ .

(٩) أبو أحمد عبدالسلام بن الحسين بن محمد ، توفى سنة ٤٠٥ هجرية .

(١٠) أبو الحسن على بن عبيدالله بن عبدالغفار السمسمى ، توفى سنة ٤١٥ هجرية .

(١١) أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى الأندلسى ، قتل سنة ٤٣١ هجرية .

(١٢) على بن زيد القاشانى ، توفى سنة ٣١٣ هجرية .

(١٣) الأمير عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ، صاحب (سر الفصاحة) ، توفى سنة ٤٦٦ هجرية .

سماته الخلقية :

كان (جنى) والد أبى الفتح رجل شثيم الوجه ، وحشى الصورة ، لا علم عنده ولا فهم ، بينما كان ابنه أبو الفتح أشقر ، ممتعا بإحدى عينيه ، فى صورته بعض التركية[1] ، ولعلها الرومية .

أخلاقه :

كان ابن جنى رجل جد ، وامرأ صدق فى قوله وفعله ، فلم يؤثر عنه ما أثر عن أمثاله من رجال الأدب فى عصره من اللهو والشرب والمجون ، وكان عف اللسان والقلم ، يتجنب الألفاظ المندية للجبين ، وعرف بطيب الأخلاق والعفة والإخلاص[2] .

وحكى أن أبا الحسين القمى حفيد أبى إسحق القمى صاحب ديوان صمصام الدولة لقى ابن جنى مرة فى الديوان ، فجعل يتحدث تارة مع أبى الحسين ، وتارة مع جده أبى إسحق ، وكان لابن جنى عادة فى حديثه بأن يميل شفته ، ويشير بيده ، فبقى أبو الحسين شاخصا ببصره يتعجب منه ، فقال له ابن جنى: مالك يا أبا الحسن تحدق النظر إلى، وتكثر التعجب منى؟ قال: شىء طريف. قال: ما هو؟ قال: شبهت مولاى الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا، وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودى إلى دار المملكة، وهو على شاطئ دجلة، يفعل مثل ما يفعل الشيخ .

فامتعض أبو الفتح وقال : ما هذا القول يا أبا الحسن – أعزك الله –؟! ومتى رأيتنى أمزح فتمزح معى ، أو أمجن فتمجن بى ؟

فلما رآه أبو الحسن قد حرد واستشاط وغضب ، قال : المعذرة أيها الشيخ إليك وإلى الله – تعالى – أن أشبهك بالقرد ، وإنما شبهت القرد بك – فضحك ابن

---

(١) فهرست ابن خير : ٣١٨ .

(٢) مقدمة (الخصائص) : ١٤ .

جنى وقال : ما أحسن ما اعتذرت . وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع ، فكان يتحدث بها هو دائما[1] .

ومن خلال ابن جنى البارزة: الأمانة، والوفاء، فقد كان أمينا فى التحديث عن شيوخه، دقيقا فى النقل عنهم، كما كان وفيا لشيوخه ولاسيما أبى على، فهو دائما يذكره بالإعجاب والثناء الحسن، والترحم عليه، والترضى عنه، كما كان متسما بأخلاق العلماء فى البحث والدرس، لا يستكبر أن يسأل شيخه، أو يكتب له يسأله ، حيث يقول :

«وقد كان أبو على – رحمه الله – كتب إلىَّ من حلب وأنا بالموصل مسألة أطالها فى هذه اللفظة – يعنى (أَوّتاه) اسم أتألم – جوابا على سؤالى إياه عنها»[2].

اتصاله بأبى على الفارسى :

يروى أن أبا على الفارسى كان قد سافر إلى الموصل ، فدخل الجامع ، فوجد ابن جنى يقرئ النحو وهو شاب لم يعد الثامنة عشرة من عمره ، وكان بين يديه متعلم ، وهو يكلمه فى قلب الواو ألفا فى (قام) ، فاعترض عليه أبو على ، فوجده مقصرا فقال له : «زببت قبل أن تحصرم» ، ثم قام أبو على ولم يعرفه ابن جنى ، ولما سأل عنه قيل له : هو أبو على الفارسى النحوى ، فأخذ فى طلبه ، فوجده ينزل إلى السميرية بقصر بغداد ، فنزل معه فى الحال ، ولزمه وصاحبه من حينئذ إلى أن مات أبو على ؛ ويذكر الرواة أنه صحبه أربعين سنة[3] .

فقد لزم ابن جنى أستاذه فى بغداد، وشيراز، ورافقه إلى حلب، فكان معه فى قصر سيف الدولة ، ثم عاد معه إلى شيراز أيام حكم عضد الدولة البويهى .

ولا ريب أنه كانت فى التلميذ صفات حببته إلى شيخه ، وفى الشيخ صفات حببت الشيخ إلى تلميذه دعتهما إلى التوافق ودوام الألفة الطويلة ، فقد كانا

(١) معجم الأدباء : ١٦/٥ .
(٢) الخصائص : ٣٨/٣ .
(٣) نزهة الألباء : ٢٢٩ .

معتزليين ، وكان لأبى على حاجة إلى خدمة تلميذه لتذليل متاعب الحياة ، وتوفير وقته الثمين للبحث والدرس ؛ وتوافقهما فى الأخلاق والآراء ، فلم يؤثر فى تاريخهما شىء عكّر صفاء هذه الصحبة، ويسر حال أبى على ، واتصاله بالأمراء ؛ كل ذلك وغيره ساعد على إدامة هذه الصحبة .

وكان ابن جنى عند أستاذه يمثل مخبارا يمتحن به تجاربه ، فكان أبو على يعرض عليه بعضا من المسائل ، أو يذكر له تعليلا ، أو يسأله عن تعليل ، وكان يطلبه إذا غاب : وكان ابن جنى يوافقه ويدعم رأيه ببرهان ، أو يخالفه ويرى رأيا آخر ، ولم يكن أبو على يضيق بهذه المخالفة ، بل كان ينزل على رأيه أحيانا ، وابن جنى كان يكتب له ، ويسأله إذا لم يكن معه وعز عليه الجواب .

وقرأ ابن جنى على أستاذه فى أثناء اتصاله به كثيرا من الكتب والمصنفات ، فقد قرأ عليه كتاب سيبويه ، وكتابى الهمز والنوادر لأبى زيد الأنصارى ، وكتاب التصريف لأبى عثمان المازنى ، وكتاب القلب والإبدال لابن السكيت ، وغيرها .

وكان ابن جنى محبا لأستاذه ، معظما له ، دائم النقل عنه ، شديد الإعجاب به ، فهو القائل فيه : لله هو وعليه رحمته ، فما كان أقوى قياسه ، وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف نسبه ، فكأنه إنما كان مخلوقا له»[1] .

ابن جنى والمتنبى :

التقى ابن جنى والمتنبى فى بلاط سيف الدولة ابن حمدان فى حلب ، وفى بلاط عضد الدولة البويهى فى شيراز إبان صحبته لأبى على الفارسى ، فتصادقا ، وتوطدت بينهما أواصر الألفة والمحبة : فقد ذكره ابن جنى مرات كثيرة فى كتبه ، مثنيا عليه فى حدة خاطره ، وتوقد ذكائه ، وشاعريته ، وصدقه ؛ وكان المتنبى يجله كثيرا ، معترفا بفضله ، وهو القائل : «ابن جنى أعرف بشعرى منى» ، وقال

(١) ابن جنى النحوى : ٤١ .

فيه : «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس» ، وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول : «سلوا صاحبنا أبا الفتح» : وكان إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب ، دل عليه وقال : «عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى ، فسلوه فإنه يقول ما أردت وما لم أرد»[1] .

ويحكى أن ابن جنى فى شرحه لديوان المتنبى قال : «سأل شخص أبا الطيب المتنبى عن قوله :

* بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا *

قال : كيف أثبت (الألف) فى (تصبرا) مع وجود (لم) الجازم ، وكان من حقه أن تقول (لم تصبرْ) ؟

فقال المتنبى : «لو كان أبو الفتح هنا لأجابك – يعنينى – ؛ وهذه (الألف) هى بدل من نون التوكيد الخفيفة ، كان فى الأصل : لم تصبرنْ ، ونون التوكيد الخفيفة إذا وقف عليها الإنسان ، أبدل منها ألفا ، قال الأعشى :

* وَلاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا *

وكان الأصل (فاعبدنْ) فلما وقف أتى بالألف بدلا»[2] .

وروى أبو الفتح أيضا : «وسئل المتنبى بشيراز عن قوله :

وَكَانَا ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ ... لَهُ يَاءَىْ حُرُوفَ أُنَيْسِيَانِ

فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرا لفسره .

قلت : وتفسيره أن لفظة (إنسان) خمسة أحرف إذا كانت مكبرة ، فإذا صغر قيل : أنيسيان ، فزاد عدد حروفه وصغر معناه ؛ فهو يقول للممدوح : إن عدوك الذى له ابنان فيكاثرك بهما ، كانا زائدين فى عدده ، ناقصين من فضله وفخره،

---

(١) المصدر السابق : ٤٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٢٤٨ .

لأنهما ساقطان خسيسان كياءى (أنيسيان) تزيدان فى عدد الحروف وتنقصان من معناه»[1].

آثاره :

خلف ابن جنى مصنفات نافعة ، تشيع بين الباحثين والدارسين للنحو والصرف والعروض والأدب والشعر إلى يومنا هذا :

فى النحو : كتاب التعاقب فى العربية ، وكتاب المعرب ، وكتاب التلقين ، وكتاب اللمع ، وكتاب الألفاظ من المهموز ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الخصائص ، وكتاب سر صناعة الإعراب ، وكتاب شرح المقصور والممدود ، وكتاب (ذا القد) جمعه من كلام أبى على الفارسى ، وكتاب محاسن العربية ، وكتاب الخاطريات ، وكتاب التذكرة الأصبهانية (مختار تذكرة أبى على الفارسى وتهذيبها) ، وكتاب التنبيه ، وكتاب المهذب ، وكتاب التبصرة .

وفى الصرف : كتاب جمل أصول التصريف ، وكتاب المصنف (شرح تصريف المازنى) ، وكتاب التصريف الملوكى .

وفى العروض : كتاب العروض والقوافى ، والكافى (شرح القوافى للأخفش) .

وفى الأدب والشعر : كتاب الشعر (شرح ديوان المتنبى) ، كتاب الفرق بين الكلام الخاص والعام ، كتاب تفسير المراثى الثلاثة والقصيدة الرائية للشريف الرضى ، كتاب معانى أبيات المتنبى ، وشرح مستغلق الحماسة ، التمام فى شرح أشعار هذيل ، المبهج فى اشتقاق أسماء شعراء الحماسة .

فى اللغة : شرح الفصيح لثعلب ، المقتضب فى المعتل العين .

وفى القراءات : المحتسب فى تخريج شواذ القراءات ، وكتاب الوقف والابتداء[2] .

---

(١) معجم الأدباء : ١٢/١٠٢ .

(٢) الفهرست : ١٢٨ ، ووفيات الأعيان : ٣/٢٤٧ .

شعره :

تروى بعض كتب التراجم أن ابن جنى كان يقول الشعر ويجيد نظمه[1] ، وأن له أشعاراً حسنة[2] . وذكر ابن ماكولا وابن الأثير أن له شعرا باردا[3] ، وقد أورد له القاضى البغدادى ، وابن الأنبارى ، والقفطى قصيدة يتحدث فيها عن نسبه نجتزئ منها بقوله :

فَإِنْ أُصْبِحْ بِلاَ نَسَبٍ ... فَعِلْمِى فِى الْوَرَى نَسَبِى
عَلَى أَنِّى أَؤُولُ إِلَى ... قُرُومٍ سَادَةٍ نُجُبِ
قَيَاصِرَةٍ إِذَا نَطَقُوا ... أَرَمَّ الدَّهْرُ ذُو الْخُطَبِ
أُولاَكَ دَعَا النَّبِىُّ لَهُمْ ... كَفَى شَرَفًا دُعَاءُ نَبِى[4]

وروى أن صديقا له عيره بأنه أعور ، فقال يعاتبه :

صُدُودُكَ عَنِّى وَلاَ ذَنْبَ لِى ... يَدُلُّ عَلَى نِيَّةٍ فَاسِدَهْ
وَقَدْ وَحَيَاتِكَ مِمَّا بَكَيْتُ ... خَشِيتُ عَلَى عَيْنِىَ الْوَاحِدَهْ
وَلَوْلاَ مَخَافَةُ أَلاَّ أَرَاكَ ... لَمَا كَانَ فِى تَرْكِهَا فَائِدَهْ[5]

وقيل : إن هذه الأبيات لأبى منصور الديلمى[6] .

وقال الباخرزى : «ما كنت أعلم أنه ينظم القريض ، أو يسيغ ذلك الجريض ، حتى قرأت له مرثية فى المتنبى أولها :

---

(١) تاريخ بغداد : ٣١١/١١ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢٤٦/٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير : حوادث سنة ٣٩٣ .

(٤) إنباه الرواة : ٣٣٦/٢ .

(٥) نزهة الألباء : ٢٢٨ .

(٦) أبو الحسن على بن منصور ، كان والده من جند سيف الدولة بن حمدان ، وكان شاعرا مجيدا خليقا ، وكان ممتعا أيضا بإحدى عينيه .

غَاضَ القَرِيضُ وَأَوْدَتْ نُضْرَةُ الأَدَبِ ... وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةُ الكُتُبِ[1]

وفاته :

أجمعت كتب التراجم على أن أبا الفتح عثمان بن جنى قد توفى فى بغداد يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ودفن بالشونيزى عند قبر أستاذه أبى على الفارسى ، وهى مقبرة الشيخ جنيد حاليا ، وتعرف بالشونيزية ، وأكثر مدفونيها متصوفون[2] ، وقد رثاه الشريف الرضى بمرثية مطلعها :

أَلاَ يَا قَوْمِي لِلْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ ... ولِلْعَظْمِ يُرْمَى كُلَّ يَوْمٍ بِعَارِقِ

ومنها :

لِتَبْكِ أَبَا الْفَتْحِ الْعُيُونُ بِدَمْعِهَا ... وَأَلْسُنُنَا مِنْ بَعْدِهَا بِالْمَنَاطِقِ

شَقِيقِي إِذَا الْتَاثَ الشَّقِيقُ وَأَعْرَضَتْ ... خَلاَئِقُ قَوْمِي جَانِبًا عَنْ خَلاَئِقِي

كَأَنَّ جَنَانِي يَوْمَ وَافَى نَعْيُهُ ... فَرِيَّ أَدِيمٍ بَيْنَ أَيْدِي الْخَوَالِقِ

وَمَنْ لِلْمَعَانِي فِي الأَكِمَّةِ أُلْقِيَتْ ... إِلَى بَاقِرٍ غَيْبِ الْمَعَانِي وَفَائِقِ

مَضَى طَيِّبُ الأَرْدَانِ يَأْرَجُ ذِكْرُهُ ... أَرِيجَ الصَّبَا تَنْدَى بِعِرْنِينِ نَاشِقِ

وَمَا احْتَاجَ بَرْدًا غَيْرَ بَرْدِ عَفَافِهِ ... وَلاَ عَرْفَ طِيبٍ غَيْرَ تِلْكَ الخَلاَئِقِ

تَرَوَّقَ مَاءُ الْبَرْدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... وَطَاحَ الْقَذَى عَنْ سَلْسَلِ الطَّعْمِ رَائِقِ[3]

ورثاه بأخرى مطلعها :

أُرَاقِبُ مِنْ طَيْفِ الْحَبِيبِ وِصَالاً ... وَيَأْبَى خَيَالٌ أَنْ يَزُورَ خَيَالاً[4]

---

(١) دمية القصر وجريدة العصر : ٢٩٧ .

(٢) ابن جنى النحوى : ٢٦ .

(٣) ديوان الشريف الرضى – المجلد الثانى : ٦٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٦٦ .

٦ - الربعى (*)

أبو الحسن على بن عيسى بن الفرج بن صالح الربعى [1] ، ولد بشيراز سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، رحل إلى بغداد وأخذ عن السيرافى ، ثم عاد إلى شيراز ، فقرأ على أبى على الفارسى عشرين سنة ، ثم عاد إلى بغداد حيث تصدر للإفادة ، حيث كان له مجلس علم مشهور .

أخلاقة :

كان الربعى شاذ الخلق ، حيث تبذل فى المجون إلى غير حد ودأب على قتل الكلاب ومطاردتها ، يقول السيوطى :

«كان مبتلى بقتل الكلاب ، سأل يوما أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلى (كلواذى) ، فظنوا أن له حاجة ، فركبوا خيولا وخرجوا ، وخرج ماشيا ومعه كساء وعصا إلى كلب ، فغدا نحوه ، والكلب يثب عليه تارة ويهرب منه أخرى حتى أعياه ، وعاونوه حتى أمسكوه ، فعض الكلب بأسنانه عضا شديدا وقال : هذا عضنى منذ أيام ، وأردت أن أخالف قول القائل :

شَاتَمَنِى كَلْبُ بَنِى مِسْمَعٍ ... فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ والْعِرضَا
وَلَمْ أُجِبْهُ لِاحْتِقَارِى لَهُ ... مَنْ ذَا يَعَضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَّا [2]

وقال التبريزى :

«قلت لابن برهان : كيف تركت الربعى وأخذت عن أصحابه مع إدراكك له ؟ فقال لى : كان مجنونا ، وإنا كما ترى ، فما كنا نتفق» [3] .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ٢/٢٩٧ ، ونزهة الألباء : ٢٣٣ ، ووفيات الأعيان : ٣/٣٣٦ ، وبغية الوعاة : ٢/١٨١ .

(١) الربعى : نسبة إلى ربيعة ، وقال ابن خلكان : «ولا أعلم أهو ربيعة بن نزار أم غيره ، وزاد السيوطى فى نسبه : الزهرى .

(٢) بغية الوعاة : ٢/١٨٢ .

(٣) المصدر السابق .

آثاره :

ترك الربعى بعض التصانيف النحوية منها : شرح الإيضاح لأبى على الفارسى ، وشرح مختصر الجرمى ، وانتفع بالاشتغال عليه خلق كثير .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيوطى : «أحد أئمة النحويين وحذاقهم ، الجيدى النظر ، الدقيقى الفهم والقياس» .

وقال عنه أبو على الفارسى : «قولوا لأبى على البغدادى - يقصد الربعى - : لو سرت من الشرق إلى الغرب ، لم تجد أعرف منك بالنحو» .

وقال أيضا - لما انفصل الربعى عنه : «ما بقى له شىء يحتاج أن يسأل عنه» .

وقال ابن الخشاب : «جاريت أبا منصور الجواليقى فى أمر الربعى ففضله وقال : كان يحفظ الكثير من أشعار العرب مما لم يكن غيره يقوم به ، إلا أن جنونه لم يكن يدعه يتمكن منه أحد فى الأخذ عنه»[1] .

وفاته :

توفى الربعى ببغداد ليلة السبت لعشر بقين من المحرم سنة عشرين وأربعمائة هجرية[2] .

٧ - ابن برهان [*]

أبو القاسم عبدالواحد بن على بن عمر بن إسحق بن إبراهيم بن برهان[3]

(١) نفس المصدر : ٢/ ١٨١ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/ ٣٣٦ .

(*) انظر ترجمته فى : الأعلام : ٤/ ٣٢٦ ، والإكمال لابن ماكولا : ١/ ٢٤٦ ، وإنباه الرواة : ٢/ ٢١٢ ، وتاريخ بغداد : ١١/ ٢١٧ ودمية القصر : ٣٠٩ ، ومعجم المؤلفين : ١٦/ ٢١٠ ، وهدية العارفين : ١/ ٦٣٤ ، ونزهة الألباء : ٣٥٦ ، وشذرات الذهب : ٣/ ٢٩٧ ، وبغية الوعاة : ٢/ ١٢٠ .

(٣) برهان : بفتح الباء ، والمنع من الصرف ، ومن ضم الباء فقد وهم ، وذهب بعيدا من ذكر أنه (برهان الإسلام) . (معجم الأدباء : ١٥/ ٩٧) .
والبُرهة ، والبَرهة فى العربية : الحين الطويل من الدهر ، ويقال : برِهَ الرجل إذا ثاب جسمه بعد تغير من علة ، وأبْرَه الرجل إذا غلب الناس وأتى بالعجائب ، والألف والنون الزائدتان فى آخر العلم تمنعانه من الصرف . (هدية العارفين : ١/ ٦٣٤) .

الأسدى العكبرى[1] . ولد بعكبرا[2] ، وفيها تلقى علومه الأولى ، ولما شب عن الطوق اجتذبه بريق بغداد وشهرتها ككعبة للعلماء وقبلة للأدباء ، فرحل إليها ينهل من معينها الثر ، ويأخذ عن علمائها وشيوخها المشهورين .

علمه وثقافته :

بدأ ابن برهان علومه الأولى فى عكبرا ، حيث درس الحديث على يد ابن بطة[3] ، إلا أنه لم يرو شيئا ، وكان يمتنع من التحديث ، كما درس التنجيم وعمل به فترة .

ولما رحل إلى بغداد أخذ علم الكلام على مذهب الحسن البصرى ، وصار صاحب اختيار فى علم الكلام .

كما درس المذهب الحنفى على يد أبى الحسين القدورى[4] الذى انتهت إليه رئاسة الحنفية ببغداد .

كما درس النحو على الدقيقى[5]، والسمسمى[6]، وابن النزلى[7]، وابن الأشرس[8].

---

(١) زاد ابن ماكولا فى نسبه حتى أوصله إلى معد بن عدنان ، وبهذا يلتقى مع النبى ﷺ فى بعض جدوده وبدءا من مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، أى أنه عربى أصيل .

(٢) عكبرا : بليدة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، خرج منها عدد كبير من العلماء ، منهم أبو البقاء العكبرى ولكنها درست وامحت ولم يعد لها أثر الآن .

(٣) أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبرى المعروف بابن بطة ، من كبار علماء الحنابلة ، رحل فى طلب علم الحديث ، ثم لزم بيته أربعين سنة ، ولم ير مفطرا إلا يوم الفطر ، والأضحى ، وأيام التشريق ، توفى بعكبرا سنة ٣٨٧ هجرية .

(٤) أبو الحسين أحمد بن جعفر بن حمدان المعروف بالقدورى ، رأس الحنفية فى بغداد ، روى عنه الخطيب البغدادى ، وكان يناظر أبا حامد الإسفرايينى الفقيه الشافعى ، توفى سنة ٤٢٨ هجرية .

(٥) أبو القاسم على بن عبيد الله الدقيقى ، أخذ عن السيرافى والفارسى والرمانى : شرح الإيضاح للفارسى ، ومختصر الجرمى ، وصنف كتابى العروض والمقدمات . توفى سنة ٤١٥ هـ .

(٦) أبو الحسن على بن عبيد الله السمسمى ، قرأ على الفارسى والسيرافى ، كان حسن المعرفة بفنون العربية ، صحيح الخط ، غاية فى إتقان الضبط . توفى سنة ٤١٥ هجرية .

(٧) أبو الفتح أحمد بن محمد بن هارون النزلى ، أخذ عن الربعى ، أشاد به ابن برهان فى اللمع ، وذكره ابن ماكولا فى الإكمال . (اللمع : ٧٤٣ ، والإكمال : ١/٢٤٦) .

(٨) محمد بن محمد بن أحمد بن أشرس ، صنف كتاب (التنبيه فى النحو) لابن الأجل أبى الخطاب صاحب بهاء الدولة .

وأخذ اللغة عن أبى منصور الرازى[1] ، والسمسمى ؛ والأدب عن عبدالسلام البصرى[2] .

وكان ابن برهان عالما بالقراءات القرآنية وأصحابها ، كما كان متبحرا فى الأنساب حتى قال عنه ابن الشجرى :

«كان ابن برهان له فى علم النسب قدم راسخة ، كما شهد ابن ماكولا أنه كان آخر من يعرف الأنساب ، كما كان مشهورا برواية الأخبار وأيام العرب ووقائعها ، كما أداه اعتزاله إلى التبحر فى فهم معانى القرآن الكريم» .

مذهبه الفقهى :

نشأ ابن برهان فى أول أمره حنبليا ، حيث كان مذهب أحمد بن حنبل هو السائد فى عكبرا يومئذ ، فدرس المذهب الحنبلى وبرع فيه .

ولكنه لما انتقل إلى بغداد ، وانخرط فى دراسة النحو ، وجد أن المذهب الحنبلى لا يعينه على السير فى دراسة النحو البصرى الذى يقوم على القياس العقلى ، ويعده من أهم مقوماته ، فتحول إلى المذهب الحنفى الذى يقوم على القياس ، وقدح الفكر ، واستنباط النتائج ؛ ومن ثم سمى بمذهب أهل الرأى .

اعتزاله :

لما انتقل ابن برهان إلى بغداد ، ودرس علم الكلام على مذهب الحسن البصرى ، والاعتزال من مذاهب علم الكلام ، إذ يبحث فى العقائد الإسلامية ، ووسيلته إلى ذلك العقل والمنطق ، ومن ثم كان الاعتزال مذهب كثير من العلماء كالفارسى وابن جنى وغيرهما ، فقد وجد فيه ابن برهان بغيته ، فاعتنقه على

---

(١) أبو منصور محمد بن على بن الحيان الرازى ، كان من ندماء الصاحب بن عباد ، صنف : أبنية الأفعال ، وشرح الفصيح ، والشامل ، وكتاب (انتهاز الفرص فى تفسير المقلوب من كلام العرب) .

(٢) أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد البصرى ، أخذ عن ابن جنى ، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن الكريم وإنشاد الشعر ، توفى سنة ٤٠٥ هجرية .

مذهب المرجئة الذين ينفون خلود الكفار فى النار ، حيث كان يقول فى تفسير قول الله – تعالى – : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى : أبدا من الآباد ، وما لا غاية له لا يجمع ولا يقبل التثنية ، فيقال : أبدان وآباد» ؛ ويقول أيضا : «دوام العقاب فى حق من لا يجوز عليه التشفى لا وجه له ، مع ما وصف الله به نفسه من الرحمة : وهو إنما يوجد من الشاهد لما يعترى الغضبان من غليان قلبه للانتقام ، وهذا مستحيل فى حقه – تعالى –»[1] .

وكان ابن برهان سعيدا بتحوله هذا حيث يقول : «الحمد لله لأنى كنت منجما فصرت نحويا ، وكنت حنبليا فصرت عدليا»[2] .

أخلاقه :

يروى عن ابن برهان أنه كان زاهدا ، بعيدا عن البذخ والتنعم والعناية بمظهره ، بل كان سيئ البزة ، ولم يكن يلبس سراويل ، ولا على رأسه غطاء»[3] .

قال عنه الباخرزى : «لقد جعله زهده باذ الهيئة ، رث الكسوة ، يمشى وقد شمل العرى طرفيه ، ونظم رأسه وقدميه»[4] .

وقال عنه السيوطى : «كان ابن برهان زاهدا ، عرف الناس عنه ذلك ، وإلا كانوا رموه بالحجارة لهيئته»[5] .

كما روى أنه كان فى أخلاقه شراسه على من يقرأ عليه أو يستمليه ، وكان يتكبر على أولاد الأغنياء والرؤساء ، وإذا رأى الطالب غريبا أقبل عليه .

وروى عنه أيضا أنه كان عفيف النفس ، متسما بالقناعة ، لا يطمع فى غير ما تيسر له ، ولا يرضى بأكثر من حقه ، حيث حكى : الكتبى أنه لما ورد عميد

---

(١) المنتظم : ٨/٢٣٦ .
(٢) نزهة الألباء : ٣٦٧ .
(٣) بغية الوعاة : ٢/١٢٠ .
(٤) دمية القصر : ٣٠٩ .
(٥) بغية الوعاة : ٢/١٢٠ .

الملك الكندرى إلى بغداد ، استحضر ابن برهان ، فأعجبه كلامه ، وأمر له بمال، فأبى أن يقبله ، فأعطاه مصحفا بخط ابن البواب وعكازة مليحة حملت إليه من بلاد الروم ، فأخذهما وغبر إلى منزله ، فدخل عليه أبو على ابن الوليد المتكلم، فأخبره بالحال ، فقال له : أنت تحفظ القرآن وبيدك عصا تتوكأ عليها ، فلم تأخذ شيئا فيه شبهة ؟!

فنهض ابن برهان ، ودخل على قاضى القضاة أبى عبدالله الدامغانى وقال له : قد كدت أهلك لولا نبهنى أبو على بن الوليد ، وهو أصغر منى سنا ، وأريد أن تعيد هذه العكازة وهذا المصحف إلى عميد الملك فما يصحبانى ، فأخذهما وأعادهما إليه[1] .

وقال أبو البركات الأنبارى : «يحكى عن ابن برهان أنه كان مقيما بالحرم ، فنهب فى أول دولة الترك ، ونهب له فيه رحل وأثاث له قيمة ، فأخبر المتقدم بذلك ، فجاء إليه احتراما لمكانه من العلم - وكان على مذهب أبى حنيفة - فقال له : سمعت أنه قد أخذ لك مال له قيمة ، وأنا أغرمه لك كله ، فقال : لا أريد إلا ما أخذ منى بعينه ، فقال : ومن أين أقدر على ذلك ولا علم لى من أخذه ؟ بل أنا أغرم لك ذلك وأكثر منه ، فقال : لا حاجة لى فى غير عين مالى ، لأنى لا أدرى من أين هو ؟»[2] .

وروى أيضا عن ابن برهان أنه كان يميل إلى المُرْد الصِّبَاح ، ويسعى إلى تقبيلهم، فقد روى الكتبى قال: «وكان ابن برهان يحب المليح مشاهدة، وإذا حضر أولاد الأمراء والأتراك وأرباب النعم، يقبلهم بمحضر من آبائهم، ولا ينكرون عليه ذلك لعلمهم بدينه وورعه»[3] .

---

(١) فوات الوفيات : ٢/ ٤١ ، وبغية الوعاة : ٢/ ١٣٠ .
(٢) نزهة الألباء : ٣٠٦ .
(٣) فوات الوفيات : ٢/ ٤١ .

وقال الدلجي : «قرأت بخط الشيخ شهاب الدين الحسباني أنه كان على إمامة ابن برهان وديانته يحب المليح مشاهدة ، ويقبل أولاد الأمراء والأتراك وأرباب النعم بمحضر من آبائهم ، ولا ينكرون عليه ذلك لعلمهم بدينه وورعه»[1] .

وروى ابن حجر العسقلاني عن محمد بن عبدالملك الهمذاني قوله : «كان ابن برهان يمشي مكشوف الرأس ، وكان يميل إلى المردان من غير ريبة . ووقف مرة على مكتب عند خروجهم ، فاستدعى واحدا واحدا ، فيقبلهم ويدعو لهم ويسبح الله ؛ فرآه ابن الصباغ ، فدس له واحدا قبيح الوجه ، فأعرض عنه وقال : يا أبا نصر ، لو غيرك فعل بنا هذا ؟!»[2] .

وقد علق ابن الجوزي على قول الهمذاني (وكان ابن برهان يميل إلى المرد الصباح وتقبيلهم من غير ريبة) بقوله (من غير ريبة) أقبح من التقبيل ، لأن النظر إليهم ممنوع إذا كان بشهوة ، فهل يكون التقبيل بغير شهوة؟!»[3] .

وروى الكتبي أيضا قال : «كان يحضر جلسة ابن برهان فتى مليح الوجه ، فانقطع عنه ، فسأل عنه ، فقيل له : إن عميد الملك اعتقل والده ، فانحدر إلى باب المراتب ، فصادف الكندري جالسا ، فحين رآه أقبل عليه مسلما ، والناس من حوله ، فقال له ابن برهان :

* فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ والْحَكَمُ *

فوهم الكندري ، وسأل عمن في حبسه ، فأخبر بالرجل ، وأن ولده يغشى مجلس الشيخ للاقتباس ، فأطلقه ووهبه ما كان عليه ، وكان ثمانية عشر ألف درهم»[4] .

---

(١) الفلاكة والمفلوكون : ١١٧ .
(٢) لسان الميزان : ٩/٨٢ .
(٣) البداية والنهاية : ١٢/٩٢ .
(٤) فوات الوفيات : ٢/٤١ .

آثاره :

لم يترك ابن برهان وراءه سوى كتاب واحد فى النحو هو (شرح اللمع) لابن جنى ، وذكر حاجى خليفة أن له كتابا باسم (أصول اللغة)[1] ولكن لم يعثر عليه ، وربما فقد .

وقد علل محمد بن هلال لقلة مصنفات ابن برهان بقوله : «ولولا شراسة خلق كانت فيه على من يقرأ عليه ويستمليه ، لكانت له آثار باقية ، وكتب مروية ، لما كان فيه من الفضائل القوية»[2] .

وفاته :

توفى ابن برهان ببغداد يوم الأربعاء سلخ جمادى الأولى[3] سنة ست وخمسين وأربعمائة ، ودفن يوم الخميس فى مقبرة الشونيزى التى تحوى جلة علماء بغداد[4] .

٨ - التبريزى [٠]

أبو زكريا يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيبانى بن الخطيب التبريزى [5]. ولد بتبريز[6] سنة إحدى وعشرين وأربعمائة هجرية .

---

(١) كشف الظنون : ١/١١٤ .
(٢) إنباه الرواة : ٢/٢١٥ .
(٣) ذكر السيوطى أن وفاة ابن برهان كانت فى جمادى الآخرة . (بغية الوعاة : ٢/١٢١) .
(٤) تاريخ بغداد : ١١/١٧ .
(٠) انظر فى ترجمته : معجم الأدباء : ٢٠/٢٥ ، ودمية القصر : ٦٨ ، ونزهة الألباء : ٢٤٥، وشذرات الذهب ٤/٥ ، ووفيات الأعيان : ٦/١٩١ ، وبغية الوعاة : ٢/٣٣٨.
(٥) أنهى ابن خلكان اسمه بقوله : المعروف بالخطيب ؛ وقال ياقوت : وربما يقال له : الخطيب ، وهو وهم .
(٦) تبريز : من أكبر مدن أذربيجان .

ثقافته وعلمه :

رحل أبو زكريا فى طلب العلم ، فهاجر إلى أبى العلاء المعرى ،.وأخذ عنه ، وعن عبيدالله الرقى ، والحسن بن رجاء بن الدهان ، وابن برهان ، والمفضل القصبانى ، وعبدالقاهر الجرجانى وغيرهم .

وسمع الحديث بمدينة صور من الفقيه أبى الفتح سليم بن أيوب الرازى ، ومن أبى القاسم عبدالكريم بن محمد الدلال السيارى ، والقاضى أبى الطيب الطبرى وغيرهم .

وأخذ عنه العلم أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى وغيره ، وتخرج عليه خلق كثير وتتلمذوا له .

وقرأ عليه بدمشق الخطيب البغدادى ، والسِّلفى ، وأبو الفضل محمد بن ناصر ، وأبو الحسن سعد الخير بن سهل الأندلسى ، وغيرهم من الأعيان .

ثم رحل إلى مصر ، فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ شيئا من اللغة ، ثم عاد إلى بغداد ، واستوطنها بقية حياته ، حيث اشتغل بتدريس الأدب بالمدرسة النظامية ، ثم تولى خزانة الكتب بها .

ويحكى ابن خلكان سبب رحيل أبى زكريا إلى أبى العلاء المعرى – بعد أن يعزو القصة إلى القفطى صاحب (إنباه الرواة) بقوله :

«وكان سبب توجهه إلى أبى العلاء المعرى ، أنه حصلت له نسخة من كتاب (التهذيب فى اللغة) تأليف أبى منصور الأزهرى فى عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدُل على المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوبا ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها البلل ، وهى الآن ببعض الوقوف ببغداد ، وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ، ظن أنها غريقة ، وليس بها إلا عرق الخطيب المذكور»[1] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/١٩٢ .

أخلاقه :

قال السمعانى : «سمعت أبا منصور محمد بن عبدالملك بن الحسن بن خيرون المقرئ يقول :

«أبو زكريا يحيى بن على التبريزى ما كان بمرضى الطريقة ، وذكر عنه أشياء . ثم قال : وذاكرت أنا مع أبى الفضل محمد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون ، فسكت وكأنه ما أنكر ما قال ، ثم قال : ولكنه كان ثقة فى اللغة ، وما كان ينقله»[1] .

إلا أن السيوطى صرح بهذه الأشياء التى لم تكن بمرضية من أبى زكريا بقوله :

«وكان يدمن شرب الخمر ، ويلبس الحرير ، والعمامة المذهبة ، وكان الناس يقرأون عليه تصانيفه وهو سكران ، وكان أكولا»[2] .

آثاره :

صنف أبو زكريا التبريزى مصنفات كثيرة ومفيدة فى النحو واللغة والأدب :

ففى النحو : صنف مقدمة حسنة ، المقصود منها بيان أسرار الصنعة ، وهى عزيزة الوجود ، وشرح اللمع لابن جنى .

وفى اللغة : تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت .

وفى الأدب : شرح القصائد العشر ، وشرح الحماسة ، وشرح ديوان المتنبى ، وشرح ديوان أبى تمام ، وشرح المفضليات ، وشرح سقط الزند ، وشرح مقصورة ابن دريد .

وفى العروض : كتاب (الكافى فى العروض والقوافى) .

---

(١) الأنساب : ٣/١٦.

(٢) بغية الوعاة : ٢/٣٣٨ .

وفى القرآن والحديث : كتاب (إعراب القرآن) وسماه (الملخص) ، وتهذيب غريب الحديث .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر : «كان ثقة فى اللغة وما كان ينقله» .

وقال عنه ابن خلكان : «أحد أئمة اللغة ، كانت له معرفة تامة بالأدب والنحو واللغة وغيرها» .

وقال عنه السيوطى : «كان أحد الأئمة فى النحو واللغة والأدب ، حجة صدوقا ثبتا» .

وفاته :

توفى أبو زكريا ببغداد فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين ، ودفن فى مقبرة باب أبرز – عليه رحمة الله –[1] .

٩ - ملك النحاة [*]

أبو نزار الحسن بن صافى بن عبدالله بن نزار بن أبى الحسن الملقب بملك النحاة . ولد بشارع دار الرقيق بالجانب الغربى من بغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وكان والده مولى لرجل يسمى حسين الأرموى[2] التاجر ، ثم انتقل إلى الجانب الشرقى من بغداد إلى جوار حريم الخلافة ، بحثا عن العلم والمعرفة .

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/١٩٦ .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ١/٣٠٥ ، ووفيات الأعيان : وفريدة القصر : ١/٨٨ ، وشذرات الذهب : ٤/٢٢٧ ، ومعجم الأدباء : ٨/١٢٢ ، وبغية الوعاة : ١/٥٠٤ .

(٢) الأرموى : بضم الألف وسكون الراء وفتح الميم نسبة إلى أرمية من بلاد أذربيجان .

ثقافته وعلمه :

سمع الحديث من الشريف أبى طالب الزينبى ، وتفقه للشافعى على أحمد الأشنهى[1] ، وقرأ الأصول على أبى عبدالله القيروانى - وهو مغربى قدم بغداد وأقام بها - وأصول الفقه على أبى الفتح ابن برهان ، وعلم الخلاف[2] على أسعد الميهنى[3] ، وقرأ النحو على أبى الحسن على بن أبى زيد الفصيحى الإسترابادى الذى قرأ على عبدالقاهر الجرجانى .

برع فى النحو حتى صار أنحى أهل طبقته . وفتح له الجامع ودرَّس فيه ، ثم غادر بغداد بعد العشرين وخمسمائة ، وسكن واسطا مدة ، وأخذ عنه جماعة من أهلها أدبا كثيرا ، ووصفوه ، وأثنوا عليه بالفضل والمعرفة ، وانتقل منها إلى شيراز ، وكرمان ، وخراسان ، وغزنة ، ووصل إلى أصفهان سنة إحدى وأربعين ، ثم سافر إلى الشام ، وقدم دمشق ، ثم خرج منها ، ثم عاد إليها ، فأقام بها إلى آخر عمره فى رعاية نورالدين محمود بن زنكى - رحمه الله - .

أخلاقه :

كان أبو نزار صحيح الاعتقاد، كريم النفس، فهما، ذكيا، عزيز النفس، كثير الأنفة، بر الشيمة، حلو الشتيمة، يضم يده من الذهب على المائة والمئتين، ويمسى وهو منها صفر اليدين، مولع باستعمال الحلاوات السكرية، وإهدائها لجيرانه وإخوانه، مغرم بإحسانه إلى خلصائه وخلانه، وكان فى خلقه خرق .

---

(١) الأشنهى : بضم الألف وسكون الشين وضم النون وكسر الهاء نسبة إلى قرية (أشنهة) من قرى أذربيجان .

(٢) علم الخلاف : علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية ، ودفع الشبه ، وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية ، وهو الجدل الذى هو قسم من المنطق ، إلا أنه خص بالمقاصد الدينية . (كشف الظنون : ٧٢١) .

(٣) أبو الفتح أسعد بن محمد بن أبى نصر الميهنى ، نسبة إلى بلده (ميهنة) : وهو العلم الفرد فى علم الخلاف ، درس بالمدرسة النظامية ، وانتشر ذكره فى الأقطار . توفى سنة ٥٢٠ هجرية .

إلا أنه كان عنده عجب بنفسه ، وتيه بعلمه ، لقب نفسه (ملك النحاة) ، وكان يستخف بالنحاة قبله، حتى أنه كان يقول: «هل سيبويه إلا من رعيتى وحاشيتى! ولو عاش ابن جنى لم يسعه إلا حمل غاشيتى!» .

ومن مظاهر عجبه بنفسه ما حكاه العماد الأصفهانى من أنه قد وصلته خلعة مصرية ، وجائزة سنية ، فأخرج القميص الدبيقى[1] إلى السوق ، فبلغ دون عشرة دنانير ، فقال : «قولوا : هذا قميص ملك كبير ، أهداه إلى ملك كبير ، ليعرف الناس قدره ، فيحلوا عليه البدر على البدار ، ويجلوا قدره فى الأقدار ، ثم قال : أنا أحق به إذا جهلوا حقه ، وتنكبوا سبل الواجب وطرقه»[2] .

ومن مظاهر استخفافه بالنحاة، أنه كان إذا ذكر واحد منهم قال: كلب من الكلاب: فقال له رجل: إذن أنت لست ملك النحاة، بل ملك الكلاب! ، فاستشاط غضبا وقال: أخرجوا عنى هذا الفضولى! وكان يغضب على من لم يسمه بملك النحاة .

آثاره :

خلف أبو نزار مصنفات كثيرة فى النحو والصرف والقراءات والفقه والأدب والعروض والشعر :

ففى النحو : الحاوى ، والعمدة ، والمنتخب ، والتذكرة الشعرية .

وفى الصرف : المقتصد .

وفى العروض : كتاب العروض .

وفى القراءات : أسلوب الحق فى تعليل القراءات العشر وشىء من الشواذ .

وفى أصول الدين : مختصر فى أصول الدين .

وفى أصول الفقه : مختصر فى أصول الفقه ، والحاكم .

---

(١) الدبيقى : نسبة إلى دبيق ، وهى بلدة بمصر مشهورة بنوع جيد من الثياب .

(٢) خريدة القصر : ٨٨/١ .

وفى الأدب : المقامات . وهى من جنس مقامات الحريرى ، إلا أنه كان يقول عنها : «مقاماتى جد وصدق ، ومقامات الحريرى هزل وكذب» .

كما اشتغل فى العربية عشر مسائل سماها : المسائل العشر المتعبات إلى الحشر . وفى الشعر : له ديوان شعر مجموع ، وله قصيدة فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه العماد الأصفهانى : «أحد الفضلاء المبرزين ، بل واحدهم فضلا ، وماجدهم نبلا ، وكبيرهم قدرا ، ورحيبهم صدرا ، قد غلبت عليه سمة ملك النحاة ، وشهد بفضله خلانه والعداة ، سمح البديهة فى المقاصد النبيهة ، عزيز النفس ، كثير الأنفة عن المطامع الدنيئة بالمطالب النزيهة ، والمراتب الوجيهة ، ولقد كانت نجابته للنحاة بضاعة وافية ، وبراعة يراعته للكفاة كافية ، يأخذ القلم فيمشق الطرس فى عرضه نظما يعجز ، ونثرا يعجب ، ونكتا ترقص ، ونتفا تطرب»[1] .

شعره :

عرفنا آنفا أن أبا نزار كان شاعرا مطبوعا ، وأن له ديوان شعر مجموع ، كما أن له قصيدة طويلة فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ومن شعره :

حَنَانَيْكَ إنْ جَاءَتْكَ يَوْمًا خَصَائِصِى ... وَهَالَكَ أَصْنَافُ الكَلَامِ المُسَخَّرِ

فَسَلْ مُنْصِفًا عَنْ قَائِلِى غَيْرَ جَائِرٍ ... بِحُبِّكَ إنْ الفَضْلَ لِلْمُتَأَخِّرِ[2]

(١) خريدة القصر : ١/٨٨ .

(٢) إنباه الرواة : ١/٣٠٦ .

وفاته :

توفى ملك النحاة يوم الثلاثاء الثامن من شهر شوال سنة ثمان وستين وخمسمائة بدمشق ، ودفن فى اليوم التالى (الأربعاء) ، وقد ناهز الثمانين ، وكان مدفنه مقبرة الباب الصغير .

وروى أنه رؤى أنه فى النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : أنشدته قصيدة ما فى الجنة مثلها وهى :

يَا هَذِهِ أَقْصِرِى عَنِ الْقَوْلِ ... فَلَسْتُ فِى الْحِلِّ وَيْلِكِ مَنْ قِبَلِ
يَارَبِّ هَا قَدْ أَتَيْتُ مُعْتَرِفًا ... بِمَا جَنَتْهُ يَدَاى مِنْ زَلَلِ
مَلآنَ كَفٌّ بِكُلِّ مَأْثَمَةٍ ... صِفْرَ يَدٍ مِنْ مَحَاسِنِ الْعَمَلِ
فَكَيْفَ أَخْشَى نَارًا مُسَعَّرَةً ... وَأَنت يَارَبِّ فِى الْقِيَامَةِ لِى ؟!

قال : فوالله مذ فرغت من إنشادها ما سمعت حسيس النار[1] .

١٠ - الزمخشرى[*]

جاد الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد . ولد بزمخشر[2] يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية .

وقد ابتلى أبو القاسم ببتر رجله وهو صغير ، فمن قائل إنها قطعت بسبب البرد الشديد الذى يمتاز به مناخ زمخشر[3] ، وقائل إنه أصابها خراج أدى إلى قطعها[4] ، إلى قائل إنه سقط عن سطح المنزل فى صغره ، فأصيب بجروح فى رجله أدت إلى قطعها[5] ، وقيل : إنه سقط عن الدابة بسبب دعاء والدته عليه ، فأدى ذلك إلى قطع رجله .

---

(١) معجم الأدباء : ١٢٢/٨ .

(*) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء : ١٢٦/١٩ ، وإنباه الرواة : ٢٦٨/٣ ، ووفيات الأعيان : ١٦٨/٥ ، ونزهة الألباء : ٣٩١ ، وبغية الوعاة : ٢٧٩/٢ .

(٢) زمخشر : قرية صغيرة من قرى خوارزم ، تقع على بعد أربعة أميال منها .

(٣) وفيات الأعيان : ١٩٦/٥ .

(٤) بغية الوعاة : ٢٨٠/٢ .

(٥) معجم الأدباء : ١٢٦/١٩ .

ولعل القول الأخير هو الصواب ، وذلك لأنه رواية جار الله نفسه ، فقد روى القفطى أن جار الله لما دخل بغداد ، واجتمع بالفقيه الدامغانى ، سأله عن سبب قطع رجله ، فقال : «دعاء الوالدة ، وذلك أنى فى صباى أمسكت عصفورا ، وربطته بخيط فى رجله ، وأفلت من يدى ، فأدركته وقد دخل فى خرق ، فجذبته ، فانقطعت رجله من الخيط ، فتألمت والدتى لذلك وقالت : قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله : فلما وصلت إلى سن الطلب ، رحلت إلى بخارى لطلب العلم ، فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلى ، وعملت علىّ عملا أوجب قطعها»[1] .

وعن هذا يقول أبو الوفاء القرشى : «... وعندما وصل إلى سن التعليم ، أصابه داء أقعده عن ممارسة الحياة كما كان يتمنى هو ، ويتمنى له أبوه ، فأصبح زمنا مبتلى ، وكان يعانى أشد الآلام من ذلك ، لأن الداء أقعده عن بغيته وآماله ، ... وشاء الله أن يسلمه أبوه إلى خياط ليعلمه ... إلا أنه أخذ يطلب من أبيه أن يرسله إلى البلد[2] لكى تحقق آماله ... فأخذ الأب يعد ابنه للسفر ، ووصى عليه معارفه ، وأسلمه إلى الحياة ليلقى فيها ما قدر له»[3] .

رحلته فى طلب العلم :

قضى أبو القاسم حياته الأولى فى زمخشر ، حيث تعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، وتلقى قليلا من الثقافة الإسلامية على يد والده .

وبإلحاح منه على والده ، رحل إلى خوارزم[4] ، حيث غشى حلقات العلم، وجالس الشيوخ ، ونهل من منابع الثقافة المختلفة على أيدى جلة من الشيوخ

---

(١) إنباه الرواة : ٣/٢٦٨ .

(٢) لعل المقصود بالبلد هو : خوارزم العاصمة .

(٣) الجواهر المضيئة : ٢/١٦١ .

(٤) خوارزم : منطقة شاسعة تقع فى الجنوب من نهر جيحون ، شمالى شرق خراسان ، دخلت تحت الحكم الإسلامى بعد أن فتحها قتيبة بن مسلم سنة ٨٦ هجرية ، وهى مكونة من جزءين : (خوار) بمعنى الشمس ، والمزروع ، والمأكول ، و (زم) بمعنى الأرض ، فهى تعنى : أرض الشمس ، وأرض الزرع والخصوبة .

والعلماء الأفذاذ من أمثال : محمود بن جرير الضبى الأصفهانى (أبو مضر) ، وأبى على الضرير، والسديد الخياطى، وأبى السعد البيهقى، وركن الدين محمد الأصولى.

ثم أخذ ينتقل فى بلاد ما وراء النهر سعيا وراء العلم ، فرحل إلى نيسابور، ولقى بها الفقيه الدامغانى ، ثم ذهب إلى بخارى وخراسان ، ثم إلى أصفهان، ومرو حيث لقى الإمام السمعانى ، وسمرقند .

ثم رحل إلى بغداد حيث لقى أبا منصور الجواليقى ، وسمع من أبى سعد الشنانى ، وأبى سعد الخطاب ، ثم غادرها إلى مكة حيث لقى أبا بكر بن طلحة البابرى الأندلسى حيث قرأ عليه كتاب سيبويه ، والشريف على بن حمزة بن وهاس العلوى، وأقام بمكة مجاورا بيت الله الحرام ، ولذا لقب (جار الله) ، وفى هذا يقول :

أَنَا الْجَارُ جَارُ اللَّهِ مَكَّةُ مَرْكَزِى وَمَضْرِبُ أَوْتَادِى وَمَعْقِدُ أَطْنَابِى

وفى أثناء إقامته بمكة ، زار اليمن وتنقل بين مدنها ، ولاسيما مدينة همدان ، كما زار مصر حيث لقى بها كثيرا من العلماء الذين كانت تزخر بهم مصر فى ذلك الوقت .

ثم عاوده الحنين إلى وطنه، فسافر إلى خوارزم، وأقام بها مدة عامين، ينعم بعطف وحظوة ملكها محمد بن أنوشتكين خوارزمشاه؛ ثم ما لبث أن عاد إلى مكة بناء على طلب الشريف أبى الحسن بن وهاس الذى تولاه بعطفه ورعايته، حيث بدأ فى تأليف تفسيره العظيم (الكشاف)، وقد نوه فى مقدمته بابن وهاس الذى ألف (الكشاف) من أجله؛ وقد طالت إقامته بمكة حيث قاربت الأربع عشرة سنة ، ثم غادرها متوجها إلى خوارزم ، وفى طريقه إليها مر ببغداد حيث زاره الشريف أبو السعادات ابن الشجرى مهنئا بقدومه .

وعاد جارالله إلى وطنه شيخا كهلا، يقعده المرض والشيخوخة، وقد أصبح فخر خوارزم، ومرجع العلماء، وطارت شهرته فى كل أرجاء العالم الإسلامى .

عائلته الصغيرة :

عاش الزمخشرى وحيدا فريدا ، يؤثر ألا يكون له نسل كما فعل أبو العلاء المعرى وغيره من العلماء ، فقد تزوج فى مقتبل عمره ، ولكنه لم يكن راضيا بحياته الزوجية ، ولا موفقا فيها ، فطلق زوجته دون أن ينجب أبناء : وها هو ذا يشرح فلسفته فى عدم الإنجاب حيث يقول :

تَصَفَّحْتُ أَبْنَاءَ الرِّجَالِ فَلَمْ أَكَدْ أُصَادِفُ مَنْ لاَ يَفْضَحِ الأُمَّ وَالأَبَا
رَأَيْتُ أَبَا يَشْقَى لِتَرْبِيَةِ ابْنِهِ وَيَسْعَى لِكَىْ يُدْعَى مُكِبًّا ومُنْجِبَا
أَرَادَ بِهِ النَّشْءَ الأَعَزَّ فَمَا دَرَى أَيُولِيهِ جُحْرًا أَمْ يُعَلِّيهِ مَنْكِبَا
أَخُو شِقْوَةٍ مَازَالَ مَرْكَبَ طِفْلِهِ فَأَصْبَحَ ذَاكَ الطِّفْلُ لِلنَّاسِ مَرْكَبَا
لِذَاكَ تَرَكْتُ النَّسْلَ وَاخْتَرْتُ سِيرَةً مَسِيحِيَّةً ، أَحْسِنْ بِذَلِكَ مَذْهَبَا (١)

ثم يقول :

وَحَسْبِى تَصَانِيفِى وَحَسْبِى رُوَاتُهَا بَنِينَ بِهِمْ سِيقَتْ إِلَىَّ مَطَالِبِى (٢)

ثم يفصح عن رأيه فى الزواج فيقول :

تَزَوَّجْتُ لَمْ أَعْلَمْ وَأَخْطَأْتُ لَمْ أُصِبْ فَيَالَيْتَنِى قَدْ مِتُّ قَبْلَ التَّزَوُّجِ
فَوَاللّهِ مَا أَبْكِى عَلَى سَاكِنِى الثَّرى وَلَكِنَّنِى أَبْكِى عَلَى الْمُتَزَوِّجِ (٣)

اعتزاله :

تشرب الزمخشرى نزعة الاعتزال من أستاذه محمود بن جرير الضبى الأصفهانى بمرو ، وهو أول من أدخل الاعتزال إلى خوارزم ، كما تأثر بأستاذه أبى سعد المحسن الحشمى ، وكان يجهر باعتزاله فيقول : «أنا الشيخ المعتزلى»

(١) ديوان الزمخشرى : ورقة ١٥ .
(٢) المصدر السابق : ورقة ٩ .
(٣) المصدر نفسه : ورقة ١٨ .

من يبرز لى ؟» ، كما كان يرمى خصومه بالخروج عن الإسلام فيقول : «من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه ، كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام» ، وكان يسمى المعتزله : (علماء العدل والتوحيد) ، ومن يطلع على تفسيره (الكشاف) ، وكتابه (ربيع الأبرار) يقف على الكثير من مذاهب وآراء المعتزلة .

وروى عنه أنه كان إذا قصد صاحبا له ، واستأذن عليه فى الدخول ، يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلى بالباب .

كما روى أنه أول ما ألف تفسير (الكشاف) كتب استفتاح الخطبة : «الحمدلله الذى خلق القرآن ....» ، فقيل له : متى تركته على هذه ، هجره الناس ولا يرغب أحد فيه ، فغيره بقوله : «الحمدلله الذى جعل القرآن» ، و (جعل) عندهم بمعنى (خلق) ، والموجود الآن فى النسخ : «الحمدلله الذى أنزل القرآن» . وهذا اصطلاح الناس لا اصطلاح المصنف[1] .

آثاره :

خلف الزمخشرى مصنفات كثيرة في شتى العلوم والمعارف منها :

تفسير (الكشاف) ، والفائق فى غريب الحديث ، رءوس المسائل فى الفقه ، المنهاج فى الأصول ، ضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض ، رسالة فى كلمة الشهادة ، شافى العى فى شرح كلام الإمام الشافعى .

وفى علم النحو صنف : المفصل فى النحو ، والأنموذج ، وشرح بعض مشكلات المفصل ، وشرح أبيات كتاب سيبويه ، وصميم العربية .

وفى علم العروض صنف : القسطاس فى العروض .

وفى الأدب صنف : مقدمة الأدب ، أعجب العجب فى شرح لامية العرب ، ربيع الأبرار ، أطواق الذهب ، نوابغ الكلم ، المحاجات فى الأحاجى والأغلوطات ،

(١) وفيات الأعيان : ٥/ ١٧٠ .

المستقصى فى أمثال العرب ، سوائر الأمثال ، ديوان التمثيل ، ديوان الرسائل ، شقائق النعمان فى حقائق الإنسان ، الأمالى ، الرسالة الناصحة ، رسالة فى نص العشرة ، المفرد والمؤلف ، النصائح الصغار ، النصائح الكبار ، كتاب الأمكنة والجبال والمياه ، متشابه أسامى الرواة ، مقامات الزمخشرى .

وفى المعاجم صنف : أساس البلاغة ، ومعجم الحدود .

وفى الشعر له : ديوان شعر ، وديوان التمثيل ، القصيدة البعوضية .

ولعل تفسير (الكشاف) كان أبرز مصنفاته ، وأحبها إلى نفسه ، حيث يقول مفتخرا به :

إنَّ التَّفَاسِيرَ فِى الدُّنْيَا بِلاَ عَدَدٍ   وَلَيْسَ مِنْهَا لَعَمْرِى مِثْلُ كَشَّافِى
إنْ كُنْتَ تَبْغِى الْهُدَى فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ   فَالْجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَّافُ كَالشَّافِى

وفاته :

توفى أبو القاسم الزمخشرى بجرجانية[1] خوارزم فى ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بعد رجوعه من مكة ، وقد رثاه بعضهم بأبيات منها :

فَأَرْضُ مَكَّةَ تُذْرِى الدَّمْعَ مُقْلَتُهَا   حُزْنًا لِفُرْقَةِ جَارِ اللَّهِ مَحْمُودِ[2]

وقد ذكر ابن خلكان أن بعض الفضلاء أنشده ثلاثة أبيات بمدينة حلب وقال : إن الزمخشرى أوصى أن تكتب على لوح قبره ، وقد أثبتها الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) عند تفسيره قول الله – تعالى – : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[3] ، وهى :

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهُ   فِى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ

---

(١) جرجانية : يقال لها فى لغة الفرس : كركانج ، وقد عربت فقيل لها : جرجانية ، وتقع على شاطئ نهر جيحون ، وهى قصبة خوارزم ، أى : عاصمتها .

(٢) وفيات الأعيان : ١٧٣/٥ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٦ .

وَيَرَى عُرُوضَ نِيَاطِهَا فِى نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فِى تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

وقيل : إنه أوصى بأن يثبت هذان البيتان على قبره وهما :

إِلَهِى قَدْ أَصْبَحْتُ ضَيْفَكَ فِى الثَّرى ... وَلِلضَّيْفِ حَقٌّ عِنْدَ كُلِّ كَرِيمِ
فَهَبْ لِى ذُنُوبِى فِى قِرَاىَ فَإِنَّهَا ... عَظِيمٌ وَلاَ يُقْرَى بِغَيْرِ عَظِيمِ [1]

١١ - ابن الشجرى (٠)

الشريف ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن على بن محمد بن على بن عبدالله بن حمزة بن محمد بن عبدالله أبى الحسن بن عبد الله الأمين بن عبد الله ابن الحسن بن جعفر بن الحسن بن على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – ويعرف بابن الشجرى ، وقد اختلف فى سبب هذه النسبة :

قال ياقوت الحموى : «نسب إلى بيت الشجرى من قِبَل أمه» .

وقال ابن خلكان : «هذه النسبة إلى (شجرة) ، وهى قرية من أعمال المدينة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام : و (شجرة) أيضا اسم رجل ، وقد سمَّت به العرب ومَن بعدها ، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم ، ولا أدرى إلى من ينتسب الشريف المذكور منها ، هل هو نسبة إلى القرية ، أم إلى أحد أجداده ، كان اسمه شجرة ، والله أعلم» .

وحكى الصفدى والسيوطى أنه كانت فى داره شجرة ، وليس فى البلد (البصرة) غيرها .

---

(١) وفيات الأعيان : ٥/١٧٣ .

(٠) راجع فى ترجمته : معجم الأدباء : ١٩/٢٨٢ ، إنباه الرواة : ٣/٣٥٦ ، وفيات الأعيان : ٥/٩٦ ، نزهة الألباء : ٤٠٤ ، شذرات الذهب : ٤/١٣٢ ، أعيان الشيعة : ٥١/٤٨ ، عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب: ١٨٨ ، سير أعلام النبلاء : ٢٠/١٩٤ ، بغية الوعاة : ٢/٣٢٤ ، أمالى ابن الشجرى تحقيق د/محمود محمد الطناحى .

وذكر ابن عتبة فى (عمدة الطالب) أنه منسوب إلى (شجرة) ، وهى قرية مشرفة على الوادى ، على سبعة أميال من المدينة .

ولد ابن الشجرى ببغداد فى شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة هجرية ، حيث كان والده نقيبا للطالبيين بالكرخ .

أخذ النحو واللغة عن الخطيب التبريزى ، وأبى البركات الزيدى الكوفى ، وأبى الفرج معيد بن على السلالى ؛ وأخذ التفسير عن ابن نضال المجاشعى ، والحديث عن ابن القاسم الصيرفى ؛ وأخذ الأدب والشعر عن ابن طباطبا العلوى ، وابن نبهان الكرخى .

وكانت لابن الشجرى حلقة بجامع المنصور يوم الجمعة ، يقرئ الناس فيها الأدب والنحو : فقد أخذ منه وقرأ عليه جمع من العلماء على رأسهم تاج الدين الكندى ، وأبو البركات ابن الأنبارى ، وابن زبرج العتابى ، وعبدالكريم السمعانى ، وحبشى بن شعيب الواسطى ، وابن الخشاب ، وأبو الحسن الرقى ، والثعلبى الضرير ، وأبو الحسن القرضى ، وابن الدباغ .

أخلاقه :

يقول أبو البركات الأنبارى : «كان وقورا فى مجلسه ، ذا سمت حسن ، لا يكاد يتكلم فى مجلسه بكلمة إلا وتتضمن أدب نفس أو أدب درس» .

وقال ابن النجار : «كان حسن الخلق ، رفيقا» .

إلا أنه كانت فيه حدة وعنف على من يخالفهم أو يخالفونه فى الرأى ، وآية ذلك صنيعه مع مكى بن أبى طالب ، وابن الخشاب ، وملك النحاة ؛ ومن يطلع على (الأمالى) يقف على كثير من ذلك .

اعتزاله :

علمنا من ترجمة ابن الشجرى أنه من ذرية جعفر بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب – رضى الله عنهم – أى أنه حسنى علوى – حتى إن مؤرخى

الشيعة قد عدوه من مشايخ الإمامية وأكابر علمائها ، كما تولى نقابة الطالبيين بالكرخ نيابة عن والده .

ومعلوم أن العلاقة بين التشيع والاعتزال وثيقة ، فقد ذكر كثير من الباحثين – قديما وحديثا – أن الشيعة وافقوا المعتزلة – فى كثير من أصولهم ؛ وذكروا أيضا أن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب – وهو رأس الشيعة الزيدية – قد تتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء – رأس المعتزلة – واقتبس منه علم الأصول[1] .

ورغم أن المترجمين لحياة ابن الشجرى لم يصرحوا باعتزاله ، فإن المتصفح لكتابه (الأمالى) يقف على بعض من مصطلحات المعتزلة وأفكارهم قد وردت على لسان ابن الشجرى نفسه .

ففى رده على ملك النحاة[2] نجده يستخدم مصطلح (المنزلة بين المنزلتين) وهو من مبادئ المعتزلة الخمسة المشهورة[3] .

وقوله أيضا : «والمقتصد فى اللغة : اللازم للقصد ، وهو ترك الميل ، ومنه قول جابر بن حُنَى التغلبى :

نُعَاطِى الملوكَ السِّلْمَ إنْ قَصَدُوا لَنَا ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

أى : نعطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد ، أى : ما لم يجوروا ، وليس قتلهم بمحرم علينا إن جاروا : فلذلك كان المقتصد له منزلة بين المنزلتين ، فهو فوق الظالم لنفسه ، ودون السابق للخيرات»[4] .

---

(١) أمالى ابن الشجرى : ١/ ٣٠ .

(٢) ملك النحاة : أبو نزار الحسن بن صافى بن عبدالله بن نزار بن أبى الحسن ، ولد ببغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، قرأ النحو على أبى الحسن الفصيحى ، والحديث على الشريف الشريينى ، وأصول الدين على أبى عبدالله القيروانى ، وأصول الفقه على أبى الفتح بن برهان ، والفقه الشافعى على أحمد الأشنهى . توفى سنة ثمان وستين وخمسمائة بدمشق .

(٣) أمالى ابن الشجرى : المجلس الثامن والخمسون .

(٤) أمالى ابن الشجرى : ١/ ١٠٠ المجلس العاشر .

ومنه أيضا قوله فى تأويله قول الله – تعالى – : ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [1] : «ومعنى أغفلنا قلبه : وجدناه غافلا ، كقولك : لقيت فلانا فأحمدته ، أى وجدته محمودا» [2] .

وقد علق عليه ابن هشام بقوله : «هذه المقالة – أعنى كون (أغفلنا) بمعنى : وجدناه غافلا ، تقدمه إليها ابن جنى ، نص عليها فى (المحتسب) وغيره ، وحامله عليها الاعتزال» [3] . وذلك لأن من قواعد المعتزلة المشهورة : أن الله لا يخلق فعل الضلال أو المعصية ، وإنما ذلك من فعل العبد .

... مع مكى بن أبى طالب القيسى :

كان مكى بن أبى طالب ينتقص من المعتزلة ، ويتهجم عليهم فى كتابه (مشكل إعراب القرآن) ، فأغرى ذلك ابن الشجرى به ، ودفعه إلى الانتقاص منه ، والطعن عليه ، حيث قال :

«... ولمكى فى تأليفه (مشكل إعراب القرآن) زلات ، سأذكر فيما بعد طرفا منها إن شاء الله» [4] .

وقد أفرد ابن الشجرى لهذه الزلات المجلس الثمانين ، وبعضا من الحادى والثمانين ، بدأ بذكر أغلاط مكى فى سورة البقرة ، وانتهى بسورة مريم ، ثم قال فى آخر كلامه :

«هذه جملة ما علقت به من هذه الأغاليط ، لئلا يغتر بها مقصِّر فى هذا العلم ، فيعول عليها ويعمل بها» .

---

(١) سورة الكهف : من الآية ٢٨ .
(٢) الأمالى : المجلس الثانى والعشرون .
(٣) المصدر السابق : حاشية بهامش الأصل .
(٤) الأمالى : المجلس الثامن والسبعون .

... مع ابن الخشاب :

كان ابن الخشاب من بين تلاميذ ابن الشجرى ، ولما فرغ ابن الشجرى من إملاء أماليه ، قصد إليه ابن الخشاب ، والتمس منه سماعه عليه ، فرفض ابن الشجرى ، ولم يجبه إلى طلبه ، فعاداه ابن الخشاب ، ورد عليه فى مواضع من الكتاب ، ونسبه فيها إلى الخطأ ، فوقف ابن الشجرى على ذلك الرد ، فرد عليه فى رده ، وبين له وجوه غلطه ، وجمعه فى كتاب سماه (الانتصار) ، وهو على صغر حجمه مفيد جدا ، وقرأه على الناس[1] .

وإليك شيئا من رد ابن الشجرى على ابن الخشاب ، وكان اعترض عليه فى إعراب بيت لابن ميادة حيث يقول :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ إِلَى أُمِّ مَعْمَرٍ سَبِيلٌ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلاَ صَبْرا

فقال ابن الشجرى : «واعترض بيت ابن ميادة – وقد كنت ذكرته فيما تقدم من الأمالى – جويهل ، فزعم أن قافيته مرفوعة ، وإنما صغرته بقولى : جويهل ، لأنه شويب استولى الجهل عليه ، فعدا طوره ، وجاوز حده ، مع حقارة علمه ، ورداءة فهمه ؛ وهذا البيت من مقطوعة منصوبة القوافى»[2] .

... مع ملك النحاة :

سئل ملك النحاة عن الضمة فى اللام من قولهم : يا أيها الرجلُ ، أهى ضم إعراب ؟ فأفتى بأنها ضمة بناء وليست ضمة إعراب ؛ إلا أن ابن الشجرى رد هذه الفتوى بقوله :

«ذكر مسائل استفتيت فيها ، بعدما استفتى المكنى بأبى نزار ، فجاء بخلاف ما عليه أئمة النحويين أجمعين ، وكذلك خالف العرب قاطبة فى كلمة أجمعوا عليها ... إن ضمة اللام فى قولنا : يا أيها الرجلُ ضمة إعراب ، لأن ضمة

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/٤٥ .

(٢) أمالى ابن الشجرى : ٣/١٣٣ (المجلس الثامن والسبعون) .

المنادى المفرد المعرفة لها باطرادها منزلة بين منزلتين ... وقد شافهنى هذا المتعدى طوره بهذا الهراء الذى ابتدعه ، والهراء الذى اختلقه واخترعه ، فقلت له: إن ضمة المنادى لها منزلة بين منزلتين ، فقال منكرا لذلك : وما معنى المنزلة بين المنزلتين ؟ فجهل معنى هذا القول ، ولم يحس بأن هذا الوصف يتناول أشياء كثيرة من العربية ...»[1] .

آثاره :

خلف ابن الشجرى مصنفات نافعة فى النحو والصرف واللغة والأدب منها : الأمالى ، والانتصار ، والحماسة ، وشرح التصريف الملوكى لابن جنى ، وشرح اللمع ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، ومختارات أشعار العرب ، وشرح لامية العرب للشنفرى ، والرد على الدباس .

أقوال العلماء فيه :

أفاضت كتب التراجم فى الثناء على ابن الشجرى ، ووصفه بالجلال ، وغزارة العلم ، فهذا تلميذه أبو البركات ابن الأنبارى يقول فيه : «كان فريد عصره ، ووحيد دهره فى علم النحو ، وكان تام المعرفة باللغة ، وكان فصيحا ، حلو الكلام ، حسن البيان والإفهام ... وكان أنحى فى رأينا من علماء العربية ، وآخر من شاهدنا من حذاقهم وأكابرهم» .

ثم يحكى موقفا لابن الشجرى مع جارالله الزمخشرى يدل على تقديره البالغ للعلماء وتقدير العلماء له بقوله :

«قدم الزمخشرى إلى بغداد فى طريق الحج ، فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجرى مهنئا له بقدومه ، فلما جالسه ، أنشده الشريف فقال :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِى ... عَنْ أَحْمَدَ بْنِ دُوَادٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلاَ وَاللَّهِ مَا سَمِعت ... أُذْنِى بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَىْ بَصَرِى

(١) أمالى ابن الشجرى : ٢/٣٦٣ (المجلس الثامن والخمسون) .

وأنشده أيضا :

وَأَسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ   فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَدَّقَ الْخَبَرَ الخُبْرُ

وأثنى عليه ، ولم ينطق الزمخشرى حتى فرغ الشريف من كلامه ، فلما فرغ ، شكر الشريف وَعظَّمه وتصاغر له وقال : إن زيد الخيل دخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فحين بَصُر بالنبى رفع صوته بالشهادة ، فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – : «يا زيد الخيل ، كل رجل وصف لى ، وجدته دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وُصِفت» ، وكذلك أنت أيها الشريف ، ودعا له وأثنى عليه» . قال ابن الأنبارى : «فتعجب الحاضرون من كلامهما ، لأن الخبر أليق بالشريف ، والشعر أليق بالزمخشرى»[1] .

ويقول ياقوت الحموى : «كان أوحد زمانه ، وفرد أوانه فى علم العربية ، ومعرفة اللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها ، متضلعا فى الأدب ، كامل الفضل ، ... وأقرأ النحو سبعين سنة»[2] .

ويقول ابن النجار : «ابن الشجرى شيخ وقته فى معرفة النحو ، درس الأدب طول عمره ، وكثر تلاميذه ، وطال عمره»[3] .

وقال الذهبى : «أحد الأئمة الأعلام فى علم اللسان ، وطال عمره ، وانتهى إليه علم النحو ، ومُتِّع بحواسه وجوارحه»[4] .

وفاته :

توفى ابن الشجرى يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ببغداد ، وكان يتولى منصب نقيب الطالبيين بالكرخ نيابة عن والده ، وقد انقرض عَقِبه ، فلم يبق له نسل ؛ وقد دفن من الغد فى داره

---

(١) نزهة الألباء : ٤٠٤.

(٢) معجم الأدباء : ١٩/١٣٩.

(٣) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ٢٥٠ .

(٤) سير أعلام النبلاء : ٢٠/١٩٧.

بالكرخ ، وأم الناس فى الصلاة عليه أبو الحسن على بن الحسين الغزنوى الواعظ ، رحمه الله رحمة واسعة[1] .

١٢ - ابن الخشاب (*):

أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عبدالله بن نصر بن الخشاب . ولد فى بغداد سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة هجرية .

أخذ النحو عن أبى منصور الجواليقى ، وابن الشجرى وغيرهما ؛ وأخذ الحديث عن أبى القاسم السمرقندى ، وأبى العز بن كادش ، وأبى شجاع البسطامى ، وأبى الغنايم الترسى ، وغيرهم ؛ وأخذ الحساب والهندسة عن أبى بكر ابن عبدالباقى الأنصارى ، وأخذ الفرائض عن أبى بكر المرزوقى ؛ وأخذ الأدب عن أبى الدباس ، وأبى بكر القطان وغيرهما .

وسمع منه خلق كثير منهم : أبو سعد السمعانى ، وأبو أحمد بن سكينة ، وأبو محمد ابن الأخضر ، وغيرهم ؛ وكانت له حلقة تدريس ؛ وعمل مؤدبا لأولاد الخليفة المستضىء بالله ؛ وكانت له إلى جانب ذلك وظيفة فى بعض الأماكن فى بغداد .

عقيدته :

كان ابن الخشاب سُنِّيا ، شديد التعصب فى عقيدته لأهل السنة ، منتصرا لمذهب الإمام أحمد بن حنبل ، مصرحا ببراهينه وحججه على ذلك ، وكان صدوقا ، حجة فى روايته ؛ وهو من المعدودين فى طبقات الحنابلة الذين يتشددون فى الدين ، وكان يوصف بأنه (حجة الإسلام)[2] .

---

(١) وفيات الأعيان : ٥/٩٩ .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ٢/١٠٠ ، معجم الأدباء : ١٢/٥١ ، خريدة القصر : ١/٨١ ، وفيات الأعيان : ٣/١٥٢ ، سير أعلام النبلاء : ١٢/٢٧٠ ، طبقات ابن قاضى شهبة : ٢/١٩ ، الذيل على طبقات الحنابلة : ١/٣١٦ ، بغية الوعاة : ٢/٢٩ .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة : ١/ ٣١٦ .

ويؤثر عنه أنه كان مستهينا بالبدع ، فقد قالت له أمه : يا بنى ، ما أراك تصلى صلاة الرغائب على عادة الناس ، فقال لها : يا أمى ، أنا أوثر من الصلوات ماورد عن النبى (ﷺ) وأصحابه ، وهذه الصلاة لم ترد عن رسول الله (ﷺ) ولا عن أحد من أصحابه[1] .

أخلاقه :

كان ابن الخشاب بخيلا ، مبتذلاً فى ملبسه وعيشه ، قليل المبالاة بحفظ قاموس العلم ، يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ، ويقف فى الشوارع على حلق المشعبذين واللاعبين بالقرود والدباب ، حتى كان ذلك مما يلام عليه ، أو يهدده فى عيشه ورزقه .

فقد روى أنه كان يخرج من دار الخليفة المستضىء بالله وقت العصر ، بعد أن يؤدب أولاده ، فيقف على حلق المشعبذين ويلعب الشطرنج ، فقيل للخليفة : ينبغى أن يصان عن مثل هذا ، فأرسل إليه ونهاه ، فقال ابن الخشاب : هذه الأماكن لا تخلو من فائدة ؛ ولا أنا من يدخل تحت حجر ، فإن رضيتم وإلا فقد أقالكم الله ، إنى ما خطبت منكم هذا ، أنتم خطبتمونى ، فقال الخليفة : دعوه على حاله[2] .

وكان ابن الخشاب ضيق الصدر ضجورا ، يسأم إن طال عمله فى مجرى واحد ، ويمل من الرتابة إذا استمر على حال واحدة ، فما صنف كتابا وأكمله ، فقد شرح جمل الجرجانى ، وترك أبوابا من وسطه ما تكلم عليها ؛ وقرئ عليه المصنف ، وكتب عليه وهو على هذه الصورة غير معتذر من ذلك بعذر ؛ وشرح مقدمة الوزير ابن هبيرة فى النحو ، ووصل منها إلى باب (النونين : الثقيلة والخفيفة) ، ومزقها قبل أن يتم شرحها ؛ وعمل فى شرح (اللمع) لابن جنى مثل

---

(١) المصدر السابق : ٣١٨/١ .

(٢) طبقات ابن قاضى شهبة : ١٩/٢ .

ذلك ؛ وهذا الضجر هو الذى جعل كلامه أحلى من قلمه وأجود ؛ وكان يجيد إذا خلا من الضجر والضيق[1] .

وكان لابن الخشاب ولع شديد باقتناء الكتب ، فقد ذكر ابن النجار[2] أنه لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث إلا كان يشترى كتبه كلها ؛ وقد اشترى يوما كتبا بخمسمائة دينار ، ولم يكن عنده شىء ، فاستمهل البائع ثلاثة أيام حتى مضى ونادى على داره ، فبلغت خمسمائة دينار ، فباعها وقبض ثمنها ، ووفى ثمن الكتب[3] .

وقد أخذت على ابن الخشاب تصرفات منكرة بسبب هذا الولع ، منها أنه كان إذا استعار من أحد كتابا ، وطالبه به قال : دخل بين الكتب فلا أقدر عليه ؛ ومنها أنه كان إذا أراد شراء كتاب ، غافل صاحبه وقطع ورقه ، وقال له : إنه مقطوع ، ليأخذه بثمن بخس[4] .

وكان لايختار صحبة رؤساء زمانه ، ووزراء وقته ، على الرغم من أنهم كانوا يودون مجالسته ، ويتمنون محاضراته ؛ ولعل مرد ذلك إلى أنه كان يضيق بما فى صحبة هؤلاء من تزاحم وتجاسد ونفاق ومجاملات وتضييق حرية .

فقد روى ابن البارد قال :

«كنت يوما بين يدى المستضىء فقال لى : كل من نعرف قد ذكرنا ، ووصل إليه برنا إلا ابن الخشاب فأخبره ، فاعتذرت عنه بعدم اقتضاء الحال ، ثم خرجت فعرفت ابن الخشاب ذلك فكتب هذين البيتين :

وَرَدَ الْورَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَارْتَوَوْا ... فَوَقَفْتُ دُونَ الْورْدِ وَقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَالْوِرْدُ لاَيَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

(١) إنباه الرواة : ٢/١٠١ .
(٢) أبو عبدالله محب الدين محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن بن النجار ، مؤرخ ، حافظ للحديث ، ولد ببغداد سنة ٥٧٨، وتوفى بها سنة ٦٤٣ هجرية . (فوات الوفيات : ٢/٢٦٤) .
(٣) معجم الأدباء : ١٢/٥١ .
(٤) المصدر السابق .

قال ابن البارد : فأخذتهما منه ، فعرضتهما على المستضيء ، فأرسل إليه مائتي دينار وقال : لو زادنا لزدناه»[1] .

وكان ابن الخشاب مرحا ، ذا نوادر وملح ، يميل إلى المزاح واللعب : فقد سأله شخص – وعنده جماعة من الحنابلة – : أعندك كتاب الجبال ؟ فقال : يا أبله ، أما تراهم حولى !.

وسأله بعض أصحابه يوما فقال : (القفا) يمد أو يقصر ؟ فقال : يمد ثم يقصر[2] .

وقرأ عليه بعض المعلمين قول الحجاج :

أَطَرَباً وَأَنتَ قِنَّسرِىُّ

وَإِنَّمَا يَأتِى الصِّبَا الصَّبِىُّ

فقال : (وإنما يأتى الصِّبِى الصَّبِىُّ) ، فقال ابن الخشاب : هذا عندك فى المكتب ، أما عندنا فلا : فاستحى المعلم وقام[3] .

وكان ابن الخشاب إذا وضع العمامة على رأسه ، تركها كيفما اتفق ، فتجىء عذبتها تارة من تلقاء وجهه ، وتارة عن يمينه ، وتارة عن شماله ، فلا يغيرها : فإذا قيل له فى ذلك ، يقول : «ما استوت العمامة على رأس عاقل قط» .

وكان غير مبال بحياته الخاصة ، مبتذلا فى عيشه وملبسه ، غير مكترث بأعراف المجتمع ، وما تواضع عليه من هيبة العالم ووقاره ؛ فقد كانت له صفة منفردة فى دار كبيرة ورثها هو وغيره عن أبيه ، وكان بها حصير من قصب مفروشة ، وفى صدرها ألواح من الخشب مرصوص عليها كتب له ، أقامت عدة سنين ما أزيل عنها الغبار ، وكان هذا الحصير قد استتر بما عليه من التراب ، وهو

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة : ١/ ٣٢٠ .
(٢) بغية الوعاة : ٢/ ٣٠ .
(٣) بغية الوعاة : ٢/ ٣١ .

يقعد فى جانب منها والباقى على تلك الحال ، وقيل إن الطيور قد عششت فوق الكتب وفى أثنائها .

وروى أنه كان يتعمم بالعمامة ، فتبقى مدة على حالها حتى تسود مما يلى رأسه ، وتنقطع من الوسخ ، وترمى عليها الطيور ذرقها ، وقيل : كان وسخ الثياب ، قذرا فى ملبسه ومأكله ، يترك العمامة على رأسه أشهرا حتى تتسخ أطرافها من عرقه ، فتسود وتنقطع ، ولم يتزوج ولم يتسر[1] .

آثاره :

خلف ابن الخشاب مصنفات نافعة فى النحو واللغة والأدب ، وإن كان معظمها يوصف بعدم الاكتمال – كما تقدم – منها :

١ – المرتجل . وهو شرح الجمل للجرجانى .

٢ – شرح اللمع لابن جنى .

٣ – شرح مقدمة ابن هبيرة فى النحو .

٤ – الرد على ابن بابشاذ فى كتابه (شرح جمل الزجاجى) .

٥ – الرد على الخطيب التبريزى فى (تهذيب إصلاح المنطق) .

٦ – حاشية على درة الغواص للحريرى .

٧ – الرد على ابن الشجرى فى أماليه .

٨ – أغلاط الحريرى فى مقاماته .

٩ – القصيدة البديعة الجامعة لأشتات الفضائل والرموز العلمية .

١٠ – جواب المسائل الإسكندرانية فى الاشتقاق .

١١ – اللمع فى الكلام على لفظة (آمين) .

---

(١) معجم الأدباء : ١٢/ ٥١ .

أقوال العلماء فيه :

عن ابن الخشاب يقول ابن خلكان : «العالم المشهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث والفرائض والنسب والحساب ، وحفظ الكتاب العزيز بالقراءات الكثيرة ، وكان متضلعا فى العلوم ، وله فيها اليد الطولى ، وكان خطه فى نهاية الحسن»[1] .

وعنه يقول القفطى : «كان أعلم أهل زمانه بالنحو ، حتى قيل : إنه كان فى درجة الفارسى ، وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يد حسنة»[2] .

وقال عنه ابن العماد الأصفهانى : «شيخنا فى علم الأدب ، أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب ، وكان كثير الإفادة ، غزير الإجادة»[3] .

وقال الشيخ فخرالدين ابن تيمية عنه : «كنت أكثر التردد على مجلس شيخنا العلامة أبى محمد بن الخشاب لتحصيل فنى النحو واللغة ؛ وما بلغ أحد من أبناء عصره فيها ما بلغه»[4] .

ويقول عنه ياقوت الحموى : «رأيت قوما من نحاة بغداد يفضلونه على أبى على الفارسى»[5] .

وقال ابن الجزرى : «انتهت إليه معرفة النحو واللغة»[6] .

شعره :

روى لابن الخشاب شىء من الشعر يلتحق بشعر العلماء ، كقوله فى الشمعة :

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/١٠٢ .
(٢) إنباه الرواة : ٢/١٠٢ .
(٣) خريدة القصر : ١/٨١ .
(٤) الذيل على طبقات الحنابلة : ١/٣١٧ .
(٥) معجم الأدباء : ١٢/٥٠ .
(٦) الذيل على طبقات الحنابلة : ١/٣١٧ .

صَغْرَاءُ لاَ مِنْ سَقَمٍ مَسَّهَا ... كَيْفَ وَكَانَتْ أُمُّهَا الشَّافِيَهْ
عُرْيَانَةٌ بَاطِنُهَا مُكْتَسٍ ... فَاعْجَبْ لَهَا كَاسِيَةٌ عَارِيَهْ

وقوله ملغزا فى كتاب :

وَذِى أَوْجُهٍ ، لَكِنَّهُ غَيْرُ بَائِحٍ ... بِسِرٍّ وَذو الوَجْهَيْنِ لِلسِّرِّ مُظْهِرُ
تُنَاجِيكَ بالأَسْرَارِ أَسْرَارُ وَجْهِهِ ... فَتَفْهَمُهَا ما دُمْتَ بِالْعَيْنِ تَنْظُرُ [1]

وفاته :

قال ابن الجوزى :«مرض ابن الخشاب نحوا من عشرين يوما ، فدخلت عليه قبل موته بيومين ، وقد يئس من نفسه ، فقال لى : عندالله أحتسب نفسى» .

وقال ابن الأخضر : «عدناه فى مرضه ، فوجدناه بأسوأ حال ، فنقله القاضى أبو القاسم ابن الفراء إلى داره ، وألبسه ثوبا نظيفا ، وأحضر الأشربة والماورد ؛ فأشهدنا بوقف كتبه ، فتفرقت ، وباع أكثرها أولاد العطار» .

وقد لبى ابن الخشاب نداء ربه عشية يوم الجمعة ثالث رمضان سنة سبع وستين وخمسمائة بدار أبى القاسم بن الفراء بباب الأزج ببغداد ، ودفن بمقبرة أحمد بباب حرب ، وصلى عليه بجامع السلطان يوم السبت ، وتقدم فى الصلاة عليه أبو النجم ابن القابلة[2] .

قال ابن العماد الأصفهانى : «لما كنت بالشام ، رأيته ليلة فى المنام كأنى أقول له : ما فعل الله بك ؟ فقال : خيرا ، فقلت : وهل يرحم الله الأدباء ؟ قال : نعم ، قلت : وإن كانوا مقصرين ؟ قال : يجرى عتاب كثير ، ثم يكون النعيم»[3] .

---

(١) إنباه الرواة : ٢/١٠١ .
(٢) سير أعلام النبلاء : ١٢/٢٧٠ .
(٣) وفيات الأعيان : ٣/١٠٣ .

١٢ - ابن الدهان (*) :

أبو محمد ناصح الدين سعيد بن المبارك بن على بن عبدالله بن سعيد بن محمد بن نصر بن عاصم بن رجاء بن أبى بن شبل بن أبى اليسر كعب الأنصارى - رضى الله عنه - المعروف بابن الدهان .

ولد بنهر طابق ، وهى محلة فى بغداد عشية يوم الخميس سادس وعشرين رجب سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

أخذ النحو واللغة والأدب عن علماء عصره المشهورين ، وأخذ الحديث عن أبى القاسم هبة الله ابن الحصين ، وعن أبى غالب أحمد بن الحسن بن البناء وغيرهما : برع فى العلم ، وذاع صيته حتى عُدَّ من أعلام بغداد المعروفين ، وكان يقال حينئذ : النحويون ببغداد أربعة : ابن الجواليقى ، وابن الشجرى ، وابن الخشاب ، وابن برهان .

وقال ابن خلكان : «كان فى زمن أبى محمد ببغداد من النحاة : ابن الجواليقى ، وابن الخشاب ، وابن الشجرى ؛ وكان الناس يرجحون أبا محمد على الجماعة المذكورين ، مع أن كل واحد منهم إمام» .

خرج ابن الدهان من بغداد قاصدا دمشق ، فاعترضه فى الطريق بالموصل وزيرها جمال الدين الأصفهانى ، وتلقاه بالإقبال ، وأحسن إليه ، وقيده بإحسانه ، فأقام فى كنفه حتى توفاه الله .

وتخرج عليه ، وانتفع به خلق كثير ، وكان قد كف بصره فى نهاية عمره ، قال ابن خلكان : «وقد رأيت الخلق يشتغلون فى تصانيفه بالموصل وتلك الديار اشتغالا كبيرا» .

(*) انظر فى ترجمته : إنباه الرواة : ٤٧/٢، ومعجم الأدباء : ٢١٩/١١ ، ووفيات الأعيان : ٣٨٢/٢ ، والنجوم الزاهرة : ٢٧٢/٦ ، ونكت الهميان : ١٥٨ ، وبغية الوعاة : ٥١٧/١ .

آثاره :

خلف ابن الدهان تصانيف مفيدة فى النحو واللغة والأدب منها :

١ – شرح الإيضاح والتكملة لأبى على الفارسى .

٢ – شرح الفصول الكبرى لابن معط .

٣ – شرح الفصول الصغرى لابن معط .

٤ – شرح اللمع لابن جنى .

٥ – كتاب الدروس فى النحو .

٦ – الغنية فى الضاد والظاء .

٧ – الغنية فى الأضداد .

٨ – إزالة المراء فى الغين والراء .

٩ – المقصود فى المقصور والممدود .

١٠ – كتاب العروض .

١١ – التذكرة . (واسمه : زهر الرياض) .

١٢ – الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية . (وتشتمل على سرقات المتنبى) .

١٣ – الرياضة فى النكت النحوية .

١٤ – المختصر فى القوافى .

١٥ – تفسير القرآن .

١٦ – النكت والإشارات على ألسنة الحيوانات .

١٧ – تفسير سورة الفاتحة .

١٨ – تفسير سورة الإخلاص .

١٩ – ديوان شعر .

وكان ابن الدهان قد خلف كتبه وتصانيفه هذه ببغداد عند رحيله إلى الموصل ، فاستولى الغرق على البلد تلك السنة ، فسير من يحضرها إليه إن كانت سالمة ، فوجدها قد غرقت ، وكان خلف داره مدبغة جلود ، فغرقت أيضا ، وفاض الماء منها إلى داره ، فتلفت الكتب بهذا السبب زيادة على إتلاف الغرق ، وكان قد أفنى فى تحصيلها عمره ؛ فلما حملت إليه على تلك الصورة ، أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ، ويصلح منها ما أمكن ، فبخرها باللاذن ، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذنا ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى ، وكف بصره .

شعره :

روى أنه كان لابن الدهان ديوان شعر مجموع ، فمن شعره :

لاَ تَجْعَلِ الْهَزْلَ دَأباً فَهْوَ مَنْقَصَةٌ ... وَالجَدُّ تَعْلُو بِهِ بَيْنَ الْوَرَى الْقِيَمُ

وَلاَ يَغُرَّنكَ مِنْ مَلِكٍ تَبَسُّمُهُ ... مَا تَصْخَبُ السُّحْبُ إلاَّ حِينَ تَبْتَسِمُ

ومنه أيضا :

وَعَهْدِى بِالصِّبَا زَمَنًا وقَدِّى ... حَكَى أَلِفَ ابْنِ مُقْلَةَ فِى الكِتَابِ

فَصِرْتُ الآنَ مُنْحَنِيًا كَأَنِّى ... أُفَتِّشُ فِى التُّرَابِ عَلَى شَبَابِى

وفاته :

توفى ابن الدهان بالموصل يوم الأحد غرة شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة المعانى بن عمران بباب الميدان - عليه رحمة الله - .

١٤ - الأنبارى (*) :

أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن ابن أبى الوفاء محمد بن عبدالله بن محمد بن عبيدالله بن أبى سعيد محمد بن الحسن بن سليمان الأنبارى .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ٢/١٦٩ ، وفيات الأعيان : ٣/١٣٩، بغية الوعاة : ٢/٨٦ .

ولد بالأنبار[1] فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة هجرية .

أخذ العلم عن أبيه فى الأنبار ، ثم نزح إلى بغداد ، فأخذ الفقه عن سعيد بن الرزاز ، ثم أخذ النحو عن ابن الشجرى ، والأدب عن ابن الجواليقى ، ودرس بالمدرسة النظامية ، فأظهر تفوقا ، فعين معيدا بها .

برع فى علم النحو ، وصار من المشار إليهم فيه ، كما تبحر فى الأدب ، واشتغل عليه خلق كثير ، وتخرج به جماعة صاروا جميعا علماء ، حتى قيل إن سبب تسميته (أبو البركات) أنه كان مباركا ، ما قرأ عليه أحد إلا وتميز .

آثاره :

خلف أبو البركات بعد وفاته مؤلفات مشهورة ، ومصنفات معتبرة ، أفاد منها القاصى والدانى ، مازالت مناط الإفادة حتى يومنا هذا ، حيث يعكف الباحثون والدارسون عليها للاستعانة بها فيما يبحثون ويدرسون ، نذكر منها .

١ – الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين .

٢ – الإغراب فى جدل الإعراب .

٣ – لمع الأدلة فى النحو .

٤ – نزهة الألباء فى طبقات الأدباء .

٥ – أسرار العربية .

٦ – ميزان العربية .

٧ – حلية العربية .

٨ – غريب إعراب القرآن .

---

(١) الأنبار : بلدة قديمة على نهر الفرات ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، وقد سميت (الأنبار) لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابير الحبوب ، والأنابير : جمع أنبار ، التى هى جمع (نبر) وهو ما يعرف اليوم بالصومعة التى تخزن فيها الحبوب .

٩ - الوجيز فى التصريف .

١٠ - الزهرة فى اللغة .

١١ - حلبة العقود فى المقصور والممدود .

١٢ - ديوان اللغة .

١٣ - زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء .

١٤ - البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث .

١٥ - فعلت وأفعلت .

١٦ - البلغة فى أساليب اللغة .

١٧ - قبسة الطالب فى شرح خطبة (أدب الكاتب) .

١٨ - شرح ديوان المتنبى .

١٩ - شرح الحماسة .

٢٠ - شرح مقصورة ابن دريد .

٢١ - المقبوض فى العروض ، وشرحه .

٢٢ - الموجز فى القوافى .

٢٣ - شرح السبع الطوال .

٢٤ - اللمعة فى صنعة الشعر .

٢٥ - البيان فى جمع (أفعل) أخف الأوزان .

٢٦ - المرتجل فى إبطال تعريف الجمل .

٢٧ - كتاب الألف واللام .

٢٨ - كتاب فى (يعفون) .

٢٩ – شفاء السائل فى بيان رتبة الفاعل .

٣٠ – عقود الإعراب .

٣١ – كتاب (كلا وكلتا) .

٣٢ – كتاب (كيف) .

٣٣ – الأضداد .

٣٤ – النوادر .

٣٥ – مسألة دخول الشرط على الشرط .

٣٦ – تاريخ الأنبار .

٣٧ – اللباب المختصر .

٣٨ – منثور العقود فى تجريد الحدود .

٣٩ – التنقيح فى مسلك الترجيح .

٤٠ – جلاء الأوهام وجلاء الأفهام فى متعلق الظرف فى قوله – تعالى – : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ .

٤١ – مقترح السائل فى (ويل أمه) .

٤٢ – الأسمى فى شرح الأسما .

٤٣ – كتاب (حيص بيص) .

٤٤ – الألفاظ الجارية على لسان الجارية .

٤٥ – قبسة الأديب فى أسماء الذيب .

٤٦ – الفائق فى أسماء المائق .

٤٧ – تفسير غريب مقامات الحريرى .

٤٨ – الجوهرة فى نسب النبى (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه العشرة .

٤٩ – نكت المجالس فى الوعظ .

٥٠ – أصول الفصول فى التصريف .

٥١ – التفريد فى كلمة التوحيد .

٥٢ – نقد الوقت .

٥٣ – بغية الوارد .

٥٤ – نسمة العبير فى التعبير .

٥٥ – حواشى الإيضاح لأبى على الفارسى .

٥٦ – تصرفات (لو) .

٥٧ – هداية الذاهب فى معرفة المذاهب .

٥٨ – بداية الهداية .

٥٩ – الداعى إلى الإسلام فى علم الكلام .

٦٠ – النور اللائح فى اعتقاد السلف الصالح .

٦١ – الجمل فى علم الجدل .

٦٢ – الاختصار فى الكلام على ألفاظ تدور بين النظار .

٦٣ – نجدة السؤال فى عمدة السؤال .

٦٤ – مفتاح المذاكرة .

٦٥ – رتبة الإنسانية فى المسائل الخرسانية[١] .

---

١) بغية الوعاة : ٨٧/٢ .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «كان من الأئمة المشار إليهم فى علم النحو... انقطع فى آخر عمره فى بيته مشتغلا بالعلم والعبادة ، وترك الدنيا ومجالسة أهلها ، ولم يزل على سيرة حميدة»[1] .

وقال عنه السيوطى : «كان إماما صادقا صدوقا ، فقيها مناظرا ، غزير العلم ، ورعا زاهدا عابدا ، نقيا عفيفا ، لا يقبل من أحد شيئا ، خشن العيش والملبس ، ولم يتلبس من الدنيا بشىء»[2] .

شعره :

لم يؤثر عن الأنبارى أنه كان يقرض الشعر ، ولكن السيوطى أورد له ثلاثة أبيات هى :

إِذَا ذَكَرْتُكِ كَادَ الشَّوْقُ يَقْتُلُنِى ... وَأَرَّقَتْنِىَ أَحْزَانٌ وَأَوجَاعُ

وَصَارَ كُلِّى قُلُوبًا فِيكِ دَامِيَةً ... لِلسُّقْمِ فِيهَا وَلِلآلاَمِ إِسْرَاعُ

فَإِنْ نَطَقْتُ فَكُلِّى فِيكِ أَلْسِنَةٌ ... وَإِنْ سَمِعْتُ فَكُلِّى فِيكِ أَسْمَاعُ[3]

وفاته :

توفى أبو البركات ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبى إسحق الشيرازى - عليه رحمة الله -[4] .

١٥ - المطرزى (*) :

صدر الأفاضل أبو الفتح ناصر بن أبى المكارم عبدالسيد بن على المعروف بالمطرزى .

---

(١) وفيات الأعيان : ١٤١/٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٨٨/٢ .

(٣) بغية الوعاة : ٨٧/٢ .

(٤) وفيات الأعيان : ١٣٩/٣ .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ٣٣٨/٣ ، وفيات الأعيان : ٣٦٩/٥ ، بغية الوعاة : ٣١١/٢ ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٠٨ .

قال ابن خلكان : «هذه النسبة إلى من يطرز الثياب ويرممها ، ولا أعلم هل كان يتعاطى ذلك بنفسه أم كان فى آبائه من يتعاطى ذلك ، فنسب إليه» .

ولكن يبدو أن جده الأعلى لأبيه كان يتعاطى ذلك ، لأن السيوطى زاد فى نسبه (ابن المطرز) ، فلعله نسب إليه .

ولد أبو الفتح فى شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة بخوارزم ، فأطلق عليه (خليفة الزمخشرى) ، لأن الزمخشرى توفى فى تلك السنة التى ولد فيها أبو الفتح بتلك البلدة .

قرأ صدر الأفاضل بخوارزم على أبيه ، وعلى أبى المؤيد الموفق بن أحمد المكى خطيب خوارزم وغيرهما ؛ وسمع الحديث من أبى عبدالله محمد بن أبى سعد التاجر وغيره ، وكان فقيها للحنفية كالأزهرى للشافعية .

دخل المطرزى بغداد وهو فى طريقه للحج سنة إحدى وستمائة ، وكان معتزلى الاعتقاد ، رأسا فيه ، وداعيا إليه ، وجرى له هناك مباحث مع جماعة من الفقهاء .

آثاره :

صنف المطرزى عددا من المصنفات النافعة فى النحو واللغة والأدب منها :

١ – المصباح فى النحو .

٢ – المقدمة المطرزية .

٣ – الإقناع فى اللغة .

٤ – مختصر الإقناع فى اللغة .

٥ – مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت .

٦ – المغرب . تكلم فيه عن الألفاظ التى تجرى على ألسنة الفقهاء من الغريب .

٧ – المُغرِب فى شرح المُغرِب .

٨ – شرح مقامات الحريرى[١] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وكان تام المعرفة بفنه ، وكان فى الفقه فاضلا ، فصيحا ، وانتفع الناس به وبكتبه ، وأخذ أهل الأدب عنه ، وكان سائر الذكر ، مشهور السمعة ، بعيد الصيت»[٢] .

وقال السيوطى : «برع فى النحو واللغة والفقه ، وكان يقال له : خليفة الزمخشرى»[٣] .

شعره :

للمطرزى شعر كثير ، ولكن تبدو فيه الصناعة اللفظية ، حيث كان مغرما باستعمال التجانيس ، فمن شعره :

وَإِنِّى لأَسْتَحْيِى مِنَ الْمَجْدِ أَنْ أُرَى ... حَلِيفَ غَوَانٍ أَوْ أَلِيفَ أَغَانِى

ومنه أيضا :

وَزَنْدِ نَدِىٌّ فَوَاضِلُهُ وَرِىٌّ ... وَزَنْدِ رُبَى خَوَاضِلُهُ نَضِيرُ

ودُرُّ خِلاَلِهِ أَبَداً ثَمِينٌ ... ودَرُّ نَوَالِهِ أَبَداً غَزِيرُ

ومنه كذلك :

تَعَامَى زَمَانِى عَنْ حُقُوقِى وَإِنَّهُ ... قَبِيحٌ عَلَى الزَّرْقَاءِ تُبْدِى تَعَامِيَا

فَإِنْ تُنْكِرُوا فَضْلِى فَإِنَّ رُغَاءَهُ ... كَفَى لِذَوِى الأَسْمَاعِ مِنْكُمْ مُنَادِيا

---

(١) بغية الوعاة : ٢/٣١١ .
(٢) وفيات الأعيان : ٥/٣٦٩ .
(٣) بغية الوعاة ٢/٣١١ .

وفاته :

توفى أبو الفتح المطرزى بخوارزم يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من جمادى الأول سنة عشر وستمائة ، ورثاه قومه بأكثر من ثلاثمائة قصيدة عربية وفارسية – عليه رحمة الله – .

١٦ - الكندى (*) :

تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير بن الحارث ذى رعين الأصغر .

ولد ببغداد صباح يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة للهجرة .

والكندى : نسبة إلى قبيلة (كندة) إحدى القبائل العربية المشهورة التى ينسب إليها امرؤ القيس بن حجر ؛ حيث كتب الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد المعروف بابن الخيمى من القاهرة إلى التاج الكندى فى دمشق ، برد أبيات بعث بها إليه ، يقول :

أَيُّهَا السَّاكِنُونَ بِالشَّامِ مِنَ كِنْـ ... ـدَةَ إِنَّا بِعَهْدِكُمْ مَا وَفَيْنَا

لَوْ قَضَيْنَا حَقَّ الْمَوَدَّةِ كُنَّا ... نَحْبَنَا بَعْدَ بُعْدِكُمْ قَدْ قَضَيْنَا

ثقافته وعلمه :

بدأ تاج الدين الكندى رحلة العلم فى بغداد ، حيث حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأكمل القراءات العشر وهو ابن عشر سنين ، وكان أعلى الناس إسنادا فى القراءات .

(*) انظر ترجمته فى : إنباه الرواة : ٢/ ١٠ ، معجم الأدباء : ١١/ ١٧١ ، خريدة القصر : ١/ ١٠٠ (قسم الشام) ، وفيات الأعيان : ٢/ ٣٣٩ ، بغية الوعاة : الجواهر المضيئة : ١/ ٢٤٦ ، النجوم الزاهرة : ٦/ ٢١٦ ، غاية النهاية : ١/ ٢٩٧ ، الذيل على الروضتين : ٩٥ .

قال الذهبى : «لا أعلم أحدا عاش بعد ما حفظ القرآن ثلاثا وثمانين سنة غيره» .

قرأ أبو اليمن النحو على أبى محمد سبط أبى منصور الخياط ، وابن الشجرى ، وابن الخشاب ؛ واللغة على موهوب الجواليقى .

وسمع الحديث من أبى بكر بن عبد الباقى ، وغير هؤلاء كثير ، حتى إن ابن عساكر خرَّج له مشيخة فى أربعة أجزاء على حروف المعجم .

وفى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، خرج من بغداد متجها إلى حلب ، فاستوطنها مدة ، حيث كا يبتاع الخليع[1] – وروى : الخليق – ، ويسافر به إلى بلاد الروم ليبيعه هناك .

ثم انتقل إلى دمشق ، وصحب الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاد ابن أخى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، واختص به ، وتقدم عنده حتى استوزره ، وسافر فى صحبته إلى الديار المصرية ، واقتنى من كتب خزانتها كل نفيس ؛ كما اتصل بأخى فروخ شاه تقى الدين صاحب حماة ، واختص به أيضا .

وفى دمشق نال الحشمة الوافرة والتقدم ، وازدحم عليه الطلبة ، وقرأ عليه جماعة من الفضلاء ، وآخر من روى عنه بالإجازة أبو حفص بن القوامى ، ثم أبو حفص العقيمى ؛ وطال به المقام فى دمشق ، فأفتى ودَرَّسَ وصنف وأقرأ القراءات والنحو واللغة والشعر ؛ وقرأ عليه المعظم عيسى الأيوبى – وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين أيضا – صاحب الكرك شيئا كثيرا من النحو ككتاب سيبويه ، وشرحه لابن درستويه ، والإيضاح لأبى على الفارسى ، وله خزانة كتب بالجامع الأموى فيها كل نفيس .

وكان الكندى حنبليا ، ثم صار حنفيا ، وتقدم فى مذهب أبى حنيفة .

---

(١) الخليع – أو الخليق – : يقصد به الملابس المستعملة .

بين الكندى وابن دحية وابن الجزرى :

روى أنه فى ثالث عشر من شهر رجب سنة خمس وستمائة ، حضر التاج الكندى عند الوزير عزالدين فروخ شاه ، وحضر ابن دحية ، فأورد حديث الشفاعة ، فلما وصل إلى قول الخليل - عليه السلام - : «إنما كنت خليلا من وراءَ وراءَ» - بفتح الهمزتين - ، قال الكندى : وراءُ وراءُ - بضم الهمزتين - ، فعسر ذلك على ابن دحية ، وصنف فى المسألة كتابا سماه : الصارم الهندى فى الرد على التاج الكندى : وبلغ ذلك الكندى ، فعمل مصنفا سماه : نتف اللحية من ابن دحية .

وحدث أن ورد على الكندى سؤال فى الفرق بين (طلقتك إن دخلت الدار) وبين (إن دخلت الدار طلقتك) ، فألف فى الجواب عنه مؤلفا ، فرد عليه معين الدين محمد بن على بن غالب الجزرى بمؤلف سماه : الاعتراض المبدى بوهم التاج الكندى .

آثاره :

يبدو أن التاج الكندى لم تدع له مشاغل الحياة من التجارة فى بلاد الشام ، والوزارة للأمير عز الدين فروخ شاه ، والإفتاء ، والتدريس ، والإقراء ، متسعا من الوقت للتأليف والتصنيف ، حتى إن ما عهد من الرواية عنه كان جله - إن لم يكن كله - بالإجازة من أمثال ابن القوامى ، والعقيمى ، إلا ما كان يقتنصه بين الحين والآخر ، حيث يقول السيوطى :

«وكان صحيح السماع ، ثقة فى النقل ، ظريفا فى العشرة ، طيب المزاح ، قرأ عليه جماعة ، وآخر من روى عنه بالإجازة أبو حفص بن القوامى ، وأبو حفص العقيمى ... وله حواش على ديوان المتنبى ، وحواش على خطب ابن نباتة ، أجاب عنها الموفق البغدادى[1] .

وكأنما كان الكندى يحس بتقصيره فى إخراج ما عنده من العلم للناس فى مؤلفات ومصنفات ، وربما كان أصدقاؤه يلومونه على ذلك ، حيث يقول :

---

(١) أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكى خطيب خوارزم .

لامنِى فِى اختِصَارِ كُتْبِى حَبِيبٌ فَرَّقَتْ بَيْنَهُ اللَّيَالِى وَبَيْنِى
كَيْفَ لِى لَوْ أَطَلْتُ لَكِنَّ عُذْرِى فِيهِ أَنَّ المِدَادَ إِنْسَانُ عَيْنِى

شعره :

يروى لأبى اليمن الكندى شعر كثير جيد فى الحكمة ، ومدح الأمراء والملوك الذين قربوه ، وعاش فى كنفهم فى دمشق وحلب وحماه ؛ فمن شعره وقد طعن فى السن :

أرى المَرْءَ يهْوَى أنْ تطولَ حَيَاتُهُ وَفِى طُولِهَا إرْهَاقٌ وَذُلٌّ وإزْهَاقُ
تَمَنَّيْتُ فِى شَرْخِ الشَّبِيبةِ أَنَّنِى أُعَمَّرُ ، وَالأَعْمَارُ لاَ شَكَّ أَرْزَاقُ
فَلَمَّا جَاءَنِى مَا تَمَنَّيْتُ سَاءنِى مِنَ الْعُمْرِ مَا قَدْ كُنْتُ أَهْوى وَأَشْتَاقُ
عَرَتْنِى أَعْرَاضٌ شَدِيدٌ مِرَاسُهَا عَلَىَّ وَهَمٌّ لَيسَ لِى فِيهِ إفْرَاقُ
وَهَا أَنَا فِى إحْدَى وَتِسْعِينَ حِجَّةً لَهَا فِىَ إرْعَادٌ مَخُوفٌ وَإِبْرَاقُ
يُخَيِّلُ لِى فِكْرِى إِذَا كُنْتُ خَالِياً رُكُوبِى عَلَى الأَعْنَاقِ وَالسَّيْرُ إعْنَاقُ
يُذَكِّرُنِى بُعْدُ النَّسِيمِ وَرَوحِهِ حَفَائِرَ يَعْلُوهَا مِنَ التُّرْبِ أَطْبَاقُ
يَقُولُون : دِرْيَاقٌ لِمِثْلِكَ نَافِعٌ وَمَا لِىَ إِلاَّ رَحْمَةُ اللَّهِ دِرْيَاقُ

ومنه فى المدح :

يَا سَيْفَ دِينِ اللَّهِ عِشْتَ سَالِماً فَالدِّينُ مَا عِشْتَ بِهِ بَارِهْ
وَدُمْ لأَهْلِ الْعِلْمِ مَادَامَتِ الدُّنْـ يَا فَأَنْتَ الْعَالِمُ الدَّارِهْ
إنَّ الَّذِى يَسْمُو إِلَى نَيْلِ مَا شَيَّدْتَ مِنْ أَكْرُومَةٍ وَارِهْ
كَمْ لَكَ عِنْدَ الرُّومِ مِنْ وَقْفَةٍ ذِكْرُهُ فِى الدُّنْيَا بِهَا جَارِهْ

وفاته :

توفي أبو اليمن الكندي بدمشق ضحوة يوم الاثنين سادس شوال سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ودفن من يومه بجبل قاسيون[1] ، وقد رثاه تلميذه علم الدين السخاوي بقوله :

لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ عَمْرٍو مِثْلُهُ ... وَكَذَا الْكِنْدِيُّ فِي آخِرِ عَصْرِ
وَهُمَا زَيْدٌ وَعَمْرٌو إِنَّمَا ... بُنِيَ النَّحْوُ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرِو

١٧ - العكبري (*) :

محب الدين أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله بن الحسين العكبري ؛ والعكبري نسبة إلى (عكبرا)[2] .

ولد أبو البقاء ببغداد في أوائل سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وكان ضريرا ، أضر في صباه من جدري لحقه .

ثقافته وعلمه :

أخذ النحو عن يحيى بن نجاح ، وابن الخشاب ، وغيرهما من مشايخ عصره ، وقرأ القرآن بالروايات على أبي الحسن البطائحي ، وسمع الحديث من أبي الفتح بن البطي ، وأبي زرعة المقدسي وغيرهما ؛ وتفقه على مذهب ابن حنبل بالقاضي أبي يعلى العزاء .

---

(١) جبل مطل على دمشق ، وفيه قبور أهلها وتربهم ، وفيه مدارس ، ورباطات ، وجامع ، وفيه نهران : ثورا ، ويزيد .

(*) انظر ترجمته في : إنباه الرواة : ١١٦/٢ ، وفيات الأعيان : ١٠٠/٣ ، شذرات الذهب : ٦٧/٥ ، معجم البلدان : عكبرا ، بغية الوعاة : ٣٨/٢ ، النجوم الزاهرة : ٢٤٦/٦ ، نكت الهميان : ١٧٨ ، ذيل طبقات الحنابلة : ١٠٩/٢.

(٢) عكبرا : بليدة على نهر دجلة ، فوق بغداد بعشرة فراسخ ، خرج منها جماعة من العلماء المشهورين .

وأقرأ النحو ، واللغة ، والمذهب الحنبلى ، والخلاف ، والفرائض ، والحساب ، واشتغل عليه خلق كثير ، وانتفعوا به ، واشتهر اسمه فى البلاد وهو حى ، وبعد صيته .

يقول ابن النجار : «كان يحب الاشتغال ليلا ونهارا ، ما يمضى عليه ساعة إلا وأحد يقرأ عليه ، أو يطالع ، حتى إنه بالليل تقرأ له زوجته فى كتب الأدب وغيرها» .

ويقول السيوطى : «كان إذا أراد التصنيف ، أحضرت إليه مصنفات ذلك الفن ، وقرئت عليه ، فإذا حصل ما يريده فى خاطره أملاه ؛ وكان لا تمضى عليه ساعة من ليل أو نهار إلا وقضاها فى العلم» .

أخلاقه :

قال عنه السيوطى : «كان ثقة ، صدوقا ، غزير الفضل ، كامل الأوصاف ، كثير المحفوظ ، دينا ، حسن الأخلاق ، متواضعا .

سأله جماعة من الشافعية أن ينتقل إلى مذهب الشافعى ، ويعطوه تدريس النحو فى المدرسة النظامية ، فقال : «لو أقمتمونى وصببتم علىّ الذهب حتى واريتمونى ، ما رجعت عن مذهبى» .

آثاره :

خلف أبو البقاء مصنفات كثيرة متنوعة ومفيدة منها :

١ – تفسير القرآن .

٢ – إعراب القرآن .

٣ – إعراب القراءات الشواذ .

٤ – تشابيه القرآن .

٥ – عدة آى القرآن .

٦ - إعراب الحديث .

٧ - لباب كتاب سيبويه .

٨ - شرح أبيات سيبويه .

٩ - شرح اللمع لابن جنى .

١٠ - شرح الإيضاح والتكملة لأبى على الفارسى .

١١ - شرح الفصيح .

١٢ - اللباب فى علل البناء والإعراب .

١٣ - الترصيف فى التصريف .

١٤ - الإشارة .

١٥ - التلخيص .

١٦ - التلقين .

١٧ - التهذيب فى النحو .

١٨ - إيضاح المفصل .

١٩ - إعراب شعر الحماسة .

٢٠ - التعليق فى الخلاف .

٢١ - الملقح فى الجدل .

٢٢ - الناهض .

٢٣ - البلغة .

٢٤ - التلخيص فى الفرائض .

٢٥ - ترتيب إصلاح المنطق على حروف المعجم .

٢٦ – الاستيعاب فى أنواع الحساب .

٢٧ – التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين .

٢٨ – شرح مقامات الحريرى .

قوله فى العنقاء :

«حكى أبو البقاء فى كتاب (شرح مقامات الحريرى) عند ذكر العنقاء أن أهل الرَّس كان بأرضهم جبل يقال له (رمخ) صاعد فى السماء قدر ميل ، وكان به طيور كثيرة ، وكانت العنقاء طائرة عظيمة الخلق ، طويلة العنق ، لها وجه إنسان ، وفيها من كل حيوان شبه ، من أحسن الطير ، وكانت تأتى فى السنة مرة هذا الجبل فتلتقط طيره ، فجاعت فى بعض السنين وأعوزها الطير ، فانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت (عنقاء مغربا) لإبعادها بما تذهب به ، ثم اختطفت جارية أخرى وذهبت بها ، فشكا أهل الرَّس إلى نبيهم حنظلة بن صفوان ، فدعا عليها ، فأصابتها صاعقة فاحترقت ، والله أعلم .

قلت : هذا حنظلة بن صفوان نبى أهل الرَّس ، وكان فى زمن من الفترة بين عيسى والنبى عليهما السلام .

ثم رأيت فى تاريخ أحمد بن عبدالله بن أحمد الفرغانى نزيل مصر ، أن العزيز نزار بن المعز صاحب مصر ، اجتمع عنده من غرائب الحيوانات ما لم يوجد عند غيره ، فمن ذلك العنقاء ، وهو طائر جاءه من صعيد مصر فى طول البلسوم[1] ، وأعظم جسما منه ، له غبب ولحية ، وعلى رأسه وقاية ، وفيه عدة ألوان ومشابه من طيور كثيرة ، والله أعلم .

ثم وجدت فى أواخر كتاب (ربيع الأبرار) تأليف العلامة أبى القاسم الزمخشرى فى باب (الطير) عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن الله – تعالى – خلق فى زمن موسى – عليه السلام – طائرة اسمها (العنقاء) ، لها أربعة

(١) ويقال له : البلاشون . قال الدميرى . البلشون هو مالك الحزين : فلعله بالميم لغة فيه .

أجنحة فى كل جانب ، ووجهها كوجه الإنسان ، وأعطاها من كل شىء حسن ، قسطا ، وخلق لها ذكرا مثلها : وأوحى إلى موسى أنى خلقت طائرين عجيبين ، وجعلت رزقهما فى الوحوش التى حول بيت المقدس ، وآنستك بهما ، وجعلتهما زيادة فيما فضلت به بنى إسرائيل ، فتناسلا وكثر نسلهما .

فلما توفى موسى - عليه السلام - انتقلت فوقفت بنجد والحجاز ، فلم تزل تأكل الوحوش ، وتختطف الصبيان إلى أن نبئ خالد بن سنان العبسى بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - فشكوها إليه ، فدعا عليها ، فقطع الله نسلها وانقرضت ، والله أعلم»[1] .

شعره :

كان أبو البقاء مقلا فى قرض الشعر ، ولكنه كان متمكنا من ناصية القريض ، عالما بفنون العروض والقوافى ، فمن شعره :

صَادَ قَلْبِي عَلَى الْعَقِيقِ غَزَالُ ... ذو نِفَارٍ وِصَالُهُ مَا يُنَالُ
فاترُ الطرفِ تَحْسَبُ الْجَفْنَ مِنْهُ ... نَاعِسًا وَالنُّعَاسُ مِنْهُ مُدَالُ

ومن شعره فى مدح الوزير ناصر بن مهدى العلوى :

بِكَ أَضْحَى صَدْرُ الزَّمَانِ مُحَلَّى ... بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْ عُلاَهُ مُخَلَّى
لاَ يُجَارِيكَ فِي نِجَارِيكَ خَلْقٌ ... أَنْتَ أَعْلَى قَدْراً وَأَعْلَى مَحَلاً
دُمْتَ تُحْيِي مَا قَدْ أُمِيتَ مِنَ الْفَضْـ ... ـلِ وَتَنْفِي فَقْراً وَتَطْرُد مَحْلاً

وفاته :

توفى أبو البقاء العكبرى ليلة الأحد ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة ببغداد ، ودفن من الغد فى مقبرة الإمام أحمد بباب حرب - عليه رحمة الله - .

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/١٠١ - ١٠٢ .

١٨ - ابن الخباز (*) :

أبو العباس شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد بن أبى المعالى بن منصور بن على الأربلى الموصلى .

لم تشر أى من كتب التراجم شيئا عن مولد ابن الخباز ، ولا عن حياته ، ولا عن رحلته فى طلب العلم ، بل منها من لم يترجم له أصلا ، ولاسيما من عاصروه كالقفطى ، وياقوت الحموى ، وابن خلكان ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه وجد فى عصر غاص بالعلماء المشهورين الذين ذاعت شهرتهم ، وتسنموا ذرى المجد كابن الحاجب ، وابن معط ، وابن مالك ، وابن يعيش ، حتى إنه يرجع ذلك إلى أنه كان شديد اللوم للعلماء ، مصرحا بانتقاصهم ، مقذعا فى نقدهم ، مما جعلهم يغضون الطرف عن ذكره مجازاة له ، والله أعلم ، رغم أنه يرجع ذلك إلى فقره وسوء حال معيشته ، وأنه لم يحشر فى زمرة الأغنياء من العلماء ، فكان حظه الإهمال والتناسى ، حيث يقول :

«... وكيف لا يجحد فضلى ؟! وأنا بين قوم لا يرون الفضل لغير الأغنياء ، ويحتقرون الفقراء المؤمنين ولو كانوا من الأنبياء ، زمانهم الجدير بقول أبى الطيب – رحمه الله – :

إِنَّــا لَـفِــى زَمَــنٍ تَــرْكُ الْـقَـبِــيــحِ بِــهِ ... مِنْ أَكْـثَـرِ الـنَّـاسِ إِحْـسَـانٌ وَإِجْـمَـالُ

حجهم إلى بيت الرذائل ، وكهفهم كل خال فى الخير من المخائل ، ولو آتى الذى يرتضونه ، لما كنت إلا جاهلا كامل الجهل .

هذا ، ولو حاكيت أيوب بن القرية فى حفظه ، والحسن البصرى فى وعظه ، وعبدالحميد فى فصاحة لفظه ، والنعمان فى جدله واحتجاجه ، وابن سريج فى تعريفه واستخراجه ، ومكثت بينهم جميع الزمان ، لما زادونى – ولو سألتهم – غير الحرمان .

(*) انظر ترجمته فى : الأعلام : ١/١١٤ ، البلغة فى تاريخ أئمة اللغة : ١٩ ، نكت الهميان فى نكت العميان : ٦٦ ، التذكرة الفخرية : ١٦٩ ، الفلاكة والمفلوكون : ١٥٥ ، بغية الوعاة : ١/٣٥٤ .

ولعل من يسمع هذا الكلم ، يستكثر شكايتى ، ويستقل للناس رعايتى ، وما يعلم أنه : كلما انقضى سبب منك عاد لى سبب .

ولولا إيغار الصدور ، لكشفت حقيقة المستور ، وصرحت بفضائح قوم يبدون للعين سرابا ، ولا يجد الصادى عندهم شراباً[1] .

وأورد الدلجى – نقلا عن ابن هشام – : وكأنه كان غير منصَف من أهل زمانه ، وقد وقفت له على عدة تآليف يشكو فيها حاله ، فمن ذلك قوله فى خطبة كتابه الذى سماه (الفريدة فى شرح القصيدة) وهى قصيدة أبى عثمان سعيد بن المبارك ، الشهير بابن الدهان :

«... فإن أصبت فمن فضل الله الرحيم ، وإن أخطأت فمن الشيطان الرجيم ، ومن علم حقيقه حالى ، عذرنى إذا قصّرت ، بأن عندى من الهموم ما يزع الجَنان عن حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه .

ولو أن ما بى بالجبال لهدمها ، وبالنار أطفأها ، وبالماء لم يجر ، وبالناس لم يحيوا ، وبالدهر لم يكن ، وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر .

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفينى شر شكواى ، وألا يزيدنى على بلواى ، فإنى كلما أردت خفض العيش صار مرفوعا ، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعا .

والله المستعان فى كل حال ، ومنه المبدأ وإليه المآل»[2] .

وكان ابن الخباز ضريرا ، ولكن كتب التراجم لم تفصح عما إذا كان قد ولد ضريرا ، أم أصيب بالعمى فى طفولته .

كما لم تذكر شيئا عن أساتذته الذين تلقى العلم عنهم ، ولكن يبدو أنه أخذ عن علماء بلده فى عصره ، حيث كان كثيرا ما يذكر شيخا له دون أن يصرح

---

(١) الدرة المخفية : ٤٥٣ .

(٢) الفلاكة والمفلوكون : ١٥٥ .

باسمه ، بل يشير إليه بقوله (شيخنا) ، ومن ثم لم يذكر أحد ممن ترجموا لابن الخباز ؛ إلا أن عبدالقادر البغدادى يذكر أنه (ابن إيان) ، وفى هذا نظر[1] .

علمه وثقافته :

كان ابن الخباز بارعا ، أستاذا فى النحو ، واللغة ، والعروض ، والفرائض ؛ لم يُرَ فى زمانه أكثر حفظا منه ، وأكثر استحضارا للأشعار والنوادر ، فمن محفوظه : المجمل لابن فارس ، والإيضاح لأبى على الفارسى ، والتكملة له أيضا ، والمفصل للزمخشرى .

وقد نقل عنه نفر من أكابر علماء النحو ممن أتوا بعده كابن هشام ؛ والمرادى ، والبدر الدمامينى ، وخالد الأزهرى ، والأربلى ، والجلال السيوطى ، والشيخ ياسين الحمصى ، وعبدالقادر البغدادى[2] .

آثاره :

خلف ابن الخباز بعد وفاته عددا من المصنفات القيمة التى لا تزال مناط الإفادة فى النحو واللغة والأدب حتى الآن منها :

١ – الكفاية فى النحو .

٢ – النهاية فى النحو .

٣ – شرح الإيضاح لأبى على الفارسى .

٤ – شرح المقدمة الجزولية .

٥ – شرح الفصول لابن معط .

٦ – شرح اللمع لابن جنى .

---

(١) انظر فى ذلك : مقدمة تحقيق (الدرة المخفية) : ١٩ ، التصريح بمضمون التوضيح : ١/٣٤٧ ، والأشباه والنظائر : ٣/٥٧ .

(٢) انظر فى ذلك : البلغة : ١٩ ، ونكت الهميان : ٩٦ ، ومقدمة تحقيق (الدرة المخفية) : ٢٠ .

٧ – الدرة المخفية (شرح ألفية ابن معط) .

٨ – الفريدة فى شرح القصيدة .

شعره :

روى لابن الخباز شعر كثير ، ولكن معظمه كان عتابا لزمانه ، ولعلماء عصره ، فمن ذلك قوله :

أَعْـرَاضُـهُـمْ لَـمْ تَـزَلْ مُـسْـوَدَّةً فَـإِذَا قَـدَحْـتُ فِـيـهِ أَصَـابَ الْقَـدْحُ حَرَّاقَـا

بَلَوْتُـهُـم فَـطَعِـمْـتُ الـسُّـمَّ فِـى عَـسَـلٍ وَمَا وَجَدْتُ سِوَى الهِجْرَانِ دِرْيَاقَا [1]

ومنه أيضا فى الغزل :

سَـطَـا بِـحُـسَـامِ طَـرْفٍ مَـشْـرَفِـىٍّ وَأَرْدَفَـهُ بِـسِـحْـرٍ بَـابِـلِـىِّ

وَلَـوْ لَـمْ يَـقْـضِ عَـاشِـقَـهُ تَـثَـنَّـى عَـلَـى رُمْـحِ الْـقَـوَامِ الـسَّـمْـهَـرِىِّ

وَلَـيْـسَ لِـمَـنْ يَـهِـيـمُ بِـهِ مُـعِـيـن عَـلَـيْـهِ وَمَـنْ يـعِـيـنُ عَـلَـى عَـلِـىِّ

غَـزَالٌ زَارَنِـى فَـأَزَالَ هَـمًّـا خَـيَـالٌ مِـنْـهُ كَـالـنَّـبْـضِ الْـخَـفِـىِّ

تَـبَـسَّـمَ ضَـاحِـكًـا فَـرَأَيْـتُ دُرًّا يُـضِـىءُ كَـلَـمْـعِ بَـرْقٍ فِـى حَـبِـىِّ

قَـوِىٌّ لاَ يَـلِـمُّ عَـلَـى ضَـعِـيـفٍ فَـوَيْـلٌ لِـلـضَّـعِـيـفِ مِـنَ الْـقَـوِىِّ

أَمِـيـرُ الْـحُـسْـنِ أَنْـتَ بِـلاَ خِـلاَفٍ وَزَيْـنُ الْـحُـسْـنِ بِـالْـوَعْـدِ الْـوَفِـىِّ

وَصِـلْ مُـضْـنًـى يَـبِـيـتُ حَـلِـيـفَ شَـوْقٍ بِـهِ ظَـمَـأٌ إِلَـى الْـعَـذْبِ الـشَّـهِـىِّ

سَـلَـلْـتَ عَـلَـى الأَسِـيـرِ سُـيُـوفَ لَـحْـظٍ فَـتَـكْـتَ بِـهَـا وَلاَ سَـيْـفُ الْـوَصِـىِّ

وَلَـوْ أَنَّ الْـعَـزِيـزَ رَآهُ يَـوْمًـا لَـدَانَ لَـهُ بِـوَجْـهٍ يُـوسُـفِـىِّ [2]

---

(١) البلغة فى تاريخ أئمة اللغة : ٢٠ .

(٢) التذكرة الفخرية : ١٦٩ .

وفاته :

اختلف فى تاريخ وفاة ابن الخباز، حيث ذكر السيوطى أنه توفى بالموصل عاشر رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة[1] .

وذكر الصفدى أن وفاته كانت سنة تسع وثلاثين وستمائة[2] .

وذكر الأربلى قال : «توفى - فيما يتغلب عندى - فى سنة إحدى وأربعين وستمائة»[3] .

وبالرجوع إلى ما سطره ابن الخباز نفسه فى خاتمة (الدرة المخفية) التى شرح بها ألفية ابن معط بقوله : «فرغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين وستمائة» ، يتضح عدم صحة ما ذكره السيوطى ، ويحتمل أن تكون وفاته سنة تسع وثلاثين - كما ذكر الصفدى - أو إحدى وأربعين - كما ذكر الأربلى - والله أعلم .

* * *

---

(١) بغية الوعاة : ١/٣٠٤ .
(٢) نكت الهميان : ٩٦ .
(٣) التذكرة الفخرية : ١٦٩ .

الباب السابع

مدرسة مصر

مَدْرَسَةُ مِصْرَ

لم يؤثر عن أى قطر عربى أن اتجه إلى الاهتمام بعلوم اللغة ، إلا بعد أن يكون قد قطع شوطا طويلا فى دراسة علوم الدين الإسلامى ، من قرآن ، وحديث ، وفقه ، وفرائض ، ومعاملات ؛ حتى إذا أتقن علماؤه كل ذلك وحذقوه ، أخذوا يوجهون اهتمامهم ، ويصرفون همتهم إلى دراسة اللغة وعلومها ، من نحو ، وصرف ، وشعر ، وبلاغة ، حتى يتيسر لهم أمر استيعاب أحكام ذلك الدين ، والإلمام بأمور هذه الدعوة .

ففى العراق – مثلا – وهو أول قطر اشتغل بعلوم اللغة ، ووضع مبادئ علم النحو ، نجد أن غالبية علماء النحو كانوا مَن قراء القرآن الكريم مثل عبدالرحمن ابن هرمز ، وعيسى بن عمر ، وأبى عمرو بن العلاء ، والكسائى ، بل كان أول تفكير فى وضع علم النحو هو نقط المصحف إعرابا ، على يد أبى الأسود الدؤلى ، ثم نقطه إعجاما على يد نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر ، أو كليهما ، كما أثر عن سيبويه أنه بدأ بدراسة الحديث والفقه على يد حماد بن سلمة ، فحدث أن أخطأ فى كتابة حديث ، فأنبه حماد لخطئه ، فانتقل إلى الخليل ، ويونس ، وعيسى بن عمر لتدارس النحو .

كل ذلك كان نتيجة لما توافر للعراق من إمكانات طبيعية ، كمتاخمة موقعه لشبه الجزيرة العربية – مهد الدراسات الإسلامية فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة – مما جعل التنقل بين الجزيرة العربية والعراق لطلب العلوم الإسلامية ميسورا متاحا .

الفصل الأول

الصراع بين اللغتين : العربية والقبطية

أما فى مصر ، فالأمر كان مختلفا ، إذ إن اللغة التى كانت سائدة فيها قبل الفتح الإسلامى هى اللغة القبطية – لغة أهل البلاد الأصليين – ، فكان لزاما على اللغة العربية أن تدخل فى صراع عنيف مع اللغة القبطية أولا ، بغرض إثبات الذات ، والقدرة على التفوق على أختها ، حتى يكتب لها البقاء ، والقضاء على اللغة المناوئة ؛ ولاسيما أنه من الحتمى أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة التى تحرر بها الدواوين والرسائل والمعاملات .

ولقد زخرت كتب العلماء والمؤرخين ومصنفاتهم برصد مظاهر هذا الصراع اللغوى على أرض مصر ، الذى انتهى بانتصار اللغة العربية ، واتخاذها لغة الدواوين ، بل أصبحت لغة الخطاب بين سكان مصر قاطبة ، بعد اندحار اللغة القبطية : وذلك نتيجة لما توافر للغة العربية من عوامل ساعدتها على إحراز هذا النصر المؤزر ، وقد ذكر العلماء والمؤرخون من هذه العوامل :

(أ) عدم استعمال العرب لغير المسلمين فى الوظائف الحكومية ، ومرافق الدولة الهامة ، مما جعل الأقباط يلجأون إلى اعتناق الدين الإسلامى ، وتعلم اللغة العربية للاحتفاظ بما يشغلونه من وظائف ، وعدم إحلال مسلمين محلهم فيها .

ولا ريب أن اعتناق الإسلام يتطلب حذق اللغة العربية ، والتبحر فيها لإقامة الشعائر الدينية ، وتأدية الفرائض التى لا تصح إلا باللغة العربية ، كالصلاة ، وقراءة القرآن .

(ب) فرض جزية مالية على غير المسلمين ، نظير تحمل المسلمين تأدية بعض الخدمات العامة كالفتوح الخارجية ، وحماية ثغور الدولة ، والأمن الداخلى ، نيابة عن الأقباط الذين دفعهم الهرب من دفع الجزية إلى اعتناق الإسلام ، وتعلم اللغة العربية .

(جـ) هجرات القبائل العربية إلى مصر ، وانتشارها فى كل أرجائها ، واختلاطها بأهالى البلاد الأصليين ، مما أدى إلى إدماج العنصر العربى فى العنصر المصرى ، حتى أصبح العربى يبنى بالقبطية التى تعتنق الإسلام ، حتى وإن ظلت على قبطيتها باعتبارها من أهل الكتاب .

(د) قدوم الكثير من علماء الدين الإسلامى من القراء ، والمفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء إلى مصر ، وإثراء الحركة الدينية ، وازدياد نشاط الدرس والبحث فى الإسلام واللغة العربية .

(هـ) إحساس بعض المفكرين من الأقباط بالقلق ، نتيجة تطاحن الفرق المسيحية ، وتنازع مذاهبها ، مما جعلهم يلجأون إلى الإسلام ، ويعتصمون بأمنه ، ويستظلون بوداعته ، ينعمون بطمأنينته وبساطته . .

وما أن حل القرن الخامس الهجرى ، حتى كانت اللغة العربية هى لغة التخاطب والتفاهم لكل المصريين على السواء[1] .

وإذا ما نحينا قصة الصراع هذه جانبا ، بعد أن تم النصر للغة العربية ، وأصبحت هى لغة الدواوين ، ولغة التخاطب بين الناس جميعا فى تصريف شئونهم الحياتية ، وقضاء مصالحهم اليومية ؛ بل أصبحت لغة التأليف والتصنيف للعلماء المسلمين والأقباط على السواء ، وجدنا أن مصر لم تخرج على النظام المعهود فى كل الأقطار العربية ، من البدء بالدراسات الإسلامية ، ثم التثنية بالبحث فى اللغة العربية وعلومها .

---

(١) تاريخ اللغة العربية فى مصر : ٤٢ .

الفصل الثانى

الدراسات الإسلامية فى مصر

فمنذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامى لمصر ، نشطت الدراسات الإسلامية ، من قراءة للقرآن الكريم ، وتفسيره ، ودراسة القراءات القرآنية ، ورواية الحديث النبوى وأحكامها ، والفقه وعلله ورجاله ، ودراسة المذاهب الأربعة ، وغير ذلك مما يتصل بالدين الإسلامى بسبب ؛ وذلك بفضل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذين وفدوا إلى مصر بصحبة جيش الفتح ، أو بعده بقليل ، ممن طابت لهم الإقامة فى مصر ، فاستوطنوها حتى وافتهم المنية بها ، أو ممن عادوا أدراجهم إلى جزيرة العرب ، بعد أن قضوا بمصر فترة من الزمن ، تركوا على جبينها بصمات - فى مجال الدراسات الإسلامية - تدل عليهم .

ففى مجال القراءات القرآنية ، وفد إلى مصر الصحابى الجليل عبد الله بن عمر ، الذى تولى منصب أول قارئ رسمى فى مصر ، وكذا الصحابى الجليل عقبة ابن الحارث الفهرى ، وتلاهما جيل من التابعين منهم : عبدالله بن العباس ، وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج ، الذى اتخذ من الإسكندرية موطنا له ، حتى توفى بها عام ١١٧ هـ .

وفى مجال الحديث النبوى ، وفد إلى مصر جمع غفير على رأسهم الصحابى الجليل أبو هريرة راوى أكبر عدد من الأحاديث النبوية ، وتبعه جمع من الصحابة الأجلاء منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن العباس ، وجابر بن عبدالله ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم كثير .

وفى مجال الفقه الإسلامى ، وفد إلى مصر الصحابى الجليل ابن عتر التجيبى الذى تولى منصب كبير القضاة بها ، وعبدالله بن حجيرة الذى شغل ذلك المنصب في عهد عبدالعزيز بن مروان ، وأخيرا نافع مفتى المدينة المنورة الذى أرسله عمر بن عبدالعزيز ليتولى منصب الإفتاء فى مصر[1].

وما كاد القرن الثانى الهجرى يطل برأسه ، حتى ظهر أول جيل من المصريين ، وأخذ يقتحم ميدان الدراسات الإسلامية ، ويسهم بدوره فى إقامة صرحها ، وتوطيد أركانها .

ففى مجال القراءات القرآنية يصادفنا عثمان بن سعيد القبطى الأصل المعروف بـ (ورش) ، وهو أول قارئ مصرى ، ذاع صيته فى أرجاء مصر وخارجها ، وقد تتلمذ على نافع بن عبدالرحمن مقرئ أهل المدينة ، وأحد القراء السبعة ، وقد عاصر (ورش) عدد من القراء المصريين ، لم يحظو من الشهرة وذيوع الصيت بما حظى به ورش ، منهم سقلاب بن شيبة ، وعبدالله بن وهب ، ومعلى بن دحية ، وأشهب بن عبدالعزيز ، وتلاهم كثير من القراء .

ولم يكد ينتصف القرن الثالث الهجرى ، حتى كانت حركة التأليف والتصنيف فى القراءات القرآنية ، والتفسير ، قد نشطت وبدأت تؤتى ثمارها ، ممثلة فيما ألفه العالم المصرى أبو جعفر النحاس[2] مثل : إعراب القرآن ، ومعانى القرآن ، والناسخ والمنسوخ ، والوقف والابتداء .

وفى مجال التأليف فى الحديث النبوى ، يصادفنا كتاب (الجامع فى الحديث) الذى ألفه عبدالله بن وهب ، الذى ثبت – بعد التدقيق – أنه أسبق فى التأليف مما ألف فى القراءات والتفسير قاطبة .

---

(١) تاريخ اللغة العربية فى مصر : ٥٧ .

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المعروف بالنحاس ، أخذ النحو عن الأخفش الأصغر والمبرد والزجاج ، كان عالما بالقراءات والحديث ، توفى سنة ٣٣٨ هـ .

وفى مجال الفقه ، نجد أول فقيه مصرى عرف باجتهاده هو يزيد بن أبى حبيب الذى شغل منصب مفتى مصر ، ثم تلاه عدد من الفقهاء المصريين الذين نافسوا أصحاب المدارس الفقهية الأربعة المشهورة ، مثل : الليث بن سعد ، ثم تلا ذلك كثير من الفقهاء الذين كانوا ينتمون كل إلى مدرسة فقهية بعينها[1] .

★ ★ ★

---

(١) تاريخ اللغة العربية فى مصر : ٥٦ وما بعدها .

الفصل الثالث

الدراسات اللغوية

لكل ما تقدم بدأ الاهتمام بالدراسات اللغوية فى مصر متأخرا عنه فى بلاد العراق ، وإن كانت مصر قد سبقت غيرها من بلاد الشام والمغرب والأندلس فى هذا المضمار . فقد بدأ المصريون الاشتغال بعلم النحو بعد أن قارب على الاكتمال والنضج فى كل من البصرة والكوفة وبغداد .

ولا غرو أن يسبق العراق مصر فى هذا الصدد ، فقد كان العراق أوفر حظا فى إحراز قصب السبق فى مجال الدراسات الإسلامية ، نظرا لموقعه المتاخم لشبه الجزيرة العربية – مهد الدعوة الإسلامية – فضلا على تبادل أهل القطرين الرحلات والتنقل بينهما ، بهدف التجارة ، وغشيان الأسواق التى لم تكن مقصورة على البيع والشراء فحسب ، وإنما كانت مجالا للمفاخرات ، والمنافرات ، والمناظرات : مما أفسح المجال أمام العراقيين للسماع من الصحابة والتابعين ، والأخذ عنهم ، وتلقى أمور الدعوة الإسلامية وعلومها ، وأحكامها .

وما كادت معرفة العراقيين بأمور الدين تكتمل ، وإحاطتهم بأحكام الدعوة تنضج ، حتى يمموا شطر علوم اللغة ، يدرسونها ، ويتفقهون فيها ، يحافظون بها على سلامة نطقهم ، حيث عن طريق حذقها ، والتبحر فيها ، يتسنى لهم الوقوف على المعنى المراد من النص القرآنى ، والحديث النبوى ، ويتمكنون بواسطتها من تفسير الأحكام الفقهية ، واستجلاء الحدود الشرعية ، إذ إن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، جاء بها تنزيلا من حكيم حميد .

ففى الوقت الذى كانت فيه البصرة والكوفة وبغداد تقوم فيها المدارس النحوية على وجه من التنافس ، والتباين فى الآراء ، والاختلاف فى المذاهب

والمشارب ، كانت مصر لا تزال تعيش نتائج الفتح الإسلامى ، واستتباب الأمن وتحصين الثغور ، وتعريب الدواوين ، والعلماء المصريون مهتمون بدراسة العلوم الشرعية ، وأحكام الدين ؛ وما كادوا يولون وجوههم شطر العلوم اللغوية ، محاولين اقتفاء أثر العراقيين ، منتهجين نهجهم ، بادئين بعلم النحو ، حتى كانت الدراسات النحوية فى العراق قد أربت على النضوج ، وأشرفت على الاكتمال .

ومن ثم فقد بدأ علماء مصر يولون وجوههم شطر : العراق ، طلبا لدراسة النحو على أيدى نحاته ، يستمعون منهم ، ويتلقون عنهم ، وفى مقدمة هؤلاء المصريين الذين يمموا شطر العراق ، الوليد بن محمد التميمى المعروف بـ (ولاد) ، حيث رحل إلى البصرة ، وتلقى عن المهلبى – تلميذ الخليل بن أحمد – كما أخذ عن غيره ، ثم عاد إلى مصر ومعه كتب النحو واللغة التى رواها وحذقها ، وكان هو أول من أدخل كتب النحو واللغة إلى الديار المصرية . وتبع ولادا فى الرحلة إلى العراق جمع من العلماء المصريين منهم أبو على أحمد بن جعفر الدينورى الذى أخذ عن المازنى كتاب سيبويه ، ثم قرأه على المبرد ببغداد ، ثم وفد إلى مصر ، واستقر بها إلى أن وافته المنية بها .

كما وفد على بغداد أبو الحسين محمد بن ولاد ، الذى أخذ عن أبى على الدينورى وغيره بمصر ، ثم رحل إلى بغداد ، فلقى المبرد وثعلب ، حيث نقل كتاب سيبويه عن المبرد ، وقرأه عليه ، ثم عاد به إلى مصر ، فكان أول من أدخل كتاب سيبويه إلى الديار المصرية .

كما رحل إلى بغداد أيضا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد ، وأبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بالنحاس ، فاجتمعا على السماع من أبى الحسن على ابن سليمان – الأخفش الصغير – كما أخذا عن الزجاج ، ونفطويه ، وابن الأنبارى ، وغيرهم ، وألف ابن ولاد كتاب (الانتصار لسيبويه من المبرد) . وكتاب (المقصور والممدود) ، وألف أبو جعفر النحاس كتاب (المقنع فى اختلاف البصريين والكوفيين) وكتاب (التفاحة) وكتاب (الكافى)[1] .

(١) شرح اللمحة البدرية : ١/٦٨ .

الفصل الرابع

طبقات النحويين المصريين

أفرد أبو بكر الزبيدى قسما من كتابه (طبقات النحويين واللغويين) لطبقات النحويين المصريين ، فجاء على النحو التالى :

الطبقة الأولى

١ - ولاد التميمى المصادرى (*) :

الوليد بن محمد التميمى المصادرى المشهور بـ (ولاد) ، أصله من البصرة ، ورحل إلى العراق ، وسمع من علمائه ، ولم يكن بمصر كبير شىء من كتب النحو واللغة قبله .

أخذ النحو عن المهلبى – تلميذ الخليل بالمدينة – ولم يكن من الحذاق بالعربية ، فسمع ولاد بالخليل بن أحمد ، فرحل إليه ، ولقيه بالبصرة ، وسمع منه ولازمه ، ثم توجه عائدا إلى مصر ، ومر فى طريق عودته بالمدينة المنورة ، فلقى المهلبى وناظره ، فلما رأى المهلبى تدقيق ولاد للمعانى ، وتعليله فى النحو قال : «لقد ثقبت يا هذا بعدنا الخردل»[1] .

قال عنه يونس بن حبيب : «كان نحويا مجودا ، روى عن القتبى ، وأبى زرعة المؤذن ، وروى كتب النحو واللغة ، وكان ثقة»[2] .

(*) انظر ترجمته فى : طبقات الزبيدى : ٢١٣ ، بغية الوعاة : ٢/٣١٨ .

(١) طبقات الزبيدى : ٢١٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢/٣١٨ .

وفاته :

توفى ولاد فى شهر رجب سنة ثلاث وستين ومائتين[1] .

٢ - محمود بن حسان (*) :

أبو عبدالله محمود بن حسان ، كان نحويا مجودا ، روى عن أبى زرعة المؤذن ، وعبدالملك بن هشام مغازى بن إسحق ، وأخذ عنه أبو الحسين محمد بن ولاد .

وفاته :

توفى محمود بن حسان فى شهر رجب سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

٣ - أبو الحسن الأعز (**) :

أخذ عن على بن حمزة الكسائى ، ولقيه قوم من أهل الأندلس ، وأخذوا عنه ، وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين .

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق .

(*) انظر فى ترجمة محمود بن حسان : طبقات الزبيدى : ٢١٣ ، وبغية الوعاة : ٢٧٧/٢ .

(**) انظر فى ترجمة الأعز : طبقات الزبيدى : ٢١٣ .

الطبقة الثانية

١ - الدينورى (*) :

أبو على أحمد بن جعفر، أصله من الدينور، قدم البصرة وأخذ عن المازنى، وحمل عنه كتاب سيبويه، ثم رحل إلى بغداد، فقرأ على أبى العباس المبرد كتاب سيبويه، ثم نزل مصر، وكان ختن أبى العباس ثعلب، أى : زوج ابنته، وكان يخرج من منزل ختنه أبى العباس فيتخطى أصحابه، ويمضى ومعه محبرته ودفتره، فيقرأ كتاب سيبويه على أبى العباس المبرد ؛ فكان أحمد بن يحيى ثعلب يعاتبه فى ذلك ويقول : إذا رآك الناس تمضى إلى هذا الرجل. وتقرأ عليه، يقولون ماذا ؟! فلم يكن يلتفت إلى قوله .

وكان أبو على حسن المعرفة، ثم قدم إلى مصر، وألف كتابا فى النحو سماه : المهذب، وصدره باختلاف البصريين والكوفيين، وعزا كل مسألة إلى صاحبها، فلم يعتل لواحد منهم، ولا احتج لمقالته ؛ فلما أمعن فى الكتاب، ترك الخلاف، ونقل مذهب البصريين، وعوَّل فى ذلك على كتاب الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) .

وله أيضا كتاب مختصر فى الضمائر فى القرآن، استخرجه من كتاب (معانى القرآن) للفراء .

ولما قدم مصر الأخفش الأصغر (على بن سليمان)، خرج عنها أبو على الدينورى، ثم عاد إليها بعد خروج الأخفش إلى بغداد ؛ وأخذ عنه أبو الحسين بن ولاد وغيره .

وفاته :

توفى أبو على الدينورى بمصر سنة تسع وثمانين ومائتين .

(*) انظر فى ترجمة الدينورى : طبقات الزبيدى : ٢١٥، بغية الوعاة : ١/٣٠١ .

٢ - ابن المزرع (*) :

أبو عبدالله وأبو بكر يموت بن المزرع بن موسى بن سيار العبقسي ، أصله من البصرة ، وهو ابن أخت الجاحظ ، دخل بغداد فأخذ عن المازنى ، وأبى حاتم السجستانى ، والرياشى ، وعبد الرحمن ابن أخى الأصمعى ، ورفيع بن سلمة ، وعمرو بن بحر الجاحظ - خاله - .

وحدث عن رفيع بن سلمة ، وعن محمد بن حميد ، وعن الرياشى .

قدم مصر سنة ثلاث وثلاثمائة ، ثم خرج إلى دمشق .

قال عنه ياقوت الحموى : «نحوى ، أديب ، راوية ، إخبارى ، حسن الآداب» .

وفاته :

توفى ابن المزرع بطبرية ، وقيل : بدمشق سنة أربع وثلاثمائة .

٣ - أبو الحسين بن ولاد (**) :

أبو الحسين محمد بن الوليد بن ولاد التميمى ، أصله من البصرة وانتقل مع والده إلى مصر .

أخذ بمصر عن أبى على الدينورى ، وعن محمود بن حسان ، وغيرهما ؛ ثم رحل إلى العراق ، وأقام به ثمانية أعوام ، لقى خلالها المبرد وثعلبا ، وتزوج أبو على الدينورى أمه . قرأ على المبرد كتاب سيبويه ، وله فى النحو كتاب سماه (المنمق) ، وكان حسن الخط ، صالح الضبط .

حكى ابنه أبو القاسم بن ولاد قال :

«رحل أبى أبو الحسين محمود بن ولاد إلى العراق - وفيها أهله - لأخذ كتاب سيبويه عن أبى العباس المبرد ، وكان المبرد لا يمكن أحدا من نسخته ،

(*) انظر فى ترجمة ابن المزرع : طبقات الزبيدى : ٢١٥ ، ومعجم الأدباء : ٥٧/٢٠ ، وبغية الوعاة : ٣٥٣/٢ .

(**) انظر فى ترجمة أبى الحسين : طبقات الزبيدى : ٢١٧ ، ومعجم الأدباء : ١٠٥/١٩ ، وبغية الوعاة : ٢٥٩/١ .

وكان يضن بها ضنا شديدا ، فكلم ابنه فيه ، على أن يجعل له فى كل كتاب منه جعلا – قد سماه – ، فأجابه إلى ذلك ، فأكمل نسخه ، ثم إن أبا العباس ظهر على ذلك بعد ، فسعى بأبى الحسين إلى بعض خدمة السلطان ليحبسه له ، ويعاقبه فى ذلك ، فامتنع منه أبو الحسين بصاحب خراج بغداد يومئذ وكان فيها أبو الحسين يؤدب ولده ، فأجاره صاحب الخراج منه ، ثم إن صاحب الخراج ألظ بأبى العباس المبرد يطلب إليه أن يقرأ عليه أبو الحسين الكتاب حتى فعل .

وفاته :

توفى أبو الحسين سنة ثمان وتسعين ومائتين ، وكان قد بلغ الخمسين ، وغلب عليه الشيب ، وكان به عرج فى رجله .

★ ★ ★

الطبقة الثالثة

١ - كُراع النمل (*) :

أبو الحسن على بن الحسن الهنائى الأزدى ، ويغلب على الظن أن أصله من أزد عُمان ، وانتقل مع أسرته إلى مصر ، رحل إلى بغداد ، وأخذ عن البصريين والكوفيين ، وكان يمزج بين آرائهم فى مصنفاته ، ولكنه كان إلى آراء البصريين أميل ، وقد سمى (كراع النمل) لدقة عظام سيقانه .

آثاره :

صنف أبو الحسن مصنفات نافعة ، يغلب عليها الجانب اللغوى ، منها :

١ - المنضد فى اللغة .

٢ - المجرد فى اللغة ، ومختصره .

٣ - المجهد فى اللغة ، ومختصره .

٤ - أمثلة غريب اللغة .

٥ - المصحف المنظم .

وفاته :

توفى كراع النمل بمصر سنة عشر وثلاثمائة .

٢ - أبو العباس بن ولاد (**) :

أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن محمد التميمى . رحل إلى بغداد ، ولقى أبا إسحق بن السرى الزجاج وغيره ، وأخذ عنهم : وكان بصيرا بالنحو ، أستاذا فيه .

(*) انظر فى ترجمة كراع النمل : معجم الأدباء : ١٣/١٣ ، بغية الوعاة : ١٥٨/٢ ، المدارس النحوية : ٣٢٩ ، تاريخ اللغة العربية فى مصر : ٦٢ .

(**) راجع فى ترجمة أبى العباس : طبقات الزبيدى : ٢١٩ ، معجم الأدباء : ٢٠١/٤ ، حسن المحاضرة : ٢٢٨/١، إنباه الرواة : ٩٩/١ ، مرآة الجنان : ٣١١/٢ ، تلخيص ابن مكتوم : ١٧ ، بغية الوعاة : ٣٨٦/١ .

روى إسماعيل بن القاسم قال :

«كان أبو إسحق الزجاج يفضل أبا العباس بن ولاد ، ويقدمه على أبى جعفر النحاس ، وكانا جميعا تلميذيه ، وكان الزجاج لايزال يثنى على من قدم بغداد من المصريين ويقول : لى عندكم تلميذ من حاله وشأنه ... ، فيقال له : أبو جعفر النحاس ؟ فيقول : لا ، هو أبو العباس بن ولاد .

مناظرة ابن ولاد والنحاس

روى محمد بن يحيى الرياحى قال :

«بلغنى أن بعض ملوك مصر جمع بين أبى العباس بن ولاد وبين أبى جعفر النحاس ، وأمرهما بالمناظرة ، فقال النحاس لأبى العباس : كيف تبنى من (افْعَلَوْتُ) من : رميت ؟ فقال له أبو العباس : أقول : ارْمَيَيْتُ ؛ فخطأه أبو جعفر وقال : ليس فى كلام العرب (افعلوت) ولا (افعليت) . فقال أبو العباس : إنما سألتنى أن أمثل لك بناء ، ففعلت . وإنما تغفله بذلك أبو جعفر» .

قال أبو بكر الزبيدى :

«أحسن أبو العباس بن ولاد فى قياسه ، حين قلب (الواو) ياء ، وقال فى ذلك بالمذهب المعروف ، لأن (الواو) تنقلب فى المضارع (ياء) لو قيل : ألا ترى أنك كنت تقول فيه : ترمى ، فلذلك قال : ارْمَيَيْتُ ، ولم يقل : ارْمَيَوْتُ ! .

والذى ذكره أبو جعفر أنه لا يقال : (افْعَلَيْتُ) صحيح ، فأما (ارعويت) و(اجأويت) فهو على مثال (افعللت) مثل : احمررت ، وانقلبت (الواو) الثانية ياء ، لانقلابها فى المضارع – أعنى : يرعوى – ولم يلزمها الإدغام ، كما لزم : احمرَّ ، لانقلاب المثل الثانى فى (ارعوى) .

وقد بينت ذلك فى كتابى المؤلف فى أبنية الأسماء والأفعال : وقد كان الأخفش سعيد بن مسعدة يبنى من الأمثلة ما مثل له ، وسئل أن يبنى عليه ، وإن

لم يكن ذلك فى كلام العرب ؛ وفى ذلك حجة لأبى العباس بن ولاد فيما تغفله فيه أبو جعفر ، وإن كان قولا قد رغب عنه جماعة من النحويين .

وفاته :

توفى أبو العباس بن ولاد بمصر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

٣ - أبو القاسم بن ولاد (٠) :

أبو القاسم عبدالله بن محمد بن الوليد بن محمد التميمى ، كان دون أخيه أبى العباس فى العلم ، وكان عنده نسخ أبيه أبى الحسين من كتاب سيبويه التى انتسخها من أصل أبى العباس المبرد ، وكان يُقرأ عليه الكتاب بعد أخيه أبى العباس .

٤ - أبو جعفر النحاس (٠٠) :

أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المعروف بالنحاس .

علمه وثقافته :

رحل إلى بغداد ، وأخذ عن على بن سليمان – الأخفش الأصغر – ، والمبرد ، والزجاج ، ونفطويه ، وابن الأنبارى ، وأعيان أدباء العراق .

كان عالما بالقراءات ، روى الحروف عن أبى الحسن بن شنبوذ ، وأبى بكر الداجونى ، وأبى بكر بن يوسف : وسمع الحديث من الحسن بن غليب ، وبكر بن سهل ، وروى عن النسائى وغيره .

---

(٠) انظر ترجمته فى : طبقات الزبيدى : ٢٢٠ .

(٠٠) انظر فى ترجمة النحاس : طبقات الزبيدى : ٢٢٠ ، إنباه الرواة : ١/١٠١ ، معجم الأدباء : ٤/٢٢٤ . نزهة الألباء : ٣٦٢ ، شذرات الذهب : ٢/٣٤٦ ، وفيات الأعيان : ١/٩٩ ، الأنساب : ٥٥٥ أ ، النجوم الزاهرة : ٣/٣٠٠ ، حسن المحاضرة : ١/٢٨٨ ، بغية الوعاة : ١/٣٦٢ ، والمزهر : ٢/٤٢٠ .

عقيدته :

كان النحاس يعتنق عقيدة أهل السنة ، ولم يأخذ بمذهب المعتزلة ، حيث يقول القفطى :

«ونزع فى صدره بالاتباع للسنة ، والانقياد للآثار ... ، وألف كتاب (إعراب القرآن) جلب فيه الأقاويل ، وحشد الوجوه ، ولم يذهب فى ذلك مذهب الاختيار والتقليد» .

مذهبه الفقهى :

كان النحاس شافعيا ، حيث كان لابن الحداد[1] الفقيه الشافعى ليلة فى كل جمعة يتكلم فيها على مسائل على طريق النحو ، فكان النحاس لايدع حضور مجلسه تلك الليلة[1] .

أخلاقه :

كان أبو جعفر لئيم النفس ، شديد التقتير على نفسه ، وكان ربما وهبت له العمامة ، فيقطعها ثلاث عمائم بخلا وشحا ، وكان يلى شراء حوائجه بنفسه ، ويتحامل فيها على أهل معرفته .

وكانت فيه خسة ، ولا يرتاح الرائى لمشاهدته ، ولولا ما عنده من العلم ، ما اجتمع عليه أحد ، وقد عبر عن ذلك الزبيدى بقوله : «... ولم تكن له مشاهدة . وإذا خلا بقلمه جود وأحسن» .

كما كان جاف الألفاظ ، متعجرفا فى حواره ، حتى قال عنه السيوطى : «وقلمه أحسن من لسانه» .

---

(١) أبو بكر بن الحداد المصرى ، من نظار أصحاب المذهب الشافعى ، وكبارهم ، ومتقدميهم ، أخذ الفقه عن أبى إسحق المروزى ، وكان إماما فى الفقه والعربية ، وانتهت إليه إمامة مصر فى عصره ، توفى سنة ٣٤٥ هجرية . (تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١٩٢) .

وكان لايطيق أن ينقده أو يخالفه أحد الرأى ، فقد روى الزبيدى : «حدثنى قاضى قضاة الأندلس المنذر بن سعيد البلوطى[1] قال :

أتيت ابن النحاس فى مجلسه ، وألفيته يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس ابن معاذ المجنون ، حيث يقول :

خَلِيلَىَّ هَلْ بِالشَّامِ عَيْنٌ حَزِينَةٌ ... تُبَكِّى عَلَى نَجْدٍ لَعَلِّى أُعِينُهَا
قَدِ اسْلَمَهَا الْبَاكُونَ إلاَّ حَمَامَةً ... مُطَوَّقَةً بَاتَتْ وَبَاتَ قَرِينُهَا

فقلت : باتا يفعلان ماذا ؟ أعزك الله ! فقال لى : وكيف تقول أنت ؟ فقلت : (بانت وبان قرينها) ، فسكت ، ومازال يستثقلنى بعدها حتى منعنى كتاب (العين) ، وكنت قد عزمت على الانتساخ من نسخته ؛ فلما قطع بى قيل لى : أين أنت من أبى العباس بن ولاد ؟! فقصدته ، فلقيت رجلا كامل العقل والأدب ، حسن المروءة ، وسألته الكتاب ، فأخرجه لى ؛ ثم تندم أبو جعفر حين بلغه إباحة أبى العباس كتابه لى ، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه»[2] .

إلا أنه كان لا يتكبر أن يسأل الفقهاء وأهل النظر ، ويناقشهم فيما استشكل عليه فى تأليفه .

وكان للناس رغبة شديدة فى الأخذ عنه ، فنفع ، وأفاد ، وأخذ عنه خلق كثير من مصر وخارجها ، حيث وفد عليه الطلاب من الأندلس ، وفى مقدمتهم محمد بن يحيى الرباحى الذى حمل عنه كتاب سيبويه رواية ، وأخذ يدرسه لطلابه بقرطبة .

آثاره :

خلف أبو جعفر النحاس مؤلفات ومصنفات نافعة فى النحو والصرف والأدب وعلوم القرآن منها :

---

(١) قاضى قضاة قرطبة فى عهد الناصر لدين الله ، كان على مذهب أهل الظاهر ، ولكنه كان يقضى بمذهب مالك وأصحابه ، كان متفننا فى ضروب من العلوم ، جلب إلى الأندلس كتاب (العين) للخليل بن أحمد ، رواية عن أبى العباس بن ولاد .

(٢) إنباه الرواة : ١/١٠٣ .

١ – إعراب القرآن .

٢ – الناسخ والمنسوخ فى القرآن .

٣ – تفسير أسماء الله – عز وجل – .

٤ – الكافى فى أصول النحو .

٥ – المقنع فى اختلاف البصريين والكوفيين .

٦ – الاشتقاق .

٧ – شرح أبيات سيبويه .

٨ – شرح المعلقات .

٩ – أخبار الشعراء .

١٠ – صناعة الكتاب[١] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «كان من الفضلاء ، وله تصانيف مفيدة» .

وقال عنه القفطى : «كان من أهل العلم بالفقه والقرآن» .

وقال عنه الزبيدى : «كان فى الناس واسع العلم ، غزير الرواية ، كثير التأليف» .

وقال عنه ابن يونس – صاحب تاريخ مصر – : «كان عالما بالنحو ، صادقا ، وكتب الحديث» .

وقال عنه السيوطى : «من أهل الفضل الشائع ، والعلم الذائع» .

---

(١) المصدر السابق : ١/١٠٢ .

وفاته :

توفى أبو جعفر النحاس بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ، وقيل : سبع وثلاثين وثلاثمائة .

وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل بجزيرة الروضة - والنيل فى أيام زيادته ومده - وأخذ يقطع بيتا من الشعر ، فسمعه بعض العوام ، فقال : هذا يسحر النيل حتى لا يزيد ، فتغلو الأسعار . ودفعه بقدمه فى النيل ، فذهب فى المد ، ولم يوقف له على خبر[1] .

٥ - الكندى (*) :

أبو النصر محمد بن إسحق بن أسباط الكندى . نزل أنطاكية ، ثم صار إلى مصر .

أخذ عن الزجاج وغيره ، وكان شيخ أهل الأدب ، وله تقدم فى المنطق وعلوم الأوائل .

صنف كتاب (المغنى) فى النحو ، و (الموقظ) و (التلقين) : كما صنف كتابا فى النحو أيضا سماه (كتاب العيون والنكت) ذهب فيه إلى حد الاسم : والفعل ، والحرف ، وتلا ذلك بذكر شيء من أبواب الياء والواو . ولم يوقف له على تاريخ وفاته .

٦ - علأن (**) :

على بن الحسن بن محمد بن يحيى المعروف بـ (عَلأن) .

---

(١) إنباه الرواة : ١/١٠٢ .

(*) انظر ترجمة الكندى فى : معجم الأدباء : ١٨/١٤ ، الوافى بالوفيات : ٢/١٩٥ ، طبقات الزبيدى : ٢٢١ ، بغية الوعاة : ١/٥٣ .

(**) انظر فى ترجمة علان : طبقات الزبيدى : ٢٢٢، والبغية : ٢/١٥٧ .

كان نحويا ، من ذوى النظر والتدقيق فى المعانى ، وكان قليل الحفظ لأصول النحو ، فإذا حفظ الأصل تكلم عليه فأحسن ، وجوّد فى التعليل ، ودقق فى القول ما شاء .

وفاته :

توفى علان بمصر فى شهر شوال سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .

ملاحظة :

بترجمة (علان) ، توقف أبو بكر الزبيدى ، وغيره من مؤلفى طبقات النحويين عن نظم من تلاه من النحاة فى طبقات بعينها ، وربما كان مرد ذلك هو تتابع الجماعات التى قدمت إلى مصر ، وحكمتها ، وتسلمت أزمة الأمور فيها فترات متعاقبة من الزمن ، كالفاطميين ، والإخشيديين ، والأيوبيين ، والمماليك ، والعثمانيين ، وما كان يتبع ذلك من صعود وهبوط فى مستويات العلم والفكر فى البلاد ، مما يصعب معه تصنيف العلماء ، وتقسيمهم ، وعزوهم إلى طبقات محددة .

وليس بضائرنا أن نحاول تصنيف نحاة مصر فى طبقات قد تكون أقرب إلى الواقع ، بحيث نعتبر كل حقبة من هذه الحقب السياسية طبقة معينة ، وننسب إليها كل من ظهر فيها من النحاة المبرزين الذين كانت لهم بصمات متميزة على جبين الدراسات النحوية بها ، فنقول وبالله التوفيق .

* * *

الطبقة الرابعة
[عهد الفاطميين]

١ - الإدفوى [*] :

أبو بكر محمد بن على بن محمد الإدفوى ، نسبة إلى مدينة (إدفو) من صعيد مصر .

ولد فى شهر صفر سنة خمس ، أو ثلاث ، أو أربع وثلاثمائة ، والأخير أصح .

أخذ النحو عن أبى جعفر النحاس ، والقراءات عن أبى غانم المظفر أحمد بن حمدان .

كان يروى عن أستاذه النحاس كل تصانيفه فى النحو وعلوم القرآن ، وكان يعمل فى بيع الخشب .

صنف كتاب (الاستغناء فى تفسير القرآن) فى مائة مجلد ، جمع فيه من علوم العربية ما لم يجتمع فى غيره .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الدانى : «انفرد بالإمامة فى قراءة نافع ، ورواية ورش ، مع سعة علمه ، وبراعة فهمه ، وصدق لهجته ، وتمكنه من علم العربية ، وبصره بالمعانى» .

وقال عنه السيوطى : «كان من أهل الدين والصلاح والأدب والعلم» .

وفاته :

توفى أبو بكر يوم الخميس سابع ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

(*) انظر ترجمة الإدفوى : إنباه الرواة : ٣/١٨٦ ، شذرات الذهب : ٣/١٢٠ ، بغية الوعاة : ٢/١٨٩ ، طبقات القراء : ٢/١٩٨ ، طبقات المفسرين للسيوطى : ٣٨ .

٢ - الحوفى (*) :

أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفى ، نسبة إلى حوف بلبيس من محافظة الشرقية ، أى : من ريف بلبيس ، وأصله من قرية فيه تسمى (شبرا النخلة) .

قدم إلى القاهرة ، فسمع من أبى بكر الإدفوى ، وبعض علماء المغرب الذين نزحوا إلى القاهرة ، وسرعان ما اشتهر علمه وأدبه ، فتصدر لإقراء العربية .

آثاره :

صنف الحوفى مصنفات نافعة فى النحو والأدب وعلوم القرآن منها :

١ – البرهان فى تفسير القرآن .

٢ – علوم القرآن .

٣ – إعراب القرآن . فى عشرة مجلدات ، كان العلماء يتنافسون على تحصيله .

٤ – الموضح فى النحو .

وقد تتبع ابن هشام الحوفى فى (الموضح) ، وقرر أنه يفرط فى إعراب الواضحات مما لا حاجة إليه ، كما توقف مرارا بإزاء توجيهات الحوفى الإعرابية لبعض آى القرآن الكريم ، كل ذلك فى كتابه (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «كان عالما بالعربية وتفسير القرآن الكريم ، وله تفسير جيد ، واشتغل عليه خلق كثير . وانتفعوا به ؛ ورأيت خطه على كثير من كتب الأدب قد قرئت عليه ، وكتب لأربابها بالقراءة ، كما جرت عادة المشايخ .

(*) انظر فى ترجمة الحوفى : معجم الأدباء : ١٢/٢٢١ ؛ إنباه الرواة : ٢/٢١٩ ، وفيات الأعيان ٣/٣٠٠ ، الأنساب : ١٨١ ، شذرات الذهب : ٣/٢٤٧، بغية الوعاة : ٢/١٤٠ .

وفاته :

توفى الحوفى بكرة يوم السبت مستهل ذى الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة .

٢ - ابن بابشاذ (*) :

أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ[1] بن داود بن سليمان بن إبراهيم ، يقال : إن أصله من الديلم ، وكان جده أو أبوه قد قدم إلى مصر تاجرا .

ولد أبو الحسن ، ونشأ بمصر ، ثم سافر إلى العراق للاتجار فى اللؤلؤ ، فجنحت نفسه إلى تلقى العلم عن علمائه ، وفتح الله عليه فيه ، ثم عاد إلى مصر ، فتصدر للإفادة فى جامع عمرو بن العاص ، وانتفع الناس بعلمه .

وكانت له - إلى جانب ذلك - وظيفة رسمية يتقاضى عنها راتبا شهريا كبيرا من خزانة الدولة ، وهى الإشراف على ديوان الإنشاء ، بحيث لا يخرج كتاب من ديوان الإنشاء حتى يعرض عليه ويتأمله ، فإذا كان به خطأ من جهة النحو أو اللغة ، أصلحه قبل أن يسير إلى الجهة التى كتب إليها ، وظل على ذلك زمانا .

تزهده :

تزهد أبو الحسن ، وانقطع عن الناس ، وترك وظيفته فى ديوان الإنشاء ، وكان انقطاعه فى غرفة بسطح جامع عمرو بن العاص ، بعد أن جمع أطرافه ، وباع ما حوله ، وأبقى ما لابد منه .

وكان سبب تزهده أنه كان له قط قد أنس به ورباه ، وكان لا يخطف شيئا ، ولا يؤذى شيئا من خارج ؛ وإنه يوما اختطف من يده فرخ حمام مشويا ، فعجب منه كثيرا ، ثم عاد بعد أن غاب ساعة ، فاختطف فرخا آخر وذهب ، فتبعه الشيخ

(*) انظر فى ترجمة ابن بابشاذ : معجم الأدباء : ١٢/١٧ ، إنباه الرواة : ٢/٩٥ ، وفيات الأعيان : ٢/٥١٥ ، نزهة الألباء : ٣٦١ ، شذرات الذهب : ٣/٣٢٣ ، مرآة الجنان : ٣/٩٨ ، بغية الوعاة : ٢/١٧ .

(١) بابشاذ : كلمة فارسية تعنى بالعربية الفرح والسرور.

إلى خرق فى البيت ، فرآه قد دخل فى الخرق ، وقفز منه إلى سطح قريب ، ووضع الفرخ بين يدى قط هناك ، فتأمله الشيخ فإذا هو أعمى مفلوج لا يقدر على الانبعاث ، فتعجب وقال : إذا كان هذا حيوان أخرس قد سخر الله له هذا القط فيقوم بكفايته ، ولم يحرمه الرزق ، فكيف يضيّع مثلى ! ، ثم قطع علائقه ، وترك راتبه واشتغاله ، ولزم بيته ، متوكلا على الله ، ومازال محروسا محمول الكلفة إلى أن مات .

آثاره :

خلف ابن بابشاذ كتبا مفيدة فى النحو منها :

١ – المقدمة ، وشرحها .

٢ – شرح الجمل للزجاجي .

٣ – شرح الأصول فى النحو لابن السراج .

٤ – المحتسب فى النحو .

٥ – شرح النخبة .

٦ – تعليق الغرفة .

وعن (تعليق الغرفة) يقول القفطى : «وجمع فى حال انقطاعه تعليقة كبيرة فى النحو ، قيل لنا : لو بيضت لقاربت خمسة عشر مجلدا ، وسماها النحاة بعده الذين وصلت إليهم (تعليق الغرفة) ، وانتقلت هذه التعليقة إلى تلميذه أبى عبدالله محمد بن بركات العيدى المتصدر بموضعه والمتولى للتحرير ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبى محمد عبدالله بن برى النحوى المتصدر بموضعه والمتولى للتحرير ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه الشيخ أبى الحسين النحوى المنبوز بثلط الفيل المتصدر فى موضعه ؛ وقيل : إن كل واحد من هؤلاء كان يهبها لتلميذه ، ويعهد إليه بحفظها ، ولقد اجتهد جماعة من طلبة الأدب فى انتساخها فلم يمكن .

ولما توفى أبو الحسين النحوى ، وبلغنى ذلك وأنا مقيم بحلب ، أرسلت من أثق به ، وسألته تحصيل (تعليق الغرفة) بأى ثمن بلغت ، وكتاب (التذكرة) لأبى

على الفارسى ، فلما عاد ذكر أن الكتابين وصلا إلى ملك مصر الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن نجم الدين أيوب ، فإنه كان يرغب فى النحو ، وغريب ما صنف فيه»[1] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «كان إمام عصره فى علم النحو» .

وقال عنه السيوطى : «أحد الأئمة فى هذا الشأن ، والأعلام فى فنون العربية ، وفصاحة اللسان» .

وفاته :

مات ابن بابشاذ عشية اليوم الثالث من شهر رجب سنة تسع وستين وأربعمائة بمصر ، ودفن فى القرافة الكبرى - عليه رحمة الله - .

وكان سبب وفاته أنه خرج من غرفته التى انقطع فيها بسطح جامع عمرو ابن العاص فى ليلة مقمرة ، وفى عينيه بقية من النوم ، فزلت قدمه ، وارتطمت بإحدى الطاقات المؤدية للضوء إلى الجامع ، فسقط وأصبح ميتا .

٤ - ابن بركات (*) :

أبو عبدالله محمد بن بركات بن هلال بن عبدالواحد السعيدى .

ولد بمصر سنة عشرين وأربعمائة ، وأخذ النحو والأدب عن ابن بابشاذ ، وروى عن عبدالباقى بن فارس المقرئ ، وأبى القاسم سعد بن على الزنجانى ، وأبى عبدالله محمد بن مسعود الغزنى المعروف بالزكى - صاحب البديع - ، والقاضى أبى عبدالله محمد بن سلامة القضاعى ، وأبى الحسن على بن منده

---

(١) إنباه الرواة : ٢/٩٦ .

(*) انظر فى ترجمة ابن بركات : معجم الأدباء : ١٨/٣٩ ، إنباه الرواة : ٣/٧٨ ، شذرات الذهب : ٤/٦٢ ، مرآة الجنان : ٣/٢٢٥ ، بغية الوعاة : ١/٥٩ .

القمى ، والعلامتين أبى الفتح عثمان بن جنى ، وكريمة المروزية ، وروى عنه السّلفى ، وأبو القاسم البوصيرى .

آثاره :

ألف ابن بركات كتابا فى الناسخ والمنسوخ فى القرآن للأفضل أمير الجيوش سماه (الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من منسوخ وناسخ) ، وقيل : كانت له تصانيف فى النحو سقطت من يد الزمن .

شعره :

روى أن ابن بركات وقف للأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ، وهو راكب فى الطريق فأنشده :

يَا رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِى ... وَاسِعُهَا لَمْ يَضِقِ
لَمْ يَبْقَ إلاَّ رَمَقِى ... فَاسْتَبْقِ مِنِّى رَمَقِى
تِسْعُونَ عَامًا ثُنِّيَتْ ... بِخَمْسَةٍ فِى نَسَقِ
وَعَنْ قَلِيلٍ لاَ أُرَى ... كَأَنَّنِى لَمْ أُخْلَقِ

فسأل الأفضل عنه ، فقيل له : هذا بحر العلم ابن بركات النحوى ، فقال له الأفضل : أنت شيخ معروف ، وفضلك موصوف ، وقد حملنا عنك الوقوف ، وأمر له بشىء .

وروى عنه السّلفى قوله : كنت سمعت قول على بن الجهم :

عَلَى أَعْجَازِهَا قِرَمٌ إذَا مَا ... عَنَاهُ الْقَوْلُ أَوْجَزَ فِى تَمَامِ

فاستحسنته ، وظننت أن ما قيل فى الإيجاز أحسن منه ، ولم أزل أبحث عنه خمسين سنة ، حتى قلت ما هو أحسن منه :

لَسِنٌ عَلِيمٌ بِالْخِطَابِ وَفَصْلِهِ ... كَثُرَتْ عَلَى إِيجَازِهِ غَرَّاؤُهُ
فَكَأَنَّ رَوْضًا نَاضِرًا مَا خَطُّهُ ... وَالشَّكْلُ نُورٌ فَتَّحَتْهُ سَمَاؤُهُ

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ياقوت الحموى : «عالى المحل فى النحو واللغة والأدب ، أحد فضلاء المصريين ، وأعيانهم المبرزين ، وله معرفة بالأخبار والأشعار ، وتصانيف فى النحو وغيره» .

وفاته :

توفى ابن بركات فى شهر ربيع الآخر سنة عشرين وخمسمائة .

٥ - ابن برى (*) :

أبو محمد عبدالله بن أبى الوحش برى بن عبدالجبار بن برى ، أصله من القدس .

ولد بمصر فى الخامس من شهر رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

علمه وثقافته :

أخذ ابن برى العربية عن محمد بن بركات ، وأبى بكر محمد بن عبدالملك الشنتريني ، وأبى طالب عبدالجبار بن محمد بن على المعافرى وغيرهما .

وسمع الحديث على أبى صادق المدينى ، وأبى عبدالله الرازى وغيرهما .

وكان عارفا بكتاب سيبويه وعلله بعد أن قرأه على الشنتريني ، وصحبه خلق كثير ، اشتغلوا عليه ، وانتفعوا به ، وعلى رأسهم أبو موسى الجزولى ، صاحب المقدمة المشهورة ، وعمل متصفحا فى ديوان الإنشاء ، وكانت له حلقة درس بجامع عمرو بن العاص .

(*) انظر فى ترجمة ابن برى : معجم الأدباء : ٥٦/١٢ ، إنباه الرواة : ١١٠/٢ ، وفيات الأعيان : ١٠٨/٣ ، شذرات الذهب : ٢٧٣/٤ ، مرآة الجنان : ٤٢٤/٣ ، طبقات الشافعية للسبكى : ٢٣٣/٤ ، بغية الوعاة : ٣٤/٢ .

أخلاقه :

يقول عنه ابن خلكان : «لم يكن ابن برى يتكلف فى كلامه ، ولا يتقيد بالإعراب ، بل يسترسل فى حديثه كيفما اتفق ، حتى قال يوما لبعض تلامذته ممن يشتغل عليه فى النحو : اشتر لى قليل هندبا بعروقو ، فقال له التمليذ : هندبا بعروقه ، فعز عليه كلامه وقال له : لا تأخذه إلا بعروقو ، وإن لم يكن بعروقو فما أريده ؛ وكانت له ألفاظ من هذا الجنس ، لا يكترث بما يقوله منها ، ولا يتوقف على إعرابها» .

وقال عنه السيوطى : «... وكان – مع علمه ، وغزارة فهمه – ذا غفلة ، ويحكى عنه حكايات عجيبة ، منها أنه جعل فى كمه عنبا ، فجعل يعبث به وهو يحدث شخصا معه ، حتى نقط العنب على رجليه ، فقال لرفيقه : تحس المطر ؟ قال : لا ، قال : فما هذا الذى ينقط على ؟ فقال له : هذا من العنب . فخجل ومضى» .

آثاره :

خلف ابن برى مصنفات قيمة فى النحو اللغة والأدب والفقه منها :

١ – اللباب فى الرد على ابن الخشاب . ألفه لما ألف ابن الخشاب كتابه (الرد على الحريرى فى «درة الغواص») ، انتصر فيه للحريرى .

٢ – حواش على (درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى .

٣ – جواب المسائل العشر . التى استشكلها ملك النحاة أبو نزار الحسن بن صافى ، وسماها (المسائل العشر المتعبات إلى الحشر) .

٤ – أغاليط الفقهاء .

٥ – حواش على معجم (الصحاح) للجوهرى . وهى حواش فائقة القيمة ، عالية الفائدة ، جعلها فى ستة مجلدات ، وقد أتى فيها بالغرائب ، واستدرك على الجوهرى فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه ، وغزارة مادته ،

وعظم اطلاعه ؛ وكانت هذه الحواشى أحد المصادر الخمسة التى اعتمد عليها ابن منظور فى تأليف معجمه (لسان العرب) وقد أشار هو بذلك فى مقدمته .

ولكن صلاح الدين الصفدى – صاحب (الوافى بالوفيات) قال : «إن ابن برى لم يكمل هذه الحواشى ، وإنما وصل فيها إلى مادة (وقش) ، وهى تمثل ربع الكتاب ، فأكملها الشيخ عبدالله محمد البسطى»[1] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «الإمام المشهور فى علم النحو ، واللغة ، والرواية ، والدراية : كان علامة عصره ، وحافظ وقته ، ونادرة دهره .

وقال السيوطى : «شاع ذكره ، واشتهر أمره ، ولم يكن فى الديار المصرية مثله» .

وفاته :

توفى ابن برى بمصر ليلة السبت السابعة والعشرين من شهر شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة – عليه رحمة الله .

★ ★ ★

---

(١) بغية الوعاة : ٢/ ٣٤ .

الطبقة الخامسة

[عهد الأيوبيين]

١ - البَلَطى (*) :

تاج الدين أبو الفتح عثمان بن عيسى بن منصور بن محمد البَلَطى ، أصله من الموصل .

أقام بدمشق فترة ، وكان هو نحوى دمشق فى وقته ؛ ولما تولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر ، انتقل إليها ، فحظى بها ، ورتب له صلاح الدين راتبا على أن يقرئ النحو والقراءات فى أحد جوامعها .

أخذ النحو عن أبى نزار ، وسعيد بن الدهان ، وكان يخلط بين مذهبى البصريين والكوفيين فى النحو .

أخلاقه :

كان البلطى خليعا ماجنا ، شرابا للخمر ، منهمكا فى اللذات ، وكان يتصرف تصرفات غريبة ، منها أنه حضر عنده مغنٍّ ، فغناه صوتا أطربه ، فبكى ، وبكى معه المغنى ؛ فقال للمغنى : أما أنا فبكيت من الطرب ، فما الذى أبكاك ؟! فقال المغنى : تذكرت والدى ، فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى ، فقال له البلطى : فأنت والله إذن ابن أخى ، وخرج فأشهد على نفسه جماعة من عدول مصر بأنه ابن أخيه ، ولا وارث له سواه ، ولم يزل يعرف بابن أخى البلطى .

وكان يلبس الطيلسان ، ولا يديره على عنقه بل يرسله ، وكان يلبس فى الصيف الثياب الكثيرة ، ويختفى فى الشتاء ، فكان يقال له : أنت من حشرات الأرض .

وكان يدخل الحمام وعلى رأسه مبطنة ، لا يرفعها إلا إذا سكب الماء على رأسه ، ثم يلبسها حتى يملأ السطل .

(*) انظر فى ترجمة البلطى : معجم الأدباء : ١٢/١٤١ ، إنباه الرواة : ٢/٣٤٤ ، بغية الوعاة : ٢/١٣٥ .

آثاره :

صنف البلطى عدة مصنفات فى النحو واللغة والعروض والأدب منها :

١ – كتاب (النبر فى العربية) .

٢ – العروض الصغير .

٣ – العروض الكبير .

٤ – علم أشكال الخط .

٥ – أخبار المتنبى .

٦ – قصيدة يحسن فى قوافيها الرفع والنصب والخفض .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ياقوت الحموى : «كان عالما ، إماما ، نحويا ، لغويا ، إخباريا ، مؤرخا ، شاعرا ، عروضيًا ، وكان يخلط بين المذهبين» .

وفاته :

توفى البلطى فى آخر شهر صفر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ومكث فى بيته ثلاثة أيام لا يعلم بموته أحد .

٢ - الدقيقى (*) :

أبو عبدالغنى تقى الدين سليمان بن بنين بن خلف الدقيقى .

لازم ابن برى مدة فى النحو ، وأخذ منه الكثير ، وروى عنه المنذرى .

آثاره :

صنف الدقيقى كتبا كثيرة فى النحو واللغة والعروض والشعر والأخلاق والحكم ، منها :

(*) انظر فى ترجمة الدقيقى : بغية الوعاة : ٥٩٧/١ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى .

١ – لباب الألباب فى شرح أبيات الكتاب .

٢ – الوضاح فى شرح أبيات الإيضاح .

٣ – إغراب العمل فى شرح أبيات الجمل .

٤ – منتهى الأدب فى مبتدأ كلام العرب .

٥ – الدرة الأدبية فى نصرة العربية .

٦ – فرائد الآداب وقواعد الإعراب .

٧ – آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد .

٨ – التنبيه على الفرْق والتشبيه .

٩ – الروض الأريض فى أوزان القريض .

١٠ – الأحكام الشوافى فى أحكام القوافى .

١١ – أنوار الأزهار فى معانى الأشعار .

١٢ – معانى التبر فى محاسن الشعر .

١٣ – تحبير الأفكار فى تحرير الأشعار .

١٤ – المجمل الكافى فى خلل القوافى .

١٥ – الأفلاك السوائر فى انفكاك الدوائر .

١٦ – مكارم الأخلاق لطيب الأعراق .

١٧ – إنجاز المحامد فى إنجاز المواعد .

١٨ – الدِّيَم فى الشيم العادلية .

١٩ – اتفاق المبانى وافتراق المعانى .

٢٠ – إعجاز الإيجاز فى المعانى والألغاز .

٢١ – البسط فى أحكام الخط.

٢٢ – الدرر القردية فى الغرر الطردية.

٢٣ – بذل الاستطاعة فى الكرم والشجاعة.

٢٤ – فضائل البذل على العسر.

٢٥ – رذائل البخل على اليسر.

٢٦ – دلائل الأذكار على فضائل الأشعار.

٢٧ – عنوان السلوان.

٢٨ – الشامل فى فضائل الكامل.

٢٩ – الكواكب الدرية فى المناقب الصدرية.

٣٠ – محض النصائح ومخض القرائح.

٣١ – سلوان الجلد عند فقد الولد.

٣٢ – كمال المزية فى احتمال الرزية.

٣٣ – الأقوال العربية فى الأمثال النبوية.

٣٤ – أخلاق الكرام وأخلاق اللئام.

٣٥ – الكتاب الوافى فى علم القوافى.

قال اليغمورى فى «تذكرته – بعد أن سرد هذه المؤلفات للدقيقى – : «هذا آخر ما وُجِد من تصانيفه بخط وجيه الدين الصبان، وقد نقله من خطه الشريف الإدريسى أبو عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز؛ وقد أجاز الدقيقى رواية جميع هذه الكتب فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وستمائة للقاضى ضياء الدين أبى الحسين محمد بن إسماعيل بن أبى الحجاج المقدسى».

وفاته :

توفى الدقيقى سنة أربع عشرة وستمائة هجرية .

٢ - ابن معط (*) :

أبو الحسين زين الدين يحيى بن عبدالمعطى بن عبدالنور الزواوى .

ولد بالمغرب – فى قبيلة زواوة – سنة أربع وستين وخمسمائة .

قرأ على الجزولى ، وسمع من ابن عساكر ، رحل إلى دمشق واستوطنها مدة ، وفيها انتفع الخلق بعلمه دراسة وتصنيفا .

ثم أرغبه الملك الكامل الأيوبى فى القدوم إلى مصر ، فتصدر لتدريس النحو والأدب بالجامع العتيق على أجر جزيل ، وأخذ عنه خلق كثير .

آثاره :

خلف ابن معط بعد وفاته مصنفات نافعة فى النحو واللغة والعروض والأدب منها .

١ – الدرة الألفية فى النحو .

٢ – الفصول الخمسون .

٣ – العقود والقوانين فى النحو .

٤ – شرح الجمل للزجاجى .

٥ – حواش على أصول ابن السراج .

٦ – نظم شرح أبيات سيبويه .

٧ – نظم الصحاح للجوهرى . ولم يكمله .

(*) انظر فى ترجمة ابن معط : معجم الأدباء : ٣٥/٢٠ ، شذرات الذهب : ١٢٩/٥ ، وبغية الوعاة : ٣٤٤/٢ .

٨ – نظم الجمهرة لابن دريد .

٩ – نظم كتاب فى العروض .

١٠ – كتاب المثلث فى اللغة .

١١ – قصيدة فى القراءات السبع .

١٢ – ديوان شعر .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيوطى : «كان إماما مبرزا فى العربية ، وشاعرا محسنا ، وكان يحفظ شيئا كثيرا ، فمن جملة محفوظاته : صحاح الجوهرى .

وفاته :

توفى ابن معط فى سلخ ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بالقرب من الإمام الشافعى – عليه رحمة الله – .

٤ - ابن الرماح (*) :

أبو الحسين على بن عبدالصمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرماح .

ولد بالقاهرة سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

قرأ النحو على يحيى بن عبدالله ، والقراءات على أبى الجيوش بن عساكر ابن على ، وغياث بن فارس اللخمى ، وسمع من أبى طاهر السِّلَفى وغيرهم .

تصدر لإقراء النحو والقراءات بالقاهرة ، وقرأ عليه خلق كثير ، وروى عنه الزكى المنذرى ، والأبرقوهى ، وأجاز لتقى الدين الدقيقى ، واتصل بخدمة السلطان مدة ، ولعل ذلك ما شغله عن مزاولة التأليف والتصنيف .

(*) انظر فى ترجمة ابن الرماح : بغية الوعاة : ٢/١٧٥ . وطبقات القراء للذهبى .

آثاره :

قيل : إن له مجموعا في النحو ، يتردد ذكره في الأشباه والنظائر للسيوطي ، مع بعض ملاحظاته وآرائه .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الذهبي : «من أعيان النحاة ، وأكابر القراء ، وكان حسن السمعة ، جيد الإقراء» .

وفاته :

توفي ابن الرماح يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

٥ - السخاوي (*) :

أبو الحسن علم الدين علي بن محمد بن عبدالصمد بن عبدالأحد بن عبدالغالب الهمداني السخاوي .

ولد بقرية (سخا) من محافظة الشرقية بمصر سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمسمائة .

أخذ عن الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي بالقاهرة ، وأتقن عليه علم النحو واللغة والقراءات ، كما أخذ عن أبي الجود غياث بن فارس بن مكي ، وسمع بالإسكندرية من السِّلَفي ، وابن عوف ؛ وأخذ أيضا بمصر عن البوصيري ، وابن ياسين .

ثم انتقل إلى دمشق ، فأخذ عن التاج الكندي ، ولم يسند عنه القراءات ، حيث قيل : إن الشاطبي قال له : إذا مضيت إلى الشام ، فاقرأ على الكندي ، ولا ترو عنه ؛ كما روى أنه رأى الشاطبي في النوم ، فنهاه أن يروى بغير ما أقرأه .

(*) انظر في ترجمة السخاوي : معجم الأدباء : ١٥/٦٥ ، إنباه الرواة : ٢/٣١١ ، وفيات الأعيان : ٣/٣٤٠ ، طبقات القراء : ١/٥٦٨ ، طبقات الشافعية : ٥/٢٦ ، بغية الوعاة : ٢/١٩٢ .

وتصدر للإقراء بجامع دمشق ، وازدحم عليه الناس لأجل القراءة ، ولم يكن له شغل إلا العلم .

أخلاقه :

قال عنه ابن فضل الله العمرى : «كان على جانب من التواضع والدين والمودة وحسن الخلق ، من أفراد العالم ، و أذكياء بنى آدم ، مليح المجاورة ، حلو النادرة ، حاد القريحة ، مطرح التكلف .

آثاره :

خلف السخاوى من المصنفات القيمة فى النحو واللغة والقراءات والأصول منها :

١ - شرح المفصل للزمخشرى فى أربعة مجلدات سماه (المفضل) .

٢ - سفر السعادة وسفير الإفادة فى النحو .

٣ - شرح آخر على مفصل الزمخشرى .

٤ - شرح أحاجى الزمخشرى النحوية .

٥ - شرح الشاطبية .

٦ - شرح الرائية .

٧ - الكوكب الوقاد فى أصول الدين .

شعره :

كان السخاوى يقرض الشعر ، وكان شعره فى الطبقة العليا ، وكان - فى شرحه لأحاجى الزمخشرى - يلتزم أن يعقب شرح كل أحجيتين بلغزين من نظمه ، ومن شعره حين حضرته الوفاة :

قَالُوا : غَداً نَأتِى دِيَارَ الحِمَى ... وَيَنْزِلُ الرَّكْبُ بِمَغْنَاهُمُ
وَكُلُّ مَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُمْ ... أَصْبَحَ مَسْرُورًا بِلُقْيَاهُمُ

قُلْتُ : فَلِى ذَنْبٌ فَمَا حِيلَتِى بِأَىِّ وَجْهٍ أَتَلَقَّاهُمْ
قَالُوا : أَلَيْسَ الْعَفْوُ مِنْ شَأْنِهِمْ لاَسِيَّمَا عَمَّنْ تَرَجَّاهُمْ

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان : «انتقل إلى دمشق ، وتقدم بها على علماء فنونه ، واشتهر ، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم ... ورأيته مرارا يركب بهيمة وهو يصعد جبل الصالحين ، وحوله اثنان أو ثلاثة ، وكل واحد يقرأ فى موضع غير الآخر ، والكل فى دفعة واحدة ، وهو يرد على الجميع ، وكان أقعد بالعربية والقراءات من الكندى» .

وقال ابن فضل الله : «كان إماما علامة ، مقرئا ، محفظا ، مجودا ، بصيرا بالقراءات وعللها ، إماما فى اللغة والنحو والتفسير ، عارفا بالفقه وأصوله ، طويل الباع فى الأدب» .

وفاته :

توفى السخاوى بدمشق ليلة الأحد ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وقد نيف على التسعين - عليه رحمة الله - .

٦ - ابن الحاجب (*) :

أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن بكر بن يونس الدرينى ، كان أبوه جنديا كرديا ، يعمل حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحى، فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته .

ولد أبو عمرو بإسنا[1] سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، واشتغل فى صغره بعد أن رحل إلى القاهرة بالقرآن الكريم ، وأخذ بعض القراءات عن الشاطبى :

(*) انظر فى ترجمة ابن الحاجب : طبقات القراء لابن الجزرى : ١/٥٠٨ ، وطبقات القراء للذهبى : ٢/٢٠١ ، وشذرات الذهب : ٥/٢٣٤ ، وفيات الأعيان : ٣/٢٤٨ ، بغية الوعاة/ ١٣٤ .

(١) إسنا : بليدة من أعمال التوصية بمحافظة قنا بالصعيد الأعلى من مصر .

ثم قرأ بالسبع على أبى الجود بن غياث ، وسمع من البوصيرى وجماعة ، وأخذ الفقه على مذهب الإمام مالك عن أبى منصور الإبيارى وغيره ، وتأدب على الشاطبى وابن البناء ، وأخذ النحو عن الرضى القسطنطينى ، وبرع فى هذه العلوم وأتقنها غاية الإتقان .

وحدّث عنه المنذرى والدمياطى ، كما حدّث عنه بالإجازة العماد البالسى ، ويونس الدبوسى .

ثم انتقل إلى دمشق ، فتصدر للتدريس فى جامعها بزاوية المالكية ، وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، والتزم لهم الدروس ، وتبحر فى الفنون ، وكان الأغلب عليه علم النحو .

ثم عاد إلى مصر هو والشيخ عز الدين بن عبدالسلام ، وتصدر للتدريس بالمدرسة الفاضلية فى القاهرة ، ولازمه الطلبة ، وانتفع به خلق كثير ؛ ثم انتقل إلى الإسكندرية ليقيم بها ، ولكن مدته لم تطل بها .

آثاره :

خلف ابن الحاجب مصنفات قيمة فى النحو والصرف والعروض والفقه منها .

١ – الكافية فى النحو ، وشرحها ، ونظمها .

٢ – الوافية فى النحو ، وشرحها .

٣ – الشافية فى التصريف ، وشرحها .

٤ – الإيضاح فى شرح مفصل الزمخشرى .

٥ – المنتهى فى أصول الفقه .

٦ – مختصر فى أصول الفقه .

٧ – مختصر فى الفقه المالكى .

٨ – قصيدة فى العروض .

٩ – الأمالى النحوية . بعضها على آى من القرآن الكريم ، وبعضها على مواضع من المفصل ، ومواضع من الكافية ، وأشياء نثرية ؛ وقد خالف النحاة فى مواضع، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة تعسر الجواب عنها .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلكان – وكان معاصرا له وكان ابن خلكان حينئذ قاضى دمشق – :

«كانت مصنفاته فى غاية الحسن ، وكان من أحسن خلق الله ذهنا ، جاءنى مرارا بسبب أداء شهادات ، وسألته عن مواضع فى العربية مشكلة ، فأجاب أبلغ إجابة بفهم عميق وتثبت تام : ومن جملة ما سألته : مسألة اعتراض الشرط على الشرط فى قولهم : (إن أكلت إن شربت فأنت طالق) لم يتعين تقديم الشرب على الأكل بسبب وقوع الطلاق ، حتى إنها لو أكلت ثم شربت لم تطلق ؟ .
وسألته عن بيت أبى الطيب المتنبى :

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتَ مُصْطَبِرٍ ... فَالْآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لَاتَ مُقْتَحَمِ

ما السبب الموجب لخفض (مصطبر) و (مقتحم) ، ولات ليست من أدوات الجر ؟ فأطال الكلام فيهما ، وأحسن الجواب عنهما ، ولولا التطويل لذكرت ما قال» .

وقال عنه السيوطى : «كان فقيها مناظرا مفتيا ، مبرزا فى عدة علوم ، متبحرا ، ثقة ، دينا ، ورعا ، متواضعا ، مطرحا للتكلف» .

وفاته :

توفى ابن الحاجب بالإسكندرية ضاحى نهار الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ست وأربعين وستمائة ، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبى شامة – عليه رحمة الله – .

الطبقة السادسة

[عهد المماليك]

١ - ابن النحاس (•) :

أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبى نصر ابن النحاس .

ولد بحلب فى سلخ جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وستمائة .

أخذ النحو عن جمال الدين بن عمرون ، والقراءات عن كمال الدين الضرير ، وسمع الحديث من ابن اللتى ، وابن يعيش ، وأبى القاسم بن رواحة ، وابن خليل وغيرهم .

دخل مصر ، وأخذ عن شيوخها ، ثم جلس للإفادة : ولما أكمل الملك المنصور قلاوون المدرسة المنصورية بين القصرين ، فوض إليه أمر التدريس بها ، كما تولى أمر التدريس فى التفسير بالجامع الطولونى ، وتخرج به جماعة من الأئمة ، وفضلاء الأدب ، وعلى رأسهم أبو حيان الأندلسى .

أخلاقه :

كان ابن النحاس مشهورا بالتدين والصدق والعدالة ، مع اطراح الكلفة ، وصغر العمامة ، وحسن الأخلاق ، فيه ظرف النحاة وانبساطهم ، وله صورة كبيرة فى صدور الناس : وكان بعض القضاة إذا انفرد بشهادة ، حكَمه فيها وثوقا بدينه ، وكان معروفا بحل المشكلات والمعضلات : وله أوراد فى العبادة ، والتلاوة ، والذكر ، والصلاة ، ثقة ، حجة ، يسعى فى مصالح الناس ، واقتنى كتبا كثيرة ، ولم يتزوج ، ولم يأكل العنب قط ، قال : لأنى أحبه ، فآثرت أن يكون نصيبى فى الجنة ، وكان لا يأكل شيئا وحده ، وينهى عن الخوض فى العقائد .

(•) انظر فى ترجمة ابن النحاس : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٧٩ . وبغية الوعاة : ١٣/١ .

آثاره :

لم يصنف ابن النحاس شيئا ، إلا ما أملاه شرحا للكتاب (المقرب) لابن عصفور ، ولكن له آراء كثيرة متناثرة فى كتب النحو ومطولاته .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه أبو حيان الأندلسى : «كان هو والشيخ محيى الدين المازونى شيخى الديار المصرية ، ولم ألق أحدا أكثر سماعاً منه لكتب الأدب ، وتفرد بسماع صحاح الجوهرى» .

وقال عنه السيوطى : «كان من الأذكياء ، وله خبرة بالمنطق ، وإقليدس ، وكتب الخط المنسوب» .

وفاته :

توفى ابن النحاس بالقاهرة يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وستمائة – عليه رحمة الله – .

٢ - أبو حيان الأندلسى (•) :

أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان .

ولد بمطخشارش من ضواحى غرناطة فى أواخر شوال سنة أربع وخمسين وستمائة .

تلقى علومه الأولى فى غرناطة ، حيث بدأ بقراءة القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، وعلوم اللغة ،

(•) انظر فى ترجمة أبى حيان : شرح اللمحة البدرية : ٢٧/١ ، فوات الوفيات : ٣٥٢/٢ ، الدرر الكامنة : ٣٠٢/٤، شذرات الذهب : ١٤٥/٦ ، الأعلام : ٢٢٩/٢ ، البدر الطالع : ٢٨٦/٢ ، طبقات الشافعية : ٢٧/٦ ، أبو حيان النحوى : ٢٩ ، بغية الوعاة : ٥١٧/١ .

فقد قرأ السبع على عبدالحق الأنصارى ، وابن الطباع ، والقزاز ، وابن أبى الأحوص ؛ ثم قرأ برواية ورش ، ثم قالون على ابن خلف ، ثم قرأ المصباح لابن أبى الكرم .

ودرس النحو على أبى جعفر بن الزبير ، وابن الضائع .

ثم غادر الأندلس سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى بلاد المغرب ، حيث التقى بعلمائه أمثال أبى القاسم المزياتى ، وابن عباس القرطبى ، والكنانى ، والإشبيلى .

ثم غادر بلاد المغرب إلى مصر ، حيث دخل القاهرة سنة تسع وسبعين وستمائة ، فلقى بها بهاء الدين ابن النحاس ، فلزمه ، وأخذ منه كتبه ؛ وبعد تطواف وتجوال فى بلاد الشام ، والسودان ، والحجاز - حيث حج بيت الله الحرام - استوطن القاهرة .

تصدر لتدريس النحو فى جامع الحاكم بالقاهرة سنة أربع وسبعمائة ، ثم عهد إليه بتدريس التفسير فى قبة السلطان المنصور سنة عشر وسبعمائة ، ثم تولى منصب الإقراء بجامع الأقمر خلفا لابن النحاس فى أستاذية النحو .

أخلاقه :

كان أبو حيان دينا ، عادلا ، ثقة ، لا يتعاطى المسكرات ، ولا يلعب النرد ، ولا الشطرنج .

كما كان خاشعا ، يبكى إذا سمع تلاوة القرآن الكريم ، ويجرى دمعه إذا سمع أشعار الغزل والحماسة .

وكان ذكيا ، فطنا ، ثاقب الذهن ، حاضر البديهة ، صحيح الإدراك ، ولذا كان يقدر الأذكياء من الطلبة ، ويعظمهم ، وينوه بقدرهم .

إلا أنه كان بخيلا ،يهتم بجمع المال ، وادخاره ، وكان يفتخر بالبخل ، كما يفتخر الناس بالكرم ، حتى إنه كان يلوم صلاح الدين الصفدى على إنفاق الدراهم فى شراء الكتب .

آثاره :

خلف أبو حيان كما غفيرا من المؤلفات النافعة ، والمصنفات القيمة فى شتى مناحى المعرفة ، من تفسير ، وحديث ، ونحو ، ولغة ، وأدب ، وتاريخ ، وتراجم منها :

١ – تقريب المقرب لابن عصفور فى النحو .

٢ – التدريب على تمثيل المقرب .

٣ – المبدع الملخص من الممتع لابن عصفور فى الصرف .

٤ – الموفور من شرح ابن عصفور .

٥ – التذييل والتكميل فى شرح التسهيل لابن مالك .

٦ – التخييل الملخص من شرح التسهيل .

٧ – التكميل فى شرح التسهيل .

٨ – منهج السالك فى الكلام على ألفيه ابن مالك .

٩ – غاية الإحسان فى علم اللسان .

١٠ – ارتشاف الضرب من لسان العرب .

١١ – النكت الحسان فى شرح غاية الإحسان .

١٢ – اللمحة البدرية فى علم العربية .

١٣ – الشذا فى أحكام (كذا) .

١٤ – الهداية فى النحو .

١٥ – تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب .

١٦ – تذكرة النحاة .

١٧ – الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء .

١٨ – القول الفصل فى أحكام الفصل .

١٩ – الشذرة .

٢٠ – فضل النحو .

٢١ – شرح كتاب سيبويه .

٢٢ – التجريد لأحكام سيبويه .

٢٣ – كتاب الأشعار الملخص من شرح سيبويه للصفار .

٢٤ – نهاية الإغراب فى علم التصريف والإعراب .

هذه هى مؤلفات ومصنفات أبى حيان الأندلسى فى علمى النحو والصرف ، وله مؤلفات ومصنفات أخرى فى الإسلاميات ، والقراءات ، والشعر ، والنقد والبلاغة ، وفى التاريخ والتراجم ، وفى لغات أخرى كالتركية ، والحبشية ، والبشمور ، وفى فنون أخرى غير ما تقدم ، بلغت نحوا من واحد وأربعين مؤلفا ومصنفا[1] .

وفاته :

توفى أبو حيان بالقاهرة عشية يوم السبت الثامن والعشرين من شهر صفر عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة ، وصلى عليه صلاة الغائب بالجامع الأموى بدمشق فى شهر ربيع الآخر ؛ وكان قد كف بصره فى أخريات أيامه – عليه رحمة الله .

---

(١) راجع فى مصنفات ومؤلفات أبى حيان تفصيلا : أبو حيان النحوى الدكتورة خديجة الحديثى : ١٧٦ – ٢٦١ ، وشرح اللمحة البدرية بتحقيقنا : ١/٤٠ – ٦٢ .

٢ - المرادي (*) :

أبو على بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبدالله بن على المرادى ، المعروف بابن أم قاسم ، نسبة إلى جدته أم أبيه واسمها (زهراء) ، وهى من أهل مراكش ، وكانت أول ما جاءت من المغرب عرفت بـ (الشيخة) ، فكانت شهرة بدر الدين تابعة لشهرتها ، وكان مولده بمصر بعد سنة تسعين وستمائة تقريبا[1].

قال ابن حجر العسقلانى إن (أم قاسم) كانت امرأة من بيت السلطان ، تبنته ، فنسب إليها .

والواضح مما ألحق باسمه من ألقاب ، أن أصل قبيلته من الأندلس ، ثم انتقلت إلى المغرب ، ثم إلى مراكش ، ثم إلى مصر ، حيث قيل فى نسبه : المرادى ، المغربى ، المراكشى ، المصرى .

فالمرادى : نسبة إلى (مراد) وهو حصن مشهور ، يدعى حصن مراد ، قريب من قرطبة بالأندلس .

والمغربى : وقيل الآسفى ، نسبة إلى (أسفى) وهى بلدة على شاطئ المحيط الأطلسى ، بينها وبين المغرب أربعة أيام ، ولعلها من أعمال مراكش .

والمصرى : نسبة إلى موطن ميلاده ، وإقامته ، ووفاته .

علمه وثقافته :

أخذ العربية عن أبى عبدالله الطنجى ، والسراج الدمنهورى ، وأبى زكريا الغمارى ، وأبى حيان الأندلسى ؛ وأخذ الفقه عن الشرف المقيلى ؛ والأصول عن

(*) انظر فى ترجمة المرادى : الأعلام : ٢/٢٢٩ ، الدرر الكامنة : ٢/٣٢ ، بغية الوعاة : ١/٥١٧ ، شرح اللمحة البدرية : ١/٧٥ .

(١) إلى هذا ذهب الدكتور على عبود الساهى الأستاذ بكلية الشريعة جامعة بغداد فى كتابه (المرادى وكتابه توضيح مقاصد الألفية) .

الشيخ شمس الدين بن اللبان ، وأتقن العربية والقراءات على المجد إسماعيل الششترى ، وكان عارفا بالفقه المالكى والأصول .

تصدر للتدريس والإفادة فى جوامع مصر ومدارسها ، وانتفع به خلق كثير .

أخلاقه :

كان المرادى تقيا ، ورعا ، له كرامات كثيرة ، منها أنه رأى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى النوم ، فقال له : يا حسن ، اجلس انفع الناس بمكان المحراب بجامع مصر العتيق بجوار المصحف .

آثاره :

خلف المرادى مؤلفات ومصنفات نافعة جيدة فى النحو والصرف والعروض والتفسير والقراءات منها :

١ – الجنى الدانى فى حروف المعانى .

٢ – شرح التسهيل لابن مالك .

٣ – شرح المفضل فى شرح المفصل للسخاوى .

٤ – توضيح مقاصد الألفية لابن مالك .

٥ – شرح الكافية الشافية لابن مالك .

٦ – شرح (الفصول الخمسون) لابن معط .

٧ – شرح الأمالى النحوية لابن الحاجب .

٨ – شرح القصيدة العروضية لابن الحاجب .

٩ – شرح الشاطبية فى القراءات .

١٠ – شرح الاستعاذة والبسملة .

وفاته :

توفى المرادى يوم عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة – عليه رحمة الله – .

٤ - ابن هشام (*) :

أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصارى .

ولد بالقاهرة يوم السبت خامس ذى القعدة سنة ثمان وسبعمائة .

علمه وثقافته :

بدأ ابن هشام حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، ثم اختلف إلى مدارس مصر ومساجدها ، فأخذ عن مدرسيها وشيوخها .

فقد درس الفقه الشافعى على يد تقى الدين السبكى ، ومجدالدين الزنكلونى ، ثم تحول إلى المذهب الحنبلى ، كما أخذ القراءات عن ابن السراج .

أخذ النحو عن عبداللطيف بن المرحل ، وتاج الدين التبريزى ، وتاج الدين الفاكهانى ، كما سمع من أبى حيان الأندلسى ديوان (زهير بن أبى سلمى) ، ولم يلازمه .

تصدر لتدريس الفقه الشافعى ، وعلوم التفسير بالقبة المنصورية بالقاهرة ، كما أقرأ كتاب (الحاوى الصغير) فى الفروع لنجم الدين عبدالغفار القزوينى ؛ ولما تحول إلى المذهب الحنبلى ، تقلد لتدريسه بالمدرسة الحنبلية بالقاهرة ؛ كما حدث بالشاطبية فى القراءات لابن جماعة .

(*) انظر فى ترجمة ابن هشام : الأعلام : ٤/٢٩١ ، الدرر الكامنة : ٢/٣٨ ، شذرات الذهب : ٦/١٩١ البدر الطالع : ٤٠٠ ، أعيان العصر وأعوان النصر : ٣/٢٥٩ ، روضات الجنات : ٣٤٦ ، حسن المحاضرة : ١/٥٣٦، بغية الوعاة : ٢/٦٨ ، وشرح اللمحة البدرية : ١/٨٣ .

أخلاقه :

اشتهر ابن هشام بالتواضع ، والبر ، ودماثة الخلق ، والشفقة الشديدة ، ورقة القلب ، كما كان راغبا عن الشهرة ، وذيوع الصيت ، وعرف له الجميع أدبه الجم ، وعفة يده ولسانه ، ووفاءه ، وثقافته فى العلم .

قال عنه ابن حجر : «كان معروفا بالتواضع ، والبر ، والشفقة ، ودماثة الخلق ، ورقة القلب»[1] .

آثاره :

خلف ابن هشام عددا وفيرا من المؤلفات والمصنفات العالية القيمة فى النحو والصرف واللغة ، والأدب وعلوم القرآن وغيرها من مختلف العلوم والثقافات منها .

١ – الإعراب عن قواعد الإعراب .

٢ – ألغاز نحوية ، وربما هو ما يسمى (المسائل الشعرية) .

٣ – التذكرة فى النحو .

٤ – الجامع الصغير فى النحو ، وشرحه .

٥ – الجامع الكبير فى النحو .

٦ – شذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، وشرحه .

٧ – قطر الندى وبل الصدى ، وشرحه .

٨ – القواعد الصغرى فى النحو .

٩ – القواعد الكبرى .

١٠ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب .

(١) الدرر الكامنة : ٢/٣٠٩ .

١١ – موقد الأذهان وموقظ الوسنان .

١٢ – نزهة الطرف فى علم الصرف .

١٣ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك .

١٤ – شرح قصيدة البردة للبوصيرى .

١٥ – شرح قصيدة كعب بن زهير فى مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) .

١٦ – شرح الجمل الكبرى للزجاجى .

١٧ – شرح اللمحة البدرية لأبى حيان الأندلسى .

١٨ – التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل .

١٩ – شرح التسهيل لابن مالك .

٢٠ – شرح أبيات ابن الناظم .

٢١ – شرح الشواهد الكبرى .

٢٢ – شرح الشواهد الصغرى .

٢٣ – حواش على الألفية .

٢٤ – حواش على التسهيل .

٢٥ – حواش على شرح الألفية لابن الناظم .

٢٦ – عدة الطالب فى تحقيق تصريف ابن الحاجب .

٢٧ – تلخيص الانتصاف فى تفسير الكشاف .

٢٨ – تلخيص الشواهد وتخليص الفوائد .

٢٩ – تخليص الدلالة فى تلخيص الرسالة .

٣٠ – تعليق على ألفية ابن مالك .

٣١ – رسالة فوح الشذا فى أحكام (كذا) .

٣٢ – رسالة فى انتصاب : لغة ، وفضلا : وإعراب : صدقا ، وأيضا ، وهلم جرا .

٣٣ – رسالة فى إعراب (أنت أعظم ومالك) .

٣٤ – رسالة فى إعراب بعض الكلمات .

٣٥ – رسالة فى التنازع .

٣٦ – رسالة فى (كاد) وأخواتها .

٣٧ – رسالة فى معانى حروف النحو .

٣٨ – رسالة فى استعمال المنادى فى تسع آيات من القرآن الكريم .

٣٩ – رسالة فى اعتراض الشرط على الشرط .

٤٠ – رسالة مطالع السرور بين مقررى القطر والشذور .

٤١ – رسالة (إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل) .

٤٢ – رسالة فى أحكام (لو) و (حتى) .

٤٣ – رسالة (المباحث المرضية المتعلقة بـ (من) الشرطية) .

٤٤ – رسالة (شوارد الملح فى موارد المنح) .

٤٥ – رسالة (أبحاث نحوية فى مواضع من القرآن)[١] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن خلدون : «مازلنا – ونحن بالمغرب – نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له (ابن هشام) أنحى من سيبويه»[٢] .

---

(١) راجع فى تفصيل مؤلفات ابن هشام ومصنفاته : شرح اللمحة البدرية : ١/١٠٣ بتحقيقنا .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٤٣٢ .

وقال عنه أيضا : «مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف ، رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة هذه الصناعة ؛ لم تحصل إلا لسيبويه ، وابن جنى ، وأهل طبقتهما ، لعظم ملكته ، وما أحاط به من أصول ذلك الفن ، وتفاريعه ، وحسن تصرفه فيه»[1] .

وقال عنه ابن تغرى بردى : «كان عالما فى عدة علوم ، لاسيما العربية ، فهو فارسها ، ومالك زمامها»[2] .

وكان صلاح الدين الصفدى يطلق عليه دائما لقب (شيخ النحو) ، لسعة علمه ، وغزارة مادته ، ودقة تصنيفه[3] .

شعره :

أثر عن ابن هشام أنه كان متمكنا من صناعة الشعر ، داريا بأصوله ، ملما بقواعد نظمه - إلا أنه لم يفرغ له ، ولم يصبر عليه ، حيث غلبت عليه الدراسات النحوية واللغوية ، فمما أثر من شعره :

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلْعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ ... وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ يَصْبِرْ عَلَى الْبَذْلِ
وَمَنْ لَمْ يُذِلَّ النَّفْسَ فِي طَلَبِ الْعُلاَ ... يَسِيرًا يَعِشْ دَهْرًا طَوِيلاً أَخَا ذُلِّ[4]

ومنه أيضا :

سُوءُ الحِسَابِ أَنْ يَأْخُذَ الْفَتَى ... بِكُلِّ شَيْءٍ فِي الحَيَاةِ قَدْ أَتَى[5]

---

(1) المصدر السابق : ٤٧٣ .

(2) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة : ١٣٦/١٠ .

(3) أعيان العصر وأعوان النصر : ٢٥٨/١ .

(4) الدرر الكامنة : ٣٠٩/٢.

(5) بغية الوعاة : ٦٩/٢ .

وفاته :

توفى ابن هشام ليلة الجمعة الخامس من شهر ذى القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة ، ودفن بعد صلاة الجمعة بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة – عليه رحمة الله – .

٥ - ابن عقيل (*) :

بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد بن محمد بن عقيل .

أصله من همدان .

ولد بحلب يوم الجمعة تاسع المحرم سنة ثمان وتسعين ، وقيل : أربع وتسعين ، وقيل : سبعين وستمائة .

علمه وثقافته :

أخذ القراءات عن التقى الصائغ ، والفقه عن الزين الكتنانى ، وسمع بداية (الهداية) للغزالى من أبى الهدى أحمد بن محمد ، ومن حسن بن عمر الكردى ، والحجار ، وابن الصاعد ، وابن الشحنة ، وست الوزراء ، وسمع من الشرف بن الصابونى ، والدانى وغيرهم .

قدم القاهرة يافعا ، فلازم أبا حيان الأندلسى ، حتى كان من أجل تلاميذه : وصار يشهد له بالمهارة فى العربية ، حتى قال عنه : «ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل» ، ثم لزم القونوى ، والقزوينى فى الفقه والأصول ، والخلاف ، والعربية ، والمعانى ، والتفسير ، والعروض .

تصدر للتدريس بالقطبية ، والخشابية ، والجامع الناصرى بالقلعة ، ودرّس التفسير بالجامع الطولونى بعد شيخه أبى حيان ، كما درّس بزاوية الشافعى ، وبه تخرج أناس كثيرون ، وانتفع به كثير من الطلاب .

(*) انظر فى ترجمة ابن عقيل : الدرر الكامنة : ٢/٢٦٦ ، شذرات الذهب : ٦/٢١٤ ، بغية الوعاة : ٢/٤٧، والأعلام : ٤/٢٣١، وسركيس : ١٨٧ .

وقرأ عليه شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، وتزوج بابنته ، فأولدها قاضى القضاة جلال الدين ، وأخاه بدرالدين .

وروى عنه سبطه جلال الدين ، والجمال بن ظهيرة ، والشيخ ولى الدين العراقى .

وناب فى الحكم عن القزوينى بالحسينية ، وعن ابن جماعة بالقاهرة ، ثم ولى القضاء الأكبر بعده : فسار سيرة حسنة ، وفرق على الفقراء والطلبة فى مدة ولايته التى لم تدم أكثر من ثمانين يوما نحو ستين ألف درهم ، أى أكثر من ثلاثة آلاف مثقال ذهبا ، ووقعت فى ولايته وصية بمائة ألف وخمسين ألف درهم ، ففرقها كلها من دينار إلى عشرة ، وما بين ذلك .

أخلاقه :

قال عنه ابن حجر : «كان قوى النفس ، يتيه على أرباب الدولة ، وهم يخضعون له ويعظمونه ، وكان يتعانى التأنق البالغ فى ملبسه ومأكله و مسكنه ، وكان جوادا مهيبا ، لا يتردد على أحد ، ولا يخلو من كثير من الناس يترددون عليه ، وكان لا يبقى على شىء ، حتى إنه مات وعليه دين .

وقال عنه الأسنوى : «كان غير محمود فى التصرفات المالية ، حاد الخلق» .

إلا أن القاضى تقى الدين الأسدى رد كلام الأسنوى بقوله : «ما أنصف الأسنوى ابن عقيل ، وكلامه فيه تحامل ، لأنه كان لا ينصفه فى البحث ، وربما خرج عليه ، وله فى ذلك خبر» .

آثاره :

خلف ابن عقيل مصنفات عالية القيمة ، عظيمة القدر ، انتفع بها كثير من طلاب العلم ، وما زالت مناط استفادتهم ونفعهم حتى الآن ، فى النحو ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، منها :

١ – تفسير القرآن الكريم . وصل فيه إلى آخر سورة آل عمران .

٢ – جامع الخلاف والأوهام . الموافقة للنووى وابن الرفعة وغيرهما .

٣ – الجامع النفيس فى الفقه .

٤ – تيسير الاستعداد لرتبة الاجتهاد . وسماه (التأسيس لمذهب ابن إدريس) .

٥ – شرح ألفية ابن مالك .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الأسنوى : «كان إماما فى العربية والبيان ، ويتكلم فى الأصول والفقه كلاما حسنا ، جوادا ، مهيبا ، لا يتردد على أحد» .

وقال عنه أبو حيان الأندلسى : «ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل» .

وفاته :

توفى ابن عقيل بالقاهرة ليلة الأربعاء ثالث عشر من ربيع الأول سنة تسع وستين وسبعمائة ، ودفن بالقرب من الإمام الشافعى – عليه رحمة الله – .

٦ - ابن الصائغ (*) :

شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن على بن أبى الحسين الزمردى ، المعروف بابن الصائغ .

علمه وثقافته :

أخذ النحو عن الشهاب بن المرحل ، وأبى حيان ، والقونوى ، والفخر الزيلعى ، وابن التركمانى .

(*) انظر فى ترجمة ابن الصائغ : الدرر الكامنة : ٣/٤٩٩ ، شذرات الذهب : ٦/٢٤٨ ، بغية الوعاة : ١/١٥٥ .

وسمع الحديث من الدبوسى ، والحجار ، وأبى الفتح اليعمرى ، وابن الشحنة ، كما أخذ عن عزالدين بن جماعة .

وروى عنه جمال الدين بن ظهيرة ، وعبدالرحمن بن جماعة .

ولى قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، ودرَّس بالجامع الطولونى وغيره ، وأجاز لعبدالله بن عمر بن عبدالعزيز بن جماعة .

أخلاقه :

قال عنه ابن حجر : «كان فاضلا ، بارعا ، دمث الأخلاق ، كثير المعاشرة للرؤساء» .

آثاره :

خلف ابن الصائغ مصنفات مفيدة فى النحو واللغة وعلوم القرآن والحديث والفقه ، منها :

١ – التذكرة فى النحو . فى عدة مجلدات .

٢ – المبانى فى المعانى .

٣ – الوضع الباهر فى رفع أفعل الظاهر .

٤ – روض الأفهام فى أقسام الاستفهام .

٥ – شرح ألفية ابن مالك .

٦ – حاشية على (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام ، ولم يكملها .

٧ – المنهج القويم فى القرآن الكريم .

٨ – (شرح المشارق) فى الحديث .

٩ – الفخر على الكنز ، فى الحديث .

١٠ – نتائج الأفكار .

١١ – الرقم على البردة .

١٢ – اختراع الفهوم لاجتماع العلوم .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن حجر : «اشتغل بالعلم ، وبرع في النحو واللغة والفقه ، وكان ملازما للاشتغال» .

شعره :

لم يؤثر عن ابن الصائغ أنه كان يقرض الشعر ، إلا أن السيوطى روى له بيتين هما :

لاَ تَفْخَرَنَّ بِمَا أُوتِيتَ مِنْ نِعَمٍ   عَلَى سِوَاكَ وَخَفْ مِنْ مَكْرِ جَبَّارِ
فَأَنْتَ فِى الأَصْلِ بِالْفَخَّارِ مُشْتَبِهٌ   مَا أَسْرَعَ الْكَسْرَ فِى الدُّنْيَا لِفَخَّارِ

وفاته :

توفى ابن الصائغ فى خامس عشر شعبان سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وخلف ثروة واسعة .

روى زوج ابنته علاءالدين على بن عبدالقادر المقريزى قال : «قد رأيته فى النوم بعد موته ، فسألته : ما فعل الله بك ؟ فأنشد :

اللَّهُ يَعْفُو عَنِ الْمُسِيءِ إِذَا   مَاتَ عَلَى تَوْبَةٍ وَيَرْحَمُهُ

٧ - ناظر الجيش (*) :

محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبدالدايم . أصله من حلب ، ولد بالقاهرة سنة سبع وتسعين وستمائة[1] .

(*) انظر فى ترجمة ناظر الجيش : «الأعلام : ٨/٢٧ ، سير أعلام النبلاء : ٥/٦١ ، الدرر الكامنة : ٤/٨١١ ، بغية الوعاة : ١/٢٧٥ .

(١) وقيل : ولد بحلب ، واشتغل بها ، ثم قدم إلى القاهرة ....

علمه وثقافته :

أخذ العربية عن أبى حيان ولازمه ، وأخذ التلخيص عن الجلال القزوينى ، وأخذ أيضا عن التقى السبكى ، والقطب السنباطى ، والتاج التبريزى ، وتلا بالسبع على التقى الصائغ ، وسمع الحديث من الحجار ، وست الوزراء وجماعة .

كما سمع من الرشيد بن المعلم ، والشريف الموسوى : والشريف الزينبى ، وابن هارون ، وابن الشحنة ، وحسن الكردى ، وموسى بن عطوف ، وحدث وأفاد ، وخرج له الياسوفى مشيخة .

درَّس التفسير بالمنصورية ، وكان له فى الحساب يد طولى ، ثم ترقى إلى أن ولى نظر الجيش بالديار المصرية .

أخلاقه :

قال عنه ابن حجر : «فاق من قبله من الأكابر ، فضلا على أقرانه فى المروءة والعصبية لجميع الناس ممن يقصده خصوصا طلبة العلم ، فكان لهم فى أيامه من المكارم والأفضال ما لا يعبر عنه ، ولا يحصى كثرة ، حتى أنى لم أدرك أحدا من المشايخ إلا ويحكى عنه فى هذا الباب ما لا يحكيه الآخر ، ولم يزل فى عزه وجاهه ومهابته إلى أن مات» .

وقال أيضا : «وكان مع تفرط إحسانه ومكارمه ، بخيلا على الطعام جدا ، حتى حكى لى حموى كريم الدين بن عبدالعزيز – وكان ممن يلازمه – أنه كان يسمعه يقول : إذا رأيت شخصا يمعن فى طعامى ، أظن أنه يضرب بطنى بسكين» .

وقال عنه السيوطى : «كان علىّ الهمة ، نافذ الكلمة ، كثير البذل والجود ، وبالجملة كان من محاسن الدنيا ، مع الدين والصيانة واللطف والظرف» .

آثاره :

صنف ناظر الجيش شرحا على تسهيل ابن مالك سماه (تمهيد القواعد) ، كما صنف شرحا آخر على تلخيص المفتاح للقزوينى ، واعتنى بالأجوبة الجيدة عن اعتراضات أبى حيان الأندلسى على ابن مالك .

وفاته :

توفى ناظر الجيش فى ثانى عشر ذى الحجة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة – عليه رحمة الله – .

* * *

الطبقة السابعة

١ - ابن جماعة(*) :

عز الدين محمد بن أبى بكر بن عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعدالله ابن جماعة . أصله من حماة ، وولد بينبع سنة تسع وخمسين وسبعمائة .

ثقافته وعلمه :

حفظ القرآن فى شهر ، كل يوم جزءين ، واشتغل بالعلوم على كبر .

أخذ عن السراج الهندى ، والضياء القرمى ، وناظر الجيش ، والركن القرمى ، والعلاء السيرامى ، والخطابى ، والحلاوى ، ويوسف الندومى ، والتاج السبكى ، وأخيه البهاء ، والسراج البلقينى ، والعلاء بن صغير الطبيب ، وغيرهم .

وسمع الحديث على جده ، والبيَّانى ، والقلانسى ، والعَرَضى ، وقد أجاز له أهل عصره .

أتقن العلوم ، وبرع فى سائر الفنون ، وأقرأ ، وتخرج عليه طبقات من الخلق .

أخذ عنه جم غفير ، منهم الشيخ ركن الدين عمر بن قديد ، والكمال بن الهمام والشمس القاياتى ، والمحب الأقصرائى ، وحافظا العصر : ابن حجر ، وعلم الدين البلقينى ، وروى عنه خلق كثير .

وكان يعرف علوما عديدة منها : الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والأصلان ، والجدل والخلاف ، والنحو ، والصرف ، والمعانى والبيان والبديع ، والمنطق والهيئة والحكمة ، والزيج ، والطب ، والفروسية ، والرمح والنشاب والدبوس ، والثقاف والرمل ، وصناعة النفط ، والكيمياء وفنون أخر .

(*) انظر فى ترجمة ابن جماعة : الأعلام ٦/٢٨٢ ، الضوء اللامع : ٧/١٧١ ، سركيس : ٦٥ ، بغية الوعاة : ١/٦٣ .

وعنه أنه قال : «أعرف ثلاثين علما لا يعرف أهل عصرى أسماءها ، وقال فى رسالته التى سماها (ضوء الشمس فى أحوال النفس) التى ترجم فيها لنفسه : «سبب ما فتح علىّ من العلوم ، منام رأيته»[1] .

أخلاقه :

كان ابن جماعة منطويا على نفسه ، مبتعدا عن بنى الدنيا ، تاركا التعرض للمناصب ، فقد حضر عند الملك المؤيد شيخ ، فى المجلس الذى عقد للشمس بن عطاء الله الهروى ، فلم يتكلم ، مع سؤال الناس له ؛ وسأله السلطان عن شىء من مؤلفاته فى فنون الرمح والفروسية ، فأنكر أن يكون له شىء من ذلك ، مع أن له أكثر من مؤلف فيه .

وكان بارا بأصحابه ، مبالغا فى إكرامهم ، يأتى فى مواضع التنزه ، ويمشى بين العوام ، ويقف على حلق المشافقين ونحوهم .

ولم يحج ، ولم يتزوج ، وكان لا يحدث إلا توضأ ، ولا يترك أحدا يستغيب عنده ، مع محبة المزاح والفكاهة ، واستحسان النادرة .

آثاره :

يقول السيوطى عنه : «... وليس له فى التأليف حظ ، مع كثرة مؤلفاته التى جاوزت الألف ، فإن له على كل كتاب أقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة ، وأكثرها ما بين شرح مطول ، ومتوسط ، ومختصر ، وحواش ، ونكت ، وغير ذلك .

ففى الأصول : شرح جمع الجوامع ، ونكت عليه ، وثلاث نكت على مختصر ابن الحاجب ، وحاشية على رفع ابن الحاجب ، وحاشية على منهاج البيضاوى للأسنوى ، وحاشية على شرحه للعبرى ، وحاشية على شرحه للجاربردى ، وحاشية على متن المنهاج مختصرة ، وحاشية على العضد .

وفى الفقه : نكت على المهمات ، ونكت على الروضة ، شرح التبريزى .

---

(١) بغية الوعاة : ٦٥/١ .

وفى الحديث : شرح علوم الحديث لابن الصلاح ، وتخريج أحاديث الرافعى ، وثلاثة شروح على منظومة ابن فرج فى الحديث ، وشرح المنهج الروى فى علوم الحديث لجد والده ، والقصد التمام فى أحكام الحمام .

وفى النحو : حاشية على شرح الألفية لابن الناظم ، حاشية على التوضيح لابن هشام ، حاشية على مغنى اللبيب ، ثلاثة شروح عل القواعد الكبرى ، وثلاث نكت عليها ، وإعانة الإنسان على إحكام اللسان ، وحاشية على ألفية ابن مالك ، وحاشية على شرح الشافية للجاربردى ، مختصر التسهيل المسمى بالقوانين .

وفى اللغة : المثلث ، ومختصر الروض الأنف سماه (نور الروض) .

وفى المعانى والبيان : مختصر التلخيص ، حاشية على شرحه للسبكى ، ثلاث حواش على المطول ، حاشية على المختصر .

وفى الطب : الأنوار ، وشرحان عليه ، ونكت على فصول أبقراط ، والجامع .

وفى الفروسية : الأمنيَّة فى علوم الفروسية ، وفلق الصبح فى أحكام الرمح ، وأوثق الأسباب فى الرمى بالنشاب ، والأسوس فى صناعة الدبوس[1] .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيوطى : «الأستاذ العلامة المتفنن عزالدين بن المسند ، شرف الدين بن قاضى القضاة عزالدين أبى عمرو بن قاضى القضاة بدرالدين بن الشيخ برهان الدين ، الحموى الأصل ، الشافعى الأصولى ، المتكلم الجدلى النظار ، النحوى ، اللغوى البيانى ، الخلافى ، أستاذ الزمان ، وفخر الأوان ، الجامع لأشتات جميع العلوم ، قال ابن حجر :

وَكَانَ مِنَ الْعُلُومِ بِحَيْثُ يُقْضَى ... لَـهُ فِـى كُـلِّ فَـنٍّ بِـالْـجَـمِـيـعِ

(١) بغية الوعاة : ١/٦٥ .

وفاته :

كان ابن جماعة ينهى الناس - أيام انتشار الطاعون - عن دخول الحمام ، ولما ارتفع الطاعون أو كاد ، دخل الحمام ، وتصرف فى أشياء كان امتنع منها ، فطعن ، ومات فى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وثمانمائة ، واشتد أسف الناس عليه ، ولم يخلف بعده مثله - عليه رحمة الله - .

٢ - الدمامينى (•) :

بدر الدين محمد بن أبى بكر بن عمر بن أبى بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر الدمامينى[١] .

ولد بالإسكندرية سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وتفقه بها ، وعانى الآداب . فتفوق فى النحو ، والنظم ، والنثر ، والخط ، ومعرفة الشروط ، وشارك فى الفقه وغيره .

هبط القاهرة ، فعلا قدره ، وذاع صيته ، واشتهر ذكره ، وناب فى الحكم ، ودرَّس بعدة مدارس ، وتقدم ومهر ، وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو ؛ ثم رجع إلى الإسكندرية ، واستمر يقرئ بها ، ويحكم .

ثم عاد إلى القاهرة ثانية ، وعين للقضاء ، فلم يتفق له ، ثم سافر إلى دمشق ، وخرج منها للحج ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتولى خطابة الجامع الأزهر ، وترك نيابة الحكم .

ثم اشتغل بأمور الدنيا ، فعانى الحياكة ، وصار له دولاب متسع ، ثم حدث أن نكب بحريق داره ، فأتى على كل ماله ، وأصبح مدينا للناس بمال كثير ، فهرب إلى الصعيد ، فتبعه غرماؤه وأحضروه مهانا إلى القاهرة ، فأعانه الشيخ تقى الدين بن حجة ، وكاتب السر ناصر الدين البارزى ، حتى صلحت حاله .

(•) انظر ترجمة الدمامينى: الضوء اللامع : ٧/ ٧٧١ ، شذرات الذهب : ٧/ ١٨١، بغية الوعاة : ١/ ٦٦ .

(١) نسبة إلى (دمامين) وهى قرية بصعيد مصر ، قريبة من الأقصر .

ثم خرج إلى الحج سنة تسع عشرة ، ودخل اليمن سنة عشرين ، ودرّس بجامع زبيد نحو سنة ، فلم يرج له الأمر بها ، فركب البحر إلى الهند ، فحصل له إقبال كبير ، وصعد نجمه ، فأخذ أهل الهند عنه ، وعظموه : وحصل له بها دنيا عريضة ، فتفرغ للتعليم والتصنيف .

آثاره :

بعد أن استقر الدماميني بالهند ، تفرغ للتأليف والتصنيف في كثير من علوم العربية ، كالنحو ، والعروض ، والحديث ، والأدب وغيرها منها :

١ – تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد ، وهو شرح لتسهيل ابن مالك ، عول فيه كثيرا على شرح التسهيل للمرادي .

٢ – تحفة الغريب في الكلام على مغني اللبيب . لابن هشام ، وقد رد عليه الشمني بكتاب سماه (المنصف من الكلام على مغني ابن هشام) .

٣ – جواهر البحور في العروض .

٤ – شرح صحيح البخاري .

٥ – شرح الخزرجية .

٦ – الفواكه الدنية .

٧ – مقاطع الشراب .

٨ – نزول الغيث – وهو حاشية على كتاب (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) لصلاح الدين الصفدي .

٩ – عين الحياة – وهو مختصر كتاب (حياة الحيوان) للدميري .

١٠ – ألغاز نحوية مشهورة كان يتوجه بها إلى علماء الهند منها قوله في (كاديّ) ، وهو نوع من البخور :

وَمَا شَيْءٌ لَهُ نَشْرٌ ذَكِيٌّ لِخَاطِرِهِ إلى الطِّيبِ انْتِسَابُ
تروحُ لَهُ عَلَى رِجْلَيْكَ تَمْشِي وَتَقْلِبُهُ (يَذَاكَ) ، فَمَا الْجَوَابُ ؟

وَقَدْ أَجَابَ عنه السيوطى بقوله :

وَمُذْ سَمِعَتْ بِهَذَا اللُّغْزِ أُذْنِي أَتَانِي مِنْ تَفَضُّلِهِ الْجَوَابُ
فَذَا طِيبٌ إذَا صَحَّفْتَ مِنْهُ أخِيرَيْهِ لَهُ فِي الْخُبْثِ بَابُ

شعره :

كان الدمامينى متمكنا من صناعة القريض ، إلا أنه كان مقلا فيه ، إذ وجه اهتمامه منه إلى نظم الألغاز النحوية التى يتوجه بها إلى علماء الهند – كما تقدم – ومن شعره :

رَمَانِي زَمَانِي بِمَا سَاءَنِي فَجَاءَتْ نُحُوسٌ وَغَابَتْ سُعُودُ
وَأَصْبَحْتُ بَيْنَ الورى بِالْمَشِيبِ عَلِيلاً ، فَلَيْتَ الشَّبَابَ يعُود

وله فى امرأة جبّانة[1] .

مُنْذُ عَانَتْ صِنَاعَةَ الْجُبْنِ خَوْدٌ قَتَلَتْنَا عُيُونُهَا الْفَتَّانَةْ
لاَ تَقُلْ لِي : كَمْ مَاتَ مِنْهَا قَتِيلٌ كَمْ قَتِيلٍ بِهَذِهِ الْجَبَّانَةْ !

وفاته :

توفى الدمامينى فى بلدة (كليرجا) بالهند فى شهرشعبان سنة سبع وثلاثين ، وثمانمائة : وقيل : مات مسموما – عليه رحمة الله – .

---

(١) الجبانة الأولى : صانعة الجبن ، والجبانة الثانية : المقبرة ، وهو نوع من التورية .

٣ - الشمنى [*] :

أبو العباس تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على بن يحيى ابن محمد بن خلف الله بن خليفة الشمنى[1] .

ولد بالإسكندرية فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانمائة ، وقدم القاهرة مع والده الذى كان من علماء المالكية .

أخذ النحو عن شمس الدين الشطنوفى ، والقراءات عن الشيخ الزراتينى ، والحديث عن الشيخ ولى الدين العراقى ، والفقه عن الشيخ يحيى السيرامى ، والعلاء البخارى ، ولازم القاضى شمس الدين البساطى ، وانتفع به فى الأصلين ، والمعانى ، والبيان .

اعتنى به والده منذ صغره ، فأسمعه الكثير على التقى الزيدى ، والجمال الحنبلى ، والصدر الأبشيطى ، وغيرهم .

وقد أجاز له السراج البلقينى ، والزين العراقى ، والجمال بن ظهيرة والهيثمى والكمال الدميرى ، والحلاوى ، والجواهرى ، والمراغى وآخرون .

خرج له السخاوى مشيخة حدث بها وبغيرها ، وخرج له السيوطى جزءا فيه الحديث المسلسل بالنحاة . وحدث به .

سمع عليه جلال الدين السيوطى ، وابنه ضياء الدين محمد قطعة من (المطول) للشيخ سعد الدين التفتازانى ، كما سمع عليه قطعة من (التوضيح) لابن هشام – قراءة تحقيق – ، كما قرأ عليه فى الحديث عدة أجزاء ؛ وكتب لجلال الدين تقريظا على شرحه للألفية ، وجمع الجوامع .

(*) انظر فى ترجمة الشمنى : الأعلام : ٢١٩/١ ، سركيس : ١٤٣ ، بغية الوعاة : ٣٧٥/١ .

(١) نسبة إلى مزرعة ببلاد المغرب .

تصدر للتدريس ، فدرّس التفسير ، والحديث ، والفقه ، والعربية ، والمعانى ، والبيان حتى صار واحد العصر فى سائر العلوم والفنون ، وتزاحم الناس عليه للأخذ عنه ، إذ كانت التلمذة له مفخرة .

أقام بالجمالية مدة ، ثم ولى المشيخة والخطابة بتربة قايتباى الجركسى بقرب الجبل ، ومشيخة مدرسة اللاّ لاَ ، وطلب لقضاء الحنفية بالقاهرة سنة ثمان وستين فامتنع .

أخلاقه :

كان الشمنى متصفا بالتقوى ، والتواضع ، والشهامة ، وحسن الشكل ، والأبهة ، والانجماع عن بنى الدنيا .

آثاره :

صنف الشمنى عدة مصنفات نافعة – على قلتها – فى النحو ، والحديث ، والفقه ، منها :

١ – المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام . وهى حاشية يرد فيها على مأخذ الدمامينى على ابن هشام فى حاشيته (تحفة الغريب فى الكلام على مغنى اللبيب) .

٢ – شرح (نظم النخبة) لوالده فى الحديث .

٣ – شرح مختصر (الوقاية) فى الفقه .

٤ – حاشية على (الشفاء) .

شعره :

كان للشمنى نظم حسن ، ومما أنشده حين تولى الظاهر طُطُر ، ورمز فيه إلى أنه إن مات أفسد الأتراك فى الأرض ، قوله :

يـقُـولُ خَـلِـيـلِـى : الْعِـدَا أَضْـمَـرَتْ – إِذَا مَاتَ ذَا المَلِكُ – سُوءَ الْوَرَى
فَــقُــلْــتُ : سَــلِ الــلَّــهَ إِبْــقَــاءَهُ وَيَـكْـفِـيـنَـا الـظَّـاهِـرُ الْـمُـضْـمَـرَا

أقوال العلماء فيه :

أطرى جلال الدين السيوطي تقي الدين الشمني ، بكلمات ، ومدحه بعبارات ، فضلا على ما نظمه في مدحه من قصائد ، لم تصدر منه في حق أحد قبله من الأئمة ، والمشايخ ، والعلماء ، عملاً بحق التلمذة له ، ولما كان بينهما من صداقة ومودة حيث يقول :

«شيخنا الإمام تقي الدين أبو العباس ابن العلامة كمال الدين ابن العلامة أبي عبدالله الشمني ، المحدث ، الأصولي ، المتكلم ، النحوي ، البياني ، المحقق ، إمام النحاة في زمانه ، وشيخ العلماء في أوانه ، شهد بنشر علومه العاكف والبادي ، وارتوى من بحار فهومه الظمآن والصادي» .

ثم يفرد كل علم من العلوم التي حذقها ، وافتن فيها ، بعبارات مسجوعة أشبه بأسلوب المقامات ، فيقول :

أما التفسير : فهو بحره المحيط ، وكشاف دقائقه ، بلفظه الوجيز الفائق على الوسيط والبسيط .

وأما الحديث : فالرحلة في الرواية والدراية إليه ، والمعول في حل كل مشكلاته ، وفتح مقفلاته عليه .

وأما الفقه : فلو رآه النعمان لأنعم به عينا ، أو رام أحد مناظرته لأنشد :

* وَألفى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْناً *

وأما الكلام : فلو رآه الأشعري لقرَّبه وقرَّبَه ، وعلم أنه نصير الدين ببراهينه وحججه المذهبة المرتبة .

وأما الأصول : فالبرهان لا يقوم عنده بحجة ، وصاحب المنهاج لا يهتدي معه إلى محجة .

وأما النحو : فلو أدركه الخليل لاتخذه خليلا ، أو يونس لأنس بدرسه ، وشفى منه غليلا .

وأما المعانى : فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصباح ، وماذا يفعل المفتاح مع من ألقت إليه المقاليد أبطال الكفاح ![1].

وفاته :

توفى أبو العباس الشمنى قرب صلاة العشاء ليلة الأحد سابع عشرين ذى الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ، ودفن يوم الأحد ، وصلى عليه خلق كثير ، وفجعوا به ، ورثاه السيوطى بقصيدة عصماء عدتها خمسون بيتا تبدأ بقوله :

رُزْءٌ عَظِيمٌ بِهِ تُسْتَنْزَلُ الْعِبَرُ ... وَحَادِثٌ جَلَّ فِيهِ الْخَطْبُ وَالْغِيَرُ
رُزْءٌ مُصَابُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ ... وَقَلْبُهُمْ مِنْهُ مَكْلُومٌ وَمُنْكَسِرُ

وتنتهى بقوله :

إنْ لَمْ تَكُنْ أَعْيُنُ الإسْلامِ ذَاهِبَةً ... تَتْرَى فَعَمَّا قَلِيلٍ يَذْهَبُ الأَثَرُ

٤ - الكافيجى (*) :

أبو عبدالله محيى الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى البرعمى ، المعروف بالكافيجى[2].

• ولد ببلدة (ككجة كى) فى آسيا الصغرى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

علمه وثقافته :

اشتغل محيى الدين بالعلم أول ما بلغ ، وارتحل إلى بلاد فارس ، ولقى بها العلماء الأجلاء ، فأخذ عن شمس الدين العنزى ، والبرهان حيدرة ، والشيخ واجد ، وابن فرشته - شارح المجمع - ، وحافظ الدين البزازى .

---

(١) إنباه الرواة : ١/٣٧٥ .

(*) انظر فى ترجمة الكافيجى : الضوء اللامع : جـ٧ رقم ٦٥٥ ، شذرات الذهب : ٧/٣٢٦ ، حسن المحاضرة : ١/٢٣٧ ، بغية الوعاة : ١/١١٧ .

(٢) اشتهر بلقب (الكافيجى) لملازمته كافية ابن الحاجب .

ثم هبط القاهرة أيام الأشرف برسباى ، فنبه قدره ، وظهرت فضائله ، وولى المشيخة بتربة برسباى ، وأخذ عنه الفضلاء والأعيان ؛ ثم ولى مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن الهمام ، فازدحم الطلاب على دروسه طبقة بعد أخرى .

أخلاقه :

قال عنه السيوطى : «كان – رحمه الله – صحيح العقيدة فى الديانات ، حسن الاعتقاد فى الصوفية ، محبا لأهل الحديث ، كارها لأهل البدع ، كثير التعبد – على كبر سنه – ، كثير الصدقة والبذل ، لا يبقى على شىء ، سليم الفطرة ، صافى القلب ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبورا على الأذى» .

آثاره :

قال السيوطى : «وتصانيفه فى العلوم العقلية لا تحصى ، بحيث إنى سألته أن يسمى لى جميعها لأكتبها فى ترجمته ، فقال : لا أقدر على ذلك ، وقال : ولى مؤلفات كثيرة أنسيتها ، فلا أعرف الآن أسماءها .

وأكثر تأليف الشيخ مختصرات ، وأجلها وأنفعها على الإطلاق :

١ – شرح القواعد الكبرى لابن هشام .

٢ – مختصر فى علوم التفسير أسماه (التيسير) .

٣ – مختصر فى علوم الحديث .

٤ – شرح كلمتى الشهادة .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيوطى : « كان الشيخ إماما كبيرا فى المعقولات كلها : الكلام ، وأصول اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والإعراب ، والمعانى ، والبيان ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، والهيئة ، بحيث لا يشق أحد غباره فى شىء من هذه العلوم ، وله اليد الحسنة فى الفقه ، والتفسير ، والنظر فى علوم الحديث .

لزمته أربع عشرة سنة ، فما جئته مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات ، والعجائب ما لم أسمعه من أحد قبله ،

قال لى يوما : أعرب (زيد قائم) ، فقلت : قد صرنا فى مقام الصغار ، وتسأل عن هذا ؟! فقال لى : فى (زيد قائم) مائة وثلاثة عشر بحثا ؛ فقلت : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها ، فأخرج لى تذكرته ، فكتبتها منها»[1] .

وفاته :

توفى أبو عبدالله شهيدا بالإسهال ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وثمانمائة ؛ وقد رثاه الشهاب المنصورى بقصيدة رائعة يقول مطلعها :

بَكَتْ عَلَى الشَّيْخِ مُحْيِى الدِّينِ كَافِيَجِى ... عُيُونُنَا بِدُمُوعٍ مِنْ دَمِ الْمُهَجِ

وتنتهى بقوله :

سُقْيًا لَهُ وَكَسَاهُ اللهُ نُورَ سَنا ... مِنْ سُنْدُسٍ بِيَدِ الغُفْرَانِ مُنْتَسَجِ

★ ★ ★

---

(١) بغية الوعاة : ١/١١٨ .

الطبقة الثامنة

١ - خالد الأزهرى (*) :

زين الدين خالد بن عبدالله .

ولد بجرجا من صعيد مصر ، قدم القاهرة مع أبيه وهو طفل صغير ، حيث حفظ القرآن ، ثم عمل بالأزهر الشريف وقادا :

سبب اتجاهه للعلم :

حدث يوما أن سقطت منه فتيلة على كراس أحد الطلبة ، فشتمه ، وعيره بالجهل ، فعز عليه شتمه ، ومعايرته بالجهل ، فآثر أن يأخذ بأسباب العلم .

علمه وثقافته :

لما كان عمله لصيقا بالعلوم العربية والإسلامية بالأزهر الشريف ، فقد بدأ بالاشتغال بما هو متاح أمامه من العلوم والمعارف ، وقد بدأ مشواره العلمى بعد أن جاوز العقد الثالث من عمره .

قرأ العربية على يعيش المغربى ، والسنهورى ، كما أخذ عن الشمنى والمناوى ، وغيرهما ؛ واشتهر بلقب (الأزهرى) لأن عمله وعلمه كانا بين جدران الأزهر .

آثاره :

صنف الأزهرى مصنفات جيدة ، بارك الله له فيها نتيجة إخلاصه ، وانتفع بها خلق كثير منها :

١ - الأزهرية فى النحو ، وشرحها .

٢ - التصريح بمضمون التوضيح لابن هشام .

(*) انظر فى ترجمة الأزهرى : الأعلام : ٢/٢٣٩ ، شذرات الذهب : ٨/٢٦ ، الضوء اللامع : جـ٣ رقم ٦٦١ ، الكواكب السائرة : ١/١٨٨ ، سركيس : ٨١١ .

٣ – شرح الأجرومية .

٤ – شرح قواعد الإعراب لابن هشام .

٥ – إعراب ألفية ابن مالك .

وفاته :

توفى خالد الأزهرى وهو عائد من الحج فى بلدة (بركة الحج) بمحافظة القليوبية بمصر سنة خمس وتسعمائة – عليه رحمة الله – .

٢ - السيوطى (*) :

أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام ، ولقب بالسيوطى نسبة إلى محافظة أسيوط من صعيد مصر .

ولد بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، نشأ يتيما ، فحفظ القرآن وهو دون الثامنة .

ثقافته وعلمه :

حفظ العمدة ، ومنهاج الفقه والأصول ، وألفية ابن مالك وهو صبى .

أخذ النحو عن الشمنى ، والسيرامى ، والكافيجى ؛ والفرائض عن شهاب الدين الشرماحى ؛ واللغة عن علم الدين البلقينى ، والمناوى ؛ وأخذ الحديث عن الشيخ تقى الدين الشبلى ، وغير هؤلاء كثير .

سافر فى سبيل العلم إلى الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب ؛ فأكرمه الله ، وبارك له فى رحلاته ، وظل طوال حياته مشغوفا بالدرس ، مشتغلا

(*) انظر فى ترجمة السيوطى : البدر الطالع : ٣٢٨/١ ، الضوء اللامع : جـ١ رقم ٢٠٣ ، الكواكب السائرة : ٢٢٦/١ ، حسن المحاضرة : ١٨٨/١ .

بالعلم ، يتلقاه عن شيوخه ، أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فتيا ، أو يحرره فى الكتب والأشعار.

وحينما تقدم به العمر ، وأحس من نفسه الضعف ، خلا بنفسه فى منزله بروضة المقياس بالقاهرة ، واعتزل الناس ، وتجرد للعبادة ، وتصنيف الكتب ، وألف كتاب (التنفيس فى الاعتذار عن الفتيا والتدريس).

أخلاقه :

كان السيوطى فى حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء الأجلاء ، ورجال الفضل والدين ، عفيفا ، كريما ، غنى النفس ، متباعدا عن ذوى الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير أو وزير ، قانعا برزقه من خانقاه شيخو ، لا يطمع فيما سواه ، وكان الأمراء والوزراء يفدون عليه لزيارته ، ويعرضون عليه أعطياتهم ، فيردها.

وروى أن السلطان الغورى أرسل إليه خصيا وألف دينار ، فرد الدنانير ، وأخذ الخصى ثم أعتقه ، وجعله خادما فى الحجرة النبوية ، وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك.

آثاره :

صنف السيوطى مؤلفات فى شتى العلوم والفنون تربو على الثلاثمائة مصنف ، وذكر تلميذه الداوادى أنها أنافت على الخمسمائة ، وقال ابن إياس الحنفى إنها بلغت ستمائة مؤلف ، ولعل من أهمها فى علم النحو خاصة :

١ - الأشباه والنظائر فى النحو.

٢ - جمع الجوامع . وشرحه (همع الهوامع).

٣ - النكت . تعليقات على ألفية ابن مالك ، والكافية والشافية لابن (الحاجب) وشذور الذهب لابن هشام الأنصارى ، ونزهة الطرف فى فن الصرف لابن هشام أيضا.

٤ – الاقتراح فى أصول النحو .

٥ – المزهر فى علوم اللغة وأنواعها .

٦ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة .

وفاته :

توفى السيوطى فى يوم الخميس تاسع شهر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، ودفن بجوار خانقاه قوصون خارج باب القرافة – عليه رحمة الله – .

٣ - الأشمونى (*) :

أبو الحسن نور الدين على بن محمد بن عيسى بن يوسف بن محمد الأشمونى .

ولد بقناطر السباع [1] فى شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة .

علمه وثقافته :

حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه ، ثم رحل إلى القاهرة ، فتوطنها مكبا على العلم .

أخذ العربية عن الكافيجى ، والتفسير عن الجلال المحلى ، والحديث عن البلقينى ، والتقى بالحصى ، وغيرهم ؛ فبرع فى علوم كثيرة ، وتصدر للإقراء .

أخلاقه :

قضى الأشمونى حياته مكبا على العلم ، مع التقشف فى مأكله وملبسه ومفرشه ، لا هم له إلا العبادة ، وتحصيل العلم ، وبذله لطلابه .

(*) انظر فى ترجمة الأشمونى : الأعلام : ٥/١٠ ، البدر الطالع : ١/٤٩١ ، الضوء اللامع : ٦/٥ ، شذرات الذهب : ٨/١٦٥ ، معجم المؤلفين : ٧/٣٨ .

(١) لعلها من أعمال (أشمون) بمحافظة المنوفية بمصر ، ومن ثم نسب إليها .

آثاره :

صنف الأشمونى مصنفات نافعة فى النحو ، والفقه ، والأصول منها :

١ – شرح ألفية ابن مالك .

٢ – شرح جزء من التسهيل لابن مالك .

٣ – نظم المنهاج فى الفقه . وشرحه .

٤ – نظم جمع الجوامع فى الأصول . وشرحه .

وفاته :

توفى الأشمونى بالقاهرة فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة – عليه رحمة الله – .

٤ - ابن قاسم العبادى (*) :

شهاب الدين أحمد الصباغ .

ثقافته وعلمه :

أخذ عن ناصر الدين اللقانى وغيره من علماء عصره ، واشتهر بالتحقيق ، وعمل الشروح والحواشى على أمهات الكتب ، على غرار ما كان ساندا فى عصره .

آثاره :

خلف ابن قاسم مصنفات نافعة فى مختلف العلوم غاية فى الدقة منها :

– حاشية على شرح ابن الناظم لألفية ابن مالك فى النحو .

وفاته :

توفى العبادى بالمدينة المنورة بعد تأدية فريضة الحج سنة أربع وتسعين وتسعمائة – عليه رحمة الله – .

(*) انظر فى ترجمة ابن قاسم العبادى : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٠٤ .

الطبقة التاسعة

[العصر العثمانى]

١ - الشنوانى (*) :

أبو بكر شهاب الدين إسماعيل بن عمر بن على .

ولد ببلدة (شنوان) من محافظة المنوفية بمصر ، فنسب إليها .

ثقافته وعلمه :

أخذ عن ابن قاسم العبادى ، وغيره من مشاهير علماء عصره ، مع شغف بالاطلاع ، ورغبة فى حفظ الشعر ، وميل لتتبع مذاهب النحاة ، وشواهدهم .

آثاره :

صنف الشنوانى مصنفات نافعة من حواش وتقريرات على الكتب الأمهات للعلماء السابقين منها :

١ - حاشية على (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام .

٢ - حاشية على (مجيب الندا) للفاكهى ، وسماها (هداية مجيب الندا) .

٣ - حاشية على شرح (موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب) لخالد الأزهرى ، سماها (هداية أولى الألباب) .

وفاته :

توفى الشنوانى بالقاهرة سنة تسع عشرة وألف - عليه رحمة الله - .

٢ - الدنوشرى (**) :

عبدالله بن عبدالرحمن بن على .

(*) انظر فى ترجمة الشنوانى : الأعلام : ٣٦/٢ ، خلاصة الأثر : ٩٧/١ ، معجم المؤلفين : ٥٩/٣ ، كشف الظنون : ١٣٦ .

(**) انظر فى ترجمة الدنوشرى : الأعلام : ٢٣٢/٢ ، خلاصة الأثر : ٥٣/٣ ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٠٥ .

أصله من (دنوشر) ، وهى قرية من قرى المحلة الكبرى بمحافظة الدقهلية بمصر. إلا أنه ولد بالقاهرة ، حيث نزحت إليها أسرته قبل مولده.

علمه وثقافته :

أخذ عن الشمس الرملى ، ومحمد العلقمى ، وابن قاسم العبادى ، وغيرهم.

رحل إلى بلاد الروم ، وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى القاهرة ، حيث تصدر للتدريس فى الأزهر الشريف ، فانتفع به خلق كثير.

آثاره :

صنف الدنوشرى مصنفات جيدة فى النحو منها :

- حاشية على (التصحيح بمضمون التوضيح) للشيخ خالد الأزهرى.

وفاته :

توفى الدنوشرى بالقاهرة سنة خمس وعشرين وألف - عليه رحمة الله -.

٢ - ياسين العليمى (•) :

ياسين بن زين الدين بن أبى بكر بن علم.

ولد بحمص ، فنسب إليها ، ثم قدم إلى مصر مع أبيه ، فتلقى عن شهاب الدين الغنيمى ، والدنوشرى ، وغيرهما من علماء عصره ، وبرع فى مختلف العلوم ، مصنفا فيها.

آثاره :

صنف ياسين عدة حواش غاية فى الجودة منها :

١ - حاشية على (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام.

٢ - حاشية على (مجيب الندا) للفاكهى.

(•) انظر فى ترجمة ياسين : الأعلام : ١٥٦/٩ ، خلاصة الأثر : ٥٣/٣ ، سركيس : ١٩٤٦ ، نشأة النحو وتاريخ النحاة : ٣٠٥.

٣ – حاشية على (التصريح بمضمون التوضيح) لخالد الأزهرى .

وفاته :

توفى ياسين العليمى بالقاهرة سنة إحدى وستين وألف – عليه رحمة الله –.

٤ - الحفنى (*) :

يوسف بن سالم بن أحمد . ولد بقرية (حَفْنَا)[1] من شمال مصر ، فنسب إليها ، ثم نزح إلى القاهرة .

علمه وثقافته :

تلقى علومه بالأزهر الشريف على أجلاء مشايخ عصره ، كما أخذ عن أخيه محمد ولازمه ، فنبغ واشتهر ، ودرَّس وأفاد وأفتى ، ونظم الشعر الفائق الرائق .

آثاره :

صنف الحفنى شروحا وحواشى غاية فى الجودة على مؤلفات السابقين منها :

١ – حاشية على (شرح الأشمونى لألفية ابن مالك) تنافس فيها الفضلاء ، ولكن الصبان تتبعها بالنقد ، ونقد كثيرا منها .

٢ – حاشية على (مختصر السعد) .

٣ – حاشية على (شرح الخزرجية) .

٤ – حاشية على (جمع الجوامع) للسيوطى .

٥ – حاشية على الناصر ، وابن قاسم .

٦ – حاشية على (شرح الأزهرية) لخالد الأزهرى .

(*) انظر فى ترجمة الحفنى : الأعلام : ٩/٣٠٨ ، مداخل المؤلفين : ١٤٢ ، تاريخ الجبرتى : ١/٣٤٠ ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٠٦ .

(١) حفنا : قرية بجوار بلبيس من محافظة الشرقية .

٧ – حاشية على (شرح السعد لعقائد النسفى).

٨ – ديوان شعر.

٩ – مقامتان.

وفاته :

توفى الحفنى بالقاهرة فى شهر صفر سنة ثمان وسبعين بعد الإحدى عشرة – عليه رحمة الله –.

٥ - الصبان (*) :

أبو العرفان محمد بن الصبان.

ولد بالقاهرة، ونشأ فقيرا، متواكلا، مستجديا الخلق مع العفة.

ثقافته وعلمه :

حفظ القرآن الكريم، والمتون، واجتهد فى طلب العلوم، فأخذ عن أشياخ عصره، كالمدابغى، والبليدى، والأجهورى، والعدوى، وغيرهم : فنبغ فى العلوم عقليها ونقليها، ودرَّس الكتب القيمة فى حياة أشياخه، واعترف العلماء بفضله فى مصر والشام، فالتف حوله خلق كثير.

عمل الصبان فى وظيفة التوقيت[1] بالصلاحية بضريح الإمام الشافعى، ثم بمسجد أبى الذهب تجاه الأزهر الشريف، وسمع بفضله القاضى ططرزادة، والوالى إسماعيل كتخدا، فأكرماه غاية الإكرام، فأقبلت الدنيا عليه، وازداد وجاهة وشهرة.

(*) انظر فى ترجمة الصبان : الأعلام : ١٨٩/٧، سركيس : ١١٩٤، تاريخ الجبرتى : ٢٢٧/٢، الخطط التوفيقية : ٨٢/٣.

(١) لعل وظيفة التوقيت هى وظيفة المؤذن لمواقيت الصلاة المفروضة.

آثاره :

صنف الصبان فى مختلف العلوم ، فى النحو ، والعروض ، والبلاغة ، والمنطق ، ومن أشهر مصنفاته :

١ – حاشية على (شرح الأشمونى لألفية ابن مالك) – التى سارت بها الركبان ، فاحتفى بها العلماء ، وعلقوا عليها تقريرات ، كالإمبابى ، والحامدى ، والرفاعى .

٢ – حاشية على شرح العصام للسمرقندية .

٣ – حاشية على شرح الملوى على السلم .

٤ – رسالة فى علم البيان .

٥ – منظومة فى علم العروض . وشرحها .

٦ – منظومة فى علم الحديث . عدتها ستمائة بيت .

٧ – مثلثات فى اللغة .

٨ – رسالة فى علم الهيئة .

٩ – حاشية على السعد فى المعانى والبديع .

١٠ – رسالتان فى شرح البسملة .

١١ – منظومة فى ضبط رواة البخارى ومسلم .

١٢ – رسالة فى أهل البيت .

١٣ – رسالة فى أسماء أهل بدر .

وفاته :

توفى الصبان بالقاهرة ليلة الثلاثاء الأول من شهر جمادى الأولى سنة ست بعد المائة الثانية عشرة ، بعد وعكة بالسعال وقصبة الرئة ، وصلى عليه بالأزهر الشريف فى مشهد حافل مهيب ، ودفن بالبستان – عليه رحمة الله – .

الطبقة العاشرة

[العصر الحديث]

١ - الدسوقى (*):

محمد بن أحمد بن عرفة .

ولد ببلدة (دسوق) من محافظة كفر الشيخ بمصر – وقدم إلى القاهرة فى طفولته .

ثقافته وعلمه :

حفظ القرآن الكريم ، وجوده على الشيخ محمد المنير ، وأخذ عن الشيخ على السعيدى ، والشيخ الدردير ، وأخذ علم الحكمة ، والهيئة ، والهندسة ، وفن التوقيت عن الشيخ حسن الجبرتى ، والشيخ النفراوى ، وعنهما أيضا أخذ فقه أبى حنيفة .

وتصدر للتدريس ، وإفادة الطلاب بالأزهر الشريف .

أخلاقه :

كان الدسوقى لين الجانب ، دينا ، حسن الخلق ، متواضعا ، مطرح التكلف ، جاريا على سجيته ، لا يرتكب ما يتكلفه غيره من التعاظم ، وفخامة الألفاظ .

آثاره :

صنف الدسوقى مصنفات واضحة العبارات ، سهلة المأخذ ، منها :

١ – حاشية على (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام .

٢ – حاشية على مختصر السعد على التلخيص .

٣ – حاشية على شرح الشيخ الدردير على سيدى خليل فى فقه المالكية .

٤ – حاشية على شرح الجلال المحلى على بردة البوصيرى .

٥ – حاشية على الرسالة الكبرى للإمام السنوسى .

(*) انظر فى ترجمة الدسوقى : الأعلام : ٢٤١/٦ ، سركيس : ٨٧٥ ، تاريخ الجبرتى : ٣٢٨/٤ ، تاريخ آداب اللغة العربية : ٣٣١/٤ .

٦ – حاشية على شرح الرسالة الوضعية .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الجبرتي : «كان فريدا في تسهيل المعاني ، وتبيين المباني ، يفك كل مشكلة بواضح تقريره ، ويفتح كل مغلق برائق تحريره ، ودرسه مجمع أذكياء الطلاب ، والمهرة من ذوى الأفهام والألباب ، مع لين جانب ، وديانة : وحسن خلق ، وتواضع ، وعدم تصنع ، واطراح تكلف ، جاريا على سجيته» .

وفاته :

توفي الدسوقي يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ألف ومائتين وثلاثين ، وصلى عليه بالجامع الأزهرى ، ودفن بتربة المجاورين – عليه رحمة الله – .

وقد رثاه الشيخ حسن العطار بقصيدة عدتها واحد وثلاثون بيتا بدأها بقوله :

أَحَادِيثُ دَهْرٍ قَدْ أَلَمَّ فَأَوْجَعَا ... وَحَلَّ بِنَادِى جَمْعِنَا فَتَصَدَّعَا
لَقَدْ صَالَ فِينَا الْبَيْنُ أَعْظَمَ صَوْلَةٍ ... فَلَمْ يُخْلِ مِنْ وَقْعِ الْمُصِيبَةِ مَوْضِعَا

ثم قال :

يَمِيناً لَقَدْ جَلَّ الْمُصَابُ بِشَيْخِنَا الدُّ ... سُوقِى وَعَادَ الْقَلْبُ بِالْهَمِّ مُتْرَعا

ثم ختمها بقوله :

فَجُوزِىَ بِالْحُسْنَى وَتُوِّجَ بِالرِّضَا ... وَقُوبِلَ بِالإِكْرَامِ مِمَّنْ لَهُ دَعَا

٢ - العطار (*) :

حسن بن محمد بن محمود العطار . أصله من المغرب .

ولد بالقاهرة ، وكان والده يعمل بالعطارة ، فحمل لقب صناعته .

(*) انظر في ترجمة العطار : الأعلام : ٢/٢٣٦ ، سركيس : ١٣٣٥ ، التيمورية : ٣/٢٠٧ ، الخطط التوفيقية : ٤/٤٨ ، تاريخ آداب اللغة العربية : ٤/٢٣٢ .

علمه وثقافته :

رآه والده راغبا فى العلم ، فأعانه على تحصيله ، حيث تتلمذ للشيخ الدسوقى وغيره من علماء عصره ، فأخذ عنهم علوم اللغة العربية ، فأتقنها ونبغ فيها .

اتصل بالفرنسيين بعد غزوهم لمصر ، فتعلم منهم بعض العلوم العصرية كعلم الهيئة ، والعمل بالأسطرلاب ، وغيرها .

رحل إلى الشام ، وبعض البلاد العربية ، ثم عاد إلى القاهرة ، فتصدر للتدريس فى الجامع الأزهر ، كما تولى مشيخته ، وكان مقربا إلى محمد على باشا حين تولى حكم مصر .

آثاره :

خلف الشيخ حسن العطار مصنفات جيدة فى فنون مختلفة ، ولاسيما فى علوم العربية منها :

١ – منظومة فى النحو. شرحها تلميذه الشيخ حسن قويدر .

٢ – حاشية على (شرح الأزهرية) لخالد الأزهرى .

٣ – حاشية على (السمرقندية) فى البلاغة .

٤ – جمع ديوان (ابن سهل الإسرائيلى) ، وبوبه .

٥ – إنشاء العطار . فى صناعة الإنشاء .

٦ – مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

أقوال العلماء فيه :

وصفه الجبرتى بقوله: «صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المتفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار إليه فى العلوم الأدبية ، صاحب الإنشاء البديع ، والنظم الذى هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار ، حفظه الله من الأغيار» .

وفاته :

توفى العطار سنة ألف ومائتين وخمسين هجرية ، الموافق سنة ألف وثمانمائة وأربع وثلاثين ميلادية .

٢ - قويدر (•) :

حسن بن على قويدر الخليلى . أصل أجداده من المغرب ، نزحت عائلته إلى فلسطين ، وأقامت بها ، ورحل والده إلى مصر ، فولد له ابنه حسن عام ألف وسبعمائة وتسع وثمانين . وكان يعمل مع أبيه فى التجارة بين مصر والشام .

ثقافته وعلمه :

تفقه فى الأزهر الشريف ، على الشيخ حسن العطار ، والشيخ الباجورى وغيرهما من علماء وقته ، فاشتهر ، وذاع صيته فى اللغة والأدب ، وكان يجمع بين تعاطى التجارة مع أبيه ، والاشتغال بالتأليف والشروح فى ساعات الفراغ ؛ وكان عالما بأسرار اللغة وآدابها .

آثاره :

صنف حسن قويدر مصنفات مفيدة فى اللغة والأدب وغيرهما ، منها :

١ – نيل الأرب فى نظم مثلثات العرب .

٢ – شرح منظومة العطار فى النحو .

٣ – زهر النبات فى الإنشاء والمراسلات .

٤ – رسالة (الأغلال والسلاسل فى مجنون اسمه عاقل) انتقد فيها رجلا اسمه عاقل ، انتحل قصيدة لغيره .

(•) انظر فى ترجمة حسن قويدر : أعيان البيان للسندوبى : ١٧ ، تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر لشيخو : ١/٥٣، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان : ٤/٢٣٢ .

وفاته :

توفى حسن قويدر سنة ألف وثمانمائة وخمس وأربعين – عليه رحمة الله – .

٤ - الخضرى (*) :

محمد بن مصطفى بن حسن الخضرى .

ولد بمدينة دمياط من محافظات مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة هجرية – ألف وسبعمائة وثمان وتسعين ميلادية – .

ثقافته وعلمه :

حفظ القرآن الكريم فى كتاب بلدته ، ثم بالأزهر الشريف ؛ وما لبث أن مرض بالحمى ، فصمّت أذناه وفقد حاسة السمع ، ولكن لم يقعده ذلك عن تحصيل العلم ، حيث ابتكر طريقة للتفاهم ومخاطبة الناس عن طريق حركات إشارية بالأصابع ، تعلمها منه أصحابه ، فكانوا يخاطبونه ويخاطبهم بها .

اشتغل بالعلوم العربية ، والشرعية ، و الفلسفية ، فنبغ فيها جميعا ، وألف وصنف ، وانتفع به خلق كثير .

آثاره :

خلف الخضرى مصنفات نافعة فى النحو ، والتفسير ، والبلاغة ، والفقه ، والفلسفة ، مازالت حتى يومنا هذا مراجع هامة يعتمد عليها الكثيرون من الباحثين والدارسين ، منها :

١ – حاشية على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك فى النحو .

٢ – حاشية على شرح الملوى على السمرقندية فى البلاغة .

٣ – رسالة فى مبادئ علم التفسير .

(*) انظر فى ترجمة الخضرى : الأعلام : ٧/٣٢٢ ، معجم المطبوعات : ٨٨٦ ، التيمورية : ٣/٨٩ .

٤ – رسالة فى علم أصول الفقه .

٥ – شرح (اللمعة) فى الميقات .

٦ – مقدمة شرح كتاب (الأم) للشافعى .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه خيرالدين الزركلى : «فقيه شافعى ، عالم بالعربية» .

وفاته :

توفى الخضرى بمدينة دمياط بمصر سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين هجرية – ألف وثمانمائة وسبعين ميلادية – ودفن بمدافن الأسرة بدمياط .

٥ - الإبيارى (*) :

عبدالهادى نجا الإبيارى .

ولد ببلدة (إبيار) بمحافظة الغربية بمصر سنة ألف وثمانمائة وإحدى وعشرين .

ثقافته وعلمه :

جاور بالأزهر الشريف ، وجد فى طلب العلوم الإسلامية واللغوية ، فأدرك منها شأوا بعيدا ، وذاعت شهرته ، فاستدعاه الخديوى إسماعيل لتأديب أبنائه ، وجعله الخديوى توفيق إماما له ومفتيا ، ومازال يشغل هذا المنصب حى توفاه الله ، أخذ عنه كثير من جلة العلماء كالشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد البسيونى ، حيث تصدر للتدريس بالأزهر الشريف ، وفى بيته .

آثاره :

صنف الإبيارى عددا من المصنفات النافعة فى النحو واللغة والأدب وعلوم الدين منها :

(*) انظر فى ترجمة الإبيارى : الخطط التوفيقية : ٢٩/٨ ، الأعلام : ٦٠٥ ، سركيس : ٣٥٨ ، أعيان البيان للسندوبى : ٢٢٢ ، عصر إسماعيل للرافعى : ٢٦٤/١، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان : ٢٣٧/٤ .

١ – القصر المبنى على حواشى المغنى لابن هشام .

٢ – ترويح النفوس على حواشى القاموس .

٣ – نفح الأكمام فى مثلث الكلام .

٤ – الوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية .

٥ – الزورق فى اللغة .

٦ – الفواكه فى الأدب .

٧ – صحيح المعانى فى شرح منظومة القسطلانى .

٨ – الباب المفتوح لمعرفة أحوال الروح .

٩ – النجم الثاقب فى المحاكمة بين البرجيس .

١٠ – الكواكب الدرية فى نظم الضوابط العلمية .

١١ – سعود المطالع . جمع فيه ٤١ فنا فى شرح لغز باسم (إسماعيل) على نسق غريب .

أقوال العلماء فيه :

وصفه على باشا مبارك بقوله : «البر الهمام ، وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب ، واللوذعى الأديب ، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبدالهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الإبيارى من كان كاتبا أديبا ، راسل أعلام الأدب فى سائر الأقطار ، وله مؤلفات قيمة فى الأدب واللغة ، بلغت أربعين كتابا» .

وقال عنه جورجى زيدان : «من أكبر علماء مصر فى القرن التاسع عشر ، ومن أعظم الكتاب والمؤلفين» .

وفاته :

توفى عبدالهادى الإبيارى سنة ألف وثمانمائة وثمانين هجرية – عليه رحمة الله – .

الباب الثامن

مدرسة الأندلس

الفصل الأول

الفتح الإسلامى للأندلس

فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك (٩٣هـ - ٧١١م) جهز القائد العربى موسى بن نصير - وكان قد تم له فتح بلاد المغرب - مولاه طارق بن زياد بجيش قوامه سبعة آلاف من المسلمين ، أكثرهم من البربر وأقلهم من العرب ، لفتح بلاد الأندلس ، بعد أن أغراه (ليليان) عامل (لوزريق) على سبتة - أحد الحصون الإفريقية التى لم يكن المسلمون قد أخضعوها بعد - بفتحها ، وأخذ ييسر له أمر الانتصار على (لوزريق) ، لما كان يكنه له من بغض وكراهية ، حتى إن جيوش المسلمين بقيادة طارق ، قد عبرت البحر إلى الأندلس قبالة سبتة على سفن (ليليان) نفسه .

والتقى المسلمون والقوط فى عدة معارك ضارية ، توجت فى النهاية بتحقيق النصر المؤزر للمسلمين فى موقعة (شرمين) فى شهر رمضان من العام الثانى والتسعين للهجرة النبوية الشريفة ، الموافق الحادى عشر بعد السبعمائة للميلاد ، حيث قامت على إثر ذلك دولة إسلامية فى الأندلس ، ظلت قابضة على أزمة الأمور فى شبه الجزيرة قرابة ثمانية قرون ، تتابعت على البلاد فيها أشكال من أنظمة الحكم ، وعديد من الولاة والحكام ، يمكن إجمالها - على نحو من الإيجاز - فى عصور ستة متمايزة :

عصر الولاة :

ويبدأ مع الفتح الإسلامى على يد طارق بن زياد (٩٢هـ - ٧١٢م)، وينتهى بقيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن الداخل الملقب بصقر قريش (١٣٨هـ - ٧٥٥م)[1].

عصر بنى أمية :

ويبدأ بقيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن الداخل، وينتهى بسقوطها عندما اختار زعماء قرطبة نوعا من الحكم الجمهورى (٤٢٢هـ - ١٠٣١م).

عصر ملوك الطوائف :

ويبدأ بسقوط دولة الأمويين، وينتهى بقيام دولة المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين (٤٩٣هـ - ١٠٩٢م)[2].

عصر المرابطين :

ويبدأ باستيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس، وينتهى بسقوط دولتهم وقيام دولة الموحدين (٥٤١هـ - ١١٤٦).

عصر الموحدين :

ويبدأ بقيام دولتهم على أنقاض دولة المرابطين، وينتهى بسقوطها، حيث انتزع المسيحيون الأسبان معظم ما كان فى أيدى المسلمين من الأقاليم، مما أدى إلى انحصار المسلمين فى جزء صغير من جنوب شبه الجزيرة هو مملكة (غرناطة) تحت حكم بنى الأحمر.

---

(١) سمى (عصر الولاة) لأن الأندلس كانت تحكم فيه بواسطة وال يعينه خليفة دمشق، وأحيانا حاكم شمال إفريقيا.

(٢) سمى (عصر ملوك الطوائف) لأنه حينما ضعف الخلفاء الأمويون فى الأندلس، قامت عدة ممالك مستقلة تقسمت البلاد فيما بينها، وأصبح على رأس كل مملكة طائفة من الولاة يحكمونها بالتتابع.

العصر الغرناطى :

ويبدأ بقيام مملكة غرناطة (٦٦٨هـ - ١٣٦٩م) ، وينتهى بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى المسيحيين الأسبان (٨٩١هـ - ١٤٩٢م) .

وهكذا انتهى الحكم العربى للأندلس ، ووقع شبه الجزيرة فريسة فى أيدى المسيحيين الأسبان ، وانقطعت صلتها سياسيا بالدولة الإسلامية الأم .

* * *

الفصل الثانى

النحو فى الأندلس

بدأ الاشتغال بعلم النحو فى الأندلس متأخرا عنه فى بلاد المشرق العربى ، ومرد ذلك إلى عاملين أساسيين :

الأول : بعد المسافة بين الأندلس وبلاد المشرق (العراق) مهد الدراسات النحوية .

الثاني : انصراف العرب منذ دخولهم الأندلس إلى تطهير البلاد من الفرنجة وتتبعهم ، لتوطيد دعائم ملكهم ، وتثبيت أركانه ، وإخضاع البلاد لسلطانهم ؛ ولابد أن يكون ذلك على حساب مناحى النشاط الأخرى ، وفى مقدمتها النشاط الثقافى والفكرى .

حيث لم يكد خلفاء بنى أمية يستقلون بحكم الأندلس ، وتتوطد دعائم دولتهم ، وتدين لهم شبه الجزيرة برمتها ، حتى شرع الولاة فى تشجيع العلماء ، وحثهم على طلب العلم ، وبذل المكافآت والعطايا لهم ترغيبا لهم فى الدراسة والبحث والتأليف والتصنيف ، عملا على استعادة مجد دولة بنى أمية التى قضى عليها بنو العباس فى بلاد الشرق .

وبديهى أن علوم اللغة لا تبدأ فى قطر من الأقطار إلا تالية لدراسة القرآن الكريم ، وقراءاته ، والسنة النبوية برواياتها ، والفقه الإسلامى ومذاهبه وأحكامه ؛ ثم يلتفت إلى دراسة علوم اللغة لفهم القرآن الكريم ، ومعرفة الروايات الصحيحة للأحاديث النبوية ، والوقوف على صحيح الدين باستيعاب الفقه الإسلامى وأحكامه وقضاياه .

ومن ثم وجد بالأندلس مؤلفون ومعلمون يقومون بتعليم الشباب فى قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية مبادئ العربية عن طريق مدارسة النصوص والأشعار، بهدف الحفاظ على القرآن الكريم، وسلامة لغته وتلاوته، وكان معظمهم من قراء الذكر الحكيم، وكان كثير منهم يرحلون إلى بلاد المشرق، فيتلقون هذه القراءات عن مشاهير القراء، ثم يعودون إلى بلادهم فيعلمونها للناس، إلى جانب ما يحصلونه من أحكام الفقه، وقواعد اللغة.

ولعل من أشهر هؤلاء القراء أبو موسى الهوارى الذى رحل إلى المشرق، ولقى مالكا وأخذ عنه الفقه، كما لقى الأصمعى وأبا زيد الأنصارى؛ والقارى بن قيس الذى أخذ القراءة على يد نافع بن أبى نعيم مقرئ أهل المدينة، وأخذ الفقه عن مالك، كما لقى الأصمعى وأصحابه؛ وجودى بن عثمان الذى رحل إلى المشرق، ولقى الكسائى والفراء وتتلمذ عليهما، وأبو عبدالله محمد بن عبدالله الذى رحل إلى المشرق، وأخذ قراءة عثمان بن سعيد المصرى المعروف باسم (ورش) وأدخلها إلى الأندلس، وغير هؤلاء كثيرون.

ولا ريب أن دراسة النحو المتخصصة بدأت تظهر فى الأندلس منذ عودة جودى بن عثمان من المشرق، بعد أن تتلمذ للكسائى والفراء، حيث كان هو أول من أدخل كتب الكوفيين إلى الأندلس، وأول من صنف فى النحو على مذهبهم، وظل يدرس النحو الكوفى لطلابه حتى توفى سنة ثمان وتسعين ومائة، وبعده ظهر مفرج بن مالك الذى وضع شرحا على كتاب الكسائى، وبعده جاء أبو بكر ابن خاطب المكفوف الذى وضع كتابا فى النحو على مذهب الكوفيين.

مما تقدم يتضح أن دراسة النحو فى الأندلس قد بدأت على المذهب الكوفى، وظلت فى مدارسته قرابة قرن من الزمان، حيث رحل إلى المشرق محمد ابن موسى بن هاشم المعروف بالأفشنيق المتوفى سنة سبع وثلاثمائة، ولقى بمصر أبا جعفر الدينورى، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية، وأخذ يقرئه لطلابه

بقرطبة ، وأخذه عنه جمع من المؤدبين والمعلمين وأخذوا فى مدراسته وتدريسه ، لعل من أشهرهم أحمد بن يوسف بن حجاج .

ثم يرحل إلى المشرق محمد بن يحيى المهلبى الرباحى الجيانى ، ليلقى بمصر أبا جعفر النحاس ، ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية ، وعاد إلى قرطبة يقرئه لطلابه ، شارحا ومفسرا ، تسعفه دقة نظره ومنطقه وقدرته على الاستنباط ، وتحليل العبارات ، والغوص على العلل ، نظرا لما ثقفه من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام قبلا .

كما قدم الأندلس من بغداد أبو على القالى الذى حمل إليها معه ذخائر اللغة والشعر والنحو ، وكان من أهم ما جاء به معه كتاب سيبويه الذى أخذه عن ابن درستويه عن المبرد ، وكان يجنح إلى المذهب البصرى ، وينافح عنه مناظرا ومجادلا .

وهكذا نرى أن دراسة النحو فى الأندلس ، وإن بدأت على المذهب الكوفى ، وتأخرت عنها على المذهب البصرى بنحو قرن من الزمان ، إلا أنه لم يكد القرن الرابع ينتصف حتى وجدنا المذهبين يسيران جنبا إلى جنب ، حيث يعكف بعض العلماء على دراسة المذهب الكوفى ، ويعكف آخرون على دراسة المذهب البصرى ، بينما يعكف فريق ثالث على الجمع بين المذهبين فى الدراسة .

فأبو عبدالله محمد بن عاصم العاصمى تلميذ الرباحى ، وحامل روايته لكتاب سيبويه – كان لا يقل عن أصحاب المبرد بصرا به ، وبدقائقه الخفية ؛ وأحمد بن أبان له شرحان على كتابى الكسائي والأخفش ؛ وممن جمع بين دراسة المذهبين وتدريسهما ابن القوطية . وأبو بكر الزبيدى الذى ألف كتابا فى النحو سماه (الواضح) .

وما كاد القرن الخامس يبزغ فجره ، حتى وجدنا من علماء الأندلس من يأخذ بالمذهب البغدادى ، وينتهج منهجه فى الاختيار من آراء البصريين

والكوفيين ؛ ولعل أشهر هؤلاء العلماء ابن سيده الضرير صاحب (المخصص) . و(المحكم) حيث يقول فى مقدمة (المحكم) .

«... أما ما نثرت عليه من كتب النحويين المتأخرين ، المضمنة لتعليل اللغة ، فكتب أبى على الفارسى ، الحلبيات ، والبغداديات ، والأهوازيات ، والتذكرة ، والحجة ، والإغفال ، والإيضاح ... وكتب أبى الفتح عثمان بن جنى كالمعرب ، والتمام ، وشرحه لشعر المتنبى ، والخصائص ، وسر الصناعه والتعاقب ، والمحتسب» .

وكذا الأعلم الشنتمرى الذى كان أول من نهج لنحاة الأندلس الاتجاه البغدادى فى صمود وقوة ، كما أنه أول من نادى بالعلل الثوانى ، كما شرح كتاب (الجمل) للزجاجى البغدادى .

وهكذا ظل علماء الأندلس يتوالون ويتتابعون ، ينهلون من منابع النحو الثلاثة - الكوفى ، والبصرى ، والبغدادى - ويجمعون بينها فيما يدرسون ويصنفون ، ويتعمقون فى فهم دقائق النحو ، واستنباط أحكامه ، وتعليل قضاياه ، وحذق أصوله ، والتبحر فى فروعه .

وجدير بالذكر أنه لما فسدت السليقة بالبادية فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وانصرف علماء المشرق إلى مدارسة ما حفظوه ودونوه من كلام العرب الفصحاء ، دفع هذا علماء الأندلس إلى أن يحذوا حذوهم فى اجتزائهم بما نقلوه ودونوه من ألسنة العرب وكلامهم الذى أخذوه رواية عن علماء المشرق ، والقواعد التى تلقفوها عنهم ، فلم يرتحلوا بعد ذلك إلى بلاد المشرق ، وعكفوا على ما حصلوا عليه ، وصدقوا العزيمة فى تثمير ما تجمع لديهم ؛ ومن ثم فقد بدأت تظهر عند الأندلسيين نزعة الاستقلال عن المشارقة ، والاعتماد على أنفسهم ، فعدلوا عن الأخذ ببعض آراء نحاة المشرق ، وخالفوهم فى كثير من مناهج تعليم النحو وتدوينه ، كما استدركوا عليهم مسائل فاتهم التعرض لها .

وبذلك بدأ نحاة الأندلس يستحدثون مذهبا رابعا فى النحو ، عرف فيما بعد بمذهب الأندلسيين أو مدرسة الأندلس النحوية ، ظهرت بوادره من أوائل القرن الخامس الهجرى الذى يعد بحق فجر الدراسات النحوية فى الأندلس : ومنذ ذلك الحين أصبح رائدهم فى دراسة النحو كتاب سيبويه ، بل صار منطلقهم الذى ينطلقون منه ، ومرجعهم الذى يرجعون إليه[1] .

ولم تلبث الحركة العلمية فى الأندلس أن نمت وترعرعت ، وكان قوامها القيام على كتاب سيبويه – حفظا ، وشرحا ، وتعليقا – وكثر العلماء ، وتباروا فى تصنيف المصنفات فى النحو ، ذلك العلم الذى حرموا منه زمنا ، فحظى منهم بما حرمه غيره من العلوم الأخرى .

وما أن حل القرن السابع الهجرى ، حتى تسنم النحو الذروة العليا من عناية العلماء واهتمامهم ، وفى هذا يقول ابن سعيد المغربى فيما نقله عنه المقرى :

«والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم فى هذا العصر[2] كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثير ، والبحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه : وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو ، بحيث لا تخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الإزراء»[3] .

وعلى كر الأيام ، تكاثرت مسائل المذهب الأندلسى الجديد ، وذاعت قواعده ، واطرد نموه ، حتى أن المشارقة بدأوا يسعون للأخذ عنهم ، بعد أن ضعف شأنهم بسقوط بغداد فى أيدى المغول ، وانقطاع المدد من العراق ، إذ نزح كثير من

---

(١) راجع : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٢٠ .
(٢) يقصد القرن السابع الهجرى .
(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٢٢ (عن نفح الطيب للمقرى) .

الأندلسيين إلى بلاد المشرق إما لتأدية فريضة الحج ، أو للإقامة بها ، والتصدر للتدريس والإفادة فى مساجد المشرق ومدارسه ، ومعهم مؤلفاتهم ومصنفاتهم كابن مالك ، وأبى حيان ، وغيرهما[1] .

* * *

(١) انظر : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٢٣ .

الفصل الثالث

طبقات نحاة الأندلس

الطبقة الأولى

١ - أبو موسى الهوارى (•) :

من أهل الفقه ، والقراءات ، واللغة . رحل إلى بلاد المشرق فى أول خلافة عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) ، فلقى الإمام مالك بن أنس ونظراءه من الأئمة ، ولقى الأصمعى ، وأبا زيد الأنصارى ، ونظراءهما ، وشافه الأعراب فى محالها .

ولما عاد من المشرق ، وجد كتبه قد ذهبت بعطب أصابها ، فقصده الشيوخ يهنئونه بقدومه ، ويعزونه فى ذهاب كتبه ، فقال لهم : «ذهب الخرج ، وبقى ما فى الدرج ، أنا شعبى زمانى ، فليسألنى من يشاء» .

وحكى أنه كان إذا قدم قرطبة ، توقف عيسى بن دينار ، وسعيد بن حسان عن الفتيا حتى يرحل عنها ، وكانا فقيهين يفتيان على مذهب الإمام مالك بن أنس .

ولما وقع الاختلاف بين العرب والمولدين بسبب امتناع المولدين من الصلاة خلف الإمام العربى - وكان الخلفاء لا يقدمون للصلاة إلا العرب - ترافعوا إلى السلطان ، فقال لهم الوزراء : أترضون بأبى موسى الهوارى ؟ فأجمع الفريقان على الرضا به ؛ فقبل أن يصلى بالناس بلا رزق يجرى عليه ؛ وكان

(•) انظر فى ترجمة الهوارى : طبقات الزبيدى : ٢٥٣ .

يركب من باديته كل جمعة – وكان مسكنه بقرية من قرى (موررو)[1] فيأتى (إستجة)[2]. فيصلى بأهلها : ولما ثقل فى آخر عمره ، احتاج إلى شراء دار على مقربة من الجامع ، فسكنها إلى أن توفى .

آثاره :

صنف أبو موسى كتابا فى القراءات ، وكتابا فى تفسير القرآن : وكانت العبادة أغلب عليه من العلم .

٢ - الغازى بن قيس (•) :

أحد المتصدرين للتأديب والتدريس فى قرطبة أيام دخول عبدالرحمن بن معاوية الأندلس : رحل إلى المشرق ، وشهد تأليف الإمام مالك بن أنس للموطأ ، وهو أول من أدخله الأندلس ، كما أدرك نافع بن أبى نعيم – مقرئ أهل المدينة – فقرأ عليه ، وهو أول من أدخل قراءته الأندلس أيضا .

كما لقى الأصمعى ونظراءه ، وأخذ عنهم اللغة والأدب ، وعمل مؤدبا لأبناء عبدالرحمن بن معاوية ، ثم مؤدبا لأبناء ولده هشام من بعده ، ثم لأولاد الحكم ابن هشام .

عرض عليه القضاء فأبى ، وكان عبدالرحمن بن معاوية مجلا له ومعظما ، وكان يأتيه ويصله فى منزله .

روى كثيرا عن عبدالرحمن بن معاوية ، كحكاية تنبؤ جده مسلمة بن عبدالملك بن مروان له – وهو طفل صغير – بأنه سيكون الباعث لدولة بنى أمية من جديد بعد القضاء عليها فى المشرق : وحكاية تعوذ الكميت بن زيد بقبر معاوية بن هشام بن عبدالملك ، وتأمين هشام له ، وإكرامه ، وكسوته ، وصلته .

---

(١) موررو : كورة بالأندلس ، تقع بين كورتى قرطبة وتاكرنا ، جنوبى نهر الوادى الكبير .
(٢) إستجة : كورة بالأندلس على نهر غرناطة .
(•) انظر فى ترجمة الغازى : طبقات الزبيدى : ٢٢٤ .

وقضى الغازى للمؤدبين بجراية على تأديبهم ، جريا على ما عليه أمر الناس فى ذلك العهد .

وفاته :

توفى الغازى سنة تسع وتسعين ومائة – عليه رحمة الله – .

٢ - جودى (*) :

جودى بن عثمان ، مولى لآل طلحة العنبسيين . ولد ونشأ فى مورور[١] .

علمه وثقافته :

رحل إلى بلاد المشرق ، فلقى الكسائى والفراء والرياشى ، فأخذ عنهم النحو واللغة ؛ وروى عن الكسائى كتابه فى النحو ، وهو أول من أدخله بلاد الأندلس ، حيث سكن قرطبة بعد عودته من المشرق .

تصدر لتدريس النحو واللغة والأدب فى قرطبة ، وأخذ عنه أناس كثيرون ، ويعد جودى أول نحوى فى الأندلس ، بالمعنى الدقيق لكلمة (نحوى) .

آثاره :

ألف جودى كتابا فى النحو على المذهب الكوفى سماه (منبه الحجارة) .

وفاته :

توفى جودى بقرطبة سنة ثمان وتسعين ومائة – عليه رحمة الله – .

(*) انظر فى ترجمة جودى : طبقات الزبيدى : ٢٥٦ ، معجم الأدباء : ٢١٣/٧ ، إنباه الرواة : ٢٧١/١ ، تلخيص ابن مكتوم : ٤٨ ، طبقات ابن قاضى شهبة : ٢٩٠/١ ، بغية الوعاة : ٤٩٠/١ .

(١) ذكر فى ترجمة أبى موسى الهوارى أن (مورور) كورة بالأندلس – نقلا عن محقق طبقات الزبيدى – وقد وجدنا فى ترجمة جودى بن عثمان أن (مورور) بالمغرب ، قرب القيروان (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٢٢٥) ومن ثم يلقب جودى بالمغربى ، وينص على أنه بعد عودته من المشرق اتجه إلى قرطبة . فلعل ثمة كورتان باسم (مورور) إحداهما بالمغرب ، والأخرى بالأندلس .

٣ - محمد بن عبدالله (*) :

أبو عبدالله محمد بن عبدالله القرطبى .

علمه وثقافته :

رحل إلى المشرق ، وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المصرى المعروف بـ (ورش) ، وهو أول من أدخل قراءته إلى الأندلس .

كان عالما بالقرآن ، بصيرا بالعربية ، على جانب كبير من الزهد ،

عمل مؤدبا لأبناء الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل .

٤ - الأحدب (**) :

أبو القمر عبدالواحد بن سّلام ، وقال ابن القرضى : أبو الفخر ، وسماه ابن حيان : عبدالله الأحدب .

كان من أهل العلم بالنحو .

تصدر للتأديب والتدريس فى مدارس قرطبة ، وانتفع به الطلاب ، وأفاد منه خلق كثير .

وفاته :

توفى الأحدب سنة تسع ومائتين .

٥ - سوار بن طارق (***) :

أعتقه الخليفة هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ، واتخذه مؤدبا لولده ، كما اتخذه ولده الحكم مؤدبا لولده أيضا .

كان من أهل العلم بالنحو واللغة والأدب .

(*) انظر فى ترجمة محمد بن عبدالله : بغية الوعاة : ١٥١/١ .

(**) انظر فى ترجمة الأحدب : طبقات الزبيدى : ٢٥٧ ، وابن القرضى : ٣٣٤/١ ، المقتبس : رقم ٢٧٧ .

(***) انظر فى ترجمة سوار : طبقات الزبيدى : ٢٥٧ ، نفح الطيب : ٤٦/٢ ، بغية الوعاة : ٦٠٧/١ .

وفاته :

توفى سوار بعد ثورة أهل الربض المشهورة على الأمير الحكم بن هشام المعروفة بـ (الهيج) .

٦ - شمر بن نمير (٠) :

أبو عبدالله شمر بن نمير .

كان من أهل العلم بالعربية واللغة .

تصدر للتدريس والإفادة بمساجد قرطبة .

رحل إلى المشرق ، فلقى رجالا من أهل الحديث ، منهم حسين بن أبى ضميرة – مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، واستوطن مصر ، وظل بها إلى أن توفى إلى رحمة الله .

روى عنه عبدالله بن وهب[1] وغيره من نظرائه .

ولم يوقف على تاريخ وفاته .

★ ★ ★

(٠) انظر فى ترجمة شمر : طبقات الزبيدى : ٢٥٧ ، إنباه الرواة : ٢/ ٧٥ ، ابن القرضى : ١/ ٢٦٨ ، المقرب : ١/ ١٢٤ ، المقتبس : رقم ٢٣٨ .

(١) عبدالله بن وهب بن مسلم ، مولى قريش ، توفى سنة سبع وتسعين ومائة . (تهذيب التهذيب : ٦/ ٧١) .

الطبقة الثانية

١ - أبو حُرْشن (*) :

عبدالله بن رافع – وقيل : نافع – مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

أخذ النحو واللغة عن جودى بن عثمان ، وكان عالما فى النحو واللغة والأدب .

وكان الناس إذا استعظموا رجلا قالوا : ما هذا إلا أبو حرشن .

٢ - خصيب الكلبى (**) :

ابن عم الكلبيين الساكنين بالمدينة المنورة ، وكان مقيما فى مورور ، وفيها أصول الكلبيين .

كان من أهل اللغة والنحو.

وكان الشيوخ من أهل مورور يذكرون أن الخليفة محمدا كان يرسل البريد من قرطبة إلى خصيب يستفتيه فى الكلمة من اللغة ، والمسألة من العربية تعرض لهم ، فيجيب عنها .

صنف خصيب كتابا فى اللغة نحو مصنف أبى عبيد القاسم بن سلام .

٣ - عبدالله بن الغازى بن قيس (***) :

أخذ من أبيه ، وكان عالما بالعربية والغريب والشعر ، وكان بصيرا بقراءة نافع بن أبى نعيم .

سمع منه ثابت بن حزم السَّرقسطى .

(*) انظر فى ترجمة أبى حرشن : طبقات الزبيدى : ٢٥٦ ، بغية الوعاة : ٢/٦٤ .

(**) انظر فى ترجمة خصيب : طبقات الزبيدى : ٢٥٩، بغية الوعاة : ١/٥٥١ .

(***) انظر فى ترجمة عبدالله : طبقات الزبيدى : ٢٥٩ ، تاريخ علماء الأندلس : ١/٢٥٠ ، المقتبس : رقم ٣٠٨ ، بغية الوعاة : ٢/٥١ .

توفى عبدالله سنة ثلاثين ومائتين .

٤ - ابن أبى غزالة (*) :

هارون بن أبى غزالة السُّبانى .

كان عالما باللغة العربية ، أخذ عنه جابر بن غيث .

صنف كتابا حسنا فى العربية .

٥ - عبدالله بن سوار (**) :

عبدالله بن سوار بن طارق .

كان من أهل العلم واللغة ، متفننا فى علم الأدب .

رحل إلى بلاد المشرق ، وسمع من الحسن بن عرفة ، ولقى أبا حاتم والرياشى وغيرهما .

روى عنه محمد بن جنادة الإشبيلى .

وفاته :

توفى عبدالله فى جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين ومائتين .

٦ - عبدالملك بن حبيب (***) :

أبو مروان عبدالملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جُلْهُمَة بن العباس ابن مرداس السُّلَمى .

(*) انظر فى ترجمة هارون : طبقات الزبيدى : ٢٥٩ ، بغية الوعاة : ٣٢٠/٢ .

(**) انظر فى ترجمة عبدالله : طبقات الزبيدى : ٢٦٠ ، تاريخ علماء الأندلس : ٢٥٤/١ ، بغية الوعاة : ٤٤/٢ .

(***) انظر فى ترجمة عبدالملك ، طبقات الزبيدى : ٦٢٠ ، بغية الوعاة : ١٠٩/٢ .

ثقافته وعلمه :

جمع عبدالملك إلى علم الفقه والحديث علم الإعراب واللغة ، والتصرف فى فنون الأدب .

روى عن عبدالملك بن الماجشون ، وأصبغ بن الفرج .

وروى عنه بقى بن مخلد ، وابن وضاح .

آثاره :

صنف عبدالملك عدة مصنفات فى النحو واللغة والحديث منها :

١ – الواضحة .

٢ – إعراب القرآن .

٣ – غريب الحديث .

٤ – تفسير الموطأ .

٥ – طبقات الفقهاء .

أقوال العلماء فيه :

قال صاحب الفلسفة : «إمام فى النحو ، واللغة ، والحديث» .

وقال ابن القرضى : «كان نحويا ، عروضيا ، شاعرا ، حافظا للأخبار ، والأنساب ، والأشعار ، متصرفًا فى فنون العلم ، حافظًا للفقه» .

ورُوى عن سحنون بن سعيد أنه قيل له : مات عبدالملك بن حبيب الأندلسى ، فقال : مات عالم الأندلس ، بل والله عالم الدنيا .

وقال محمد بن عمر بن لبابة : «فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبدالملك بن حبيب ، وعاقلها : يحيى بن يحيى» .

شعره :

كان عبدالملك ممن يقرض الشعر ، وكان شعره فى الطبقة العليا ، فمنه قوله :

صَلاَحُ أَمْرِىَ والَّذِى أَبْتَغِى | هَيِّنٌ عَلَى الرَّحْمَنِ فِى قُدْرَتِهْ
أَلْفٌ مِنَ الْبِيضِ فَأَقْلِلْ بِهَا | لِعَالِمٍ أَزْرَى عَلَى بُغْيَتِهْ
زِرْيَابُ قَدْ يَأْخُذُهَا قَفْلَةً | وَصَنْعَتِى أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهْ

وفاته :

توفى عبدالملك سنة ثمان – وقيل : تسع – وثلاثين ومائتين ، عن أربع وستين سنة – عليه رحمة الله – .

٧ - بكر الكنانى (*) :

بكر بن عيسى الكنانى .

كان من أهل العلم واللغة ، وكان شاعرا مجيدا .

وكان الغاية فى الفصاحة ، حتى ضرب به المثل فقيل : أفصح من بكر الكنانى .

٨ - سعيد الرشاش (**) :

أبو عثمان سعيد بن الفرج المعروف بالرشاش .

حج ، ودخل بغداد ، وروى الحديث والفقه ، وأقام بمصر مدة من الزمن .

(*) انظر فى ترجمة الكنانى : طبقات الزبيدى : ٢٦١، بغية الوعاة : ٤٦٦/١ .

(**) انظر فى ترجمة الرشاش : طبقات الزبيدى : ٢٦١ ، المقتبس : رقم ٢٨٠ ، المقرب : ٥٧/٢ ، بغية الوعاة : ٥٨٦/١ .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان من أهل الرواية للشعر ، والحفظ للغة» .

وقال عنه صاحب (المقرب) : «أديب فاضل عالم باللغة والشعر ، حفظ أربعة آلاف أرجوزة للعرب ، كثير التقعر فى كلامه ، يضرب به المثل فى الفصاحة ، فيقال : أفصح من الرشاش» .

٩- عباس بن ناصح [*] :

أبو المعلّى عباس بن ناصح الثقفى .

ثقافته وعلمه :

رحل مع أبيه إلى مصر ، وتردد فى الحجاز طلبا للغة العرب ، ودخل العراق ، فلقى الأصمعى وغيره ، واجتمع بالحسن بن هانئ (أبى نواس) ، وأقر له ابن هانى بالأفضلية عليه .

ثم عاد إلى الأندلس ، فولى قضاء (شذونة)[1] ، ثم قضاء (الجزيرة)[2] ، ثم ولى قضاءها ابنه عبدالوهاب ، ثم حفيده محمد بن عبدالوهاب .

روى عنه ابنه عبدالوهاب قال : «كان أبى لا يقدم أحد من المشرق ، إلا سأله عمن نجم فى الشعر بعد ابن هرمة ، حتى أتاه رجل من التجار ، فأعلمه بظهور حسن بن هانئ ، وارتحاله من البصرة إلى بغداد ، والمحل الذى حله من الأمين وبنى برمك ، فأتاه من شعره بقصيدتين ، أولاهما قوله :

جَـرَيْـتُ مَـعَ الصِّـبَـا طَـلْـقَ الْـجَـمُـوحِ ... وَهَـانَ عَـلَـىَّ مَـأْثُـورُ الْـقَـبِـيـحِ [3]

(*) انظر فى ترجمة عباس : طبقات الزبيدى : ٢٦٢ ، إنباه الرواة : ٢/٣٦٦ ، بغية الوعاة : ٢/٢٨ .

(١) شذونة : مدينة بالأندلس من أعمال أشبيلية .

(٢) الجزيرة : تسمى (الجزيرة الخضراء) ، مدينة شرق شذونة وقبل قرطبة .

(٣) ديوان أبى نواس : ٢٠٧ .

والثانية :

أَمَا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الحَمَلاَ ... وَقَامَ وَجْهُ الزَّمَانِ وَاعْتَدَلاَ [1]

فقال أبى : هذا أشعر الجن والإنس ، والله لا حبسنى عنه حابس ؛ فتجهز إلى المشرق . قال : فأخبرنى قال : لما حللت بغداد نزلت منزلة المسافرين ، ثم كشفت عن منازل الحسن ، فأرشدت إليه ، فإذا بقصر على بابه حفدة وخدام ، فدخلت مع الداخلين ، فوجدت الحسن جالسا فى مقعد نبيل ، وحوله أكثر متأدبى بغداد ، يجرى بينهم المثَل والتمثيل والكلام ، فى المعانى ، فسلمت وجلست حيث انتهى بى المجلس ، وأنا فى هيئة السفر ، فلما كاد المجلس ينقضى قال لى : من الرجل ؟ قلت : باغى أدب ، قال : أهلا وسهلا ، من أين تكون ؟ قلت : من المغرب الأقصى ، وانتسبت له إلى قرطبة ، فقال لى : دارُ القوم ؟ قلت : نعم ، قال لى : أتروى من شعر أبى المخشى شيئا الذى قاله عندكم ؟ قلت له : نعم ، قال : فأنشدنى ، فأنشدته شعره فى العمى ، فلما بلغت :

كُنْتُ أَبَا لِلْوَرَى إلاَّ الْوَرَا ... مَا فَقَأَتْ عَيْنِيَ إلاَّ الدُّنَا

قال : هذا الذى طلبته الشعراء فأضلته ، ثم قال : أنشدنى لأبى الأجرب ، فأنشدته ثم قال : أنشدنى لبكر الكنانى ، فأنشدته ، قال : شاعر البلد اليوم عباس ابن ناصح ؟ قلت : نعم ، قال : فأنشدنى ، فأنشدته :

* فَأَدْتُ القَرِيضَ وَمَن ذَا فَأَد *

قال لى : أنت عباس ؟ قلت : نعم ، فنهض إلىّ فتلقيته ، فاعتنقنى إلى نفسه ، وانحرف لى عن مجلسه ، فقال له من حضر المجلس : من أين عرفته – أصلحك الله – فى قسيم بيت ؟ قال : إنى تأملته عند إنشاده لغيره ، فرأيته لا يبالى ما حدث فى الشعر من استحسان أو استقباح ، فلما أنشدنى لنفسه استبنت عليه وجمة ، فقلت : إنه صاحب الشعر .

---

(1) ديوان أبى نواس : ٣١٣ .

قال عباس : ثم أتممت الشعر ، فقال : هذا شعر العرب ، ثم نقلنى إلى نفسه ، فكنت فى ضيافته عاما .

قال عبدالوهاب : ثم قدم عباس الأندلس ، فتكرر على الحكم بن هشام بالمديح ، ثم تعرض للخدمة ، فاستقضاه على الجزيرة .

ورُوى أنه فى حلقة جودى بن عثمان أُنكر على عباس بن ناصح قوله :

يَشْهَدُ بِالإخْلاَصِ نُوتِيُّهَا ... لِلَّهِ فِيهَا وَهْوَ نَصْرَانِى

فلُحُن حين لم يشدد ياء النسب ، وكان بالحضرة رجل من أصحاب عباس ابن ناصح فساءه ذلك ، فقصد إلى عباس – وكان مسكنه الجزيرة – فلما طلع على عباس قال له : ما أقدمك – أعزك الله – فى هذا الأوان ؟! قال : أقدمنى لحنك ، قال عباس : وكيف ذلك ؟ فأعلمه بما جرى من القول فى البيت ، قال : فهلا أنشدتهم بيت عمران بن حطان :

يَوْمًا يَمَانٍ إذَا لاَقَيْتَ ذَا يَمَنٍ ... وَإنْ لَقِيتَ مَعَدِّيًا فَعَدْنَانِى

فلما سمع الرجل البيت كر راجعا ، فقال له عباس : لو نزلت فأقمت عندنا ! فقال : ما بى إلى ذلك من حاجة ، ثم قدم قرطبة ، فاجتمع بجودى وأصحابه فأعلمهم .

شعره :

كان عباس يقرض الشعر ، حتى كان شاعر قرطبة فى زمنه ، فمن شعره :

مَا خَيْرُ عُدَّةِ عَيْشِ الْمَرْءِ لَوْ جُعِلَتْ ... لِمُدَّةِ الدَّهْرِ وَالأَيَّامُ تفْنِيهَا

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أنْ تَرْضَى بِغَيْرِ رِضا ... وَابتع نَجَاتَكَ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

وفاته :

توفى عباس بن ناصح بعد سنة ثلاثين ومائتين .

الطبقة الثالثة

١ - حرشن بن أبى حرشن (*) :

حرشن بن عبدالله بن رافع .

كان من أهل العلم واللغة .

قال صاحب (البلغة) : «أديب لغوى بارع ، شديد التعصب للقحطانية ، دارت بينه وبين أحمد بن نعيم السُلمى فى ذلك أهاج كثيرة .

٢ - أحمد بن نعيم السلمى (**) :

كان ذا علم بالعربية ، مقدما فى صناعة الشعر ، وله حظ فى البلاغة .

تصدر للتأديب والتدريس فى كل من جيان ، وطليطلة .

٣ - عبدالملك بن مختار (***) :

رحل إلى قرطبة ، واستوطنها ، وأخذ عن عبدالله بن رافع (أبى حرشن) .

روى عن بعض الشيوخ أنه نبتت سن لبعض ولد الأمير عبدالرحمن بن الحكم ، فأحدث فيها ما يحدث عند نبات أسنان الصبيان ، فقال الأمير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالعجمية (الذنتينة) ، هل روى للعرب فيها شىء ؟ فسئل غير واحد من المنتسبين إلى العلم بقرطبة ، فلم يوجد عندهم من ذلك علم ، حتى انتهت المسألة إلى ابن مختار ، فقال : أخبرنى ابن حرشن عن أبى موسى الهوارى أن العرب تسميها : السُنُينة .

(*) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ٢٦٥ ، بغية الوعاة : ١/٤٩٣ .

(**) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ٢٦٥ ، بغية الوعاة : ٣٩٤ .

(***) انظر فى ترجمته : طبقات الزبيدى : ٢٦٥ ، بغية الوعاة : ٢/١١٤ .

٤ - عثمان بن المثنى (*) :

أبو عبدالملك عثمان بن المثنى .

ثقافته وعلمه :

رحل إلى بلاد المشرق ، فلقى جماعة من رواة الغريب ، وأصحاب النحو والمعانى ، وأخذ عنهم ، منهم محمد بن زياد الأعرابى ، وقرأ على حبيب بن أوس (أبى تمام) ديوان شعره ، وجلبه معه إلى الأندلس .

وكان له فضل وشجاعة تامة ، وتكرر بالغزو فى الثغور .

اختاره عبدالرحمن بن الحكم لتأديب أولاده ، كما أدب أولاد ابنه محمد الإمام .

وفاته :

توفى عثمان بن المثنى سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، بعد عمر بلغ تسعا وتسعين سنة .

٥ - أحمد بن بَتْرى (**) :

أحمد بن بَتْرى القرموني . وكان سكنه فى (قرمونية) ، فنسب إليها .

أخذ عن عبدالله بن رافع (أبى حرشن) .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان فقيها ، نحويا ، لغويا» .

وقال ابن عبدالملك : «كان فقيها جليلا ، متقدما فى المعرفة بلسان العرب - لغة ، ونحوا - .

(*) انظر فى ترجمة عثمان : طبقات الزبيدى : ٢٦٦ ، ابن الفرضى : ٢٤٦/١ ، المغرب : ٢١٢/١ ، بغية الوعاة : ١٣٦/٢ .

(**) انظر فى ترجمة : ابن بَتْرى : طبقات الزبيدى : ٢٦٦ ، بغية الوعاة : ٢٩٧/١ .

٦ - عثمان بن شن (*) :

عثمان بن شن المورورى . كان سكنه بكورة (مورور) ، فنسب إليها .

كان ذا علم بالعربية ، والفرائض .

٧ - ابن القملة (*) :

بكر بن عبدالله الكلاعى .

كان من ذوى العلم والأدب والمعرفة بالشعر .

٨ - الليلى (***) :

أبو مالك جابر بن غيث الليلى .

كان هو وأخوه عبدالرحمن عالمين بالعربية والشعر ، وضروب الأدب ، وكانا مشهورين بالفضل والدين .

لما شب لهاشم بن عبدالعزيز بنون ، شاور أصحابه ممن يتصرف فى العمالات بالكور فيمن يستأدبه لبنيه ، فأشير له إلى جابر وأخيه ، فاستجلبهما من كورة (لبلة)[1] ، وكانت موطنهما ، فتعاصى عليه عبدالرحمن ، وأجابه جابر ، فكان ذلك سبب سكناه قرطبة .

وكان جابر من أحد الناس فى التأديب ، فقل من تأدب عنده إلا وتعلق من العلم بمسكة .

وفاته :

توفى جابر بن غيث سنة تسع وتسعين ومائتين .

(*) انظر فى ترجمة ابن شن : طبقات الزبيدى : ٢٦٦ ، ابن الفرضى : ١/٣٤٧ ، بغية الوعاة : ٢/١٣٤ .

(**) انظر فى ترجمة ابن القملة : طبقات الزبيدى ٢٦٦ .

(***) انظر فى ترجمة الليلى : طبقات الزبيدى : ٢٦٦، ابن الفرضى : ١/١٢١ ، بغية الوعاة : ١/٤٨٣ .

٩ - محمد بن عبدالله بن الغازى (*) :

أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الغازى بن قيس .

علمه وثقافته :

سمع من أبيه فى قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق ، فدخل البصرة ، ولقى بها أبا حاتم السجستانى ، والرياشى ، وإبراهيم بن خداش ، فأخذ عنهم النحو واللغة ، وأخذ الحديث عن جماعة من أصحاب ابن عيينة ، وسمع رواة الأخبار والأشعار ، وأصحاب المعانى والبيان ، وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من الشعر والعربية والأخبار : وروى عنه المشايخ من أهل الأندلس الأشعار المشروحة .

شعره :

كان أبو عبدالله يقرض الشعر ، وشعره فى مرتبة حسنة ، ومنه قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ ... كَمْ ذَا عَنِ الْمَوْتِ مِنْ سَاهٍ وَمِنْ لاَهِ
يَا ذَا الَّذِى هُوَ فِى لَهْوٍ وَفِى لَعِبٍ ... طُوبَى لِعَبْدٍ مُنِيبِ الْقَلْبِ أَوَّاهِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ تَاهَ فِى عَجَائِبِ مَا ... يَأْتِى بِهِ الدَّهْرُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَاهِ
مَاذَا يُعَايِنُ ذَا الْعَيْنَيْنِ مِنْ عَجَبٍ ... عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ

وفاته :

خرج أبو عبدالله من الأندلس عازما على الحج ، فتعذر عليه المسير بطنجة ، فأقام بها ، حتى توفى سنة ست وتسعين ومائتين ، أو نحوها .

١٠ - الخشنى (**) :

أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كلب بن أبى ثعلبة الخشنى ، صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(*) انظر فى ترجمة محمد : طبقات الزبيدى : ٢٦٧ ، ابن الفرضى : ٢/٢٤، بغية الوعاة : ١/١٣٩ .

(**) انظر فى ترجمة الخشنى : طبقات الزبيدى : ٢٦٨، ابن الفرضى : ٢/٢٤ ، جذوة المقتبس : ٦٤ ، بغية الوعاة : ١/١٦٠ .

من أهل (جيان) ، ثم انتقل إلى قرطبة ، فاتخذ منها سكنا له .

رحل إلى المشرق ، فحج بيت الله الحرام ، ودخل البصرة ، فلقى المازنى ، وأبا حاتم ، والرياشي ، والزيادى ، والعباس بن الفرج ، فأخذ عنهم كثيرا من كتب اللغة ، رواية عن الأصمعى وغيره ، كما لقى جماعة من أهل الحديث ، منهم أبو موسى الزمن ، وبندار ، وعبيدة ، ويوسف بن عدى وغيرهم .

ودخل بغداد ، فسمع بها من غير واحد ، وأدخل إلى الأندلس كثيرا من أحاديث الأئمة ، وكثيرا من كتب اللغة والشعر الجاهلى .

عرض عليه تقلد مناصب القضاء فأبى وقال : أبيت كما أبت السموات والأرض والجبال ، إباية إشفاق ، لا إباية عصيان .

أخلاقه :

كان الخشنى خيرا ، دينا ، ثقة ، مأمونا ، وكان صارما ، أنوفا ، منقبضا عن السلاطين ، وكان يزن بتعصبه للعرب .

آثاره :

صنف الخشنى كتابا فى شرح الحديث ، فيه من الغريب علم كثير .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن القرضى : «كان الغالب عليه حفظ اللغة ، ورواية الحديث، ولم يكن عنده كبير علم بالفقه» .

وقال الزبيدى : «كان فصيح اللسان ، بصيرا بكلام العرب» .

شعره :

كان الخشنى ممن يقرضون الشعر ، وكان شعره فى الطبقة العليا ، فمن شعره :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنٌ وَلَمْ تَكُ فُرْقَةٌ إذَا كَانَ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ تَلاَقِ

كَأنْ لَمْ تُؤرِّقْ بِالْعِرَاقَيْنِ مُقْلَتِي | وَلَمْ تَجْرِ كَفُّ الشَّوْقِ مَاءَ مَآقِي
وَلَم أَزُرِ الأَعْرَابَ فِي خَبْتِ أَرْضِهِمْ | بِجَنْبِ اللِّوَى مِنْ رَامَةٍ وَبَرَاقِ
وَلَمْ أَصْطَبِحْ فِي الْبِيدِ مِنْ قَهْوَةِ النَّوى | بِكَأْسٍ سَقَانِيهَا الْحِمَامَ دِهَاقِ
بَلَى ، كَأَنَّ الشَّوْقَ قَدْ ضَافَ مَضْجَعِي | فَحَرَّكَ مِنِّي النَّفْسَ بَيْنَ تَرَاقِ
تَزَوَّدْ أَخِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْكُنَ الثَّرى | وَتَلْتَفُّ سَاقٌ لِلنُّشُورِ بِسَاقِ

وفاته :

توفى الخشنى يوم السبت لأربع بقين من رمضان سنة ست وثمانين ومائتين ، وقد بلغ من العمر ثمانى وستين سنة .

١١ - عباس بن فرناس (*) :

عباس بن فرناس بن وَرْداس .

من أهل شذونة ، وكانت تربطه بعاملها – من قبل الخليفة عبدالرحمن بن الحكم – محمود بن أبى جميل علاقة طيبة ، وصداقة وطيدة ، وكان محل تقديره ، ومناط إكرامه ، وحفاوته .

ثقافته وعلمه :

كان عباس متصرفا فى فنون الأدب ، وكان من أهل الذكاء ، والتقحم على المعانى الدقيقة ، والصناعات اللطيفة ، وكان الشعر أغلب عليه .

روى أن بعض التجار جلب كتاب (المثال) فى العروض للخليل بن أحمد ، فصار إلى الأمير عبدالرحمن ، وكان مما يتلاهى به فى القصر ، حتى إن بعض الجوارى كن يقلن لبعض : صير الله عقلك كعقل الذى ملأ كتابه من (مما ، ممّا) ، فبلغ الخبر ابن فرناس ، فرفع إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه ، ففعل ، فأدرك

(*) انظر فى ترجمة عباس : طبقات الزبيدى : ٢٦٩ ، بغية الوعاة : ٢٨/٢ .

منه علم العروض ، وقال : هذا كتاب قبله ما يفسره ؛ فوجه به الأمير إلى المشرق في ذلك ، فأتى بكتاب (الفرش) ، فوصله الأمير بثلاثمائة دينار وكساه .

وكان عباس يحسن علم الموسقى ، ويضرب العود ، ويغنى عليه .

١٢ - محمد بن عبدالله (•) :

أبو عبدالله محمد بن عبدالله القرطبى .

ثقافته وعلمه :

رحل إلى مصر ، وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المعروف بـ (ورش) صاحب نافع .

عمل مؤدبا لأبناء الأمير الحكم بن هشام ، وتولى ابنه محمد خزانة الدولة ، وتصرف بنوه فى الخطط إلى أيام عبدالرحمن الناصر .

كان عالما بالقرآن ، بصيرا بالعربية ، ذا حظ من الزهد ؛ ولم يغير حالته التى كان عليها قبل اتصالة بالسلطان .

★ ★ ★

(•) انظر فى ترجمة محمد بن عبدالله : طبقات الزبيدى : ٢٧١ ، بغية الوعاة : ١/ ١٥١ .

الطبقة الرابعة

١ - يزيد بن طلحة (*) :

أبو خالد يزيد بن طلحة العبسى . من أهل إشبيلية .

ثقافته وعلمه :

أخذ يزيد عن خصيب الكلبى ، والخشنى ، ومحمد بن عبدالله بن الغازى ، وكان أستاذا فى علم العربية واللغة ، مقدما ، مشهورا بالفضل ، شائع الذكر ، كما كان مشهورا بالبلاغة ، حتى عرف باسم (يزيد الفصيح) ، وكان من جلة الفقهاء .

حكى أن أبا محمد الأعرابى قال لإبراهيم بن حجاج – صاحب إشبيلية – يشكره على شيء اصطنعه إليه : «تالله ما سيدتك العرب إلا بحقك» . فقال أبو الكوثر الخولانى – وكان حاضرا – : يا أبا محمد ، العلماء عندنا بالعربية يقولون : سودتك ؛ فقال : السواد : السخام ، يخطئون ويصحفون ! فانتهره إبراهيم وقال : تتسور على الأعراب فى لغاتهم !

فكتب أبو الكوثر إلى يزيد بن طلحة بالخبر ، فأجابه : «المعروف : سودتك – بالواو – ولعل ما ذكر أبو محمد لغة لبنى عامر» .

فلما وردت الرسالة على أبى الكوثر قال : يا أبا محمد ، أنكر الأستاذ ما ذكرت ، وحكى له قوله ، فصاح الأعرابى وهاج ، وبعث إبراهيم فى يزيد ؛ فلما حضر ، خرج عليه فقال له : أتتسور على الرجل فى كلامه ! ، فقال له ابن طلحة : إن العلم ليس من جهة المغالبة ، ولكن من جهة الإنصاف والحقيقة ، فليجبنى أبو محمد عما أسأله عنه ؛ فقال له : سل . فقال يزيد : كيف تقول العرب : ساد يسود ، أو ساد يسيد ؟ قال الأعرابى : ساد يسود ، فقال يزيد : هذه (الواو) معنا فى الفعل ، فكيف يقول العرب : السودد أو السيدد ؟ فقال : السودد ، فقال يزيد : هذه (الواو) ثانية فى الاسم ، ثم قال : أى منزلة عندكم عمر بن الخطاب – رضى الله عنه .–

(*) انظر فى ترجمة يزيد : طبقات الزبيدى : ٢٧١ ، ابن الفرضى : ٢/١٩٥ ، بغية الوعاة : ٢/٣٤٦ .

من الفصاحة ؟ فقال الأعرابى : فوق كل منزلة ، قال يزيد : فقد ثبت عندنا أنه قال : «تفقهوا قبل أن تسودوا» ، وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة ، كما صنعوا فى سائر الأحاديث التى وقع فيها الغلط ، فلج الأعرابى وقال : يا أهل الأمصار ، ماذا صنعتم بالكلام !.

شعره :

كان يزيد بن طلحة شاعرا مجيدا ، وعلى جانب كبير من البلاغة ، والتصرف فى الكلام ، ورسالته إلى أهل (قرمونية) يحضهم على الطاعة معروفة مشهورة ، ومن شعره :

فَأَلْبَسَنِى قُمْصًا مِنَ الْفَضْلِ وَالنَّدَى ... وَأَلْبَسْتُهُ قُمْصَ الْبَدِيعِ مِنَ الشِّعْرِ
رِيَاضًا وَحَلْيًا لاَ يَزَالُ لِبَاسُهُ ... مِنَ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ وَالسُّنْدُسِ الْخُضْرِ
كَأَنَّ دَقِيقَ السِّحْرِ بَيْنَ نَشِيدِهَا ... وَلَكِنَّهَا دَقَّتْ فَجَلَّتْ عَنِ السِّحْرِ
تَفَضَّلَ بِالْفَضْلِ الَّذِى هُوَ أَهْلُهُ ... وَأَدْرَكَ مَاءَ الْوَجْهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْرِى

٢ - أبو صالح المعافرى (•) :

أبو صالح أيوب بن سليمان بن صالح بن هاشم بن غريب بن عبدالجبار ابن محمد بن أيوب بن سليمان بن صالح بن السمح المعافرى .

أصله من جيان ، وقال ابن القرضى : هو أحد الغرباء الطارئين على الأندلس .

روى عن العتبى وأبى يزيد ، وولى الحسبة فأحسن السيرة ، ثم عزل كراهة من أهلها له .

(•) انظر فى ترجمة المعافرى : طبقات الزبيدى : ٢٧٢ ، ابن القرضى : ١/٧٨، بغية الوعاة : ١/ ٤٦٠ .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن القرضى : «كان إماما فى مذهب مالك ، دارت عليه الفتيا فى وقته ، وكان متصرفا فى علم النحو ، والشعر ، والعروض ، منسوبا إلى البلاغة وطول القلم» .

وحكى أبو هارون – فقيه تكور[1] – قال : قدم علىَّ أبو جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادى عند دخوله الأندلس ، ثم قدم علىَّ عند خروجه منها ، فقلت له : كيف تركت الأندلس ؟ فقال لى : والله لقد رأيت بها ما لم أتوهم أن أراه ، مع نأى دارها ؛ لقد رأيت رجلا لو حدثت أن فى الأرض مثله ما صدقت .

فبادرته فقلت : أيوب بن سليمان ؟ فقال لى : نعم ، فقلت له : من أين نظرت إليه بهذه العين ؟ فقال لى : الناس عندنا ، كل ذى فن متفرد بفنه ، وهذا رجل يتكلم مع أهل الفنون كلهم فى فنونهم» .

شعره :

كان أبو صالح يقرض الشعر ، ومن شعره :

وَمَنْ تَجَلَّى بِغَيْرِ طَبْعٍ يُرَدُّ قَسْرًا إِلَى الطَّبِيعَةْ
كَخَاضِبِ الشَّيْبِ فِى ثَلَاثٍ تُهَتِّكُ أَسْتَارَهُ الطَّبِيعَةْ

وفاته :

توفى المعافرى يوم الخميس لسبع بقين – وقيل : لتسع – من المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة .

٣ - طاهر بن عبدالعزيز (*) :

أبو الحسن طاهر بن عبدالعزيز بن عبدالله الرعينى – من أهل قرطبة .

---

(١) تكور : كورة فى الأندلس ، قريبة من قرطبة .

(*) انظر فى ترجمة طاهر : طبقات الزبيدى : ٢٧٣ ، وابن القرضى : ١/٢٤٣ ، بغية الوعاة : ٢/١٩ .

ثقافته وعلمه :

رحل إلى المشرق واليمن ، وأخذ عن علمائهما ، كما أخذ عن الخشنى ، وبقى ابن مخلد ، وغيرهما ، وأدرك على بن عبدالعزيز ، وحمل عنه علم أبى عبيد .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن يونس فى (تاريخ مصر) : «كان عاملا ، عارفا بعلوم اللغة ، فهما» .

وقال عنه الزبيدى : «كان من أهل العلم باللغة ، والغريب ، ورواية الحديث» .

وقال عنه ابن القرضى : «كان علم اللغة والخبر أغلب عليه ، ولم يك له بالحديث ولا بالفقه كبير علم» .

وفاته :

توفى أبو الحسن يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس – وقيل : أربع – وثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

٤ - ابن حاطب (*) :

أبو محمد بكر بن حاطب المرادى المكفوف . أصله من قرطبة .

كان ذا علم بالعربية ، والعروض ، والحساب ، وله تأليف فى النحو .

٥ - البغل (**) :

أبو الحسن مفرج بن مالك المعروف بـ (البغل) ، من أهل قرطبة .

ذاعت شهرته ومكانته فى تأديب المتعلمين ، وأنجب على يديه أكثر أهل زمانه ، وروى عن الخشنى .

(*) انظر فى ترجمة ابن حاطب : طبقات الزبيدى : ٢٧٣ ، ابن الفرضى : ٢٤٣/١ ، بغية الوعاة : ٤٦٣/١ ، جذوة المقتبس : ٢٣٠ .

(**) انظر فى ترجمة البغل : طبقات الزبيدى : ٢٧٣ ، وابن الفرضى : ١٤٠/٢ ، بغية الوعاة : ٢٩٦/٢ .

صنف أبو الحسن كتابا فى شرح الكسائى .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى وابن القرضى : «كان نحويا ، لغويا ، عالما بمعانى الشعر ، ينسب إلى الصلاح والعفاف والفضل» .

وفاته :

توفى أبو الحسن بعد المائتين .

★ ★ ★

الطبقة الخامسة

١ - عفير بن مسعود (*) :

أبو الحزم عفير بن مسعود بن عفير بن بشير بن فضالة بن عبدالله الغسانى .

ولد بمورور ، سنة عشر ومائتين ، ثم انتقل إلى إشبيلية ، وخرج عنها عند حدوث الفتنة بها إلى قرطبة ، فلم يزل يستوطنها حتى مات .

علمه ومكانته :

لما قدم قاسم بن عبدالواحد العجلى من العراق ، منع كتبه وضن بها ، واستدعى الناس إلى أن يملى عليهم ، فتسارب الناس إليه ، وانجفلوا إلى مجلسه ، فخلا مجلس الخشنى .

قال عفير : «فقال لى الخشنى : ما لك لا تسرع إلى ما أسرع إليه الناس ؟ فقلت : لست أبغى بك بدلا ، فقال : أحب أن تأتى الرجل ، وتشهد مجلسه ، فغدوت إلى العجلى ، فحضرته يملى : «المرَّة : العداوة ، وجمعها : مِرَرٌ» ، – وكان أحد من يكتب بين يديه زيد الجيانى [1] – ، فقلت له : يرحمك الله ، قال أبو عبيدة فى (المصنف) : «المئرة : العداوة ، وجمعها : مِئَر» ، قال : فكأنى أنظر إلى زيد قد محا ما كتب ؛ قال : هذا الحق ، ثم رددت عليه كلمة ثانية ، وثالثة فى المجلس ، فانفض الناس عنه ، ولم يعد إليه أحد بعدها ؛ ووصل الخبر إلى الخشنى ، فلما أتيته ، استدنانى ، وقبل بين عينى ، وقال لى : نعم مستودع العلم أنت .

وكان أحمد بن بشر بن الأغبس ، وعبدالملك بن شهيد قد تمالآ على عفير ، واستخرجا من كتاب (العين) حروفا مهملة ، ونسخا من ذلك دفترا ضخما ، ولقيا عفيرا بالكتاب ، وأغريا به عليه ، فأبطل جميع ذلك وأسقطه ، ودفع أن يكون من

(*) انظر فى ترجمة عفير : طبقات الزبيدى : ٢٧٥ ، وابن الفرضى : ١/٣٨٥ ، المقتبس : ٤٩ ، بغية الوعاة : ٢/١٣٨ .

(١) زيد بن ربيع بن سليمان الحجرى ، المعروف بالبارد وسوف تأتى ترجمته .

كلام العرب : فقال له عبدالملك – بعد أن نهض إليه ، وقبل يده – : قبح الله بلدا ضاع فيه مثلك .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه صاحب (البلغة) : «لغوى ، نسابة» .

وقال عنه الزبيدى وابن الفرضى : «كان من أهل العلم باللغة ، وأخبار العرب ، ووقائعهم ، وأيامهم ، ومشاهد النبوة ، وأروى الناس للشعر» .

وفاته :

توفى عفير فى ربيع الآخر سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، بعد أن أسنّ وجاوز المائة ، حتى كان أبناء الملوك – ممن كان يقدم على تأديبهم – يتغفلونه ويخبرونه عن الجن بأخبار يصنعونها له ، فيتقبل ذلك منهم .

٢ - ابن أزهر (•) :

أبو عمرو موسى بن أزهر بن موسى بن حريث بن قيس بن أيوب بن جبر الأستجى . مولى معاوية بن هشام . ولد وعاش بأستجة فنسب إليها ، سمع من بقى بن مخلد ، وابن وضاح ، وغيرهما .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه صاحب (البلغة) : «كان إماما فى اللغة والحديث وغريبه»

وقال عنه الزبيدى : «كان عالما باللغة ، حافظا لها ، متقدما فيها ، يقرأ عليه شرح الحديث ، والغريب المصنف ظاهرا» .

وقال عنه ابن الفرضى : «كان حافظا للمشاهد ، والتفسير ، متصرفا فى اللغة ، والإعراب ، والخبر ، والشعر» .

(•) انظر فى ترجمة ابن أزهر : طبقات الزبيدى : ٢٧٦ ، وابن الفرضى : ١٤٦/٢، وبغية الوعاة : ٣٠٦/٢ .

وفاته :

توفى ابن أزهر ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ست وثلاثمائة .

٣ - ابن معافى (*) :

صالح بن معافى بن حماد الغسانى . من أهل قرطبة .

كان يعمل مؤدبا عند بنى فُطَيْس .

أخلاقه :

كان ابن معافى خيرا ، فاضلا ، عدلا ، مشهورا بالفضل والدين ، كما كان معتزا بنفسه ، معتدا بعلمه .

فقد حدث أن محمد بن يحيى القلفاط[١] قد كايده ، وادعى أنه ممن يبتغى النظر عنده ، وانتسب له إلى البادية ، فأظهر له صالح بن معافى الاجتهاد فى تأديبه وتبصيره ، فاختلف القلفاط فى ذلك إليه أياما ، إلى أن أُخبر صالح بخبره ، فأمر تلاميذه بضمه إلى بعض سوارى المسجد ، ثم تناول ضربه ، وأمر التلاميذ أن يتداولوه بالضرب ، حتى كادوا يأتون عليه .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى وابن عبدالملك : «كان عالما بالعربية ، راوية للأشعار» .

٤ - الحكيم (*) :

أبو عبدالله محمد بن إسماعيل المعروف بالحكيم . من أهل قرطبة .

(*) انظر فى ترجمة ابن معافى : طبقات الزبيدى : ٢٧٦ ، والمقتبس : رقم ٢٩٣، بغية الوعاة : ٢/ ١١ .

(١) أبو عبدالله محمد بن يحيى بن زكريا ، وسوف تأتى ترجمته .

(*) انظر فى ترجمة الحكيم : طبقات الزبيدى : ٢٧٦ ، إنباه الرواة : ٣/ ٦٥ ، ابن الفرضى : ٢/ ٥٤ . بغية الوعاة : ١/ ٥٥ .

علمه وثقافته :

أخذ عن محمد بن وضاح ، وعثمان بن عبدالسلام الخشنى ، وغيرهما ، كما أخذ عن محمد بن الغازى ما جلبه من الأشعار المشروحة رواية عنه ، وسماعا عليه .

وقد أنشد الحكيم :

سَلْ تَقِيًّا بِاللّهِ يَا بْنَ تَقِيّ ... هَلْ تَرَى قَتْلَ مُسْتَهَامٍ شَجِيّ !

كُلَّمَا جَنَّ لَيْلُهُ بَاتَ يَرْعَى ... أَنْجُمًا هَائِمًا بِطَرْفٍ خَفِيّ

يَا سَمِيَّ النَّبِيِّ حَسْبُكَ مَا بِي ... لاَ تَزِدْنِي جَوًى بِحَقِّ النَّبِيّ

قال القلفاط :

«شدد الحكيم ياء (شَجِيّ) وهو جائز ، وإن كان علماء النحو قد حظروا ذلك ، وزعموا أن الياء من (الشجى) مخففة ، ومن (الخَلِيّ) مثقلة ، والقياس ما ذكرنا ، وقد جاء التشديد لأبى داود الإيادى :

مَنْ لِعَيْنٍ بِدَمْعِهَا مَوْلِيَّهْ ... وَلِنَفْسٍ بِمَا عَرَاهَا شَجِيَّهْ

فبناه على (فعيلة) .

عمل الحكيم مؤدبا للحكم المستنصر بالله ، كما عمل ابنه واليا على خزانة المال فى عهد المستنصر أيضا .

شعره :

لم يكن للحكيم حظ كبير فى الشعر وقرضه ، ولا روى له فيه سوى أبيات معدودة .

فقد حكى أن محمد بن يحيى القلفاط بات عند الحكيم ليلة ، فسهرا صدر ليلتهما ، ثم ناما حتى تبلج الصبح ، وكادت الشمس تطلع عليهما ، فانتبه القلفاط فقال للحكيم :

يَا دِيكُ مَا لَكَ لَمْ تَصْرُخْ فَتُنْبِهَنَا لَقَدْ أَسَأْتَ بِنَا ، دِيكَ الدَّجَاجَاتِ
يَا آكِلاً لِلْقَذَى ، يَا سَالِحًا عَبَثًا عَلَى الْحَصِيرِ بَهِيمِيَّ الْبَهِيمَاتِ

فأجابه الحكيم بقوله :

لَقَدْ صَرَخْتُ مِرَارًا جَمَّةً عَدَدًا قَبْلَ الصَّبَاحِ وَبَعْدَ الصُّبْحِ تَارَاتِ
لَكِنْ عَلِمْتُكَ نَوَّامًا وَذَا كَسَلٍ قَلِيلَ ذِكْرٍ لِجَبَّارِ السَّمَاوَاتِ

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان الغاية فى علم العربية ، والحساب ، وحد المنطق ؛ وكان دقيق النظر ، لطيف الاستخراج ، صحيح الخاطر ؛ ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه فى علمه ونظره ؛ وأنجب على يديه جملة من المؤدبين والشعراء والكتاب .

وكان الحكيم بكِيَّ اللفظ ، عييا بالمخاطبات ، ثقيلا فى إملاء النحو ، فإذا أخذ فى إثارة المعانى اللطيفة ، والمسائل الدقيقة ، لم يتعاطه أحد من أهل زمانه فى ذلك ، بل كان ألحظهم فى الفهم عنه ، والتلقن لما يورد» .

وقال ابن الفرضى : «كان عالما بالنحو والحساب ، وقيد النظر ، مثيرا للمعانى ، مولدا للأبحاث» .

وفاته :

توفى الحكيم لعشر خلون من ذى الحجة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، وقد جاوز الثمانين .

٥ - القلفاط (*) :

أبو عبدالله محمد بن يحيى بن زكريا . من أهل قرطبة .

(*) انظر فى ترجمة القلفاط : طبقات الزبيدى : ٢٧٨، بغية الوعاة : ٢٤٦/١.

أخلاقه :

كان أبو عبدالله كثير الثلب لأعراض الناس ، شديد التعرض لهم ، كثير المهاجاة للأدباء ، وكان شأنه التهكم بالمؤدبين ، يتطرق عليهم ، ويتنكر لهم ، كما كان وسخ الثياب ، رذل الهيئة ، نزر المروءة .

روى أنه كان يلج كثيرا فى هجاء حرقوص ، لأن حرقوصا وعده بالخروج معه إلى كرم له بالجبل ، ولكنه شغل عن أن يفى له بما وعد ، فبلغ ذلك والد حرقوص ، فاستركب القلفاط إلى الكرم ، وجنى له ما حمله إلى منزله ، فلم يرجع عن هجاء حرقوص ، فعزم حرقوص على الفتك به ، وتسور عليه داره ومعه سكين ، فلما رآه القلفاط ، دخل فى الصلاة ، فقال حرقوص : يا فاسق ، والله لولا أنك عذت بمعاذ للقيت الله بدمك ، فإنك زنديق حلال الدم .

وكانت له قصة مشابهة مع صالح بن معافى ، فانظرها فى ترجمة صالح[1] .

علمه ومكانته :

حكى أن عبدالله بن يحيى كان يحدث بحديث ذكر فيه : «لا يُسَجَّى المسلم فى عرض أخيه» ، فرده بعض العلماء وقال : ياسبحان الله ، هذا لا ينتسب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه أمر بالتسجية والسترة ، فخجل الشيخ وقال : أطلبوا للكلمة مخرجا دون أن تغيروا خطها ، فقالوا : يمكن أن يكون : «لا يسحى المسلم فى عرض أخيه» قال : وما السحى ؟ قالوا : يقشر ، يقال : سحوت القرطاس ، وسحيت السجادة ، وسحَت المطرة الأرض ، واستشهدوا ببيت الشعر :

أَصَابَ الْأَرْضَ مِنْ نَوْءِ الثُّرَيَّا ... بِسَاحِيَةٍ فَأَخْطَأَتِ الطِّلَالَا

فلما بلغ الأمر محمد بن يحيى القلفاط ، سخر منهم ، وسبهم بألفاظ نابية ، وقال : ليس كما قالوا ، والصواب ، لا يَشْحَى المسلم فى عرض أخيه» قيل : وما (يشحى) ؟ قال : يفتح فاه بسبه ، يقال : شحا الحمار فاه بالنهيق .

---

(١) تقدمت ترجمة صالح بن معافى ص ٧٠٧ .

وكان أبو عبدالله بارعا فى علم العربية ، حافظا لها ، مقدما فيها ، ولم يكن أحد يقارن الحكيم فى علمه وثقابة ذهنه فى نظره ، وقد أثرت عن القلفاط أبيات فى بعض الأوزان الصرفية ، تعد من قبيل التمارين العملية أو الألغاز اللغوية ، وهى :

يَا سَائِلِي عَنْ وزَنِ (مُسْحَنْكِكٍ) مِنْ آنَ أَيْنَا ، وَأَنَى يَأْنِي
تَقْدِيرُهُ مِنْ آنَ مُوَيْنَنٌ وَمِنْ أَنَى قَوْلُكَ (مُوَيْنِيٌّ)
فَهَكَذَا تَقْدِيرُهُ مِنْهُمَا لَيْسَ عَلَى ذِى بَصَرٍ يُغْبِي
ثُمَّ الْكِسَائِي وَتَصْغِيرُهُ أَسْهَلُ شَيْءٍ أَيُّهَا الْمُلْفِي
تَصْغِيرُهُ فِيهِ كُسَـ يِّيٌّ فَمَنْ فِي مِثْلِ ذَا يُخْطِي
أَرْبَعُ يَاءَاتٍ وَأَنْتَ امْرُؤٌ نَقَصْتَهُ يَاءً وَلَمْ تَدْرِ
وَبَعْدَ هَذَا فَعِيَنْ واسْمَعَنْ فَإِنَّنِي إِيَّاكَ مُسْتَفْتِي
عَنْ وَزْنِ (فَيْعُولٍ) وَعَنْ وَزْ نِ (فَعْلُولٍ) جَمِيعًا مِنْ طَوَى يَطْوِى
وَعَنْ (فُعُولٍ) مِنْ قَوِيٌّ وَ (مَفْـ عُولٍ) أَجِبْ وَأَعْجِلْ وَلاَ تُبْطِي
وَكَيْفَ تَصْغِيرُ (مَطَايَا) اسْمِ إِنْـ سَانٍ ، وَمَا الْحَرْفُ الَّذِى نُلْقِي
مِنْهُ إِنْ كُنْتَ بِهِ جَاهِلاً فَلَسْتَ تُخْلِي لاَ وَلاَ تُمْرِي
وَعَنْ (خَطَايَا) تُسَمَّى بِهِ إِنْ كُنْتَ تَصْغِيرًا لَهُ تَدْرِي
هَلْ يَاؤُهُ قُلْ بَدَلٌ لاَزِمٌ أَنْتَ لَهَا لاَبُدَّ مُسْتَبْقِي
أَمْ هَلْ تَعُودُ الْيَاءُ مَهْمُوزَةً فَسِرْ لَنَا تَفْسِيرَ مُسْتَقْصِي
إِنْ كَانَ تَصْغِيرُ (مَطَايَا) كَتَصْـ غِيرِ (خَطَايَا) قُلْ وَلاَ تُخْطِي
فَإِنْ تُصِبْ هَذَا فَأَنْتَ امْـ رُؤٌ أَعْلَمُ مِنْ خَلِيلِ النَّحْوِي

شعره :

كان محمد بن يحيى شاعرا مطبوعا ، يمتاز شعره بجزالة اللفظ ، وقرب المأتى وعذوبة المعانى .

فقد روى أحد أدباء الأندلس ممن دخل العراق ، أنه لقى المعوج ببغداد فاستنشده لأهل الأندلس ، فأنشده قصيدة لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، وقصيدة أخرى له ، فلم يستحسن شيئا ، فأنشده لمحمد بن يحيى القلفاط :

يَا غَزَالاً عَنَّ لِى فَابْتَزَّ قَلْبِى ثُمَّ وَلَّى
أَنْتَ مِنِّى بِفُؤَادِى يَا مُنَى نَفْسِىَ أَوْلَى

حتى أتى على آخر الشعر ، فقال المعوج : هذا الشعر يختمه لا ما أنشدتنى آنفا .

٦- الأفشنيق (*) :

محمد بن موسى بن هاشم بن زيد ، مولى المنذر بن محمد بن عبدالرحمن أمير الأندلس .

علمه وثقافته :

رحل إلى بلاد المشرق ، فلقى أبا جعفر الدينورى بمصر ، وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته ، وأخذه عنه رواية ، كما أخذه عن المازنى ببغداد ، وأخذ كتاب ابن قتيبة عن إبراهيم بن جميل الأندلسى بمصر ، ورواها عنه وسمع مسند الفريابى من عمرو بن ثور بقيسارية .

آثاره :

خلف الأفشنيق كتبا نافعة فى الأدب واللغة منها :

١ – شواهد الحكم .

٢ – طبقات الكتاب .

(*) راجع فى ترجمة الأفشنيق : طبقات الزبيدى : ٢٨١ ، وابن الفرضى : ٣١/٢ ، وجذوة المقتبس : ٨٢، وإنباه الرواة : ٢١٦/٣ ، وبغية الوعاة : ٢٥٢/١ .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى وابن الفرضى : «كان متصرفا فى علم الأدب ، والخبر» .

وفاته :

توفى الأفشنيق فى شهر رجب سنة سبع وثلاثمائة .

٧ - ابن الأغبس (٠) :

أحمد بن بشر بن محمد بن إسماعيل التُّجيبى[١] ، المعروف بابن الأغبس .

ثقافته وعلمه :

سمع من العجلى ، والخشنى ، وابن وضاح ، وابن الغازى ، وطاهر بن عبدالعزيز .

لحق بأهل الشورى ، وكان يفتى فى مجلسه على مذهب الشافعى ، فإذا شهد مجلس الشورى قال بقول أصحابه .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان ابن الأغبس عالما بكتب القرآن ، وقد أتقن كل ما قاله فيه قائل ، من جهة التفسير ، والعربية ، كثير الرواية ، جيد الخط ، ضابطا للكتب ، وكان مائلا إلى الحديث» .

وقال ابن الفرضى : «كان متقدما فى معرفة لسان العرب ، والبصر بلغات القبائل ، متفردا فى ذلك ، مشاورا فى الأحكام ، يذهب فى فتاواه إلى مذهب الشافعى ، ويميل إلى النظر والحجة» .

---

(٠) انظر فى ترجمة ابن الأغبس : طبقات الزبيدى : ٢٨٢ ، وابن الفرضى : ١/٤٤ ، وإنباه الرواة : ١/٢٣ ، ومعجم الأدباء : ٢/٢٣٥ ، وبغية الوعاة : ١/٢٩٨ .

(١) التجيبى : نسبة إلى (تجيب) ، وهى قبيلة من كندة ، ولهم قرية بمصر سميت بهم . (معجم البلدان : ٢/٣٦٧) .

وفاته :

توفى ابن الأغبس سنة ست وعشرين وثلاثمائة .

٨ - ابن أرقم (*) :

محمد بن محمد بن أرقم . عمل مؤدبا لأمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر ، وكان أبوه يؤدب أبناء الخلفاء .

علمه ومكانته :

روى أن عبدالرحمن الناصر لما أمر باستنساخ شعر أبى تمام ، أحضر ابن أرقم ، وجماعة من الأدباء منهم موسى بن محمد الحاجب[١] ، والقلفاط ، وابن فرج المعروف بالبيسارى[٢] ، فشاورهم : أى القصائد يقدم فى صدر الكتاب ؟ فقال ابن أرقم : إنما يقدم الشعر لغرابته ، وحسن معناه ، وشعره الذى فيه (وصف القلم)[٣] لم يتقدمه عليه متقدم ، ولا لحقه فيه متأخر : فدفعوا جميعا عليه ،

(*) انظر فى ترجمة ابن أرقم : طبقات الزبيدى : ٢٨٢ ، وبغية الوعاة : ٢١٩/١ .

(١) أحد وزراء الخليفة عبدالرحمن الناصر وحجابه ، توفى سنة ٢١٩ هجرية .

(٢) من أهل العلم بالعربية ، وكان لا يناظر الحكيم ، والقلفاط من أهل هذا الزمان غيره .

(٣) هى قصيدة يمدح فيها أبو تمام محمد بن عبدالملك بن أبان المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم آنذاك ، وكان شاعرا مجيدا ، وله ديوان رسائل ، وقد ضمنها أبو تمام أبياتا فى وصف القلم ، رأينا لكثرة الإفادة إثباتها هنا :

لك القلم الأعلى الذى بشباته ... تصاب من الأمر الكُلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه ... وأرْىُ الجنى اشتارته أيد عواسل
له ريقة طل ، ولكن وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعت أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغرز الذهن الذكى وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنى ، وسمينا خطبه وهو ناحل

(انظر : ديوان أبى تمام : ٢٥٧) .

وقالوا : الوضيع يتعصب للوضيع[1] ، فأخجلوه .

فبينما هم كذلك ، إذ استؤذن لأبى عبدالله الغابى ، فأذن له ، فلما استوى فى المقعد ، سئل عما جرى من القول ، فقال :

أخبرنى أبو الحسن المفتى أن أهل بغداد لا يفضلون على شعر أبى تمام اللامى الذى ذكر فيه القلم شيئا ؛ فاستطال ابن أرقم على أصحابه ، فقال : مثلى مع هؤلاء ما قال حبيب[2] :

كِلَابٌ أَغَارَتْ فِى فَرِيسَةِ ضَيْغَمٍ ... طُرُوقًا ، وَهَامٌ أُطْعِمَتْ صَيْدَ أَجْدَلَا[3]

وإنما يغمنى أن أكون فى بلد يتحكم علىَّ فيه من لا يعرف ما أقول .

٩- زيد البارد (*) :

زيد بن الربيع بن سليمان الحجرى ، المعروف بالبارد .

علمه وثقافته :

أخذ عن عبدالله بن يحيى ، ورتب أبواب الأخفش ، وكانت مفرقة ، فاقتدى به الناس .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه صاحب (البلغة) : «لغوى أديب ، رتب أبواب كتاب الأخفش» .

---

(١) يقصدون بالوضيع الأول : أبا تمام ، لأن والده كان يعمل سقاءً ، ويقصدون بالوضيع الثانى : محمد بن عبدالملك بن أبان (الممدوح) ، لأن والده كان يجلب الزيت من بغداد ، ومن ثم كنى بابن الزيات .

(٢) طبقات الزبيدى : ٢٨٣ .

(٣) ديوان أبى تمام : ٢٥٤ .

(*) انظر فى ترجمة البارد : طبقات الزبيدى : ٢٨٤ ، وإنباه الرواة : ٢/ ١٥ ، والمقتبس : ٤٨ ، وبغية الوعاة : ١/ ٥٧٣ .

وقال الزبيدى : «كان له حظ من العربية واللغة ، وكان حسن الضبط للكتب متقنا لها ، وكان يقرض الشعر» .

وفاته :

توفى زيد فى شهر صفر سنة ثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

١٠ - الغافقى (*) :

أبو الوليد هشام بن الوليد بن محمد بن عبدالجبار . من أهل قرطبة .

علمه وثقافته :

أخذ عن بقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح .

عمل مؤدبا لعبدالرحمن الناصر ، كما أدب ولى عهده الحكم المستنصر بالله .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن الفرضى : «كان نحويا عروضيا ، والعروض أغلب عليه من النحو» .

وقال الزبيدى : «كان علم العروض أغلب عليه ، وكان قصير الباع فى العربية».

وفاته :

توفى الغافقى يوم السبت لإحدى عشرة خلت من ربيع الأول سنة سبع عشرة وثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

١١ ، ١٢ ثابت بن عبدالعزيز ، وولده قاسم (**) :

ثابت بن عبدالعزيز الأندلسى ، وولده قاسم .

(*) انظر فى ترجمة الغافقى : طبقات الزبيدى : ٢٨٤ ، وابن الفرضى : ٢/٢٧١ ، بغية الوعاة : ٢/٣٢٨ .

(**) انظر فى ترجمة ثابت وابنه : طبقات الزبيدى : ٢٨٤ ، إنباه الرواة : ١/٢٦٢، ابن الفرضى : ١/٨٨ ، الديباج المذهب : ١٠٢ ، بغية الوعاة : ٤٨٠ .

رحل ثابت بن عبدالعزيز مع ولده قاسم إلى بلاد المشرق ، فلقيا رجال الحديث ، ورجال اللغة ، وحصلا علما كثيرا ؛ وهما أول من أدخل كتاب (العين) للخليل بن أحمد إلى الأندلس .

وقد وهم ابن الفرضى ، فساق ترجمة لثابت بن حزم بن عبدالرحمن بن سليمان بن يحيى العوفى ، على أنها لثابت بن عبدالعزيز .

ولأن ابن حزم من سرقسطة ، فقد وهم الزبيدى ، وأدخل فى ترجمة ثابت بن عبدالعزيز لقب (السرقسطى) بدلا من الأندلسى ؛ كما وهم أيضا فترجم لثابت بن حزم ، نقلا أمينا عن ابن الفرضى ، على أنها ترجمة ثابت بن عبدالعزيز .

أخلاقهما :

قال عنهما الزبيدى : «كان ثابت وقاسم ولده من أهل الفضل والورع والعبادة» .

آثارهما :

ألف قاسم بن ثابت كتابا فى شرح الحديث سماه كتاب (الدلائل) ، ولكنه توفى قبل إكماله ، فأكمله أبوه ثابت .

كما جمعا كتابا فى (غريب الحديث) مما لم يذكر أبو عبيدة ، ولا ابن قتيبة .

أقوال العلماء فيهما :

قال عنهما الزبيدى : «كانا من أهل العلم بالعربية ، والحفظ للغة ، والتفنن فى ضروب العلم ، من علم الدين وغيره» .

وقال عن (كتاب الدلائل) : «... بلغ فيه الغاية من الإتقان ، والتجويد ، حتى حُسِد عليه ، وذكر الطاعنون أنه من تأليف غيره من أهل المشرق» .

وقال عنه أبو على القالى : «لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب ثابت فى شرح الحديث ، وقد طالعت كتبا ألفت فى الأندلس ، ورأيت كتاب الخشنى فى شرح الحديث ، فطالعته ، فما رأيته صنع شيئا ، وكذلك كتاب عبدالملك بن حبيب».

وقال أيضا : «أخذت كتاب (الدلائل) على ولد قاسم ، إعجابا منى بالكتاب ، وما كان ولده أهلا للأخذ عنه» .

١٣ - المنذر بن عبدالرحمن (*) :

أبو الحكم المنذر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن المنذر بن الإمام عبدالرحمن بن معاوية – الداخل – ويعرف بالمذاكرة ، لأنه كان إذا لقى رجلا من إخوته قال : هل لك فى مذاكرة باب من النحو ؟ فلهج بهذه الكلمة ، وأكثر منها حتى نبذ بها .

أخلاقه :

كان أبو الحكم متصاونا ، نزيها ، حسن السمت ، وكان قريب المكان من الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة ، كثير اللزوم له ، والتكرار عليه ، إذ كان ممن نشأ معه ، وجمعه التأدب به .

علمه ومكانته :

حكى محمد بن عبد الرحمن بن زياد قال : «استأذن أبو الحكم على أحمد ابن أبى عبدة فى بعض الأيام وأنا عنده ، وقد غص المجلس بعلية القوم وأعلامهم، من مواصل ، وطالب حاجة ، فأذن له ، وأوسع له فى مقعده ، ومال إليه بوجهه ، وأقبل على محادثته ؛ وكان أحمد قد دعا بسيفه ، للركوب إلى القصر ، فوضع بين يديه .

(*) انظر فى ترجمة المنذر : طبقات الزبيدى : ٢٨٥ .

فلما انقضى ما بينهما من الحديث ، مد أحمد بن محمد بن أبى عبدة يده إلى السيف فأقله ، وأقبل على أبى الحكم ، فقال له علانية . يا سيدى ، إن سميت هذا السيف من أعلاه إلى أسفله بما سمته العرب فهو لك .

فمد أبو الحكم يده إلى السيف ، فأخذه ، والحياء باد على وجهه ، ثم وضع يده اليمنى على قائمه ، فذكر ما فيه مما سمته العرب به ، وانتقل إلى التسمية إلى جميع ما فيه ، حتى وصل إلى ذلك بأسفله : ثم لفه بحمائله ، ووضعه بين يدى أحمد بن محمد بن أبى عبدة : فعجب جميع من شهد المجلس من سعة علمه ، وصحة حفظه ، وحضور ذهنه ، وأمر ابن أبى عبدة الخادم بين يديه أن يخرج بالسيف إلى غلام أبى الحكم ، ويدفعه إليه ، فاستعفاه أبو الحكم ، فأقسم ابن أبى عبدة أن لابد من ذلك ، وأمر بإحضار سيف آخر فركب به» .

وحكى أن المنذر بن عبدالرحمن سأل محمد بن مبشر الوزير فى بعض مجالسه : كيف أمر المرأة بالنون الثقيلة من : غزا - يغزو ؟ فأجال ابن مبشر بها فكره ، فلم يتجه له جوابها ، فقال له : يا أبا الحكم ، ما رأيت أشنع من مسألتك ! الله يأمرها أن تقر فى بيتها ، وأنت تريد أن تأمرها بالغزو ؟!

شعره :

كان أبو الحكم ممن يقرض الشعر ، ولكنه كان أشبه بشعر المناسبات ، فمن ذلك ما هجا به محمد بن عبدالجبار :

لَئِنْ كَرُمَتْ عُرُوقُكَ مِنْ قُرَيْشٍ ... لَقَدْ خَبُثَتْ فُرُوعُكَ مِنْ نِزَارِ
فَنِصْفُكَ كَامِلٌ مِنْ كُلِّ مَجْدٍ ... وَنِصْفُكَ كَامِلٌ مِنْ كُلِّ عَارِ

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان له القدر النبيل ، والحظ الموفور فى العربية ، وعلم الآداب .

١٤ - ابن حجاج (*) :

أبو عمرو قاسم بن محمد بن حجاج بن حبيب بن عمير ، من حاضرة إشبيلية .

علمه ومكانته :

سمع من يزيد بن طلحة ، ومحمد بن عبدالله بن الغازى ، وغيرهما من العلماء .

روى ابنه محمد بن قاسم قال : «حدثنى أبى قال : كنت كثير المنازعة لأبى محمد الأعرابى العامرى أيام وروده علينا ، وكان قليل الالتفات إلى أهل العلم بالعربية ، مظهرا للغنى عنهم ؛ فقال لى يوما : يا أبا عمرو ، تقول للمرأة : أنت تودين كذا ، فكيف تقول للنسوة ؟ فقد اختلط علىَّ ذلك بسبب دخولى أمصاركم ، ومخالطتى لكم ! فقلت فى نفسى : الحمدلله ، الذى أحوجه إلىّ ، ثم قلت : يا أبا محمد ، فى ذلك لغات للعرب ، تقول للنسوة : أنتن تَوْدَدْنَ ، وتَادَدْنَ ، وتِيدَدْن ، كل ذلك تقول العرب» .

وكان أبو عمرو مستعملا للغريب فى كلامه ، شديد التقعر فى لفظه ، فقد روى أنه دخل يوما على عمه إبراهيم بن حجاج ، فقال له : ما الذى حبسك عنا ، وبطأ بك عن مجلسنا ؟ فقال له : أصلحك الله ، أوجعنى ظنبوبى ، قال : وما الظنبوب ؟ قال : مقدم عظم الساق ؛ وكان بين يدى إبراهيم طبق فيه سفرجل جليل ، فأمر من حضر من الخدمة أن يبطحوه على ظهره ، وقال : تناولوا هذا السفرجل ، فأوجعوا به ظنبوبه» .

★ ★ ★

(*) انظر فى ترجمة ابن حجاج : طبقات الزبيدى : ٢٨٧ ، إنباه الرواة : ٢٩/٣ ، ابن الفرضى : ٤٠٥/١ ، التكملة : ٣٦٣ ، بغية الوعاة : ٢٦٢/٢ .

الطبقة السادسة

١ - منذر بن سعيد (*) :

أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطى .

ثقافته ومكانته :

رحل إلى بلاد المشرق ، ولقى جماعة من علماء اللغة والفقه ، وطلب كتاب (الإشراف فى اختلاف العلماء) أخذه رواية عن مؤلفه محمد بن المنذر ، وكتاب (العين) رواية عن أبى العباس بن ولاد بمصر .

ولى قضاء الجماعة بقرطبة ، ولبث قاضيا إلى أن توفى ، فما حفظ له جور فى قضية ، ولا هوادة بسبب غاية .

أخلاقه :

كان أبو الحكم ذا منظر جميل ، وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب ، وانحطاط إليهم ، وإقبال عليهم ، وكانت فيه دعابة حسنة .

مذهبه الفقهى :

كان منذر بن سعيد يتفقه بفقه داود الأصبهانى [1] ، ويؤثر مذهبه – مذهب أهل الظاهر – ويحتج لمقالته ، وكان جامعا لكتبه ، فإذا جلس مجلس الحكم ، قضى بمذهب مالك وأصحابه .

آثاره :

صنف منذر بن سعيد كتبا فى علوم القرآن ، والفقه ، والرد على أهل المذاهب منها :

(*) انظر فى ترجمة منذر : طبقات الزبيدى : ٢٩٥ ، وإنباه الرواة : ٣/٣٢٥ ، والروض المعطار ١٤٠ ، وبغية الوعاة : ٢/٣٠١ .

(١) أبو سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى ، أخذ العلم عن إسحق بن راهويه ، وهو أول من ابتدع مذهب أهل الظاهر ، توفى سنة ٢٧٠ هـ . (وفيات الأعيان : ١/١٧٥) .

١ – أحكام القرآن .

٢ – الناسخ والمنسوخ .

كما خلف العديد من الخطب البليغة ، والرسائل البينة ، والأشعار المطبوعة .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الزبيدى : «كان ذا علم بالقرآن ، حافظا لما قالت العلماء فى تفسيره ، وأحكامه ، ووجوهه ، وحلاله وحرامه ، كثير القراءة له ، حاضر الشاهد بآياته ، له فيه كتب مفيدة .

وكان ذا علم بالجدل ، حاذقا فيه ، شديد العارضة ، حاضر الجواب ، ثابت الحجة ؛ وكان أخطب أهل زمانه غير مدافع ، مع ثبات جنان ، وجهارة صوت ، وحسن ترسل» .

شعره :

كان أبو الحكم حاضر البديهة ، يرسل الشعر ارتجالا ، وشاهد ذلك القصيدة التى ألقاها ارتجالا بين يدى الخليفة الناصر لدين الله عند دخول رسول طاغية الروم عليه ، والمجلس محتفل بأهل الخدمة ، وهم قيام على أقدامهم ، ذاكرا فيها حق الخلافة ، وفرض الطاعة ، حيث قال :

مَقَالٌ كَحَدِّ السَّيْفِ وَسْطَ الْمَحَافِلِ ... فَرَقْتَ بِهِ مَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلِ
بِقَلْبٍ ذَكِيٍّ تَرْتَمِي جَنَبَاتُهُ ... كَبَارِقِ رَعْدٍ غَيْرِ رَعْشِ الأَنَامِلِ
لِخَيْرِ إِمَامٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... لِمُقْتَبَلٍ أَوْ فِي الْعُصُورِ الأَوَائِلِ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا يَؤُمُّونَ فَضْلَهُ ... وَكُلُّهُمْ مَا بَيْنَ رَاضٍ وَآمِلِ
وُفُودُ مُلُوكِ الرُّومِ وَسْطَ فِنَائِهِ ... مَخَافَةَ بَأْسٍ أَوْ رَجَاءً لِنَائِلِ
فَعِشْ سَالِمًا أَقْصَى حَيَاةِ مُعَمَّرٍ ... فَأَنْتَ غِيَاثُ كُلِّ حَافٍ وَنَاعِلِ
سَتَمْلِكُهَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... إِلَى أَرْضِ قُسْطَنْطِينَ أَوْ دَرْبِ بَابِلِ

ومن شعره أيضا :

هَذَا الْمَقَالُ الَّذِى مَا عَابَهُ فَنَدٌ لَكِنْ قَائِلَهُ أَزْرَى بِهِ الْبَلَدُ

لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ غَرِيبًا كُنْتُ مُطَّرَحًا لَكِنَّنِى مِنْهُمُ فَاغْتَالَنِى النَّكَدُ

لَوْلاَ الْخِلاَفَةُ أَبْقَى اللَّهُ بَهْجَتَهَا مَا كُنْتُ أَبْقَى بِأَرْضٍ مَا بِهَا أَحَدُ

وفاته :

توفى أبو الحكم منذر بن سعيد يوم الخميس لأربع خلون من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وثلاثمائة . وقد بلغ سنه سبعا وأربعين سنة .

٢ - يوسف البلوطى (*) :

أبو عمر يوسف بن محمد بن يوسف بن سعيد بن سعد بن سراج بن طريف من أهل قرطبة .

علمه ومكانته :

أخذ عن طاهر بن عبدالعزيز ، وقاسم بن أصبغ ، وأحمد بن بشر بن الأغبس .

كان حافظا للغة ، وذا حظ فى العربية ، وأدب عند الحديريين ، وكان يقرأ عليه كتاب الأدب ، وكتاب يعقوب فى إصلاح المنطق ، ونحو ذلك من كتب اللغة .

وفاته :

توفى أبو عمر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

٣ - أحمد بن محمد الأعرج (**) :

أبو عمر أحمد بن محمد بن هاشم بن خلف بن عمرو بن سعيد بن عثمان بن سليمان بن الغازى القيسى .

(*) انظر فى ترجمة يوسف البلوطى : طبقات الزبيدى : ٢٩٨ ، وابن الفرضى : ٢/٢٠٤ ، وبغية الوعاة : ٢/٣٦١ .

(**) انظر فى ترجمة الأعرج : طبقات الزبيدى : ٢٩٩ ، وابن الفرضى : ١/٥٥ ، وبغية الوعاة : ١/٣٨٥ .

علمه ومكانته :

سمع الحديث ، ورواه عن محمد بن عمر بن لُبابة ، والقاضى أسلم بن عبدالعزيز ، وأحمد بن خالد ، وغيرهم ، ثم مال إلى النحو ، فغلب عليه ، وأدب به .

وقيل : إنه طلب النحو ليستعين به على علم الحديث والفقه ، فأدركه بعض الاختلاف عند اتخاذه العيال ، فجعل التأديب عونا على ما لزم من مؤونتهم إلى أن توفى .

أخلاقه :

كان أبو عمر مهيبا فى تأديبه ، وكان لا يجترئ أحد ممن تأدب عنده أن يظهر غير الجد ، وكان يلقب بالقاضى لوقاره .

وفاته :

توفى أبو عمر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة .

٤ - أحمد بن يوسف (*) :

أبو عمر أحمد بن يوسف بن حجاج بن عمير بن حبيب بن عمير . من أهل إشبيلية .

علمه ومكانته :

قال الزبيدى : «كان من أعلم الناس بالنحو ، وأحفظهم لمسائله ، وكان كتاب سيبويه بين يديه ، لا ينى عن مطالعته ، فى حال فراغه وشغله ، وصحته وسقمه ، وكان من أحذق الناس بعلم العروض ، وأحفظهم له ، وكان شاعرا مجودا ، وكان له حظ من علم الموسيقى ، وبسبب ذلك يصغى إلى الملاهى .

(*) انظر فى ترجمة أحمد بن يوسف : طبقات الزبيدى : ٢٩٩ ، وابن الفرضى : ٤٦/١ ، وبغية الوعاة : ٤٠١/١ .

وفاته :

توفى أحمد بن يوسف سنة ست وثلاثين وثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

٥ - المعافرى (*) :

أبو إسحق إبراهيم بن عبيدالله الزبيدى ، المعروف بالمعافرى . من أهل إشبيلية .

علمه وثقافته :

أخذ الحديث عن أحمد بن خالد ، وابن فطيس الألبيرى ، ونظرائهما ، وكتب الفقه عن أحمد بن بشر بن الأغبس .

رحل عن حاضرة إشبيلية إلى بادية له قريبة منها ، فسكنها إلى أن توفى .

أخلاقه :

كان أبو إسحق بذ الهيئة ، مقترا فى عيشه ، مع وُجْد وسعة عيش .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه السيوطى : «كان ذا دراية بالحديث ، ومعرفة بكتب اللغة ، حافظا لها ، وكان شاعرا مجودا مطبوعا ، ثم صعب عليه القول فى آخر عمره ، فرحل إلى البادية .

وفاته :

توفى أبو إسحق سنة اثنتين وستين وثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

٦ - محمد بن يحيى الرباحى (**) :

أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبدالسلام الأزدى . أصله من جيان كان ينتمى إلى يزيد بن المهلب بن أبى صفرة[1] .

(*) انظر فى ترجمة المعافرى : طبقات الزبيدى : ٣٠٧ ، وابن الفرضى : ١/٢٣٦ ، وبغية الوعاة :

(**) انظر فى ترجمة الرباحى : طبقات الزبيدى : ٣١٠ ، إنباه الرواة : ٣/٢٢٩ ، ابن الفرضى : ٢/٧١، بغية الوعاة : ١/٢٦٢ .

(١) يزيد بن المهلب : ولى خراسان بعد موت أبيه سنة ٨٣، وقتله مسلمة بن عبدالله سنة ١٠٢ .

نزل جده الداخل أبو العوجاء منطقة من جيان ، عرفت بفحص أبى العوجاء ، ثم انتقل أبوه أو جده إلى قلعة رباح[1] ، فسكنها ، ونسب إليها .

ثقافته ومكانته :

رحل إلى بلاد المشرق ، فلقى أبا جعفر النحاس بمصر ، فحمل عنه كتاب سيبويه رواية ، ولازم علأن وناظره ، كما أخذ عن ابن الأعرابى ، وابن ولاد .

ثم عاد إلى قرطبة ، فلزم التأديب بها فى داره ، فانجفل الناس عليه ، ثم انتقل إلى أحد الحديريين ، فمكث عنده مدة ، وقرئ عليه كتاب سيبويه ، وأخذ عنه رواية ، وعقد للمناظرة فيه مجلسا فى كل جمعة ، وكان يعرف بالقلفاط أيضا .

استأدبه الخليفة الناصر لدين الله لولده المغيرة ، ثم صار بعد ذلك إلى خدمة الخليفة المستنصر بالله فى مقابلة الدواوين ، والنظر فيها ، وتوسع له فى النزل والجراية ، ولم يزل أثيرا لديه ، ولدى طبقات الملوك . معظما مبجلا حتى توفى على أجمل طريقة ، وأحمد مذهب .

أخلاقه :

كان محمد بن يحيى ذا وقار ، وسمت ، وصيانة ، ونزاهة نفس ، وكرم خليقة ، وصحة نية ، وسلامة باطن ، إلى عفاف ، وحياء ، ودين .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه ابن الفرضى : «كان علمه الغالب عليه ، علم العربية ، وكان فقيها ، إماما كبيرا ، لا يقصر عن أكابر أصحاب المبرد ، جيد النظر ، دقيق الاستنباط ، حاذقا بالقياس ، صادقا ، صالحا ، ذكيا ، شاعرا ، مشهورا .

وقال عنه الزبيدى : «كان حاذقا بعلم العربية ، دقيق النظر فيها ، لطيف المسلك فى معانيها ، غاية فى الإبداع والاستنباط : ولم يكن ظاهره ينبئ عن كثير علم ، فإذا نوقش ونوظر ، لم يصطل بناره ، ولم يشق أحد له غباره .

---

(١) قلعة رباح : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة .

وكان قد طالع كتب العلم ، وأهل الكلام ، وتفنن فيها ، ونظر فى المنطقيات ، فأحكمها ، إلا أنه لا يتقلد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يعول أصلا من أصولهم ، إنما يعول على ما يميل إليه فى الموقف ، ويؤثره فى الحضرة ، ولو أنه تناول الباطل البحت ، والمحال المحض ، لما استطاع صرفه عنه ، ولا قطع حجته فيه .

وربما ناظر أهل الفقه على مذهب الاحتجاج والتعليل ، وأهل الطب والتنجيم فى دقائق معانيهم ، ولطائف مسائلهم ، مناظرة من عنى الدهر الطويل بعلمهم ، وشغل نفسه بمدارسة كتبهم ، فيقطعهم ، ويستشرف عليهم ؛ وذلك للطف حسه ، وصحة خاطره ، وحذقه بإعمال القياس على أصله .

وكان قليل المعاناة لدراسة الكتب ، ومطالعة المسائل ، إنما دأبه الغوص على دقيقة يستخرجها ، ولطيفة يثيرها ، وقياس يمده ، وأصل يفرعه ؛ فربما اختل فى حفظه ، وأدرك فى سواد كتابه» .

وقال أيضا : «لم يكن عند مؤدبى العربية ، ولا عند غيرهم من عنى بالنحو كبير علم ، حتى ورد محمد بن يحيى عليهم : وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى إمالة ، ولا إدغام ، ولا تصريف ، ولا أبنية ، ولا يجيبون فى شىء منها ، حتى نهج لهم سبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن فى الشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده ، وإنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة» .

شعره :

كان لمحمد بن يحيى من قرض الشعر حظ صالح ، وكان سريع الاستخراج للمعمى ، جيد الفطنة فيه ، ولكن أغلبه من شعر المناسبات ؛ كما كان يميل فى

شعره إلى الألغاز والأحاجى ، وقد حوى طبقات الزبيدى كثيرًا من شعره لمن يريد الرجوع إليه ، ومنه :

خَلِيلَيَّ مِنْ فَرْعَيْ زُبَيْدِ بْنِ مِذْحَجٍ قِفَا وَاسْمَعَا قَدْ يُسْعِدُ الشَّجَنُ الشَّجِى
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّى أَرِقْتُ وَشَاقَنِى خَيَالٌ سَرَى وَهْنًا وَلَمَّا يَعْرُجِ

ومنه أيضا :

طَوَى عَنِّى مَوَدَّتَهُ غَزَالٌ طَوَى قَلْبِى عَلَى الأَحْزَانِ طَيَّا
إِذَا مَا قُلْتُ : يَسْلُوهُ فُؤَادِى تَجَدَّدَ حُبُّهُ فَازْدَادَ غَيَّا
أُحَيِّيهِ وَأَفْدِيهِ بِنَفْسِى وَذَاكَ الوَجْهُ أَهْلٌ أَنْ يُحَيَّا

وفاته :

توفى محمد بن يحيى الرباحى فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة – عليه رحمة الله – .

هذا ، وقد ضربنا صفحا عن ذكر بعض الشخصيات الأندلسية ممن لم يكن لهم دور بارز فى إثراء الدراسات النحوية فى الأندلس ، ولم يتركوا بصمات واضحة على جبين الحياة العلمية والفكرية فيها ، بل لم يتعد دورهم كونهم كانوا مؤدبين يقومون بالتدريس فى منازلهم ، أو فى بعض المدارس أو المساجد ، ومن يريد الاستزادة وكثرة الإفادة فليرجع إليهم فى :

طبقات النحويين واللغويين	لأبى بكر الزبيدى
تاريخ علماء الأندلس	لابن الفرضى
المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس	لابن حيان
معجم الأدباء	لياقوت الحموى
إنباه الرواة بأنباء النحاة	للقفطى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب	للمقرى

وغير ذلك من كتب التراجم المشهورة .

خاتمة

بعون الله - تعالى - وتوفيقه ، تمت مراجعة بروفات كتاب (النحو العربى - نشأته ، تطوره ، مدارسه ، رجاله) بعد أن مثُل للطبع بمطبعة دار غريب للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ، بعناية صاحبها الأخ الكريم الأستاذ المفضال **هانى غريب** ، وإشراف الأخ الفاضل الأستاذ **محمد راضى** .

وذلك فى تمام الساعة الثانية صباحا من ليلة القدر المباركة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ألف وأربعمائة واثنتين وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة . الموافق الثانى عشر من شهر ديسمبر ألفين وواحد من الميلاد المجيد .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

دكتور

صلاح روّاى

(أ) فهرس المترجمين (*)

(*) مرتب ترتيبا أبجديا ، مع عدم الاعتداد بلواصق الاسم ، مثل : أداة التعريف ولفظة : أب أو أم أو ابن .

(ب) فهرس المصادر والمراجع

الواردة بهوامش الكتاب

١ – الأخبار الطوال . لأبى حنيفة الدينورى . تحقيق عبدالمنعم عامر . مكتبة المثنى بغداد .

٢ – أخبار النحويين . لعبد الواحد بن عمر أبى هاشم – تحقيق د/ محمد إبراهيم البنا – دار الأعتصام بمصر .

٣ – أخبار النحويين البصريين . للسيرافى تحقيق د/ محمد إبراهيم البنا – دار الأعتصام بمصر .

٤ – أساس البلاغة . للزمخشرى . طبعة دار الكتب بمصر ١٩٧٢ .

٥ – أستدراك الغلط الواقع فى كتاب (العين) . لأبى بكر الزبيدى . مطبعة الحلبى بمصر .

٦ – الأستيعاب فى معرفة الأصحاب . لابن عبدالبر – تحقيق محمد البجاوى – مطبعة نهضة مصر .

٧ – أسد الغابة فى معرفة الصحابة . لابن الأثير – دار الشعب بمصر ١٩٧٠ .

٨ – أسرار العربية . لابن الأنبارى . تحقيق محمد بهجة البيطار – دمشق ١٩٥٧ .

٩ – الأشباه والنظائر . للسيوطى . تحقيق طه عبدالرءوف . شركة الطباعة الفنية بمصر ١٩٧٥ .

١٠ – الإصابة فى تميز الصحابة . لابن حجر العسقلانى . مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ .

١١ – إصلاح المنطق . لابن السكيت . دار المعارف بمصر ١٩٤٩ .

١٢ – الأصمعيات . تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون – دار المعارف بمصر .

١٣ – الأعلام . لخير الدين الزركلى . مطبعة كوستا ١٩٥٤ .

١٤ – أعيان البيان . للسندوبى . مطبعة الحلبى بمصر .

١٥ – أعيان الشيعة . للسيد محسن الأمين . بيروت ١٩٦١ .

١٦ – أعيان العصر وأعوان العصر . لصلاح الدين الصفدى . مطبعة الحلبى بمصر .

١٧ – الأغانى . لأبى الفرج الأصفهانى . مطبعة دار الكتب ١٣٢٣ هـ .

١٨ – الإغراب في جدل الإعراب . لابن الأنبارى . تحقيق سعيد الأفغانى – دار الفكر بيروت ١٩٧١ .
١٩ – الاقتراح فى أصول النحو . للسيوطى . تحقيق أحمد محمد قاسم – مطبعة السعادة بمصر ١٩٧٦ .
٢٠ – الإكمال . لابن ماكولا . المطبعة البهية بمصر .
٢١ – الأمالى . لأبى على القالى . مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ .
٢٢ – الأمالى الشجرية . لابن الشجرى . تحقيق د/ محمود محمد الطناحى . مكتبة الخانجى بمصر ١٩٩٢ .
٢٣ – أمالى المرتضى . الشريف المرتضى الأستراباذى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة الحلبى ١٩٥٤ .
٢٤ – الإمتاع والمؤانسة . لأبى حيان التوحيدى . لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٥٣ .
٢٥ – الأمثال . لأبى عبيد القاسم بن سلام . تحقيق د/ عبدالمجيد قطاش . دار المأمون بدمشق ١٤٠٠ هـ .
٢٦ – الأنساب . للسمعانى . طبعة ليدن ١٩١٢ .
٢٧ – إنباه الرواة بأنباه النحاة . للقفطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٦٩ هـ .
٢٨ – الإنصاف فى مسائل الخلاف . لابن الأنبارى – مطبعة السعادة بمصر ١٩٦١ .
٢٩ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . لابن هشام – تحقيق محمد محيى الدين عبدالمحميد . دار الجيل ١٩٧٩ .
٣٠ – الإيضاح فى شرح المفصل . لابن الحاجب . تحقيق د/ موسى بناى العليلى – بغداد ١٩٨٢ .
٣١ – البداية والنهاية . لابن كثير – مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ هـ .
٣٢ – البحر المحيط . لأبى حيان الأندلسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ .
٣٣ – البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للشوكانى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٨ هـ .

٣٤ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة . للسيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة الحلبى .

٣٥ – البلدان . لابن الفقيه . مطبعة الحلبى بمصر .

٣٦ – البلغة فى تاريخ أئمة اللغة . للفيروزابادى . تحقيق محمد المصرى . دمشق ١٩٧٢ .

٣٧ – البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون – لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٠ .

٣٨ – تاج العروس من جواهر القاموس . السيد مرتضى الزبيدى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .

٣٩ – تاج اللغة وصحاح العربية . للجوهرى . تحقيق أحمد عبدالغفور عطار – بيروت ١٩٧٩ .

٤٠ – تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر لويس شيخو . دار صادر بيروت .

٤١ – تاريخ آداب اللغة العربية . لجورجى زيدان . طبعة دار الهلال بمصر ١٩٥٧ .

٤٢ – تاريخ ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ هـ .

٤٣ – تاريخ الأدب العربى . لبروكلمان . ترجمة عبدالحليم النجار – دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

٤٤ – تاريخ أصبهان . لأبى نعيم الأصبهانى . مطبعة بريل – ليدن ١٩٣١ .

٤٥ – تاريخ بغداد . للخطيب البغدادى . مطبعة الخانجى بالقاهرة ١٣٤٩ هـ .

٤٦ – تاريخ الجبرتى . لعبد الرحمن الجبرتى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر .

٤٧ – تاريخ الطبرى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

٤٨ – تاريخ علماء الأندلس . لابن الفرضى . طبعة مدريد ١٨٩٠ .

٤٩ –تاريخ اللغة العربية فى مصر . للدكتور أحمد مختار عمر . نشر وزارة الثقافة بمصر .

٥٠ – تاريخ النحو . لعلى النجدى ناصف . دار المعارف بمصر ١٩٧٨ .

٥١ – تاريخ اليعقوبى . لأحمد بن أبى يعقوب . مطبعة الحلبى بمصر .

٥٢ - تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب . للأعلم الشنتمرى . بها من الكتاب - المطبعة الأميرية بمصر ١٣١٦ هـ .
٥٣ - التحفة البهية في تراجم الحنفية . للسيوطى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٢هـ .
٥٤ - تذكرة الحفاظ . للذهبى . دار المعارف - حيدر آباد ١٣٣٣ هـ .
٥٥ - التذكرة الفخرية . للأربلى . تحقيق د/ نورى حمود القيسى وآخر - بغداد ١٩٨٤ .
٥٦ - التصريح بمضمون التوضيح . لخالد الأزهرى . مطبعة الحلبى بمصر .
٥٧ - تهذيب الأسماء واللغات للنووى مطبعة منير الدمشقى بمصر ١٣٤٤ هـ .
٥٨ - تلخيص ابن مكتوم . مطبعة الحلبى بمصر .
٥٩ - تهذيب اللغة . للأزهرى . مؤسسة التأليف والأنباء والنشر بمصر ١٩٦٤ .
٦٠ - تهذيب التهذيب . لابن حجر العسقلانى . مطبعة المعارف - حيدر آباد ١٣٢٥ هـ .
٦١ - التيمورية . لأحمد تيمور باشا . دار الكتب المصرية ١٩٤٨ .
٦٢ - جذوة المقتبس . للحميدى . تحقيق محمد بن تلويت . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١هـ .
٦٣ - جمهرة أشعار العرب . لأبى زيد القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ .
٦٤- جمهرة أنساب العرب . لابن حزم - تحقيق عبدالسلام هارون - دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
٦٥ - ابن جنى النحوى . للدكتور فاضل صالح السامرانى . مطبعة دار النذير ببغداد ١٩٦٩ .
٦٦ - الجواهر المضية فى طبقات الحنفية . لأبى الوفا القرشى . دار المعارف - حيدر آباد ١٣٣٢ هـ .
٦٧-حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى . للشهاب الخفاجى . مطبعة الحلبى بمصر .
٦٨ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة . للسيوطى . المطبعة الشرقية بمصر ١٣٢٧هـ .
٦٩ - الحيوان . للجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون - مطبعة الحلبى بمصر ١٣٥٧ هـ .
٧٠ - أبو حيان النحوى . للدكتورة خديجة الحديثى . مطبعة دار التضامن ببغداد ١٩٦٦ .
٧١ - خريدة القصر وجريدة العصر . للعماد الأصفهانى . تحقيق محمد بهجة الأثرى - بغداد ١٩٧٦ .

٧٢ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . للبغدادى . تحقيق عبدالسلام هارون – الخانجى بمصر ١٩٨٩ .
٧٣ – الخصائص . لابن جنى . تحقيق محمد على النجار – دار الكتب بمصر ١٩٥٢ .
٧٤ – الخطط التوفيقية . لعلى باشا مبارك . طبعة دار الشعب بمصر ١٢٠٦ هـ .
٧٥ – خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . للمحبى . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤ هـ .
٧٦ – دائرة المعارف الإسلامية . مطبعة القاهرة ١٩٣٣ .
٧٧ – دراسات فى المعاجم العربية . للدكتور أمين فاخر . مطبعة حسان بالقاهرة ١٩٨٤ .
٧٨ – الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلانى . حيدآباد ١٣٤٨ هـ .
٧٩ – دمية القصر وجريدة العصر . للباخرزى . الطبعة العلمية بحلب ١٩٣٠ .
٨٠ – الديباج المذهب فى علماء المذهب . لابن فرحون . مصر ١٣٥١ هـ .
٨١ – ديوان أبى الأسود الدؤلى . تحقيق محمد حسن آل ياسين . بغداد ١٩٥٤ .
٨٢ – ديوان أبى نواس . المطبعة العمومية بمصر ١٨٩٨ .
٨٣ – ديوان الأعشى . المطبعة النموذجية بمصر .
٨٤ – ديوان أمية بن أبى الصلت . تحقيق بهجة عبدالغفور الحديثى – بغداد ١٩٧٥ .
٨٥ – ديوان جرير . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٣ هـ .
٨٦ – ديوان حسان بن ثابت . دار صادر بيروت .
٨٧ – ديوان الحطيئة . مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٣ هـ .
٨٨ – ديوان ذى الرمة . طبعة كمبروج ١٩١٩ .
٨٩ – ديوان رؤبة بن العجاج . طبعة ليبسك ١٩٠٢ .
٩٠ – ديوان الزمخشرى . مخطوط بدار الكتب المصرية فى ١٩ لوحة .
٩١ – ديوان الشريف الرضى . دار صادر بيروت ١٩٦١ .
٩٢ – ديوان عامر بن الطفيل . دار صادر بيروت ١٩٧٩ .
٩٣ – ديوان العجاج بن رؤبة . تحقيق د/ عزة حسن – دار الشرق ببيروت ١٩٧١ .
٩٤ – ديوان عدى بن الرقاع . تحقيق د/ نورى حمود القيسى وآخر – بغداد ١٩٨٧ .
٩٥ – ديوان العرجى . تحقيق خضر الطائى ورشيد العبيدى – بغداد ١٩٥٦ .

٩٦ – ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ هـ .
٩٧ – ديوان كعب بن مالك . تحقيق سامى مكى العانى – بغداد ١٦٦ .
٩٨ – ديوان لبيد . تحقيق د/ إحسان عباس – الكويت ١٩٦٢ .
٩٩ – ديوان المتلمس . تحقيق حسن كامل الصيرفى – نشر معهد المخطوطات بمصر .
١٠٠ – ديوان المتنبى . بشرح العكبرى – مطبعة الحلبى بمصر ١٣٥٥ هـ .
١٠١ – ديوان النابغة الذبيانى . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٣ هـ .
١٠٢ – ديوان الهذليين . طبعة در الكتب بمصر .
١٠٣ – رسالة الغفران . لأبى العلاء المعرى – تحقيق د/ عائشة عبدالرحمن – دار المعارف بمصر ١٩٥٠ .
١٠٤ – رسالة فى المذهب البغدادى . د/ إبراهيم نجا الأبيارى – جامعة الأزهر ١٩٤٤ .
١٠٥ – روضات الجنات . للخوانسارى (محمد باقر الموسوى) طهران ١٣٠٤ .
١٠٦ – الروض الأنف . للسهيلى . المطبعة الجمالية بمصر .
١٠٧ – الروض المعطار . لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٧٣ .
١٠٨ – سيبويه إمام النحاة . لعلى النجدى ناصف . مطبعة نهضة مصر .
١٠٩ – سير أعلام النبلاء . للذهبى . تحقيق جملة من العلماء . مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨١ .
١١٠ – شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك . بحاشية الصبان – مطبعة الحلبى بمصر .
١١١ – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد – مصر ١٩٦٧ .
١١٢ – شرح شافية ابن الحاجب . للرضى الاستراباذى . تحقيق محمد نور الحسن وآخرين – مطبعة حجازى بمصر .
١١٣ – شرح شواهد الكشاف . لمحب الدين أفندى . مطبعة الحلبى بمصر ١٩٦٦ .
١١٤ – شرح شواهد المغنى . للسيوطى . مطبعة محمد مصطفى بمصر ١٣٣٢ هـ .
١١٥ – شرح كافية ابن الحاجب . للرضى الاستراباذى . تحقيق يوسف حسن عمر – بيروت ١٩٧٣ .

١١٦ – شرح اللمة البدرية . لابن هشام . تحقيق د/صلاح رواى – دار الثقافة العربية بمصر .
١١٧ – شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف . للعسكرى . تحقيق عبدالعزيز أحمد – الحلبى بمصر .
١١٨ – شرح المفصل لابن يعيش – المطبعة المنيرية بمصر .
١١٩ – شرح مقامات الحريرى . للشريشى . طبعة بولاق بمصر ١٣٠٠ هـ .
١٢٠ – شذرات الذهب فى خبر من ذهب . لابن العماد الحنبلى . نشرة القدسى بمصر ١٣٥٠ هـ .
١٢١ – شواذ القراءات . لابن خالويه . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٤ .
١٢٢ – الصاحبى . لابن فارس القزوينى . تحقيق السيد صقر – الحلبى بمصر .
١٢٣ – صحيح البخارى . لمحمد بن إسماعيل البخارى . طبقة دار الشعب بمصر .
١٢٤ – صحيح مسلم . لمسلم بن الحجاج . طبعة دار الكتب بمصر .
١٢٥ – الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . للسخاوى . نشرة القدسى ١٣٥٣ هـ .
١٢٦ – طبقات ابن خياط . لخليفة بن خياط – تحقيق أكرم العمرى – مطبعة العانى بغداد ١٩٦٧ .
١٢٧ – طبقات ابن قاضى شهبة . طبعة الظاهرية بدمشق ، والنعمان بالنجف الأشرف .
١٢٨ – طبقات الشافعية . للسبكى . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٤ هـ .
١٢٩ – طبقات فحول الشعراء . لابن سلام الجمحى . تحقيق محمود شاكر – دار المعرف بمصر ١٩٥٢ .
١٣٠ – طبقات القراء . لابن الجزرى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٥٢ هـ .
١٣١ – الطبقات الكبرى . لابن سعد . دار صادر – بيروت ١٩٦٨ .
١٣٢ – الطبقات الكبير . لابن حجر العسقلانى . مطبعة الحلبى بمصر .
١٣٣ – طبقات المفسرين . للداودى تحقيق على محمد عمر – مصر ١٩٧٢ .
١٣٤ – طبقات النحويين واللغويين . لأبى بكر الزبيدى . مطبعة الحلبى بمصر .
١٣٥ – العبر فى خبر من غبر . للذهبى – تحقيق صلاح المنجد الكويت ١٩٦٠ .
١٣٦ – العربية . ليوهان فك . ترجمة د/ عبدالحليم النجار – مكتبة الخانجى بمصر ١٩٥١ .

١٣٧ - عصر إسماعيل . لعبد الرحمن الرحمن الرافعي . طبعة دار الكتب بمصر .
١٣٨ - العقد الفريد . لابن عبد ربه . تحقيق محمد سعيد العريان - دار الفكر بيروت .
١٣٩ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب . لابن عقبة . النجف الأشرف ١٩٦١ .
١٤٠ - العمدة في صناعة الشعر ومحاسنه ونقده . لابن رشيق . دار الجيل بيروت ١٩٧٢ .
١٤١ - عيون الأخبار . لابن قتيبة . دار الكتب بمصر ١٩٣٠ .
١٤٢ - غاية النهاية . لابن الجزري . مكتبة الخانجي بمصر ١٩٣٢ .
١٤٣ - الغرة المخفية في شرح الدرة الألفية لابن الخباز .
١٤٤ - الفائق . للزمخشري . تحقيق البجاوي وأبو الفضل - الحلبي بمصر .
١٤٥ - فتوح البلدان . للبلاذري . تحقيق محمد الطباع - بيروت ١٩٥٧ .
١٤٦ - الفخري في الآداب السلطانية . لابن الطقطقي . مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٠ .
١٤٧ - الفرق بين الفرق . للبغدادي - مطبعة المعارف بمصر ١٣٢٨ هـ .
١٤٨ - فقه اللغة . للدكتور صلاح روّاي . مطبعة دار الهاني بمصر ١٩٩٣ .
١٤٩ - الفلاكة والمفلوكون . للدلجي . النحف الأشرف ١٣٨٥ هـ .
١٥٠ - الفهرست . لابن النديم . دار المعرفة - بيروت .
١٥١ - فهرسة ابن خير . لابن خير الإشبيلي - طبعة مدريد ١٨٨٢ .
١٥٢ - فوات الوفيات . للكتبي - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . مطبعة السعادة ١٩٥١ .
١٥٣ - في اللغة والأدب . للدكتور إبراهيم مدكور . دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .
١٥٤ - القاموس المحيط . للفيروزابادي . المطبعة المصرية ١٩٣٣ .
١٥٥ - الكامل . لابن الأثير . الطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٨ هـ .
١٥٦ - الكامل في اللغة والأدب . للمبرد . مطبعة نهضة مصر ١٣٤٦ هـ .
١٥٧ - الكتاب . لسيبويه - تحقيق عبدالسلام هارون . دار القلم بمصر ١٩٨٥ .
١٥٨ - كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون . لحاجي خليفة . طبعة استانبول ١٣٦٠ هـ .
١٥٩ - الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة . للغزي . تحقيق جبرائيل جبور . بيروت ١٩٥٨ .
١٦٠ - اللباب من الأنساب لابن الأثير . نشرة القدسي ١٣٥٨ هـ .
١٦١ - لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة . د/ عبدالعزيز مطر . مصر ١٩٦٦ .

١٦٢ – لسان العرب . لابن منظور . طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ .
١٦٣ – لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني . حيدرآباد ١٣٣٠ هـ .
١٦٤ – اللمع في العربية . لابن جني . تحقيق د/ حسين محمد شرف عالم الكتب بمصر ١٩٧٩ .
١٦٥ – لمع الأدلة . لابن الأنباري . تحقيق سعيد الأفغاني – دار الفكر بيروت ١٩٧١ .
١٦٦ – مجالس العلماء . للزجاجي . تحقيق عبدالسلام هارون – الكويت ١٩٦٢ .
١٦٧ – مجمع الأمثال . للميداني . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . مصر ١٩٥٩ .
١٦٨ – محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني . المطبعة الشرقية ١٣٢٦ هـ .
١٦٩ – المحتسب في القراءات الشاذة وتوجيهها . لابن جني . تحقيق على النجدي ناصف وآخر . مصر ١٩٦٦ .
١٧٠ – المحرر الوجيز في النحو . لفخر الدين الرازي . مطبعة الحلبي بمصر .
١٧١ – المحكم في نقط المصاحف . لأبي عمرو الداني . تحقيق عزة حسن – دمشق ١٩٦٠ .
١٧٢ – مداخل المؤلفين والأعلام العرب . ناصر محمد السويدان وآخر . الرياض ١٩٨٠ .
١٧٣ – المدارس المعجمية العربية . د/ صلاح روّاى . دار الثقافة العربية بمصر .
١٧٤ – المدارس النحوية . د/ شوقي ضيف . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
١٧٥ – مدرسة البصرة النحوية . د/ عبدالرحمن السيد . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
١٧٦ – مدرسة الكوفة النحوية . د/ مهدى المخزومي . مطبعة الحلبي بمصر ١٩٥٨ .
١٧٧ – المذاهب النحوية . د/ مصطفى السنجرجي – المكتبة الفصلية بمكة المكرمة .
١٧٨ – مراتب النحويين . لأبي الطيب اللغوى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – نهضة مصر ١٩٥٠ .
١٧٩ – المرادى وكتابه (توضيح مقاصد الألفية) . د/ على عبود الساهر . جامعة بغداد ١٩٨٤ .
١٨٠ – مرآة الجنان وعبرة اليقظان . لليافعي – حيدر آباد بالهند ١٣٣٨ هـ .
١٨١ – المزهر في علوم اللغة . للسيوطي . تحقيق محمد البجاوى وأبو الفضل إبراهيم – الحلبي بمصر .
١٨٢ – المستشرقون . لنجيب العقيقي . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

١٨٣ – المستفاد من ذيل تاريخ بغداد . لابن النجار . تحقيق قيصر أبو فرح – المعارف العثمانية بالهند ١٩٨٨ .
١٨٤ – المصباح المنير . للفيومى . تحقيق مصطفى السقا – مصر ١٣٤٢ هـ .
١٨٥ – المعارف . لابن قتيبة . تحقيق د/ ثروت عكاشة – طبعة دار الكتب بمصر .
١٨٦ – معانى القرآن . للفراء . تحقيق أحمد يوسف نجاتى وآخرين – دار الكتب بمصر ١٩٨٠ .
١٨٧ – معجم الأدباء . لياقوت الحموى . نشر دار المأمون والحلبى بمصر ١٣٥٥ هـ .
١٨٨ – معجم البلدان . لياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
١٨٩ – معجم اللغة الفارسية . لحسن هنداوى . دار الجيل – بيروت .
١٩٠ – معجم اللغة الفارسية . لحسن عميد . دار المعرفة – بيروت .
١٩١ – معجم ما استعجم . للبكرى . تحقيق مصطفى السقا – لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٣٦٤ هـ .
١٩٢ – معجم المطبوعات العربية والمعربة . لسركيس . مكتبة يوسف إليان سركيس بالقاهرة ١٩٢٨ .
١٩٣ – معجم مقاييس اللغة . لابن فارس القزوينى . تحقيق عبدالسلام هارون – الحلبى بمصر .
١٩٤ – معجم المؤلفين . لعمر رضا كحالة . المكتبة العربية بدمشق ١٩٥٧ .
١٩٥ – المغرب فى حلى أهل المغرب . لعلى بن سعيد – تحقيق د/ شوقى ضيف – دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .
١٩٦ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . ابن هشام . بحاشية الأمير – الحلبى بمصر .
١٩٧ – المفضليات . للمفضل الضبى . تحقيق أ. حمد شاكر وعبدالسلام هارون – الحلبى ١٣٦١ هـ .
١٩٨ – المقتبس . لابن حيان . تحقيق د/ محمود على مكى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .
١٩٩ – المقتضب . للمبرد . تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .
٢٠٠ – مقدمة ابن خلدون . طبعة دار الكتب بمصر ١٩٢٨ .

٢٠١ – المقرب . لابن عصفور . تحقيق أحمد عبدالستار الجوارى وآخر – بغداد ١٩٧١ .
٢٠٢ – المنتظم . لابن الجوزى – حيدرآباد ١٣٥٧ هـ .
٢٠٣ – المنصف (شرح تصريف المازنى) . لابن جنى . تحقيق إبراهيم مصطفى وآخر – الحلب بمصر ١٩٥٤ .
٢٠٤ – الموازنة بين الشعراء . لحمزة الأصفهانى . مطبعة الحلبى بمصر .
٢٠٥ – الموشح . للمرزبانى . تحقيق محمد على البجاوى وآخر . مصر ١٩٦٥ .
٢٠٦ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . لابن تغرى بردى . دار الكتب بمصر ١٩٢٩ .
٢٠٧ – نزهة الألباء فى أخبار الأدباء . لابن الأنبارى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . نهضة مصر .
٢٠٨ – نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة . لمحمد الطنطاوى . دار المعارف بمصر .
٢٠٩ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . للمقرى . تحقيق د/ إحسان عباس – صادر بيروت .
٢١٠ – نكت الهميان فى نكت العميان . للصفدى – تحقيق أحمد زكى باشا – مطبعة مصر ١٩١٠ .
٢١١ – النهاية فى غريب الحديث والأثر . لابن الأثير . تحقيق محمود الطناحى – الحلبى ١٩٦٣ .
٢١٢ – نهج البلاغة . جمع الشريف الرضى . شرح ابن أبى الحديد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الحلبى ١٩٥٩ .
٢١٣ – هدية العارفين . لإسماعيل البغدادى . وكالة المعارف باستانبول ١٩٥١ .
٢١٤ – همع الهوامع شرح جمع الجوامع . للسيوطى . تحقيق عبدالسلام هارون عبدالعال مكرم الكويت .
٢١٥ – الوافى بالوفيات . لصلاح الدين الصفدى . دار صادر بيروت .
٢١٦ – وفيات الأعيان . لابن خلكان . تحقيق د/ إحسان عباس . دار الثقافة – بيروت .
٢١٧ – يونس بن حبيب وجهوده اللغوية . د/حسين نصار – نشر وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٨ .

(جـ) فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب السادس
مدرسة بغداد
(٤٤١ - ٥٧٣)

الباب السابع
مدرسة مصر
(٥٧٧ - ٦٦٧)

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

١١١ - ١١٩
١٣١ - ١٣٤
١٦١ - ١٨٠
١٩٥ - ٢٩٩
٣٨٩ - ٣٩١
٣٩٧ - ٤٠٤

